صُوَرٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ

تأليف
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



دار النفائس

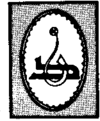
صور من حياة الصحابة

تأليف

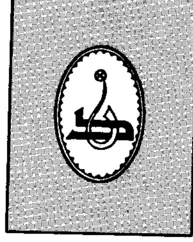
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

دار النفائس

جَمِيعُ الحُقوقِ مَحفُوظَة


دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



صور من حياة الصحابة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ صَحَابَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ أَشَدَّ الحُبِّ وأَعْمَقَه؛ فَهَبْنِي يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ لِأَيٍّ منهم، فإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي ما أَحْبَبْتُهُمْ إِلَّا فيك، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين.

صور من حياة الصحابة

سَعيدُ بنُ عَامِرٍ الجُمَحِيُّ

« سعيد بن عامر رجل اشترى الآخرة بالدنيا وآثر اللّه ورسوله على سواهما »

[المؤرخون]

كان الفَتَىٰ سعيدُ بنُ عامِرٍ الجُمَحِيُّ ، واحِداً من الآلافِ المؤلَّفَةِ ، الذين خَرَجوا إلى مِنْطَقَة التَّنْعيمِ في ظاهِرِ مكَّةَ بِدَعْوةٍ من زُعماءِ قُريشٍ ، لِيَشْهدوا مَصْرَعَ خُبَيْبِ بنِ عَدِيٍّ أحدِ أصحابِ محمدٍ بعد أنْ ظفِروا به غَدْراً .

وقد مكَّنه شبابُه المَوْفورُ وفُتُوَّتُه المُتَدَفِّقَةُ مِنْ أنْ يزاحِمَ الناسَ بالمناكِبِ ، حتَّى حاذَىٰ شُيوخَ قريشٍ من أمثالِ أبي سفيانَ بنِ حربٍ ، وصفوانَ بنِ أمَيَّةَ ، وغيرِهما مِمَّن يَتَصَدَّرون المَوْكِبَ .

وقد أتاح له ذلك أنْ يرىٰ أسيرَ قريشٍ مكبَّلاً بقيودِه ، وأكُفُّ النساءِ والصِّبيانِ والشُّبانِ تدفَعُهُ إلىٰ ساحَةِ الموتِ دَفعاً ، لِيَنْتَقِموا من محمدٍ في شَخْصِه ، ولِيَثْأروا لِقَتْلاهم في بَدْرٍ بِقَتْلِهِ .

ولما وصلتْ هذه الجموعُ الحاشِدَةُ بأسيرِها إلىٰ المكانِ المعدِّ لِقَتْلِه ، وقفَ الفَتَىٰ سعيدُ بنُ عامرٍ الجمحِيُّ بقامَتِه المَمْدُودةِ يُطِلُّ على خُبَيْبٍ ، وهو يُقدَّمُ إلىٰ خشبةِ الصَّلْبِ ، وسمعَ صوتَه الثَّابِتَ الهادِىءَ مِن خِلالِ صِياحِ النِّسوَةِ والصبيانِ وهو يقول :

إنْ شِئْتُمْ أنْ تترُكوني أرْكَعُ رَكْعَتَين قبلَ مَصْرَعي فافعلوا . . . .

ثُمَّ نظرَ إليه ، وهو يَسْتَقْبِلُ الكَعْبَـةَ ، ويصَلِّي رَكْعتينِ ، يا لَحُسْنِهمـا ويا لَتَمامِهِما . . . .

ثم رآه يُقبِلُ علىٰ زعماءِ القوم ويقول :

واللّٰهِ لولا أنْ تَظُنُّوا أنِّي أطَلْتُ الصَّلَاة جَزَعاً من الموت ؛ لاسْتَكْثَرْتُ من الصَّلاةِ . . .

ثم شَهِدَ قَوْمَهُ بعينَيْ رأسِه وهم يمثِّلون[1] بخُبَيْبٍ حيّاً ، فيقطعون من جَسَدِه القِطْعَةَ تِلْوَ[2] القِطْعةِ وهم يقولون له :

أَتحبُّ أن يكونَ محمدٌ مكانَك وأنت ناجٍ ؟ .

فيقولُ ـ والدماء تَنْزِفُ منه ـ :

واللّٰهِ ما أُحبُّ أنْ أكونَ آمناً وادِعاً في أَهْلي وَوَلَدِي ، وأَنَّ محمداً يوخَزُ بشَوْكَةٍ . .

فيلوِّح الناسُ بأيْدِيهم في الفضاءِ، وَيَتَعالىٰ صِياحُهم: أَنِ اقتُلوه . . اقتلوه . . .

ثم أَبْصَرَ سعيدُ بنُ عامرٍ خُبَيْباً يرفَعُ بصَرَه إلى السماءِ من فوْقِ خشبةِ الصَّلْبِ ويقول : اللّٰهُمَّ أَحْصِهم عدداً واقتُلْهُم بَدَداً ولا تُغادِرُ منهم أحداً .

ثم لفظ أَنْفاسَه الأخيرَةَ ، وبه ما لَمْ يَسْتَطِعْ إِحْصَاءَه مِنْ ضَرَباتِ السيوفِ وطَعَناتِ الرِّماح .

* * *

عـادتْ قريشٌ إلىٰ مكَّـةَ ، ونَسِيَتْ في زَحْمَةِ الأحْـداثِ الجِسَـامِ خُبَيْبـاً ومَصْرَعَه .

---

(١) التمثيل بالميتِ : تقطيع أجزاء من بدنه .

(٢) تلو القطعة : بعد القطعة .

لـكِنَّ الفَتَىٰ اليافِعَ[1] سعيدَ بنُ عامِرٍ الجُمَحِيَّ لم يَغِبْ خُبَيْبٌ عن خاطِرِه لحظةً.

كان يراه في حُلمِه إذا نامَ ، ويراه بخَيالِهِ وهو مُسْتَيْقِظٌ ، ويَمْثُلُ أمامَه وهو يصلِّي رَكْعَتيهِ الهادِئَتين المُطْمَئِنَّتين أمامَ خَشَبَةَ الصَّلْبِ ، وَيَسْمَعُ رنينَ صَوْتِه في أذنيه وهو يدعو علىٰ قريشٍ ، فيخشىٰ أَنْ تصْعقَه صاعِقَةٌ أو تَخِرَّ عليه صَخْرَةٌ من السماءِ.

ثم إنَّ خُبَيْباً عَلَّمَ سعيداً ما لم يَكُنْ يَعْلَمُ مِن قَبْلُ . . . .

علَّمَه أَنَّ الحياةَ الحقَّةَ عقيدةٌ وجِهادٌ في سبيلِ العقيدةِ حتَّىٰ الموت.

وعلَّمه أيضاً أنَّ الإيمانَ الراسِخَ يَفْعَلُ الأعاجيبَ ، وَيَصْنَعُ المُعْجِزاتِ.

وعلَّمه أمراً آخرَ ، هو أنَّ الرجلَ الذي يحبُّه أَصْحَابُه كلَّ هذا الحبَّ إنَّما هو نبيٌّ مُؤَيَّدٌ من السماء.

عند ذلك شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ سعيدِ بنِ عامِرٍ إلىٰ الإسلامِ ، فقام في مَلأٍ[2] من الناس ، وأعلنَ براءَتَه من آثام قريشٍ وأَوْزارِها ، وَخَلْعَه لِأَصْنامِها وأَوْثانِها ودخولَه في دِينِ اللَّهِ.

* * *

هاجَرَ سعيدُ بنُ عامرٍ إلىٰ المدينةِ ، ولَزِمَ رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ، وشَهِدَ معه خَيْبَرَ وما بَعْدَها من الغَزَواتِ.

ولَمَّا انْتَقَلَ النبيُّ الكريمُ إلىٰ جوارِ رَبِّه وهو راضٍ عنه ، ظَلَّ مِنْ بَعْدِه سَيْفاً مَسْلولاً في أيدي خليفَتَيه أبي بكرٍ وعمرَ ، عاشَ مَثَلاً فريداً فَذّاً للمؤمِن الذي اشْتَرَى الآخِرَةَ بالدنيا ، وآثَرَ مَرْضاةَ اللَّهِ وثوابَه على سائِرِ رَغَباتِ النفسِ وشَهَواتِ الجَسَدِ.

* * *

(١) اليافع : الذي قارب البلوغَ .

(٢) ملأ من الناس : جموعٍ من النَّاسِ .

وكـان خليفَتا رسـولِ اللَّهِ ﷺ يَعْرفـان لسعيدِ بنِ عـامِرٍ صِـدْقَه وتَقْـواه ، وَيَسْتَمِعانِ إلىٰ نُصْحِه ، ويُصيخان إلىٰ قولِه.

دخل على عمرَ بنِ الخطابِ في أوَّلِ خلافَتِه فقال : يا عمرُ ، أوصيك أنْ تَخْشَىٰ اللَّهَ في النَّاس ، ولا تخشَ الناسَ في اللَّهِ ، وألا يخالِفَ قولُك فِعلَك ، فإنَّ خيرَ القولِ ما صَدَّقه الفِعْلُ . . .

يا عمر : أَقِمْ وَجْهَك[1] لمن وَلَّاكَ اللَّهُ أمرَه من بعيدِ المسلمين وقريبِهم ، وأَحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لِنَفْسِك وأَهْلِ بيتِك ، واكْرَهْ لهم ما تَكْـرَه لنفْسِك وأهـلِ بيتِك ، وخُضِ الغَمَراتِ إلىٰ الحقِّ ولا تَخَفْ في اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ .

فقال عمرُ : ومَن يستطيعُ ذلك يا سعيد ؟!

فقال : يستطيعُه رجلٌ مثلُك مِمَّن ولَّاهُمُ اللَّهُ أَمرَ أُمَّةِ محمدٍ ، وليس بَيْنَه وبَيْن اللَّهِ أحَدٌ.

* * *

عند ذلك دعا عمرُ بنُ الخطابِ سعيداً إلىٰ مُؤازَرَتِه وقال :

يا سعيدُ إنَّا مُوَلُّوكَ على أهل « حِمْصَ » .

فقال : يا عمرُ نَشَدْتُكَ اللَّهَ ألَّا تَفْتِنَني[2] ، فغَضِبَ عمرُ وقال :

وَيْحَكُمْ وَضَعْتُمْ هذا الأَمْرَ[3] في عُنُقي ثم تَخَلَّيْتُمْ عنِّي !!. واللَّهِ لا أَدَعُكَ .

ثم ولَّاهُ علىٰ « حِمْصَ » وقال : ألا نفْرِض لك رِزْقاً ؟

قال : وما أَفْعَلُ به يا أميرَ المؤمنين ؟! فإنَّ عطائي مِنْ بيتِ المالِ يَزيدُ عن حاجَتي ، ثم مضَى إلىٰ « حمص ».

---

(1) أقم وجهك لفلانٍ : أدِمِ النظر في أمْره .

(2) تفتنني : تُضِلَّني وتستميلني إلى الدنيا .

(3) الأمر : المراد به هنا الخلافة .

وما هو إلَّا قليلٌ حتَّىٰ وَفَدَ علىٰ أميرِ المؤمنين بعضُ مَنْ يَثِقُ بهم من أَهْل « حِمْصَ » ، فقال لهم :

اكتُبوا لي أسماءَ فُقَرائِكُم حتَّىٰ أَسُدَّ حاجَتَهم .

فَرَفعوا كتاباً فإذا فيه : فلانٌ وفلانٌ وسعيدُ بنُ عامرٍ .

فقال : ومَنْ سعيدُ بنُ عامرٍ ؟!

فقالوا : أميرُنا .

قال : أميرُكم فقيرٌ ؟!

قالوا : نعم ، وواللَّه إنَّه لَتَمُرُّ عليـه الأيـامُ الطِّوالُ ولا يوقَدُ في بيتِهِ نارٌ.

فَبَكَىٰ عمرُ حتَّى بلَّلَتْ دموعُه لِحْيَتَه ، ثم عَمَدَ إلىٰ أَلفِ دينارٍ فَجَعَلَها في صُرَّةٍ وقال :

اِقرؤوا عليه السَّلامَ مِنِّي ، وقولوا له : بعث إليك أميرُ المؤمنين بِهذا المالِ لتستعينَ به علىٰ قضاءِ حاجاتِك .

* * *

جاء الوَفْدُ لسعيدٍ بالصُّرةِ فَنَظَرَ إليها فإذا هي دنانيرُ ، فَجَعَلَ يُبْعِدُها عنه وهو يقول :

إنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجِعون ـ كأنما نَزَلَتْ به نازِلةٌ أو حلَّ بساحَتِهِ خَطْبٌ ـ فهبَّت زوجتُه مذْعُورةً وقالت :

ما شأنُك يا سعيدُ ؟! أمات أميرُ المؤمنين ؟!

قال : بَلْ أعْظَمُ من ذلك ،

قالت : أأُصيبَ المسلمون في وقْعَةٍ ؟!

قال : بل أَعظم من ذلك .

قالت : وما أعظمُ من ذلك ؟!

قال : دَخَلَتْ عليَّ الدنيا لِتُفْسِدَ آخرتي ، وحلَّت الفِتْنَةُ في بيتي .
قالت : تخلَّص منها ـ وهي لا تَدْري من أَمْر الدنانير شيئاً ـ
قال : أَوَتُعينينَني علىٰ ذلك ؟
قالت : نعم .
فأخذ الدنانيرَ فَجَعَلها في صُرَرٍ ثم وزّعها علىٰ فقراءِ المسلمين .

* * *

لم يمضِ على ذلك طويلُ وَقْتٍ حتَّى أَتَىٰ عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللَّهُ عنه ديارَ الشامِ يتفقَّد أحوالَها فلمّا نزل بِحِمصَ ـ وكانت تُدْعَى « الكُوَيْفَة » وهو تصغيرٌ للكوفة وتشبيهٌ لحمصَ بها لكثرة شَكْوَىٰ أَهْلِها من عمَّالهم ووُلاتِهم كما كان يَفْعَلُ أَهْلُ الكوفة ـ فلما نزلَ بها لَقِيَه أَهلُها للسلامِ عليه فقال :

كيف وجدتم أميرَكم ؟

فشكوه إليه وذكروا أربعاً من أفعاله ، كلُّ واحِدٍ منها أعظمُ من الآخرِ .

قال عمر : فجمعتُ بينَه وبينَهم ، ودعَوْتُ اللَّهَ ألاَّ يُخيِّبَ ظني فيه ؛ فقد كنتُ عظيمَ الثِّقَةِ به .

فلما أصْبَحوا عِنْدي هم وأميرُهم ، قلت :
ما تَشْكون من أميرِكم ؟
قالوا : لا يَخْرُجُ إلينا حتَّى يتعالَى النهارُ .
فقلت : وما تقولُ في ذلك يا سعيد ؟ فسكتَ قليلاً ، ثم قال :
واللَّهِ إنِّي كنتُ أَكْرَهُ أنْ أقول ذلك ، أمَّا وإنَّه لا بُدَّ منه ، فإنه ليسَ لأهلي خادِمٌ ، فأَقومُ في كلِّ صباحٍ فأعجِنُ لهم عجينَهم ، ثم أتريَّثُ قليلاً حتَّىٰ يَخْتَمِرَ ، ثم أخبِزُه لهم ، ثم أتوضأُ وأخرجُ للناس .

قال عمر : فقلت لهم : وما تَشْكون منه أيضاً ؟
قالوا : إنه لا يجيبُ أحداً بِلَيْلٍ .
قلت : وما تقول في ذلك يا سعيدُ ؟
قال :إني واللّهِ كنتُ أكْرَه أنْ أُعْلِنَ هذا أيضاً. فأنا قد جعلتُ النهارَ لَهُمْ واللَّيلَ للّهِ عزَّ وجلَّ.

قلت : وما تَشْكون منه أيضاً ؟
قالوا : إنه لا يخرج إلينا يوماً في الشَّهْرِ .
قلت : وما هذا يا سعيد ؟

قال : ليس لي خادمٌ يا أميرُ المؤمنين ، وليس عِنْدي ثِيابٌ غيرُ التي عليَّ ، فأنا أَغْسِلُها في الشَّهْرِ مَرَّةً وأنتَظِرُها حتى تَجِفَّ ، ثم أخرج إليهم في آخرِ النهارِ.

ثم قلت : وما تشكون منه أيضاً ؟
قالوا : تُصيبُه من حينٍ إلىٰ آخرَ غَشْيَةٌ فيغيبُ عَمَّنْ في مَجْلِسِه .
فقلت : وما هذا يا سعيدُ ؟!
فقال : شهدْتُ مصرعَ خُبَيْبِ بنِ عَدِيٍّ وأنا مُشْرِكٌ ، ورأيتُ قريشاً تُقَطِّعُ جَسَدَهُ وهي تقول :

أتُحِبُّ أن يكونَ مُحمدٌ مكانَك ؟

فيقول : واللّهِ ما أحبُّ أن أكونَ آمناً في أهلي وولدي ، وأنَّ محمداً تَشُوكُه شَوْكَةٌ . . . . وإني واللّهِ ما ذكرتُ ذلك اليومَ وكيفَ أنِّي تركتُ نُصْرَتَهُ إلَّا ظَنَنْتُ أنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ لي . . . . وأصابتني تلك الغَشْيَةُ .

عندَ ذلك قال عمر :
الحمدِ للّهِ الذي لم يخيِّب ظني به .

ثم بعث له بألفِ دينارٍ ليستعينَ بها على حاجتِه . فلما رأتها زوجتُه قالت له :

الحمدُ للَّه الذي أغنانا عن خِدْمَتِك ، إِشْترِ لنا مؤنَةً واستأجِرْ لنا خادِماً .

فقال لها : وهل لَكِ فيما هو خيرٌ من ذلك ؟

قالت : وما ذاك ؟!

قال : ندفعُها إلىٰ من يأتينا بها ، ونحن أحوَجُ ما نكونُ إليها .

قالت : وما ذاك ؟!

قال : نُقْرِضها اللَّهَ قرضاً حسناً .

قالت : نعم ، وجُزيت خيراً .

فما غادر مجلِسهُ الذي هو فيه حتَّىٰ جَعَلَ الدنانيرَ في صُرَرٍ ، وقال لواحدٍ من أهْلِه :

انطلق بها إلىٰ أرمَلَةِ فلانٍ ، وإلىٰ أيتام فلانٍ ، وإلىٰ مساكين آلِ فلانٍ ، وإلىٰ مُعْوِزي آلِ فلانٍ .

* * *

رضي اللَّهُ عَنْ سعيدِ بنِ عامِرٍ الجُمَحِيِّ فقد كان من الذين يُؤثِرون[1] على أنْفُسِهم ولو كانتْ بهم خَصاصةٌ[2](*) .

---

(١) يؤثرون : يفضلون .

(٢) الخصاصة : شِدَّة الفقر .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن عامر الجمحي انظر :

١ ـ تهذيب التهذيب : ٤/٥١ .

٢ ـ ابن عساكر : ٦/١٤٥ ـ ١٤٧ .

٣ ـ صفة الصفوة : ١/٢٧٣ .

٤ ـ حلية الأولياء : ١/٢٤٤ .

٥ ـ تاريخ الإسلام : ٢/٣٥ .

٦ ـ الإصابة : ٣/٣٢٦ .

٧ ـ نسب قريش : ٣٩٩ .

الطُّفَيلُ بنُ عَمرٍو الدَّوسِيُّ

(اللهُمَّ اجْعَل لَهُ آيَةً تُعينُهُ عَلَى مَا يَنْوي مِنَ الخَيْرِ)

[من دعاء الرسول له]

الطُّفَيْل بنُ عمرٍو الدوسيُّ سيدُ قبيلةِ دَوْسٍ في الجاهليـةِ ، وشريفُ من أشرافِ العربِ المَرْموقين ، وواحِدٌ من أصحابِ المروءاتِ المَعْدودين . . .

لا تَنْزِلُ له قِدْرٌ عن نار ، ولا يوصَد له بابٌ أمامَ طارق . . .

يُطْعِمُ الجائِعَ ، وَيُؤَمِّنُ الخائِفَ ، ويُجِيرُ المُسْتَجِيرَ .

وهو إلىٰ ذلك أديبٌ أريبٌ[1] لبيبٌ ، وشاعِرٌ مُرْهفُ الحِسِّ ،رقيقُ الشعورِ بصيرٌ بحُلْو البَيانِ ومُرِّه . . . حيث تَفْعَلُ فيه الكلمةُ فعلَ السِّحْر .

* * *

غادر الطفيلُ منازِلَ قومِه في تهامة[2] متوجِّهاً إلى مَكَّة ، ورَحَى الصِّراعِ دائرةٌ بينَ الرسولِ الكريمِ صلواتُ اللَّهِ عليه وكفارِ قريشٍ ، كلٌّ يريدُ أن يكسب لِنَفْسِهِ الأنصارَ ، ويجتذِب لِحزبِهِ الأَعْوانَ . . . فالرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُـه عليه يدعو لرَبِّه وسلاحُه الإيمانُ والحق ، وكفارُ قريشٍ يقاومون دَعْوَتَه بِكُلِّ سِلاحٍ ، ويَصُدّون الناسَ عنه بِكُلِّ وسيلة .

---

(١) أريب لبيب : ذكي فطن .

(٢) تهامة : السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر .

ووجد الطفيلُ نَفْسَه يَدْخُل في هذه المعْركةِ على غير أُهْبَةٍ[1] ، ويخوضُ غِمَارَها عن غير قَصْدٍ . . .

فهو لم يقدَمْ إلى مكةَ لهذا الغرضِ ، ولا خَطَرَ له أمرُ محمدٍ وقُرَيشٍ قبلَ ذلك على بال .

ومن هنا كانت للطفيلِ بنِ عمرٍو الدوسيِّ مع هـذا الصراعِ حِكَـايةٌ لا تُنْسَىٰ ؛ فلْنَسْتَمِعْ إليها ، فإنها من غرائِبِ القِصص . حدَّث الطفيلُ قال :

قدمتُ مكةَ ، فما إنْ رآني سادةُ قريشٍ حتَّى أقبلوا عليَّ فرحَّبوا بي أكْرَمَ ترحيبٍ ، وأنزلوني فيهم أعزَّ منزل .

ثم اجتمعَ إليَّ سادَتُهم وكُبراؤهم وقالـوا : يا طفيـلُ ، إنَّك قَـدْ قَدِمْتَ بلادَنا ، وهذا الرجُل الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ قد أَفْسَدَ أَمْرَنا ومزَّقَ شَمْلَنَا ، وشتَّتَ جماعَتنا ، ونحن إنَّما نخشَىٰ أَنْ يحلَّ بكَ وبِزَعامَتِكَ في قومِكَ ما قد حَلَّ بنا ، فلا تُكَلِّم الرجلَ ، ولا تسمَعَنَّ منه شيئاً ؛ فإنَّ له قولاً كالسِّحْرِ ، يفرِّق بينَ الوَلَدِ وأبيه ، وبينَ الأخِ وأخيه ، وبين الزوْجَةِ وزوجِها .

قـال الطفيـل : فواللَّهِ مـا زالـوا بي يقصُّـون عليَّ من غـرائبِ أخْبـارِه ، ويخوِّفونني على نفسي وقومي بعجائبِ أفعالِه ، حتَّىٰ أجْمَعْتُ[2] أمري على ألَّا أقتربَ منه ، وألَّا أُكَلِّمَهُ أو أسمَعَ منه شيئاً .

ولما غَدَوْتُ إلىٰ المسجدِ للطوافِ بالكَعْبَةِ ، والتبرُّك بأصنامِها التي كُنَّا إليها نَحُجُّ وإياها نعظم ، حَشَوْت في أُذنَيَّ قطْناً خَوْفاً من أَنْ يلامِسَ سَمْعي شيٌّ من قولِ محمَّد .

لكِنِّي ما إنْ دخلتُ المسجدَ حتَّىٰ وَجَدْتُه قائماً يُصَلِّي عندَ الكعبةِ صلاةً غيرَ

---

(١) على غير أهبة : على غير استعدادٍ .

(٢) أجمعت أمري : عزمت وصمَّمْت .

صلاتِنا ، ويَتعبَّدُ عِبادَةً غيرَ عبادتِنا ، فأسَرني مَنْظَرُه ، وهزَّتني عِبادَتُه ، وَوَجَدْتُ نَفْسي أدنو منه ، شيئاً فشيئاً علىٰ غير قَصْدٍ مني حَتَّىٰ أصْبَحْتُ قريباً منه . . .

وأَبىٰ اللَّهُ إلَّا أن يَصِلَ إلىٰ سمعي بعضٌ مِمَّا يقول ، فسمعتُ كلاماً حَسَناً ، وقلتُ في نفسي :

ثَكِلَتْكَ أُمُّك[1] يا طُفيلُ . . . إنك لَرَجُلٌ لبيبٌ شاعِرٌ ، وما يَخْفَىٰ عليك الحَسنُ من القبيحِ ، فما يَمنَعُك أَنْ تَسْمَعَ من الرجلِ ما يقولُ . . . فإن كان الذي يأتي به حسناً قَبِلْتَه ، وإن كان قبيحاً تَركتَه . قال الطفيل :

ثم مَكثْتُ حتَّىٰ انصَرَفَ رسولُ اللَّه ﷺ إلىٰ بيتِهِ ، فتبعتُه حتَّىٰ إذا دخلَ دارَه دخلتُ عليه ، فقلت : يا محمَّد ، إنَّ قومَك قد قالوا لي عنك كذا كذا وكذا ، فواللَّه ما بَرِحوا يخوِّفونني من أمرِك حتَّى سَدَدْتُ أُذُنيَّ بقُطنٍ لِئَلَّا أسمَعَ قولَك ، ثم أَبىٰ اللَّهُ إلَّا أن يُسْمعني شيئاً منه ، فوجدته حسناً فاعْرِضْ عليَّ أمرَك .

فَعَرَض عليَّ أمره ، وقرأ لي سورة الإخْلاصِ والفَلَقِ ، فواللَّهِ ما سَمِعْتُ قولاً أَحْسَنَ مِن قَوْلِه ، ولا رأَيْتُ أَمْراً أعْدَلَ مِن أَمْرِه .

عنـد ذلك بَسَـطْتُ يدي لـه ، وشهِـدتُ أنْ لا إلَـهَ إلَّا اللَّه وأنَّ محمـداً رسولُ اللَّهِ ، ودخَلْتُ في الإسلامِ .

* * *

قال الطُفيلُ : ثم أقمتُ في مكةَ زمناً تعلمتُ فيه أمورَ الإسلامِ وحفظتُ فيه ما تَيَسَّرَ لي من القُرآنِ ، ولما عَزَمْتُ عَلَىٰ العودةِ إلىٰ قومي قلت :

يا رسولَ اللَّهِ ، إني امرؤٌ مُطاعٌ في عشيرتي ، وأنا راجعٌ إليهم وداعِيهم إلىٰ

---

(١) ثكلتك أمك : فقدتك أمُّك بالموت .

الإسلامِ ، فادْعُ اللَّهَ أَنْ يجعَلَ لي آيةً تكونُ لي عَوْناً فيما أدعوهم إليه فقال : (اللَّهُمَّ اجْعلْ له آية) .

فخرجتُ إلىٰ قومي حتَّىٰ إذا كنتُ في مَوْضِعٍ مُشْرِفٍ على منازِلهم وَقَعَ نورٌ فيما بينَ عينيَّ مثلُ المِصْبَاحِ ، فقلتُ :

اللَّهُمَّ اجعلْه في غيرِ وجهي ، فإني أَخشىٰ أن يظنوا أَنَّها عقوبَةٌ وقعتْ في وجهي لمفَارَقَةِ دينِهم . . .

فَتَحَوَّل النورُ فوَقَعَ في رأسِ سَوْطِي[1] ، فجعلَ الناس يتراءَون ذلك النور في سَوْطي كالقِنديلِ المعلَّقِ ، وأنا أهْبِطُ إليهم من الثنِيَّة[2] فلمَّا نزلتُ ، أتاني أبي ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فقلت :

إليك عَنِّي يا أبتِ ، فلستُ منك ولستَ مني .

قال : ولم يا بُنيَّ ؟!

قلت : لقد أسلمت وتابعتُ دينَ محمدٍ ﷺ ،

قال : أيْ بنيَّ ، ديني دينُك ، فقلت :

اِذهب واغتَسِلْ وطهِّرْ ثيابَك ، ثمَّ تعالَ حَتَّىٰ أُعلمكَ ما عُلِّمْتُ .

فذهب فَاغْتَسَلَ وطهَّر ثيابه ، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

ثم جاءت زَوْجتي ، فقلت :

إليكِ عَنِّي فلستُ منك ولستِ منِّي

قالت : ولِمَ !! بأبي أنتَ وأُمِّي ، فقلت :

فَرَّق بيني وبينَك الإسلامُ ، فقد أسلمتُ وتابعتُ دينَ محمدٍ ﷺ .

قالت : فديني دينُك ، قلت :

---

(١) السَّوْط : ما يضربُ به من جِلْدٍ مضفورٍ ونحوه .
(٢) الثنية : العَقَبَةُ .

فاذهبي فتطهري من ماءِ ذي الشَّرَىٰ - وذو الشَّرَىٰ صنمٌ لِدَوْسٍ حولَه ماءٌ يهبِط من الجبل - فقالت :

بأبي أنتَ وأُمي ، أتخشَى علَىٰ الصِّبْيَة شيئاً من ذي الشَّرَى ؟!

فقلت : تبًّا لك ولذي الشَّرَىٰ . . . قلتُ لكِ : اذهبي واغتَسِلي هناكَ بعيداً عن النـاس ، وأنا ضـامِنٌ لك ألَّا يَفْعَـلَ هذا الحَجَـرُ الأصمُّ شيئاً .

فَذَهَبَت فاغتسلت ، ثم جاءت فَعَرضتُ عليها الإِسلام فأسلمت .

ثم دعوتُ دوساً فأبْطؤوا عليَّ إلا أبا هُرَيرَةَ[1] فقد كان أسرَعَ النَّاسِ إسْلاماً.

* * *

قال الطفيلُ : فَجِئتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بمكَّةَ ، ومعي أبو هريرة فقال لي النبي عليه الصلاةُ والسَّلامُ :

(ما وراءك يا طفيلُ ؟)

فقلت : قلوبٌ عليها أَكِنَّةٌ[2] وكفرٌ شديد . . . لقد غَلَبَ علىٰ دوسٍ الفُسوقُ والعِصْيانُ . . .

فقام رسولُ اللَّهِ ﷺ فتوضَّأ وَصلَّىٰ وَرَفَعَ يدَه إلىٰ السماءِ ، قال أبو هريرة : فلمَّا رأيتُه كذلك خِفْتُ أن يدعوَ علىٰ قومي فيهلكوا . . .

فقلت : واقوماه . . .

لكنَّ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ عليه جعل يقول :(اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً . . . اللَّهُمَّ اهْدِ دوساً . . . اللَّهُمَّ اهْدِ دوساً . . .) .

ثم التفت إلىٰ الطفيل وقال :(ارْجعْ إلىٰ قـومِك وارْفِقْ بِهِمْ وادْعُهُم إلىٰ الإِسلام) .

* * *

---

(١) انظر سيرته ص ٤٧٩ .

(٢) أكِنَّةٌ : ستورٌ تمنعها من رؤية الحقِّ .

قال الطفيل : فلم أَزلْ بأرضِ دَوْسٍ أدعوهم إلىٰ الإسلامِ حتَّىٰ هاجَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلىٰ المدينةِ ، وَمَضَتْ بدرٌ وأُحُدٌ والخَنْدَقُ ، فَقَدِمْتُ على النبيِّ ومعي ثمانون بيتاً من دَوْسٍ أَسْلموا وَحسنُ إسْلامُهُم فَسُرَّ بنا رسولُ اللَّهِ ، وأَسْهَمَ[1] لنا مَعَ المسلمين مِنْ غنائِمِ خَيْبَرَ[2] فقلنا :

يا رسولَ اللَّهِ : اجعلنا مَيْمَنَتَكَ[3] في كلِّ غزوةٍ تغزوها واجْعَلَ شِعارَنا : « مَبْرُور » .

قال الطفيلُ : ثم لم أَزَلْ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ حتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عليه مَكَّةَ ، فقلت :

يا رسولَ اللَّهِ ، ابْعَثني إلىٰ « ذي الكفَين » صَنَمِ عمرِو بنِ حَمَمَةَ حَتَّىٰ أحرِقَه . . . فأذن له النبيُّ عليه الصلاة والسلام ؛ فسارَ إلىٰ الصَّنَمِ في سِرِيَّةٍ من قومِه .

فلمَّا بَلَغَه ، وهَمَّ بِإِحْراقِه اجتمعَ حولَه النساءُ والرجالُ والأطفالُ يتربَّصون[4] به الشَّرَّ ، وينتظرون أنْ تَصْعَقَه صاعِقَةٌ إنْ هو نالَ « ذا الكَفَيْن » بِضُرٍّ .

لكِنَّ الطفيلَ أقبلَ علىٰ الصنَمِ علىٰ مَشْهَدٍ من عُبَّادِه . . . وجعل يُضرم النار في فؤادِه . . . وهو يَرْتَجِز :

يا ذا الكَفَيْنِ لستُ من عُبَّادِكا
ميلادُنا أقدمُ مِن مِيلادِكا
إنِّي حَشَوْتُ النَّارَ في فُؤادِكا

---

(١) أسهم لنا : أعطانا سهماً .

(٢) خيبر : واحَةٌ في الحجاز كان يسكنها اليهودُ .

(٣) ميمنتك : جناح جيشِك الأيمن .

(٤) يتربصون به الشر : ينتظرون أن يُصيبَه الشَّرُّ .

وما إن التَهَمَتِ النارُ الصنمَ حتَّىٰ التَهَمَتْ مَعَها ما تَبَقَّىٰ من الشِّرْكِ في دَوْسٍ ؛ فأسْلَمَ القومُ جميعاً وحَسُنَ إسلامُهم .

* * *

ظَلَّ الطفيلُ بنُ عمرو الدوسيُّ بعدَ ذلك مُلازِماً لرسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ، حتَّىٰ قُبِضَ النبيُّ إلىٰ جوارِ رَبِّه .

ولما آلتِ الخِلافةُ من بعدِه إلىٰ صاحِبه الصديقِ وَضَعَ الطفيلُ نَفْسَه وَسَيْفَه وَوَلَدَه في طاعَةِ خليفةِ رسولِ اللَّهِ .

ولما نَشِبَتْ حروبُ الرِدَّةِ نَفَرَ[1] الطفيلُ في طليعةِ جيشِ المسلمين لِحَرْبِ مسيلمةَ الكذَّابِ ، ومعه ابنُه عمرٌو .

وفيما هو في طريقِه إلىٰ اليمامة رأىٰ رؤيا ، فقال لأصحابه :

إني رأيت رؤيا فَعَبِّروها لي .

فقالوا : وما رأيت ؟

قال : رأيت أنَّ رأسي قد حُلِقَ ، وأن طائِراً خرجَ من فَمِي ، وأن امْرَأَةً أدخلتني في بطنها ، وأن ابني عمراً جَعَلَ يَطْلُبُني حثيثاً لكِنَّه حِيلَ[2] بيني وبينَه .

فقالوا : خيراً . .

فقال : أما أنا ـ واللَّه ـ لقد أوَّلتُها :

أَمَّا حَلْقُ رأسي فذلك أنَّه يُقْطَعُ . . . وأما الطائرُ الذي خرجَ من فمي فهو روحي . . . وأَمَّا المرأةُ التي أَدْخَلَتْني في بطنِها فهي الأرض تُحْفَرُ لي فأُدفَنُ في جوفِها . . وإني لأرجو أن أُقتل شهيداً .

---

(١) نفر : خرج للقتال .

(٢) حِيلَ بيني وبينَه : وُضِعَ حائلٌ بيني وبينَه فلم يدخل معي .

وأما طلبُ ابني لي فهو يعني أنَّه يطلبُ الشَّهادةَ التي سأحظى بها - إذا أذِنَ اللَّهُ - لكنَّه يُدْرِكُها فيما بَعْدُ .

* * *

وفي معركةِ اليمَامَةِ أبْلَى الصحابيُّ الجليل الطفيلُ ابنُ عمرو الدوسيُّ أعظمَ البلاءِ ، حتى خرَّ صريعاً شهيداً على أرضِ المعركةِ .

وأما ابنُه عَمْرٍو فما زال يقاتل حتَّىٰ أثْخَنَتْه[1] الجِراحُ وقُطِعت كفُّه اليُمْنَىٰ فعادَ إلىٰ المدينةِ مُخَلِّفاً علىٰ أرضِ اليمامَةِ أباه وَيدَه .

* * *

وفي خلافَةِ عمرَ بنِ الخطابِ ، دَخَلَ عليه عمرُو بنُ الطفيلِ ، فأُتِيَ للفاروقِ بطعامٍ ، والناسُ جلوسٌ عنده ، فدَعا القومَ إلىٰ طعامِه ، فَتَنَحَّىٰ عمرٌو عنه ، فقال له الفاروقُ :

مالك ؟! لعلك تَأَخَّرْتَ عنِ الطعامِ خَجَلاً من يَدِك ،

قال : أَجَلْ[2] يا أميرَ المؤمنين .

قال : واللَّه لا أذوقُ هذا الطعامَ حتَّىٰ تَخْلِطَهُ بِيَدِكَ المقطوعَةِ . . . واللَّهِ ما في القومِ أحدٌ بَعْضُه في الجنَّةِ إلا أنْتَ ، يريد بذلك يَدَه .

* * *

ظَلَّ حُلُمُ الشهادةِ يلوحُ[3] لِعَمرٍو منذُ فارقَ أباه، فلمّا كانَتْ معركةُ اليَرْموكِ[4]

---

(١) اثخنته الجراح : أضعفته وأوْهَنَت قواه .

(٢) أجل : نعم .

(٣) يلوح : يتراءَىٰ .

(٤) معركة اليرموك : إحْدَىٰ المعارك الفاصلة في التاريخ ،وقعَت في السنة الخامسة عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون على الروم نصراً كبيراً .

بادَرَ إليها عمرٌو مع المبادِرين وما زالَ يقاتِلُ حتَّىٰ أدرَكَ الشهادَةَ التي مَنَّاه بها أبوه .

* * *

رحِمَ اللّٰهُ الطفيلَ بنَ عمرٍو الدَّوسِيَّ ؛ فهو الشهيدُ وأبو الشهيد(*) .

(*) للاستزادة من أخبار الطفيل بن عمرو الدوسي انظر :

١ ـ الإصابة (طبعة السعادة) : ٣/٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

٢ ـ الاستيعاب (طبعة حيدر آباد) : ١/٢١١ ـ ٢١٣ .

٣ ـ أسد الغابة : ٣/٥٤ ـ ٥٥ .

٤ ـ صفة الصفوة : ١/٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

٥ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٢٤٨ ـ ٢٥٠ .

٦ ـ مختصر تاريخ دمشق : ٧/٥٩ ـ ٦٤ .

٧ ـ البداية والنهاية : ٦/٣٣٧ .

٨ ـ شهداء الإسلام : ١٣٨ ـ ١٤٣ .

٩ ـ سيرة بطل لمحمد زيدان نشرته الدار السعودية عام ١٣٨٦هـ .

«حقٌّ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ أن يُقَبِّلَ رَأسَ عَبْد اللّه بن حُذَافَة ، وأنا أبْدَأ بذٰلِك»

[عمر بن الخطاب]

بَطَلُ قِصَّتِنا هذه رجلٌ من الصحابةِ يدعىٰ عبدَ اللّهِ بنَ حُذافةَ السَّهْمِيَّ .

لقد كان في وُسْعِ التَّاريخ أنْ يمرَّ بهذا الرجلِ كما مَرَّ بملايينِ العربِ من قَبْلِهِ دونَ أنْ يَأْبَهَ لهم أو يَخْطُروا له على بالٍ .

لكِنَّ الإسلامَ العظيمَ أتاحَ لعبدِ اللّهِ بنِ حُذافَةَ السهميِّ أن يَلْقَىٰ سيِّدَي الدنْيَا في زمَانِه : كِسْرَىٰ ملكِ الفُرْس ، وقيصرَ عظيمِ الروم ، وأنْ تكونَ له مع كلٍّ منهما قِصَّةٌ ما تزالُ تَعيها ذاكِرَةُ الدَّهْرِ ويَرْويها لسانُ التاريخِ .

* * *

أمَّا قِصَّتُه معَ كِسْرَىٰ ملكِ الفُرْس فكانت في السنةِ السادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ حينَ عَزَمَ النبيُّ ﷺ أنْ يَبْعَثَ طائِفَةً مِنْ أصْحابِهِ بِكُتُبٍ إلىٰ ملوكِ الأعاجِمِ يَدْعوهُمْ فيها إلىٰ الإسْلَامِ .

ولقد كان الرسولُ ﷺ يقدِّرُ خطورَةَ هذه المهمَّةِ . . .

فهؤلاء الرُسُلُ سَيذهبون إلىٰ بلادٍ نائِيَةٍ لا عَهْدَ لهم بِها من قَبْلُ . . .

وهم يجهَلون لغاتِ تلك البلادِ ولا يعْرِفون شيئاً عن أَمْزِجَةِ ملوكِها . . .

ثم إنَّهم سَيدْعُون هؤلاء الملوكَ إلىٰ تَرْكِ أدْيانِهم ، ومُفارَقَة عِزِّهِمْ

وسُلْطانِهم ، والدخولِ في دينِ قومٍ كانوا إلىٰ الأمسِ القريبِ من بَعْضِ أتْباعِهم . . .

إنَّها رِحْلَةٌ خَطِرَةٌ ، الذَّاهِبُ فيها مَفْقودٌ والعائِدُ منها مَوْلودٌ .

لذا جَمَعَ الرسولُ عليه الصَلاة والسَّلامُ أصحابَه ، وقام فيهم خطيباً ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه ، وتشهَّد ، ثمَّ قال :

(أمَّا بَعْدُ ، فإني أريدُ أنْ أبْعَثَ بَعْضَكُم إلىٰ ملوكِ الأعاجِم ، فلا تَخْتَلِفوا عليَّ كما اختلَفَتْ بنو إسرائيلَ على عيسىٰ بنِ مَرْيَمَ) .

فقال أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ : نحن يا رسولَ اللَّه نُؤدِّي عَنْكَ ما تُريدُ فابْعَثْنا حَيْثُ شِئْتَ .

* * *

اِنْتَدَبَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ستةً من الصَّحابَةِ لِيَحْمِلوا كتبَه إلىٰ ملوكِ العَرَبِ والعَجَمِ ، وكان أَحَدَ هؤلاء السِّتَّةِ عبدُ اللَّهِ بنُ حُذَافةَ السَّهْمِيُّ ، فقد اخْتيرَ لِحَمْلِ رسالةِ النبيِّ صلواتُ اللَّهِ عليه إلىٰ كِسْرَىٰ ملكِ الفُرْسِ .

* * *

جَهَّزَ عبدُ اللَّه بنُ حُذافَةَ راحِلَتَه ، ووَدَّعَ صاحِبَتَه وَوَلَدَه ، ومَضَىٰ إلىٰ غايَتِه تَرْفَعُه النِّجادُ[1] وتَحُطُّه الوِهادُ[2] ؛ وَحيداً فَريداً لَيْسَ مَعَه إلَّا اللَّه ، حتَّىٰ بَلَغَ ديارَ فارِس ، فاسْتَأْذَنَ بالدخولِ علىٰ مَلِكِها ، وأَخْطَرَ الحاشِيَةَ[3] بالرسالةِ التي يَحْمِلُها له .

عند ذلك أمرَ كِسْرَىٰ بإيوانه فَزُيِّن ، ودعا عظماءَ فارِسَ لحضورِ مَجْلِسهِ فحَضَروا ، ثم أَذِنَ لعبدِ اللَّهِ بنِ حُذافَةَ بالدخولِ عليه .

---

(١) النجاد : الأماكن العالية .

(٢) الوهاد : الأماكن المنخفضة .

(٣) حاشية الملك : أعوانه .

دخلَ عبدُ اللّهِ بنُ حُذَافَةَ علىٰ سيِّدِ فارِس مُشْتَمِلاً شَمْلَتَه[1] الرَّقيقَة ، مُرْتدياً عَبَاءَتَه الصَّفِيقَةَ[2] ، عليه بَسَاطَةُ الأعْرابِ .

لكِنَّه كان عالِيَ الهامَةِ[3] ، مشدودَ القامَةِ ، تَتَأَجَّجُ بَيْنَ جَوانِحِهِ[4] عِزَّةُ الإِسْلامِ ، وتتوَقَّد في فؤادِه كِبْرِيَاءُ الإِيمان .

فما إن رآه كِسْرَىٰ مُقْبِلاً حتَّىٰ أَوْمَأ إِلىٰ أَحَدِ رجالِهِ بأَنْ يأخذَ الكِتابَ من يَدِه فقال :

لا ، إِنَّما أمرَني رسولُ اللّهِ ﷺ أَنْ أَدفَعَهُ لكَ يَداً بِيَدٍ وأَنَا لا أُخالِفُ أمْراً لِرَسولِ اللّهِ .

فقال كِسْرَى لِرجالِه : اترُكوه يدنو مِنِّي ، فدنا من كِسْرَىٰ حتَّىٰ ناوَلَهُ الكِتابَ بيدِه .

ثم دعا كِسْرَى كاتِباً عربياً من أَهْلِ الحِيرَة[5] ، وأمَرَه أنْ يَفُضَّ[6] الكِتابَ بَيْنَ يَدَيْه ، وأَنْ يقرأه عليه فإذا فيه :

(بسم اللّهِ الرحمٰن الرَّحيمِ ، من محمدٍ رسولِ اللّهِ إلى كِسْرَى عظيمِ فارِس ، سلامٌ علىٰ من اتَّبَعَ الهُدَىٰ . . .) .

فما إن سَمِعَ كِسْرَىٰ من الرِّسالَةِ هذا المقدارَ حتَّىٰ اشْتَعَلَتْ نارُ الغَضَبِ في صَدْرِه ، فاحمرَّ وَجْهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَوْداجُه[7] لأنَّ الرسولَ عليه الصَّلاة والسلامُ بدأ بنفسِه . . . فَجَذَبَ الرسالةَ من يَدِ كاتِبه وجَعَلَ يُمَزِّقُها دونَ أَنْ يَعْلَمَ ما فيها وهو

---

(١) الشملة : كساء يلف على الجسم لفاً .
(٢) الصفيقة : الغليظة النسج .
(٣) الهامة : الرأس .
(٤) الجوانح : الأضلاع .
(٥) الحيرَة : منطقة في العراق بين النَّجَفِ والكوفة .
(٦) فض الكتاب : فتحه .
(٧) الأوداج : جمع ودج ، وهو عرق في العنق ينتفخ عند الغضب .

يَصيحُ : أيَكْتُبُ لي بِهذا ، وهو عَبْدي ؟!! ثم أَمَرَ بِعبدِ اللّهِ بنِ حُذافة أنْ يُخْرَجَ مِنْ مَجْلسِه ، فأُخْرِجَ .

* * *

خَرَجَ عبدُ اللّهِ بنُ حُذَافَةَ مِنْ مَجْلِسِ كِسْرَىٰ ، وهو لا يَدْري ما يَفْعَلُ اللّهُ له . . .

أيُقْتَلُ أم يُترَكُ حُراً طليقاً ؟

لكنَّه ما لَبِثَ أن قال :

واللّهِ ما أبالي على أيِّ حالٍ أكونُ بَعْد أنْ أدَّيْتُ كِتابَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وَرَكِبَ راحِلَتَه وانْطَلَقَ .

ولما سَكَتَ عن كِسْرَىٰ الغَضَبُ ، أمَـرَ بأنْ يُـدْخَلَ عليـه عبدُ اللّهِ ؛ فلم يوجد . . .

فالْتَمَسوه فلم يَقِفوا له على أَثَرٍ . . .

فطلبوه في الطريقِ إلىٰ جزيرةِ العرب فوجدوه قد سَبَق .

فلما قَدِمَ عَبْدُ اللّهِ على النَّبيِّ ﷺ أخبرَه بما كان من أَمْرِ كِسْرَىٰ وتمزيقِه الكتابَ ، فما زادَ عليه الصلاةُ والسلامُ على أنْ قالَ :

(مزَّق اللّهُ مُلْكَه) .

* * *

أمَّا كِسْرَىٰ فقد كتَبَ إلىٰ « باذانَ » نائبِه على اليمنِ : أنِ ابْعَثْ إلىٰ هذا الرجلِ الذي ظهرَ بالحجازِ رجلين جَلْدَين[1] من عِنْدِكَ ، ومُرْهمـا أنْ يأتِيـاني به . . . فبعث « باذانُ » رجُلَيْن من خِيرَةِ رجالِه إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وَحَمَّلَهما رسالةً له ، يأمُرُه فيها بأنْ ينْصَرِفَ معهما إلىٰ لِقاءِ كِسْرَىٰ دوَن إبطاءٍ . . .

---

(١) جلدين : قويين .

وطلبَ إلىٰ الرجلين أن يقفا على خبَرِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ ، وأن يَسْتَقْصِيا أمْرَهُ ، وأن يأتياه بما يَقِفانِ عليه مِنْ معلوماتٍ .

* * *

خرَجَ الرجلان يُغِذّان السَّيرَ[1] حَتَّىٰ بلغا الطائِفَ فوجدا رجالاً تُجَّاراً من قُرَيشٍ ، فسَألاهُمْ عن محمدٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ، فقالوا : هو في يَثْرِبَ ، ثم مَضَىٰ التجَّارُ إلىٰ مَكَّةَ فرِحين مُسْتَبْشِرين ، وجَعَلوا يُهَنِّئُونَ قريشاً ويقولون :

قَرُّوا عيناً[2] ؛ فإنَّ كِسْرَىٰ تَصَدَّىٰ لمحمدٍ وكفاكُم شرَّه .

أَمَّا الرجلان فَيَمَّما[3] وجهيهما شَطْرَ[4] المدينةِ حتَّىٰ إذا بلغاها لَقِيا النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ، ودفعا إليه رِسالةَ « باذانَ » وقالا له :

إنَّ ملِكَ الملوكِ كِسْرَىٰ كتبَ إلىٰ ملِكِنا « باذانَ » أن يَبْعَثَ إليك من يأتيه بك . . . وقد أَتَيْناك لِتَنْطَلِقَ مَعَنا إليه ، فإنْ أَجَبْتنا كَلَّمَنا كِسْرَىٰ بما يَنْفَعُك ويَكُفُّ أذاه عنك ، وإنْ أبيتَ فهو مَنْ قَدْ عَلِمْتَ سطوتَه[5] وبَطْشَه وقُدْرَته على إهْلاكِك وإهْلاكِ قومِكَ .

فتبسَّم الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقال لهما : (اِرْجِعا إلىٰ رِحالِكُما اليومَ وأْتِيا غداً) .

فلمَّا غَدَوْا على النبيِّ صلواتُ اللَّهِ عليه في اليومِ التَّالي ، قالا له : هَلْ أعدَدْتَ نَفْسَك للمُضيِّ مَعَنا إلىٰ لِقاءِ كِسْرَىٰ ؟

فقال لهما النبي :

(لن تلقيا كِسْرَىٰ بعدَ اليوم . . . فلقد قَتَلَهُ اللَّهُ ؛ حيثُ سَلَّط عليه ابنه

---

(١) يغذان السير : يواصلانه بسرعة .

(٢) قروا عيناً : أي أفرحوا واستبشروا .

(٣) يَمَّما وجهيهما : اِتَّجها .

(٤) شطر : ناحية .

(٥) سطوته : قوَّته وبأسَهُ .

« شِيرَوَيْه » في ليلةِ كذا . . . من شهرِ كذا . . .) .

فَحَدَّقا في وَجْهِ النبيِّ ، وبَدَتِ الدَّهْشَةُ علىٰ وجهيهما ، وقالا :

أَتَدْرِي ما تقولُ ؟! أَنكتبُ بذلك « لِباذانَ » ؟! قال :(نعم ، وقولا له : إِنَّ ديني سَيَبْلُغُ ما وَصَلَ إليه مُلْكُ كِسْرَىٰ ، وإِنَّـك إِنْ أَسْلَمْتَ أعطيتُـك ما تَحْتَ يَدَيْك ، وملَّكْتُكَ علىٰ قومِك) .

***

خرَج الرَّجلانِ من عِنْدِ الرسولِ صلواتُ اللّهِ عليه ، وقدِما علىٰ « باذانَ » وأَخْبَراه الخَبَرَ ، فقال : لَئِنْ كان ما قالَه محمدٌ فهو نبيٌّ ، وإِنْ لم يَكُنْ كذلك فَسَنَرَىٰ فيه رأياً . . .

فلم يلبَثْ أَنْ قَدِمَ علىٰ « باذانَ » كتابُ « شِيرويه » وفيه يقول :

أَمَّا بَعْدُ فقد قتلتُ كِسْرَىٰ ، ولم أَقتُلْه إلاَّ انتِقاماً لِقَوْمِنا ، فقد اسْتَحلَّ قَتْلَ أَشْرافِهم وسَبْيَ نِسائِهم وانْتهابَ أموالِهم ، فإذا جاءَك كتابي هذا فخُذْ لي الطاعَةَ مِمَّن عِنْدَك .

فما إن قَرَأَ « باذانُ » كتابَ « شيرويه » حتَّىٰ طَرَحَه جانِباً وأَعْلَنَ دخولَه في الإسلامِ ، وأَسْلَمَ مَنْ كان مَعَه من الفُرْسِ في بلادِ اليَمَنِ .

***

هذه قِصَّةُ لقاءِ عبدِ اللّهِ بنِ حُذَافَةَ لِكِسْرَىٰ ملكِ الفُرْسِ .

فما قِصَّةُ لقائهِ لِقَيْصَرَ عظيمِ الرومِ ؟

لقد كان لقاؤه لِقَيْصَرَ في خِلافَةِ عمرَ بنِ الخَطَّابِ رضيَ اللّهُ عنه ، وكانت له معه قِصَّةٌ من روائعِ القِصَص . . .

ففي السنةِ التاسِعةَ عشرةَ للهِجْرَة بَعَثَ عمرُ بنُ الخطَّابِ جيشاً لِحَرْبِ

الرومِ فيه عبد اللَّهِ بنُ حُذافَةَ السهميُّ . . . وكان قَيْصَرُ عظيمُ الرومِ قد تَناهَتْ[1] إليه أخبارُ جُنْدِ المسلمين وما يَتحلَّوْن[2] به من صِدْقِ الإيمانِ ورسوخِ العقيدَةِ واستِرْخاصِ النفْسِ في سَبيلِ اللَّهِ ورسولِهِ .

فأَمَرَ رِجالَه ـ إذا ظَفِروا بأسيرٍ من أسْرَىٰ المسلمين ـ أَنْ يُبْقوا عليه ، وأَنْ يأتوه به حيًّا . . . وشاء اللّهُ أنْ يقعَ عبدُ اللّه بنُ حذافَةَ السَّهْمِيُّ أسيراً في أيدِي الرومِ ؛ فحملوه إلىٰ مليكِهم وقالوا : إنَّ هذا من أَصحابِ محمدٍ السابِقين إلىٰ دينِهِ قَدْ وَقعَ أسيراً في أيدينا ؛ فأَتَيْناكَ به .

* * *

نظرَ ملكُ الرومِ إلىٰ عبدِ اللَّهِ بن حُذافَةَ طويلاً ثم بادَرَه قائلاً :

إني أَعرض عليك أمراً .

قال : وما هو ؟

فقال : أعـرِضُ عليـكَ أنْ تَتَنَصَّـرَ . . . فـإنْ فعلتَ ؛ خلَّيْتُ سبيلَك ، وأكرمْتُ مَثْوَاكَ .

فقال الأسيرُ في أَنَفَةٍ وحَزْمٍ : هَيْهاتَ . . . إنَّ الموتَ لأحبُّ إليَّ ألفَ مرَّةٍ مِمَّا تدعوني إليه .

فقال قيصر : إنِّي لأراك رجلاً شَهْماً . . . فَإنْ أَجَبْتَني إلى ما أعرِضُه عليك أَشْرَكتُكَ في أَمْرِي وقاسَمتُكَ سُلْطاني .

فتبسَّمَ الأسيرُ المكبَّل[3] بقيودِه وقال :

واللّهِ لو أَعْطَيْتَني جميعَ ما تَمْلكَ ، وجميعَ ما مَلَكَتْهُ العَرَبُ على أن أرْجعَ عن دين محمدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ[4] ما فعلتُ .

---

(١) تناهَتْ إليه : بلغته .

(٢) يتحلَّوْن به : يتَّصِفون به .

(٣) المكبَّل : المقيَّد .

(٤) طرفة عين : بمقدارِ ما تَطْرِف العين .

قال : إذن أقتُلك .

قال : أنتَ وما تُريد ، ثم أمر به فَصُلِبَ ، وقال لِقَنَّاصَتِه - بالـرُّومِيَّةِ - : ارْموه قريباً مِنْ يديه ، وهو يعرضُ عليه التنصُّر فأبَىٰ .

فقال : ارْموه قريباً من رِجليه ، وهو يعرِضُ عليه مُفَارَقَةَ دينهِ فأَبَى .

عِنْدَ ذلِكَ أَمَرَهُم أَنْ يكُفُّوا عنه ، وطلَب إليهم أنْ يُنزِلوه عنْ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ، ثم دعا بقِدرٍ عظيمةٍ فَصُبَّ فيها الزيتُ ورُفِعَتْ على النَّار حتَّىٰ غَلَتْ ثم دعا بأسيرين من أُسارَىٰ المسلمين ، فأَمَرَ بأحدِهما أَنْ يُلْقَىٰ فيها فأُلْقِيَ ، فإذا لحمُه يتفتَّتُ . وإذا عظامُه تبدو عاريةً . . .

ثم التفتَ إلىٰ عبدِ اللَّهِ بن حُذَافَةَ ودعاه إلىٰ النصرانيَّةِ ، فكان أشدَّ إباءً لها من قَبْلُ .

فلمَّا يَئِسَ منه ؛ أمَرَ به أنْ يُلْقَىٰ في القِدْرِ التي أُلْقِيَ فيها صاحِبَاهُ فلما ذُهِبَ به دَمَعَتْ عيناه ، فقال رجالُ قَيْصَرَ لملكِهم : إنه قد بكَىٰ . . .

فظَنَّ أنَّه قد جَزِع وقال : ردُّوه إليَّ .

فلما مَثُلَ بينَ يديه عَرَضَ عليه النصرانِيَّةِ فأباها .

فقال : ويْحُك ، فما الذي أبكاك إذن ؟!

قال : أبكاني أني قُلْتُ في نفسي : تُلْقَىٰ الآن في هذه القِدْرِ ، فَتَذْهَبُ نفسُك ، وقد كنتُ أشْتَهِي أنْ يكونَ لي بِعَدَدِ ما في جَسَدِي من شَعْرٍ أنفُسٌ فَتُلْقَىٰ كلُّها في هذا القِدْرِ في سبيل اللَّهِ .

فقال الطاغِيَةُ : هل لَكَ أن تُقَبِّلَ رأسِي وأُخْلِّيَ عنك ؟

فقال له عبدُ اللّه : وعن جميعِ أسارَىٰ المسلمين أيضاً ؟

قال : وعن جميعِ أسارَىٰ المسلمين أيضاً .

قال عبدُ اللّهِ : فقلتُ في نفسي : عدوٌّ من أعداءِ اللّهِ ، أُقَبِّلُ رأسَه فَيُخلِّي عَنِّي وعَنْ أسارَىٰ المسلمين جميعاً ، لا ضَيْرَ في ذلك عليَّ .

ثم دنا منه وقَبَّل رأسَه ، فأَمَرَ مَلِكُ الرومِ أَنْ يَجْمَعوا له أسارَىٰ المسلمين ، وأن يَدْفَعوهم إليه ، فدُفِعوا له .

* * *

قَدِمَ عبدُ اللّهِ بنُ حُذَافَةَ علىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضي اللّهُ عنه ، وأخبَرَهُ خَبَرَه ؛ فَسُرَّ به الفاروقُ أعظَمَ السرورِ ، ولمَّا نَظَرَ إلىٰ الأَسْرَىٰ قال : حَقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يقبِّلَ رأسَ عبدِ اللّهِ بنِ حُذَافَةَ . . وأَنا أَبْدأُ بذلك . . .

ثم قام وَقَبَّلَ رأسَه(*) . . .

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللّه بن حذافة انظر :

١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : ٢/٢٨٧ ـ ٢٨٨ (طبعة مصطفى محمد) .

٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق السقا) الفهارس .

٣ ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

٤ ـ تهذيب التهذيب : ٥/١٨٥ .

٥ ـ إمتاع الأسماع : ١/٣٠٨ و ٤٤٤ .

٦ ـ حسن الصحابة : ٣٠٥ .

٧ ـ المحبر : ٧٧ .

٨ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٨٨ .

عُمَيْرُ بنُ وَهْبٍ

« لقَدْ غَدَا عُمَيْرُ بنُ وَهْبٍ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ بَعضِ أبنَائي »

[عمر بن الخطاب]

عاد عُمَيْرُ بنُ وهبٍ الجُمَحِيُّ مِنْ بَدْرٍ ناجِياً بنفسِه ، لكِنَّه خلَّف وراءَه ابنَه « وَهْباً » أسيراً في أيْدي المسلمين .

وقد كان عميرٌ يخشَىٰ أَنْ يَأخُذَ المسلمون الفَتَىٰ بجَريرةِ[1] أبيه ، وأن يَسومُوه سُوءَ العَذَابِ جَزاءَ ما كان يُنْزِلُ برسولِ اللّهِ ﷺ من الأَذَىٰ ، ولِقاءَ ما كان يُلْحِقُ بأصحابِهِ من النَّكالِ[2] .

وفي ذاتِ ضُحىً توجَّهَ عُمَيْرٌ إِلىٰ المَسْجِدِ للطَّوافِ بالكعْبَةِ والتبرُّكِ بأصنامِها ، فَوجَدَ صَفوانَ بنَ أُميَّة جالِساً إِلىٰ جانِبِ الحِجْرِ ، فأقْبَلَ عليه وقال : عِم صَباحاً[3] يا سَيِّدَ قريشٍ .

فقال صَفْوانُ : عِمْ صَباحاً يا أبا وَهْبٍ ، اِجْلِسْ نتحدَّث ساعَةً فإنَّما يُقَطَّعُ الوقتُ بالحديث .

فجَلَسَ عُميرٌ بإزاءِ صَفْوانَ بنِ أُميَّةَ ، وَطَفِقَ الرجلان يَتَذاكَرَان بدْراً ، ومُصَابَها العظيمَ ، ويُعَدِّدانِ الأسْرَىٰ الذين وَقَعوا في أيدي محمدٍ وأصحابِهِ ،

---

(١) بجريرة أبيه : بذنب أبيه .

(٢) النكال : الضررُ الشديدُ الذي يجعل المرءَ عِبْرَةً لِغَيْرِه .

(٣) عم صباحاً : تحية العرب في الجاهلية .

ويَتَفَجَّعان على عُظَماءِ قريشٍ مِمَّن قَتَلَتْهم سيوفُ المسلمين وغَيَّبَهُمُ القَليبُ[1] في أَعْماقِه .

فتنهَّدَ صَفْوانُ بنُ أُميَّة وقال : ليس ـ واللَّهِ ـ في العَيْشِ خيرٌ بعدَهم .

فقال عُمَيرُ :

صدقتَ واللَّهِ . ثم سَكَتَ قليلاً ، وقال : وربِّ الكعبةِ لولا ديونٌ عليَّ ليسَ عِنْدي ما أَقْضيها به ، وعيالٌ أخشَىٰ عليهم الضَّياعَ من بعدِي ، لمضيْتُ إلىٰ محمدٍ وقتلتُه ، وحَسَمْتُ أمرَه ، وكَفَفْتُ شَرَّه ، ثم أَتْبَعَ يقول بصوتٍ خافِتٍ :

وإن في وجودِ ابني وَهْبٍ لَدَيْهِم ما يَجْعَلُ ذهابي إلىٰ يثربَ أَمْراً لا يُثيرُ الشُّبهاتِ .

* * *

اِغتَنَم صفوانُ بنُ أُمَيَّةَ كلامَ عميرِ بنِ وهْبٍ ولم يَشَأْ أن يُفَوِّتَ هذه الفُرْصَةَ ، فالتَفَتَ إليه وقال : يا عميرُ ، اِجعلْ دَيْنَك كلَّه عليَّ ، فأنا أَقْضِيه عنك مَهْمَا بَلَغَ . . .

وأما عيالُك فسَأَضُمُّهم إلىٰ عِيالي ما امتدَّت بي وبهم الحياةُ . . .

وإنَّ في مالي من الكثرةِ ما يَسَعُهم جميعاً ويكفلُ لهم العيشَ الرَّغيدَ .

فقال عُمَير : إذنْ ، اكتُمْ حديثَنا هذا ولا تُطْلِعْ عَليه أحداً .

فقال صفوان : لَكَ ذلِك .

* * *

قامَ عُمَيرُ من المَسْجِدِ ونيرانُ الحِقْدِ تتأَجَّجُ[2] في فؤادِه علىٰ محمدٍ ﷺ ، وطفِقَ يُعِدُّ العُدَّة لإنْفَاذِ ما عَزَم عليه ، فما كان يَخْشَىٰ ٱرْتِيَابَ أَحدٍ في سفرِه ؛

---

(١) القليب : بئر دفن فيه قتلى المشركين يوم بدر .

(٢) تتأجَّج : تشتعل وتضطرم .

ذلك لأنَّ ذوي الأسْرَىٰ من القرشِيين كانوا يتردَّدون علَىٰ يثربَ سعْياً ورآء افْتِداءِ أسْراهُم .

* * *

أَمَرَ عميرُ بنُ وَهْبٍ بِسَيْفِه فشُحِذَ وسُقِيَ سُمًّا . . .
ودعا براحِلَتِهِ فأُعِدَّت وقُدِّمَتْ له ؛ فامْتَطَىٰ مَتْنَها[1] . . .
ويَمَّمَ وجهَه شَطْرَ المدينَةِ ، ومِلْءُ بُرْدَيْه الضَّغِينَةُ[2] والشرُّ .

بلغ عميرُ المدينةَ ومَضَىٰ نَحْوَ المسجِدِ يريدُ رسولَ اللّهِ ﷺ ، فلمَّا غدا قريباً من بابِه أناخَ راحِلَتَه ونَزَلَ عنها .

* * *

كان عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللّهُ عنه ـ إذْ ذاك ـ جالِساً مَعَ بَعْضِ الصَّحابةِ قريباً من بابِ المسجِدِ ، يَتَذاكرون بَدْراً وما خَلَّفَتْه وراءَها من أسْرَىٰ قريشٍ وقَتْلاهُم ، وَيَسْتَعيدون صُوَرَ بُطولاتِ المسلمين من المهاجِرين والأنصارِ ، ويَذْكُرون ما أَكْرَمَهُمُ اللّهُ به مِنَ النَّصْرِ ، وما أراهمْ في عَدُوِّهم من النِّكايَةِ[3] والخِذْلانِ .

فحانَتْ من عُمَرَ الْتِفاتةٌ فرأىٰ عُمَيرَ بنَ وَهْبٍ ينزِلُ عن راحِلَتِه ، ويمضي نحوَ المَسْجِدِ متوشِّحاً سيفَه[4] ، فهبَّ مَذْعوراً وقال :

هذا الكلبُ عدوُّ اللّهِ عميرُ بنُ وهبٍ . . .

واللّهِ ما جاءَ إلَّا لِشَرٍّ ، لقد ألَّبَ[5] المشركين علينا في مكةَ ، وكان عَيْناً[6] لهم عَلَينا قُبَيْلَ بَدْرٍ . . . ثم قال لجُلسائِه :

---

(١) امتطى متنها : ركب ظَهْرَها .
(٢) الضغينة : الحقد والكره .
(٣) النكاية : القَهْرِ والإصابَةِ بالقَتْلِ والجَرْحِ .
(٤) متوشِّحاً سيفه : متقلداً سيفَه .
(٥) ألَّب : أثار .
(٦) عيناً : جاسوساً .

امْضُوا إِلىٰ رسولِ اللّهِ ، وكونوا حَوْلَه ، واحذَروا أَنْ يَغْدُرَ به هذا الخبيثُ الماكِرُ .

ثم بادَرَ عمرُ إِلىٰ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقال : يا رسولَ اللّهِ ، هذا عدوُّ اللّهِ عُمَيرُ بنُ وَهْبٍ قد جاء مُتَوَشِّحاً سَيْفَه ، وما أَظنُّه إِلَّا يريدُ شرّاً .

فقال عليه السَّلامُ : أَدْخِلْه عليّ .

فأَقْبَلَ الفاروقُ علىٰ عُميرِ بنِ وَهْبٍ وأَخَذَ بِتَلابِيبِه[1] ، وطوَّقَ عُنُقَه بِحِمالَة سيفِه[2] ، ومَضَىٰ بِهِ نَحْوَ رسولِ اللّهِ ﷺ .

فلما رآه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ علَىٰ هذه الحال ؛ قال لعمر :

(أَطْلِقْه يا عُمَرَ) ، فأَطلقه ، ثم قال له : (اسْتَأْخِرْ عنه) ، فتأَخَّرَ عنه ، ثم توجَّه إِلىٰ عُمَيرِ بنِ وَهْبٍ وقال :

(ادْنُ يا عميرُ) ، فدنا وقال : أَنْعِمْ صباحاً (وهي تَحِيَّةُ العربِ في الجاهلية) .

فقال رسولُ اللّهِ ﷺ :(لقد أَكْرَمَنا اللّهُ بتَحِيَّةٍ خيرٍ من تَحِيَّتِك يا عُمَير . . . لقد أَكْرَمَنا اللّهُ بالسَّلامِ ، وهو تحيةُ أَهْلِ الجنَّةِ) .

فقال عُمَيرٌ : واللّهِ ما أَنْتَ ببعيدٍ عن تَحِيتِنا ، وإِنَّك بها لَحَديثُ عَهْدٍ .

فقال له الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ :(وما الذي جاءَ بك يا عُمَير ؟!) .

قال : جئتُ أرجو فَكاكَ هذا الأَسيرِ الذي في أَيْديكُم ، فأَحْسِنوا إِليَّ فيه .

قال :(فما بالُ[3] السيفِ الذي في عُنُقِكَ ؟!) .

قال : قبَّحها اللّهُ مِنْ سيوفٍ . . .

وَهَلْ أَغْنَت عنَّا شيئاً يومَ بَدْرٍ ؟!!

---

(١) أخذ بتلابيبه : أَمْسَكَه من طوق ثَوْبِهِ مسكةَ متمكِّنٍ .

(٢) حِمالة السيف : ما يعلق به .

(٣) ما بال السيف : ما خَبُر السيف .

قال : (اصْدُقْني ، ما الذي جئْتَ له يا عُمَيرُ ؟) .

قال : ما جِئْتُ إلَّا لذاك .

قال : (بَلْ قَعَدْتَ أنتَ وصَفْوانُ بنُ أُميَّةَ عِنْدَ الحِجْر ، فتذاكَرْتُما أَصْحابَ القَليبِ مِنْ صَرْعَىٰ قريش ثم قلتَ :

لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عِنْدي لَخَرَجْتُ حتَّىٰ أقتلَ مُحَمَّداً . . .

فتحمَّل لَكَ صَفْوانُ بنُ أُمية دَيْنَك وعيالَك علىٰ أَنْ تَقْتُلَني . . .

واللَّهُ حائِلٌ بينَك وبينَ ذلك) .

فذَهِل عميرٌ لحْظةً ، ثم ما لَبثَ أَنْ قال : أشهدُ أنَّك لرَسولُ اللَّهِ .

ثم أَرْدَفَ[1] يقول : لقد كُنَّا يا رسولَ اللَّهِ نُكَذِّبُك بما كنتَ تأتينا به من خَبَرِ السَّماءِ ، وما يَنْزِلُ عليك من الوَحْي ، لكِنَّ خَبَرِي مَعَ صَفْوانَ بنِ أُمَيَّةَ لم يعلمْ به أَحدٌ إلَّا أنا وهو . . .

وواللَّهِ لقد أَيْقَنْتُ أنه ما أتاك به إلَّا اللَّهُ . . .

فالحمدُ للَّهِ الذي ساقَني إليك سَوْقاً ، لِيَهْدِيَني إلىٰ الإسلام . . . ثم شهِد أن لا إله إلَّا اللَّه ، وأن محمداً رسولُ اللَّه ، وأسلم .

فقال عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأَصحابِه : فقِّهوا أخاكم في دينِهِ ، وعلِّموه القرآن ، واطْلِقوا أسيرَه .

* * *

فَرِحَ المسلمون بإسلامِ عميرِ بنِ وَهْب أشدَّ الفَرَح ؛ حتَّىٰ إن عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رضي اللَّهُ عنه قال : لَخِنْزيرٌ كان أَحبَّ إليَّ من عُمَيرِ بنِ وهْبٍ حينَ قَدِمَ عَلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وهو اليومَ أحبُّ إليَّ من بَعْضِ أبنائي .

* * *

---

(١) أرْدَفَ : أتْبع .

وفيما كان عُمَيرٌ يُزكِّي[1] نَفْسَه بتَعـاليم الإِسْلام ، ويُتْـرِعُ[2] فؤادَه بنورِ القرآن ، ويَحيْا أرْوَعَ أيامِ حياتِه وأغْناها ، مِمَّا أَنْساه مَكَّةَ ومَن في مَكَّةَ .

كان صفوانُ بنُ أُمَيَّةَ يمنِّي نفسَه الأماني ، ويَمُرُّ بأَنْدِيَةِ قريشٍ فيقول : أَبشِروا بِنَبأٍ عظيمٍ يأتيكُم قريباً فيُنسيكم وَقْعَةَ بَدْرٍ .

* * *

ثم إِنَّه لما طالَ الانتظارُ علىٰ صفوانَ بنِ أُميَّةَ ، أخَذَ القلقُ يتسَرَّبُ إلىٰ نفسِه شيئاً فشيئاً ، حتَّىٰ غدا يَتَقَلَّب على أحرِّ من الجمرِ ، وطَفِقَ يسائل الرُّكْبانَ عن عميرِ بنِ وَهْبٍ فلا يجدُ عندَ أحَدٍ جواباً يَشْفِيه . . .

إلىٰ أَنْ جاءَه راكِبٌ فقال : إنَّ عُميراً قد أَسلم . . .

فنزلَ عليه الخبرُ نزولَ الصّاعِقَةِ . . . إذْ كان يظنُّ أنَّ عميـرَ بنَ وَهْبٍ لا يسلمُ ولو أَسْلَمَ جميعُ مَنْ علىٰ ظَهْرِ الأرضِ .

* * *

أمَّا عميرُ بنُ وَهْبٍ فإنَّه ما كادَ يتفقَّه في دينِه ويحفَظُ ما تَيَسَّرَ له من كلامِ ربِّه ، حتَّىٰ جاء إلىٰ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقال : يا رسولَ اللّهِ ، لقد غَبَرَ[3] عليَّ زمـانٌ وأنا دائبٌ على إطفاءِ نور اللّهِ ، شـديدُ الأذىٰ لِمَنْ كـان على دين الإسلام ، وأنا أحِبُّ أَنْ تَـأْذَنَ لي بأنْ أَقْـدمَ علىٰ مكَّةَ لِأَدْعُـوَ قريشـاً إلىٰ اللّهِ ورسولِهِ ، فإن قَبِلوا منِّي فنِعْمَ ما فَعَلوا ، وإنْ أعْرَضوا عنِّي آذَيْتُهم في دينِهم كما كنتُ أؤذي أصحابَ رسولِ اللّهِ ﷺ .

فأذِن له الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فوافَىٰ مَكَّةَ ، وأتَىٰ بيتَ صفوانَ بنِ أُميَّةِ وقال :

---

(١) يزكي نَفْسه : يطهرها .

(٢) يترع : يملأ .

(٣) غَبَر : مَضَى .

يا صَفْوانُ ، إنّك لَسَيِّدٌ من سادات مَكَّةَ ، وعاقِلٌ من عُقَلاءِ قريشٍ ، أَفَتَرىٰ أن هذا الذي أنتم عليه من عِبادَةِ الأحْجَارِ والذَّبْح لها يَصِحُّ في العقْلِ أنْ يكونَ ديناً ؟!

أمَّا أنا فَأَشْهَدُ أنْ لا إِلٰهَ إلَّا اللّه وأنَّ محمداً رسولُ اللّه .

* * *

ثم طَفِقَ عميرٌ يَدْعو إلىٰ اللّهِ في مكَّةَ ، حتَّىٰ أسلمَ على يديه خَلْقٌ كثيرٌ .
أَجْزَلَ اللّهُ مثوبَةَ عُمَيْرِ بنِ وَهْبٍ ، ونَوَّرَ له في قَبْرِه(*) .

(*) للاستزادة من أخبار عمير بن وهب انظر :
١ ـ حياة الصحابة (الفهارس في الجزء الرابع) .
٢ ـ السيرة لابن هشام بتحقيق السقا (انظر الفهارس) .
٣ ـ الإصابة ، الترجمة : ٦٠٦٠ .
٤ ـ طبقات ابن سعد : ١٤٦/٤ .

البَراءُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ

« لا تُوَلُّوا البَراءَ جَيشاً مِن جُيوشِ المسلِمينَ مَخافَةَ أن يُهلِكَ جُنْدَهُ بإقدامِهِ »

[عمر بن الخطاب]

كان أَشْعَثَ أَغْبَرَ(١) ضَئيلَ الجِسْمِ مَعْروقَ العظم(٢) تَقْتَحِمُه(٣) عينُ رائِيه ثمّ تَزْوَرُّ(٤) عنه ازْوِراراً .

ولكِنَّه مع ذلك ، قَتَلَ مِائَةً من المشْرِكين مُبارَزَةً وَحْدَه ، عدا عن الذين قَتَلَهم في غِمار المعارِكِ مع المحاربين .

إنَّـه الكَمِيُّ الباسِـلُ المِقدامُ الـذي كَتَبَ الفاروقُ بشَـأنِه إلىٰ عُمّـاله في الآفاق. ألاَّ يُوَلُّوه علىٰ جيشٍ من جيوشِ المسلمين، خَوْفاً مِنْ أَنْ يُهْلكَهم بإقدامه .

إنَّـه البراءُ بنُ مـالِكٍ الأنصـاريُّ ، أخو أنسِ بن مـالِـكٍ خـادِمِ رسـولِ اللّهِ ﷺ .

ولو رُحْتُ أَسْتَقْصِي لَكَ أخبارَ بطولاتِ البَـراءِ بنِ مالِـكِ ، لطالَ الكـلامُ وضاقَ المقَامُ ؛ لذا رأيتُ أَنْ أَعرضَ لَكَ قِصَّةً واحِدَةً من قِصَصِ بطولاتِه ، وهي تُنْبيكَ(٥) عَمَّا عداها .

* * *

(١) أشعث أغْبر : متلبِّدَ الشعر أغبر الجِسْم .

(٢) معروق العظم : مهزول الجسد قليل اللحم .

(٣) تقتحمه : تنظر إليه بصعوبة .

(٤) تزوَرُّ عنه : تميل عنه .

(٥) تنبيك : تخبرك .

تَبْدأ هذه القِصَّةُ مُنْذُ الساعاتِ الأولىٰ لوفاةِ النبيِّ الكريمِ وٱلْتِحاقِه بالرَّفيقِ الأعْلَىٰ ، حيْثُ طفِقَت قبائلُ العَربِ تَخْرُجُ من دينِ اللّهِ أفْواجاً ، كما دَخَلَتْ في هذا الدين أفْواجاً ، حتَّىٰ لم يَبْقَ علىٰ الإسلامِ إلَّا أهلُ مكَّةَ والمدينةِ والطائفِ وجماعاتٌ مُتَفرِّقةٌ هنا وهناك مِمَّن ثَبَّتَ اللّهُ قلوبَهم علىٰ الإيمانِ .

* * *

صَمَدَ الصِدِّيق، رِضْوانُ اللَّهِ عليه، لِهذه الفِتْنَةِ المدَمِّرة العَمْياءِ ، صمودَ الجِبالِ الراسِياتِ ، وجَهَّز من المهاجرين والأنصار أحَدَ عَشَرَ جَيْشاً ، وعَقَدَ لِقَادَةِ هذه الجيوشِ أحَدَ عَشَرَ لواءً ، ودَفَعَ بهم في أرْجاءِ جزيرةِ العَرَب لِيُعِيدوا المُرْتدين إلىٰ سبيلِ الهُدَىٰ والحقِّ ، ولِيَحْمِلوا المُنْحَرِفين علىٰ الجادَّةِ[1] بحدِّ السيفِ .

وكان أَقوى المُرْتَدينَ بأساً ، وأكثرَهُم عدداً ، بنو حنيفَةَ أصحابُ مُسَيْلَمَة الكذَّابِ .

فقَدْ اجْتَمَعَ لمُسَيْلَمَةَ من قَوْمِه وحُلَفائِهم أربعون ألفاً من أشِدَّاءِ المحَارِبين .

وكان أكثرُ هؤلاءِ قد اتَّبعوه عَصَبيَّةً[2] له ، لا إيماناً به ، فقد كان بعضُهم يقولُ :

أَشْهَدُ أنَّ مسيلمةَ كذابٌ ، ومحمداً صادِقٌ . . . لكِنَّ كذابَ ربيعةَ[3] أَحبُّ إلينا من صادِقِ مُضر[4] .

* * *

(١) الجادَّة : الصراط المستقيم الذي هو الإسلام .

(١) العصَبيَّة : شدَّة ارتباط المرء بعُصْبَتِه أو جماعتِه ونصرتها في الحقِّ والباطِلِ .

(٣) كذاب ربيعة : مسيلمة .

(٤) صادق مضر : محمد ﷺ .

هَزَم مسيلمةُ أوَّلَ جَيْشٍ خَرج إليه من جيوشِ المسلمين بِقيادَةِ عِكْرِمة بنِ أبي جَهْلٍ وردَّه على أَعْقابِه .

فأرْسَلَ له الصدِّيقُ جَيْشاً ثانياً بقيادَةِ خالِدِ بنِ الـولِيدِ ، حَشَـدَ فيه وُجـوهَ الصَّحابَةِ من الأَنصارِ والمُهاجِرين ، وكان في طليعَةِ هؤلاءِ وهؤلاءِ البراءُ بنُ مالِكٍ الأنْصارِيُّ ونَفَرٌ من كُماةِ المسلمين .

* * *

اِلْتَقَىٰ الجَيْشَانِ على أَرضِ اليَمامَةِ في نجْدٍ ، فما هو إلَّا قليـلٌ ، حتَّىٰ رَجَحَتْ كَفَّةُ مُسَيْلَمَةَ وأصحابِه ، وزُلْزِلتِ الأرْضُ تحتَ أَقْدامِ جنودِ المسلمين ، وطَفِقـوا يَتَراجَعـون عن مواقِفِهم ، حتَّىٰ اقْتَحَمَ أصحـابُ مسيلمـةَ فُسْـطَاطَ[1] خالِدِ بنِ الوليدِ ، واقْتَلعوه من أُصولِه ، وكادوا يَقْتُلون زوجَتَه لولا أنْ أجارَها واحدٌ منهم .

عندَ ذلك شَعَرَ المسلمون بالخَطَرِ الدَّاهِم[2] ، وأَدْركوا أنَّهم إنْ يُهزَموا أَمامَ مسيلمةَ فَلَنْ تقومَ للإسلامِ قائِمَةٌ بعدَ اليومِ ، ولنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْده لا شريكَ له في جزيرةِ العربِ .

وهَبَّ خـالِدُ إِلىٰ جَيْشِـه ، فأعـاد تَنْظِيمَـه ، حيث مَيَّـز المهـاجِـرينَ عن الأنصارِ ، وميَّزَ أبناءَ البَوادِي عَن هؤلاء وهؤلاء .

وجمع أبْنَاءَ كُلِّ أبٍ تَحْتَ رايَةِ واحِدٍ منهم ، لِيُعْرَفَ بلاءُ كلِّ فـريقٍ في المعركَةِ ، ولِيُعْلَمَ من أَينَ يُؤْتَىٰ المسلمون[3] .

* * *

ودارَتْ بينَ الفَريقين رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَروسٍ[4] لم تعرِفْ حروبُ المُسْلِمين

---

(١) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

(٢) الخطر الداهِم : الخطر الشديد المفاجىء .

(٣) يُؤْتىٰ المسلمون : من أينَ يصابون.

(٤) معركة ضروس : معركة شديدة مهلكة .

لها نظيراً من قَبْلُ ، وثَبَتَ قومُ مُسَيْلمةَ في ساحاتِ الوغَىٰ ثَبَاتَ الجبالِ الرَّاسِياتِ ولم يـأْبَهوا[1] لِكَثْـرَةِ ما أصـابَهم من القَتْلِ . وأَبْـدَىٰ المسلمـون من خَـوارِقِ البُطولات ما لو جُمعَ لكانَ مَلْحَمَةً[2] من روائِعِ الملاحِمِ .

فهذا ثابِتُ بنُ قيسٍ[3] حاملُ لواءِ الأنصارِ يَتَحَنَّط ويتكفَّن ويحفِرُ لنفسِه حُفْرَةً في الأَرْضِ ، فينزلُ فيها إلىٰ نِصْف ساقَيْهِ ، وَيَبْقَىٰ ثابتاً في مَوْقِفِه ، يجالِدُ عن رايةِ قومِهِ حتَّىٰ خَرَّ صريعاً شهيداً .

وهٰذا زَيْدُ بنُ الخَطَّابِ أخو عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللّٰهُ عنهما ينادِي في المسلمين :

أيُّها النَّاسُ عضُّوا على أضْراسِكم ، واضْرِبوا في عَدِوِّكم وامْضوا قُدُماً . . .

أيُّها النَّاسُ ، واللّٰهِ لا أتكلَّمُ بَعْدَ هٰذه الكلِمةِ أبداً حتَّىٰ يُهْزَمَ مسيلمةُ أو أَلْقَىٰ اللّٰهَ ، فأُدْلِيَ إليه بحُجَّتي . . .

ثمَّ كرَّ علىٰ القومِ فما زالَ يقاتِلُ حتَّىٰ قُتِلَ .

وهذا سالمٌ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَةَ يَحْمِلُ رايةَ المهاجرين فيَخْشَىٰ عليه قومُه أنْ يَضْعُفَ أو يتزَعْزَعَ ، فقالوا له :

إنا لنَخْشَى أَنْ نُؤتَىٰ من قِبَلِكَ ، فقال :

إن أُتيتُم من قِبَلي فَبِئْسَ حامِلُ القرآن أكون . . .

ثم كرَّ علىٰ أعداءِ اللّٰهِ كرَّةً باسِلَةً ، حتَّىٰ أُصيبَ .

ولكِنَّ بطولاتِ هؤلاءِ جميعاً تَتَضَاءَل أمامَ بطولَةِ البَراءِ بنِ مالكٍ رضي اللّٰهُ عنه وعنهم أجمعين .

---

(١) لم يأبهوا : لم يهتموا ولم يلتفتوا .

(٢) الملحمة : عمل شعري كبير ينظم في وصف الحروب وجيوشها وأبطالها .

(٣) انظر سيرته ص ٤٥٦ .

ذلك أنَّ خالِداً حينَ رأىٰ وطيسَ[1] المَعْرَكَـةِ يَحْمَىٰ ويشْتَدُّ ، التفتَ إلىٰ البَراءِ بنِ مالكٍ وقال : إلَيْهِم يا فتَىٰ الأنْصارِ . . .

فالتَفتَ البراءُ إلىٰ قَوْمِه وقال :

يا مَعْشَرَ الأنصارِ لا يُفكِّرَنَّ أحدٌ منكم بالرجوعِ إلىٰ المدينَةِ ؛ فلا مدينَةَ لَكُمْ بَعْدَ اليومِ . . .

وإنَّما هو اللّهُ وحدَه . . . ثم الجَنَّة . . .

ثمَّ حَمَلَ علىٰ المشركين وحَملوا مَعَه ، وانْبَرَىٰ يشُقُّ الصُّفوفَ ، ويُعْمِل السيفَ في رقابِ أعْدَاءِ اللّهِ حتَّىٰ زُلْزِلَتْ أقدامُ مُسَيْلَمَةَ وأصحابِه ، فلجأوا إلىٰ الحديقةِ التي عُرِفَتْ في التَّاريخِ بَعْدَ ذلك باسْمِ حديقةِ الموتِ ؛ لِكَثْرَةِ من قُتِل فيها في ذلك اليومِ .

* * *

كانت حديقةُ الموتِ هذه رحْبَةَ الأَرْجاءِ سامِقَةَ[2] الجُدْرانِ ، فأَغْلَقَ مسيلمةُ والآلافُ المُؤَلَّفَةُ من جُنْدِه عليهم أبوابَها ، وتَحَصَّنوا بِعالي جُدْرانِها ، وجَعَلوا يُمطِرون المسلمين بِنِبالهم من داخِلِها فتَتَساقَطُ عَليهم تَسَاقُطَ المَطَر .

عند ذلك تَقَدَّمَ مِغْوارُ المسلمين الباسِلُ البَراءُ بنُ مالِكٍ وقال :

يا قوم ، ضَعوني على تُرْسٍ ، وارْفعوا التُّرْسَ على الرِّماح ، ثم اقْذِفُوني إلىٰ الحديقَةِ قريباً من بابِها ، فإمَّا أنْ أُسْتَشْهَدَ ، وإما أنْ أفْتَحَ لَكُمُ البَابَ .

* * *

وفي لَمْحِ البَصَرِ جَلَسَ البراءُ بنُ مالِكٍ على تُرْسٍ ، فقد كان ضَئيلَ الجِسْمِ نَحِيلَه ، وَرَفَعَتْهُ عَشَراتُ الرِّماحِ فأَلْقَتْهُ في حديقةِ المَوْتِ بَيْنَ الآلافِ المُؤَلَّفَةِ من

---

(١) الوطيس : التَّنور ، ويقال حمي الوطيس أي اتقدت نيران الحرب واشتدَّت .

(٢) سامقة الجدران : عالية الجدران .

جُنْدِ مُسَيْلِمَةَ ، فنـزلَ عليهم نزولَ الصَّـاعِقَةِ ، ومـا زال يُجالِـدُهُمْ أمامَ بـابِ الحديقَةِ ، ويُعْمِلُ في رِقابِهم السَيفَ حتَّىٰ قَتَلَ عَشَرَةً منهم وفَتَحَ البابَ ، وبـهِ بِضْـعٌ[1] وثمانـون جِراحَـةً من بَيْنِ رَمْيَةٍ بسهْـمٍ أو ضَـرْبـةٍ بسيفٍ . . . فتـدفَّقَ المسلمون علىٰ حديقةِ الموْتِ ، من حِيطانِها وأَبْوابِها وأَعْمَلوا السيوفَ في رِقابِ المُرْتَدِّين اللائِذين[2] بجُدْرانِها ، حتَّىٰ قَتَلوا مِنْهُم قريباً من عِشْرين ألفاً وَوَصلوا إلىٰ مُسَيْلِمَةَ فأَرْدَوْه صريعاً .

* * *

حُمِلَ البراءُ بنُ مالكٍ إلىٰ رَحْلِه ليُداوَىٰ فيه ، وأقامَ عليه خالِدُ بنُ الوليدِ شَهْراً يعالِجُه من جِراحِه حتَّىٰ أَذِنَ اللّهُ له بالشِّفاءِ ، وكتبَ لِجُنْدِ المسلمين علَىٰ يديه النصْرُ .

* * *

ظَلَّ البَراءُ بنُ مالكٍ الأنْصَارِيُّ يَتُوقُ إلىٰ الشَّهادَةِ التي فاتَتْـه يومَ حـديقَةِ الموتِ . . .

وطَفِقَ يخوضُ المعارِكَ واحِدَةً بعدَ أُخْرَىٰ شوقاً إلىٰ تحقيقِ أمنيتِه الكُبْرَى وحَنيناً إلىٰ اللِّحاقِ بِنَبيِّـه الكريمِ ، حتَّىٰ كـان يومُ فَتْـحِ « تُسْتر »[3] من بـلادِ فـارسٍ ، فقد تحصَّن الفُـرْسُ في إحدىٰ القـلاعِ المُمَـرَّدةِ[4] ، فحـاصَـرَهُمُ المسلمون وأَحاطوا بهم إحاطَةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ ، فلمَّا طـالَ الحِصارُ واشتـدَّ البلاءُ على الفُرْسِ ، جعلوا يُدَلُّون من فَوْقِ أَسْوارِ القَلْعَةِ سَلاسِلَ من حديدٍ ، عُلِّقَتْ بها كلاليبُ من فُولاذٍ حُمِّيَتْ بالنَّارِ حتَّىٰ غَدَتْ أَشَـدَّ تَوَهُّجـاً من الجَمْرِ

---

(١) البِضْعُ : من الثلاثة إلىٰ التسعة .

(٢) اللائذين : المحتمين .

(٣) تستر : اسم مدينة في بلاد فارس .

(٤) القلاع الممرَّدة : الملساء المرتفعة .

فكانت تَنْشَبُ[1] في أجسادِ المسلمين وتَعْلَقُ بها ، فَيَرْفعونَهم إليهم إمَّا موتَىٰ وإمَّا على وشكِ الموتِ .

فَعَلِقَ كلاَّبٌ منها بأنس بنِ مالكٍ أخي البراء بنِ مالكٍ ، فما إن رآه البراءُ حتَّىٰ وَثَبَ علىٰ جِدارِ الحِصْنِ ، وأمْسَكَ بالسِّلْسِلَةِ التي تَحْمِل أخاه ، وَجَعَل يُعالِجُ الكُلاَّبَ لِيُخْرِجَه من جَسَدِه فأخَذَتْ يَدُه تحترقُ وتدخِّنُ ، فلم يَأْبَه لها حتَّىٰ أنقَذَ أخاه ، وهَبَطَ إلىٰ الأرضِ بعد أن غَدَتْ يَدُهُ عظاماً ليس عليها لحمٌ .

وفي هذه المعركَةِ دعا البراءُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ اللّهَ أن يَرْزُقَه الشهادةَ ؛ فأجابَ اللّهُ دعاءَه ، حيث خرَّ صريعاً شهيداً مُغْتَبطاً بلقاءِ اللّهِ .

* * *

نَضرَ اللّه وَجْهَ البراءِ بنِ مالكٍ في الجنَّةِ ، وأقرَّ عينَه بِصَحْبَةِ نبيِّه محمدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ورضي عنه وأرضاه[*] .

(*) للاستزادة من أخبار البراء بن مالك الأنصاري انظر :

١ ـ الإصابة الترجمة : ٦٢٠ .

٢ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ١٣٧ .

٣ ـ الطبقات الكبرى : ٣/ ٤٤١ و ٧/ ١٧ ، ١٢١ .

٤ ـ تاريخ الطبري : انظر الفهارس في العاشر .

٥ ـ الكامل في التاريخ : انظر الفهارس .

٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام : انظر الفهارس .

٧ ـ حياة الصحابة : انظر الفهارس في الرابع .

٨ ـ قادة فتح فارس لشيت خطّاب .

(١) تنشب : تغرز وتعلق .

أم سلمة

أُمُّ سَلَمَة ، وما أَدْراكَ ما أُمُّ سَلَمَة ؟!

أما أبوها فسيِّدٌ من ساداتِ مَخْزومٍ المَرْموقين ، وجوادٌ من أجْوَادِ العَرَبِ المَعْدودين ، حتَّىٰ إنه كان يقال له : « زادُ الراكِبِ » ؛ لأنَّ الرُّكْبانَ كانَتْ لا تَتَزَوَّدُ إذا قَصَدَتْ منازِلَه أو سارَتْ في صُحْبَتِهِ .

وأَمَّا زوجُها فعبدُ اللّهِ بنُ عبدِ الأسَدِ أَحَدُ العَشَرةِ السابقين إلىٰ الإسلامِ ؛ إذْ لم يسلم قَبْلَه إلَّا أبو بكرٍ الصديقُ ونفرٌ قليلٌ لا يَبْلُغُ أصابعَ اليدين عدداً .

وأمَّا اسمُها فهندُ ، لكِنَّها كُنِّيت بِأُمِّ سَلَمَة ، ثم غَلَبَتْ عليها الكُنْيَةُ .

* * *

أسلمت أمُّ سَلَمَـة مع زَوْجِهـا فكانتْ هي الأخْـرَىٰ من السـابقـاتِ إلىٰ الإسْلامِ أيضاً .

وما إنْ شاعَ نبأُ إسلامِ أمِّ سَلَمَة وزوجِها حتَّىٰ هاجَتْ قريشٌ ومَـاجَتْ ، وَجعلتْ تَصُبُّ عليهما من نَكَالها[1] ما يُزَلْزِلُ الصُّمَّ الصِّلابَ[2] ، فلم يَضْعُفا ولم يَهِنا ولم يَتَردَّدا .

---

(١) النكال : الأذى الشديد الذي يجعل المصابَ به عبرة لغيره .

(٢) الصم الصلاب : الصخور القاسية .

ولمَّا اشتدَّ عليهما الأذَىٰ وأذِنَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه لأصحابهِ بالهِجْرَةِ إلىٰ الحَبَشَةِ كانا في طليعةِ المهاجرين .

* * *

مَضَتْ أمُّ سلمة وزوجُها إلىٰ ديارِ الغُرْبَـةِ وخلَّفَتْ وراءها في مكَّـةَ بيتَها الباذِخَ[1] ، وعزَّها الشامِخَ ، ونَسَبَها العريقَ ، مُحْتَسِبَةً[2] ذلك كلَّه عندَ اللّهِ ، مُسْتَقِلَّةً له في جَنْبِ مَرْضاتِه .

وعلىٰ الرَّغْمِ ممَّا لَقِيَتْه أمُّ سَلَمَة وصحبُها مِنْ حِمايَةِ النِّجاشِيِّ نَضَّرَ اللّهُ في الجنَّةِ وَجْهَه ، فقد كان الشَّوْقُ إلىٰ مكَّةَ مهبِطِ الوَحْي ، والحنينُ إلىٰ رسولِ اللَّهِ مَصْدَر الهُدَىٰ يَفْري كَبِدَها وكَبِدَ زوجها فَرْياً .

ثم تَتَابَعَتِ الأخبارُ على المهاجِرين إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ بأنَّ المسلمين في مكَّةَ قد كَثُرَ عَدَدُهم ، وأنَّ إسلامَ حَمْزَةَ بنِ عبدِ المطَّلِبِ ، وعمرَ بنِ الخطَّابِ قد شَدَّ من أَزْرِهم[3] ، وكَفَّ شيْئاً من أذىٰ قريشٍ عنهم ، فَعَزَمَ فريقٌ منهم علَىٰ العَوْدَةِ إلىٰ مكَّةَ ، يَحْدوهم الشوقُ[4] ، ويدعوهم الحنينُ . . .

فكانت أمُّ سلمة وزوجُها في طليعةِ العائدين .

* * *

لكِنْ سَرْعانَ ما اكْتَشَفَ العائدون أنَّ ما نُمِيَ إليهم من أخبارٍ كان مُبـالَغاً فيه ، وأنَّ الوَثْبَةَ التي وَثَبَهَا المسلمون بَعْدَ إسلامِ حمزةَ وعمرَ ، قد قوبِلَتْ مِنْ قريشٍ بِهَجْمَةٍ أكبرَ .

فافتَنَّ المُشْرِكون في تَعْذيبِ المسلمين وتَرْويعِهم ، وأذاقوهُم مِنْ بَأسِهم ما لا عَهْدَ لهم بِهِ مِنْ قَبْلُ .

---

(١) الباذخ : العالي ، الرفيع .
(٢) محتسبة : طالبة الجزاءَ من اللّهِ .
(٣) شدَّ أزرهم : قوَّاهم .
(٤) يحدوهم الشوق : يسوقهم الشوقُ .

عند ذلك أَذِنَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه لأَصْحابِه بالهِجْرَةِ إلىٰ المدينةِ ، فَعَزَمَتْ أُمُّ سلمةَ وزوجُها علىٰ أن يكونا أَوَّلَ المهاجِرين فِراراً بدينِهما وتَخَلُّصاً من أذى قريشٍ .

لكِنَّ هِجْرَةَ أمِّ سَلَمَة وزوجِها لم تكنْ سَهْلَةً مُيَسَّرَةً كما خُيِّل لهما ، وإنَّما كانت شَاقَّةً مُرَّةً خَلَّفَتْ وراءَها مأساةً تهون دونَها كلُّ مأْساةٍ .

فَلْنَتْرِكِ الكلامَ لأُمِّ سلمة لِتَرْوِيَ لنا قِصَّةَ مأْساتِها . . .

فشعورُها بها أَشدُّ وأَعْمَقُ ، وتَصْويرُها لها أَدَقُّ وأَبْلَغُ .

قالت أمُّ سلمة : لما عَزَمَ أبـو سَلَمَة على الخـروجِ إلىٰ المدينَـةِ أَعَدَّ لي بعيراً ، ثمَّ حَمَلَني عليه ، وجعلَ طِفْلَنا سَلَمَة في حِجْرِي ، ومضَىٰ يقودُ بِنا البعيرَ وهو لا يَلْوي علىٰ شيء[1] .

وقبلَ أن نَفْصِلَ[2] عن مَكَّةَ رآنا رِجالٌ مِنْ قَوْمي بني مخزومٍ فَتَصَدَّوْا لنا ، وقالوا لأبي سلَمَة :

إن كنت قَد غلبْتَنا علىٰ نَفسِك ، فما بالُ امْرَأَتِك هذه ؟!

وهي بِنْتُنا ، فعلامَ نَتْرُكُكَ تأخُذُها مِنَّا وتسيرُ بها في البلادِ ؟!

ثم وَثَبوا عليه، وانْتَزَعوني منه انْتِزاعاً .

وما إن رآهم قومُ زوجِي بنو عَبْدِ الأَسَدِ يأخذونَني أنا وطِفْلي ، حَتَّى غَضِبوا أَشَدَّ الغَضَبِ ، وقالوا :

لا واللهِ لا نَتْرُكُ الوَلَـدَ عِنْدَ صـاحِبَتِكُم بعد أنْ انتـزعْتُمُوهـا من صاحِبِنـا انْتِزاعاً . . . فهو ابْنُنا ونحن أولىٰ به .

---

(١) لا يلوي على شيء : لا يقف عند شيء ولا ينتظر .

(٢) قبل أن نفصُلَ عن مكَّة : قبل أن نخرج منها .

ثم طَفِقوا يتجاذَبون طِفْلي سلمة بيْنَهم علَىٰ مَشْهَدٍ منِّي حتَّىٰ خَلَعوا يَدَهُ وأخَذوه .

وفي لَحَظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةَ الشَّمْلِ وحيدةً فريدةً :

فزوجي اتَّجَه إلىٰ المدينةِ فِراراً بدينِه ونَفْسِه . . . وولدي اخْتَطفَه بنو عبدِ الأَسَدِ من بَيْنِ يَدَيَّ مُحَطَّماً مَهِيضاً[1] . . .

أما أنا فقد اسْتَوْلىٰ عليَّ قَوْمي بنو مخزومٍ ، وجعلوني عِنْدَهم . . .
فَفُرِّقَ بَيْني وبينَ زَوْجي وَبَيْنَ ابني في ساعَةٍ .

ومُنْذُ ذلك اليومِ جَعَلْتُ أخرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ إلىٰ الأبْطَحِ ، فأَجْلِسُ في المكانِ الذي شَهِدَ مأْساتي ، وأستعيدُ صورةَ اللَّحظاتِ التي حِيلَ فيها بيني وبينَ ولدي وزَوْجِي ، وأَظَلُّ أبْكي حتَّىٰ يُخَيمَ عليَّ الليلُ .

وبقيتُ على ذلك سنةً أو قريباً مِنْ سنةٍ إلىٰ أَنْ مَرَّ بي رَجُلٌ من بني عَمِّي فَرَقَّ لحالي ورَحِمَني وقال لِبني قومي :

ألا تُطْلِقون هذه المسكينةَ !! فَرَّقْتم بينَها وبين زَوْجِها وبينَ ولدِها .
وما زالَ بهم يَسْتَلينُ قلوبَهم ويَسْتَدِرُّ عَطْفَهم حتَّىٰ قالوا لي :
اِلْحقي بزوجِك إن شِئْتِ .

ولكِنْ كيفَ لي أَنْ أَلْحَقَ بِزوجي في المدينةِ وأترُك ولدي وفِلْذَةَ[2] كَبِدي في مكَّةَ عِنْدَ بني عبدِ الأَسدِ ؟!

كيف يمكن أَن تَهْدَأَ لي لَوْعَةٌ أو تَرْقأَ لعيني عَبْرَةٌ[3] وأنا في دارِ الهِجْرَةِ وولدي الصغير في مكَّةَ لا أَعْرِفُ عنه شيئاً ؟!!

---

(١) مهيضاً : ممزَّقاً مكسَّراً .
(٢) فلذة كبدي : قطعةَ كبدي .
(٣) ترقأ لعيني عبرة : تجف لعيني دمعة .

ورأى بعضُ الناسِ ما أعالِجُ[1] مِنْ أَحْزاني وأَشْجاني فرقَّت قلوبُهم لحالي، وكلَّموا بني عبدِ الأسَدِ في شَأْني [2] واسْتَعْطفوهم عليَّ فَرَدُّوا لي وَلَدِي سَلَمَةَ .

***

لم أشأْ أَنْ أَترَيَّثَ في مَكَّةَ حتَّىٰ أجِدَ مَنْ أسافِرُ معَه ؛ فقد كنت أَخشَىٰ أَنْ يَحْدُثَ ما ليس بالحسْبان فيَعوقَني عَنِ اللَّحاقِ بِزَوجِي عائِقٌ . . .

لذلك بادرتُ فأعْدَدْتُ بَعيري ، ووضَعْتُ ولدي في حِجْري ، وخَرَجْتُ مُتَوَجِّهَةً نحوَ المدينةِ أريدُ زَوْجي ، وما مَعي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله .

وما إن بَلَغْتُ « التَّنْعيمَ »[3] حتَّىٰ لقيتُ عُثْمانَ بنَ طلحةَ[4] فقال :

إلىٰ أين يا بِنْتَ زادِ الراكِبِ ؟!

فقلت : أريدُ زَوْجي في المدينةِ .

قال : أَوما مَعَكِ أَحدٌ ؟!

قلت : لا واللَّهِ إلَّا اللَّهَ ثم بُنَيِّي هذا .

قال : واللَّهِ لا أَتْرُكُكِ أبداً حتَّىٰ تَبْلُغِي المدينةَ . ثم أَخَذَ بخِطام[5] بعيري وانْطَلَقَ يَهْوِي بي . . .

فواللَّهِ ما صَحِبْتُ رجلاً من العَرَبِ قَطُّ أكْرَمَ مِنْه ولا أشْرَفَ : كان إذا بَلَغَ منزلاً من المنازِلِ يُنيخُ بعيري ، ثم يَسْتَأْخِرُ عنِّي ، حتَّىٰ إذا نَزلتُ عن ظَهْرِه واسْتَوَيْتُ على الأرض دنا إليه وحَطَّ عَنْه رَحْلَه ، واقْتادَه إلىٰ شَجَرَةٍ وقيَّدَه فيها . . .

---

(١) أعالج : أعاني .

(٢) في شأني : في أمري .

(٣) التنعيم : مكان على ثلاثة أميال من مكة .

(٤) عثمان بن طلحة : كان حاجب بيت اللّه في الجاهلية ، أسلم مع خالد بن الوليد وشهد فتح مكة فدفع إليه الرسول عليه السلام مفتاح الكعبة وكان يوم رافق أم سلمة مشركاً .

(٥) الخِطام : حَبْلٌ يجعل في عنق البعير ليقاد به .

ثم يَتَنَحَّىٰ عَنِّي إلىٰ شَجَرَةٍ أُخْرَىٰ فيَضْطَجِعُ في ظِلِّها .

فإذا حانَ الرَّواحُ قامَ إلىٰ بعيري فأَعَدَّه ، وقدَّمه إليَّ ، ثم يَسْتَأْخِـرُ عَنِّي ويقول : اِرْكَبي ، فإذا رَكِبْتُ ، واسْتَوَيْتُ على البعير ، أَتَىٰ فأخَذَ بِخِطامِه وقادَه .

* * *

وما زال يصْنَعُ بي مثلَ ذلك كلَّ يومٍ حتَّىٰ بَلَغْنا المدينةَ ، فلمَّا نَظَرَ إلىٰ قريةٍ بقُبَاءٍ[1] لبني عمرِو بـن عوفٍ قال : زوجُك في هذه القريةِ ، فادْخُليها علىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ ، ثم انْصَرَف راجِعاً إلىٰ مكَّةَ .

* * *

اجتَمَـع الشَّمْلُ الشتيتُ[2] بعـدَ طـولِ افْتِـراقٍ ، وقـرَّتْ عيْنُ أُمُّ سلمـة بِزَوْجِها ، وسَعِدَ أبو سلمة بصاحِبَتِه وولَدِه . . . ثم طَفِقَتِ الأَحْداثُ تَمْضي سِراعاً كَلَمْحِ البَصَرِ .

فهذه بَدْرٌ يَشْهَدُها أبو سلمة ويعودُ منها مَعَ المسلمين ، وقد انْتَصَروا نَصْراً مُؤَزَّراً[3] .

وهذه أُحُدٌ ، يخوضُ غِمَارَها بَعْدَ بَدْرٍ ، ويُبْلي فيها أحسنَ البلاءِ وأكْرَمَه ، لَكنَّه يخرُجُ منها وقد جُرِحَ جُرْحاً بليغاً ، فما زال يعالِجـهُ حتَّىٰ بدا لـه أنَّه قـد انْدَمَلَ[4] ، لكِنَّ الجُرحَ كان قـد رُمَّ عَلىٰ فَسادٍ[5] فمـا لَبِثَ أَن انْتَكَأَ[6] وأَلْـزَمَ أبا سَلَمَة الفِراشَ .

وفيما كان أبو سلمة يُعالَج من جُرْحِه قال لزوجه : يا أُمَّ سَلَمَة ، سمعتُ

(١) قُباء : قرية في ضواحي المدينة تبعد عنها ميلين .
(٢) الشَّتيت : المُفرَّق .
(٣) مؤزراً : قوياً مبيناً .
(٤) اندمل : تماثل للشفاء .
(٥) رم الجرح على فساد : يعني صلح في الظاهر وهو فاسد في الحقيقة .
(٦) انتكأ : انفتح .

رسولَ اللّه ﷺ يقول :

لا تصيبُ أحداً مصيبةٌ ، فَيَسْتَرْجعُ[1] عِنْدَ ذلك ويقول :

اللَّهُمَّ عندَكَ احْتَسَبْتُ مصيبتي هذه .

اللَّهُمَّ أَخْلِفْني خَيْراً مِنها ، إلَّا أعْطاهُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ . . .

* * *

ظَلَّ أبو سلمة على فِراشِ مَرَضِهِ أياماً . وفي ذاتِ صَباحٍ جاءَه رسولُ اللّهِ ﷺ لِيَعودَه ، فلم يَكَدْ ينتَهي من زيارتِه ويجاوزُ بابَ داره ، حتّى فارقَ أبو سلمة الحياةَ .

فأَغْمَضَ النبيُّ عليه الصّلاةُ والسَّلامُ بِيَديه الشريفتين عَيْني صاحِبه ، ورَفَع طَرْفَه إلىٰ السماءِ وقال :

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأبي سَلَمَة ، وارْفَعْ دَرَجَتَه في المقرَّبين .

واخْلُفْه في عَقِبهِ[2] في الغابرين .

واغْفِرْ لنا وله يا ربَّ العالمين . وأفسِحْ له في قَبْرِه ، ونوِّرْ له فيه) .

أما أُمُّ سلمة فَتذَكَّرَتْ ما رَواهُ لها أبو سَلَمَة عَنْ رسولِ اللّهِ ﷺ فقالت :

اللَّهُمَّ عِنْدَك أَحْتَسِبُ مصيبتي هذه . . .

لكِنها لم تَطِب نفسُها أَنْ تقولَ : اللَّهُمَّ أَخْلِفْني[3] فيها خيراً منها؛ لأنَّها كانت تتساءلَ ، ومن عَساهُ أن يكونَ خَيْراً من أبي سَلَمَة ؟!

لكنَّها ما لَبِثَتْ أن أَتَمّتِ الدعاءَ . . .

* * *

---

(١) يسترجع : يقول إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

(٢) اخلُفْه في عقِبه : كن عِوَضاً عنه لأولادِه وأَهْلِه .

(٣) اخلفْني فيها خيراً منها : عوضني عنها ما هو خيرٌ منها .

حزن المسلمن لِمُصابِ أُمِّ سلمة كما لم يَحْزَنوا لِمُصابِ أَحَدٍ مِن قَبْلُ ، وأطلقوا عليها اسم « أيِّم [(١)] العربِ » . . . .

إذْ لم يَكُنْ لها في المدينةِ أحدٌ من ذويها غيرَ صِبْيَةٍ صغارٍ كزُغْبِ القَطا [(٢)] .

* * *

شَعَرَ المهاجِرون والأنْصارُ معاً بِحَقِّ أُمِّ سلمة عليهم ، فما كادَتْ تَنْتَهي من حِدادِها على أبي سلمة حتَّىٰ تقدَّم منها أبو بكرٍ الصديقُ يخطبُها لِنَفْسِه فأَبَتْ أن تَسْتَجيبَ لِطَلَبِه . . .

ثم تقدَّم منها عمرُ بنُ الخطَّابِ فردَّته كما ردَّت صاحِبَه . . .

ثم تَقَدَّم منها رسولُ اللَّهِ ﷺ فقالت له :

يا رسولَ اللَّهِ ، إنَّ فِيَّ خِلالاً [(٣)] ثلاثاً : فأنا امرأةٌ شديدةُ الغَيْرَة فأَخافُ أن تَرَىٰ مِنّي شَيْئاً يُغْضِبُكَ فَيُعَذِّبني اللَّهُ به .
وأنا امرأةٌ قد دَخَلْتُ في السِنِّ [(٤)] .
وأنا امرَأَةٌ ذاتُ عِيال .
فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ :
(أمَّا ما ذَكَرْتِ من غَيْرَتكِ فإني أَدْعو اللَّه عَزَّ وجَلَّ أن يُذْهِبَها عنك .

وأَمَّا ما ذَكَرْتِ من السنِّ فقد أصابني مثلُ الذي أصابَك . وأَمَّا ما ذَكَرْتِ من العيالِ ، فإنَّما عيالُكِ عيالي) .

---

(١) الأَيِّمُ : المرأة التي فقدت زَوْجها .
(٢) كزغب القطا : كفراخ القطا التي لم ينبت ريشها .
(٣) خِلالاً : صفاتٍ .
(٤) دخلت في السن : جاوَزْتُ سِنَّ الزَواج .

ثم تزوّج رسولُ اللَّهِ ﷺ من أمِّ سَلَمَة فاستجاب الله دعاءَها ، وأخْلَفَها خيراً من أبي سَلَمَة .

ومنذ ذلك اليومِ لَمْ تَبْقَ هِنْدُ المَخْزُومِيَّةُ أُمَّاً لِسَلَمَة وحده ؛ وإنما غَدَتْ أُماًّ لجميع المؤمنينَ .

نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ أمِّ سلمة في الجنَّةِ ورَضِيَ عنها وأرضاها(*) .

(*) للاستزادة من أخبار أم المؤمنين أم سلمة رضي اللَّه عنها انظر :

١ ـ الإصابة (طبعة السعادة) ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

٢ ـ الاستيعاب (طبعة حيدر آباد) ٢ / ٧٨٠ .

٣ ـ أسد الغابة : ٥/٥٨٨ ـ ٥٨٩ .

٤ ـ تهذيب التهذيب : ١٢/٤٥٥ ـ ٤٦٥ .

٥ ـ تقريب التهذيب : ٢/٦٢٧ .

٦ ـ صفة الصفوة : ٢/٢٠ ـ ٢١ .

٧ ـ شذرات الذهب : ١/٦٩ ـ ٧٠ .

٨ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٣/٩٧ ـ ٩٨ .

٩ ـ البداية والنهاية : ٨/٢١٤ ـ ٢١٥ .

١٠ ـ الأعلام ومراجعه : ٩/١٠٤ .

ثمامة بن أثال

« يَضربُ الحِصَار الاقتصادِي على قرَيش »

في السَّنَةِ السادِسَةِ للهِجْرَةِ عَزَمَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه عَلَىٰ أنْ يوسِّعَ نِطاقَ دَعْوتِهِ إلىٰ اللَّهِ ، فَكَتَبَ ثمانِيةَ كُتُبٍ إلىٰ ملوكِ العربِ والعَجَمِ ، وبَعَثَ بها إليهم يَدْعوهم فيها إلىٰ الإسْلامِ .

وكان في جُمْلَةِ مَنْ كاتَبَهُم « ثمامَةُ بنُ أُثالٍ الحنَفِيُّ » .

ولا غَرْوَ[1] ، فثُمَامَةُ قَيْلٌ[2] مِنْ أقْيَالِ العربِ في الجاهلية . . .

وسيِّدٌ من سادات بني حنيفَةَ المَرْموقين . . . ومَلِكٌ من مُلوكِ اليمامَةَ الذين لا يُعْصَىٰ لهم أمْرٌ .

* * *

تَلَقَّىٰ ثُمامَةُ رسالةَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالزِّرايَةِ[3] والإعراض .

وأَخَذَتْه العِزَّة بالإثمِ ؛ فأصَمَّ أذنيه عن سماعِ دَعْوَةِ الحقِّ والخَيْرِ . . .

ثم إنَّه ركبَه شيطانُه فأغراه بِقَتْلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ووَأْدِ دَعْوتِه معه ، فدأب يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ للقَضاءِ عَلىٰ النبيِّ حتَّىٰ أَصابَ منه غِرَّة[4] ، وكادَتْ تَتِمُّ الجريمَةُ

---

(١) لا غرو : لا عجب .

(٢) القيل : الملك والرئيس سمي بذلك لأنه إذا قال قولاً نفذ .

(٣) الزِّراية : الاحتقار .

(٤) الغرة : الغفلة .

الشَّنْعَاءُ لولا أنّ أَحَدَ أعمامِ « ثُمامةَ » ثناه عَنْ عَزْمِهِ في آخرِ لحظَةٍ ، فنجَّىٰ اللَّهُ نبيَّه من شرِّه .

لكِنَّ ثمامَةَ إذا كان قد كَفَّ عن رسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ؛ فإنه لم يكُفّ عن أَصْحابهِ ، حَيْثُ جَعَلَ يَتَرَبَّصُ[1] بهم ، حتَّىٰ ظَفِرَ بعَدَدٍ منهم وقَتَلَهم شَرَّ قِتْلة ؛ فأهْدَرَ[2] النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ دمَه ، وأَعْلَنَ ذلك في أَصْحَابهِ .

* * *

لم يَمْضِ عَلَىٰ ذلك طويـلُ وقتٍ حتَّىٰ عـزمَ ثُمامَـةُ بـنُ أُثالٍ علَىٰ أداءِ العُمْرَةِ ، فانْطَلَقَ من أرضِ اليمامةِ مُوَلِّيـاً وَجْهَه شَـطْرَ مكَّةَ ، وهـو يُمَنِّي نفسَه بالْطوافِ حولَ الكَعْبَةِ والذَّبح لِأَصْنَامِها . .

* * *

وبينـا كان ثُمامةُ في بَعْض طريقهِ قريباً من المدينةِ نَزَلَتْ به نازلَةٌ لم تَقَعْ له في حسْبانٍ .

ذلك أَنَّ سَرِيَّةً من سرايا رسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ، كانت تجوس[3] خلالَ الديار خَوْفاً من أَنْ يطرُقَ المدينةَ طارِقٌ ، أو يُريدَها مُعْتَدٍ بِشَرٍّ .

فأَسَرت السَّريةُ ثُمامةَ ـ وهي لا تَعْرفُه ـ ، وأَتَتْ به إلىٰ المدينَةِ ، وشدَّتْهُ إلىٰ ساريةٍ من سَوارِي المسجدِ ، مُنْتَـظِرَةً أن يَقِفَ النبيُّ الكريمُ بنفْسِـه علَىٰ شأنِ الأسيرِ ، وأنْ يَأْمُرَ فيه بأمْره .

ولما خرج النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلىٰ المسجدِ ، وهَمَّ بالدُّخولِ فيه رأىٰ ثُمامةَ مَرْبوطاً في السَّاريةِ ، فقال لأصحابه :

---

(١) يتربص بهم : ينتظر فرصة ليلحق بهم شراً .

(٢) أهدر دمَه : أباح دمَه .

(٣) تجوسُ : تدور وتتنقَّلُ .

(أَتَـدْرون مَنْ أَخَذْتُم ؟)

فقالوا : لا يا رسولَ اللَّه .

فقال :(هذا ثُمامَةُ بنُ أُثالٍ الحنفيُّ ، فأَحْسِنوا أَسارَه[1] . .) .

ثم رجَعَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلىٰ أهلِه وقال :(اِجْمعوا ما كان عِنْدَكُمْ من طعامٍ وابْعَثوا به إلىٰ ثُمامَةَ بنِ أُثال . . .) .

ثم أَمَرَ بِنَاقَتِهِ أن تُحْلَبَ له في الغُدُوِّ والرَّواح ، وأن يُقَدَّمَ إليه لَبَنُها . . .
وقد تَمَّ ذلك كلُّه قبل أَنْ يَلْقاه الرسولُ صَلواتُ اللَّهِ عليه أَو يُكَلِّمَه .

* * *

ثم إنَّ النبيَّ ﷺ أَقْبَلَ على ثُمامةَ يريدُ أَنْ يَسْتَدْرِجَه إلىٰ الإسلام وقال :

(ما عِنْدَك يا ثُمامة ؟) .

فقال : عندي يا محمدُ خيرٌ . . . فإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ[2] . . . وإن تُنْعِم[3] تُنْعِمْ على شاكرٍ . . . وإنْ كنتَ تريدُ المالَ ؛ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ ما شِئْتَ .

فتركَهُ رسولُ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه يَوْمَيْنِ علىٰ حالِه ، يُؤتَىٰ له بالطَّعامِ والشّرابِ ، ويُحْمَلُ إليه لَبَنُ النَّاقَةِ ثم جاءه ، فقال :

(ما عِنْدَك يا ثُمامةُ ؟) .

قال : ليس عندي إلَّا ما قُلتُ لكَ من قَبْلُ . . .

فإن تُنْعِمْ تُنْعِمْ علَىٰ شاكِرٍ . . .

وإنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ . . .

وإنْ كنتَ تريدُ المالَ فَسَلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ .

---

(١) أحسِنوا أسارَه : أحسِنوا معاملته .

(٢) ذا دم : صاحب دمٍ ، أي رجلاً أراق منكم دماً .

(٣) تُنْعِم : أي تنعم بالعَفْو .

فتَرَكه رسولُ اللَّهِ ﷺ ، حتَّىٰ إذا كان اليومُ التالي جاءَه فقال :

(ما عندكَ يا ثمامة ؟) . فقال : عِنْدي ما قلتُ لك . . . إنْ تُنْعِم تُنْعِمْ على شاكِرٍ .وإن تَقْتُلْ تَقْتُـلْ ذا دَمٍ . وإن كنتَ تريدُ المالَ أَعْطَيْتُك منه ما تشاء .

فالتفتَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلىٰ أصحابِه وقال : (أَطْلِقوا ثُمَامةَ . . .) .

ففكُّوا وِثاقَه وأطْلقوه .

* * *

غادر ثمامةُ مَسْجِدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ومضَىٰ حتَّىٰ إذا بلغَ نَخْلاً في حواشِي المدينةِ[1] - قريباً من البقيعِ[2] - فيه ماءٌ أناخ راحِلَتَه عِنْدَه ، وتَـطَهَّرَ من مـائِه فأَحْسَنَ طهورَه ، ثم عادَ أدْراجَه إلىٰ المَسجِدِ .

فما إن بَلَغه حتَّىٰ وقفَ على ملأٍ[3] من المسلمين وقال :

أشهدُ أن لا إله إلاَّ اللَّه ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه .

ثم اتَّجه إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقال :

يـا محمـدُ ، واللَّهِ مـا كـان علىٰ ظَهـرِ الأرضِ وجـهٌ أَبغَضُ إليَّ مِنْ وَجْهِك . . . وقَدْ أَصْبَحَ وجهُك أحبَّ الوجوهِ كلِّها إليَّ .

واللَّهِ ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينِك ؛ فأصبَحَ دينُك أحبَّ الدين كلِّه إليَّ .

وواللَّه ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بَلَدِك ؛ فأصبَحَ بلدُك أحبَّ البلادِ كلِّها إليَّ .

---

(١) حواشي المدينة : أطراف المدينة .

(٢) البقيع : بقعة في أطراف المدينة كانت كثيرة الشجر ثم أصبحت مقبرة دُفِنَ فيها كثيرٌ من الصحابة .

(٣) ملأ : جماعاتٍ .

ثم أَرْدَفَ قائلاً : لقد كنتُ أَصَبْتُ في أصحابك دَماً[1] فما الذي توجِبُه عليّ ؟

فقال عليه الصّلاة والسّلامُ :(لا تَثْريبَ[2] عليك يا ثمامةُ . . . فإن الإسلامَ يجبُّ ما قَبْله[3] . . .) .

وبَشَّرَه بالخيرِ الذي كَتَبَه اللَّهُ له بإسْلامِهِ .

فانْبَسَطَتْ أساريرُ ثمامةَ وقال :

واللَّهِ لأُصيبَنَّ مِنَ المشركين أَضعافَ ما أصَبْتُ من أصْحَابِك ، ولأَضَعَنَّ نَفْسي وسيْفي ومَنْ معي في نُصْرتِك ونُصْرةِ دينِك .

ثم قال : يا رسولَ اللَّهِ إنَّ خَيْلَك أخَذَتْني وأنا أريدُ العُمْرَةَ فماذا تَرَىٰ أَنْ أَفْعَلَ ؟

فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ :(اِمْضِ لأَداءِ عُمْرَتِك ولكنْ على شرْعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ) ، وعَلَّمَه ما يقومُ بِه مِنَ المنَاسِك .

* * *

مضَىٰ ثُمامةُ إلىٰ غايتِهِ حتَّىٰ إذا بلغَ بَطْنَ مَكَّةَ وقَفَ يُجَلْجِلُ بِصَوْتِه العالي قائلاً :

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك . . .

لَبَّيْك لا شريكَ لكَ لَبَّيْك . . .

إن الحمدَ والنِّعْمَةَ لكَ والملك . . .

لا شريك لك » . . .

---

(١) أصبت في أصحابك دماً : قتلت منهم رجالاً .

(٢) لا تثريب عليك : لا لوم عليك .

(٣) يجبّ ما قبله : يقطع ما قبله ويمحوه .

فكان أَول مسلمٍ علىٰ ظَهْرِ الأرضِ دَخَلَ مَكَّةَ مُلَبِّياً .

* * *

سَمِعَتْ قريشٌ صوتَ التَّلْبيةِ فهبَّتْ مُغْضَبَةً مَذْعورةً، واستَلَّتِ السيوف من أغْمادِها ، واتَّجَهَتْ نحوَ الصوتِ لتبطش بهذا الذي اقْتَحَمَ عليها عرينَها .

ولما أَقْبَلَ القومُ على ثُمامَةَ رفعَ صوتَه بالتَّلْبِيَةِ ، وهو يَنْظُرُ إليهم بِكِبْرِياء ؛ فَهَمَّ فتىً من فِتْيانِ قريشٍ أن يُرْدِيَه[1] بسهمٍ ، فأَخذوا علىٰ يديْه[2] وقالوا :

وَيْحَك أتعلم من هذا؟!

إنه ثُمامةُ بنُ أثالٍ ملكُ اليمَامَةِ . . .

واللّهِ إن أصَبْتُموه بِسوءٍ قَطَعَ قومُه عَنَّا الميرَة[3] وأَماتونا جُوعاً .

ثم أَقبَلَ القومُ على ثمامَةَ بعدَ أنْ أعادوا السيوفَ إلىٰ أغمادها وقالوا :

ما بكَ يا ثُمامَةُ ؟!!

أَصبَوْتَ وتركتَ دينَك ودينَ آبائك؟!!

فقال : ما صَبَوْتُ ولكِنّي اتَّبعتُ خيرَ دينٍ . . . اتبعتُ دينَ محمدٍ .

ثم أَرْدَفَ يقول : أقسم برَبِّ هذا البيتِ ، إنَّه لا يَصِلُ إليكم بَعْدَ عودتي إلىٰ اليمامَةِ حبَّةٌ من قَمْحِها أَو شَيءٌ من خيراتِها حتَّىٰ تَتَّبعوا محمداً عن آخرِكم . .

* * *

اعْتَمَر ثمامَةُ بنُ أُثالٍ على مرأىً من قريشٍ كما أمرَه الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه أن يعتمرَ . . .

وذَبَحَ تقرُّباً لِلّه لا لِلأنْصابِ[4] والأصْنام ، ومضى إلىٰ بلادِه فأَمَرَ قومَه أن

---

(١) يرديه : يقتله .

(٢) فأخذوا على يديه : منعوه .

(٣) الميرة : المؤونة .

(٤) الأنصاب : ما عُبِد من دون اللّه من تماثيل ونحوها .

يَحْبِسوا المِيرَةَ عن قُرَيْشٍ ؛ فَصدَعوا بأَمْرِهِ واسْتجابوا له ، وحبَسوا خيراتِهم عن أَهْلِ مكَّةَ .

* * *

أَخَذَ الحِصارُ الذي فَرَضَهُ ثمامةُ على قريشٍ يَشْتَدُّ شيئاً فشيئاً ، فارتفعَتِ الأسْعارُ ، وفَشَا[1] الجوعُ في الناس واشتدَّ عليهم الكَرْبُ ، حتَّىٰ خافوا على أَنْفُسِهِم وأبنائِهم من أنْ يَهْلَكوا جوعاً .

عند ذلك كَتَبوا إلىٰ رسول اللَّه ﷺ يقولون :

إنَّ عَهْدَنا بكَ أَنَّك تَصِلُ الرَّحِمَ وتَحُضُّ علىٰ ذلك . . .

وها أَنْتَ قد قَطَعْتَ أَرْحامَنا ، فَقَتَلْتَ الآباء بالسيفِ ، وأَمَتَّ الأبْناءَ بالجوع .

وإن ثُمامةَ بنَ أُثالٍ قد قَطَعَ عَنَّا مِيرَتَنا وأضَرَّ بنا ، فإنْ رأَيتَ أَنْ تكتبَ إليه أَنْ يبعثَ إلينا بما نحتاجُ إليه فافْعَلْ .

فكَتَبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى ثُمامة بأن يطْلِقَ لهم ميرتَهم فأطْلَقَها .

* * *

ظَلَّ ثُمامةُ بنُ أُثال ـ ما امتدَّتْ به الحياةُ ـ وَفِيّاً لدينِه ، حافِظاً لِعَهْدِ نبيِّه ، فلمَّا الْتَحقَ الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالرفيقِ الأعْلَى ، وطَفِقَ العربُ يَخرجون من دين اللَّهِ زرافاتٍ[2] ووحْداناً ، وقامَ مسيلمةُ الكذَّابُ في بني حنيفةَ يَدْعوهم إلىٰ الإيمانِ به ، وقف ثُمامَةُ في وَجْهَه ، وقال لقومِه :

يا بني حنيفةَ إيَّاكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه . . .

---

(١) فشا الجوع : انتَشَرَ .

(٢) زرافات : جماعات .

إنَّه واللَّهِ لَشَقاءٌ كتَبه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ علىٰ من أَخَذَ به مِنْكُمْ ، وبلاءٌ علىٰ من لَمْ يَـأْخُذْ به .

ثم قال :

يا بني حنيفةَ إنَّه لا يجتمِعُ نبيَّان في وقتٍ واحدٍ ، وإنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ لا نبيَّ بعدَه ، ولا نبيّ يُشْرَكُ معَه .

ثم قرأ عليهم : ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللَّهِ العَزيزِ العَليمِ * غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ شديدِ العِقابِ ذي الطَّوْلِ لا إلَهَ إلَّا هو إليه المَصيرُ﴾ .

ثم قال : أينَ كلامُ اللَّهِ هذا من قولِ مسيلمةَ : « يا ضِفْدَعُ نِقِّي ما تَنِقِّين ، لا الشَّرَابَ تَمْنَعين ولا الماءَ تُكَدِّرين » .

ثم انْحازَ بِمَنْ بَقِيَ علىٰ الإسلامِ من قومِه وَمَضى يقاتِلُ المرتدينَ جِهاداً في سبيلِ اللَّهِ وإعلاءً لكلمتِه في الأرض .

جَزَىٰ اللَّهُ ثُمامةَ بنَ أُثالٍ عنِ الإسلامِ والمسلمين خيراً . . .
وأَكْرَمَه بالجَنَّةِ التي وُعِدَ المتَّقون(*) .

(*) للاستزادة من أخبار ثمامة بن أثال انظر :
١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١/٢٠٤ طبعة مصطفى محمد .
٢ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر : ١/٣٠٥ ـ ٣٠٩ .
٣ ـ السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق السقا (انظر الفهارس) .
٤ ـ الأعلام للزركلي ومراجعه : ٨٦/٢ .

أبو أيوب الأنصاري

يُدْفَنُ تحتَ أسْوار القسْطنطِينيَّة

هذا الصحابيُّ الجليلُ يُدْعَىٰ خالدُ بنُ زيدِ بنِ كُلَيبٍ ، من بني النَّجّار .

أمَّا كُنْيَتُه فأبو أيوبَ ، وأما نِسْبَتُه فإلىٰ الأنصار .

ومن مِنَّا مَعْشَرَ المسلمين لا يَعْرِفُ أَبا أَيوب الأنْصارِيَّ ؟!

فقد رَفَعَ اللَّهُ في الخافِقَيْن[1] ذِكْرَه ، وأعْلَىٰ في الأنام[2] قدرَه حينَ اخْتارَ بيتَه من دونِ بيوتِ المسلمين جميعاً لِينزلَ فيه النبيُّ الكريمُ لَمَّا حَلَّ في المدينَةِ مهاجِراً ، وحَسْبُه بذلك فَخْراً .

ولِنزولِ الرسولِ صلواتُ اللَّهِ عليه في بيتِ أبي أيُّوب قِصَّةٌ يَحلو تَرْدادُها ويلَذُّ تَكْرارُها .

ذلك أنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ حينَ بَلَغَ المدينَة تَلَقته أَفْئِدَةُ أهْلِها بأَكْرَم ما يُتَلَقَّىٰ به وافِدٌ . . .

وَتَطَلَّعَتْ إليه عيونُهم تَبُثُّه شوقَ الحبيبِ إلىٰ حبيبه . . .

وفتحوا له قلوبَهم ليحلَّ مِنْها في السُّوَيْداءِ . . .

---

(١) في الخافقين : في الشرق والغرب .

(٢) الأنام : الخَلْقُ .

وأَشْرَعوا[1] له أبوابَ بيوتِهم لِيَنْزِلَ فيها أعزَّ مَنْزِلٍ .

لكِنَّ الرسولَ صَلَواتُ اللَّهِ عليه ، قَضَى في قُبَاءَ[2] من ضواحِي المدينةِ أيَّاماً أربعةً ، بَنَىٰ خِلالَها مَسْجِدَه الذي هو أولُ مَسْجِدٍ أُسِّسَ علىٰ التَّقْوىٰ .

ثم خَرَجَ منها راكِباً ناقتَه ، فوَقَفَ ساداتُ يثربَ في طريقِها ، كُلٌّ يريدُ أن يَظْفَرَ بِشَرَفِ نزولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ في بيتِه . . . .

وكانوا يَعْتَرِضون الناقَةَ سَيِّداً إِثْرَ سيِّدٍ ، ويقولون :

أَقِمْ عندنا يا رسول اللَّهِ في العَدَدِ والعُدَدِ والمَنَعَةِ[3] .

فيقولُ لهم : (دعوها فإِنَّها مأْمُورَةٌ) .

وتظلُّ الناقَةُ تَمْضِي إلىٰ غايَتِها تَتْبَعُها العيونُ ، وتَحُفُّ بها القلوب . . . .

فإذا جازَتْ منزِلاً حَزِنَ أهلُه وأصابَهُمُ اليأسُ، بينما يُشْرِقُ الأَمَلُ في نفوسِ من يَليهم .

وما زالَتِ الناقةُ على حالها هذه ، والناسُ يَمضُون في إِثْرِها ، وهُمْ يتلهَّفون شَوْقاً لمعرفةِ السَّعيدِ المحظوظِ حتَّىٰ بلغتْ ساحَةً خَلاءً أمامَ بيتِ أبي أيوب الأَنْصارِيِّ ، وبَرَكَتْ فيها . . .

لكِنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ لم ينزِلْ عنها . . .

فما لَبِثَتْ أن وَثَبَتْ وانْطَلَقَتْ تَمْشِي ، والرسولُ مُرْخٍ لها زِمامَها ، ثم ما لبِثَتْ أَنْ عادَتْ أَدْراجَها وبَرَكَتْ في مَبْرَكِها الأَوَّلِ .

عند ذلك غَمَرَتِ الفَرْحَةُ فؤادَ أبي أيوب الأنصاريِّ ، وبادَرَ إلىٰ رسولِ اللَّهِ

---

(١) أشرعوا : فتحوا .

(٢) قُباء : قرية تبعد عن المدينة نحو ميلين .

(٣) المنعة : القوَّة التي تَمْنَع من يريدُه بسوءٍ .

صلواتُ اللَّهِ عليه يُرَحِّبُ به ، وحَمَلَ مَتاعَه بَيْنَ يديه ، وكأنَّما يَحْمِلُ كنوزَ الدنيا كلَّها ومضَىٰ به إلىٰ بيتِه .

* * *

كان منزلُ أبي أيوب يتألَّفُ من طَبَقةٍ فَوْقَها عُلِّيَّة ، فأَخْلَىٰ العُلِّيةَ من مَتاعِه ومتاعِ أهلِه ليُنْزِلَ فيها رسولَ اللَّهِ . . .

لكِنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلامُ آثَرَ عليها الطبقةَ السُّفْلَىٰ ، فامتثلَ أبو أيوب لِأَمْرِه ، وأنزلَهُ حيثُ أحَبَّ .

ولما أَقْبَلَ الليلُ ، وأَوَىٰ الرسولُ صلواتُ اللَّهُ عليه إلىٰ فِراشِه ، صَعِدَ أَبو أَيوب وزوجُه إلى العُلِّيَّةِ وما إن أَغلقا عليهما بابَها حتَّىٰ التفَتَ أبو أيوب إلىٰ زوجتِه وقال :

وَيْحَكِ ، ماذا صَنَعْنَا ؟!

أيكونُ رسولُ اللّهِ ﷺ أسفل ، ونحن أعْلَىٰ منه ؟!

أَنَمْشِي فوقَ رسولِ اللّهِ ﷺ ؟!

أَنصيرُ بينَ النَّبِيِّ والْوَحْيِ ؟! إنَّا إِذَنْ لِهَالِكون .

وسُقِطَ[1] في أيدي الزَّوْجين وهُما لا يَدْرِيان ما يفعلان .

ولم تَسْكُنْ نفساهما بَعْضَ السُّكونِ إلَّا حينَ انْحازا إلىٰ جانِبِ العُلِّيَّة الذي لا يَقَعُ فوقَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، والتزَماه لا يَبْرَحانَه إلَّا ماشِيَيْن علىٰ الأَطْرَافِ مُتباعِدَين عن الوَسَطِ .

فلما أَصْبَحَ أبو أيوب ؛ قال للنبيِّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ : واللّهِ ما أُغْمِضَ لنا جفنٌ في هذه الليلةِ لا أَنا ولا أُمّ أيوب .

(١) سقط في أيدي الزوجين : تحيَّرا وندما وركبهما الهمُّ .

فقال عليه الصلاةُ والسَّلامُ : (ومِمَّ ذاكَ يا أبا أيوب ؟!) .

قال : ذكرتُ أنِّي علىٰ ظَهْرِ بيتٍ أنتَ تحتَه ، وأني إذا تحَرَّكتُ تَنَاثَرَ عليك الْغُبَارُ فآذاك ، ثم إني غَدَوْتُ بينَك وبينَ الوَحْي .

فقال له الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(هوِّن عليك يا أبا أيوب، إنَّه أرْفَقُ بنا أَنْ نكونَ في السُّفْلِ ، لِكَثْرَةِ من يَغْشانا[1] من النَّاس) .

* * *

قال أبو أيـوب : فامتَثَلْتُ لِأَمْـرِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلىٰ أن كـانَتْ ليلةٌ باردةٌ فانكَسَرَتْ لنا جَرَّةٌ وأُريقَ ماؤها في العُلِّيَّة ، فقمتُ إلىٰ الماءِ أنا وأمُّ أيوب ، وليسَ لدينا إلَّا قطيفَةٌ كُنَّا نَتَّخِذُها لِحَافاً ، وجَعَلْنَا نُنشِّفُ بها الماءَ خَوْفاً مِنْ أنْ يَصِلَ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ .

فلما كان الصباحُ غدوتُ علىٰ الرسولِ صلواتُ اللّهِ عليه ، وقلتُ :

بأبي أنتَ وأمِّي ، إني أَكْرَهُ أنْ أكونَ فوقَك ، وأَنْ تكونَ أسفَلَ مني . ثم قَصَصْتُ عليه خَبَرَ الجرَّةِ ، فاسْتَجَاب لي ، وصَعِدَ إلىٰ العُلِّيةِ ، ونَزَلْتُ أنا وأمُّ أيوب إلىٰ السُّفْلِ .

* * *

أقام النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في بيتِ أبي أيوب نَحْواً من سَبْعَةِ أشهرٍ ، حتَّىٰ تَمَّ بناءُ مَسْجِدِهِ في الأَرْضِ الخَلاءِ التي بَرَكَتْ فيها النَاقَةُ ، فانْتَقَـلَ إلىٰ الحُجُراتِ التي أُقيمَت حَوْلَ المسجدِ له ولأَزْواجِه ، فَغَدا جاراً لأبي أيوب ، أكْرِمْ بهما مِنْ مُتَجاوِرَيْن .

* * *

---

(١) من يغشانا : من يزورنا ويلم بنا .

أحبَّ أبو أيوب رسولَ اللّهِ صلواتُ اللّه عليه حبًّا ملكَ عليه قلبَـه ولبَّه ، وأحبَّ الرسولُ الكريمُ أبا أيوب حبًّا أزالَ الكُلْفَة فيما بينَه وبينَه ، وجَعَلَه ينظرُ إلىٰ بيتِ أبي أيوب كأنه بيتُه .

***

حدَّث ابنُ عَبَّاس[1] قال : خرجَ أبو بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنه بالهاجِرَةِ[2] إلىٰ المسجدِ فرآه عمرُ رضيَ اللّهُ عنه ، فقال :

يا أبا بكرٍ ما أَخْرَجَكَ هذه السّاعَةَ ؟!

قال : ما أخرجني إلّا ما أَجِدُ من شِدَّة الجوعِ .

فقال عمر : وأنا واللّهِ ما أَخْرَجَني غيرُ ذلك .

فبَيْنَما هُما كذلك إذْ خَرَجَ عليهما رسولُ اللّهِ ﷺ فقال :(ما أَخْرَجَكُمَا هذه الساعةَ ؟!) .

قالا : واللّهِ ما أَخْرَجَنَا إلّا مَا نَجِدُه في بطونِنا من شِدَّةِ الجوعِ ، .

قال عليه السَّلامُ : (وأنا ـ والـذي نَفْسِي بيدِه ـ مـا أَخْرَجَنِي غيـرُ ذلك ، قُوما معي) .

فانطَلقوا فأَتَوْا بابَ أَبي أيوب الأَنصاريِّ رضيَ اللّهُ عنه ، وكان أبو أيوب يَدَّخِرُ لرسولِ اللّهِ كلَّ يومٍ طعاماً ، فإذا أَبْطَأَ عنه ولم يَأْتِ إليه في حينِهِ أَطعَمه لِأَهْلِه .

فلما بلغوا البابَ خَرَجَتْ إليهم أمُّ أيوب ، وقالت :

مَرْحباً بنبيِّ اللّهِ وبمن معه ، فقال لها النبيُّ عليه الصّلاةُ والسلامُ :

(أَينَ أبو أيوب ؟) فَسَمِعَ أبو أيوب صوتَ النبيِّ ـ وكـان يَعْمَلُ في

---

(١) انظر سيرته ص ١٧٤ .

(٢) الهاجرة : نصف النهار في شدة القيظ .

نَخْلٍ قريبٍ له ـ فأَقْبَلَ يُسْرِعُ ، وهو يقول :

مَرْحباً برسولِ اللّهِ وبمن مَعَه ، ثم أتبع قائلاً : يا نَبيَّ اللّهِ ليسَ هٰذا بالوقتِ الذي كنتَ تجيءُ فيه ، فقالَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ : صَدَقْتَ ، ثم انطلق أبو أيوب إلىٰ نَخِيلِه فقطعَ منه عِذْقاً فيه تمرٌ ورُطَبٌ وبُسْرٌ[1] .

فقال عليه الصَّلاةُ والسلامُ :(ما أردتُ أن تَقْطَعَ هٰذا ، ألَا جنَيْتَ لنا من تمره ؟) .

قال : يا رسولَ اللّهِ أحْبَبْتُ أنْ تأكلَ من تمرِه ورُطَبِه وبُسْرِه ، وَلأَذبَحَنَّ لك أيضاً

قال : (إنْ ذَبَحْتَ فلا تَذْبحَنَّ ذاتَ لَبَنٍ) .

فأَخَذَ أبو أيوب جَدْياً فَذَبَحه ، ثم قال لامْرَأَتِه : اِعْجِني واخْبِزي لنا ، وأَنتِ أَعْلَمُ بالخَبْزِ، ثم أخذ نِصْفَ الجَدْيِ فطَبَخه ، وعَمَدَ إلىٰ نِصْفِهِ الثاني فشَوَاه ، فلمَّا نَضِجَ الطَّعَامُ وَوُضِعَ بين يَدَي النبيِّ وصاحبيه ، أَخَذَ الرسولُ قِطْعَةً من الجَدْيِ وَوَضَعَها في رغيفٍ ، وقال :

(يا أبا أيوب بادِرْ[2] بهذه القِطْعَةِ إلىٰ فاطمَةَ ، فإنَّها لم تُصِبْ مثلَ هٰذا منذُ أيام) .

فلما أكلوا وشبِعوا قال النبي ﷺ :

(خُبْزٌ ، ولحمٌ ، وتمرٌ ، وبُسْرٌ ، ورُطَبٌ !!!) .

وَدَمَعَتْ عيناه ثم قال :(والذي نفْسي بيدِه إنَّ هذا هو النعيمُ الذي تُسْأَلون عنه يومَ القيامةِ ، فإذا أَصَبْتُمْ[3] مثلَ هذا فَضَرَبْتُم بأيديكم فيه فقولوا :

---

(١) العذق : غصن له شعب ، والرطب : ما نضج من تمر النخل ، والبسر : ما لم يكتمل نضجه .

(٢) بادر : عجل .

(٣) أصبتُم : نِلْتُم .

بِسْمِ اللّهِ ، فإذا شبِعْتُم فقولوا : الحمدُ للّهِ الذي هو أَشْبَعنَا وأَنْعَمَ علينا فأَفْضَلَ) .

ثم نَهَضَ الرسولُ صَلَوَاتُ اللّهِ عليه ، وقال لأبي أيوب : (اِئْتِنَا غداً) .

وكان عليه الصَّلاةُ والسلامُ لا يَصْنَعُ له أَحدٌ معروفاً إلا أَحبَّ أنْ يُجَازِيَه عليه ؛ لكِنَّ أبا أَيوب لم يَسْمَعْ ذلك .

فقال له عمرُ رضوانُ اللّهِ عليه : إنَّ النبيَّ ﷺ يأمُركَ أنْ تأتِيَهِ غداً يـا أبا أيوب .

فقال أبو أيوب : سمعاً وطاعةً لرسولِ اللّهِ .

فلمَّا كان الغَدُ ذَهَبَ أبو أيـوب إلىٰ النبيِّ عليه الصَّـلاةُ والسلامُ فـأعطاه وليدَةً[1] كانـت تَخْدِمُه ، وقال له :

(اِسْتَوْصِ بها خيراً ـ يا أبا أيوب ـ فإنَّا لم نَرَ مِنْها إلَّا خَيْراً ما دامَتْ عندنا) .

* * *

عاد أبو أيوب إلىٰ بَيْتِه ومعَه الوليدةُ ؛ فلما رَأَتْها أمُّ أيوب قالت : لمن هذه يا أبا أيوبَ ؟!

قال : لنا . . . مَنَحَنَا إيَّاها رسولُ اللّهِ ﷺ .

فقالت : أعظِمْ بهِ من مانِحٍ وأَكْرِمْ بها من مِنْحةٍ .

فقال : وقد أَوْصانا بها خَيْراً .

فقالت : وكيفَ نَصْنَعُ بِها حتَّى نُنَفِّذَ وَصِيَّةَ رسولِ اللّهِ ﷺ ؟

فقال : واللّهِ لا أَجِدُ لِوَصِيَّةِ رسولِ اللّهِ بها خيراً مِن أَنْ أُعْتِقَها .

---

(١) وليدَة : جارية صغيرَة .

فقالت : هُديتَ إلىٰ الصَّوابِ ، فأَنْتَ مُوَفَّقٌ . . . . ثم أعْتَقَها .

* * *

هٰذه بعضُ صورِ حياةِ أبي أيوب الأنصاريِّ في سِلْمه فلو أُتيح لَكَ أَنْ تَقِفَ على بَعْض صورِ حياتهِ في حَرْبه لرأيتَ عجَباً . . .

فقد عاش أبو أَيوب رَضِيَ اللّهُ عنه طولَ حياتهِ غازِياً حتَّىٰ قِيلَ : إنَّه لم يتخلّفْ عن غَزْوَةٍ غزاها المسلمون مُنْذُ عَهْدِ الرسولِ إلىٰ زَمَن معاويةَ إلَّا إذا كان مُنْشَغِلاً عنها بأُخْرَىٰ .

وكانت آخِرُ غزواتهِ حينَ جَهَّـزَ مُعَاويَـةُ جَيشاً بِقِيَـادَةِ ابنهِ يـزيدَ ، لِفَتْـحِ القِسْطَنْطِينِيَّةِ وكان أَبو أَيوب انذاكَ شَيْخاً طاعِناً في السنِّ يَحْبو نحوَ الثمانين من عُمُرِه فلم يَمْنَعْه ذلك من أَنْ يَنْضويَ[1] تَحْتَ لواءِ يزيدَ ، وأَنْ يَمْخُر عُبَابَ[2] البَحْر غازياً في سبيلِ اللّهِ .

لكنَّه لم يَمْضِ غيرُ قليلٍ على مُنازَلَةِ العَدُوِّ حتَّىٰ مَرِض أبو أيوب مَرَضاً أَقْعَده عن مُوَاصَلَةِ القِتالِ ، فجاء يزيدُ لِيَعودَه وسألَهَ :

أَلَك من حاجَةٍ يا أبا أيوب ؟

فقال : اِقرأ عَنِّي السلامَ علىٰ جنودِ المسلمين ، وقُلْ لهم : يوصيكم أبو أيوب أن تُوغِلوا في أَرْضِ العَدُوِّ إلىٰ أَبْعَدِ غايةٍ ، وأن تَحْمِلوه مَعَكُم ، وأن تَدْفِنوه تَحْتَ أَقْدامِكم عِنْدَ أسوار القِسْطَنْطِينِيةِ ، ولَفَظَ أَنْفاسَه الطاهِرَةَ .

* * *

اِستجابَ جندُ المسلمين لِرَغْبَةِ صاحبِ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وكرّوا على جُنْدِ

---

(١) ينضَوي : يَنْضَمُّ إلى الجيش .

(٢) يمخر عُباب البحر : يشقُّ أمواجَ البحر .

العدوِّ الكَرَّةَ بَعْدَ الكرَّةِ حتَّىٰ بلغوا أسْوارَ القِسْطَنْطِينيـةِ وهم يَحْمِلون أبا أيـوب معهم .

وهناك حفَروا له قَبْراً ووارَوْهُ فيه .

* * *

رَحِمَ اللّهُ أبا أيوب الأنصاريَّ ، فقد أَبَىٰ إلَّا أنْ يموتَ على ظُهورِ الجِيادِ الصَّافِنَاتِ غازياً في سبيلِ اللّهِ . . وسِنُّه تقارب الثمانين(*) . . .

(*) للاستزادة من أخبار أبي أيوب انظر :

١ ـ الإصابة ـ طبعة السعادة ـ : ٢/٨٩ ـ ٢٩٠ .
٢ ـ الاستيعاب (حيدر آباد) : ١/١٥٢ .
٣ ـ أسد الغابة : ٥/١٤٣ ـ ١٤٤ .
٤ ـ تهذيب التهذيب: ٣/٩٠ ـ ٩١.
٥ ـ تقريب التهذيب: ١/٢١٣.
٦ ـ ابن خياط: ٨٩ ، ١٤٠ ، ١٩٠ ، ٣٠٣.
٧ ـ تجريد أسماء الصحابة: ١/١٦١.
٨ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ١٠٠ ـ ١٠١.
٩ ـ الجرح والتعديل: ج ١ ق ٢/١٣١.
١٠ ـ صفة الصفوة: ١/١٨٦ ـ ١٨٧.
١١ ـ الطبقات الكبرى: ٣/٤٨٤ ـ ٤٨٥.
١٢ ـ العبر: ١/٥٦.
١٣ ـ تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٣٢٧ ـ ٣٢٨ .
١٤ ـ شذرات الذهب : ١/٥٧.
١٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية: ١/٣٠٩ ـ ٣١٠ .
١٦ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ١/١١٨ ـ ١١٩ .
١٧ ـ من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ (لأبي الفتوح التونسي) : ١٠٥ ـ ١١٠ .
١٨ ـ سلسلة أعلام المسلمين (رقم ٤).
١٩ ـ الأعلام: ٢/٣٣٦.

عَمرُو بنُ الجَمُوح

[شَيخٌ عَزَم عَلى أن يَطَأ بِعَرجَتِهِ الجَنَّة]

عمرُو بنُ الجَموحِ زعيمٌ من زعماءِ يثربَ في الجاهِلِيَّةِ ، وسيدُ بني سلمةَ المُسَوَّدُ ، وواحدٌ من أَجْوَادِ المدينَةِ وذَوي المُروءَاتِ فيها . . .

وقد كان مِنْ شأْنِ الأَشْرَافِ في الجاهِلِيَّةِ أَنْ يَتَّخِذَ كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ صَنَماً لنفسهِ في بيتِه ، لِيَتَبَرَّكَ به عند الغدُوِّ والرَّواحِ . . . ولِيَذْبَحَ له في المَواسِم . . . ولِيَلْجأ إليه في المُلِمَّاتِ !!!

وكان صَنَمُ عمرِو بنِ الجموح يُدْعَىٰ « مناةَ » ، وقد اتَّخَذَه من نفيسِ الخشَبِ . . .

وكان شديدَ الإِسْرَافِ في رعايَتِهِ ، والعِنَايَةِ به وتضْميخِه[1] بنفائِسِ الطِّيبِ .

***

كان عمرُو بنُ الجَموحِ قد جَاوَزَ الستين مِنْ عُمْرِه حين بَدَأَتْ أَشِعَّةُ الإِيمانِ تَغْمُرُ بُيوتَ يَثْرِبَ بيتاً فبيتاً على يَدِ المُبَشِّرِ الأَوَّلِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْر ، فآمن على يديه أولادُه الثلاثة مُعَوِّذٌ ومُعاذٌ وخَلَّادٌ ، وتِرْبٌ لهم يُدْعَىٰ معاذَ بنَ جبلٍ . .

---

(١) ضمخ الشيء بالطيب : دهنه به .

وآمنتْ مع أبنائِه الثلاثةِ أمُّهم هِنْدُ ، وهو لا يعرف من أمر إيمانهم شيئاً .

* * *

رأَتْ هِنْدُ زوجةُ عمرِو بنِ الجَموحِ ، أنَّ يَثْرِبَ غَلَبَ علىٰ أهْلِها الإسلامُ ، وأنَّه لم يَبْقَ من السَّادَةِ الأشْرافِ أحدٌ على الشِّركِ سِوَىٰ زَوْجِها ونَفَرٍ قليلٍ معه .

وكانت تحبُّه وتُجِلُّه ، وتُشْفِقُ عليه من أنْ يموتَ علَى الكُفْرِ ، فيصيرَ إِلَىٰ النارِ .

وكان هو في الوَقْتِ نفسِه يَخْشَىٰ علىٰ أَبْنائِه أنْ يَـرْتَدُّوا عن دينِ آبـائِهم وأجْدَادِهم ، وأنْ يتَّبِعوا هذا الدّاعية مُصْعَبَ بنَ عُميرٍ ، الذي اسْتَطاع في زمنٍ قليلٍ أنْ يحوِّل كثيراً من الناسِ عن دينِهم ، وأنْ يُدْخلَهم في دينِ مُحَمَّدٍ .

فقال لِزَوْجَتـهِ : يا هِنْـدُ اِحْذَرِي أَنْ يَلْتَقِيَ أولادُك بِهـذا الرجـلِ (يعني مُصْعَبَ بنَ عميرٍ) حتَّىٰ نَرَىٰ رأينَا فيه .

فقالت : سمعاً وطاعةً ، ولكِنْ هل لَكَ أَنْ تَسْمَعَ من ابْنِك مُعاذٍ ما يَرْويه عن هذا الرجلِ ؟

فقال : وَيْحَكِ ، وهل صَبَأَ معاذٌ عن دينهِ وأنا لا أَعْلَمُ ؟! فأشْفَقَتِ المرأةُ الصَّالِحةُ على الشَّيْخِ وقالت :

كلَّا ، ولكنَّه حَضَرَ بَعْضَ مجالسِ هٰذا الداعيةِ ، وحَفِظَ شيئاً مما يقولُه .

فقال : ادعوه إليَّ ، فلما حَضَرَ بينَ يديه قال : أَسْمِعْني شيئاً مما يَقُولُه هذا الرجلُ ؛ فقال :

﴿ بِسْمِ اللّهِ الرّحمٰنِ الرّحيمِ ، الحَمْدُ للّهِ ربِّ ٱلْعَالَمين * الرّحمٰنِ الرّحيمِ * مالكِ يومِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * أَهْدِنا الصِّـراطَ المُسْتَقِيمَ * صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيرِ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضّالِّين ﴾ .

فقال : ما أَحْسَنَ هذا الكلامَ وما أَجملَه ؟! أَوَ كُلُّ كلامِه مثلُ هٰذا ؟!

فقال معاذ : وأَحسنُ من هٰذا يا أَبتَاه ، فَهَلْ لَكَ أنْ تُبايِعَه ، فقومُك جميعاً قَدْ بايَعوه .

سَكَتَ الشَّيْخُ قليلاً ثم قال : لَسْتُ فاعِلاً حتَّىٰ أَسْتَشيرَ « مناةَ » فأَنْظُرَ ما يقولُ .

فقال له الفتىٰ : وما عَسَىٰ أن يقولَ « مناةُ » يا أبتاه، وهو خَشَبٌ أَصَمُّ لا يعقِل ولا ينطِق ، فقال الشيخُ - في حِدَّة - : قلتُ لك لَنْ أَقْطَعَ أمراً دونَه .

* * *

ثم قامَ عمرُو بنُ الجَموحِ إلىٰ « مَنَاةَ » - وكانوا إذا أرادوا أن يُكَلِّموه جعَلوا خَلْفَه امرأةً عجوزاً ، فتجيبُ عنه بما يُلْهِمُها إيَّاه - في زَعْمِهِم - ، ثم وَقَفَ أمامَه بِقامَتِهِ الممدودَةِ ، واعتَمَدَ علَىٰ رِجله الصَّحيحةِ ، فقد كانت الأُخْرَىٰ عرجاءَ شديدةَ العَرَج ، فأثنَىٰ عليه أَطيبَ الثَّناءِ ، ثم قال :

يا « مَناةُ » لا رَيْبَ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بأَنَّ هذا الداعِيَةَ الذي وَفَدَ علينا من مَكَّةَ لا يريدُ أحداً بسوءٍ سِواك . . .

وأَنَّه إنَّما جاء لِينْهانا عن عِبَادَتِك . . . وقد كَرِهْتُ أَنْ أُبايعَه - على الرُّغْمِ مِمَّا سمعتُه من جميلِ قولِه - حتَّىٰ أَسْتشيرَك ، فأَشِرْ عليَّ ، فلم يَرُدَّ عليه « مَناةُ » بشيء .

فقال : لَعَلَّكَ قد غَضِبْتَ . . . .
وأَنا لَمْ أَصْنَعْ شيئاً يؤذيك بعدُ . . .
ولٰكنْ لا بَأْسَ ، فَسَأَتْرُكُك أَيَّاماً حتَّىٰ يَسْكُتَ عَنْك الغَضَبُ .

* * *

كان أبناءُ عمرِو بنِ الجموحِ يَعْرِفون مَدَىٰ تعلُّقِ أبيهم بِصَنَمِهِ « مَناةَ » وكيف أنَّه غدا مع الزَّمنِ قِطعةً منه ، ولكنهم أدْركوا أنَّه بَدَأَتْ تَتَزَعْزَعُ مكانتُه في قلبِه ، وأنَّ عليهم أن يَنْتَزِعوه من نفسهِ انْتِزَاعاً ، فذٰلك سبيلُه إلىٰ الإيمان .

* * *

أَدْلَجَ أبناءُ عمرِو بنِ الجموحِ مع صديقِهم مُعاذِ بنِ جَبَلٍ[1] إلىٰ مَناةَ في الليلِ ، وحمَلوه مِنْ مكانـهِ ، وذَهَبُوا بـه إلى حُفْرَةٍ لبني سلمـةَ يَـرْمـونَ بهـا أَقْذَارَهم ، وطَرَحوه هُناك ، وعادوا إلىٰ بيوتِهم دونَ أَنْ يَعْلَمَ بِهِمْ أَحَـدٌ ، فلمَّا أصبح عمرٌو دَلَفَ[2] إلىٰ صَنَمِه لِتَحِيَّتِه ، فلم يَجِدْه فقال :

وَيْلكُم ، من عَدَا علىٰ إِلٰهنا هٰذه الليلةَ ؟!

فلم يُجِبْه أَحَدٌ بِشَيءٍ .

فَطَفِق يَبْحَثُ عنه في داخِلِ البيتِ وخارِجِهِ ، وهو يُرْغي ويُزْبِدُ[3] ويَتَهَدَّدُ ويَتَوَعَّد حتَّىٰ وَجَدَه مُنَكَّساً على رأسِه في الحُفْرةِ ، فغَسَلَه ، وطهَّره وطيَّبه وأَعادَه إلىٰ مكانِه وقال له :

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعلمُ مَنْ فعلَ هذا لأَخْزَيته .

فلمَّا كانَتِ اللَّيلةُ الثانيةُ عدا الفِتْيَةُ على «مَناةَ» ففعلوا فيه مثلَ فعلِهم بالأمْسِ فلمَّا أَصْبَحَ الشيخُ التمَسَه فَوَجَدَهُ في الحُفْرَةِ مُلَطَّخاً بـالأقْذار ، فـأَخَذه وغَسَلَه وطيَّبَه وأَعادَه إلىٰ مكانِه.

وما زال الفتيةُ يفعلون بالصَّنِمِ مثلَ ذلك كلَّ يومٍ ، فلمَّا ضاقَ بهم ذَرْعاً ؛ راح إليه قَبْلَ مَنامِهِ ، وأَخَذَ سيفَه فَعَلَّقَه بِرأْسِه وقال له :

---

(١) انظر سيرته ص ٤٩٧ .

(٢) دلف : مشىٰ في هدوءٍ .

(٣) يرغي ويزبد : كناية عن شِدَّة الغضب وهيجان النفس .

يا مناةُ ، إنِّي واللَّهِ ما أعلم مَنْ يَصْنَعُ بك هذا الذي تَرَىٰ ، فإنْ كان فيك خيرٌ فادْفَعْ الشرَّ عن نفْسِك ، وهذا السيفُ مَعَكَ ، ثم أَوَىٰ إلىٰ فِراشِه .

فما إن استيقَنَ الفِتيةُ من أنَّ الشيخَ قد غطَّ في نَوْمِهِ حتَّىٰ هَبُّوا إلىٰ الصَّنَمِ ؛ فأخذوا السيفَ من عُنُقِه وذهبوا بـه خارِجَ المنـزِل ، وقَرَنـوه[1] إلىٰ كلبٍ ميِّتٍ بحَبِلٍ . وألقَوْا بِهما في بِئْرٍ لبني سَلَمَةَ تسيلُ إليها الأَقْذَارُ وتَتَجمَّع فيها .

فلمَّا استَيْقَظَ الشيخُ ولم يجدِ الصَّنَمَ خَرَجَ يَلْتَمِسُه فوجَدَه مُكِبًّا علىٰ وَجْهِه في البئرِ ، مَقروناً إلىٰ كلبٍ مَيِّتٍ ، وقد سُلِبَ مِنْهُ السيفُ ، فلم يُخْرِجْه هذه المرَّةَ من الحُفْرَةِ ، وإنَّما تركه حَيْثُ أَلقَوْه ، وأَنْشَأَ يقول :

واللَّه لـو كنتَ إلهـاً لم تكـن ... أنتَ وكَلْبٌ وسْطَ بئـرٍ في قَـرَن

ثم ما لبِثَ أنْ دَخَلَ في دين اللَّهِ .

* * *

تذوَّق عمرُو بنُ الجموحِ مِنْ حَلَاوَةِ الإيمانِ ، ما جعلَهُ يَعَضُّ بنانَ النَّدَم علىٰ كُلِّ لحظةٍ قضاها في الشِّرْكِ ، فأَقْبَلَ علىٰ الدِّينِ الجديدِ بِجَسَدِهِ وروحِهِ ، ووضَعَ نَفْسَه ومالَه وَوَلَدَهُ في طاعَةِ اللَّهِ وطاعةِ رسولِه .

* * *

وما هو إلَّا قليلٌ حتَّىٰ كانت أُحُدٌ ، فرأى عمرُو بـنُ الجَموحِ أبناءَه الثلاثَةَ يتجهَّزون لِلِقاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، ونَظَرَ إليهم غادِين رائِحين كأُسدِ الشَّرَى[2] ، وهم يَتَوهَّجون شَوْقاً إلىٰ نَيْلِ الشَّهادَةِ والفَوْزِ بِمَرْضاةِ اللَّهِ ، فأَثَارَ المَوْقِفُ حَمِيَّتَـه ، وعَزَمَ علىٰ أنْ يغدوَ مَعَهم إلَىٰ الجهادِ تحتَ رايةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

---

(١) قرنوه إلى كلب : ربطوه معَه .

(٢) أسد الشَّرَىٰ : أسد الغاب .

لـكِنَّ الفِتْيَةَ أَجْمَعُوا علىٰ مَنْع أبيهم مِمَّا عَزَمَ عليه . . .

فهو شيخٌ كبيرٌ طاعِنٌ في السِّنِّ ، وهو إلىٰ ذٰلك أعرجُ شديدُ العَرَجِ ، وقد عَذَره اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فيمَن عَذَرَهم .

فقالوا له : يا أَبانا إنَّ اللَّهَ عَذَرَكَ ، فعلامَ تُكَلِّفُ نَفْسَك ما أَعْفَاكَ اللَّهُ مِنْه ؟! .

فَغَضِبَ الشيخُ من قولهم أَشَدَّ الغَضَبِ ، وانْطَلَقَ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ يَشْكوهم فقال :

يا نبيَّ اللَّهِ ، إنَّ أبنائي هؤلاء يريدون أنْ يَحْبِسوني عَنْ هٰذا الخيرِ وهم يَتَذَرَّعون[1] بِأَنِّي أَعْرَجُ ، واللَّهِ إني لأرجو أَنْ أَطَأَ بِعَرْجتي هذه الجنَّةَ .

فقال الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبنائِه :(دعوه ؛ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْزُقُهُ الشهادَةَ . . .) .

فَخَلَّوْا عَنْهُ إذْعاناً لِأَمْرِ رسولِ اللَّهِ .

* * *

وما إن أَزِفَ[2] وَقْتُ الخروجِ ، حتَّى ودَّعَ عمرُو بنُ الجموح زوجتَه وَدَاعَ مُفارِقٍ لا يعود . . .

ثم اتَّجه إلى القِبلةِ ورَفَع كفيه إلىٰ السماءِ وقال : اللَّهُمَّ آرْزُقني الشهادَةَ ولا تَـرُدَّني إلىٰ أَهْلي خائِباً .

ثم انْطَلَقَ يحيطُ به أبناؤه الثلاثَةُ ، وجموعٌ كبيرةٌ من قومِه بني سَلَمَةَ .

ولمَّا حَمِيَ وَطيسُ[3] المعركة ، وتَفَرَّقَ الناسُ عنْ رسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ

(١) يتذرعون : يحتجون .

(٢) أزف : حان .

(٣) الوطيسُ : التنور ، ووطيس المعركة نارها .

عليه ، شوهِدَ عمرُو بنُ الجموحِ يَمْضي في الرَّعيلِ الأوّل ، ويَثِبُ علىٰ رِجْلِه الصَّحيحَةِ وَثْباً وهو يقول :

إني لَمُشْتَاقٌ إلىٰ الجنةِ ، إني لَمشتاق إلى الجنةِ . . . وكان وراءَه ابنُه خلّادٌ.

وما زال الشيْخُ وفتاه يُجالِدان عَنْ رسولِ اللّهِ ﷺ حتّىٰ خرّا صريعين شهيدين على أرض الْمَعْرَكَةِ ، لَيْس بَيْن الابنِ وأبيهِ إلّا لحظات.

* * *

وما إنْ وضعَتِ الْمَعْرَكَةُ أوْزارَها[1] حتّى قامَ رسولُ اللّه ﷺ إلىٰ شهداءِ أُحُدٍ لِيُوارِيَهم ترابَهم ، فقال لِأَصْحَابه :

(خَلُّوهُم بِدِمائِهم وجِراحِهم ، فأنا الشهيدُ عليهم) ، ثم قال :

(ما مِنْ مُسْلِمٍ يُكْلَمُ[2] في سبيلِ اللّهِ، إلّا جاءَ يومَ القِيامَةِ يسيلُ دماً ، اللونُ كلونِ الزَّعْفرانِ ، والريحُ كريحِ المِسكِ) ، ثم قال :

(ادْفِنوا عمروَ بنَ الجموحِ مَعَ عبدِ اللّهِ بنِ عمرٍو ؛ فقد كانا مُتَحابَّين مُتَصافِيَيْن في الدنيا) .

* * *

رضي اللّهُ عن عمرِو بنِ الجموحِ وأصحابِه مِنْ شهداءِ أُحُدٍ ، ونوَّر لهم في قُبُورِهم(*) .

---

(١) وضعت المعركة أوزارها : توقفت وانتهت .

(٢) يكلم : يجرح .

(*) للاستزادة من أخبار عمرو بن الجموح انظر .

١ ـ الإصابة الترجمة : ٥٧٩٩ .

٢ ـ صفة الصفوة : ١/٢٦٥ .

عَبدُاللهِ بنُ جَحشٍ

أول من دعي بأمير المؤمنين

الصحابيُّ الذي نسوقُ عَنْه الحَدِيثَ ـ الآنَ ـ وثيقُ الصِّلة بِرَسولِ اللَّهِ ﷺ ، وواحِدٌ مِنْ أَصْحَابِ الأوَّلِيَّاتِ في الإِسلامِ .

فهو ابنُ عَمَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ؛ ذلك لِأَنَّ أُمَّهُ أُمَيْمَةَ بنتَ عبدِ المطلبِ كانت عمةَ النبيِّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ .

وهو صِهْرُ رسـولِ اللَّهِ ﷺ ؛ ذلك لأنَّ أُخْتَـه زينَبَ بنتَ جَحْشٍ كانَتْ زوجَةَ النَّبِيِّ الكريم ، وإِحْدَىٰ أُمَّهاتِ المؤمنين .

وهو أوّلُ مـن عُقِد له لواءٌ في الإِسْلَامِ . . . وهو بَعْدَ ذلك أَوَّلُ من دُعِيَ أميرَ المؤمنين .

إنَّه عبدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ الأَسَدِيُّ .

* * *

أَسْلَمَ عبدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ دارَ الأَرْقَم ، فكان من السَّابِقين إِلَى الإِسلامِ .

ولمَّا أَذِنَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصْحَابِه بالهِجْرَة إلى المدينةِ ، فِراراً بدينِهم من أذَىٰ قريشٍ ، كان عبدُ اللَّهِ بـنُ جَحْشٍ ثانيَ المهاجِرين إِذْ لم يَسْبِقْه

إلىٰ هٰذا الفضلِ إلاّ أبو سلمةَ .

علىٰ أنَّ الهِجْرَةَ إلىٰ اللّٰهِ ، ومفارَقَةَ الأهْلِ والوَطَنِ في سبيلهِ ، لم تَكُنْ أمراً جديداً على عبدِ اللّٰهِ بنِ جَحْشٍ ، فقد هاجَرَ هو وبَعْضُ ذَويه قَبْلَ ذلك إلىٰ الحَبَشَةِ .

لكِنَّ هِجرتَه هذه المرّةِ كانَتْ أَشْمَلَ وأَوْسَعَ ، فقد هاجَرَ أهلُه وذووه ، وسائِرُ بني أبيه رِجالاً ونساءً ، وشيباً وشُبّاناً وَصِبْيَةً وصبيَّاتٍ ، فقد كان بيتُه بيتَ إسلامٍ ، وقبيلُه قبيلَ إيمانٍ .

فما إنْ فَصَلوا[1] عن مكَّةَ حتَّىٰ بَدَتْ ديارُهم حزينَةً كَئِيبَةً ، وغَدَتْ خَواءً خَلاءً كأنْ لم يَكُنْ فيها أنيسٌ من قَبْلُ ، ولم يَسْمَرْ في رُبوعِها سَامِرٌ .

ولم يَمْضِ غيرُ قليلٍ علىٰ هِجْرَةِ عبدِ اللّٰهِ ومنْ مَعَه حَتَّىٰ خَرَجَ زُعماءُ قريشٍ يطوفون في أَحْيَاءِ مَكَّةَ ، لِمَعْرِفَةِ مَنْ رَحَلَ عنها من المسلمين ومَنْ بَقِيَ منهم ، وكان فيهم أبو جهلٍ وعُتْبَةُ بنُ ربيعةَ .

فَنَظَرَ عتبةُ إلى منازلِ بني جَحْشٍ تَتَنَاوحُ فيها الرِّياح السَّافِياتُ[2] ، وتَخْفِق[3] أبوابَها خفْقاً وقال :

أصبَحَتْ دِيارُ بني جَحْشٍ خلاءً تَبْكي أهلَها . . .

فقال أبو جهلٍ : ومَنْ هؤلاء حتَّىٰ تَبْكيَهم الدِّيارُ ؟!!

ثم وَضَعَ أَبو جهلٍ يَدَه على دارِ عبدِ اللّٰهِ بنِ جَحْشٍ ، فقد كانَتْ أَجْمَلَ هذِهِ الدورِ وأغناها ، وجَعَلَ يَتَصَرَّفُ فيها وفي مَتَاعِها كما يَتَصَرَّفُ المالِكُ في مُلْكِه .

فلمَّا بلغَ عبدَ اللّٰهِ بنَ جَحْشٍ ما صَنَعَ أبو جَهْلٍ بِدَارِه ، ذَكَرَ ذلك

---

(١) فصلوا عن مكة : خرجوا عن مكة . (٢) السافيات : التي تثير التراب . (٣) وتخفق : تَقْرَعُ .

لرسولِ اللَّهِ ﷺ ، فقال له النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ :
(ألا تَرْضَى يا عبدَ اللَّهِ ، أَنْ يُعْطِيَك اللَّهُ بها داراً في الجنَّةِ ؟) .

قال : بَلَىٰ يا رسولَ اللَّهِ .

قال : (فذلك لك) .

فطابَتْ نفسُ عبد اللَّهِ وقَرَّت عينُه .

* * *

ما كادَ عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ يَسْتَقِرُّ في المدينةِ بعدمَا تَكَبَّده من نَصَبٍ في هِجْرَتيه الأولىٰ والثانيةِ .

وما كاد يذوقُ شيئاً من طَعْم الرَّاحَةِ في كَنَفِ الأَنْصَارِ ، بَعْدَمَا نالَه من أَذَىً عَلَىٰ يدِ قريشٍ ، حتَّىٰ شاءَ اللَّهُ أن يَتَعَرَّضَ لأَقسَىٰ امْتِحَانٍ عَرَفَه في حَيَاتِه ، وأنْ يعانِيَ أَعْنَفَ تَجْرِبةٍ لَقِيَهـا مُنْذُ أَسْلَمَ .

فَلْنُرْهِفِ السَّمْعَ لِقِصَّةِ تلك التَّجْرِبَةِ القاسِيَةِ المُرَّةِ .

* * *

انتَدَبَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه ثمانيةً مِـنْ أصحابِه للقِيامِ بأَوَّلِ عَمَلٍ عَسْكَرِيٍّ في الإِسْلامِ ، فيهم عبدُ اللَّهِ بنُ جحْشٍ وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ وقال : (لأُؤَمِرَنَّ عليكم أَصْبَرَكم على الجوعِ والعَطَشِ) ، ثم عَقَدَ لواءَهم[١] لعبدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ ؛ فكانَ أوّلَ أميرٍ أُمِّرَ على طائفةٍ من المؤمنين[٢] .

* * *

حَدَّدَ الرسولُ الكريمُ لعبدِ اللَّهِ بن جحشٍ وِجْهَتَهُ وأَعْطاه كِتاباً ، وأمَرَه أَلَّا يَنْظُرَ فيه إلَّا بعدَ مسيرَةِ يومين .

---

(١) عقد لواءَهم : أمَّر عليهم .

(٢) وروي أن أول لواء عقد في الإسلام كان لحمزة بن عبد المطلب رضي اللَّه عنه وقيل غير ذلك .

فلما انقضَىٰ علىٰ مسيرَةِ السَّرِيَّةِ يومان نَظَرَ عبدُ اللَّهِ في الكِتَابِ فإذا فيه :

(إذا نظرتَ في كتابي هذا فامْضِ حَتَّىٰ تَنْزِلَ « نَخْلَةَ » بينَ الطائفِ ومكَّةَ ، فترصَّدْ بها قُرَيشاً ، وقِفْ لنا على أخبارهم . . .) .

وما إنْ أتَمَّ عبدُ اللَّهِ الكِتَابَ حتَّىٰ قال : سمعاً وطاعةً لنبيِّ اللَّهِ ، ثم قال لأصحابه :

إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أمَرَني أن أمضيَ إلىٰ « نخلةَ » لأَرْصُدَ قريشاً حتَّىٰ آتِيَه بأَخْبَارِهم ، وقد نهاني عَنْ أنْ أُسْتَكْرِه أحداً منكم علىٰ المُضِيِّ معي ، فَمَنْ كان يريدُ الشَّهادَةَ ويرغَبُ فيها فَلْيَصْحَبْني ، ومن كَرِهَ ذلك فَلْيرجِعْ غيرَ مَذْمومٍ .

فقال القومُ : سمعاً وطاعةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ ، إنَّما نمضي معك حَيْثُ أَمَرَكَ نبيُّ اللَّهِ .

ثم سار القومُ حَتَّىٰ بلغوا « نَخْلَةَ » وطَفِقوا يجوسون[1] خلالَ الدروبِ لِيَتَرَصَّدوا أخبارَ قريش .

وفيما هم كذلك أَبْصروا عن بعدٍ قافِلَةً لقريشٍ فيها أَربعةُ رجالٍ هم عمرُو ابنُ الحَضْرَمِيِّ، والحكمُ بنُ كَيْسانَ ، وعثمانُ بنُ عبدِ اللَّهِ ، وأخوه المُغَيرَةُ ومعهم تجارَةٌ لقريشٍ فيها جلودٌ وزَبِيبٌ ونَحْوُها مِمَّا كانت تَتَّجِرُ به قريشٌ .

عند ذلك أَخَذَ الصحابةُ يَتَشَاوَرون فيما بَيْنَهم ، وكان اليومُ آخِرَ يومٍ من الأَشْهُرِ الحُرُم[2] ، فقالوا :

إن قَتَلْنَاهم فإنَّما نقتُلُهم في الشَّهْرِ الحَرامِ ، وفي ذلك ما فيه من إهدارِ حُرْمَةِ هٰذا الشهرِ والتعرُّضِ لِسُخْطِ العربِ جميعاً . . .

---

(١) يجوسون : يدورون ويبحثون .

(٢) الأشهر الحُرُم : ذو القعدة وذو الحجة ومحرَّمٌ ورجب ، وكانت العرب تحرِّم فيها القتال .

وإن أَمْهَلْنَاهُمْ حتَّىٰ ينقضيَ هٰذا اليومُ دخلوا في أرضِ الحَرَمِ (١) وأَصْبَحُوا في مَأْمَنٍ مِنَّا .

وما زالوا يَتَشَاوَرون حَتَّىٰ أَجْمَعُوا رَأْيَهُم علَىٰ الوثوبِ عليهِم وقَتْلِهم وأَخْذِ ما في أيديهم غنيمةً . . . وفي لحظاتٍ قَتَلوا واحِداً مِنْهُمْ وأَسَرُوا اثنين ، وفَرَّ الرابعُ من أيدِيهم .

* * *

اِسْتَاقَ عبدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ وصَحْبُه الأسيرين والعيرَ مُتوجِّهين إلىٰ المدينَةِ ، فلمَّا قَدِموا على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ووَقَفَ علَىٰ ما فَعلوه اسْتَنْكَرَه أشدَّ الاسْتِنْكَارِ ، وقال لهم :

(واللَّهِ ما أمرتُكم بقتالٍ ، وإنَّما أمرتُكم أنْ تَقِفُوا علَىٰ أَخْبَارِ قُريشٍ ، وأَنْ تَرْصُدوا حَرَكَتَهَا . . .) .

وأَوْقَفَ الأسيرين حتَّىٰ يَنْظُرَ في أمرِهما . . . وأَعْرَضَ عن العيرِ فَلَمْ يأْخُذْ منها شيئاً .

عند ذلك سُقِطَ في أيدي عبدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ وأصْحابِه ، وأَيقَنوا أنَّهم هلَكوا بِمُخَالَفَتِهم لأمرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

وزادَ عليهم الأمرَ ضيقاً أنَّ إِخْوَانَهم من المسلمين طَفِقُوا يُكثِرون عليهم من اللَّوْمِ ، ويَزْوَرُّون عَنْهُم كُلَّمَا مَرُّوا بِهم ويقولون :
خَالَفُوا أَمْرَ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

وقد ازْدادوا حَرَجاً على حَرَجٍ حينَ عَلِموا أَنَّ قريشاً اتَّخَذَتْ من هٰذه

---

(١) دخلوا في أرض الحَرَم : أي أصبَحَ قتالهم محرَّماً علينا بسبب دخولهم في أرض الحَرَم المكيِّ .

الحادِثَةِ ذَريعةً[1] للنَّيْلِ من رسولِ اللَّهِ ﷺ، والتَّشهِيرِ به بينَ القَبائِلِ ؛ فكانت تقول :

إنَّ محمداً قَدْ استحلَّ الشهرَ الحَرامَ ؛ فَسَفَكَ فيه الدمَ ، وأَخَذَ المالَ ، وأَسَرَ الرِّجالَ . . .

فلا تَسَلْ عن مَبْلَغِ حُزْنِ عبدِ اللَّهِ بنِ جحْشٍ وأصحابِه عَلىٰ مَا فَرَطَ[2] مِنهم ، ولا عن خَجْلَتِهم من رسولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا أوْقعوه فيه من الحَرَجِ .

* * *

ولما اشتَدَّ عليهم الكَرْبُ وثَقُلَ عليهم البَلاءُ ، جاءَهُمُ البشيرُ يبشِّرُهم بأَنَّ اللَّهَ سبحانَه قد رضِيَ عن صَنيعِهِم ، وأنَّه أَنْزَلَ عَلىٰ نبيِّه في ذلك قرآناً . . .

فلا تَسَلْ عن مَـدَى فَرْحَتِهم ، وقـد طَفقَ الناسُ يُقبِلون عليهم مُعـانِقين مُبَشِّرين مهنِّئين وهم يَتْلون ما نَزَلَ في عَمَلِهِم من قُرآنٍ مَجيدٍ .

* * *

فلقد نَزَلَ علىٰ النبي قولُ اللَّهِ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عن الشَّهْرِ الحرامِ قِتالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيه كَبيرٌ وصَدٌّ عن سَبِيلِ اللَّهِ وكُفْرٌ به والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإخراجُ أهلِهِ مِنْه أكبرُ عِنْدَ اللَّهِ وٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ﴾[3] .

* * *

فلمَّا نَزَلتِ الآياتُ الكريماتُ طابَتْ نفسُ الرسولِ الكريمِ صَلَواتُ اللَّهِ عليه ؛ فأَخَذَ العيرَ وفَـدَىٰ الأسيرين ، ورَضِيَ عن صنيـعِ عبدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ وأصْحَابِه إذْ كانت غَزْوَتُهم هٰذه حدثاً كبيراً في حياةِ المسلمين ؛ فغنيمتُها أوَّلُ

---

(١) الذريعة : الوسيلة .
(٢) فَرَط منهم : وقع منهم .
(٣) البقرة : ٢١٧ .

غنيمةٍ أُخِذَت في الإسلام ، وقتيلُها أولُ مُشْرِكٍ أراقَ المسلمون دَمَه ، وأسيراها أولُ أسيرين وقعا في أيْدي المسلمين ، ورايتُها أولُ رايَةٍ عَقَدَتْها يدُ رسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ، وأميرُها عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ أوّلُ مَنْ دُعِي بأميرِ المؤمنين .

ثم كانت بدرٌ فأَبْلَىٰ فيها عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ من كريمِ البَلاءِ ما يليقُ بإيمانِه .

ثما جاءَتْ أُحدٌ فكان لِعَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ وصاحبِهِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ معها قِصَّةٌ لا تُنْسَىٰ ، فَلْنَتْرِكِ الكلامَ لِسَعْدٍ ليرويَ لنا قِصَّتَه وقِصَّةَ صاحبِه .

قال سعدُ بن أبي وقاص : لما كانَتْ أحدٌ لَقِيني عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ وقال : ألا تَدْعو اللَّهَ ؟ فقلتُ : بَلَىٰ .

فَخَلَوْنا في ناحيةٍ فدعوتُ فقلت :

يا ربِّ إذا لقيتُ العدوَّ فَلَقِّني رجلاً شديداً بأْسُه ، شديداً حَرَدُه[1] أُقاتِلُه ويقاتِلُني ، ثم ارْزُقْني الظَّفَرَ عليه حَتَّىٰ أَقتلَه وآخُذَ سَلَبه ، فأَمَّن عَبدُ اللَّهِ بنُ جحش على دُعائي ، ثُمَّ قال :

اللَّهُمَّ ارْزُقْني رجلاً شديداً حَرَدُه شديداً بأسُه أُقاتِله فيكَ ويقاتِلُني ثم يأخُذُني فيجدعُ أَنْفِي وأُذُني فإذا لقيتُك غداً قلتَ :

فيمَ جُدِع أنفُك وأُذُنك ؟

فأقول : فيك وفي رسولِك فتقولُ :

صدقتَ . . .

قال سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ : لقد كانت دعوةُ عبدِ اللَّهِ بنِ جحشٍ خَيْراً من

---

(١) حَرَدُه : غَضَبُه وثَوْرَتُه .

دَعْوَتي ، فَلَقَدْ رأيتُهُ آخِرَ النَّهَارِ ، وقَدْ قُتِلَ ومُثِّل به ، وإنَّ أنفَه وأذنَه لَمُعَلَّقان على شَجَرَةٍ بخيطٍ .

* * *

استجاب اللَّهُ دَعْوَةَ عبدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ ، فأكرَمَه بالشهَادَةِ كما أُكرَمَ بها خالَه سيدَ الشهداءِ حمزةَ بنَ عَبدِ المطلب .

فواراهما الرسولُ الكريمُ معاً في قَبْرٍ واحِدٍ ، ودمُوعُه الطاهِرَةُ تُرَوِّي ثَراهُما المضمَّخَ بِطُيوبِ الشَّهَادَةِ(*) .

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللَّه بن جحش انظر :
١ ـ الإصابة : الترجمة ٤٥٧٤ .
٢ ـ إمتاع الأسماع : ١/٥٥ .
٣ ـ حلية الأولياء : ١/١٠٨ .
٤ ـ حسن الصحابة : ٣٠٠ .
٥ ـ مجموعة الوثائق السياسية : ٨ .

صور من حياة الصحابة

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

سلمان الفارسي رضي الله عنه

عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه

زيد الخير رضي الله عنه

عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه

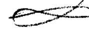
أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه

أبو عُبَيْدَة بن الجَرّاح

(لِكُلّ أمَّةٍ أمِينٌ ، وَأمِينُ هَذِهِ الأمَّةِ أبو عُبَيْدَةَ)

[محمد رسول اللّه]



كان وَضِيءَ الوجْهِ ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، نَحِيلَ الجِسْمِ ، طَويلَ الْقَامَةِ ، خَفيفَ العارِضَيْن : تَرْتاحُ العينُ لمرْآه ، وَتأْنَسُ النَّفْسُ لِلُقْيَاهُ ، ويطمئِنُّ إليه الفؤادُ .

وكان إلى ذلك رقيقَ الحاشِيَةِ ، جَمَّ التَّواضُعِ[1] ، شَديدَ الحياءِ ، لكنَّه كان إذا حَزَبَ الأمْرُ[2] وَجدَّ الجِدُّ يَغْدُو كَأَنَّهُ اللَّيْثُ عادِياً .

فهو يُشْبه نَصْلَ السَّيْفِ رَوْنَقاً وَبهاءً ، وَيَحْكِيهِ[3] حِدَّةً وَمَضاءً .

ذٰلِكُمْ هو أمينُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، عامِرُ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ الجَرَّاحِ الفِهْرِيُّ القُرَشِيُّ ، المُكَنَّى بأبي عُبَيْدَةَ .

نَعَتَهُ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ رضيَ اللّهُ عنهما فقال : ثلاثةٌ من قريشٍ أَصْبَحُ النَّاسِ وجوهاً ، وَأَحْسَنُها أخلاقاً ، وَأَثْبَتُها حياءً ، إنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ[4] وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوك : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعُثْمانُ بنُ عَفَّانَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح .

***

كان أبو عُبيدَةَ من السَّابقين الأوَّلين إلىٰ الإسلامِ ، فقد أسلمَ في اليومِ

(١) جم التواضع : كثير التواضع .
(٢) حزب الأمر : اشتد الأمر .
(٣) يحكيه : يماثِلُه .
(٤) لم يَكْذِبوك : لم يكذبوا عليك .

التَّالي لإِسْلامِ أبي بكرٍ ، وكان إسلامُهِ على يدَي الصِّدِّيق نفسِه ، فَمَضَىٰ بِهِ وَبِعَبْدِ الرحمٰنِ بنِ عَوْفٍ[1] وبعثمانَ بنِ مَظْعُونٍ وبالأَرْقَمِ بنِ أَبي الأَرْقَمِ إِلىٰ النبي ﷺ فأعْلَنوا بينَ يَدَيْه كلمةَ الحقِّ ، فكانوا القواعِدَ الأولىٰ التي أُقِيمَ عليها صَرْحُ الإسلامِ العظيم .

* * *

عاش أَبو عُبيدةَ تَجْرِبَةَ المسلمين القاسِيَةَ في مكَّةَ مُنْذُ بِدايتِها إِلىٰ نِهايَتِها ، وعانىٰ مع المسلمين السَّابقين من عُنْفِها وَضَراوَتِها وآلامِها وأَحْزانِها ما لم يُعَانِهِ أَتْباع دينٍ على ظَهْرِ الأرضِ ؛ فَثَبَتَ للابْتِلاء[2] ، وصَدَقَ اللَّهَ ورسولَه في كلِّ مَوْقِفٍ .

لَكِنَّ مِحْنَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ فاقَت في عُنْفِها حِسْبانَ الحاسِبين وتجاوَزَتْ خيالَ المُتَخيِّلين .

* * *

اِنْطَلَقَ أبو عُبيدةَ يومَ بَدْرٍ يَصُولُ بَيْنَ الصُّفُوفِ صَوْلَةَ مَنْ لا يَهَابُ الرَّدَىٰ ، فَهَابَهُ المُشْرِكُونَ ، ويجولُ جَوْلَةَ مَنْ لا يَحْذَر الموتَ ، فَحَذِرَهُ فُرسان قريشٍ وجعلوا يَتَنَحَّوْنَ عَنْهُ كُلَّما واجَهوه . . .

لَكِنَّ رجلاً واحداً منهم جَعَلَ يَبْرُزُ لأبي عُبَيْدَة في كلِّ اتِّجاهٍ ؛ فكان أَبو عُبيدَة يَتَحَرَّفُ[3] عن طريقِهِ وَيَتَحاشى لِقَاءهُ[4] .

وَلجَّ الرَّجُلُ في الهجومِ ، وأَكْثَرَ أَبو عُبيدَة من التَّنَحِّي ، وسَدَّ الرَّجُلُ علىٰ أَبي عُبيدَةَ المسالِكَ ، وَوَقَفَ حائلاً بينَه وبينَ قِتالِ أعداءِ اللَّهِ .

---

(١) انظر سيرته في ص ٢٥٤ .
(٢) الابتلاء : الاختبار .
(٣) يتحرف عن طريقه : يتنحى عن طريقه .
(٤) يتحاشى لقاءه : يتجنب لقاءه ويتوقاه .

فلمَّا ضاقَ به ذَرْعاً[1] ضَرَبَ رأسَه بالسَّيْفِ ضَرْبَةً فَلَقَتْ هامَتَه فَلْقَتَيْن ؛ فَخَرَّ الرجلُ صريعاً بينَ يَدَيْه .

لا تحاوِلْ ـ أيُّها القارِئُ الكريمُ ـ أن تُخَمِّنَ مَنْ يكونُ الرَّجُلُ الصريعُ . . .
أَمَا قُلْتُ لك : إنَّ عُنْفَ التَّجْرِبَةِ فاقَ حِسبانَ الحاسِبين ، وجاوَزَ خيالَ المُتخَيِّلين ؟
ولَقَدْ يَتَصَدَّعُ رأسُكَ إذا عَرفْتَ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّريعَ هو عبدُ اللَّه بنُ الجَرَّاح والدُ أبي عبيدَةَ .

* * *

لم يقتل أبو عُبيدَةَ أباه ، وإنما قَتَلَ الشِّرْكَ في شَخْصِ أبيه .
فأنْزَلَ اللَّهُ سبحانه في شأنِ أبي عُبَيْدةَ وشأنِ أبيه قرآناً فقال ـ عَلَتْ كَلِمَتُه ـ :
﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ، وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

* * *

لم يَكُنْ ذلك عَجِيباً من أبي عُبَيْدَة ، فَقَدْ بَلَغَ من قُوَّةِ إيمانِه باللَّهِ وَنُصْحِهِ لِدِينِهِ ، والأَمَانَةِ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَبْلَغاً طَمَحَتْ إِلَيْهِ نُفُوسٌ كَبيرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ .

حَدَّثَ محمدُ بنُ جَعْفَر ، قال : قَدِمَ وَفْدٌ من النَّصارَىٰ علىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال : يا أبا القاسِمِ ابْعَثْ مَعَنا رجلاً من أَصْحابِكَ تَرْضاهُ لَنا لِيَحْكُمَ بَيْنَنا في

---

(١) ضاق به ذرعاً : لم يستطع الصبر عليه .
(٢) سورة المجادلة : الآية رقم (٢٢) .

أشْياءَ من أَمْوَالِنا آخْتَلَفْنَا فيها ، فإِنَّكُمْ عِنْدنا مَعْشَر المسلمين مَرْضِيُّون .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : إِئتوني العَشِيَّةَ أَبْعَثْ مَعَكُم القَوِيَّ الأمينَ .

قال عمرُ بنُ الخطاب :

فرُحْتُ إِلىٰ صلاةِ الظُّهْرِ مُبكِّراً ، وَإِنِّي ما أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ حُبِّي إِيَّاها يَوْمَئِذٍ رَجاءَ أَنْ أَكُونَ صَاحِبَ هٰذا النَّعْتِ . . .

فَلَمَّا صَلَّىٰ بِنَا رسولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرِ ، جَعَلَ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَاره ، فَجَعَلْتُ أَتَطاولُ لَهُ لِيَرَانِي ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فينا حتَّىٰ رَأَىٰ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ ، فَدَعَاهُ فقال :

(اخْرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فيما اخْتَلَفوا فيه) ، فقلتُ : ذَهَبَ بِها أبو عُبَيْدَةَ .

***

ولم يَكُنْ أبو عُبيدَة أميناً فَحَسْبُ ، وإِنَّما كان يجمعُ آلْقُوَّةَ إِلىٰ الأمانةِ ، وقَدْ بَرَزَتْ هذه آلْقُوَّةُ في أكثَرَ من مَوْطِنٍ :

بَرَزَتْ يَوْمَ بَعَثَ الرسولُ جَماعَةً من أَصْحابِهِ لِيَتَلَقَّوْا عِيراً[1] لقريشٍ ، وَأَمَّرَ عليهم أبا عُبيدَة رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ وعَنْهُ ، وَزَوَّدَهُمْ جِراباً من تَمْرٍ ، لَمْ يَجِدْ لهم غَيْرَهُ ، فكان أبو عُبيدَةَ يعطي الرَّجُلَ من أَصْحَابِهِ كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً ، فَيَمُصُّها الوَاحِدُ مِنْهُمْ كما يَمِصُّ الصَّبِيُّ ضَرْعَ أُمِّهِ ، ثُمَّ يَشْرَبُ عليها ماءً ؛ فكانت تكفيه يَوْمَهُ إِلىٰ اللَّيْلِ .

***

وفي يوم أُحُدٍ حينَ هُزِمَ المسلمون وَطَفِقَ صَائِحُ المشْرِكين يُنادِي : دُلُّوني علىٰ محمدٍ . . . دُلُّوني علىٰ محمدٍ . . . كان أبو عُبيدَة أَحَدَ

(١) عيراً : قافلةً .

النَّفَرِ ٱلعَشَرَةَ الذين أحاطوا بالرسول ﷺ لِيَذودوا عنه[1] بصُدورِهم رِماحَ المُشْرِكِين .

فلمَّا ٱنْتَهتِ ٱلْمَعْرَكَةُ كان الرسولُ ﷺ قد كُسِرَتْ رَباعِيَّتُه[2] وَشُجَّ جبينُه وغارَت في وَجْنَتِهِ حَلْقَتَانِ من حَلَقِ دِرْعِهِ ، فَأَقْبَلَ عليه الصِّدِّيقُ يُرِيدُ ٱنْتِزَاعَهُما من وَجْنَتِه فقال له أبو عُبيدة : أقسِمُ عليك أَنْ تَتْرُكَ ذلك لي ، فتركَه ، فَخَشِيَ أبو عُبيدَة إِنِ ٱقْتَلَعَهُما بيدِه أنْ يُؤْلِمَ رسولَ اللَّهِ ، فَعَضَّ على أولاهما بِثَنِيَّتِهِ[3] عَضًّا قَوِيًّا مُحْكَماً فاستَخْرَجَها ووقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ . . .

ثم عضَّ على الأُخْرَىٰ بثَنِيَّتِه الثانيةِ فاقتلعَها فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُه الثانِيَةُ . . .

قال أبو بكر : « فكان أبو عُبَيْدَةَ من أَحْسَنِ النَّاسِ هَتَماً »[4] .

* * *

لقد شهِدَ أبو عُبيدَة معَ رسولِ اللَّهِ صَلَواتُ اللَّهِ عليه المَشَاهِدَ كُلَّها مُنْذُ صَحِبَهُ إِلَىٰ أَنْ وافاه اليَقِينُ[5] .

فَلَمَّا كان يوم السَّقِيفَة[6] ، قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ لأبي عُبيدَةَ :

ابسُطْ يَدَكَ أبَايِعْكَ ، فإني سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول :

(إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً ، وَأَنْتَ أَمِينُ هذِهِ الأُمَّةِ) .

فقال أبو عُبَيْدَةَ : ما كُنْتُ لِأَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ أَمَرَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يَؤُمَّنَا في الصَّلاةِ فَأَمَّنا حتَّىٰ ماتَ .

ثم بويعَ بَعْدَ ذلك لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ، فكان أَبو عُبيدَةَ خيرَ نصيحٍ له في الحَقِّ ، وأَكرمَ مِعْوَانٍ له علىٰ الخَيْر .

---

(١) ليذودوا عنه : ليدافعوا عنه .

(٢) الرباعية : السن التي بين الثنية والناب .

(٣) الثنية : وجمعها ثنايا وهي أسنان مقدم الفم .

(٤) الأهتم : من انكسرت ثنيتاه .

(٥) وافاه اليقين : جاءه الموت .

(٦) يوم السقيفة : المراد به يوم بيعة أبي بكر رضي اللَّه عنه ، فقد تمت بيعته في سقيفة بني ساعدة .

ثم عَهِدَ أبو بكرٍ بالخِلافَةِ مِنْ بَعْدِه إلىٰ الفاروقِ فَدَانَ له أبو عُبيدَةَ بالطَّاعَةِ ، وَلَمْ يَعْصِهِ في أَمْرٍ ، إلَّا مَرَّةً واحدةً .

فَهَلْ تَدْرِي ما الأمرُ الذي عَصَىٰ فيه أبو عُبيدَة أَمْرَ خليفةِ المسلمين ؟!

لقد وَقَعَ ذلك حينَ كان أبو عُبيدَة بنُ الجَرَّاحِ في بلادِ الشَّام يقودُ جيوشَ المسلمين من نَصْرٍ إلىٰ نَصْرٍ حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ علىٰ يَدَيْه الدِّيارَ الشَّامِيَّةَ كُلَّها . . . فَبَلَغَ الفُرَاتَ شرقاً وآسِيا الصُّغْرَىٰ شِمالاً .

عِنْدَ ذلك دَهَمَ بلادَ الشَّامِ طاعونٌ ما عَرَفَ النَّاسُ مِثْلَهُ قَطّ فَجَعَلَ يَحْصُدُ النَّاسَ حَصْداً . . .

فما كان من عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ إلَّا أَنْ وَجَّهَ رسولاً إلىٰ أبي عُبيدَةَ برسالةٍ يقول فيها :

إنِّي بَدَتْ[1] لي إليك حاجَةٌ لا غِنى لِي عَنْكَ فيها ، فإن أتاكَ كتابي ليلاً فَإنِّي أَعْزِمُ عليك[2] أَلَّا تُصْبحَ حَتَّىٰ تركَبَ إليَّ ، وإنْ أتاكَ نهاراً فَإنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ أَلَّا يُمْسِيَ حَتَّىٰ تَرْكَبَ إليَّ .

فلما أَخَذَ أبو عُبيدةَ كتابَ الفاروقِ قال :

قد عَلِمْتُ حَاجَةَ أميرِ المؤمنين إليَّ ، فهو يريدُ أن يَسْتَبْقِيَ مَنْ لَيْسَ بِباقٍ ، ثم كَتَبَ إليه يقول :

يـا أميرَ المؤمنين ، إنِّي قـد عَرَفْتُ حَـاجَتَـكَ إليَّ ، وَإنِّي في جُنْـدٍ من المسلمين ولا أَجِدُ بِنَفْسِي رَغْبَةً عَنِ الذي يُصِيبُهُمْ[3] . . .

ولا أريدُ فِرَاقَهُمْ حَتّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِيَّ وفيهم أَمْرَه . . .

فإذا أتاكَ كتابي هذا فَحَلِّلْنِي مِنْ عَزْمِكَ ، وائذَنْ لي بالبَقاءِ .

---

(١) بَدَت : ظَهَرَت .

(٢) أعزم عليك : أطلب منك بإلحاح وقوة ، وأقسم عليك .

(٣) لا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم : أي لا أرغب في أن أحفظ نفسي مما يصيبهم .

فلمَّا قرأ عمرُ الكتابَ بَكَىٰ حَتَّىٰ فاضَتْ عيناه ، فقال له مَنْ عِنْدَهُ ـ لِشِدَّةِ ما رأَوْه من بكائِه ـ :

أماتَ أبو عُبيدَةَ يا أميرَ المؤمنين ؟

فقال : لا ، ولكِنَّ الموتَ منه قريبٌ .

ولم يَكْذِبْ ظَنُّ الفاروقِ ، إذْ ما لَبِثَ أبو عُبيدَة أن أُصيبَ بالطَّاعونِ ، فلما حَضَرَتْهُ الوَفاةُ أَوْصَىٰ جُنْدَهُ فقال :

إنِّي موصيكم بِوَصِيَّةٍ إنْ قَبِلْتُمُوها لَنْ تزالوا بخيرٍ :

أَقيموا الصَّلاةَ ، وصوموا شَهْرَ رمضانَ ، وَتَصَدَّقُوا ، وَحُجُّوا واعْتَمِروا ، وتواصَوْا ، وانْصَحُوا لأُمرائِكم ولا تَغُشُّوهُمْ ولا تُلْهِكُمُ الدُّنْيا ، فإنَّ المرْءَ لو عُمِّرَ أَلْفَ حَوْلٍ ما كان له بُدٌّ مِنْ أنْ يصيرَ إلىٰ مَصْرَعي هذا الذي تَرَوْنَ . . .

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ .

ثم ٱلْتَفَتَ إلىٰ معاذِ بنِ جَبَلٍ [١] وقال : يا معاذُ ، صَلِّ [٢] بالنَّاسِ .

ثم ما لَبِثَ أَنْ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ ، فقام معاذٌ وقال :

أيُّها النَّاس : إنَّكُمْ قَدْ فُجِعْتُمْ بِرَجُلٍ ـ واللَّهِ ـ ما أَعْلَمُ أنِّي رَأَيْتُ رَجُلاً أَبَرَّ صَدْراً ، ولا أَبْعَدَ غائِلَةً [٣] ولا أشدَّ حُبّاً لِلْعَاقِبَة ولا أَنْصَحَ لِلْعَامَّةِ منه ، فترحَّموا عليه يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ [*] .

---

(١) انظر سيرته ص ٤٩٧ .

(٢) صَلِّ بالناس : كنْ إماماً لهم .

(٣) الغائلة : وجمعها الغوائل وهي الشر والحقد الباطن .

(*) للاستزادة من أخبار أبي عبيدة بن الجراح انظر :

١ ـ طبقات ابن سعد (انظر الفهارس) .

٢ ـ الإصابة الترجمة : ٤٤٠٠ .

٣ ـ الاستيعاب : ٢/٣ (طبعة السعادة) .

٤ ـ حلية الأولياء : ١٠٠/١ .

٥ ـ البدء والتاريخ : ٨٧/٥ .

٦ ـ ابن عساكر : ١٥٧/٧ .

٧ ـ صفة الصفوة : ١٤٢/١ .

٨ ـ أشهر مشاهير الإسلام : ٥٠٤ .

٩ ـ تاريخ الخميس : ٢٤٤/٢ .

١٠ ـ الرياض النضرة : ٣٠٧ .

عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه

(من سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما نزل ،
فليقرأه على قراءة ابن أم عبدٍ)
[محمد رسول اللّه]

كان يومئذٍ غلاماً يافِعاً لم يجاوِزِ الحُلُمَ ، وكان يَسْرَحُ في شِعابِ[1] مكَّةَ بعيداً عن النَّاسِ ، ومعه غَنَمٌ يرعاها لِسَيِّدٍ من ساداتِ قريشٍ هو عُقْبَةُ بنُ مُعَيطٍ.

كان الناسُ يُنادونَه : « ابنَ أُمِّ عَبْدٍ » أمَّا اسمُه فهو عبدُ اللّهِ ، وأمَّا اسمُ أبيه « فَمَسْعُود » .

* * *

كان الْغُلامُ يَسْمَعُ بِأَخْبارِ النبيِّ الذي ظَهَرَ في قومِه فلا يأبَه لها[2] لِصِغْرِ سِنِّهِ من جِهَةٍ ، وَلِبُعْدِهِ عنِ المجْتَمعِ المكِّيِّ من جهةٍ أُخْرَىٰ ، فقد دأب علىٰ أَنْ يخرجَ بغنمِ عُقْبَة مُنْذُ البُكورِ ثُمَّ لا يعودُ بها إلاَّ إذا أَقْبَلَ اللَّيْلُ .

* * *

وفي ذات يومٍ أَبْصَرَ الغلامُ المكيُّ عبدُ اللّهِ بنُ مَسْعُودٍ كَهْلَيْنِ عليهما ٱلْوَقَارُ يَتَّجهان نَحْوَه مِنْ بَعيدٍ ، وقد أَخَذَ الجُهْدُ مِنْهُما كُلَّ مَأْخَذٍ[3] ، واشتـدَّ عليهما الظَّمأُ حَتَّىٰ جَـفَّتْ منهما الشِّفاهُ والحلوقُ.

---

(١) شعاب : جمع شِعْب وهو الطريق في الجبل .
(٢) لا يأبه لها : لا يهتم بها .
(٣) أخذ الجهد منهما كلَّ مأخذ : أصابهما التعب الشديد .

فلمّا وقفا عليه ، سَلّما وقالا :
يا غلامُ ، احْلِبْ لنا من هٰذِهِ الشِّياهِ ما نُطْفِىءُ به ظَمَأَنا ، ونَبُلُّ عُروقَنا.
فقال الغلامُ : لا أَفْعَلُ ؛ فالْغَنَمُ لَيْسَتْ لي ، وأنا عليها مُؤْتَمَنٌ . . . .
فلم يُنْكِرِ الرَّجُلانِ قَوْلَهُ ، وبَدَا على وجهيهما الرِّضا عَنْهُ.

ثم قال له أَحَدُهُما : دُلَّني على شاةٍ لم يَنْزُ عليها فَحْلٌ ، فأشارَ الغُلامُ إلىٰ شاةٍ صغيرَةٍ قريبَةٍ منه ، فتقدَّمَ منها الرجلُ واعْتَقَلَها ، وجعلَ يَمْسَح ضَرْعَها[1] بِيَدِهِ وهو يَذْكُرُ عليها اسمَ اللَّهِ ، فنظرَ إليه الغلامُ في دَهْشَةٍ وقال في نفسِه :

ومتى كانَتِ الشِّياهُ الصغيرةُ التي لم تَنْزُ عليها الفُحولُ تدرُّ لبناً ؟!
لكِنَّ ضَرْعَ الشَّاةِ ما لَبِثَ أَنِ ٱنْتَفَخَ ، وطَفِق اللَّبنُ يَنْبَثِقُ منه ثَرًّا[2] غزيراً.

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الآخَرُ حجراً مُجَوَّفاً من الأَرْضِ ، وملأه باللَّبنِ ، وشرِبَ منه هو وصاحِبُه ، ثم سقيَاني معهما ، وأنا لا أكادُ أصدِّقُ ما أرى . . .

فلمَّا ارْتَوَيْنَا ، قالَ الرّجُلُ المبارَكُ لِضَرْعِ الشَّاةِ :
اِنْقَبِضْ . فما زال يَنْقَبِضُ حتَّىٰ عادَ إلىٰ ما كان عليه .
عند ذلك قلتُ للرَّجُلِ المبارَكِ :
عَلِّمْني مِنْ هذا القولِ الذي قلتَه .
فقال لي : إنَّك غُلامٌ مُعَلَّمٌ .

* * *

كانت هٰذِهِ بدايةَ قِصَّةِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ مع الإِسْلامِ . . .

إذْ لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ المبارَكُ إلاَّ رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليـه ، ولم يكن صاحبُهُ إلاَّ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عنه.

---

(١) ضرعها : ثديها .
(٢) ثرًا : كثيراً وفيراً .

فقد نَفرا[1] في ذلِكَ اليوم إلىٰ شِعابِ مَكَّةَ ، لِفَرْطِ ما أَرْهَقَتْهُما[2] قريشٌ وَلِشِدَّةِ ما أنْزَلتْ بهما من بَلاءٍ .

***

وكما أَحَبَّ الغلامُ الرسولَ الكريمَ وصاحِبَهُ ، وتَعَلَّقَ بهما ، فقد أُعْجِبَ الرسولُ وصاحبُه بالغُلامِ وأكْبَرا أَمانَتَهُ وَحَزْمَهُ وتَوَسَّما فيه الخَيْرَ[3] .

***

لم يمضِ غيرُ قليلٍ حتّىٰ أسلمَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ وعَرَضَ نَفْسَهُ على رسولِ اللَّهِ ليخدِمَه ؛ فوَضَعه الرَّسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه في خِدْمَتِهِ .

ومُنْذُ ذلك اليومِ انْتَقَل الغلامُ المَحْظُوظُ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ من رِعاية الغَنَم إلىٰ خِدْمَةِ سَيِّدِ الخَلْقِ والأُممِ .

***

لَزِمَ عبدُ اللَّه بنُ مسعودٍ رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه مُلاَزَمَةَ الظِّلِّ لصاحبه ، فكان يُرافِقُه في حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ، ويصاحِبُه داخِلَ بيتِهِ وخارجَه . . . إذْ كان يوقِظُه إذا نام ، وَيَسْتُرُهُ إذا اغْتَسَلَ ، ويُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إذا أرادَ الخروجَ ، وَيخْلَعُهما من قَدَمَيْه إذا هَمَّ بالدخولِ ، ويحمِلُ له عصاه وَسِواكَه ، وَيَلِجُ الحُجْرَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إذا أَوَىٰ إلى حُجْرَته . . .

بلْ إنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ أَذِنَ له بالدُّخولِ عليه مَتىٰ شاءَ ، والوقوفِ علىٰ سِرِّهِ من غيرِ تَحَرُّجٍ ولا تَأَثُّمٍ ، حتّىٰ دُعِيَ بِصَاحِبِ سِرِّ رسولِ اللَّهِ .

***

---

(١) نفراً : خرجاً .

(٢) أرهقتهما : آذتهما وأتعبتهما .

(٣) توسما فيه الخير : تفرسا فيه الخير وترقباه منه .

رُبِّيَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ في بيتِ رسولِ اللَّهِ ، فاهْتَدَى بِهَدْيِهِ ، وَتَخَلَّقَ بِشَمَائِلِهِ[1] ، وَتَابَعَهُ في كلِّ خَصْلَةٍ من خِصالِه ، حتَّىٰ قيل عنه :

إنَّهُ أقربُ النَّاسِ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ هَدْياً وَسَمْتاً[2] .

* * *

وَتَعَلَّمَ ابنُ مسعودٍ في مَدْرَسَةِ الرسولِ صَلواتُ اللَّهِ عليه فكان من أَقْرَأ الصَّحابةِ للقرآنِ ، وأَفْقَهِهِمْ لمعانيه وأَعْلَمِهِمْ بِشَرْعِ اللَّهِ.

ولا أَدَلَّ علىٰ ذلك مِنْ حكايةِ ذلك الرَّجُلِ الذي أَقْبَلَ علىٰ عُمَرَ بنِ الخطابِ وهو واقِفٌ بِعَرَفَة ، فقال له :

جئتُ - يا أميرَ المؤمنين - من الكوفةِ وَتَرَكْتُ بها رجلاً يُمْلي المَصَاحِفَ عن ظَهْرِ قَلْبِهِ ؛ فَغَضِبَ عمرُ غَضَباً قَلَّما غَضِبَ مِثْلَهُ ، وَانتَفَخَ حَتَّىٰ كادَ يَمْلأُ ما بينَ شُعْبَتَي[3] الرَّحْلِ وقال :

مَنْ هُوَ وَيْحَكَ[4] ؟!

قال : عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ .

فما زالَ يَنْطَفِيءُ وَيُسَرَّى عَنْهُ حتَّىٰ عادَ إلىٰ حالِه ، ثم قال :

وَيْحَكَ ، واللَّهِ ما أَعْلَمُ أَنَّهُ بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَحَقُّ بهذا الأَمْرِ مِنْهُ ، وَسَأُحَدِّثُكَ عن ذلك.

واستأنفَ عمرُ كلامَهُ فقال :

كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يَسْمَرُ ذاتَ ليلةٍ عِنْدَ أبي بكرٍ ، ويتفاوَضانِ[5] في أَمْرِ المسلمين ، وكُنْتُ معهما ، ثُمَّ خَرَجَ رسولُ اللَّهِ وَخَرَجْنا معه ، فإذا رَجُلٌ قائِمٌ

---

(١) تخلق بشمائله : تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته .

(٢) السمت : الهيئة والخلق .

(٣) شعبتا الرحل : مقدمته ومؤخرته .

(٤) ويحك : ويلك .

(٥) يتفاوضان : يتذاكران ويتحدثان .

يُصَلِّي بِالمَسْجِدِ لَمْ نَتَبَيَّنْهُ[1] : فَوَقَفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ إليه ، ثم ٱلْتَفَتَ إلينا وقال :

(مَن سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ ٱلْقُرْآنَ رَطْباً كما نَزَل فَلْيَقْـرَأْهُ على قِرَاءَةِ ٱبْنِ أُمِّ عَبْدٍ . . .)،

ثُمَّ جَلَسَ عبدُ اللَّه بنُ مسعودٍ يدْعو فَجَعَلَ الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ يقولُ له :

(سَلْ تُعْطَهْ . . . . سَلْ تُعْطَهْ . . . .)

ثم أَتْبَعَ عمرُ يقول :

فَقُلْتُ في نفسي : واللَّهِ لأَغدُوَنَّ عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ وَلأَبَشِّرَنَّهُ بِتأْمِينِ الرَّسول ﷺ على دُعائِه ، فَغَدَوْتُ عَلَيْهِ فَبَشَّرْتُه ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إلَيْه ؛ فَبَشَّرَهُ . . .

ولا واللَّهِ سابَقْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلاَّ سَبَقَنِي إِلَيْهِ .

* * *

ولقد بَلَغَ من عِلْمِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ بكتابِ اللَّهِ أَنَّهُ كان يقولُ : واللَّهِ الذي لا إِلَهَ غَيْرُه ، ما نَزَلَتْ آيَةٌ من كِتابِ اللَّهِ إلاَّ وأنا أعلمُ أينَ نَزَلَتْ وأعلمُ فيما نَزَلَتْ ، ولو أَعْلَمُ أَنَّ أَحَداً أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابَ اللَّهِ تَنَالُهُ المَطِيُّ[2] لأَتَيْتُه .

* * *

لم يَكُنْ عبدُ اللَّه بنُ مسعودٍ مُبَالِغاً فيما قالَـه عَنْ نفسِه ، فهـذا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضيَ اللَّهُ عَنه يَلْقَىٰ رَكْباً[3] في سَفَرٍ من أَسْفَارِهِ ، والليلُ مُخَيِّمٌ يحجُبُ

---

(١) لم نتبينه : لم نعرفه .

(٢) تناله المطي : أي يمكن الوصول إليه .

(٣) ركباً : قافلة .

الرَّكْبَ بِظلامِهِ .

وكان في الرَّكْبِ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ ، فَأَمَرَ عُمَرُ رجلاً أن يُنَادِيَهُمْ :
من أَيْنَ القومُ ؟ فأجابَه عبدُ اللَّهِ : من الْفَجِّ العَمِيقِ(1) .

فقال عمرُ : أينَ تريدونَ ؟

فقال عَبْدُ اللَّهِ : البيتَ العَتيقَ .

فقال عمرُ : إنَّ فيهم عالماً . . . . وأمرَ رجلاً فناداهُمْ :

أيُّ القرآنِ أعظمُ ؟

فأجابه عبدُ اللَّهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

قال : نَادِهِمْ أَيُّ ٱلْقُرْآنِ أَحْكَمُ ؟

فقال عبدُ الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ .

فقال عمر : نادِهم أَيُّ القرآنِ أَجْمَعُ ؟

فقال عبدُ اللَّهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ .

فقال عمرُ : نَادِهِمْ أَيُّ ٱلْقُرْآنِ أَخْوَفُ ؟

فقال عبدُ اللّهِ : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ .

فقال عمرُ : نادِهم أَيُّ القرآن أَرْجَىٰ ؟

فقال عبدُ اللّهِ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(1) الفج العميق : الوادي العميق .

فقال عمرُ : نَادِهِمْ ، أفيكُمْ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ ؟!
قالوا : اللّهُمَّ نعم .

* * *

ولم يَكُنْ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ قارِئاً عالماً عابِداً زاهِداً فَحَسْبُ وإنَّما كان - مع ذلك - قَوِيًّا حازِماً مُجاهِداً مِقْداماً إذا جَدَّ الْجِدُّ .

فَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مُسْلِمٍ علىٰ ظَهْرِ الأرضِ جَهَرَ بالقرآنِ بَعْدَ رسولِ اللّهِ ﷺ :

فقد اجْتَمعَ يوماً أصحابُ رسولِ اللّهِ في مكَّة ، - وكانوا قِلَّةً مُسْتَضْعَفينَ - فقالوا :

واللّهِ ما سَمِعَتْ قريشٌ هٰذا القُرْآنَ يُجْهَرُ لها به قَطُّ ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُم إيَّاه ؟!

فقال عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ : أنا أُسْمِعُهُم إيَّاه .

فقالوا : إنَّا نَخْشَاهُم عليكَ ، إنَّما نُريدُ رَجُلًا له عَشيرةٌ ، تَحْميه وتَمْنَعُهُ منهم إذا أرادوه بشَرٍّ ، فقال : دَعُوني فإنَّ اللّهَ سَيَمْنَعُني ويَحْميني . . .

ثم غدا إلىٰ الْمَسْجِدِ حَتّىٰ أَتَىٰ مَقَامَ إبْراهِيمَ في الضُّحَىٰ ، وقريشٌ جلوسٌ حَوْلَ الكَعْبَةِ ، فَوَقَفَ عِنْدَ المقامِ وقرأ :

﴿ بِسمِ اللّهِ الرحمنِ الرحيمِ - رافِعاً بها صَوْتَهُ - الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ * خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ . . . ﴾ .

وَمَضَىٰ يَقْرأُها ، فَتَأَمَّلَتْهُ قريشٌ وقالت : ماذا قال ابنُ أُمِّ عَبْدٍ ؟!
تَبًّا له[1] . . . إنَّهُ يَتْلو بَعْضَ ما جاءَ بِهِ محمدٌ . . .

---

(١) تباً له : هلاكاً له .

وقاموا إليه وجَعَلوا يَضرِبُونَ وَجْهَهُ وهو يَقْرَأُ حَتَّىٰ بَلَغَ منها ما شاءَ اللّٰهُ أَنْ يَبْلُغَ ، ثم انْصَرَفَ إِلىٰ أَصْحَابِه والدَّمُ يسيلُ منه ، فقالوا له :

هٰذا الذي خَشِينا عليك .

فقال : واللّٰهِ ما كان أعداءُ اللّٰهِ أَهْـوَنَ في عيني منهم الآنَ ، وإنْ شِئْتُم لأُغَادِيَنَّهُم[1] ، بِمِثْلِها غداً ، قالوا :

لا ، حَسْبُكَ[2] ، لقد أَسْمَعْتَهم ما يَكْرَهون .

* * *

عاشَ عبدُ اللّٰهِ بنُ مسعودٍ إِلىٰ زَمَنِ خِلافَةِ عُثمانَ رَضِيَ اللّٰهُ عنـه ، فلمّا مَرِضَ مَرَضَ الموتِ جاءَه عثمانُ عائِداً ، فقال له :

ما تشْتَكِي ؟

قال : ذُنوبي .

قال : فما تشْتَهي ؟

قال : رحمةَ ربي .

قال : أَلا آمُرُ لك بِعَطائِك الذي امْتَنَعْتَ عَنْ أَخْذِه منذُ سنين ؟!

قال : لا حاجَةَ لي به .

قال : يكون لِبَناتِكَ من بَعْدِك .

قال : أَتَخْشَىٰ علىٰ بناتي ٱلْفَقْرَ ؟

إِنّي أَمَرْتُهُنَّ أَنْ يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ ٱلْوَاقِعَة . . .

وَإِنّي سمعتُ رسولَ اللّٰهِ ﷺ يقول :

(مَنْ قَرَأَ ٱلْوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ[3] أبداً) .

* * *

---

(١) لأغادينهم : لأخرجنَّ لهم في صبح اليوم التالي .

(٢) حسبك : يكفيك . (٣) الفاقة : الفقر والحاجة .

ولما أَقبَلَ الليلُ لَحِقَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ بالرفيقِ الأَعْلَى ولِسَانُه رَطْبٌ بِذِكْرِ اللّهِ ، نَدِيٌّ بآياتِه ٱلْبَيِّنات(*) .

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللّه بن مسعود انظر :
١ ـ الإصابة (ط . السعادة) : ٤/١٢٩ ـ ١٣٠ .
٢ ـ الاستيعاب (ط . حيدر آباد) : ١/٣٥٩ ـ ٣٦٢ .
٣ ـ أسد الغابة : ٣/٢٥٦ ـ ٢٦٠ .
٤ ـ تذكرة الحفاظ : ١/١٢ ـ ١٥ .
٥ ـ البداية والنهاية : ٧/١٦٢ـ١٦٣ .
٦ ـ طبقات الشعراني : ٢٩ ـ ٣٠ .
٧ ـ شذرات الذهب : ١/٣٨ ـ ٣٩ .
٨ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/١٠٠ ـ ١٠٤ .
٩ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٣٣١ ـ ٣٥٧ .
١٠ ـ صفة الصفوة : ١/١٥٤ ـ ١٦٦ .

(سَلْمانُ مِنَّا أهلَ البَيْتِ)

[محمد رسول اللّه]

قِصَّتُنا هذه هيَ قِصَّةُ السَّاعي وراءَ الحَقِيقةِ ، الباحِثِ عن اللّهِ . . .

قِصَّةُ سَلْمَانَ ٱلْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وأَرْضاه .

فَلْنَتْرُكْ لِسَلْمانَ نَفْسِهِ المجالَ لِيَرْوِيَ لنا أُحْدَاثَ قِصَّتِه . . .

فشُعُورهُ بها أَعْمَقُ ، ورِوايَتُه لها أَدَقُّ وَأَصْدَقُ . . .

قال سَلْمانُ :

كنتُ فتىً فارِسياً من أَهْلِ أَصْبهَانَ ، من قريَةٍ يقال لها : « جَيَّانَ » .

وكان أبي دُهْقَانَ[1] ٱلْقَرْيَةِ ، وَأَغْنَىٰ أَهْلِها غِنىً وَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً .

وكنتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللّهِ إليه منذ وُلِدْتُ ، ثم ما زالَ حُبُّه لي يَشْتَدُّ وَيَزْدَادُ على الأيامِ حَتَّىٰ حَبَسَني في البَيْتِ خَشْيَةً عَلَيَّ كما تُحْبَسُ ٱلْفَتَياتُ .

وقد اجْتَهَدْتُ في المجوسِيَّةِ[2] ، حتى غَدَوْتُ قَيِّمَ النَّارِ التي كُنَّا نَعْبُدُها ، وأُنيط بي[3] أَمْرُ إِضْرَامِها حتَّىٰ لا تَخْبُوَ ساعَةً في ليلٍ أو نهارٍ .

وكان لأبي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ تَدِرُّ علينا غَلَّةً كبيرةً ، وكان أبي يقومُ[4] عَلَيْهَا ،

---

(1) دهقان القرية : رئيسها .

(2) المجوسيَّة : دينٌ يعبدُ أصحابُه النارَ أو الشَّمْس .

(3) أنيط بي : أُوكل إلي .

(4) يقوم عليها : يُشرفُ عليها ويُعنَى بها .

وَيَجْنِي غَلَّتَها .

وفي ذاتِ مَرَّةٍ شَغَلَهُ عن الذَّهابِ إلىٰ القريةِ شاغِلٌ ، فقال :

يا بُنَيَّ إني قد شُغِلْتُ عن الضَيْعَةِ بِما تَرَىٰ ، فَاَذْهَبْ إليها وتَولَّ اليومَ عَنِّي شَأْنَها ، فَخَرَجْتُ أَقْصُدُ ضَيْعَتَنا . وفِيما أنا في بَعْضِ الطريقِ مَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ من كنائِسِ النَّصارَىٰ فَسَمِعْتُ أصواتَهم فيها وهم يُصَلُّونَ فَلَفَتَ ذلك انْتِباهِي .

***

لم أَكُنْ أعْرِفُ شيئاً من أَمْرِ النَّصارَىٰ أو أَمْرِ غيرِهم من أصْحابِ الأديان لِطُولِ مَا حَجَبَنِي أبي عنِ النَّاسِ في بيتِنا ، فلمَّا سمعتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عليهم لأَنْظُرَ ما يَصْنَعُونَ .

فلمَّا تَأَمَّلْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلاتُهُمْ وَرَغِبْتُ في دينِهم وقلتُ :

واللّهِ هـذا خَيْرٌ من الـذي نحنُ عليه ، فـواللّهِ مـا تـركتُهم حَتَّىٰ غـربَتِ الشَّمْسُ ، ولم أَذْهَبْ إلىٰ ضيعة أبي .

ثم إني سألتُهم : أينَ أَصْلُ هٰذا الدِّين ؟

قالوا : في بلادِ الشَّامِ .

ولما أَقْبَلَ اللَّيْلُ عُدْتُ إلىٰ بيتِنا فتلقَّاني أَبي يسألُني عَمَّا صَنَعْتُ ، فقلتُ :

يا أَبَتِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأُناسٍ يُصَلُّونَ في كَنِيسَةٍ لهم فأَعجَبني مـا رأيتُ من دِينِهم ، وما زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غربتِ الشَّمْسُ . فَذُعِرَ أَبي مما صَنَعْتُ وقال :

أَيْ بُنَيَّ ليسَ في ذلك الدينِ خَيْرٌ . . . دينُكَ ودينُ آبائِك خيرٌ منه .

قلت : كلا ـ واللّهِ ـ إنَّ دينَهم لَخَيْرٌ من دينِنا . فخاف أبي مِمَّـا أقولُ ، وخَشِيَ أنْ أرتدَّ عَنْ ديني ، وَحَبَسَني بالبيتِ ، وَوَضَعَ قَيْداً في رِجْلَيَّ .

***

ولما أُتيحتْ ليَ ٱلْفُرْصَةُ بَعَثْتُ إِلىٰ النَّصارَىٰ أقولُ لهم :

إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ يريدُ الذَّهَابَ إِلىٰ بلادِ الشَّامِ فَأَعْلِمُوني .

فما هُوَ إلاَّ قليلٌ حتَّىٰ قَدِمَ عليهم رَكْبٌ مُتَّجِهٌ إِلىٰ الشَّامِ ، فأخبَرُوني به فاحْتَلْتُ على قَيْدِي حَتَّىٰ حَلَلْتهُ ، وخرجتُ معهم مُتَخَفِّياً حتى بَلَغْنَا بلادَ الشَّامِ .

فلما نَزَلْنَا فيها ، قلت : مَنْ أَفْضَلُ رَجُلٍ من أَهْلِ هٰذا الدينِ ؟

قالوا : الأُسْقُفُ[1] راعي الكنيسةِ ، فجِئْتُهُ فقلت :

إِنِّي قد رَغِبْتُ في النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْزَمَكَ وَأَخْدِمَكَ وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ وَأُصَلِّيَ مَعَك .

فقال : ادْخُلْ ، فَدَخَلْتُ عِنْدَهُ وَجَعَلْتُ أَخْدِمُه .

ثم ما لَبِثْتُ أَنْ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّجلَ رَجُلُ سُوءٍ ؛ فقد كان يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ بِثَوَابِهَا ، فإذا أَعْطَوْه منها شيئاً لِيُنْفِقَهُ في سبيلِ اللّهِ ؛ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ ٱلْفُقَرَاءَ والمساكين منه شيْئاً ؛ حَتَّىٰ جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ[2] مِن الذَّهَبِ .

فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضاً شديداً لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ ، ثم ما لَبِثَ أَنْ ماتَ فَاجْتَمَعَتِ النَّصارَىٰ لِدَفْنِهِ ، فقلتُ لهم :

إِنَّ صَاحِبَكُمْ كانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُكُمْ بالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكم فيها ، فإذا جِئْتُموه بِهَا اكْتَنَزَها لِنَفْسِهِ ، ولم يُعْطِ المساكينَ مِنْها شيئاً .

قالوا : من أَينَ عَرَفْتَ ذٰلك ؟!

قلت : أَنا أَدُلُّكم على كَنزِه .

---

(١) الأسقف : مرتبة من مراتب رجال الدين عند النصارى فوق القسيس ودون المطران .

(٢) القلال : جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

قالوا : نَعَمْ دُلَّنا عليه ، فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ فاسْتَخْرَجوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةً ذَهَباً وَفِضَّةً ، فلمَّا رأَوْها قالوا :

واللّهِ لا نَدْفِنُهُ ، ثم صَلَبوه ورَجَموه بالحِجَارَةِ .

ثم إنَّه لم يَمْضِ غَيْرُ قليلٍ حتَّىٰ نَصَّبوا رجلاً آخرَ مَكَانَهُ ، فَلَزِمْتُه ، فما رأيتُ رجلاً أزهدَ منه في الدُّنيا ، ولا أَرْغَبَ منه في الآخِرَة ، ولا أَدْأَبَ منه علىٰ العِبادَة ليلاً ونهاراً ، فأحببته حُبًّا جَمًّا[1] ، وأقمتُ معه زماناً ، فلما حَضَرَتْهُ الوفاةُ قلت له :

يا فلانُ إلىٰ مَن توصِي بي ومَعَ مَن تَنْصَحُني أنْ أكونَ مِنْ بَعْدِك ؟

فقال : أَيْ بُنَيَّ ، لا أعلمُ أحداً على ما كنتُ عليه إلَّا رجلاً بالمَوْصِلِ هو فلانٌ لَمْ يُحَرِّفْ وَلَمْ يُبَدِّلْ فَالْحَقْ به .

فلما ماتَ صاحبي لَحِقْتُ بالرَّجل في المَوْصِلِ ، فلما قَدِمْتُ عليه قَصَصْتُ عليه خَبَري وقلت له :

إنَّ فلاناً أوصاني عندَ موتِه أن أَلْحَقَ بك وأخبرَني أنَّكَ مُسْتَمْسِكٌ بما كان عليه من الحَقِّ .

فقال : أَقِمْ عندي .

فأقمتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ على خَيْرِ حالٍ .

ثم إنَّه لم يَلْبَثْ أَنْ ماتَ ، فلما حَضَرَتْهُ ٱلْوَفاةُ قلتُ له :

يا فلانُ لَقَدْ جاءَك من أمرِ اللّهِ ما تَرَىٰ وأنتَ تعلمُ مِنْ أَمْرِي ما تَعْلَمُ ، فإلىٰ من توصي بي ؟ ومن تَأْمُرُني باللَّحاقِ به ؟

فقال : أيْ بُنَيَّ ، واللّهِ ما أَعْلَمُ أَنَّ رجلاً علىٰ مِثْلِ ما كُنَّا عليه إلَّا رجلاً

---

(١) حباً جماً : حباً كثيراً .

بِنَصِّيبينَ وهو فلانٌ فالْحقْ به .

فلما غُيِّبَ الرَّجُلُ في لَحْدِهِ لحقتُ بصاحِبِ نصيبينَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَري ومَا أَمَرَني به صاحبي ، فقال لي :

أَقِمْ عِنْدَنَا . فأَقمتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ علىٰ ما كان عليه صاحباه من الخَيْرِ ، فواللّهِ ما لَبِثَ أَنْ نَزَلَ به الموتُ ، فلما حَضَرَتْهُ ٱلْوَفاةُ قلت له :

لقد عَرَفْتَ من أَمْرِي ما عَرَفْتَ فإلىٰ من توصِي بي ؟

فقال : أَيْ بُنَيَّ واللّهِ إِنِّي ما أَعْلَمُ أحداً بقيَ علىٰ أمْرِنَا إلاَّ رجلاً بِعَمُّورِيَةَ هو فلانٌ ، فالحقْ به ، فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي ، فقال :

أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عند رجلٍ كان ـ واللّه ـ علىٰ هَدْيِ أَصْحَابِه ، وقَدِ ٱكْتَسَبْتُ وأنا عِنْدَهُ بَقَرَاتٍ وَغُنَيْمَةً .

ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ ما نَزَلَ بِأَصْحَابِهِ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ ٱلْوَفاةُ قلت له :

إِنَّك تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِي مَا تَعْلَمُ فإلىٰ مَن توصِي بي ؟ وما تَأْمُرُني أن أَفْعَلَ ؟

فقال : يا بنيّ ـ واللّهِ ـ ما أَعْلَمُ أَنَّ هناك أحداً من النَّاسِ بقي على ظهرِ الأرضِ مُسْتَمْسِكاً بما كنا عليه . . . ولكِنَّه قد أَظَلَّ[1] زمانٌ يَخْرُجُ فيه بِأَرْضِ ٱلْعَرَبِ نَبيٌّ يُبْعَثُ بِدِينِ إبراهيمَ ثم يهاجِرُ من أرضِهِ إلىٰ أرضٍ ذاتِ نَخْلٍ بين حَرَّتين[2] ، وله علاماتٌ لا تَخْفَى ، فهو يأكل الهَدِيَّةَ ، ولا يأكلُ الصَّدَقَةَ ، وبينَ كَتِفَيْهِ خاتم النُّبُوَّةِ ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ البلادِ فافْعَلْ .

ثم وافاه الأَجَلُ فَمَكَثْتُ بَعْدَهُ بعمُّورِيَّةَ زمناً إلىٰ أَنْ مَرَّ بها نَفَرٌ من تُجَّارِ العربِ من قبيلَةِ « كَلْبٍ » .

---

(١) أظل : دنا وقرب .

(٢) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة .

فقلتُ لهم : إنْ حَمَلْتُموني معكم إلىٰ أرضِ ٱلْعَرَبِ أعْطَيْتُكُمْ بَقَراتي هٰذه وَغُنَيْمَتي ، فقالوا :

نَعَمْ نَحْمِلُك ، فأعطيتُهم إيَّاها وحملوني مَعَهُمْ حتَّىٰ إذا بَلَغْنا وادي ٱلْقُرَىٰ(١) غَدَروا بي وباعوني لِرَجُلٍ من اليهودِ ، فالْتَحَقْتُ بخِدْمَتِه ، ثم ما لَبِثَ أن زارَهُ ابنُ عَمٍّ له من بني قُرَيْظَةَ فاشتراني منه ، ونقلني مَعَه إلىٰ يَثْرِبَ فرأيتُ النَّخْلَ الذي ذكرَه لي صاحبي بِعَمُّورِيَّةَ ، وَعَرَفْتُ المدينةَ بالوَصْفِ الذي نَعَتَها به ، فَأَقَمْتُ بها معه .

وكان النبيُّ حينَئِذٍ يدعو قَوْمَهُ في مَكَّةَ ،لكنَّني لم أسْمَعْ له بِذِكْرٍ لانْشِغالي بما يوجِبُهُ عَلَيَّ الرِّقُّ .

* * *

ثم ما لَبِثَ أن هاجَرَ الرسولُ إلىٰ يَثْرِبَ ، فواللَّه إني لَفِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِسَيِّدي أَعْمَلُ فيها بَعْضَ العملِ ، وسيدي جالِسٌ تحتَها إذْ أقبل عليه ابنُ عَمٍّ لَهُ وقال له :

قاتَلَ اللَّهُ بني « قَيْلَةَ »(٢) ، واللَّهِ إنَّهم الآن لَمجْتَمِعونَ بقُبَاءَ ، علىٰ رَجُلٍ قَدِمَ عليهم اليومَ من مَكَّةَ يَزْعُمُ أنَّهُ نَبيٌّ .

فما إن سَمِعْتُ مَقالَتَهُ حَتَّى مَسَّني مَا يُشْبِهُ الحُمَّىٰ واضْطَرَبتُ اضْطِراباً شديداً حتَّىٰ خَشِيتُ أنْ أَسْقُطَ علىٰ سَيِّدِي ، وبادرتُ إلىٰ النزولِ عن النَّخلةِ ، وجعلتُ أقولُ للرَّجُلِ :

ماذا تقول ؟! أَعِدْ عَلَيَّ الخبرَ . . . فغضِبَ سَيِّدي ولَكَمَني لَكْمةً شديدةً ، وقال لي :

ما لَكَ ولهٰذا ؟! عُدْ إلىٰ ما كُنْتَ فيه من عَمَلِك .

* * *

---

(١) وادي القرى : واد بين المدينة والشام .

(٢) بنو قيلة : الأوس والخزرج .

ولما كان المساءُ أَخَذْتُ شيئاً من تَمْرٍ كنتُ جَمَعْتُهُ ، وَتَوَجَّهْتُ به إِلىٰ حَيْثُ ينزِلُ الرسولُ ، فدخلتُ عليه ، وقلت :

إِنَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لك غرباءُ ذوو حاجَةٍ ، وهذا شَيْءٌ كان عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ من غَيْرِكُمْ . ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِليه ، فقال لأصحابه :

(كلوا . . .) وأَمْسَكَ يَدَهُ فلم يأكُلْ .

فقلتُ في نَفْسِي : هذه واحِدةٌ .

ثم انْصَرَفْتُ وَأَخَذْتُ أَجْمَعُ بَعْضَ التَّمْرِ ، فلمَّا تَحوَّلَ الرسولُ من قُباءَ إِلىٰ المدينةِ جِئْتُهُ فقلتُ له :

إِنِّي رَأَيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وهٰذه هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهـا . فَأَكَـلَ منها وَأَمَـرَ أَصْحَابَهُ فأكلوا معه .

فقلت في نفسِي : هذه الثانيةُ . . .

ثم جِئتُ رسولَ اللَّهِ وهو ببَقيعِ الغَرْقَدِ[1] حيْثُ كان يوارِي أَحَدَ أَصْحَابِه ، فرأيتُه جالِساً وعليه شَمْلَتَانِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ آسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلىٰ ظَهْرِهِ لَعَلِّي أَرَىٰ الخاتمَ الَّذِي وَصَفَهُ لي صاحبي في عَمُّورِيَّةَ .

فلمَّا رآني النبيُّ أنظُرُ إلى ظَهْرِهِ عَرَفَ غَرَضِي فأَلقىٰ رِداءَه عن ظَهْـرِه ، فنظرتُ فرأيت الخاتمَ ، فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عليـه أُقَبِّلُه وَأَبْكِي .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ :

(ما خَبَرُكَ ؟!)

فَقَصَصْتُ عليه قِصَّتي ؛ فأُعْجِبَ بها ، وَسَرَّهُ أَنْ يَسمَعْهَا أَصْحَابُهُ مِنِّي ،

---

(١) بقيع الغرقد : مكان في المدينة المنورة، جُعِل مدفناً .

فَأَسْمَعْتُهُمْ إِيَّاها ، فعجِبوا مِنْها أَشَدَّ العَجَبِ ، وسُرُّوا بها أَعْظَمَ السرورِ .

* * *

فسلامٌ على سلمانَ الفارِسِيِّ يومَ قامَ يَبْحَثُ عن الحقِّ في كلِّ مكان .
وسلامٌ على سلمانَ الفارسيِّ يومَ عَرفَ الحقَّ فآمَنَ بِهِ أَوْثَقَ الْإِيمان .
وسلامٌ عليه يومَ ماتَ ويومَ يُبْعَثُ حَيًّا(*) .

(*) للاستزادة من أخبار سلمان الفارسي انظر :
١ ـ الإصابة (ط . السعادة) : ٣/١١٣ ـ ١١٤ .
٢ ـ الاستيعاب (ط . حيدر آباد) : ٢/٥٥٦ ـ ٥٥٨ .
٣ ـ الجرح والتعديل ق ١ ج ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧ .
٤ ـ أسد الغابة : ٢/٣٢٨ ـ ٣٣٢.
٥ ـ تهذيب التهذيب : ٤/١٣٧ ـ ١٣٩ .
٦ ـ تقريب التهذيب : ١/٣١٥ .
٧ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ١/١٩٣ .
٨ ـ طبقات الشعراني : ٣٠ ـ ٣١ .
٩ ـ صفة الصفوة : ١/٢١٠ ـ ٢٢٥ .
١٠ ـ شذرات الذهب : ١/٤٤ .
١١ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/١٥٨ ـ ١٦٣ .
١٢ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٣٦٢ ـ ٤٠٥ .

عِكْرِمَة بن أبي جَهْل

(سَيأتِيكُمْ عِكْرِمَةُ مُؤْمِناً مُهاجِراً ، فَلَا تسبوا أباهُ، فإنَّ سَبَّ الميتِ يُؤْذِي الحَيَّ وَلا يبلُغ الميِّتَ)

[محمد رسول اللّه]

(مَرْحباً بالرَّاكِبِ المُهاجِرِ)

[من تحية النبي لعكرمة]

كان في أواخِرِ العِقْدِ الثالثِ من عُمُرِهِ ، يومَ صَدَعَ[1] نَبِيُّ الرحْمةِ بِدَعْوةِ الهُدَىٰ والحقِّ .

وكان من أَكْرَمِ قُرَيْشٍ حَسَباً ، وأَكْثَرِهِمْ مالاً وأَعَزِّهِمْ نَسَباً .

وكان جديراً به أن يُسْلِمَ كما أَسْلَمَ نُظَرَاؤُه ، من أمثالِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وَمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ وغيرِهما من أبناءِ البيوتاتِ المَرْموقَةِ في مكةَ لولا أبوه .

فـمن يكونُ هٰذا الأبُ يا تُرىٰ ؟

إِنَّهُ جَبَّارُ مَكَّةَ الأكبرُ ، وزعيمُ الشِّرْكِ الأولُ ، وَصَاحِبُ النَّكـالِ[2] الذي امْتَحَنَ اللَّهُ بِبَـطْشِهِ إيمـانَ المؤمنين فَثَبَتُـوا ، وَآخْتَبَـرَ بِكَيْـدِهِ صِـدْقَ المـوقِنِينَ فَصَدَقُوا . . .

إِنَّه أبو جَهْلٍ ، وكَفَىٰ . . .

هذا أبوه ، أما هو فَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبي جَهْلٍ المخزومِيُّ ، أَحَدُ صناديدِ قريشٍ

---

(١) صدع : جهر .

(٢) النكال: العذاب الشديد .

المعدودين وَأَبْرَزُ فرسانِها المَرْمُوقين .

* * *

وَجدَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبي جَهْلٍ نَفْسَهُ مدفوعاً بِحُكْمِ زَعامَةِ أبيه إِلىٰ مُنَاوَأَةِ[١] محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ ؛ فَعَادَىٰ الرسولَ أَشَدَّ العِداءِ ، وَآذَىٰ أَصْحَابَهُ أَفْدَحَ الإِيذاءِ ، وَصَبَّ علىٰ الإِسلام والمسلمين من النَّكالِ ما قَرَّتْ به عينُ أبيه[٢] .

ولما قادَ أبوهُ مَعْرَكَةَ الشِّرْكِ يَوْمَ بَـدْرٍ ، وَأَقْسَمَ بِاللاَّتِ وَٱلْعُزَّىٰ[٣] أَلاَّ يَعُودَ إِلىٰ مَكَّةَ إِلاَّ إِذا هَزَمَ محمداً ، ونَزَلَ بِبَدْرٍ وَأَقَـامَ عليها ثلاثاً يَنْحَرُ الجَزُورَ ، وَيَشْرَبُ الخمورَ ، وَتَعْزِفُ له القِيانُ بالمعازِف . . .

لَمَّا قادَ أبو جهلٍ هٰذه المعركةَ كان ابنُه عِكْرِمَةُ عَضُدَهُ الذي يعتمِد عليه ، ويدَه التي يبطِشُ بها .

ولكِنَّ اللاَّتَ والعُزَّىٰ لَمْ يُلَبِّيا نداءَ أبي جَهْلٍ لأَنَّهما لا يسمعان . . .

ولم يَنْصُرَاهُ في مَعْرَكَتِه لأَنَّهما عاجِزان . . .

فَخَرَّ صريعاً دون بَدْرٍ ، ورآه ابنُهُ عِكْرِمَةُ بِعَيْنَيْهِ ، ورِمَاحُ المسلمين تَنْهَلُ[٤] مِن دَمِه ، وَسَمِعَهُ بِأُذُنيه وهو يُطْلِقُ آخِرَ صَرْخَةٍ ٱنْفَرَجَتْ عنها شَفَتاه .

* * *

عادَ عِكْرِمَةُ إِلىٰ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ خَلَّفَ جُثَّةَ سَيِّدِ قريشٍ في بَدْرٍ ؛ فقد أَعْجَزَتْهُ الهَزِيمةُ عَنْ أَنْ يَظْفَرَ بها ليدفِنَها في مكَّةَ ، وَأَرْغَمَهُ الفرارُ علَىٰ تَرْكِها للمسلمين ؛ فَأَلْقَوْها في القَلِيبِ[٥] مَعَ العَشَرَاتِ من قَتْلَىٰ المشركين ، وأهالوا علَيْهَا الرِّمالَ .

* * *

---

(١) المناوأة : المعاداة .
(٢) قرت عين الرجل : يعني أنه سر وفرح .
(٣) اللاّت والعزى : صنمان لقريش .
(٤) تنهل من دمه : تشرب من دمه .
(٥) القليب : بئر أُلقيت فيها جثث المشركين من قتلى بدر .

وَمُنْذُ ذلك اليوم أصْبَحَ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ مَعَ الإِسْلَامِ شأنٌ آخَرُ . . .
فقد كان يُعاديه في بادِئِ الأَمْرِ حَمِيَّةً لِأَبِيهِ فَأَصْبَحَ يعادِيه اليومَ ثأراً له .

وَمِنْ هُنَا آنْبَرَىٰ عِكْرِمَةُ وَنَفَرٌ مِمَّنْ قُتِلَ آباؤُهم في بَدْرٍ ، يُؤَرِّثُـونَ[1] نارَ العَداوَةِ في صدورِ المشركين علىٰ محمدٍ ، ويُضْرِمونَ جَذْوَةَ[2] الثَّأْرِ في قلوبِ المَوْتُورِينَ[3] من قريشٍ ، حَتَّىٰ كانتْ وقعةُ أُحُدٍ .

* * *

خَرَجَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبي جَهْلٍ إِلىٰ أُحُدٍ ، وَأَخْرَجَ مَعه زوجَه أُمَّ حكيمٍ لِتَقِفَ مَعَ النِّسْوَةِ المَوْتُورَاتِ في بدرٍ وراءَ الصُّفوفِ ، وَتَضْرِبَ مَعَهُنَّ علَىٰ الدُّفوفِ ، تَحْريضاً لقريشٍ على القِتَالِ ، وتَثْبِيتاً لِفُرْسانِها إذا حَدَّثَتْهُم أَنْفُسُهُم بالفِرارِ .

* * *

وَجَعَلَتْ قريشُ علىٰ مَيْمَنَةِ فُرْسانِها خالدَ بنَ الوليدِ ، وعلى مَيْسَرَتِهِم عِكْرِمَةَ بْنَ أَبي جَهْلٍ ، وَأَبْلَىٰ الفارِسانِ المُشْرِكان في ذلك اليومِ بلاءً رَجَّحَ كَفَّةَ قُرَيْشٍ على محمدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَحَقَّقَ لِلْمُشْرِكين النَّصْرَ الكبيرَ ؛ مِمَّا جَعَلَ أبا سفيانَ يقول :

هذا بِيومِ بدرٍ .

* * *

وفي يومِ الخَنْدَقِ ، حاصَرَ المشركون المدينَةَ أيّاماً طويلةً فَنَفِدَ صَبْرُ عِكْرِمَةَ ابْنِ أبي جَهْلٍ ، وَضَاقَ ذَرْعاً بالحِصَارِ[4] ، فَنَظَرَ إِلىٰ مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الخَنْدَقِ ، وَأَقْحَمَ[5] جوادَه فيه فاجْتَازَه ، ثم اجتازَه وراءَه بِضْعَةُ نَفَرٍ في أَجْرَأَ مُغامَرَةٍ ذَهَبَ ضَحِيَّتَها عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ آلْعَامِرِيُّ . . .

---

(١) يؤرثون : يوقدون .
(٢) الجذوة : الجمرة الملتهبة .
(٣) الموتور : من قُتل له قتيل فلم يأخذ بثأره .
(٤) ضاق ذرعاً بالحصار : لم يستطع الصبر عليه وأصابه منه ضيق .
(٥) أقحم جواده : أدخله بعنف .

أَمَّا هو فلم يُنَجِهِ إِلَّا الفِرارُ .

* * *

وفي يوم ٱلْفَتْحِ رأتْ قريشٌ أَلَّا قِبَلَ لها بمحمدٍ وأَصْحَابِهِ ، فَأَزْمَعَتْ[1] علىٰ أنْ تُخلِّيَ لَهُ السبيلَ إلىٰ مَكَّةَ ، وقد أعانَها علىٰ اتِّخاذِ قرارِها هٰذا ما عَرَفَتْهُ مِنْ أنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ أَمَرَ قُوَّادَهُ أَلَّا يُقاتِلوا إلَّا مَنْ قاتَلَهم من أَهْلِ مَكَّةَ .

* * *

لٰكِنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ أبي جَهْلٍ ونفراً مَعَهُ خرجوا على إِجْمَاعِ قريشٍ ، وَتَصَدَّوْا للجَيْشِ الكبيرِ ، فهزَمَهُمْ خالدُ بنُ الوليدِ في مَعْرَكَةٍ صغيرةٍ قُتِلَ فيها مَنْ قُتِلَ منهم ولاذَ بالفرار مَنْ أَمْكَنَهُ الفِرارُ ، وكان في جُمْلَةِ الفارِّين عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ .

* * *

عند ذلك أُسْقِطَ[2] في يَدِ عِكْرِمَةَ . . .

فَمَكَّةُ نَبَتْ به[3] بعدَ أنْ خَضَعَتْ للمسلمين .

والرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه عَفَا عَمَّا سَلَفَ من قريشٍ تِجَاهَهُ . . .

لٰكِنَّه اسْتَثْنَىٰ منهم نفراً سَمَّاهُمْ وَأَمَرَ بقتْلهم وإنْ وُجِدُوا تَحْتَ أَسْتَارِ ٱلْكَعْبَةِ .

* * *

وكان في طَلِيعَةِ هؤلاءِ النَّفَرِ عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ ؛ لذا تَسَلَّلَ مُتَخَفِّياً مِنْ مَكَّةَ ، وَيَمَّمَ وَجْهَه شَطْرَ اليَمَنِ[4] ، إِذْ لَمْ يَكُنْ له ملاذٌ[5] إلَّا هناك .

* * *

---

(١) أزمعت : قررت .

(٢) أُسقط في يد عكرمة : تحير وندم .

(٣) نبت به : لم يبق له فيها قرار .

(٤) يمم وجهه شطر اليمن : اتجه نحو اليمن .

(٥) ملاذ : ملجأ .

عندَ ذلك مَضَتْ أُمُّ حكيمٍ زَوْجُ عِكْرِمَةَ بْنِ أبي جَهْلٍ وهِندُ بِنتُ عُتْبَةَ[1] إلىٰ مَنْزِلِ رسولِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ومعهما عَشْرُ نِسْوَةٍ لِيُبَايِعْنَ النبيَّ عليه السَّلامُ ، فَدَخَلْنَ عليه ، وَعِنْدَهُ اثنتانِ من أزواجِه وابنتُه فاطِمَةُ ونسـاءُ من نِساءِ بني عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَتَكَلَّمَتْ هِنْدُ وهي مُتَنَقِّبَةٌ[2] وقالت :

يا رسولَ اللَّهِ ، الحمدُ للَّهِ الذي أَظْهَرَ الدينَ الذي اختارَه لِنَفْسِه ، وإنِّي لأَسْأَلُكَ أَنْ تَمَسَّني رَحِمُكَ بخير[3] ، فإني امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ مُصَدِّقَةٌ ، ثُمَّ كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِها وقالت :

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ يا رسولَ اللَّهِ . فقال لها الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(مَرْحَباً بكِ) .

فقالت : واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ ما كان علَىٰ وَجْهِ الأرضِ بيتٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلَّ من بيتِك ، ولقد أصبحتُ وما عَلَىٰ وجه الأرضِ بيتٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزَّ مِنْ بيتِك .

فقال رسولُ اللّه : (وزِيَادَةً أيضاً) .

ثـم قامَتْ أُمُّ حكيمٌ زوجُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبي جَهْلٍ فأسلمت وقالت :

يا رسولَ اللَّهِ ، قد هَرَبَ مِنْكَ عِكْرِمَةُ إلىٰ اليمنِ خَوْفاً من أَنْ تَقْتُلَهُ فَأَمِّنْهُ أَمَّنَكَ اللَّهُ ، فقال عليه السلامُ :

(هو آمِن) .

فخرجت من ساعَتِها في طَلَبِه ، ومَعَها غلامٌ لها روميٌّ ، فلمَّا أَوْغَلا في الطريقِ راوَدَها الغلامُ عن نَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ تُمَنِّيهِ وَتُماطِلُه حتَّىٰ قَدِمَتْ على حَيٍّ

---

(١) هند بنت عتبة : زوج أبي سفيان ، وهي أم معاوية رضي اللّه عنه .

(٢) متنقبة : أي واضعة النقاب على وجهها خجلاً من رسول اللّه ﷺ لتمثيلها بعمه حمزةَ بن عبد المطلب يوم أُحد .

(٣) أن تَمسني رحمك بخير : أَنْ تُحْسِنَ معاملتي لما بيني وبينك من قرابة .

من العَرَبِ فاسْتَعَانَتْهُم عليه فأوْثَقُوهُ وتَرَكوه عندهم.

وَمَضتْ هِيَ إلَىٰ سبيلها حَتَّىٰ أَدْرَكَتْ عِكْرِمَةَ عِنْدَ سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ في مِنْطَقَةِ تِهَامَةَ[1]، وهو يُفَاوِضُ نوتياً[2] مُسْلِماً على نَقْلِهِ، وَالنُّوتِيُّ يقولُ له:

أَخْلِصْ حتَّىٰ أنْقلَكَ.

فقال له عِكْرِمَةُ:

وكيف أُخْلِصُ؟

قال: تقولُ أَشْهَدُ أَنْ لا آلَهَ إلَّا اللّه وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ.

فقال عِكْرَمَة: ما هَرَبْتُ إلَّا مِنْ هذا.

وفيما هُمَا كذلك إذْ أَقْبَلَتْ أُمُّ حكيمٍ علىٰ عِكْرِمَةَ وقالت:

يـا ابنَ عَمٍّ، جِئتُـك من عِنْدِ أَفْضَـلِ النَّـاسِ، وَأَبـرِّ النَّاس، وخيـرِ النَّاس....

من عِنْدِ محمدِ بنِ عبدِ اللّهِ...

وقد استأمنْتُ لكَ مِنْهُ فَأَمَّنَكَ فَلا تُهْلِكْ نَفْسَكَ. فقال:

أنتِ كَلَّمْتِه؟

قالت: نَعَمْ، أنا كَلَّمْتُهُ فَأَمَّنَكَ. وَما زَالَتْ بِهِ تُؤَمِّنُهُ وَتُـطَمْئِنُهُ حَتَّىٰ عـادَ معها.

ثم حَدَّثَتْهُ حديثَ غُلامِهما الروميِّ فَمَرَّ به وقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِم.

وفيما هما في مَنْزِلٍ نَزَلا به في الطَّرِيقِ أرادَ عِكْرِمَةُ أن يَخْلُوَ بِزَوجه، فأَبَتْ ذلك أَشَدَّ الإِباءِ وقالت:

---

(١) تهامة: هو السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر، بينه وبين سلسلة جبال السراة.

(٢) النوتي: البحار.

إنّي مسلمةٌ وأنت مُشْرِكٌ . . .

فَتَملَّكَهُ ٱلْعَجَبُ وقال : إنَّ أَمْراً يحولُ دونَكِ ودونَ الخَلْوَةِ بي لأَمْرٌ كبيرٌ .

فلما دنا عِكْرِمَةُ من مَكَّةَ ، قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ لأصحابه :
(سَيأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ مُؤْمِناً مُهَاجِراً ، فلا تَسُبُّوا أَبَاهُ ؛ فَإنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ وَلا يَبْلُغُ المَيِّتَ) .

وما هُوَ إلَّا قليلٌ حتَّىٰ وصَلَ عِكْرِمَةُ وزوجُه إلىٰ حَيْثُ يجلِسُ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا رآه النبيُّ صلواتُ اللَّهِ عليهِ وَثَبَ إليه من غير رِداءٍ[1] فَرَحاً به . . . ولما جَلَسَ رسولُ اللَّهِ وَقَفَ عِكْرِمَةُ بَيْنَ يَدَيْه وقال :

يا محمدُ ، إنَّ أُمَّ حكيمٍ أَخْبَرَتْني أَنَّكَ أَمَّنْتَني . . . فقال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(صَدَقَت ، فَأَنْتَ آمِنٌ) .

فقال عِكْرِمَة : إلامَ تَدْعُو يا محمدُ ؟

قال :(أَدْعُوكَ إلىٰ أَنْ تَشْهَدَ أن لا آلَهَ إلَّا اللَّه وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه ، وأن تُقيمَ الصلاة وأنْ تُؤْتِيَ الزكاةَ . .) حتَّى عَدَّ أركانَ الإسلام كُلَّها .

فقال عِكْرِمَة : واللَّهِ ما دَعَوْتَ إلَّا إلىٰ حَقٍّ ، ومَا أَمَرْتَ إلَّا بخيرٍ ، ثم أَرْدَفَ يقول :

قد كنتَ فينا ـ واللَّهِ ـ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ إلىٰ ما دَعَوْتَ إليه وأنتَ أَصْدَقُنَا حديثاً وَأَبَرُّنَا بِرًّا . . .

ثم بسط يَدَهُ وقال : إنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا آلَهَ إلَّا اللَّه وَأَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، ثم قال :

---

(١) الرداء : ما يلبس فوق الثياب من عباءة وجبة ونحوهما .

يا رسولَ اللَّهِ عَلِّمْني خَيْرَ شَيْءٍ أَقُولُه .

فقال : (تقول: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَأَنَّ محمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه) .

فقال عِكْرِمَةُ : ثم ماذا ؟

قال رسول اللَّه ﷺ : (تقول : أُشْهِدُ اللَّهَ ، وَأُشْهِـدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي مُسْلِمٌ مُجَاهِدٌ مُهاجِرٌ). فقالَ عِكْرِمَةُ ذلك .

عند هذا قال له الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه :(اليومَ لا تَسْأَلُني شيئاً أُعْطيه أَحَداً إِلاَّ أَعْطَيْتُكَ إِيَّاه) ، فقال عكرمةُ :

إِني أَسْأَلُكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لي كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَيْتُكَها ، أَوْ مَقَامٍ لَقيتُكَ فيه ، أَوْ كلامٍ قُلْتُهُ في وَجْهِكَ أَوْ غَيْبَتِكَ .

فقال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ :(اللَّهُمَّ آغْفِرْ لَهُ كُلَّ عداوةٍ عادانيها ، وَكُلَّ مَسيرٍ سارَ فيه إِلىٰ موضِعٍ يريدُ به إِطفَاءَ نورِكَ ، واغْفِرْ له ما نالَ من عِرْضِي في وَجْهِي أَوْ أنا غائبٌ عَنْه) .

فَتَهَلَّلَ وجهُ عِكْرِمَةَ بِشراً وقال :

أما واللَّهِ ، يا رسولَ اللَّهِ ، لا أَدَعُ نَفَقَةً كنتُ أَنْفَقْتُها في صَدٍّ عَنْ سبيلِ اللَّهِ إِلاَّ أَنْفَقْتُ ضِعْفَها في سبيلِ اللَّهِ ، ولا قِتالاً قاتَلْتُهُ صَدًّا عن سبيلِ اللَّهِ إِلاَّ قاتلتُ ضِعْفَهُ في سبيلِ اللَّهِ .

* * *

ومُنْذُ ذٰلك اليومِ آنْضَمَّ إِلىٰ مَوْكِبِ الدَّعوةِ فارِسٌ باسِلٌ في ساحَاتِ القِتالِ ، عَبَّادٌ قَوَّامٌ قَرَّاءٌ لِكتابِ اللَّهِ في المساجِدِ ؛ فقد كان يَضَعُ المُصْحَفَ على وَجْهِهِ ويقول :

كتابُ ربِّي . . . كَلامُ رَبِّي . . . وهو يَبْكِي من خَشْيَةِ اللَّهِ .

* * *

بَرَّ عِكْرِمَةُ بما قَطَعَه للرسولِ من عَهْدٍ ، فما خاضَ المسلمون مَعْرَكَةً بَعْدَ إسلامِه إلَّا وخاضَها مَعَهُم ، ولا خَرَجوا في بَعْثٍ إلَّا كان طَلِيعَتَهُمْ.

وفي يومِ ٱلْيَرْمُوكِ أَقْبَلَ عِكْرِمَةُ على ٱلْقِتَالِ إقْبالَ الظَّامِىءِ على الماءِ البارِدِ في اليومِ القائِظِ.

ولَمَّا اشْتَدَّ الكربُ على المسلمين في أَحَدِ المواقِفِ ، نَزَلَ عَنْ جَوادِه وكَسَرَ غِمْدَ سيفِهِ ، وأَوْغَلَ[١] في صفوفِ الرومِ ، فبادَرَ إليه خالدُ بنُ الوليدِ وقال :

لا تَفْعَلْ يا عِكْرِمَة فَإِنَّ قَتْلَكَ سَيَكُونُ شديداً على المسلمين ، فقال :

إليكَ عَنِّي[٢] يا خالدُ . . . فلقد كان لَكَ مع رسولِ اللّهِ ﷺ سابِقَةٌ ، أَمَّا أنا وأبي فقد كُنَّا مِنْ أشدِّ النَّاسِ علىٰ رسولِ اللّهِ ، فَدَعْني أُكَفِّرْ عَمَّا سَلَفَ مِنِّي . ثم قال :

لَقَدْ قَاتَلْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ في مَوَاطِنَ كثيرةٍ وَأَفِرُّ من الرومِ اليوم ؟! .

إنَّ هٰذا لَنْ يكونَ أبداً .

ثم نادَىٰ في المسلمين : مَنْ يُبَايِعُ على الموتِ ؟ فبايَعَهُ عَمُّهُ الحارِثُ بنُ هِشامٍ ، وضِرارُ بنُ الأَزْوَرِ في أربعِمائَةٍ من المسلمين ، فقاتَلوا دونَ فُسْطَاطِ[٣] خالدٍ رَضِيَ اللّهُ عنه أَشَدَّ ٱلْقِتَالِ ، وذادوا عنه أَكْرَمَ الذَّوْدِ.

ولما انْجلَتْ مَعْرَكَةُ اليرموكِ عن ذلك النَّصْرِ المؤزَّرِ[٤] للمسلمين ؛ كان يَتَمَدَّدُ علىٰ أَرْضِ اليَرْموكِ ثلاثةُ مجاهدين أَثْخَنَتْهُمُ الجِراحُ[٥] هم :

---

(١) أوغل في صفوف الروم : دخل بعيداً في صفوفهم .

(٢) إليك عني : دعني واتركني .

(٣) الفسطاط : بيت من شعر ، والمراد به مكان قيادة الجيش .

(٤) النصر المؤزر : النصر القوي العظيم .

(٥) أثخنتهم الجراح : أضعفتهم وأوهنت قواهم .

الحارثُ بنُ هشامٍ ، وعَيَّاشُ بنُ أبي ربيعَةَ ، وعِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ ، فَدَعَا الحارِثُ بماءٍ لِيَشْرَبَهُ فَلمَّا قُدِّمَ له نَظَر إليه عِكْرِمَةُ فقال :

اِدفعوه إليه .

فلمَّا قرَّبوه مِنْهُ نَظَرَ إليه عَيَّاشٌ فقال :

اِدفعوه إليه . فلما دَنَوْا من عَيَّاشٍ وجدوهُ قد قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] . . .

فلمَّا عادوا إلىٰ صاحِبَيْه وجدوهما قد لَحِقَا به .

رضِي اللَّهُ عنهم أجمعين . . .

وسقاهم من حَوْضِ الكَوْثَرِ شرْبَةً لا يَظْمَأُونَ بَعْدَها . . .

وحَبَاهُمْ خَضْرَاءَ الفِرْدوسِ يَرْتَعون فيها أبَداً . . .(*) .

---

(١) قضى نحبه : فارق الحياة .

(*) للاستزادة من أخبار عكرمة بن أبي جهل انظر :

١ ـ الإصابة (الترجمة ٥٦٤٠) .

٢ ـ تهذيب الأسماء : ١/٣٣٨ .

٣ ـ خلاصة التذهيب : ٢٢٨ .

٤ ـ ذيل المذيل : ٤٥ .

٥ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ١/٣٨٠ .

٦ ـ رغبة الآمل : ٧/٢٢٤ .

(إنَّ فِيكَ لَخصلَتَينِ يُحِبُّهُما اللَّهُ وَرَسُولُه :
الأَنَاة وَالحِلم)

[محمد رسول اللَّه]

النَّاسُ معادِنٌ خيارُهُم في الجاهِليَّةِ خيارُهم في الإِسْلامِ .

فَإِلَيكَ[1] صورتَينِ لِصَحابِيٍّ جليلٍ خَطَّتْ أُولاهُما يَدُ الجاهِلِيَّةِ ، وَأَبْدَعَتْ أُخْرَاهُما أَنَامِلُ الإِسلام .

ذلك الصحابيُّ هو « زَيْدُ الخَيْلِ » كما كان يدعوهُ الناسُ في جاهليتِه . . . و « زَيْدُ الخَيرِ » كما دعاهُ الرسولُ الكريمُ بعدَ إِسْلامِه .

أَمَّا الصورَةُ الأولى فتَرْويها كُتُبُ الأَدبِ فتقول :

حَكَىٰ الشَّيْبانِيُّ عن شيخٍ من بني عامرٍ قال : أصابَتْنَا سَنَةٌ مُجْدِبَةٌ[2] هَلَكَ فيها الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنَّا بِعِيَالِهِ إِلىٰ الحِيرَةِ[3] ، وَتَرَكَهُمْ فيها ، وقال لهم :

اِنْتَظِرُوني هنا حتَّىٰ أعودَ إِليكم .

ثم أَقْسَمَ أَلَّا يَرْجِعَ إِليهم إِلَّا إذا كَسَبَ لهم مالاً أَوْ يموتَ .

ثم تزوَّد زاداً ومَشَىٰ يَوْمَهُ كُلَّهُ حتَّىٰ إذا أَقبلَ الليلُ وَجَدَ أَمامَه خِبـاءً[4] ،

---

(١) إليك : خُذْ .
(٢) مجدبة : لا مطر فيها ولا نبات .
(٣) الحيرة : مدينة في العراق بين النجف والكوفة .
(٤) الخباء : الخيمة .

وبالقُرْبِ مِنَ الخِبَاءِ مُهْرٌ مُقَيَّدٌ ؛ فقال :

هٰذا أَوَّلُ ٱلْغَنِيمَةِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَجَعَلَ يَحُلُّ قَيْدَهُ ، فما إِنْ هَمَّ بِرُكوبِه حتَّىٰ سَمِعَ صوتاً يناديه : خَلِّ[1] عَنْهُ وَٱغْنَمْ نَفْسَك ، فتركه ومَضَى .

ثم مَشَىٰ سبعَة أَيَّامٍ حَتَّىٰ بلغَ مكاناً فيه مَرَاحٌ للإبل ، وبجانِبِهِ خِباءٌ عظيمٌ فيه قُبَّةٌ من أَدَمٍ[2] تُشير إِلىٰ الثَّراءِ وَالنِّعْمَةِ ، فقال الرجل في نفسِه :

لا بُدَّ لهذا المَراحِ مِنْ إِبلٍ . ولا بُدَّ لهذا الخِباءِ من أهلٍ .

ثم نظر في الخِباءِ ـ وكانت الشمسُ تدنو من المغيبِ ـ فَوَجَدَ شيْخاً فانِياً في وَسَطِهِ ، فَجَلَسَ خَلْفَه ، وهو لا يَشْعُرُ به .

وما هو إلَّا قليلٌ حتَّىٰ غابَتِ الشمسُ ، وَأَقْبَلَ فارِسٌ لم يُرَ قَطُّ فارسٌ أعظمُ مِنْهُ ولا أَجْسَمُ[3] ، قَدِ امْتَطَىٰ صَهْوَةَ[4] جوادٍ عالٍ ، وَحَوْلَهُ عَبْدَانِ يمْشِيانِ عن يمينِه وشِمالِه ، ومعه نحو مِائَةٍ من الإِبلِ ، أَمَامَهَا فحلٌ كبيرٌ ، فَبَرَكَ ٱلْفَحْلُ ، فَبَرَكَتْ حَوْلَهُ النُّوقُ .

وهنا قال الفارِسُ لأَحَدِ عَبْدَيه :

اِحْلِبْ هذه ، وأشارَ إِلىٰ نَاقَةٍ سمينةٍ ، وَٱسْقِ الشَّيْخَ ، فَحَلبَ منها حتَّىٰ مَلأَ الإِناء ، وَوَضَعَهُ بين يدي الشيْخِ وَتَنَحَّىٰ عَنْهُ ، فَجَرَعَ الشيخُ منه جُرْعَةً أَوْ جُرْعَتَيْنِ وتركَه . قال الرجل :

فَدَبَبْتُ نَحْوَهُ مُتَخَفِّياً ، وَأَخَذْتُ الإِنَاءَ ، وَشَرِبْتُ كُلَّ ما فيه ، فرجعَ العبدُ وأَخَذَ الإِنَاءَ وقال :

يا مَوْلَايَ ، لَقَدْ شَرِبَهُ كُلَّهُ ، فَفَرِحَ الفارسُ وقال :

---

(١) خَلِّ عنه : اترُكْهُ .

(٢) الأدم : الجلد .

(٣) أجسم : أعظم جسماً .

(٤) صهوة الجوادِ : موضع ركوبِ الفارس على ظَهْره .

اِحْلبْ هٰذه ، وأشارَ إِلىٰ ناقةٍ أخرىٰ ، وضَع الإِناءَ بينَ يدي الشيخ ، فَفَعَلَ ٱلْعَبْدُ مَا أُمِرَ بِهِ ، فجرعَ مِنْه الشيخُ جُرْعَةً واحِدَةً وتَـرَكه ، فـأخذتُـه ، وشربتُ نِصفَه ، وكرهتُ أنْ آتِيَ عليه كلِّه حتَّىٰ لا أُثيرَ الشَّكَّ في نفسِ الفارِسِ .

ثم أَمَرَ الفارسُ عَبْدَهُ الثانِيَ بأن يذبحَ شاةً ، فَذَبَحها فقـام إليها الفـارِسُ وشَوَىٰ للشَّيْخِ منها وأطعَمَهُ بيدَيه حتَّىٰ إذا شَبعَ جَعلَ يأْكُلُ هو وعبداه .

ومـا هو إلَّا قليـلٌ حتَّىٰ أَخَذَ الجميـعُ مضاجِعَهم ونـاموا نَـوْماً عميقـاً له غَطِيطٌ[1] .

عندَ ذلك تَوَجَّهْتُ إلى ٱلْفَحْلِ فَحَلَلْتُ عِقَالَهُ وَرَكِبْتُهُ ، فانْدَفَعَ ، وَتَبِعَتْـهُ الإِبـلُ ، وَمَشَيْتُ ليلتي . فلمَّا أَسْفَـرَ النهارُ نَـظَرَتُ في كُلِّ جِهَـةٍ فَلَمْ أَرَ أَحَداً يَتْبَعُني ، فانْدَفَعْتُ في السَّيْرِ حتَّىٰ تعالَىٰ النَّهارُ .

ثم ٱلْتَفَتُّ ٱلْتِفَاتَةً فإذا أنا بِشَيْءٍ كَأَنَّهُ نَسْرٌ أو طائِرٌ كبيرٌ ، فما زالَ يَدْنُو مِنِّي حتَّىٰ تَبَيَّنْتُه فإذا هو فارسٌ على فَرَسٍ ، ثم ما زالَ يُقْبِلُ عَلَيَّ حَتَّىٰ عَرَفْتُ أَنَّـهُ صاحِبي جاءَ يَنْشُدُ إبلَهُ[2] .

عند ذٰلك عَقَلْتُ ٱلْفَحْلَ[3] ، وأَخْرَجْتُ سهماً من كِنَانَتي[4] وَوَضَعْتُهُ في قَوْسي ، وَجَعَلْتُ الإِبِلَ خَلْفِي ، فوقف الفارِسُ بعيداً ، وقال لي :

احْلُلْ عِقَالَ ٱلْفَحْلِ . فقلت :

كَلَّا .

لقد تَرَكْتُ وَرَائِي نِسْوَةً جائِعاتٍ بالحِيرَةِ وأقسمتُ أَلَّا أَرْجِعَ إِلَيْهِنَّ إِلَّا ومعي مالٌ أو أموتَ .

---

(١) الغطيط : صوت النائم وشخيره .

(٢) ينشد إبله : يبحث عنه ويطلبها .

(٣) عقلت الفَحْلَ : ربطت الجَملَ .

(٤) الكنانة : الجعبة التي توضع فيها السهام .

قال : إِنَّك ميتٌ . . . احْلُلْ عِقَالَ ٱلْفَحْلِ ـ لا أَبا لَكَ[١] ـ

فقلت : لن أَحُلَّهُ . . .

فقال : وَيْحَكَ[٢] ، إِنَّكَ لَمَغْرُورٌ .

ثم قال : دلِّ زِمامَ ٱلْفَحْل ـ وكانت فيه ثلاثُ عُقدٍ ـ ثم سألني في أَيِّ عُقْدَةٍ منها أريدُ أَنْ يَضَعَ لِيَ السَّهمَ ، فأشَرْتُ إلىٰ ٱلْوُسْطَىٰ فَرَمَىٰ السهمَ فأدْخلَه فيها حتَّىٰ لكأنَّما وضَعَه بيده ، ثم أصابَ الثانِيَـةَ والثالِثَـةَ . . . عند ذلـك ، أَعَدْتُ سَهْمِي إِلَىٰ الكِنَانَةِ[٣] ووقَفْتُ مُسْتَسْلِماً ، فدنا مِنِّي وأَخَذَ سَيْفِي وقَوْسِي وقال : اِرْكَبْ خلْفي ، فركبتُ خلْفَه ، فقال :

كيف تظنّ أَنِّي فاعلٌ بك ؟

فقلت : أَسْوَأَ الظنِّ ،

قال : ولِمَ ؟!

قلتُ : لما فَعَلْتُهُ بك ، وما أَنْزَلْتُ بك من عَنَاءٍ وقد أَظْفَرَكَ اللّٰهُ بي .

فقال : أَوَتَظُنُّ أَنِّي أَفْعَلُ بك سوءاً وقد شارَكْتَ « مُهَلْهِلاً » (يعني أباه) في شَرابِهِ وطعامِهِ ونادَمْتَه تلكَ الليلة ؟!!!

فلما سمعتُ اسمَ « مُهَلْهِل » قلت :

أَزَيْدُ الخَيْلِ أنت ؟

قال : نعم .

فقلت : كن خيرَ آسِرٍ

فقال : لا بأس عليك ، ومَضَىٰ بي إِلىٰ موضِعه وقال :

واللّٰهِ لو كانت هذه الإِبلُ لي لَسَلَّمْتُها إِليك ، ولكنَّها لأختٍ من أخواتي ،

---

(١) لا أبا لك : كلمة تقال في الشتم والمدح ، والمراد بها هنا الشتم .

(٢) وَيحك : الويح الهلاك .

(٣) الكنانة : كيس السِّهام .

فأَقِمْ عندنا أَيَّاماً فَإِنِّي على وَشْكِ[1] غارَةٍ قد أَغْنَمُ مِنْها .

وما هي إلاَّ أَيَّامٌ ثلاثةٌ حتَّىٰ أغارَ علىٰ بني نُمَيْرٍ فَغَنَمَ قريباً من مِائَةِ نـاقَةٍ فأعطاني إيَّاها كُلَّها وبَعَثَ معي رجالاً من عِنْدِهِ يَحْمُونني حتَّىٰ وَصَلْتُ الحِيرَةَ .

* * *

تِلْكَ كانت صورةُ زيدِ الخَيْلِ في الجاهِلِيَّةِ ، أمَّا صورتُـه في الإسلامِ فتجلوها كتبُ السِّيَرِ فتقول :

لمَّا بلغتْ أخبارُ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ سَمْعَ زيدِ الخَيْلِ ، وَوَقَفَ على شَيْءٍ مِمَّا يَدْعو إليه ، أَعَدَّ راحِلَتَهُ ، وَدَعَا السَّادَةَ ٱلْكُبَـرَاءَ من قَوْمِـه إلىٰ زِيارَةِ يَثْرِبَ[2] ولِقاءِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلام ، فرَكِبَ معه وَفْدٌ كبيرٌ من طَيِّىءٍ ، فيهم زُرُّ بْنُ سَدُوسٍ ، ومالِكُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَعَامِرُ بْنُ جُوَيْنٍ وَغَيْرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ ، فَلَمَّا بلغوا المدينةَ تَوَجَّهوا إِلىٰ المَسْجِدِ النبويِّ الشريفِ وأَناخوا ركائِبَهم ببابِه .

وصادفَ عِنْدَ دخولِهم أنْ كان الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه يَخْطُبُ المسلمين منْ فَوْقِ المِنْبَرِ ، فراعَهُمْ كَلامُهُ وَأَدْهَشَهُمْ تَعَلُّقُ المسلمين به ، وإنْصاتُهُمْ له ، وتأَثُّرهم بما يقولُ .

ولمَّا أَبْصَرَهُم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ قال يخاطِبُ المسلمين : (إنِّي خيرٌ لكم من العُزَّىٰ[3] ومن كُلِّ ما تَعْبُدون . . .

إنِّي خيرٌ لكم من الجَمَلِ الأَسْوَدِ الذي تعبدونَه من دونِ اللَّهِ) .

* * *

لقد وقع كلامُ الرسولِ صَلَوَاتُ اللّهِ عليه في نَفْسِ زيدِ الخيل ومَنْ مَعَه مَوْقِعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ؛ فَبَعْضٌ آسْتجابَ لِلْحَقِّ وأَقْبَـلَ عليه ، وبعضٌ تَـوَلَّىٰ عنه ،

---

(١) علىٰ وشك : على قُرْبٍ .
(٢) يثرب : المدينة المنورة .
(٣) العزى : صنم كبير من أصنام العرب في الجاهلية .

واسْتَكْبَرَ عليه . . .

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ .

أَمَّا « زُرُّ بنُ سَدُوسٍ » فما كاد يَرَىٰ رسولَ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه في مَوْقِفِه الرائِعِ تَحُفُّهُ القلوبُ المُؤْمِنةُ ، وتَحُوطُهُ العيونُ الحانِيَةُ حَتَّىٰ دَبَّ الحَسَدُ في قلبِه ومَلأَ الخوفُ فؤادَه ، ثم قال لِمَنْ مَعَه :

إِنِّي لأَرَىٰ رجلاً لَيَمْلِكَنَّ رِقَابَ ٱلْعَرَبِ ، واللّهِ لا أَجْعَلَنَّهُ يملِكُ رقبتي أبداً .

ثم تَوَجَّهَ إِلىٰ بلادِ الشَّامِ ، وحَلَقَ رَأْسَهُ[1] وتَنَصَّرَ .

وأما زيدٌ والآخرون فقد كان لهم شأنٌ آخَرُ : فما إِنِ انْتَهَىٰ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه من خُطبَتِه ، حتَّىٰ وقف زيدُ الخيلِ بينَ جموعِ المسلمين ـ وكان من أَجْمَلِ الرِّجالِ جمالاً وأَتَمِّهِمْ خِلْقَةً وأَطْوَلِهِمْ قامَةً ـ حتَّىٰ إِنَّهُ كان يَرْكَبُ ٱلْفَرَسَ فَتَخِطُّ رِجلاه علىٰ الأرضِ كما لو كانَ راكِباً حماراً . . .

وقفَ بقامَتِهِ المَمْشُوقَةِ ؛ وأطلَقَ صوتَه الجهيرَ[2] وقال : يا محمدُ ، أشهدُ أن لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه وأَنَّكَ رسولُ اللّهِ . فأقبلَ عليه الرسولُ الكريمُ وقال له :

(مَنْ أنت ؟) .

قال : أنا زيدُ الخيلِ بن مُهَلْهِل .

فقال له الرسولُ صلواتُ اللّه عليه :(بل أنتَ زيدُ **الخَيْرِ** ، لا زَيْدُ الخيلِ .

الحمدُ للّهِ الذي جاءَ بك من سَهْلِكَ وَجَبَلِك ، وَرَقَّقَ قَلْبَك للإِسلامِ) .

فَعُرِفَ بَعْدَ ذلِكَ بزيدِ الخيرِ . . .

---

(١) حلق رأسه : أي فعل كما يفعل الرهبان حيث يحلقون رؤوسهم .

(٢) الجهير : القوي الواضح .

ثم مضَىٰ به الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ إلىٰ مَنْزِله ، ومعه عمرُ بنُ الخطاب ولفيفٌ[1] من الصَّحَابَةِ ، فلمَّا بلغوا البيتَ طَرَحَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه لزيدٍ مُتَّكَأً ، فَعَظُمَ عليه أَنْ يَتَّكِىءَ في حَضْرَةِ الرسولِ وردَّ المُتَّكَأ ، وما زال يُعيدُه الرسولُ له وهو يَرُدُّهُ ثلاثاً .

ولما استقرَّ بهم المَجْلِسُ قال الرسول لزيدِ الخيرِ : (يا زيدُ، ما وُصِفَ لي رَجُلٌ قَطُّ ثُمَّ رَأَيْتُهُ إِلَّا كان دونَ ما وُصِفَ بِهِ إِلَّا أَنْتَ).

ثم قال له : (يا زَيْدُ ، إنَّ فيك لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللَّهُ ورسولُه) .

قال : وما هما يا رسولَ اللّه ؟

قال : (الأناةُ والحِلْمُ) .

فقال : الحمدُ للّهِ الذي جَعَلَني علىٰ ما يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُه .

ثم ٱلْتفتَ إلىٰ النبيِّ ﷺ وقال :

أَعْطِني يا رسولَ اللّهِ ثلاثمائةِ فارسٍ ، وأنا كفيلٌ لك بأن أغيرَ بهم على بلادِ الروم وأنالَ منهم .

فأكْبرَ الرسولُ الكريمُ هِمَّتَهُ هذه ، وقال له :

(للّهِ دَرُّكَ[2] يا زيد . . . أيُّ رجلٍ أنت ؟!) .

ثم أسلَم مع زيدٍ جميعُ مَنْ صَحِبَهُ مِنْ قَوْمِه .

ولما هَمَّ زَيْدُ بالرُّجوع هو ومن معه إلىٰ دِيارِهم في نجد ، وَدَّعَهُ النبيُّ صلواتُ اللّهِ عليه وقال :

(أيُّ رَجُلٍ هٰذا ؟!

كم سيكون له من الشَّأْنِ لَوْ سَلِمَ من وَبَاءِ المدينةِ !!) .

---

(١) لفيف : جمع .

(٢) للّه درك : كلمة تقال للإعجاب ومعناها : ما أكثر خيرك .

وكانتِ المدينةُ المنوَّرةُ آنذاك مَوْبُوءَةً بالحُمَّىٰ ، فما إن بارَحَها زَيْدُ الخيرِ ، حتَّىٰ أصابَتْهُ ، فقال لمن معه : جَنِّبُوني بِلَادَ قَيْسٍ ، فقد كانتْ بَيْنَنا حَمَاسَاتٌ من حماقاتِ الجاهليةِ ، ولا واللّه لا أُقاتِلُ مُسْلِماً حتَّىٰ أَلْقَى اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

***

تابعَ زيدُ الخيرِ سيرَهُ نَحْوَ ديارِ أَهْلِهِ في نجدٍ ، عَلَىٰ الـرَّغم من أَنَّ وَطْأَةَ الحُمَّىٰ كانت تَشْتَدُّ عليه ساعةً بعد أُخْرَىٰ ؛ فقد كان يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَلْقَىٰ قَوْمَهُ ، وَأَنْ يَكْتُبَ اللّهُ لَهُمُ الإسلامَ علىٰ يَدَيْهِ .

وَطَفِقَ يُسابِقُ ٱلْمَنِيَّةَ وَٱلْمَنِيَّـةُ تُسَابِقُـهُ ؛ لٰكِنَّها مـا لبثتْ أنْ سَبَقَتْهُ ، فلفظَ أنفاسَهُ الأخيرَةَ في بعضِ طريقِه ، ولم يكنْ بين إسْلامِهِ ومَوْتِه مُتَّسَعٌ لِأَنْ يَقَعَ في ذَنْبٍ(*) .

(*) للاستزادة من أخبار زيد الخير انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة ٢٩٤١ .

٢ ـ الاستيعاب : ٥٦٣/١ (ط . السعادة) .

٣ ـ الأغاني (انظر الفهارس) .

٤ ـ تهذيب ابن عساكر (انظر الفهارس) .

٥ ـ سمط اللآلىء (انظر الفهارس) .

٦ ـ خزانة الأدب للبغدادي : ٤٤٨/٢ .

٧ ـ ذيل المذيل : ٣٣ .

٨ ـ ثمار القلوب : ٧٨ .

٩ ـ الشعر والشعراء : ٩٥ .

١٠ ـ حسن الصحابـة : ٢٤٨ .

عَدِيُّ بنُ حَاتِمِ الطائيُّ

« أَنتَ آمَنْتَ إِذْ كفروا ، وَعَرَفْتَ إِذْ أَنْكَرُوا، وَوَفَّيْتَ إِذْ غَدَرُوا، وَأَقبَلْتَ إِذْ أَدْبَرُوا »

[عمر بن الخطاب]

في السَّنَةِ التَّاسِعَـةِ لِلْهِجْرَةِ دانَ لـلإسلام[1] مَلِكٌ من ملوكِ العـربِ بعد نُفُورٍ ، ولانَ للإيمانَ بعدَ إعْراضٍ وَصَدٍّ ، وَأَعْطَىٰ الطَّاعَةَ للرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ بعد إباءٍ .

ذٰلِكُمْ هُوَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ الَّذِي يُضْرَبُ المَثَلُ بِجُودِ أبيه .

* * *

ورِثَ عَدِيُّ الرئاسةَ عن أبيه فَمَلَّكَتْهُ طَيِّءُ عليها ، وفَرَضَتْ لَهُ الرُّبُعَ في غنائِمها ، وَأَسْلَمَتْ إِلَيْهِ ٱلْقِيَادَ .

ولما صَدَعَ[2] الرسولُ الكريمُ بِدَعْوَةِ الهُدَىٰ والحقِّ ، وَدَانَتْ لَهُ العربُ حَيًّا بَعْدَ حَيٍّ ؛ رَأَىٰ عَدِيٌّ في دعوةِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ زَعَامَةً تُوشِكُ أَنْ تَقْضِيَ على زَعَامَتِهِ ، ورِيَاسَةً ستُفْضِي[3] إِلَىٰ إزالَةِ رياسته ، فعادَىٰ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ عليه أَشَدَّ العَدَاوَةِ ـ وهو لا يَعْرِفُه ـ وَأَبْغَضَهُ أَعْظَمَ ٱلْبُغْضِ قَبْلَ أَنْ يراه .

وظَلَّ علىٰ عَدَاوَتِهِ لِلْإِسْلَام قريباً من عشرين عاماً حَتَّىٰ شَرَحَ اللَّهُ صدرَهُ لدعوةِ الهُدَىٰ والحقِّ .

* * *

---

(١) دان للإسلام : خضع له وإنقاذ .

(٢) صدع الرسول بدعوته : أعلنها وجهر بها .

(٣) ستفضي : ستؤول وتؤدي .

وَلإِسْلام ِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِم ٍ قِصَّةٌ لا تُنْسَىٰ . فلْنَتْرُكْ لِلرَّجُل ِ نَفْسِهِ الحدِيث عَنْ قِصَّتِهِ ؛ فهو بها أَوْلَىٰ ، وَبِرِوَايَتِها أَجْدَر[1] .

قال عَدِيٌّ : ما مِنْ رَجُل ٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ كانَ أَشَدَّ مِنِّي كَرَاهَةً لرسول ِ اللَّهِ ﷺ حينَ سمعتُ به ؛ فقد كنتُ ٱمْرَأً شريفاً ، وكنتُ نَصْرَانِيًّا ، وكنتُ أَسِيرُ في قومي بالمِرْباع ؛ فآخُذُ الرُّبُعَ من غنائِمِهم كما كان يَفْعَلُ غيري من ملوكِ العربِ .

فَلَمَّا سمعتُ برسول ِ اللَّهِ ﷺ كَرِهْتُهُ .

وَلَمَّا عَظُمَ أَمْرُهُ وَٱشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُ[2] ، وَجَعَلَتْ جُيُوشُهُ وَسَرَايَاهُ تُشَرِّقُ وَتُغَرِّبُ في أَرْض العَرَبِ ؛ قلتُ لغلام ٍ لي يَرْعَىٰ إبلي :

لا أبا لك[3] ، أَعْدِدْ لي من إبلي نُوقاً سِماناً سَهْلَةَ القِيَادِ وارْبِطْها قريباً مني ، فإن سمعتَ بجيش ٍ لمحمدٍ أو بِسَرِيَّةٍ من سراياه قد وَطِئَتْ هذه البلادَ فأَعْلِمْني .

وفي ذَاتِ غَدَاةٍ أَقْبَلَ عَلَيَّ غلامي وقال :

يا مَوْلاي ، ما كُنْتَ تَنْوِي أَنْ تَصْنَعَهُ إذا وَطِئَتْ أَرْضَكَ خيلُ محمدٍ فاصْنَعْهُ الآن .

فقلت : وَلِمَ ؟! ثَكِلَتْكَ أُمُّك[4] .

فقال : إنِّي قد رأيتُ راياتٍ تجوسُ خِلالَ الدِّيار[5] ، فسألتُ عنها ، فقيل لي هذه جيوشُ محمدٍ . فقلت له :

---

(١) أجدر : أحقُّ .

(٢) اشتدت شوكته : ازدادت قوته .

(٣) لا أبا لك : كلمة تقال في المدح والذم ، والمراد بها هنا المدح .

(٤) ثكلتك أمك : فقدتك .

(٥) تجوس خلال الديار : تتجول في أرجاء الديار .

أَعْدِدْ لِيَ النوقَ التي أَمَرْتُكَ بإِعْدادِها وقرِّبها منِّي .

ثم نَهَضْتُ لِسَاعَتي ؛ فَدَعَوْتُ أَهْلِي وأوْلادِي إلىٰ الرَّحيلِ عن الأرْضِ التي أَحْبَبْناها ، وجَعَلْتُ أُغِذُّ السَيْرَ[1] نحوَ بلادِ الشامِ لِأَلْحَقَ بأَهْلِ ديني من النَّصارَىٰ وَأَنْزِلَ بينَهم .

وقد أَعْجَلَنِي الأمرُ عنِ اسْتِقْصاءِ أهلي[2] كُلِّهِمْ فَلَمَّا آجْتَزْتُ مواضِعَ الخَطَرِ ، تَفَقَّدْتُ أهلي ، فإذا بي قد تَرَكْتُ أُختاً لي في مَوَاطِننا في نَجْدٍ مع مَنْ بَقِيَ هناك من طَيِّءٍ .

ولم يكن لي من سبيلٍ إلىٰ الرجوعِ إليها .
فَمَضَيْتُ بِمَنْ معي حتَّىٰ بَلَغْتُ الشَّامَ ، وأَقمتُ فيها بينَ أبناءِ ديني .
أَمَّا أختي فقد نَزَلَ بها ما كنت أَتوَقَّعُهُ وأخشاه .

* * *

لقد بَلَغَنِي وأنا في دِيارِ الشَّامِ أنَّ خيلَ محمدٍ أغارَتْ على ديارِنا وَأَخَذَتْ أختي في جُمْلَةِ مَنْ أَخَذَتْهُ من السَّبَايَا وَسِيقَتْ إلىٰ يَثْرِب .

وهناكَ وُضِعَتْ مَعَ السَّبَايَا في حظيرَةٍ عِنْدَ بابِ المَسْجِدِ ، فَمَرَّ بها النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ فقامتْ إليه وقالت : يا رسولَ اللَّهِ ، هَلَكَ آلْوَالِدُ ، وغابَ آلْوَافِدُ ؛ فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عليك .

فقال : (ومَنْ وَافِدُكِ ؟)
فقالت : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ .
فقال : (الفارُّ من اللَّهِ ورسولِه ؟!)
ثم مَضَىٰ رسولُ اللَّهِ ﷺ وتَرَكَهَا .

---

(١) أغذ السير : أسرع فيه .
(٢) استقصاء أهلي : جمع أهلي كلهم .

فلما كان ٱلْغَدُ مَرَّ بها فقالت له مِثْلَ قَوْلِها بالأَمْسِ ، فقال لها مِثْلَ قولِه .

فلما كان بعد ٱلْغَدِ مَرَّ بها وقد يَئِسَتْ منه فلم تَقُلْ شيئاً ، فأشار لها رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ قومي إليه وكلِّميه فقامَتْ إليه فقالت :

يا رسولَ اللَّه ، هَلَكَ ٱلْوَالِدُ ، وغابَ ٱلْوَافِدُ ، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عليك .

فقال : (قد فَعَلْتُ) .

فقالت : إنِّي أُرِيدُ اللَّحَاقَ بأَهْلي في الشام .

فقال : (ولكِنْ لَا تَعْجَلِي بالخروجِ حتَّىٰ تَجدي مَنْ تَثِقِينَ به من قومِكِ لِيُبَلِّغَكِ بلادَ الشام ، فإذا وَجَدْتِ الثِّقَةَ فأعْلِميني) .

ولمَّا انصرفَ الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ سَأَلَتْ عن الرجُلِ الذي أشارَ عليها أن تكلِّمَهُ ، فقيل لها : إنَّهُ عليُّ بنُ أبي طالب رِضوانُ اللَّهِ عليه .

ثم أَقامَتْ حتَّىٰ قَدِمَ رَكْبٌ فيهم مَنْ تَثِقُ به ، فجاءَت إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقالت :

يا رسولَ اللَّهِ ، لقد قدِمَ رَهْطٌ[١] من قَوْمي لي فيهم ثِقَةٌ وَبَلاَغٌ[٢] ، فكساها الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليهِ ، ومَنَحها نـاقَةً تَحْمِلُهَا ، وأعطاها نَفَقَةً تَكْفِيها ، فَخَرَجَتْ مع الرَّكْب .

قالَ عَدِيٌّ : ثم جَعَلْنا بَعْدَ ذٰلِكَ نَتَنَسَّمُ[٣] أخبارَها ، ونترقَّب قدومَها ، ونحن لا نكادُ نُصدِّقُ ما رُوِيَ لنا من خَبَرِها مَعَ محمدٍ وإحسانِه إليها كُلَّ ذٰلِكَ الإِحْسَانِ ، مع ما كان مِنِّي تِجَاهَهُ .

فواللَّهِ إنِّي لَقَاعِدٌ في أَهْلي إذْ أَبْصَرْتُ ٱمْرَأَةً في هَوْدَجِها[٤] تَتَّجِهُ نَحْوَنا ،

---

(١) رهط : جماعة .

(٢) بلاغ : قدرة على إيصالي إلى أهلي .

(٣) نتنسم أخبارها : نتتبع أخبارها شيئاً فشيئاً .

(٤) الهودج : محمل له قبة يوضع فوق الناقة لتركب فيه النساء .

فقلتُ :

ابنَةُ حَاتِمٍ ، فإذا هي هي .

فلما وَقَفَتْ علينا بَادَرَتْنِي بقولها :

القاطِعُ[1] الظَّالِمُ . . .

لقدِ آحْتَمَلْتَ[2] بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ وَتَرَكْتَ بَقِيَّةَ وَالِدِكَ وَعَوْرَتَكَ[3] .

فقلت : أَيْ أُخَيَّة ، لا تقولي إلاَّ خَيْراً . وَجَعَلْتُ أَسْتَرْضِيها حَتَّىٰ رَضِيَتْ ، وَقَصَّتْ عَلَيَّ خَبَرَها ، فإذا هو كما تَنَاهَىٰ إِلَيَّ ، فقلتُ لها ـ وكانت امـرأةً حازمةً عاقلةً ـ :

ما تَرَيْنَ في أمرِ الرجلِ (يعني محمداً عليه السلامُ) ؟ فقالت : .

أَرَىٰ ـ واللَّهِ ـ أن تَلْحَقَ به سريعاً ، فإنْ يَكُنْ نَبِيّاً فللسَّابقِ إليه فَضْلُه .

وإنْ يَكُنْ مَلِكاً فَلَنْ تُذَلَّ عِنْدَهُ وَأَنْتَ أَنْتَ .

***

قالَ عَدِيٌّ : فَهَيَّأْتُ جِهَازِي[4] ومَضَيْتُ حَتَّىٰ قَدِمْتُ علىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ في المدينةِ ، من غير أمانٍ ولا كِتابٍ ، وكان بَلَغَنِي أَنَّهُ قال :

إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ يَدَ عَدِيٍّ في يَـدِي ، فَدَخَلْتُ عليـه ـ وهو في المَسْجِدِ ـ فَسَلَّمْتُ عليه .

فقال : (مَن الرَّجُل ؟) .

فقلت : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، فقام إِليَّ ، وأخذَ بِيَدِي وانْطَلَقَ بي إِلَى بيتِه .

فواللَّهِ إِنَّهُ لَمَاضٍ بي إِلَىٰ البيتِ إِذْ لَقِيَتْهُ آمْرَأَةٌ ضعيفةٌ كبيرةٌ ومعها صَبِيٌّ

---

(1) القاطع : أي القاطع رحمه .

(2) لقد احتملت بأهلك : لقد أخَذْتَ أهلك .

(3) عورة الرجل : كل ما يخشى عليه ويستره .

(4) الجهاز : ما تجهز به المسافر لسفره .

صغيرٌ فاسْتَوْقَفَتْهُ ، وَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ في حاجَةٍ لها ، فَظَلَّ معهما حَتَّىٰ قَضَىٰ حاجَتَهما وأنا واقف . . .

فقلتُ في نفسي : واللَّهِ ما هذا بمَلِكٍ .

ثم أَخَذَ بيدي وَمَضَىٰ بِي حَتَّىٰ أَتَيْنا مَنْزِلَهُ ، فَتَنَاوَلَ وِسَادَةً من أَدَمٍ[1] مَحْشُوَّةً ليفاً ، فَأَلْقَاهَا إِلَيَّ وقال :

(اِجْلِسْ على هٰذِهِ) .

فاستحييتُ منه وقلتُ : بَلْ أَنْتَ تَجْلِسُ عليها .

فقال : (بل أنت) . فامتثَلْتُ وَجَلَسْتُ عليها وجَلَسَ النبيُّ ﷺ علَىٰ الأَرْضِ إِذْ لم يَكُنْ في البيتِ سِواها .

فقلتُ في نَفْسِي : واللَّهِ ما هذا بأَمْرِ ملِكٍ .

ثم ٱلْتَفتَ إِلَيَّ وقال :(إِيهِ يا عَدِيُّ بْنُ حاتِمٍ ، أَلَمْ تَكُنْ ركوسِيًّا تدينُ بِدينٍ بَيْنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَالصَّابِئَة ؟) ، قلت : بَلَىٰ .

فقال : (أَلَمْ تَكُنْ تَسِيرُ في قَومِكَ بالمِرْباعِ فَتَأْخُذ منهم ما لا يِحلُّ لك في دينِك ؟!)

فقلت : بَلَىٰ . وعَرَفْتُ أَنَّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ .

ثم قال لي :(لعلَّك يا عدِيُّ ، إِنَّما يَمْنَعُكَ من الدُّخولِ في هذا الدينِ ما تراه من حَاجَةِ المسلمين وفَقْرِهِمْ ، فواللَّهِ لَيُوشِكَنَّ[2] المالُ أن يَفيضَ فيهِمْ حَتَّىٰ لا يوجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ .

ولعلك ـ يا عَدِيُّ ـ إنما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخولِ في هذا الدينِ ما تَرَىٰ من قِلَّةِ المسلمين وكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، فواللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بالمرأةِ تخرجُ من القادِسِيَّةِ

---

(١) الأدم : الجلد .

(٢) أوشك الأمر : اقترب .

على بعيرِها حتَّىٰ تزورَ هذا البيتَ لا تخافُ أحداً إلَّا اللَّهَ .

ولَعَلَّكَ إنَّمـا يَمْنَعُكَ منَ الـدُّخُولِ في هـذا الدينِ أنَّـك تَرَى أنَّ المُلْكَ وَالسُّلْطَانَ في غيرِ المسلمين ، وأيْمُ اللَّهِ[1] لَيُوشِكَنَّ أنْ تَسْمَعَ بالقُصُورِ آلْبِيضِ من أرْضِ بابِلَ[2] قد فُتِحَتْ عليهم ، وأنَّ كنوزَ كِسْـرَىٰ بْنِ هُرْمُـزَ قد صـارَتْ إليهم) .

فقلت : كنوزُ كِسْرَى بنِ هرمز ؟!

فقال : (نعم كنوزُ كِسْرَى بنِ هرمز) .

قال عديٌّ : عند ذلك شَهِدْتُ شَهَادَةَ الحقِّ وأسلمتُ .

* * *

عُمِّرَ عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ رضيَ اللَّهُ عنه طويلاً ، وكان يقول : لقـد تَحَقَّقَتِ آثنتان وبقيتِ الثالثةُ ، وإنَّها واللَّه لا بُدَّ كائِنَةٌ .

فقد رأيتُ المرأةَ تَخْرُجُ مِنَ آلْقَادِسِيَّةِ عَلَىٰ بعيرِها لا تخافُ شيئاً حتَّىٰ تَبْلُغَ هذا البيتِ .

وكنتُ في أوَّلِ خَيْلٍ أغَارَتْ على كنوز كِسْرَىٰ وَأخَذْتُها .

وأحْلِفُ باللَّهِ لَتجيئَنَّ الثالثةُ .

* * *

وقَدْ شـاءَ اللَّهُ أنْ يُحَقِّقَ قَوْلَ نَبِيِّهِ عليه أفْضَلُ الصـلاة وأزْكَى السَّلامِ ؛ فجاءَتِ الثالثةُ في عهدِ الخليفةِ الزاهِدِ العابِدِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز ، حيث فاضَتِ الأموالُ علىٰ المسلمين حَتَّىٰ جَعَلَ مُنادِيهِ يُنَادِي عَلَىٰ مَنْ يَأْخُذُ أمْوَالَ الزكاةِ من

---

(١) أيم اللَّه : اسم وضع للقسم .

(٢) بابل : منطقة من أرض العراق .

فقراءِ المسلمين فلم يَجدْ أحداً .

وَصَدَقَ رسولُ اللَّهِ صلواتُ اللَّه عليه .

وبَرَّ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ بِقَسَمِه(*) .

(*) للإستزادة من أخبار عدي بن حاتم انظر :

١ ـ الإصابة (ط . السعادة) : ٢٢٨/٤ ـ ٢٢٩ .

٢ ـ الاستيعاب (ط . حيدر آباد) : ٥٠٢/٢ ـ ٥٠٣ .

٣ ـ أسد الغابة : ٣٩٢/٣ ـ ٣٩٤ .

٤ ـ تهذيب التهذيب : ١٦٦/٧ ـ ١٦٧ .

٥ ـ تقريب التهذيب : ١٦/٢ .

٦ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال : ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

٧ ـ تجريد أسماء الصحابة : ٤٠٥/١ .

٨ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ٣٩٨/١ .

٩ ـ العبر ٧٤/١ .

١٠ ـ التاريخ الكبير : ج ٤ ق ٤٣/١ .

١١ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٤٦/٣ ـ ٤٨ .

١٢ ـ شذرات الذهب : ٧٤/١ .

١٣ ـ المعارف : ١٣٦ .

١٤ ـ المعمرون : ٤٦ .

أُبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ

(ما أقلَّتِ الغَبْراءُ ولا أظلَّتِ الخَضْراءُ
مِنْ رجُلٍ أصدق من أبي ذرٍّ)

[محمد رسول اللَّه]

في وادِي « ودَّانَ » الذي يَصِلُ مَكَّةَ بِالْعَالَم الخَارِجِيِّ كانَتْ تَنْزِلُ قَبِيلَةُ « غِفَار ».

وكانت « غِفَارٌ » تعيشُ من ذلك النَّزْرِ اليَسِيرِ[1] الذي تَبْذُلُهُ لها القوافِلُ التي تَسْعَىٰ بِتِجَارَةِ قُرَيْشٍ ذاهِبَةً إلىٰ بلادِ الشام أو آيِبَةً منها[2].

وربَّما عاشَت من قَطْعِ الطريق على هذه القَوَافِلِ إذا هِيَ لم تُعْطِها ما يُرْضيها.

وكان « جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَة » المُكَنَّى بأبي ذَرٍّ واحِداً من أبناءِ هذه القبيلةِ، لكِنَّه كانْ يَمْتَازُ منهم بِجُرْأَةِ الْقَلْبِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَبُعْدِ النَّظَرِ . . .

وبأنَّه كان يضيقُ أَشَدَّ الضِّيقِ بهذه الأَوْثَانِ التي يَعْبُدُها قَوْمُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَيَسْتَنْكِرُ ما وَجَدَ عليه العَرَبَ من فسادِ الدِّينِ، وتَفَاهَةِ المُعْتَقَدِ.

ويَتَطَلَّعُ إلىٰ ظُهُورِ نَبيٍّ جديدٍ يمْلأ على الناسِ عقولَهمْ وَأَفْئِدَتَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ

---

(١) النزر اليسير : الشيء القليل .

(٢) آيبة منها : راجعة منها .

مِنَ الظُّلُماتِ إلىٰ النُّورِ.

* * *

ثم تَنَاهَتْ[1] إلَى أبي ذَرٍّ ـ وهو في بادِيَتِهِ ـ أخبارُ النبيِّ الجديدِ الذي ظهرَ في مَكَّةَ ، فقال لأخيه « أُنِيس » :

اِنْطَلِقْ ـ لا أَبَا لَكَ[2] ـ إلىٰ مَكَّةَ، وَقِفْ على أخبارِ هذا الرجلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ ، وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ وَحْيٌ مِنَ السَّماءِ ، وَاسْمَعْ شَيْئاً مِنْ قَوْلِهِ وَٱحْمِلْهُ إِلَيَّ .

* * *

ذهبَ أنيسٌ إلىٰ مكّةَ ، والْتَقىٰ بالرسول صلواتُ اللَّهِ عليه وسلامُه ، وسَمِعَ منه ، ثم عاد إلىٰ الباديَةِ فَتلَقَّاهُ أبو ذَرٍّ في لَهْفَةٍ ، وسأله عن أخبارِ النبيِّ الجديدِ في شَغَفٍ[3].

فقال : لقد رأيتُ ـ واللَّهِ ـ رجلاً يَدْعُو إلىٰ مَكَارِمِ الأخلاقِ ، ويقولُ كلاماً ما هُوَ بِالشِّعْرِ.

فقال له : وماذا يقولُ الناسُ فيه ؟

فقال : يقولون : إنَّهُ سَاحِرٌ ، وكاهِنٌ ، وشاعِرٌ .

فقال أبو ذَرٍّ : واللَّهِ ما شَفَيْتَ لِي غَليلاً[4] ، ولا قَضَيْتَ لي حاجَةً ، فهلْ أنتَ كافٍ عِيالي حتَّى أَنْطَلِقَ فأَنْظُرَ في أَمْرِه ؟ .

فقال : نعم ، ولكنْ كُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَىٰ حَذَر.

* * *

تَزَوَّدَ أبو ذَرٍّ لِنَفْسِهِ ، وَحَمَلَ معه قِربَةَ ماءٍ صغيرةً ، وٱتَّجَهَ مِنْ غَدِهِ إلى مكَّةَ

(1) تناهت إليه الأخبار : بلغته .
(2) لا أبا لك : كلمة تقال في المدح والذم ، والمراد بها هنا المدح .
(3) في شغف : في شوق .
(4) الغليل : العطش .

يريدُ لقاءَ النبيِّ ، والوقوفَ على خَبَرِهِ بنفسِهِ.

* * *

بلغَ أبو ذَرٍّ مَكَّةَ وهو مُتَوَجِّسٌ[1] خِيفَةً من أَهْلِها ، فقد تناهت إليه أَخْبَارُ غَضْبَةِ قريشٍ لآلِهَتِهِمْ ، وَتَنْكِيلِهِمْ[2] بِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ باتِّبَاعِ محمدٍ.

لِذا كَرِهَ أَنْ يَسألَ أحداً عن محمدٍ ، لأَنَّهُ ما كان يَدْرِي أَيكونُ هذا المَسْؤولُ من شِيعَتِهِ[3] أَمْ مِنْ عَدُوِّه ؟.

* * *

ولما أقبلَ الليلُ اضْطَجَعَ في المَسْجِدِ ، فمرّ به عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عنه ، فَعَرَفَ أَنَّهُ غريبٌ فقال :

هَلُمَّ[4] إلينا أَيُّها الرجلُ ، فَمَضَى معَه وباتَ لَيْلَتَهُ عِنْدَهُ ، وفي الصَّباحِ حَمَلَ قِرْبَتَهُ ومِزْوَدَهُ[5] وعادَ إِلَى المسجدِ دونَ أَنْ يَسْأَلَ أحدٌ منهما صاحبَهُ عن شَيْءٍ.

ثم قَضَى أبو ذَرٍّ يَوْمَهُ الثاني دونَ أن يَتَعَرَّفَ إِلَى النبيِّ ، فلما أَمْسَى أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ المَسْجِدِ ، فَمَرَّ عليٌّ رضيَ اللَّهُ عنه فقال له :

أَمَا آنَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعرِفَ مَنْزِلَهُ ؟!

ثُمَّ اصْطَحَبَهُ معه فباتَ عندَه لَيْلَتَهُ الثانية ، ولم يسأل أحدٌ منهما صاحِبَهُ عن شيْءٍ.

فلما كانتِ الليلةُ الثالثةُ قال عليٌّ لِصاحِبه : أَلَا تُحَدِّثني عَمَّا أَقْدَمكَ إِلَى مَكَّةَ ؟

---

(١) متوجس خيفة : مستشعر بالخوف متحمِّسٌ به .

(٢) تنكيلهم : بطشهم .

(٣) من شيعته : من أنصاره .

(٥) هلم إلينا : تعال عندنا .

(٦) المزود : كيس يوضع فيه الطعام .

فقال أبو ذرّ : إنْ أَعْطَيْتَني مِيثاقاً أَنْ تُرْشِدَني إِلَى ما أطلبُ فَعَلْتُ ؛ فَأَعْطَاهُ عليٌّ ما أرادَ مِنْ ميثاقٍ.

فقال أبو ذَرٍّ : لقد قَصَدْتُ مكَّةَ من أماكِنَ بعيدةٍ أَبْتَغِي لقاءَ النبيِّ الجديدِ وسَمَاعَ شيْءٍ مِمَّا يقولُه .

فانفرَجَتْ أساريرُ[1] عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه ، وقال :

واللَّهِ ، إنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ حقًّا ، وإِنَّهُ . . . وإِنَّهُ . . . .

فَإذا أَصْبَحْنَا فَاتْبَعْني حَيْثُما سِرْتُ ، فَإِنْ رأيتُ شيْئاً أخافُهُ عليك وقفتُ كأنِّي أُرِيقُ الماءَ ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْني حتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلي .

* * *

لَمْ يَقَرَّ لأبي ذرٍّ مَضْجَعٌ طَـوالَ لَيْلَتِهِ شَـوْقاً إِلَىٰ رُؤْيَـةِ النبيِّ ، ولَهْفَةً إِلَى اسْتِمَاع شَيْءٍ مِمَّا يُوحَى به إليه .

وفي الصَّبَاحِ مَضَى عليٌّ بِضَيْفِهِ إلى بيتِ الرسولِ الكريمِ ومضَى أبو ذَرٍّ وراءَهُ يَقْفُوهُ[2] وهو لا يَلْوِي[3] على شَيْءٍ ؛ حتَّى دخلا على النبيِّ ، فقال أبو ذرٍّ : السلامُ عليكَ يا رسولَ اللَّهِ .

فقال الرسولُ : (وعليك سلامُ اللَّهِ ورحمتُه وبركاتُه) .

فكان أبو ذرٍّ أولَ مَنْ حَيَّا الرسولَ بتحيَّةِ الإِسلامِ ، ثم شاعَتْ وَعَمَّتْ بعد ذلك .

* * *

أقبل الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه علىٰ أبي ذرٍّ يدعوهُ إلىٰ الإِسلامِ ، ويقرأُ

---

(١) انفرجت أسارير علي : بدا السرور على وجهه .
(٢) يقفوه : يتبعه ويمشي على أثره .
(٣) لا يلوي على شيء : لا يلتفت إلى شيء .

عليه القرآن ، فما لبثَ أن أعلنَ كلمةَ الحَقِّ ، ودخلَ في الدينِ الجديدِ قبلَ أَنْ يَبْرَحَ مكانَه ، فكان رابعَ ثلاثةٍ أَسْلموا أَوْ خامِسَ أربعةٍ .

ولْنَتْرُكِ الكلامَ لأبي ذرٍّ ليقصَّ علينا بنفسِهِ بقيَّةَ خبرِه ، قال :

أقمْتُ بعدَ ذلِك مَعَ رسول اللّهِ في مكَّةَ فعلَّمَني الإِسلامَ ، وأقْرَأَني شيئاً من القرآن ، ثم قال لي :

(لا تُخْبِرْ بإِسْلَامِكَ أحداً في مَكَّةَ ، فإِنِّي أخافُ عليك أَنْ يَقْتُلوك) .

فقلت : والذي نَفْسي بيده لا أَبْرَحُ مَكَّةَ حَتَّىٰ آتِيَ المَسْجِدَ وأَصْرُخَ بدَعْوَةِ الحَقِّ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ قريشٍ[١] ؛ فَسَكَتَ الرسولُ.

فجئتُ المَسْجِدَ وقريشٌ جُلوسٌ يتحدَّثون ، فَتَوَسَّطْتُهُم ، ونـاديتُ بِأَعْلَى صَوْتي : يا مَعْشَرَ قريشٍ ، إِنِّي أشهدُ أَنْ لا آِلَهَ إِلاَّ اللّه وأَنَّ محمداً رسولُ اللَّه .

فما كادتْ كلماتي تُلامِسُ آذانَ القـومِ حتَّىٰ ذُعِروا جميعـاً ، وهَبُّوا من مجالِسِهِم ، وقالوا :

عليكم بهذا الصَّابِىء[٢] . وقاموا إِلَيَّ وجعلوا يَضْرِبُونَني لِأَمُوتَ ، فَأَدْرَكَني الْعَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِب عَمُّ النبيِّ ، وأَكَبَّ عَلَيَّ لِيَحْمِيَني منهم ، ثم أقبلَ عليهم وقال : ويلَكم[٣] ! أَتقتلون رَجُلاً من « غِفَارٍ » وَمَمَرُّ قَوَافِلِكم عليهم؟! فَأَقْلَعُـوا عَنِّي[٤] .

ولما أَفَقْتُ جِئْتُ إِلَى رسولِ اللّهِ ﷺ فَلمَّا رَأَىٰ ما بي قال :
(أَلَمْ أَنْهَكَ عن إعلانِ إِسْلامِك ؟) فقلت :
يا رسولَ اللّهِ ، كانت حاجةً في نَفْسِي فَقَضَيْتُها .

---

(١) بين ظهراني قريش : في وسط قريش .
(٢) الصابىء : الخارج من دينه .
(٣) الويل : الهلاك .
(٤) أقلعوا عني : كفوا عني وتركوني . .

فقـال :(اِلْحَقْ بقومِـك ، وخَبِّرْهُمْ بمـا رأيتَ وما سمعتَ ، وٱدْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، لَعَلَّ اللَّهَ ينفعُهم بك ويؤجِرُكَ فيهم . . . .

فإذا بلغَك أَنِّي ظَهَرْتُ فتَعالَ إِلَيَّ) .

قال أبو ذَرٍّ : فانطلقتُ حتَّى أتيتُ منازِلَ قومي فلَقِيَني أخي أنيسٌ فقال : ما صنعتَ .

قلتُ : صنعتُ أَنِّي أسلمتُ ، وصدَّقْتُ .

فما لَبِثَ[1] أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ وقال :

ما لِيَ رَغْبَةٌ عن دِينك ، فإِنِّي قد أسلمتُ وصدَّقتُ أيضاً .

ثم أتينا أُمَّنَا فَدَعَوْناها إِلَىٰ الإِسلام فقالت :

ما لي رَغْبَةٌ عن دينِكما ، وأسلمتْ أيضاً .

ومُنْذُ ذلك اليوم انطلقتِ الأُسْرَةُ المؤمنةُ تدعو إِلىٰ اللَّهِ في غِفَارٍ لا تَكِلُّ عن ذلك ولا تَمَلُّ منه ، حتَّىٰ أَسْلَمَ من غِفارٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَأُقِيمَتْ الصلاةُ فيهم .

وقال فريقٌ منهم : نَبْقَىٰ على دينِنا حتَّى إذا قَدِمَ الرسولُ المدينةَ أَسْلَمْنَا ، فلما قَدِمَ الرسولُ المدينةَ أَسْلموا ، فقال عليه الصلاةُ والسلام :

(غِفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لها ، وأَسْلَمُ سالَمَها اللَّهُ) . .

* * *

أَقامَ أبو ذَرٍّ في بادِيَتِهِ حتَّىٰ مَضَتْ بـدرٌ وأُحُدٌ والخَنْـدَقُ ، ثم قَدِمَ على المدينةِ وَانْقَطَعَ[2] إِلَى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، واسْتَأْذَنَهُ في أَنْ يقومَ على خِدْمَتِهِ ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَنَعِمَ بِصُحْبَتِهِ وَسَعِدَ بِخِدْمَتِهِ .

---

(١) ما لبث : ما أبطأ .

(٢) انقطع إلى رسول الله : خصص نفسه لصحبته .

وظلَّ رسولُ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه يُؤْثِرُهُ[1] وَيُكْـرِمُهُ ، فمـا لَقِيَهُ مَـرَّةً إلَّا صافَحَهُ ، وَهَشَّ في وَجْهِهِ وبَشَّ[2] .

* * *

ولَمَّا لَحِقَ الرسولُ الكريمُ بالرَّفيقِ الأَعْلَى[3] ؛ لم يُطِقْ أبو ذَرٍّ صَبْراً علَىٰ الإقامَةِ في المدينةِ المنوَّرَةِ بعد أن خَلَتْ من سَيِّدِها وَأَقْفَرَتْ من هَدْيِ مجالِسِهِ ، فَرَحَلَ إلىٰ بادِيَةِ الشامِ وأقام فيها مُدَّةَ خِلافَةِ الصِّدِّيقِ والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عنهما وعنه .

وفي خلافةِ عثمانَ نَزَلَ في دمشقَ فَرَأَى من إقبالِ المسلمين على الدنيا وانْغِمَاسِهِم في التَّرَفِ[4] ما أَذْهَلَهُ ودَفَعَهُ إلى استِنْكَارِ[5] ذٰلك ؛ فاستدْعاه عثمانُ ابنُ عَفَّانَ إلَىٰ المدينةِ، فقدِم إليها ، لكنَّهُ ما لَبِثَ أنْ ضاقَ برَغْبَةِ الناس في الدنيا وضاقَ الناسُ بشِدَّته عليهم وَتَنْدِيدِه بهم[6] ، فأَمَرَهُ عثمانُ بالانتقال إلىٰ « الرَّبْذَة » وهي قَرْيَةٌ صغيرةٌ من قُرَى المدينةِ ، فرحل إليها وأقام فيها بعيداً عن الناس ، زاهِداً بما في أيديهم من عَرَض الدنيا ، مُسْتَمْسِكاً بما كان عليه الرسولُ وصاحباه من إيثار الباقِيَةِ على الفانِيَةِ[7] .

* * *

دَخَلَ عليه رجلٌ ذاتَ مَرَّةٍ فَجَعَلَ يُقَلِّبُ الطَّرْفَ في بيتِهِ ، فلم يجدْ فيـه مَتاعاً .

---

(١) يؤثره : يفضله على غيره .

(٢) هش في وجهه وبش : ابتسم له وأظهر السرور للقائه .

(٣) لحق بالرفيق الأعلى : وافاه الأجل .

(٤) انغماسهم في الترف : شدة رغبتهم بالنعيم .

(٥) استنكاره : استغرابه وعدم إقراره .

(٦) تنديده بهم : إشهاره لعيوبهم وإسماعهم قارس الكلام .

(٧) الباقية : هي الآخرة ، والفانية : هي الدنيا .

فقال : يا أبا ذرٍّ ، أَيْنَ متاعُكم ؟!

فقال : لنا بيتٌ هناك (يعني الآخرة) نُرْسِلُ إلَيْهِ صَالِحَ مَتَاعِنَا .

فَفَهِمَ الرَّجُلُ مُرَادَهُ وقال له :

ولكِنْ لا بُدَّ لك من مَتاعٍ ما دُمْتَ في هذه الدارِ (يعني الدنيا) .

فأجاب : ولكِنَّ صاحِبَ المنزلِ لا يَتْرُكُنَا فيه .

* * *

وبعثَ إليه أميرُ الشام بثلاثمائَة دينارٍ ، وقال له : اِسْتَعِنْ بها على قضاءِ حاجتك ، فردَّها إليه وقال : أَمَا وَجَدَ أميرُ الشام عبداً للَّهِ أهْون عليْه منِّي[1]؟ .

* * *

وفي السنة الثانية والثلاثين لِلهجْرة استأثَرتْ يَدُ المَنُون بالعابدِ الزاهدِ الذي قال فيه الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(ما أَقَلَّتِ الغبراءُ[2] ولا أَظَلَّتِ الخَضْراءُ[3] منْ رَجُلٍ أَصْدَق مِنْ أبي ذَرٍّ)[*] .

---

(١) أهون عليه مني : أذل عنده مني .

(٢) أقلت الغبراء : حملت الأرض .

(٣) الخضراء : السماء .

(*) للاستزادة من أخبار أبي ذر انظر :

١ ـ الإصابة (ط . السعادة) : ٣/٦٠ ـ ٦٣ .

٢ ـ الاستيعاب (ط . حيدر آباد) : ٢/٦٤٥ ـ ٦٤٦ .

٣ ـ تهذيب التهذيب : ٢/٤٢٠ .

٤ ـ تجريد أسماء الصحابة : ٢/١٧٥ .

٥ ـ تذكرة الحفاظ : ١/١٥ ـ ١٦ .

٦ ـ حلية الأولياء : ١/١٥٦ ـ ١٧٠ .

٧ ـ صفة الصفوة : ١/٢٣٨ ـ ٢٤٥ .

٨ ـ طبقات الشعراني : ٣٢ .

٩ ـ المعارف : ١١٠ ـ ١١١ .

١٠ ـ شذرات الذهب : ١/٣٩ .

١١ ـ العبر : ١/٣٣ .

١٢ ـ زعماء الإسلام : ١٦٧ ـ ١٧٣ .

عبد الله بن أم مكتوم

« رَجُلٌ أَعْمَى أَنْزَلَ اللَّهُ في شَأْنِهِ سِتَّ عَشْرَةَ آيَةً تُلِيَتْ وَستَظَلُّ تُتلىٰ ما كرَّ الجَدِيدَانِ »

[المفسّرون]

مَنْ هذا الذي عُوتِبَ فيه النبيُّ الكريمُ من فَوْق سَبْعِ سماواتٍ أَقْسَىٰ عِتَابٍ وَأَوْجَعَهُ ؟!

مَنْ هٰذا الذي نَزَلَ بشَأْنِهِ جبريلُ الأمينُ علَىٰ قَلْبِ النبيِّ الكريم بوَحْي من عِندِ اللّهِ ؟!

إِنَّهُ عبدُ اللّهِ بنُ أُمِّ مَكْتُومٍ مُؤَذِّنُ الرسول صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه .

* * *

وعبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ مَكِّيٌّ قُرَشِيٌّ تَرْبِطُهُ بالرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَحِمٌ ، فقد كان ابنَ خال أُمِّ المُؤمِنين خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ رضْوانُ اللّهِ عليها .

أمَّا أبوهُ فقيسُ بنُ زائدٍ ، وأما أُمُّهُ فعاتِكَةُ بنتُ عبدِ اللّهِ ، وقد دُعِيَتْ بأمِّ مَكْتُومٍ لأنَّها وَلَدَتْهُ أعْمىً مكْتُوماً .

* * *

شَهِدَ عبدُ اللّهِ بنُ أُمِّ مكتومٍ مَطْلِعَ النُّورِ في مَكَّةَ ، فشَرحَ اللّهُ صَدْرَه للإيمان ، وكان من السَّابقين إلى الإسْلامِ .

عاش ابنُ أُمِّ مَكْتومٍ مِحْنَةَ المسلمين في مَكَّةَ بكلِّ ما حَفَلَتْ به من تَضْحِيَةٍ وثَباتٍ وصُمُودٍ وفِداءٍ . . .

وعانَىٰ من أَذَىٰ قريشٍ ما عاناه أصحابُه ، وبَلَا[1] من بَطْشِهِمْ وَقَسْوَتِهِم ما بَلَوْهُ ؛ فما لانَتْ له قَناةٌ[2] ولا فَتَرَتْ لَهُ حَمَاسَةٌ ولا ضَعُفَ لَهُ إيمانٌ . . .

وإنَّما زادَهُ ذلك اسْتِمْساكاً بدين اللّهِ ، وتعلُّقاً بكتابِ اللّهِ ، وتَفَقُّهاً بشَرْعِ اللّهِ وإِقْبالاً علىٰ الرسولِ صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليه .

* * *

وقد بلغَ من إقبالِه على النبيِّ الكريمِ وحِرْصِه على حِفْظِ القرآنِ العظيمِ أَنَّه كان لا يَتْرُكُ فُرْصَةً إلَّا اغْتَنَمَها ، ولا سانِحَةً إلَّا ابْتَدَرَها[3] . . .

بَلْ كان إلْحَاحُه علىٰ ذٰلِك يُغْرِيه ـ أحْياناً ـ بأنْ يأخُذَ نَصِيبَهُ مِنَ الرسولِ ونصيبَ غَيْره . . .

وقد كان الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه في هذه الفَتْرَةِ كثيرَ التَّصَدِّي لسادات قريشٍ ، شديدَ الحِرْصِ علىٰ إسْلامِهِم ، فالْتَقَى ذاتَ يوم بعُتْبَةَ بْنِ رَبيعَةَ وأخيهِ شيبةَ بنِ ربيعةَ وعمرِو بنِ هشامٍ المُكَنَّىٰ بأبي جهْلٍ ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ والوليدِ بن المُغيرةَ ، والدِ سيفِ اللّه خـالدٍ ، وطَفِق يُفَـاوِضُهُمْ ويناجيهم ويَعْـرِضُ عليهم الإسلامَ ، وهو يطمعُ في أَنْ يَسْتَجِيبوا له ، أو يَكُفُّوا أذاهم عنْ أصْحَابِهِ .

* * *

وفيما هو كذلك أقبلَ عليه عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ يَسْتَقْرِئُه آيةً من كتابِ اللّهِ ، ويقول :

يا رسولَ اللّه ، عَلِّمْني مِمَّا عَلمَكَ اللّهُ .

فأعرَضَ الرسولُ الكريمُ عنه ، وعَبَسَ في وَجْهِه ، وتَوَلَّىٰ نَحْوَ أولئك النَّفرِ

---

(١) بلا من بطشهم : ذاقَ وقاسَى .

(٢) ما لانت له قناة : أي ما ضعف ولا تزعزع .

(٣) ابتدرها : أسرع إليها .

مِنْ قريشٍ ، وأقبلَ عليهم أَمَلاً في أنْ يُسْلِمُوا فيكون في إسْلامِهم عِزٌّ لدينِ اللّهِ ، وتأْييدٌ لدعوةِ رسولِه .

وما إنْ قَضَىٰ رسولُ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه حديثَه مَعَهُمْ وفَرَغَ من نَجْواهم ، وَهَمَّ أَنْ يَنْقَلِبَ[1] إِلَىٰ أهْلِهِ حتَّىٰ أَمْسَكَ اللّهُ عليه بَعْضاً من بَصَرِهِ ، وأَحَسَّ كَأَنَّ شيئاً يَخْفِقُ[2] بِرأْسِهِ . . .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ .

سِتَّ عَشْرَةَ آيَةً نَزَلَ بها جبْريلُ الأمينُ علَىٰ قلبِ النبيِّ الكريمِ في شأنِ عبدِ اللّهِ بنِ أمِّ مكتومٍ لا تزال تُتْلَىٰ مُنْذُ نزلتْ إِلَىٰ اليوم ، وستظلُّ تُتْلَىٰ حَتَّىٰ يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

* * *

ومُنْذُ ذلك اليومِ ما فَتِئَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه يُكْرِمُ مَنْزِلَ عبدِ اللّهِ بنِ أمِّ مَكْتومٍ إذا نَزَلَ ، وَيُدْني مَجْلِسَهُ إذا أَقْبَلَ ، وَيَسْأَلُهُ عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَقْضِي حاجَتَه .

وَلاَ غَرْوَ[3] ، أَلَيسَ هو الذي عُوتِبَ فيه من فوقِ سَبْعِ سماواتٍ أشدَّ عتابٍ وأَعْنَفَه؟!

* * *

---

(1) ينقلب إلى أهله : يعود إلى أهله .
(2) يخفق برأسه : يضرب رأسه .
(3) لا غرو : لا عجب .

ولما كَلِبَتْ[1] قريشٌ علىٰ الرسول والذين آمنوا مَعه ، واشْتَدَّ أذاها لهم أَذِنَ اللّهُ للمسلمين بالهجْرَةِ ، فكان عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ أسرعَ القوم مُفَارَقَةً لِوَطَنِهِ ، وفِراراً بدينِهِ . . .

فقد كان هو ومُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ[2] أولَ مَنْ قَدِمَ المدينةَ من أصحابِ رسول اللّهِ .

وما إنْ بلغَ عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ يَثْربَ حتَّىٰ طَفِقَ هو وصاحبُهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يخْتَلِفَان[3] إلىٰ النَّاس وَيُقرآنِهم القُرْآن ، وَيُفَقِّهانِهم في دين اللّهِ .

ولما قَدِمَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسّلامُ إلى المدينةِ اتَّخَذَ عبدَ اللّهِ بنَ أمِّ مكتومٍ وبلال بن رَباحٍ مُؤَذِّنَيْن للمسلمين يَصْدَعان[4] بكلمة التوحيد كلَّ يومٍ خمس مَرَّاتٍ ، وَيَدْعُوَان النَّاس إلى خير العملِ ، وَيَحُضَّانِهم على الفَلاح . . .

فكان بلالٌ يُؤذِّنُ وابنُ أمِّ مكتومٍ يُقيمُ الصلاةَ ، وربَّما أَذَّنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ وأقامَ بلال .

وكان لبلالٍ وابن أمِّ مكتومٍ شأنٌ آخَر في رَمَضَانَ ، فقد كان المسلمون في المدينَةِ يَتَسَحَّرُونَ علَىٰ أذان أَحَدِهما ويُمْسِكُونَ عند أذانِ الآخر .

كان بلالٌ يُؤَذِّنُ بلَيْلٍ وَيُوقِظُ النَّاسَ ، وكان ابنُ أمِّ مكتومٍ يَتَوَخَّى ٱلْفَجْرَ[5] فلا يُخْطِئُه .

وقد بلغَ من إكرام النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ لابن أمِّ مكتومٍ أَن ٱسْتَخْلَفَهُ

---

(١) كلبت قريش على المسلمين : اشتدت عليهم وألحَّت في أذاهم .
(٢) مصعب بن عمير : أحد السابقين إلى الإسلام وأول المبشرين به خارج مكة ، استشهد يوم أُحد .
(٣) يختلفان إلى الناس : يترددان على الناس .
(٤) يصدعان : يجهران .
(٥) يتوخى الفجر : يترقب الفجر ويتطلبه .

على المدينةِ عِنْدَ غِيابه عنها بضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً كانت إحداها يومَ غادَرَها لِفَتْحِ مَكَّةَ .

وفي أعْقابِ غَزْوَةِ بَدْرٍ أنْزَلَ اللّهُ على نَبيِّهِ من آيِ القُرآنِ ما يَرْفَعُ شَأْنَ المجاهِدين ، ويُفَضِّلُهم علَىٰ القاعدين لِيَنْشَطَ المُجاهِدُ إلَىٰ الجهادِ ، ويأنَفَ القاعِدُ من القعودِ ؛ فأثَّرَ ذلك في نفس ابن أمِّ مكتومٍ ، وعَزَّ عليه أن يُحْرَمَ من هذا الفضل وقال :

يا رسولَ اللّهِ ، لو أستطيعُ الجهادَ لجَاهدتُ ، ثم سألَ اللّهَ بِقَلْبٍ خاشِعٍ أن يُنْزِلَ قرآناً في شَأْنِه وشَأْنِ أمْثَالِه مِمَّنْ تعوقُهم عاهاتُهم عن الجِهادِ ، وجَعَل يدعو في ضَراعةٍ :

«اللَّهُمَّ أنْزِلْ عُذْري . . . اللَّهُمَّ أنْزِلْ عُذْرِي » .

فما أَسْرَعَ أَن آسْتَجَابَ اللّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِدُعائِه .

* * *

حَدَّثَ زيدُ بنُ ثابتٍ[1] كاتِبُ وَحْي رسول اللّهِ ﷺ ، قال :

كنتُ إلى جَنْبِ الرسول صلواتُ اللّهِ عليه ، فَغَشِيَتْهُ[2] السَّكِينَةُ ، فَوَقَعَتْ فَخِذُهُ عَلى فَخِذِي ، فما وَجَدْتُ شَيْئاً أَثْقَلَ مِنْ فَخِذِ رسول اللّهِ ﷺ ، ثم سُرِّيَ عنه[3] فقال :

اكتُبْ يا زيدُ ، فكتبتُ : ﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ ، في سَبيل اللّهِ . . . ﴾ .

فقامَ ابنُ أمِّ مَكْتُومٍ وقال : يا رسولَ اللّهِ ، فكيفَ بِمَنْ لا يستطيعُ

---

(١) انظر سيرة زيد بن ثابت في ص ٣٥٤ .

(٢) غشيته السكينة : غطته وحلّت به .

(٣) سُري عنه : كشف عنه ما نزل به من شدة الوحي وثقله .

الجِهَادَ ؟! فما انْقَضَىٰ كَلامُه حتَّىٰ غَشِيَتْ رسولَ اللّهِ ﷺ السَّكِينَةُ ، فَوَقَعَتْ فَخِذُهُ علىٰ فَخِذِي ، فوجدتُ من ثِقَلِها ما وَجَدْتُـهُ في المرَّةِ الأولى ، ثم سُـرِّيَ عنه فقال : (اقرأْ ما كتبتَه يا زيدُ) .

فقرأتُ ﴿ لَا يَسْتَوِي القاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِين﴾ ،

فقال : اكتبْ ﴿ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ ﴾ .

فَنَزَلَ الاستِثْنَاءُ الذي تَمَنَّاهُ ابنُ أمٍّ مكتومٍ .

وعلىٰ الرَّغمِ مِنْ أنَّ اللَّهَ سُبْحانه أَعْفَىٰ عبدَ اللَّهِ بنَ أمِّ مكتومٍ وأمْثالَه مِن الجهادِ ، فقد أَبَتْ نَفْسُه الطَّمُوحُ أَنْ يَقْعُدَ مع القاعدين ، وَعَقَد ٱلْعَزْمَ عَلَىٰ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ . . .

ذلك لِأنَّ النفوسَ الكبيرَةَ لا تَقْنَعُ إلَّا بِكِبارِ الأُمور .

فَحَرَصَ مُنْذُ ذلك اليومِ على أَلَّا تَفُوتَه غزوةٌ ، وحَدَّدَ لِنَفْسِهِ وظيفتَها في ساحاتِ القِتال ، فكان يقول : أَقِيموني بَيْنَ الصَّفَّيْنِ[١] وَحَمِّلُوني اللِّوَاءَ أَحْمِلهُ لكم وأحْفَظهُ . . . فأنا أَعْمَى لا أستطيعُ الفِرَارَ . . .

* * *

وفي السَّنَةِ الرابعةَ عشرةَ للهِجْرَةِ عَقَدَ عُمَـرُ بْنُ الخَطَّابِ ٱلْعَـزْمَ على أَنْ يخوضَ مَعَ ٱلْفُرْسِ مَعْرَكةً فاصِلةً تُـدِيلُ[٢] دَوْلَتَهُمْ ، وَتُـزيلُ مُلْكَهُمْ ، وتفتحُ الطريقَ أمامَ جيوشِ المسلمين ؛ فكتب إِلَىٰ عُمَّالِهِ يقول :

لا تَدَعُوا أَحـداً له سـلاحٌ أو فَرَسٌ أو نجـدةٌ أو رأيٌ إلَّا وَجَّهْتُمُوهُ إِلَيَّ ، وَٱلْعَجلَ ٱلْعَجَلَ .

---

(١) أقيموني بين الصفين : أوقفوني بينهما .

(٢) تديل دولتهم : تقلب دولتهم .

وَطَفِقَتْ جموعُ المسلمين تُلَبِّي نداءَ الفاروق وتنهالُ على المدينةِ من كُلِّ حَدبٍ وَصَوْبٍ[1] ، وكان في جُمْلَةِ هؤلاءِ المجاهِدُ المكفوفُ ٱلْبَصَر عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مَكْتومٍ .

فأَمَّرَ الفاروقُ علىٰ الجيش الكبير سعدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ ، وأوْصاه ودَّعه .

ولما بلغَ الجيشُ ٱلْقَادِسِيَّةَ ، برزَ عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ لابِساً دِرْعَه ، مُسْتَكْمِلاً عُدَّتَه ، ونَدَبَ نَفْسَه لِحَمْلِ رَايَةِ المسلمين والحِفَاظِ عليها أو الموتِ دونَها .

* * *

وَٱلْتَقىٰ الجَمْعَانِ في أيامٍ ثلاثةٍ قاسِيَةٍ عَابِسَةٍ . . . وَٱحْتَرَبَ الفريقان حَرْباً لم يَشْهَدْ لها تاريخُ الفُتوحِ مثيلاً حَتَّىٰ ٱنْجَلَىٰ ٱلْيَـوْمُ الثالثُ عن نصـرٍ مؤزَّرٍ[2] للمسلمين ، فدالَتْ دَوْلَةٌ من أعْظَمِ الدُّوَلِ . . .

وزالَ عَرْشٌ من أَعْرَقِ ٱلْعُروش . . .

وَرُفِعَتْ رَايَةُ التوحيدِ في أرضِ الوثنيَّة .

وكان ثمنَ هذا النصرِ المُبِينِ مئاتُ الشُّهَدَاءِ . . . وكان بينَ هؤلاءِ الشُّهَدَاءِ عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مَكْتُوم . . .

فقد وُجِدَ صريعاً مُضَرَّجاً بدِمائِه وهو يُعَانِقُ رايَةَ المسلمين(*) .

---

(1) من كل حدب وصوب : من كل ناحية .

(2) نصر مؤزر : نصر قوي .

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللّه بن أم مكتوم انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة (٥٧٦٤) .

٢ ـ الطبقات الكبرى : ٤/ ٢٠٥ .

٣ ـ صفة الصفوة : ١/ ٢٣٧ .

٤ ـ ذيل المذيل : ٣٦ ، ٤٧ .

٥ ـ حياة الصحابة : (انظر الفهارس) .

ويلاحظ أن في اسم (ابن أم مكتوم) خلافاً ، فأهل المدينة يدعونه عبد اللّه ، وأما أهل العراق فيدعونه عمراً . أما اسم أبيه فهو قيس بن زائدة من غير خلاف .

صور من حياة الصحابة

مجزأة بن ثور السدوسي

أسيد بن الحضير

عبد الله بن عباس

النعمان بن مقرن المزني

صهيب الرومي

أبو الدرداء

زيد بن حارثة

أسامة بن زيد

سعيد بن زيد

مجزأة بن ثور السدوسي

« مَجْزَأة بنُ ثوركَميٌّ باسِلٌ قَتَل مائَةً مِنَ المُشرِكِينَ مَبارزةً ؛ فما بالُكَ بِمَنْ قتلَهُم في خِضَمّ المَعارك ! »

[المؤرخون]

ها هُمْ أولاءِ الأبطالُ الأمْجادُ من جُنْدِ اللّهِ يَنْفُضُونَ عَنْهم غُبارَ القادِسيَّةِ جَذِلِينَ[١] بما آتاهم اللّهُ مِنْ نَصرٍ .

مُغْتَبِطين بما كُتِبَ لإخْوانِهِمُ الشُّهَدَاءِ من أجْر .

مُتَشَوِّقين إلىٰ معركةٍ أُخرَىٰ تكونُ صِنْواً[٢] للقادِسيَّةِ في رَوْعَتِها وجَلالِها .

مُتَرَبِّصِينَ أنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ خليفةِ رسولِ اللّهِ عمرَ بنِ الخطابِ بِمُواصَلَةِ الجهادِ ، لاجْتِثَاثِ[٣] العرشِ الكِسْرَوِيِّ من جُذوره .

* * *

لم يَطُلْ تَشَوُّقُ ٱلْغُرِّ المَيَامِينِ وَتَشَوُّفُهم كثيراً .

فها هو ذا رسولُ الفاروقِ يَقْدَمُ من المدينةِ إلىٰ الكوفةِ ، ومَعَهُ أمرٌ من الخليفةِ لواليها أبي موسىٰ الأشعريِّ بِالْمُضِيِّ بِعَسْكَرِهِ والالتقاءِ مع جُنْدِ المسلمينَ القادِمين مِنَ ٱلْبَصْرَة ، والانْطِلاقِ معاً إلىٰ الأهْوازِ[٤] لتتبُّعِ « الهُرْمُزَانِ »[٥]

---

(١) جذلين : فرحين .

(٢) صنواً للقادسية : أختاً لها .

(٣) لاجتثاث العرش الكسروي : لاقتلاعه من أصله .

(٤) الأهواز : إقليم من أقاليم فارس يقع علىٰ الخليج في غربي إيران اليوم .

(٥) الهرمزان : قائد جيوش الفرس .

والقضاءِ عليه ، وتحريرِ مدينةِ « تُسْترَ » دُرَّةِ التَّاجِ ٱلْكِسْرَوِيِّ وَلُؤلُؤةِ بلادِ فارِس .

وقد جاءَ في الأمرِ الذي وَجَّهَهُ الخليفةُ لأبي موسى أَنْ يَصْحَبَ معَه الفارِسَ البَاسِلَ مَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ سَيِّدَ بني بَكْرٍ وأميرَهُمُ المُطَاع .

* * *

صَدَعَ أبو موسَىٰ الأشعريُّ بِأمْرِ خليفةِ المسلمين ، فَعَبَّأَ جَيْشَهُ وجَعَلَ علىٰ مَيْسَرَتِهِ « مَجْزَأَةَ بنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ » وانضمَّ إلىٰ جيوشِ المسلمين القادِمَةِ من البَصْرَةِ ، وَمَضَوْا مَعاً غُزَاةً في سبيلِ اللّهِ .

فما زالوا يُحَرِّرُونَ المُدُنَ ، وَيُطَهِّرونَ المَعَاقِلَ ، والهُرْمُزَانُ يَفِرُّ أَمَامَهم من مكانٍ إلىٰ آخَرَ حتَّىٰ بَلَغَ مدينةَ تُسْترَ ، واحْتَمَىٰ بحماها .

* * *

كانت « تُسْتَرُ » التي انْحازَ إليها الهُرْمُزَانُ مِنْ أجملِ مُدُنِ ٱلْفُرْسِ جمالاً ، وأبهاها طبيعةً ، وأَقْواها تَحْصيناً .

وهي إلىٰ ذلك مدينةٌ عريقةٌ[1] ضارِبَةٌ في أغوارِ[2] التاريخ ، مَبْنِيَّةٌ علىٰ مُرْتَفَعٍ مِنَ الأرضِ علىٰ شَكْلِ فَرَسٍ ، يسقيها نهرٌ كبيرٌ يُدْعَىٰ بِنَهْرِ دُجَيْلٍ .

وَفَوْقَها شاذروان[3] بناهُ الملكُ سابور ، لِيَرفَعَ إليها ماءَ النهرِ من خلالِ أَنْفَاقٍ حَفَرَها تحْتَ الأرضِ .

وشاذروانُ تُسْتَرَ وأنفاقُه عجيبةٌ من عَجائِبِ البناءِ ، شُيِّدَ بالحِجارَةِ الضَّخْمَةِ المُحكمة ، ودُعِّمَ بأعمدةِ الحديدِ الصُّلْبَةِ ، وَبُلِّطَ هُوَ وَأَنْفَاقُهُ بالرَّصَاص .

---

(١) مدينة عريقة : مدينة قديمة ذات حضارة .

(٢) أغوار التاريخ : أعماق التاريخ .

(٣) الشاذروان والشادروان : منهل ماء له حوض ونوافير ، وربما وجدت فيه تماثيل حيوانات يخرج الماء من أفواهها .

وحوْلَ تُسْتَرَ سُورٌ كبيرٌ سامِقٌ[1] يُحيطُ بها إحاطَةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ ،

قال المؤرخون عنه : إنَّهُ أَوَّلُ وَأَعْظَمُ سُورٍ بُنِيَ علىٰ ظَهْرِ الأرضِ .

ثم حَفَرَ الهرمزانُ حولَ السُّورِ خَنْدَقاً عظيماً يَتَعَذَّرُ ٱجْتِيَازُه ، وحَشَدَ وراءَهُ خِيرَةَ جنودِ فارس .

* * *

عسكرتْ جيوشُ المسلمين حولَ خندقِ تُسْتَرَ وظَلَّتْ ثمانيةَ عَشَرَ شهراً لا تستطيعُ اجْتيازَه .

وخاضتْ مع جيوشِ الفرسِ خلالَ تلكَ المُدَّة الطويلةِ ثمانين معركةً .

وكانت كلُّ معركةٍ مِنْ هٰذه المعارِكِ تَبْدأُ بالمُبَارَزَةِ بينَ فُرْسانِ الفريقين ؛ ثم تتحوَّلُ إلىٰ حَرْبٍ ضاريةٍ ضَروسٍ[2] .

وقد أَبْلَىٰ مَجْزَأَةُ بنُ ثَوْرٍ في هٰذه المبـارَزاتِ بَلاءً أَذْهَـلَ العقولَ وأدهشَ الأعداءَ والأصْدِقاءَ في وَقتٍ معاً .

فقد تمكَّنَ من قَتْلِ مائةِ كميٍّ[3] من فُرْسانِ الأعداءِ مُبارَزَةً ؛ فأصْبَحَ ٱسْمُهُ يُثِيرُ الرُّعْبَ في صفوفِ الفرسِ ، ويَبْعَثُ النَّخْوَةَ وَٱلْعِزَّةَ في صدورِ المسلمين .

وعند ذلك عَرَف الَّذينَ لم يكونوا قد عَرَفُوهُ من قَبْلُ لِمَ حَرَصَ أميرُ المؤمنين علَىٰ أنْ يكونَ هذا البطلُ الباسِلُ في عِدادِ الجيشِ الغازِي .

* * *

وفي آخرِ معركةٍ من تلك المعارِكِ الثمانينَ حَمَلَ المسلمون علىٰ عَدُوِّهِمْ حَمْلَةً باسِلَةً صادقِةً فأخْلَىٰ الفرسُ لهمُ الجسورَ المنصوبَةَ فوقَ الخَنْدَقِ ، ولاذوا

---

(1) سور سامق : سور عال .

(2) حرب ضروس : حرب شديدة مهلكة .

(3) الكمي : الشجاع الباسل .

بالمدينةِ وأغلقوا عليهم أبوابَ حِصْنِها المنيعِ .

* * *

إِنْتَقَل المسلمون بعد هذا الصَّبْر الطَّويل من حالٍ سَيِّئَةٍ إِلىٰ أُخرىٰ أَشَدَّ سوءاً ، فقد أَخَذَ الفرسُ يُمْطِرونَهم من أعالي الأَبْراجِ بِسِهامِهم الصائِبَةِ .

وجَعَلُوا يُدَلُّونَ مِنْ فَوْقَ الأَسْوارِ سَلاَسِلَ مِنَ الحديدِ ، في نِهايَةِ كُلِّ سِلْسِلَةٍ كلاليبُ مُتَوَهِّجَةٌ من شدَّةِ ما حُمِيَتْ بالنَّار .

فإذا رامَ أَحَدُ جنودِ المسلمين تَسَلُّقَ السُّور أو الاقترابَ منه ، أَنْشَبوها فيه[1] وجَذَبُوهُ إِلَيْهم ، فيحترقُ جَسَدُهُ وَيَتَساقَطُ لَحْمُهُ وَيُقْضَى عَلَيْه .

* * *

اشتدَّ الكَرْبُ علَى المسلمين ، وأخذوا يسألون اللّٰهَ بقلوبٍ ضارِعَةٍ خاشِعةٍ أَنْ يُفَرِّجَ عنهم وينْصُرَهُمْ علىٰ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ .

* * *

وبيْنما كان أبو موسَى الأشعريُّ يتأَمَّلُ سورَ تُسْترَ العظيمَ ، يائِساً من اقْتِحامِه ، سَقَطَ أمامَهُ سَهْمٌ قُذِفَ نحوَهُ من فوقِ السُّور ، فنظر إليه فإذا فيه رِسالةٌ تقول : لقد وَثِقْتُ بكم مَعْشَرَ المسلمين، وإنِّي أَسْتَأْمِنُكم على نَفْسِي ومالي وأَهْلي ومَنْ تَبِعَني ، ولكم عَليَّ أنْ أَدُلَّكُم علىٰ مَنْفَذٍ تَنْفِذُون منه إلىٰ المدينةِ .

فكتب أبو موسَى أماناً لِصاحِبِ السَّهْم ، وقذَفه إليه بالنُّشَّابَةِ[2] .

فاستَوْثَقَ الرجلُ من أمانِ المسلمين لِما عُرِفَ عَنْهم من الصِّدْقِ بالْوَعْدِ

(١) أنشبوها فيه : علقوها فيه وأدخلوها في لحمه.

(٢) النشابة : السهم .

والوفاءِ بِالْعَهْدِ ، وتسلَّلَ إليهم تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ ، وأَفْضَى لأَبي موسَى بحقيقةِ أمرِهِ فقال :

نَحْنُ من ساداتِ القومِ ، وقَدْ قَتَلَ الهُرْمُزانُ أَخِي الأكبرَ ، وعَدَا[1] عَلَىٰ مالِهِ وأهلِهِ ، وأضمرَ لِيَ الشرَّ في صدرِه حتَّىٰ ما عُدْتُ آمَنُهُ علىٰ نَفْسِي وأولادِي .

فآثْرتُ عَدْلكم علىٰ ظُلْمِهِ ، ووفاءَكم علىٰ غَدْرِهِ ، وَعَزَمْتُ علَىٰ أن أَدُلَّكُمْ علىٰ مَنْفَذٍ خَفِيٍّ تَنْفُذُونَ منه إلىٰ « تُسْتَرَ » .

فأَعْطِني إنساناً يَتَحَلَّىٰ بالْجُرْأَةِ وَالْعَقْلِ ، ويكونُ مِمَّن يُتْقِنون السِّباحَةَ حتَّىٰ أُرْشِدَهُ إلىٰ الطَّرِيقِ .

* * *

اِسْتَدْعَىٰ أبو موسى الأشعريُّ مَجْزَأَةَ بنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ ، وَأَسَرَّ إليه بالأمرِ ، وقال :

أَعِنِّي بِرَجُلٍ من قَوْمِكَ لَهُ عَقْلٌ وحزمٌ وقُدرةٌ على السِّباحَةِ .

فقال مجزأةُ : اِجْعَلْني ذٰلِكَ الرجلَ أَيُّها الأميرُ .

فقال له أبو موسَى : إذا كنتَ قد شئتَ فعلَىٰ بَرَكَةِ اللّٰهِ .

ثُمَّ أوصاه أنْ يَحْفَظَ الطريقَ ، وأنْ يعرِفَ مَوْضِعَ البابِ ، وأن يحدِّدَ مكانَ الهُرْمُزانِ ، وأن يَتَثَبَّتَ مِنْ شَخْصِهِ ، وأَلَّا يُحْدِثَ أمراً غيرَ ذلك .

* * *

مَضَىٰ مَجْزَأَةُ بنُ ثَوْرٍ تَحْتَ جَنْح الظلامِ مع دليلِه الفارسيّ ، فَأَدْخَلَه في نَفَقٍ[2] تَحْتَ الأرْضِ يَصِلُ بَيْن النَّهْرِ والمدينةِ .

---

(١) عدا : تَعَدَّىٰ .

(٢) النفق : ممر تحت الأرض .

فكان النَّفَقُ يَتَّسِعُ تارةً حتَّىٰ يتمكَّنَ من الخوْض في مائِه وهو ماشٍ على قَدَمَيْه ، وَيَضِيقُ تارَةً أُخْرَىٰ ، حتَّىٰ يَحْمِلَهُ على السِّبَاحَةِ حَمْلاً .

وكان يَتَشَعَّبُ وَيَتَعَرَّجُ مَرَّةً ، وَيَسْتَقيمُ مَرَّةً ثانيةً . . .

وهكذا حتَّىٰ بَلَغَ بِهِ المَنْفَذَ الَّذِي يَنْفُذُ مِنْهُ إلىٰ المدينةِ ، وأَراهُ الهُرْمُزانَ قاتِلَ أخيهِ ، والمكانَ الذِي يَتَحَصَّنُ فيه .

فلما رأَىٰ مَجْزَأَةُ الهُرْمُزانَ ، هَمَّ بِأَنْ يُرْدِيَهُ بِسَهْمٍ في نَحْرِهِ ، لكِنَّهُ ما لَبثَ أَنْ تَذَكَّرَ وصِيَّةَ أبي موسَىٰ له بِأَلَّا يُحْدِثَ أَمْراً ، فَكَبَحَ جِماحَ[1] هٰذِه الرَّغْبَةِ في نَفْسِهِ ، وعاد من حَيْثُ جاءَ قبلَ بُزوغِ الفَجْرِ .

* * *

أَعَدَّ أبو موسَىٰ ثَلاثمائَةٍ من أَشْجَعِ جُنْدِ المسلمين قلباً ، وأَشَدِّهِمْ جَلَداً وصَبْـراً ، وأَقْـدَرِهِمْ على ٱلْعَـوْمِ ، وأَمَّـرَ عليهم مَجْـزَأَةَ بنَ ثَـوْرٍ وودَّعهم وأوصاهم . . . وجَعَلَ التَّكبيرَ علامةً على دَعْوَةِ جُنْدِ المسلمين لاقْتِحامِ المدينة .

أَمَرَ مَجْزَأَةُ رِجَالَهُ أَنْ يَتَخَفَّفوا مِنْ ملابِسِهم ما اسْتَطَاعُوا حتَّىٰ لا تَحْمِلَ من الماءِ ما يُثْقِلُهم .

وحذَّرَهم مِن أَنْ يأخذوا معهم غَيْرَ سيوفِهم . . . وأَوْصاهم أَنْ يشُدُّوها على أَجْسَادِهم تحتَ الثِّياب . . .

ومَضَىٰ بهم في آخِرِ الهزيع[2] الأولِ من الليلِ .

* * *

ظَلَّ مجزأَةُ بنُ ثورٍ وجَنْدُهُ البواسِلُ نَحْواً من ساعتين يصارِعون عَقَبَاتِ هذا

---

(١) كبح جماع رغبته : رد نفسه عن هواها ولم يحقق لها رغبتها .

(٢) الهزيع الأول من الليل : الثلث الأول منه .

النفق الخطيرِ ، فَيصْرَعُونَها تارةً وتَصْرَعُهُمْ تارةً أُخْرَى .

ولمَّـا بلغوا المنْفـذَ المؤدِّيَ إلىٰ المدينـةِ وَجَدَ مجـزأةُ أنَّ النفقَ قد ابْتَلَعَ مِائتين وعِشْرين رجلاً مِنْ رِجالِهِ ، وأبقىٰ له ثمانين . . .

* * *

وما إنْ وطِئتْ أقدامُ مجزأةَ وصحبِه أرضَ المدينَةِ حتَّىٰ جَرَّدوا سيوفَهم ، وانقَضُّوا على حُمَاةِ الحِصْنِ ، فأغمدوها في صدُورِهم .

ثم وَثَبوا إلىٰ الأبوابِ وفَتَحوها وهُمْ يكبِّرون .

فتلاقىٰ تكبيرُهُم من الدَّاخِلِ مع تكبيرِ إخوانِهم من الخارِجِ .

وتدفَّقَ المسلمون علىٰ المدينةِ عندَ الفَجْرِ .

ودارَتْ بينَهم وبينَ أعـداءِ اللّهِ رَحَىٰ معركـةٍ ضَروسٍ قَلَّمـا شَهِدَ تـاريخُ الحروبِ مِثْلَها هَوْلاً ورهبةً وكثرَةً في القَتْلَىٰ .

* * *

وفيما كانتِ المعركةُ قائِمةً على قَدَمٍ وَسَاقٍ أَبْصَرَ مجزأةُ بنُ ثورٍ الهُرْمُزانَ في ساحِها ، فَقَصَدَ قَصْدَهُ[1] ، وَسَاوَرَهُ[2] بالسَّيْفِ ، فما لَبِثَ أنْ ابتَلَعَهُ مـوجُ المتقاتِلينَ وأخفاه عن ناظِرَيْه . ثم إنَّه بَدا له مَرَّةً أخْرَىٰ فـانْدَفَـعَ نحوه وحَمَـلَ عليه . .

وتصَاوَلَ[3] مَجْزَأةُ والهُرْمُزانُ بِسَيْفَيْهِما فَضَرَبَ كلٌّ منهما صـاحِبَهُ ضـربةً قاضِيَةً ، فَنَبَا[4] سيفُ مجزأةَ ، وأصابَ سيفُ الهرمزان . . . فخَرَّ البطلُ الكميُّ الباسِلُ صريعاً علىٰ أرضِ المعركة ، وعينُهُ قريرةٌ بما حَقَّقَ اللّهُ علىٰ يديه .

---

(١) قصد قصده : اتجه نحوه .

(٢) ساوره بالسيف : وثب عليه بالسيف .

(٣) تصاول الرجلان : وثب كل منهما على صاحبه .

(٤) نبا السيف : ارتد ولم يقطع .

وواصَلَ جُنْدُ المسلمين القتالَ ، حتَّىٰ كتبَ اللّٰهُ لهم النصرَ ، وَوَقَعَ الهُرْمُزانُ في أيديهم أسيراً .

* * *

اِنطلقَ المبشِّرون إلىٰ المدينَةِ يَزُفُّونَ إلىٰ الفاروقِ بَشَائِرَ ٱلْفَتْحِ .

ويسوقون أمامهم الهُرْمُزانَ وعلى رَأْسِه تَاجُهُ المُرَصَّعُ بالجوهرِ وعلىٰ كتفيه حُلَّتُهُ المُوَشَّاةُ بخيوطِ الذهب ليراه الخليفة .

وكان المُبَشِّرُونَ يحملون مع ذلك تعزيةً حارَّةً للخليفةِ بفارِسه الباسِلِ مُجْزَأَةَ بنِ ثَوْرٍ(*) .

(*) للاستزادة من أخبار مجزأة بن ثور انظر :

١ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري : ٢١٦/٤ في حوادث السنة السابعة عشرة .

٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط : ١١٧/١ .

٣ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٣٠/٢ .

٤ ـ معجم البلدان لياقوت مادة : تستر .

٥ ـ الإصابة : الترجمة ، ٧٧٣ .

٦ ـ أسد الغابة : ٣٠/٤ .

أُسَيدُ بنُ الحُضير

(تلك الملائكة كانت

تستمع إليك يا أسيد. . .)

[محمد رسول اللّه]

قَدِمَ الفَتَى المَكِّيُّ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ إلَىٰ يَثْرِبَ[1] ، في أَوَّلِ بَعْثَةٍ تَبْشِيرِيَّةٍ عَرَفَهَا تاريخُ الإسلام.

فَنَزَلَ على أسعدَ بنِ زُرارَةَ أَحَدِ أشرافِ الخَزْرَجِ[2] ، واتَّخَذَ مِنْ دارِه مَقاماً لنفسهِ ، ومُنْطَلَقاً لِبَثِّ دَعْوَتِهِ إلى اللّهِ ، والتَّبْشِيرِ بِنَبيِّه محمدٍ رسولِ اللّهِ.

وأخذ أبناءُ يَثْرِبَ يُقبِلون على مجالِسِ الدَّاعِيَةِ الشابِّ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ إقبالاً كبيراً.

وكان يُغْرِيهِمْ[3] به عُذوبَةُ حديثِهِ ، ووُضوحُ حُجَّتِهِ ، ورِقَّةُ شَمائِلِه[4] ، ووَضاءَةُ الإيمانِ التي تُشرِقُ من وَجْهِه القَسِيم الوَسِيم[5] .

وكان يجذِبُهم إليه شيءٌ آخَرُ فوقَ ذلك كلِّه ، هو هذا القرآنُ الذي كان يَتْلو عليهم بَيْنَ ٱلْفَيْنَةِ وَٱلْفَيْنَةِ[6] بَعْضاً من آياتِه البَيِّناتِ ، بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ الرَّخيم ،

---

(١) يثرب : المدينة المنورة .

(٢) الخزرج : قبيلة عربية يمانية ارتحلت وأختها الأوس إلى الحجاز بعد خراب سَدِّ مأرب واستوطنت المدينة .

(٣) يغريهم به : يولعهم به .

(٤) رقة شمائله : رقة طباعه .

(٥) القسيم الوسيم : الجميل الحسن .

(٦) بين الفينة والفينة : بين الحين والحين .

ونَبَرَاتِه الحُلْوَةِ الآسِرَةِ ، فَيَسْتَلينُ به القلوبَ القاسِيَةَ ، وَيَسْتَدِرُّ الدُّموعَ العاصِيَةَ ، فلا يَنْفَضُّ[1] المجلسُ مِنْ مجالِسِه إلَّا عن أُناسٍ أَسْلموا وانْضَمُّوا إلىٰ كتائِبِ الإيمانِ .

* * *

وفي ذاتِ يومٍ ، خَرَجَ أسعدُ بنُ زُرارَةَ بضيفِه الداعِيَةِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ، لِيَلْقَىٰ جماعةً من بَني عبدِ الأَشْهَلِ ، ويَعْرِضَ عليهم الإِسْلامَ ، فدخلا بُسْتاناً من بساتين بني عبدِ الأَشْهَلِ ، وجَلَسا عِنْدَ بِئْرِها العَذْبَةِ في ظِلالِ النخيلِ .

فاجْتَمَعَ على مُصْعَبٍ جماعةٌ قد أَسْلموا وآخَرون يريـدون أنْ يَسْمعوا ، فانطلقَ يدعو ويُبَشِّرُ ، والناسُ إليه مُنْصِتُونَ ، وَبرَوْعَةِ حديثِهِ مَأْخوذون .

* * *

فجاءَ مَنْ أَخْبَرَ أُسَيْدَ بنَ الحُضَيْرِ وسَعْدَ بنَ معاذٍ ـ وكانا سَيِّدَي الأوسِ[2] ـ بأنَّ الداعِيَةَ المكيَّ قد نَزَلَ قريباً من ديارِهما ، وأنَّ الـذي جَرَّأَهُ على ذلك أسعدُ ابنُ زُرارَةَ .

فقال سعدُ بنُ معاذٍ لأُسَيْدِ بنِ الحُضَيْرِ :

لا أبا لك يا أُسَيْدُ[3] ، اِنْطَلِقْ إلىٰ هذا الفَتَى المكي الذي جاءَ إلىٰ بيوتنا لِيُغْرِيَ[4] ضُعَفَاءَنا ، وَيُسَفِّهَ آلِهَتنا ، وازْجُرْهُ[5] ، وحَذِّرْهُ مِنْ أَنْ يَطَأَ دِيارَنا بعد اليومِ .

ثم أَرْدَفَ يقول : ولولا أنَّهُ في ضِيَافَةِ ابن خالتي أسعدَ بن زُرارَةَ ، وأنَّه

---

(١) ينفض المجلس : يتفرق المجلس .

(٢) الأوس قبيلة يمانية ارتحلت هي وأختها « الخزرج » إلى المدينة واستقرت فيها .

(٣) لا أبا لك : كلمة تقال في الذم والمدح ، والمراد بها هنا المدح .

(٤) ليغري ضعفاءنا : ليحض ضعفاءنا على الإسلام ويزينه لهم .

(٥) ازجره : امنعه .

يَمْشي في حِمَايتِه لكفيتُك ذلك.

* * *

أخذَ أُسَيْدٌ حَرْبَتَهُ ، ومَضَى نَحْوَ ٱلْبُسْتان ، فلمَّا رآهُ أسعدُ بـنُ زُرارَةَ مُقْبلاً قالَ لمُصْعَبٍ :

وَيْحَكَ يا مُصْعَبُ ، هذا سَيِّدُ قومِه ، وأرْجَحُهُمْ عقلاً ، وأَكْمَلُهُمْ كمالاً : أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْر.

فَـإنْ يُسْلِمْ تَبعَهُ في إسْـلامِهِ خَلْقٌ كثيـرٌ ، فـاصْـدُق اللّهَ فيـه ، وأَحْسِنِ التَّأَتِّيَ له[1] .

* * *

وقَفَ أُسيدُ بنُ الحُضَيْرِ على الْجَمْـع ، وٱلْتَفتَ إلىٰ مُصْعَبٍ وصاحِبِـه ، وقال :

ما جاء بكما إلى ديارِنا ، وأغْراكما بضُعَفَائِنا ؟! اِعْتَزِلا هذا الحَيَّ[2] إنْ كانَتْ لكما بنَفْسَيْكما حاجةٌ[3] .

فالْتَفتَ مُصْعَبُ إلىٰ أُسَيْدٍ بِوَجْهِهِ المُشْرِقِ بِنُورِ الإيمان ، وخاطَبَه بِلَهْجَتِهِ الصَّادِقَةِ الآسِرَة وقال له :

يا سَيِّدَ قَوْمِه ، هَلْ لَكَ في خَيْرٍ من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

قال : تجلِسُ إلينا وتَسْمَعُ مِنَّا ، فإنْ رضيتَ ما قُلْنَاهُ قَبِلْتَه ، وإنْ لم تَرْضَهُ تَحَوَّلْنَا عَنْكُم ولم نَعُدْ إليكم .

---

(١) أحسن التأتي له : أحسن عرض الأمر عليه .

(٢) اعتزلا هذا الحي : ابتعدا عنه .

(٣) إن كانت لكما بنفسيكما حاجة : كناية عن التهديد بالقتل .

فقال أُسَيْدُ : لقد أَنْصفْتَ ، وركَزَ رُمْحَهُ في الأرضِ وجلَسَ .

فأقبَلَ عليه مُصْعَبٌ يَذْكُرُ له حقيقة الإسلامِ ، ويقرأُ عليه شيئاً من آياتِ القرآن ؛ فانْبَسَطَتْ أساريرُه وأشرَقَ وجهُهُ وقال :

ما أَحْسَنَ هذا الذي تقولُ ، وما أَجَلَّ ذلك الذي تَتْلو !!!

كيف تصنعون إذا أَرَدْتُم الدخولَ في الإسلامِ ؟!

فقال له مصعبٌ :

تَغْتَسِلُ وَتُطَهِّرُ ثيابَك ، وتشهدُ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللَّه وأنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ ، وتُصَلِّي رَكْعَتَيْن .

فقام إلى البِئْرِ فَتَطَهَّرَ بمائها ، وشَهدَ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللَّه وأَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وصَلَّى رَكْعَتَيْن .

فانضمَّ في ذلك اليـومِ إلى كَتَائِبِ الإسـلامِ فارسٌ من فُـرْسانِ العَـرَبِ المَرْمُوقين(١) ، وسيِّدٌ من ساداتِ الأوْسِ المَعْدودين .

كان يُلَقِّبُهُ قَوْمُه بالكَامِلِ ، لِرَجاحةِ عقلِه ، ونبالَةِ أَصْلِهِ ، ولأنَّه مَلَكَ السَّيْفَ والقَلَمَ ، إذْ كان بالإضافةِ إلى فُروسِيَّتِهِ ودِقَّةِ رَمْيِهِ ، قارِئاً كاتباً في مجتمعٍ نَدَرَ فيه مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُب .

وقد كان إسْلامُه سبباً في إسْلامِ سَعْدِ بنِ معاذٍ .

وكان إسلامُهما معاً سبباً في أَنْ تُسْلِمَ جُمُوعٌ غَفيرَةٌ(٢) من الأَوْس .

وأَنْ تُصبحَ المدينةُ بَعْدَ ذلك مُهاجَراً(٣) لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ومَوْئِلاً(٤) وقاعِدَةً لِدَوْلَةِ الإسْلامِ العُظْمَى .

* * *

---

(١) المرموقين : الذين ينظر الناس إليهم إعجاباً بهم .
(٢) غفيرة : كثيرة وفيرة .
(٣) مهاجراً لرسول اللَّه : مكاناً لهجرته .
(٤) موئلًا : ملاذاً وملجأ .

أُولِعَ[1] أسيدُ بنُ الحُضَيْرِ بالقرآنِ ـ مُنْذُ سَمِعَهُ من مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ـ وَلَعَ المُحِبِّ بحبيبه ، وأَقْبَلَ عليه إقبالَ الظامِىءِ على المَوْرِدِ آلْعَذْبِ في اليوم القائِظِ ، وجَعَلَه شُغْلَهُ الشَّاغِلَ.

فكان لا يُرَى إلَّا مُجاهِداً غازِياً في سبيل اللَّه ، أو عاكِفاً يَتْلُو كتابَ اللَّهِ.

وكان رخيمَ الصوتِ ، مُبينَ النُّطقِ ، مُشْرِقَ الأَداءِ ، تَطيبُ له قِراءَةُ القُرْآنِ أَكْثَرَ مَا تَطيبُ إذا سَكَنَ الليلُ ، ونامَتِ العيونُ ، وَصَفَتِ النفوسُ.

وكان الصحابَةُ الكِرامُ يَتَحَيَّنُونَ[2] أوقاتَ قراءَتِهِ ، ويتسابقون إلىٰ سَماعِ تِلاوَتِه.

فيا سَعْدَ مَنْ يُتَاحُ له أن يَسْمَعَ القرآنَ مِنْهُ رَطْباً طَرِيّاً كما أُنْزِلَ علىٰ محمدٍ.

وقدِ آسْتَعْذَبَ أَهْلُ السَّمَاءِ تِلَاوَتَهُ كما آسْتَعْذَبها أَهْلُ الأَرْضِ.

ففي جوفِ ليلةٍ من الليالي كان أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ جالِساً في مِرْبَدِهِ[3] ، وابنُه يحيى نائمٌ إلى جانِبه ، وفرسُه التي أَعَدَّها للجهادِ في سبيلِ اللَّه مُرْتَبطَةٌ غَيْرَ بَعِيدٍ عنه.

وكان الليلُ وادِعاً ساجياً[4] ، وأديمُ السماءِ رائِقاً صافِياً ، وعيونُ النجومِ تَرْمُقُ الأرضَ الهاجِعَةَ بحنانٍ وعطفٍ.

فتاقَتْ[5] نفسُ أُسَيْدِ بنِ الحُضَيْرِ لأَنْ يُعَطِّرَ هذه الأَجْوَاءَ النَّدِيَّةَ بِطُيُوبِ القرآنِ ، فانْطَلَقَ يَتْلُو بصَوْتِهِ الرَّخِيمِ الحَنُونِ :

﴿ آلم* ذٰلِكَ آلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ

---

(١) أولع بالقرآن : أحبَّه حباً شديداً وتعلَّق به.
(٢) يتحينون أوقات قراءته : يترقبون أوقات قراءته ويترصدونها.
(٣) المربد : فضاء وراء البيت.
(٤) ساجياً : ساكِناً.
(٥) تاقت نفسه : رغبت واشتاقت.

مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] .

فإذا به يَسْمَعُ فرسَهُ وقَدْ جـالَتْ[2] جَوْلَـةً كادَتْ تَقْـطَع بِسَبَبِها رِبـاطَها ، فَسَكَتَ ؛ فَسَكَنَتِ ٱلْفرَسُ وقَرَّتْ .

فعاد يَقْرَأ :

﴿ أُولئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[3] .

فجالَتِ ٱلْفَرَسُ جَوْلَةً أَشَدَّ مِنْ تِلْكَ وَأَقْوَىٰ .

فسكت . .

فسكنتْ . . .

وَكَرَّرَ ذلِكَ مِراراً ، فكان إِذا قرأ أَجْفَلَتِ[4] الفرسُ وهاجَتْ ، وإِذا سَكَتَ سَكَنَتْ وَقَرَّتْ .

فخافَ على ابْنِه يحيى أَنْ تَطَأَهُ ، فَمَضَى إِليه لِيُوقِظَهُ ، وهنا حانَتْ منه ٱلْتِفَاتَةٌ إِلىٰ السماءِ ، فَرَأَىٰ غَمامَةً كالْمَظَلَّةِ لَمْ تَرَ ٱلْعَيْنُ أَرْوَعَ ولا أَبهَىٰ منها قَطُّ وقد عُلِّقَ بها أَمْثالُ المصابيحِ ، فملأَتِ الآفاقَ ضِياءً وسناءً ، وهي تَصْعَدُ إِلىٰ الأَعْلىٰ حَتَّىٰ غابَتْ عَنْ ناظِرَيْهِ .

فلمَّا أَصْبَحَ مَضَىٰ إِلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وقَصَّ عليه خَبَرَ ما رَأَىٰ ، فقال له النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(تِلْكَ الملائكةُ كانتْ تَسْتَمِعُ لَكَ يا أُسَيْدُ . . .

ولَوْ أَنَّكَ مَضَيْتَ في قِراءَتِك لرآها الناسُ ولم تَسْتَتِر منهم)[5] .

* * *

(1) سورة البقرة : ١ ـ ٤ .

(2) جالت جَوْلة : دارَتْ دَوْرةً .

(3) سورة البقرة : ٥ .

(4) أجفلت الفرس : نفرت .

(5) ورد أصل هذا الخبر في البخاري ومسلم .

وكما أُولِعَ أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ بكتابِ اللّهِ فقد أُولِعَ برسولِ اللّهِ ﷺ ، فكان ـ كما حَدَّثَ عن نفسِه ـ أَصْفَىٰ ما يكونُ صفاءً وأَشَدَّ ما يكونُ شَفَافِيَةً وإيماناً حين يَقْرَأُ القرآنَ أَوْ يَسْمَعُه .

وحينَ يَنْظُرُ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ وهو يَخْطُبُ أو يُحَدِّثُ .

وكان كثيراً ما يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَمَسَّ جَسَدُهُ جَسَدَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وأَنْ يُكِبَّ عليه لاثِماً مُقَبِّلاً .

وقد أُتِيحَ (١) له ذلك ذاتَ مَرَّةٍ .

ففي ذاتِ يومٍ كان أسيدٌ يُطْرِفُ القومَ بِمُلَحِهِ(٢) ، فَغَمَزَهُ(٣) رسولُ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه في خاصِرَتِهِ بِيَدِه ، كأَنَّه يَسْتَحْسِنُ ما يقول .

فقال أسَيْدٌ : أَوْجَعْتَني يا رسولَ اللّهِ .

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (اقْتَصَّ مِنِّي يا أسَيْدُ) .

فقال أسيدٌ : إنَّ عليكَ قميصاً ولم يَكُنْ عَلَيَّ قميصٌ حينَ غَمَزْتَني .

فَرَفَعَ رسولُ اللّهِ ﷺ قميصَه عن جَسَدِه ، فاحْتَضَنَهُ أَسَيْدٌ وَجعَلَ يُقَبِّلُ ما بَيْنَ إِبْطِهِ وخَاصِرَتِهِ وهو يقول :

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللّهِ ، إنها لَبُغْيَةٌ كنتُ أتمنَّاها مُنْذُ عرفتُك ، وقد بَلَغْتُها الآن .

* * *

(١) أتيح له : يُسِّرَ له ومُكِّنَ منه .
(٢) بملحه : بطرائِفِه ونكته .
(٣) غمزه بيده : طعنه بها .

وقد كان الرسولُ صلواتُ اللّه عليهِ يُبَادِلُ أَسَيْداً حُبًّا بِحُبٍّ ، ويحفظُ له سابِقَتَه في الإسلامِ وَذَوْدَهُ[1] عَنْه يومَ أُحُدٍ حتَّىٰ إنه طُعِنَ سَبْعَ طعناتٍ مُميتاتٍ في ذلك اليومِ .

وكان يعرفُ له قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ في قَوْمِهِ ، فإذا شَفِعَ في أَحدٍ مِنْهُمْ شَفَّعَهُ فيه .

حَدَّثَ أسَيْدٌ قال : جئتُ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ فذكرتُ له أهلَ بيتٍ من الأنْصارِ فيهم مَحاوِيجُ[2] ، وَجُلُّ أَهْلِ ذلك البيت نِسْوَةٌ ، فقال عليه الصَّلاةُ والسلامُ :

(لقدْ جِئْتَنا يا أَسَيْدُ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقْنا مَا بِأَيدِينا ، فإذا سمعتَ بشيءٍ قد جاءَنا فاذْكُرْ لنا أهلَ ذلك البيتِ) .

فجاءَه بَعْدَ ذلك مالٌ من خَيْبَرَ فقسَمَهُ بين المسلمين فأَعْطَىٰ الأنصارَ وأَجْزَلَ[3] ، وأَعْطَىٰ أهلَ ذلك البيتِ وأَجْزَلَ . فقلتُ له :

جزاكَ اللّهُ عَنْهُم - يا نبيَّ اللّهِ - خيراً .

فقال : (وأَنتم مَعْشَرَ الأنْصارِ جزاكُمُ اللّهُ أطيَبَ الجزاءِ ، فإنَّكم - ما عَلِمْتُ[4] - أَعِفَّةٌ صُبُرٌ ، وإنَّكم سَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً بَعْدِي[5] ، فاصْبِروا حتَّىٰ تَلْقَوْني ، ومَوْعِدُكم الحَوْضُ)[6] .

قال أسَيْد : فلمَّا آلت الخِلاَفَةُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللّهُ عنه قَسَمَ بين المسلمين مالاً ومَتَاعاً ، فَبَعَثَ إليَّ بحُلَّة فاسْتَصْغَرْتُها . . .

فَبَيْنَا أنا في المَسْجِدِ إذْ مرَّ بي شابٌّ من قُريشٍ عليه حُلَّةٌ سابِغَةٌ[7] من تلك

---

(١) ذوده عنه : دفاعه عنه .

(٢) مَحاوِيجُ : فقراءُ محتاجون .

(٣) أجزل : أكثَرَ .

(٤) ما علمت : طول مدة معرفتي إياكم .

(٥) إنكم ستلقون أثرة بعدي : أي إنَّ الناس سيستأثرون بالخير من دونكم .

(٦) انظر أصل الخبر في البخاري ومسلم .

(٧) حلة سابغة : حلة طويلة واسعة .

الحُلَلِ التي أَرْسَلَهَا إِلَيَّ عمرُ ، وهو يجرُّها علىٰ الأرضِ جَرًّا ؛ فـذكرتُ لِمَنْ معيَ قولَ رسولِ اللّهِ ﷺ :

(إِنَّكم سَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً من بعدي) ، وقلت : صَدَقَ رسولُ اللّهِ ﷺ .

فانْطَلَقَ رجلٌ إِلىٰ عمرَ وأَخْبَرَهُ بما قُلْتُ ، فجاءني مُسْرِعاً وأنا أُصَلِّي فقال : صَلِّ يا أُسَيْدُ .

فلمَّا قَضَيْتُ صلاتي أقبلَ عليَّ وقال :

ماذا قلت ؟

فأخبَرْتُه بِما رَأَيْتُ وَبِما قُلْتُ .

فقال : عفا اللّهُ عَنْكَ ، تِلْكَ حُلَّةٌ بَعَثْتُ بها إِلىٰ فلانٍ ، وهو أنْصارِيٌّ عَقَبيٌّ بَدْرِيٌّ أُحُدِيٌّ[1] ، فشراها منه هذا الفَتَىٰ القُرَشِيُّ ولَبِسَها .

أَفَتَظُنُّ أَنَّ هذا الذي أخبرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ يكونُ في زماني ؟!!

فقـال أُسَيْدُ : واللّه يـا أميرَ المؤمنين لقـد ظننتُ أنَّ ذلـك لا يكـونُ في زمانِك .

* * *

لم يَعِشْ أسيدُ بنُ الحضيرِ بَعْدَ ذلك طويلاً ، فقد اختارَه اللّهُ إِلىٰ جِوارِه في عَهْدِ عمرَ رضي اللّهُ عنه وعَنْ عُمَرَ .

فوُجِدَ أَنَّ عليه دَيْناً مقدارُهُ أربعةُ آلافِ دِرْهِمٍ ، فَهَمَّ وَرَثَتُهُ بِبَيْعِ أرضٍ له لِوَفاءِ دُيونِه .

فلما عَرَفَ عمرُ ذلك قال : لا أَتْرُكُ بني أخي أَسَيْدٍ عالَةً على النَّاسِ . . .

---

(١) عقبي : نسبة إلى العقبة حيث بايع الأنصار الرسول ﷺ تلك البيعةَ المشهورة ، وبدري : نسبة إلى موقعة بدر ، وأُحدي : نسبـة إلى موقعـه أُحد .

ثمَّ كَلَّمَ ٱلْغُرَماءَ[1] فَرَضُوا بأن يشتروا منه ثَمَرَ الأرضِ أَرْبَعَ سنين ، كلُّ سنةٍ بألْف(*) .

---

(1) الغرماء : الدائنون .

(*) للاستزادة من أخبار أُسيد بن الحضير انظر :

1 ـ البخاري ومسلم (باب فضائل الصحابة) .

2 ـ جامع الأصول : ٣٧٨/٩ .

3 ـ طبقات ابن سعد : ٦٠٣/٣ .

4 ـ تهذيب التهذيب : ٣٤٧/١ .

5 ـ أسد الغابة : ٩٢/١ .

6 ـ حياة الصحابة : (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

7 ـ الأعلام ومراجعه .

عبد الله بن عباس

« إنَّه فَتى الكُهول ، له لسَانٌ سَؤولٌ ، وقَلبٌ عَقولٌ » .

[عمرُ بن الخطّاب]

هٰذا الصحابيُّ الجليلُ مَلَكَ المَجْدَ مِنْ أَطْرَافِه ، فما فاتَهُ مِنْه شيءٌ :

فقد اجتَمَعَ له مَجْدُ الصُّحْبَةِ ، ولو تأَخَّرَ ميلادُه قليلاً لَمَا شَرُفَ بِصُحْبَةِ رسولِ اللّهِ .

ومجدُ القرابَةِ ، فهو ابنُ عَمِّ نَبيِّ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه .

ومجدُ العلم ، فهو حَبْرُ[1] أمَّةِ محمدٍ وبَحْرُ عِلْمِها الزَّاخِرُ .

ومجدُ التُّقَىٰ ، فقد كان صَوَّاماً بالنَّهَارِ قَوَّاماً بالليلِ ، مُسْتَغْفِراً بالأَسْحار ، بَكَّاءً من خَشْيَةِ اللّهِ حتَّىٰ خَدَّدَ الدَّمْعُ خدَّيْه[2] .

إنَّـهُ عبدُ اللّهِ بنُ عَبَّـاسٍ رَبَّانيُّ أمَّـةِ محمدٍ[3] ، وأعلَمُهـا بكتابِ اللّهِ ، وأفقَهُها بِتأْويلِه ، وأقدرُها علىٰ النُّفُوذِ إلىٰ أَغْوَارِه ، وإدْراكِ مَرَامِيهِ وَأَسْرَارِه .

* * *

وُلِدَ ابنُ عباسٍ قبلَ الهِجْرَةِ بثلاثِ سنواتٍ ، ولما تُوُفِّيَ الرسولُ ، صلواتُ

(١) الحبر : العالم الصالح .
(٢) خدد الدمع خديه : حفر الدمع خديه .
(٣) الرباني : العالم العارف باللّه .

اللّهِ وسلامُه عليه ، كان له ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً فَقَط .

ومع ذلك فقد حَفِظَ للمسلمين عن نَبِيِّهم ألفاً وستِّمِائةٍ وستينَ حديثاً أَثْبَتَها البخاريُّ ومسلمٌ في صَحِيحَيْهِما .

* * *

ولما وَضَعَتْهُ أمُّهُ حَمَلَتْهُ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ ؛ فَحَنَّكَهُ[1] بريقِهِ ، فكانَ أوَّلَ ما دَخَلَ جَوْفَهُ ريقُ النبيِّ المبارَكُ الطَّاهِرُ ، ودخلتْ مَعَهُ التَّقْوىٰ وَالحِكْمَةُ ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ .

* * *

وما إن حُلَّتْ عَنِ الغُلامِ الهاشِمِيِّ تَمائِمُهُ ، وَدَخَلَ سِنَّ التَّمْييزِ[2] حتَّىٰ لازَمَ رسولَ اللّهِ ﷺ مُلازَمَةَ العينِ لِأُخْتِهَا ، فكان يُعِدُّ له ماءَ وُضوئِه إذا هَمَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ .

وَيُصَلِّي خَلْفَهُ إِذَا وَقَفَ للصَّلاةِ .

ويكونُ رَدِيفَهُ[3] إذا عَزَمَ على السَّفَر .

حتى غدا له كَظِلِّهِ يسيرُ مَعَهُ أَنَّىٰ سار ، ويَدورُ في فَلَكِهِ كَيْفَمَا دار .

وهو في كلِّ ذلك يحمِلُ بين جَنْبَيْهِ قلباً واعِياً ، وذِهْناً صَافِياً ، وحافِظَةً دُونَها كلُّ آلاتِ التَّسْجِيلِ التي عَرَفَهَا العَصْرُ الحديث .

* * *

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قال : هَمَّ رسولُ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه بالوُضوءِ ذات مَرَّةٍ ؛ فما أَسْرَعَ أَنْ أَعْدَدْتُ له الماءَ ، فَسُرَّ بِما صَنَعْتُ . .

---

(1) حنكه : دلّك حلقه بريقه قبل أن يرضع .

(2) سن التمييز : هو سن السابعة ، وقيل غير ذلك .

(3) رديف الرجل : من يركب خلفه .

ولما هَمَّ بالصلاةِ أشارَ إِليَّ : أَنْ أَقِفَ بِإِزَائِه(١) ، فوقفتُ خَلْفَه .
فلمَّا انْتَهَتِ الصلاةُ مالَ عليٌّ وقال :
(ما مَنَعَك أَنْ تكونَ بإزائي يا عبدَ اللَّهِ ؟!)
فقلت : أنتَ أَجَلُّ في عَيْنِي وَأَعَزُّ من أَنْ أُوَازِيَكَ يا رسولَ اللَّهِ .
فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلىٰ السماءِ وقال : (اللَّهُمَّ آتِهِ الحِكْمَةَ) .

وقد استجابَ اللَّهُ دعوةَ نَبِيِّهِ عليه الصَّلاةُ والسلامُ فآتىٰ الغلامَ الهاشِمِيَّ من الحِكمةِ ما فاقَ به أَسَاطِينَ(٢) الحُكَماءِ .

ولا ريبَ في أَنَّـكَ تَوَدُّ أَنْ تَقِفَ على صـورةٍ من صُوَرِ حكمـةِ عبـدِ اللَّهِ ابن عباسٍ .

فإِلَيكَ(٣) هذا الموقِفَ ، ففيه بعضٌ مِمَّا تُريد :

***

- لمَّا اعْتَزَلَ(٤) بعضُ أَصْحَابِ عليٍّ وخَذَلوه في نِزاعِه مَعَ مُعاوِيَة رضي اللّه عنهما ، قال عبدُ اللّهِ بنُ عَبَّاسٍ لعليٍّ رَضِيَ اللّهُ عنه :
اِئْذَنْ لي ، يا أميرَ المؤمنين ، أَنْ آتِيَ ٱلْقَوْمَ وَأُكَلِّمَهُمْ .
فقال : إِني أَتَخَوَّفُ عليك منهم .
فقال : كلا إِن شاء اللّه .
ثم دَخَلَ عليهم فلم يَرَ قَوْماً قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهاداً(٥) منهم في العِبَادَة .
فقالوا : مرحباً بك يا بنَ عباسٍ . . . ما جاء بك ؟!
فقال : جئتُ أحدِّثُكم .

---

(١) بإزائه : بجانبه .
(٢) أساطين الحكماء : أكابر الحكماء والمتفردون منهم .
(٣) إليك : خُذْ .
(٤) اعتزل بعضُ أصحاب علي : تخلوا عن علي وتركوه .
(٥) اجتهاداً في العبادة : إكثاراً من العبادة وعكوفاً عليها .

فقال بعضُهم : لا تحدِّثوه .
وقال بعضُهم : قُلْ نَسْمَعْ مِنْكَ .
فقال : أخبِرُوني مـا تَنْقِمُونَ[1] علَىٰ ابنِ عَمِّ رسـولِ اللّهِ وزَوْجِ ابْنَتِه ، وأوَّلِ مَنْ آمنَ به ؟!

قالوا : نَنْقِمُ عليه ثلاثةَ أمور .

قال : وما هي ؟!
قالوا : أوَّلُها : أنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ في دِينِ اللَّهِ[2] . . .
وثانيها : أنَّهُ قاتَلَ عائِشَةَ ومُعاوِيَةَ ولم يأْخُذْ غنائِمَ ولا سَبَايا . . .
وثـالثها : أنـهُ مَحَا عن نَفْسِـهِ لَقَبَ أميرِ المؤمنين مَـعَ أنَّ المسلمين قـد بايعوه وأمَّروه .

فقـال : أرأيتم إنْ أَسْمَعْتُكم من كتـابِ اللَّهِ ، وحَـدَّثْتُكم من حـديثِ رسولِ اللَّهِ ما لا تُنْكِرُونَه ، أَفَتَرْجِعُونَ عَمَّا أَنْتُمْ فيه ؟

قالوا : نعم .
قال : أمَّا قَوْلُكم : إنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ في دينِ اللَّهِ ، فاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَىٰ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُـرُمٌ ومَـنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[3] .

أَنْشُدُكُم اللَّهَ[4] ، أَفَحُكْمُ الرِّجَالِ في حَقْنِ دِمَائِهِمْ[5] وَأَنْفُسِهِمْ ، وَصَلَاحِ

---

(1) ما تنقمون على ابن عم رسول اللّه : ما تأخذون عليه وما تنكرون من فعله .
(2) يشيرون بذلك إلى قبول علي بأن يحكم بينه وبين معاوية كلٌّ من أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص .
(3) سورة المائدة : ٩٥ .
(4) أنشدكم اللّه : أستحلفكم باللّه .
(5) حقن دمائهم : صون دمائهم .

ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ أَمْ حُكْمُهُم في أَرْنَبٍ ثَمَنُهَا رُبْعُ دِرْهَمٍ ؟!

فقالوا : بَلْ في حَقْنِ دِمَاءِ المسلمين وصلاحِ ذاتِ بَيْنِهم .

فقال : أَخَرَجْنَا[1] من هذه ؟

قالوا : اللَّهُمَّ نعم .

قال : وأمَّا قَوْلُكُمْ : إنَّ علياً قاتَلَ ولم يَسْبِ[2] كما سَبَىٰ رسولُ اللَّهِ .

أَفَكُنْتُمْ تريدون أَنْ تَسْبُوا أُمَّكُمْ عائِشَةَ وتَسْتَحِلُّونَها كما تُسْتَحَلُّ السَّبَايَا ؟!

فإِنْ قلتُم : نعم ؛ فقد كَفَرْتم .

وإِنْ قلتم : إنَّها لَيْسَتْ بِأُمِّكم كَفَرْتُم أيْضاً ؛ فاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول :

﴿ النَّبيُّ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهاتُهُمْ ﴾[3] .

فاخْتَاروا لأَنْفُسِكُمْ ما شِئْتُمْ .

ثم قال : أَخَرَجْنَا من هذه أيضاً ؟

قالوا : اللَّهُمَّ نعم .

قال : وأما قَوْلُكُمْ : إنَّ عَلِيًّا قَدْ مَحَا عنْ نَفْسِهِ لَقَبَ إِمْرَةِ المؤمنين ، فإِنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ حينَ طَلَبَ من المشركِينَ يومَ الحُدَيْبِيةِ أنْ يَكتبُوا في الصُّلْحِ الذي عَقَدَهُ معهم « هذا ما قَاضَىٰ عليه محمدٌ رسولُ اللَّهِ » قالوا : لو كنا نُؤْمِنُ أَنَّكَ رسولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عن البَيْتِ ولا قاتَلْناك ، ولكِنِ اكْتُبْ : « محمدُ بنُ عبدِ اللَّه » ، فَنَزَلَ عِنْدَ طَلَبِهِمْ وهو يقول :

(واللَّهِ إنِّي لَرَسولُ اللَّهِ وإنْ كَذَّبْتُمُوني) .

فهل خَرَجْنَا من هذه ؟

---

(١) أخرَجْنا من هذه ؟ : هل انْتَهَيْنا من هذه ؟

(٢) لم يسب : لم يأخذ سبايا ، والسبايا : النساء اللواتي يؤسرن في الحرب .

(٣) الأحزاب : ٦ .

فقالوا : اللَّهُمَّ نعم .

وكان من ثَمَرَةِ هذا اللقاءِ ، وما أظهره فيه عبدُ اللَّهِ بنُ عباسٍ من حِكْمَةٍ بالِغَةٍ وَحُجَّةٍ دامِغَةٍ أَنْ عادَ مِنْهُمْ عشرون ألفاً إلى صُفُوفِ عَليٍّ ، وَأَصَرَّ أربعةُ آلافٍ علَىٰ خُصُومَتِهِمْ له عِناداً وإعراضاً عن الحَقِّ .

* * *

وقد سَلَكَ الفَتَىٰ عبدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ إِلىٰ آلْعِلْمِ كُلَّ سبيلٍ ، وبَذَلَ من أجلِ تَحْصيلِهِ كُلَّ جُهْدٍ .

فقد ظَلَّ يَنْهَلُ[1] من مَعِينِ[2] رسولِ اللَّهِ ﷺ ما امتدَّتْ به الحياةُ ، فلمَّا لَحِقَ الرسولُ الكريمُ بِجِوَارِ ربِّهِ اتَّجَهَ إِلىٰ البَقِيَّةِ الباقيةِ من عُلَماءِ الصحابةِ وطَفِقَ يأْخُذُ مِنهم وَيَتَلَقَّىٰ عَنْهُم .

حَدَّثَ عن نفسِه قال : كان إذا بَلَغَني الحديثُ عِنْدَ رَجُلٍ من صَحابَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، أَتَيْتُ بابَ بَيْتِهِ في وقتِ قَيْلُولَتِهِ[3] وتَوَسَّدْتُ رِدَائِي عِنْدَ عَتَبَةِ دارِه ، فَيَسفي عَلَيَّ الرِّيحُ من التُّرابِ ما يَسْفي ، ولو شِئْتُ أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ لأَذِنَ لي .

وإنَّما كنتُ أَفْعَلُ ذلك لأُطَيِّبَ نَفْسَه .

فإذا خَرَجَ من بيتِه رآني علَىٰ هذه الحالِ ، وقال :

يا بنَ عَمِّ رسولِ اللَّهِ ، ما جاءَ بك ؟!

هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فآتِيَك ؟

فأقولُ : أنا أَحَقُّ بالمجيءِ إليك ، فالعِلْمُ يُؤْتَىٰ ولا يَأْتِي ، ثم أَسْأَلُه عن الحديثِ .

* * *

---

(١) ينهل : يشرب .

(٢) المعين : الماء الجاري .

(٣) قيلولته : وقت نومه في منتصف النهار .

وكمـا كان ابنُ عبـاسٍ يُذِلُّ نَفْسَـهُ في طَلَبِ ٱلْعِلْمِ فقد كـان يُعْلِي من قَدْرِ العلماءِ .

فها هُوذا زَيْدُ بنُ ثابتٍ كاتِبُ ٱلْوَحْيِ وَرَأْسُ أَهْـلِ المدينَـةِ في ٱلْقَضاءِ وَٱلْفِقْهِ وَٱلْقِرَاءَةِ وَٱلْفَرائِضِ[1] يَهِمُّ بِرُكُوبِ دَابَّتِهِ فَيَقِفُ ٱلْفَتَىٰ الهاشِمِيُّ عبدُ اللَّه بنُ عبـاسٍ بينَ يَدَيْـهِ وِقْفَةَ ٱلْعَبْدِ بين يَدَيْ مَـوْلاه ، ويُمْسِكُ لـه رِكَابَـهُ ، ويأْخـذُ بِزِمَامِ دَابَّتِهِ .

فقال له زيدٌ : دَعْ عَنْكَ يا بن عَمِّ رسولِ اللَّهِ .
فقال ابنُ عباسٍ : هكذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بعلمائنا .
فقال له زيدٌ : أَرِنِي يَدَكَ .
فأَخْرَجَ له ابنُ عباسٍ يَدَهُ ، فمالَ عليها وقَبَّلَهَا وقال :
هكذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا .

* * *

وقـد دَأَبَ ابـنُ عبـاسٍ عَـلَىٰ طَلَبِ ٱلـعِلْمِ حَـتَّىٰ بَـلَغَ فيـه مَـبْلَغـاً أَدْهَشَ الفُحولَ .

فقال فيه مَسْرُوقُ بنُ الأَجْدَعِ أَحَدُ كِبَارِ التابعين :
كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عَبَّاسٍ قلتُ : أَجْمَلُ النَّاس .
فإذا نَطَقَ قُلْتُ : أَفْصَحُ النَّاس .
فإذا تَحَدَّثَ قلتُ : أَعْلَمُ النَّاس .

* * *

ولـما اكْتَمَلَ لابنِ عَبَّـاسٍ مـا طَمَـحَ إِلَيْـهِ مِنْ ٱلْعِلْمِ تَحـوَّلَ إِلىٰ مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُ النَّاسَ .

---

(١) الفرائض : علم قسمة التركة على مستحقيها .

فأصبَحَ بيتُه جامِعَةً للمسلمين . . .

نَعَمْ أَصْبَحَ جامِعَةً بكُلِّ ما تَعْنِيهِ هذه الكلمةُ في عَصْرِنا الحديثِ .

وكُلُّ ما بين جامِعَةِ ابنِ عباسٍ وجامِعَاتِنَا مِنْ فَرْقٍ ، هو أَنَّ جامعاتِ اليوم يُحْشَدُ فيها عشراتُ الأساتِذَةِ ، وأحياناً المِئاتُ . . .

أَمَّا جامعةُ ابنِ عبَّاس فقد قامت على أَكْتَافِ أستاذٍ واحدٍ ، هو ابنُ عَبَّاسٍ نَفْسُه .

رَوَىٰ أَحَدُ أَصْحَابِه قال : لقد رأيتُ من ابنِ عَبَّاسٍ مَجْلِساً لو أَنَّ جميعَ قريشٍ افْتَخَرَتْ به لكان لها مَفْخَرَةً .

فلقد رأيتُ الناسَ اجْتَمَعُوا في الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إلىٰ بَيْتِهِ حتَّىٰ ضاقَتْ بهم ، وسَدُّوها في وُجوهِ النَّاسِ ، فَدَخَلْتُ عليه وَأَخْبَرْتُهُ بِاحْتِشَادِ النَّاسِ على بابِه ، فقال : ضَعْ لي وَضُوءاً[1] .

فَتَوَضَّأَ وَجَلَسَ ، وقال :

اخْرُجْ وقُلْ لهم : مَنْ كان يُريدُ أَنْ يَسأَلَ عنِ القرآنِ وحروفِهِ فَلْيَدْخُلْ .

فخرجتُ فقلتُ لهم ؛ فدخلوا حتَّىٰ مَلأوا البيتَ والحُجْرَةَ ، فما سألوه عن شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ به ، وزادَهم مِثْلَ ما سَألوا عنه وأَكْثَر . ثم قال لهم : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإِخْوَانِكم ، فَخَرَجوا .

ثم قال لي : اخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أرادَ أن يَسألَ عن تفسيرِ القرآن وتَأْوِيله فَلْيَدْخُلْ ، فخرجتْ فقلتُ لهم .

فدخلوا حتَّىٰ مَلأوا البيتَ والحُجْرَةَ ، فما سألوه عن شيءٍ إلَّا أَخْبَرَهُم بِهِ ، وزادَهُمْ مثلَ ما سَأَلوا عنه وأَكْثَرَ ، ثم قال لهم : أَفْسِحُوا الطَّريقَ لإخوانكم ، فخرجوا .

---

(١) الوضوء بفتح الواو : الماءُ الذي يُتوضَّأ به .

ثم قال لي : اخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أرادَ أن يَسْأَلَ عَنِ الحلالِ والحَرَامِ وٱلْفِقْهِ فَلْيَدْخُلْ . فخرجتُ فقلتُ لهم ، فدخلوا حتَّىٰ مَلأوا البيتَ والحُجْرَةَ ، فما سألوه عن شيءٍ إلَّا أخْبَرَهُمْ بِهِ وزادَهُمْ مِثْلَهُ ، ثم قال :

أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإخوانِكم ، فخرجوا .

ثم قال لي : اخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أرادَ أن يَسألَ عنِ ٱلْفَرَائِضِ وما أَشْبَهَها فَلْيَدْخُلْ . فخرجتُ فقلت لهُم ، فدخلوا حتَّىٰ مَلأوا البَيْتَ والحُجْرَةَ ، فما سَألوه عن شَيْءٍ إلَّا أخْبَرَهُمْ بِه وزادَهُمْ مِثْلَهُ ، ثم قال لهم : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال لي : اخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أرادَ أن يَسألَ عنِ ٱلْعَرَبِيَّةِ والشِّعْرِ وغريبِ كلامِ العربِ فَلْيَدْخُلْ . فدَخَلُوا حتَّىٰ مَلأوا البيتَ والحُجْرَةَ ، فما سَألوه عن شيْءٍ إلَّا أَخْبَرَهُمْ بِه ، وزَادَهُمْ مِثْلَهُ .

قال راوِي الخبرِ : فلو أَنَّ قُرَيْشاً كُلَّها فَخرَتْ بِذلِك لكان ذلِك لها فَخْراً .

* * *

وَكَأَنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه رَأَىٰ أَنْ يُوَزِّعَ العلومَ علىٰ الأَيَّامِ حَتَّىٰ لا يَحْدُثَ على بابِه مثلُ ذلك الزِّحَامِ .

فصار يجلِسُ في الأسبوعِ يوماً لا يُذْكَرُ فيهِ إلَّا التَّفْسِيرُ .

ويوماً لا يُذْكَرُ فيهِ إلَّا ٱلْفِقْهُ .

ويوماً لا تُذْكَرُ فيهِ إلَّا المَغَازِي[1] .

ويوماً لا يُذْكَرُ فيهِ إلَّا الشِّعْرُ .

ويوماً لا تُذْكَرُ فيهِ إلَّا أيَّامُ ٱلْعَرَبِ .

---

(١) المغازي : غزوات رسول الله ﷺ .

وما جلسَ إليهِ عالمٌ قطُّ إلاَّ خَضَعَ له .
وما سَأَلَهُ سائِلٌ قطُّ إلاَّ وَجَدَ عِنْدَهُ عِلْماً .

* * *

وقد غدَا ابنُ عَبَّاسٍ ، بِفَضْلِ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ ، مُسْتَشاراً للخِلافةِ الرَّاشِدَةِ على الرَّغْمِ من حَدَاثَةِ سِنِّه .

فكان إذا عَرَضَ لِعُمَرَ بنِ الخطابِ أَمْرٌ أو واجَهَتْهُ مُعْضِلَةٌ[1] دَعا جِلَّةَ[2] الصَّحابَةِ ودعَا معهم عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسٍ ، فإذا حَضَرَ رَفَعَ مَنْزِلَتَهُ وَأَدْنَى مَجْلِسَهُ وقال له :

لقد أَعْضَلَ عَلَيْنا أَمْرٌ أَنْتَ له ولأَمْثالِهِ .

وقد عُوتِبَ مَرَّةً في تَقْدِيمِهِ له وَجَعْلِهِ مَعَ الشُّيُوخِ ، وهو ما زالَ فَتىً ، فقال :

إِنَّهُ فَتَى ٱلْكُهُولِ ، له لِسَانٌ سَؤولٌ وَقَلْبٌ عَقُولٌ .

* * *

على أنَّ ابنَ عباسٍ حينَ انْصَرَفَ إلىٰ الخاصَّةِ لِيُعَلِّمَهُمْ وَيُفَقِّهَهُمْ ، لَمْ يَنْسَ حَقَّ العَامَّةِ عليه ، فكان يَعْقِدُ لهم مجالسَ ٱلْوَعْظِ والتَّذْكير .

فمن مَواعِظِهِ قولُه مخاطِباً أَصْحابَ الذُّنوبِ :

يا صَاحِبَ الذَّنْبِ لا تأْمَنْ عاقِبَةَ ذَنْبِكَ ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ما يَتْبَعُ الذَّنْبَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ نَفْسِه .

فإِنَّ عَدَمَ ٱسْتِحْيَائِكَ مِمَّنْ علَىٰ يَمِينِكَ وعلَىٰ شِمَالِكَ وَأَنْتَ تَقْتَرِفُ[3] الذَّنْبَ

---

(١) المعضلة : المشكلة الصعبة .
(٢) جلة الصحابة : شيوخ الصحابة ومتقدموهم .
(٣) تقترف الذنب : ترتكب الذنب .

لا يَقِلُّ عن الذنبِ .

وَإِنَّ ضَحِكَكَ عندَ الذنبِ وأنتَ لا تَدْرِي ما اللَّهُ صانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذنبِ .

وإنَّ فَرَحَكَ بالذنبِ إذا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الذنب .

وإنَّ حُزْنَكَ علَىٰ الذنبِ إذا فاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذنب .

وإنَّ خَوْفَكَ مِنَ الرِّيحِ إذا حَرَّكَتْ سِتْرَكَ ، وأنتَ تَرْتَكِبُ الذنبَ مع كَوْنِكَ لا يَضْطَرِبُ فؤادُكَ من نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذنب .

يا صاحِبَ الذنب : أَتَدْرِي ما كان ذنبُ أيوبَ عليه السلامُ حين ابتلاه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَسَدِهِ ومَالِه ؟

إِنَّما كان ذَنْبُهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ به مِسْكِينٌ لِيَدْفَعَ عنه الظُّلْمَ فلم يُعِنْهُ .

* * *

ولم يَكُنِ ٱبنُ عَبَّاسٍ من الذين يقولون ما لا يَفْعَلُون ، ويَنْهَوْنَ الناسَ ولا يَنْتَهُون ، وإِنَّما كان صَوَّامَ نَهارٍ قَوَّامَ لَيْلٍ .

أخبر عنه عبدُ اللَّهِ بنُ مليكة قال :

صَحِبْتُ ابنَ عَبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنه من مَكَّةَ إلىٰ المدينةِ ، فكُنَّا إذا نَزَلْنا مَنْزِلاً قامَ شَطْرَ اللَّيْلِ والناسُ نِيَامٌ من شِدَّةِ التَّعَبِ .

ولقد رأيتُه ذاتَ ليلةٍ يقرأ ﴿ وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[١] .

فَظَلَّ يُكَرِّرُها وَيَنْشِجُ[٢] حَتَّىٰ طَلَعَ عَلَيْهِ الفَجْرُ .

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) ينشج : يبكي بصوت عال .

وحَسْبُنَا بعد ذلك كُلِّهِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ عبدَ اللَّه بنَ عباسٍ كان من أَجْمَلِ الناسِ جَمالاً ، وأَصْبَحِهم وَجْهاً ، فما زال يَبْكِي في جَوْفِ اللَّيْلِ من خَشْيَةِ اللَّهِ حتَّىٰ أَحْدَثَ الدَّمْعُ الهَتُونُ[1] على خَدَّيْهِ الأسيلَيْن[2] مَجْرَيَيْنِ شَبَّهَهُما بَعْضُهُمْ بِشِرَاكَي النَّعْلِ[3] .

* * *

وقد بلغَ ابنُ عباسٍ من مَجدِ العلمِ غايَتَه .

ذلك أَنَّ خليفةَ المسلمين مُعاوية بنَ أَبي سفيانَ خَرَجَ ذاتَ سَنَةٍ حاجًّا .

وخَرَجَ عبدُ اللَّهِ بنُ عباسٍ حاجًّا أَيْضاً ، ولم يكنْ له صَوْلَةٌ ولا إمارة .

فكان لمعاويةَ مَوْكِبٌ من رِجالِ دولتِهِ .

وكان لعبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ مَوْكِبٌ يفوقُ مَوْكِبَ الخليفةِ من طُلَّابِ العلمِ .

* * *

عُمِّرَ ابنُ عباسٍ إحْدَىٰ وسبعين سنةً مَلأَ فيها الدُّنيا علماً وفهماً وحِكْمَةً وتُقىً .

فلما أتاه اليقينُ[4] صَلَّى عليه محمدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ[5] .

والبَقِيَّةُ البَاقِيَةُ من صَحَابَةِ رسولِ اللَّه ﷺ وجِلَّةُ التابعين .

---

(١) الدمع الهتون : الدمع المتصبب بغزارة .

(٢) خديه الأسيلين : خديه المستويين الناعمين .

(٣) شرك النعل : سير النعل .

(٤) اليقين : الموت .

(٥) محمد بن الحنيفة : هو محمد بن علي بن أبي طالب ، وقد نُسب لأمه لتمييزه من الحسن والحسين ، لأن أمهما فاطمة بنت النبي وأم محمد امرأة من بني حنيفة .

وفيما كانوا يُوَارُونَهُ تُرَابَهُ ، سمعوا قارِئاً يَقْرَأ :

﴿ يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إلىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً* فَٱدْخُلِي في عِبَادِي* وَٱدْخُلي جَنَّتي ﴾[1](*) .

---

(1) سورة الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .

(*) للاستزادة من أخبار عبد الله بن عباس انظر :

١ ـ جامع الأصول (الجزء ١٠ باب فضائل الصحابة) .

٢ ـ الإصابة : الترجمة ٤٧٨١ .

٣ ـ الاستيعاب : (على هامش الإصابة : ٢/٣٥٠) .

٤ ـ أسد الغابة : ١٩٢/٣ .

٥ ـ صفة الصفوة : ٧٤٦/١ (الطبعة الحلبية) .

٦ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

٧ ـ الأعلام ومراجعه .

النُّعمانُ بنُ مُقَرِّنٍ المُزَنيّ

«إن للإيمان بُيوتاً، وللنفاق بيوتاً ، وَإنَّ بيتَ بني مُقرّن من بيوت الإيمان» .

[عبد اللّه بن مسعود]

كانت قبيلةُ مُزَيْنَةَ تتخذُ منازِلَها قريباً من يَثْرِبَ علىٰ الطريقِ المُمْتَدَّةِ بين المدينةِ ومكَّةَ .

وكان الرسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه قد هاجرَ إلى المدينةِ ، وجَعَلَتْ أخبارُه تَصِلُ تِباعاً إلىٰ مُزَيْنَةَ معَ الغادِينَ والرائِحينَ ، فلا تَسْمَعُ عنه إلَّا خَيْراً .

وفي ذاتِ عَشِيَّةٍ ، جَلَسَ سَيِّدُ القومِ ، النعمانُ بنُ مقرِّنٍ المزنيُّ ، في ناديه مع إخْوَتِهِ ومَشْيَخَةِ قبيلتِه ، فقال لهم :

يا قوم ، واللّهِ ما عَلِمْنا عن محمدٍ إلَّا خيراً ، ولا سَمِعْنا من دَعْوَتِهِ إلَّا مَرْحَمَةً وإحْساناً وعَدْلاً ، فما بالُنا[1] نُبْطِىءُ عنه ، والناسُ إليه يُسْرِعُون ؟! ثم أَتْبَعَ يقول :

أَمَّا أنا فقد عَزَمْتُ على أَنْ أَغْدُوَ[2] عليه ، إذا أَصْبَحْتُ ، فَمَنْ شاءَ منكم أنْ يكونَ مَعي فَلْيَتَجَهَّزْ .

وكأَنَّما مَسَّتْ كلماتُ النُّعْمَانِ وَتَراً مُرْهَفاً في نفوسِ القوم ، فما إنْ طَلَعَ

---

(١) ما بالنا : كلمة تقال عند التعجب من فعل شيء أو تركه .

(٢) أغدو عليه : أذهب إليه في الغداة ، والغداة : البكرة ، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس .

الصباحُ حَتَّىٰ وَجَدَ إِخْوَتَهُ العشرةَ ، وأربَعمِائَةِ فارسٍ من فرسانِ مُزَيْنَةَ قد جَهَّزوا أَنْفُسَهُمْ لِلْمَضِيِّ مَعَه إلىٰ يَثْرِبَ لِلِقَاءِ النبيِّ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه ، والدُّخولِ في دينِ اللَّهِ .

بَيْدَ أَنَّ[1] النُّعْمانَ اسْتَحَىٰ أَنْ يَفِدَ مع هذا الجمعِ الحاشِدِ على النبيِّ ﷺ دونَ أن يَحْمِلَ له وللمسلمين شيئاً في يَدِه .

لكِنَّ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ[2] المُجْدِبَةَ التي مَرَّتْ بِها مُزَيْنَةُ لم تَتْرُكْ لها ضَرْعاً[3] وَلا زَرْعاً .

فطافَ النُّعْمانُ بِبَيْتِهِ وَبُيُوتِ إِخْوَتِهِ ، وجَمَعَ كُلَّ ما أَبْقَاهُ لهمُ القَحْطُ من غُنَيْماتٍ ، وساقَها أَمَامَهُ وقَدِمَ بها علىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأَعْلَنَ هو ومَنْ معه إسلامَهم بينَ يَدَيْه .

* * *

اهتَزَّتْ يثربُ من أَقْصَاهَا إلىٰ أقصاها فَرَحاً بالنُّعْمَانِ بنِ مُقَرِّنٍ وصَحْبِهِ ، إِذْ لم يَسْبِقْ لِبَيْتٍ مِنْ بيوتِ العربِ أَنْ أَسْلَمَ منه أَحَدَ عَشَرَ أَخاً من أبٍ واحدٍ ومَعَهُمْ أربعُمائةِ فارِسٍ .

وسُرَّ الرسولُ الكريمُ بإسلامِ النعمانِ أبلغَ السُّرورِ .

وتَقَبَّلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ غُنَيْمَاتِهِ ، وَأَنْزَلَ فيهِ قرآناً فقال :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ * وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ في رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[4].

* * *

---

(1) بيد أن : غير أن .

(2) السنة الشهباء : السنة المجدبة التي لا خضرة فيها ولا مطر .

(3) ضرعاً : الضرع كناية عن النعم .

(4) التوبة : ٩٩ .

انْضَوَى[1] النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ تحتَ رايةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وشَهِدَ معهُ غَزَواتِهِ كُلَّها غيرَ وانٍ[2] ولا مُقَصِّرٍ.

ولما آلتِ الخِلافَةُ إلى الصِّدِّيقِ وقفَ معه هو وقومُه من بني مُزَيْنَةَ وَقْفَةً حازِمَةً كان لها أَثَرٌ كبيرٌ في القَضاءِ على فِتْنَةِ الرِّدَّة.

* * *

ولما صارَتِ الخِلاَفَةُ إلىٰ الفاروقِ كان للنعمان بنِ مقرِّنٍ في عهدِه شَأْنٌ ما يَزَالُ التاريخُ يَذْكُرُهُ بلسانٍ نَدِيٍّ بِالْحَمْدِ ، رَطيبٍ بالثَّناءِ.

* * *

فقُبَيْلَ ٱلْقَادِسِيَّةِ ، أرسلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ قائدُ جيوشِ المسلمينَ وَفْداً إلىٰ كِسْرَى يَزْدَجُرْدَ بِرِئاسَةِ النُّعْمَانِ بنِ مُقَرِّنٍ لِيَدْعُوَهُ إلىٰ الإسلام.

ولما بلغوا عاصِمَةَ كِسْرَى في المدائِنِ استأذنوا بالدُّخولِ عليه فأذِنَ لهم ، ثم دعَا التَّرْجُمانَ فقال له :

سَلْهُمْ : ما الذي جاءَ بِكم إلىٰ دِيارِنا وأَغْراكُمْ[3] بِغَزْوِنَا ؟! لَعَلَّكُمْ طَمِعْتُمْ بنا واجْتَرَأْتُمْ علينا لِأَنَّنا تَشاغَلْنا عَنْكُمْ ، ولم نَشَأْ أَنْ نَبْطِشَ بكم.

فالْتَفَتَ النعمانُ بنُ مُقَرِّنٍ إلىٰ مَنْ مَعَهُ وقال :

إنْ شئتم أَجَبْتُهُ عنكم ، وإنْ شاءَ أحدُكم أَنْ يَتَكَلَّمَ آثَرْتُهُ[4] بالكلامِ ، فقالوا :

بل تَكَلَّمْ ، ثم ٱلْتَفَتُوا إلىٰ كِسْرَى وقالوا: هذا الرجلَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِنَا فَاسْتَمِعْ إلىٰ ما يقول.

---

(١) انضوى : انضم ودخل.
(٢) غير وان : غير متراخ ولا مقصر.
(٣) أغراكم بغزونا : رغبكم بغزونا وحضكم عليه.
(٤) آثرته بالكلام : فضلته وجعلته يتكلم أولاً.

فَحَمِدَ النُّعمانُ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عليه ، وصَلَّىٰ على نَبِيِّهِ وَسَلَّمَ ، ثم قال :

إنَّ اللَّهَ رَحِمَنا فأرْسَلَ إلينا رسولاً يَدُلُّنا على الخيرِ ويأمُرُنا به ، ويُعَرِّفُنا الشَّرَّ وَيَنْهَانا عنه .

ووعدَنا ـ إنْ أَجَبْناهُ إلىٰ ما دعانا إليه ـ أنْ يُعْطِيَنا اللَّهُ خَيْرَي الدنيا والآخِرة.

فما هو إلاَّ قليلٌ حتَّىٰ بَدَّلَ اللَّهُ ضِيقَنا سَعَةً ، وذِلَّتَنا عِزَّةً ، وَعداواتِنا إخاءً ومَرْحَمَةً.

وقد أَمَرَنا أنْ نَدْعُو الناسَ إلىٰ ما فيه خيرهُم وأنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يجاورنا .

فنحنُ ندعوكم إلى الدخولِ في دينِنا ، وهو دينٌ حَسَّنَ الْحَسَنَ كُلَّهُ وحَضَّ[1] عليه ، وقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ وَحَذَّرَ منه . وهوَ يَنْقُلُ مُعْتَنِقِيهِ[2] من ظلامِ الكُفرِ وجَوْرِه إلىٰ نورِ الإيمانِ وعَدْلِه .

فإنْ أَجَبْتُمُونا إلىٰ الإسلامِ خَلَّفْنا فيكم كتابَ اللَّهِ وأَقَمْنَاكُمْ عليه ، علىٰ أن تَحْكُمُوا بأحكامِه ، ورَجَعْنَا عنكم وتَرَكْنَاكُم وشأنكم.

فإنْ أَبَيْتُمُ الدخولَ في دينِ اللَّهِ أخذْنا منكم الْجِزْيَةَ وَحَمَيْنَاكم ، فإنْ أَبَيْتُمْ إعطاءَ الجِزْيةِ حارَبْناكم.

فاسْتَشَاطَ[3] يَزْدَجرْدُ غَضَباً وغَيْظاً مِمَّا سَمِعَ ، وقال :

إني لا أعلمُ أُمَّةً في الأرضِ كانت أشْقَىٰ منكم ولا أَقَلَّ عدداً ، ولا أَشَدَّ فُرْقَةً ، ولا أَسْوَأَ حالاً .

وقد كُنَّا نَكِلُ أَمْرَكم إلىٰ وُلاةِ الضَّوَاحِي فيأخذون لنا الطاعَةَ منكم.

---

(١) حض عليه : رغب فيه وحث عليه .

(٢) معتنقيه : المؤمنين به .

(٣) استشاط غضباً : اشتعل .

ثُمَّ خَفَّفَ شيئاً من حِدَّتِهِ وقال :

فإنْ كانت الحاجَةُ هي التي دَفَعَتْكُمْ إلىٰ المجيءِ إلينا أَمَرْنَا لكم بِقوتٍ إلىٰ أَنْ تُخْصِبَ دِيَارُكم ، وكَسَوْنَا سَادَتَكُمْ وَوُجوهَ قومِكم ، ومَلَّكْنَا[1] عليكم مَلِكاً من قِبَلِنَا يَرْفِقُ بكم .

فرَدَّ عليه رَجُلٌ من الوفدِ رَدًّا أَشْعَلَ نارَ غَضَبِهِ من جديدٍ فقالَ :

لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ .

قوموا فليس لكم شَيْءٌ عندي ، وأَخْبِرُوا قائِدَكم أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ « رُسْتُمَ »[2] حتَّىٰ يَدْفِنَهُ وَيَدْفِنَكُم معاً في خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ[3] .

ثم أَمَرَ فَأُتِيَ لَهُ بِحِمْلِ تُرَابٍ ، وقال لِرجالِه : حَمِّلوهُ على أَشْرَفِ هؤلاءِ ، وسوقوه أمامَكم على مرأىً من النَّاسِ حتىٰ يَخْرُجَ من أبوابِ عاصمةِ مُلْكِنَا .

فقالوا للوفد : مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟ فبادر إليهم عاصِمُ ابنُ عُمَرَ وقال : أنا .

فَحَمَّلُوهُ عليه حتى خَرَجَ مِنَ المدائِنِ ، ثم حَمَّلَهُ عَلَىٰ ناقَتِهِ وأَخَذَهُ معه لِسَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ علَىٰ المسلمين دِيَارَ ٱلْفُرْسِ وَيُمَلِّكُهُمْ تُرَابَ أرضِهم .

ثم وقعتْ معركةُ القادسيةِ ، واكْتَظَّ[4] خَنْدَقُها بِجُثَثِ آلافِ ٱلْقَتْلَىٰ ، ولكِنَّهُمْ لم يكونوا من جُنْدِ المسلمين ، وإِنَّما كانوا من جنودِ كِسْرَىٰ .

* * *

---

(١) ملكنا عليكم : ولَّينا عليكم .

(٢) رستم : قائد جيش الفرس .

(٣) القادسية : مكان في العراق غربي النجف وقعت فيه المعركة الكبرى الفاصلة التي دعيت بمعركة القادسية .

(٤) اكتظ خندقها : امتلأ خندقها .

لَمْ يَسْتَكِنِ الْفُرْسُ لِهَزِيمَةِ القَادِسِيَّةِ ، فجَمَعوا جموعَهم ، وَجَيَّشُوا جُيوشَهم حتَّىٰ اكْتَمَلَ لهم مائةٌ وخَمْسُونَ أَلْفاً من أَشِدَّاءِ المُقاتلين .

فلما وَقَفَ الفاروقُ على أخبارِ هذا الحَشْدِ العظيمِ ، عَزَمَ علَىٰ أَنْ يَمْضِيَ إلىٰ مواجهةِ هذا الخطرِ الكبيرِ بنفسِه .

ولكِنَّ وجوهَ المسلمين ثَنَوْهُ[1] عن ذلك ، وأشاروا عليه أن يُرْسِلَ قائداً يُعْتَمَدُ عليه في مِثْلِ هذا الأمرِ الجَلِيل .

فقال عمرُ : أشيروا عَلَيَّ برجلٍ لأولِّيَه ذلك الثَّغْرَ .

فقالوا : أنتَ أعلمُ بِجُنْدِكَ يا أميرَ المؤمنين .

فقال : واللَّهِ لأُوَلِّيَنَّ على جُنْدِ المسلمين رجلاً يكونُ ـ إذا ٱلْتَقَىٰ ٱلْجَمْعَانِ ـ أَسْبَقَ من الأَسِنَّةِ ، هو النُّعمانُ بنُ مُقَرِّنٍ المُزَنِيُّ .

فقالوا : هو لها .

فكتبَ إليه يقول : من عبدِ اللَّهِ عمرَ بنِ الخطابِ إلىٰ النُّعْمَانِ بنِ مُقَرِّن .

أمَّا بعد ، فإنَّه بَلَغَني أَنَّ جموعاً من الأعاجم كثيرَةً قد جَمَعوا لكُمْ بمدينةِ « نَهاوَنْد » ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فَسِرْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَبِعَوْنِ اللَّهِ ، وَبِنَصرِ اللَّهِ بَمَنْ مَعَكَ من المسلمين ، ولا تُوطِئْهُمْ وَعْراً فتُؤْذِيَهم . . . فإن رجلاً واحداً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار والسلام عليك .

هب النعمان بجيشه للقاء العدو وأرسل أمامه طلائع من فرسانه لتكشف له الطريق . فلما ٱقْتَرَبَ الفرسانُ من « نَهاوَنْدَ » تَوَقَّفَتْ خيولُهم ، فدفعوها فلم تَنْدَفِعْ ، فَنَزَلوا عن ظُهورِها ليعرِفوا الخَبَرَ فوجدوا في حَوافِرِ الخيل شظَايا من الحديدِ تُشْبِهُ رؤُوسَ المساميرِ ، فنَظَروا في الأَرْضِ فإذا ٱلْعَجَمُ قد نَثَروا في

---

(١) ثنوه : ردوه .

الدُّروبِ المُؤَدِّيَةِ إلىٰ « نَهاوَنْدَ » حَسَكَ الحديدِ ، لِيَعوقوا الفُرْسـانَ والمُشاة عنِ الوُصولِ إليها .

***

أخبرَ الفُرْسانُ النعمانَ بما رَأَوْا ، وطَلَبُوا مِنْه أَنْ يُمِدَّهُمْ بِرأْيِه ، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا في أماكِنِهم ، وأَنْ يوقِدوا النيرانَ في الليلِ لِيَـراهُمُ ٱلْعَدُوُّ ، وعنـدَ ذلك يتظاهرونَ بالخوفِ منه والهزيمَةِ أَمامَه لِيُغْرُوهُ باللَّحاقِ بهم وإزالَةِ ما زَرَعَـه من حَسَكِ الحديدِ .

وجازَتِ الحيلةُ على ٱلفُرْسِ ، فما إِنْ رَأَوْا طَلِيعَةَ جيشِ المسلمين تَمْضِي مُنْهَزِمَةً أَمَامَهم حتَّىٰ أرسلوا عُمَّالَهُمْ فَكَنَسُوا الطُّرُقَ مِنَ الحَسَـكِ ، فَكَرَّ عليهمُ المسلمونَ واحْتَلُّوا تلكَ الدُّروبَ .

***

عَسْكَرَ النعمانُ بنُ مُقَرِّنٍ بِجَيْشِهِ على مَشارِفِ « نَهاوَنْـدَ » وعَزَمَ على أن يُباغِتَ عَدُوَّهُ بـالهُجومِ ، فقال لجنودِه :

إني مُكَبِّرٌ ثلاثاً ، فإذا كَبَّرْتُ الأولى فَلْيَتَهَيَّأْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قد تَهَيَّأَ ، وإذا كَبَّرْتُ الثَّانِيَةَ فَلْيَشْدُدْ كُلُّ رجلٍ منكم سِلاحَهُ على نفسِه ، فإذا كَبَّرْتُ الثـالثةَ ، فـإِنِّي حامِلٌ علىٰ أعْداءِ اللَّهِ فاحْمِلوا معي .

***

كَبَّرَ النعمانُ بنُ مُقرِّنٍ تَكْبِيراتِه الثلاث ، واندفعَ في صفوفِ العدوِّ كـأَنَّه الليثُ عادِياً ، وتدفَّقَ وراءَه جنودُ المسلمين تَدَفُّقَ السَّيْلِ ، ودارتْ بينَ الفريقَيْنِ رَحَىٰ معركةٍ ضَروسٍ قَلَّما شَهِدَ تاريخُ الحروبِ لها نظيراً .

***

فتمزَّقَ جيشُ الفرسِ شَرَّ مُمزَّقٍ ، ومَلأَتْ قَتْلاهُ السهلَ والجبلَ ، وسالَتْ

دِماؤه في الممرَّاتِ والدُّروبِ ، فَزَلِقَ جوادُ النعمانِ بنِ مُقَرِّنٍ بالدِّماءِ فَصُـرِعَ ، وأُصِيبَ النعمانُ نفسُه إصابةً قاتِلَةً ، فأخذَ أخوهُ اللواءَ من يَدِهِ ، وسَجَّاهُ[1] بِبُردةٍ كانت معه ، وكَتَمَ أَمْرَ مَصْرَعِهِ عن المسلمين .

ولما تَمَّ النصرُ الكبيرُ الذي سَمَّاهُ المسلمونَ « فَتْحُ ٱلْفُتوح » . . .

سَأَلَ الجنودُ المُنْتَصِرون عن قائِدِهم الباسِلِ النعمانِ بنِ مقرِّنٍ . . .

فَرَفَعَ أخوهُ البُرْدَةَ عنه وقال :

هذا أميرُكُم ، قد أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بالفَتْحِ ، وخَتَم له بالشهادة(*) .

---

(1) سجاه : غطاه .

(*) للاستزادة من أخبار النعمان بن مقرن انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة : ٨٧٤٥ .

٢ ـ ابن الأثير ٢/٢١١ و٣/٧ .

٣ ـ تهذيب التهذيب : ١٠/٤٥٦ .

٤ ـ فتوح البلدان : ٣١١ .

٥ ـ شرح ألفية العراقي : ٣/٧٦ .

٦ ـ الأعلام : ٩/٩ .

٧ ـ القادسية : ٦٦ ـ ٧٣ (منشورات دار النفائس ـ بيروت) .

صُهَيْبُ الرّوميّ

(رَبحَ البَيْعُ يا أَبَا يَحْيَى . . .
رَبحَ البَيْعُ . . .)
[محمّد رسول اللّه]

صُهَيْبُ الرُّومِيُّ . . .

ومَنْ مِنَّا ـ مَعْشَرَ المسلمين ـ لا يَعْرِفُ صُهَيْباً الرُّومِيَّ ، وَلا يُلِمُّ بِطَرَفٍ من أَخْبَارِهِ ونُتَفٍ من سِيرَتِه ؟!

ولكِنَّ الذي لا يعرِفُه الكثيرُ مِنَّا هو أَنَّ صُهَيْباً لم يَكُنْ رومِيًّا ، وإِنَّما كان عَرَبِيًّا خالِصاً ، نُمَيْرِيَّ[1] الأبِ تَمِيمِيَّ[2] الأُمِّ .

وَلانتِسابِ صُهَيْبٍ إلىٰ الرُّومِ قِصَّةٌ ما تَزَالُ تَعِيها ذاكِرَةُ التَّارِيخ ، وتَرْوِيها أَسْفَارُه .

فَقَبْلَ ٱلْبَعْثَةِ بِحَـوَالَيْ عِقْدَيْنِ من الزَّمانِ كان يَتَوَلَّىٰ « الْأُبُلَّةَ »[3] سِنَانُ بنُ مالِكٍ النُّمَيْرِيُّ، من قِبَلِ كِسْرَىٰ مَلِكِ ٱلْفُرْسِ .

وكان أَحَبَّ أولادِه إليه طِفْلٌ لَمْ يُجَاوِزِ الخامِسَةَ من عُمُرِه ، دَعاهُ صُهَيْباً .

* * *

(١) نميري الأب : أي إن أباه من بني نمير .
(٢) تميمي الأم : أي إن أمه من بني تميم .
(٣) الأبلة : مدينة قديمةٌ دَخلَت في البصرة وأصبحت جزءاً منها .

كانَ صُهَيْبُ أَزْهَرَ ٱلْوَجْهِ ، أَحْمَرَ الشَّعْرِ مُتَدَفِّقَ النَّشاطِ ذا عَيْنَيْنِ تَتَّقِدانِ فِطْنَةً وَنَجابَةً .

وكان إلىٰ ذلك مِمْراحاً ، عَذْبَ الرُّوحِ ، يُدْخِلُ السُّرورَ على قلبِ أبيه ، ويَنْتَزِعُ منه هُمومَ المُلْكِ انْتِزاعاً .

* * *

مضت أمُّ صُهَيْبٍ مع ابنِها الصغيرِ وطائفةٍ من حَشَمِها وخَدَمِها إلىٰ قَرْيَةِ « الثَّنِيِّ » من أرضِ العِراقِ طلباً للرّاحَةِ والاستجمام ، فأغارت على القريةِ سَرِيَّةٌ من سرايا جَيْشِ الرومِ ، فقتلتْ حُرَّاسَها ، ونَهَبَتْ أَمْوالَهَا ، وأسرتْ ذرارِيَها .

فكان في جُمْلَةِ مَنْ أَسَرَتْهُمْ صُهَيْبُ .

* * *

بيعَ صُهَيْبُ في أسْواقِ الرقيقِ ببلادِ الرومِ ، وَجَعَلَتْ تَتَداوَلُهُ الأَيْدِي فَيَنْتَقِلُ مِنْ خِدْمَةِ سَيِّدٍ إلى خِدْمَةِ آخَرَ ، شأنُه في ذلك كشأنِ الآلافِ المؤلَّفَةِ من الأرِقَّاءِ الذين كانوا يملأون قصورَ بلادِ الرومِ .

* * *

وقد أتاحَ ذلك لِصُهَيْبٍ أَنْ يَنْفُذَ إلىٰ أَعْمَاقِ المُجْتَمَعِ الروميِّ ، وأَن يَقِفَ عليه من داخِلِه ، فَرَأَىٰ بِعَيْنَيْهِ ما يُعَشِّشُ في قصورِه من الرَّذائِلِ والموبِقات[1] ، وسَمِعَ بِأُذُنَيْهِ ما يُرْتَكَبُ فيها من المَظَالِمِ والمآثِمِ ، فَكَرِهَ ذٰلِكَ المجتمعَ وآزْدَرَاه[2] .

وكان يقولُ في نَفْسِه : إنَّ مُجْتَمَعاً كَهٰذا لا يُطَهِّرُهُ إلَّا الطُّوفانُ .

* * *

وعلىٰ الرَّغْمِ من أَنَّ صُهَيْباً قد نَشَأَ في بلادِ الرومِ ، وشَبَّ عَلىٰ أَرْضِها

---

(١) الموبقات : الفواحش .

(٢) ازدراه : احتقره .

وَبَيْنَ أَهْلِها .

وعلىٰ الرَّغْمِ من أَنَّهُ نَسِيَ ٱلْعَرَبِيَّةَ أَوْ كادَ يَنْسَاها ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ بالِهِ قَطُّ أَنَّهُ عَرَبيٌّ من أَبْنَاءِ الصَّحْراءِ . . .

ولَمْ تَفْتُرْ أَشْوَاقُهُ لَحْظَةً إِلىٰ اليومِ الذي يَتَحَرَّرُ فيه من عُبُودِيَّتِهِ ، وَيَلْحَقُ بِبَني قَوْمِه .

وقد زادَهُ حَنيناً إِلىٰ بلادِ ٱلْعَرَبِ فَوْقَ حَنينِهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ كاهِناً[1] من كَهَنَةِ النَّصارَىٰ يقولُ لِسَيِّدٍ من أَسْيادِه :

لقد أَظَلَّ[2] زمانٌ يَخْرُجُ فيه من مَكَّةَ في جزيرةِ العربِ نَبِيٌّ يُصَدِّقُ رسالة عِيسَىٰ بنِ مريمَ ،ويُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلىٰ النُّورِ .

* * *

ثُمَّ أُتيحَتِ ٱلْفُرْصَةُ لِصُهَيْبٍ فَوَلَّىٰ هارباً من رِقِّ أَسْيادِهِ ، وَيَمَّمَ[3] وَجْهَهُ شَطْرَ مَكَّةَ أُمِّ ٱلْقُرىٰ وَموئِلِ العربِ ، وَمَبْعَثِ النَّبِيِّ المُرْتَقَبِ .

ولما أَلْقَىٰ عَصاهُ[4] فيها أطلقَ الناسُ عليه اسمَ صهيبٍ الروميِّ لِلُكْنَةِ[5] لسانِه وحُمْرَةِ شَعْرِه .

* * *

وقد حالَفَ صُهَيْبٌ سَيِّداً من ساداتِ مَكَّةَ هو عبدُ اللّٰه بنُ جُدْعانَ وطَفِقَ يَعْمَلُ في التِّجارَةِ ، فَدَرَّتْ عليه الخَيْرَ الوفيرَ والمالَ الكثيرَ .

* * *

غَيْرَ أَنَّ صُهَيْباً لم تُنْسِهِ تِجارَتُهُ ومَكاسِبُهُ حديثَ الكاهِنِ النَّصْرانِيِّ ، فكان

---

(١) الكاهن : رجل الدين عند النصارى .
(٢) أظل : اقترب .
(٣) يمم وجهه شطر مكة : توجه نحو مكة .
(٤) ألقى عصاه فيها : نزل فيها واستقر .
(٥) للكنة لسانه : لثقل لسانه .

كُلَّما مَرَّ كلامُه بخاطِرِهِ يُسائِلُ نَفْسَهُ في لَهْفَةٍ :

مَتَىٰ يكونُ ذٰلك؟!

وما هو إلا قليلٌ حتى جاءَه الجوابُ .

* * *

ففي ذاتِ يومٍ عادَ صُهَيْبُ إلىٰ مَكَّةَ مِن إحْدَىٰ رَحْلاتِه ، فقيلَ له إنَّ محمدَ ابنَ عبدِ اللَّهِ قد بُعِثَ وقامَ يَدْعُو النَّاسَ إلىٰ الإيمانِ باللَّهِ وَحْدَهُ ، ويَحُضُّهُمْ على الْعَدْلِ والإحسانِ ، وينهاهُمْ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ .

* * *

فقال : أليس هو الذي يُلَقِّبُونَهُ بالأمين ؟!

فقيل له : بَلىٰ .

فقال : وأينَ مكانُه ؟

فقيل له : في دارِ الأَرْقَمِ بنِ أبي الأرقمِ عندَ الصَّفَا . . .

ولكِنْ حَذارِ من أنْ يَراكَ أَحَدٌ من قريشٍ ؛ فإنْ رَأَوْكَ فَعَلُوا بِكَ . . . وفَعَلُوا وأنتَ رجلٌ غريبٌ لا عَصَبِيَّةَ لك تَحْميك ، ولا عَشيرةَ عِنْدَك تَنْصُرُك .

* * *

مَضَىٰ صُهيبٌ إلىٰ دارِ الأرقمِ حَذِراً يَتَلَفَّتُ ، فلما بَلَغَها وَجَدَ عِنْدَ البابِ عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ ، وكانَ يَعْرِفُه من قبلُ ، فتردَّدَ لحظةً ثم دنَا منه وقال : ما تُرِيدُ يا عمار ؟

فقال عمارٌ : بل ما تُريدُ أنت ؟

فقال صُهيبٌ : أردتُ أَنْ أَدْخُلَ على هٰذا الرَّجُلِ ، فأسمعَ مِنه ما يقولُ .

فقال عمارٌ : وأنا أريدُ ذٰلك أيضاً .

فقال صُهيبٌ : إِذَنْ نَدْخُل مَعاً على بَرَكَةِ اللَّهِ .

* * *

دخلَ صُهيبُ بنُ سِنانٍ الروميُّ وعمَّارُ بنُ ياسِرٍ علَىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ واسْتَمعا إلىٰ ما يَقولُ ، فَأَشْرَقَ نُورُ الإيمانِ في صَدْرَيْهِما ، وتسابَقَا في مَدِّ أَيْدِيهِما إليه ، وشَهِدا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وأَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وأَمْضَيا سَحابَةَ[1] يَوْمِهما عندَه يَنْهَلانِ من هَدْيِه ويَنْعُمانِ بِصُحْبَتِه .

ولما أقبلَ الليلُ ، وهَدَأَتِ الحَرَكَةُ ، خَرَجا من عِنْدِهِ تحْتَ جُنْحِ الظلامِ ، وقد حَمَلَ كُلٌّ منهما من النُّورِ في صَدْرِهِ ما يَكْفِي لإضاءَةِ الدُّنْيا بِأَسْرِها .

* * *

تحمَّلَ صُهيبٌ نصيبَهُ من أَذَىٰ قُرَيْشٍ مع بلالٍ وعمارٍ وسُمَيَّةَ وخبَّابٍ وغيرِهم من عشراتِ المؤمنين ، وقاسَىٰ من نَكالِ قُرَيْشٍ ما لو نَزَلَ بِجَبَلٍ لَهَدَّه ، فَتَلَقَّىٰ ذٰلكَ كُلَّهُ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ صابِرَةٍ ، لأَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ طَرِيقَ الجَنَّةِ محفوفٌ بالمَكارِه .

* * *

ولما أَذِنَ الرسولُ لأَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلىٰ المدينةِ ، عَزَمَ صهيبٌ علىٰ أنْ يَمْضِيَ في صُحْبَةِ الرسولِ وأبي بكر ؛ لكنَّ قريشاً شَعَرَتْ بِعَزْمِهِ على الهِجْرَةِ فَصَدَّتْهُ[2] عَنْ غايَتِهِ ، وأقامتْ عليه الرُّقَباءَ حتَّىٰ لا يَفْلِتَ مِنْ أيديهم ، ويَحْمِلَ معه ما دَرَّتْهُ عليه التجارَةُ من فِضَّةٍ وذَهَبٍ .

* * *

ظَلَّ صُهيبٌ بعد هِجْرَةِ الرسولِ وصاحبِه يَتَحَيَّنُ[3] الْفُرَصَ لِلَّحَاقِ بهما فلم يُفْلِحْ ، إِذْ كانت أَعْيُنُ الرُّقَباءِ ساهِرَةً عليه مُتَيَقِّظَةً له ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً غَيْرَ اللُّجُوءِ إِلىٰ الحِيلَةِ .

* * *

---

(١) سحابة يومهما : طول يومهما . (٢) صدته : منعته . (٣) يتحين الفرص : يترقب الفرص .

في ذاتِ لَيْلَةٍ بَـارِدَةٍ أَكْثَرَ صُهيبُ من الخـروجِ إلىٰ الخَلاءِ كَـأَنَّهُ يَقْضِي الحاجَةَ ، فكان لا يَرْجِعُ من قَضَاءِ حاجَتِهِ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْها .

* * *

فقـال بعضُ رُقَبَائِـهِ لبعضٍ : طيبوا نَفْسـاً فـإنَّ الـلاَّتَ وٱلْعُـزَّىٰ شَغَـلاهُ ببطنِه . . .

ثم أَوَوْا إلىٰ مَضاجِعِهِمْ وأَسْلَمُوا عُيُونَهُمْ إلىٰ ٱلْكَرَىٰ[1] .
فتسَلَّلَ صُهَيْبٌ من بينِهم ، ويَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ المدينةِ .

* * *

لم يمضِ غيرُ قليلٍ علَىٰ رحيلِ صُهَيْبٍ حَتَّىٰ فَطِنَ له رُقباؤه ، فَهَبُّوا من نَوْمِهم مَذْعُورِين ، وٱمْتَطَوْا خيـولَهم السَّوابِقَ ، وأَطْلَقـوا أَعِنَّتَها[2] خَلْفَـهُ حَتَّىٰ أَدْرَكُوه .

* * *

فلمـا أَحسَّ بهم ، وقَفَ على مكانٍ عـالٍ وأَخْرَجَ سِهـامَه من كِنَـانَتِهِ[3] وَوَتَرَ[4] قَوْسَهُ وقال :

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لقد عَلِمْتُمْ ـ واللَّهِ ـ أَنِّي مِنْ أَرْمَىٰ النَّـاسِ وأَحْكَمِهِمْ إِصَابَةً . .

وواللَّهِ لا تَصِلُونَ إليَّ حتَّىٰ أَقْتُلَ بِكُلِّ سَهْمٍ معي رجلاً مِنْكُمْ .

ثم أَضْرِبَكم بِسَيْفِي ما بَقِيَ في يدي شيءٌ منه . فقال قائِلٌ منهم : واللَّهِ لا نَدَعُكَ تَفُوزُ مِنَّا بنفسِك وبمالك . . .

---

(١) الكرى : النوم .
(٢) العنان : الرسن ، وجمعهُ أعنَّة .
(٣) الكنانة : الجعبة التي توضع فيها السهام .
(٤) وتر قوسه : شد وتره : استعداداً للرمي .

لقد أَتَيْتَ مَكَّةَ صُعْلُوكاً[1] فقيراً فاغْتَنَيْتَ وبَلَغْتَ ما بَلَغْتَ .

فقال : أرَأَيْتُمْ إنْ تركْتُ لَكُمْ مالي ، أَتُخَلُّونَ سبيلي ؟

قالوا : نعم .

فدَلَّهم على مَوْضِعِ مالِه في بيتِه في مَكَّةَ ، فَمضَوا إليه وأَخذوه منه ، ثُمَّ أَطْلَقُوا سَراحَهُ .

* * *

أَخَذَ صُهَيْبٌ يُغِذُّ السَّيْرَ نَحْوَ المدينةِ فارًّا بدينهِ إلىٰ اللّٰهِ ، غَيْرَ آسِفٍ علىٰ المالِ الذي أَنْفَقَ في جَنْبِهِ زَهْرَةَ العُمْر .

وكان كُلما أَدْرَكَهُ ٱلْوَنَىٰ[2] وأَصَابَهُ التَّعَبُ ، اسْتَفَزَّهُ الشَّوْقُ إلىٰ رسولِ اللّٰهِ ﷺ فيعودُ إليه نشاطُه ، ويواصِلُ سَيْرَهُ .

فلما بلغ قُباءَ[3] رآه الرسولُ صلواتُ اللّٰهِ وسلامُه عليه مُقبلاً ، فَهَشَّ لَهُ وَبشَّ وقال :

(رَبِحَ ٱلْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيى رَبِحَ ٱلْبَيْعُ) وكَرَّرَها ثلاثاً .

فَعَلَتِ ٱلْفَرْحَةُ وَجْهَ صُهَيْبٍ وقال :

واللّٰهِ ما سَبَقَني إليكَ أَحَدٌ يا رسولَ اللّٰهِ .

وما أَخْبَرَكَ به إلاَّ جِبْرِيلُ .

* * *

حقًّا لقد رَبِحَ البيعُ . . .

وصَدَّقَ ذٰلكَ وَحْيُ السماء . . .

---

(1) الصعلوك : الضعيف الفقير .

(2) الونى : التعب .

(3) قباء : قرية على بعد ميلين من المدينة .

وشهدَ عليه جبريلُ . . . حيثُ نزلَ في صُهيبٍ قولُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَشْـرِي نَفْسَـهُ ٱبْتِغَـاءَ مَـرْضَـاةِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1] .

فطوبَىٰ لِصُهَيْبِ بنِ سِنَانٍ الرُّوميِّ ، وحُسْنُ مَآبٍ(*) .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٠٧ .

(*) للاستزادة من أخبار صهيب الرومي انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة : ٤١٠٤ .

٢ ـ طبقات ابن سعد : ٣/٢٢٦ .

٣ ـ أسد الغابة : ٣/٣٠ .

٤ ـ الاستيعاب (على هامش الإصابة) : ٢/١٧٤ .

٥ ـ صفة الصفوة : ١/١٦٩ .

٦ ـ البداية والنهاية : ٧/٣١٨ ـ ٣١٩ .

٧ ـ حياة الصحابة : (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

٨ ـ الأعلام ومراجعه .

أبو الدرداء

« كَانَ أبو الدَّرداءِ يَدفَعُ عَنْهُ الدُّنيَا
بالرّاحتَينِ وَالصَّدرِ » .

[عبد الرحمن بن عوف]

نَهضَ عُوَيْمِرُ بنُ مالكٍ الخَزْرَجِيُّ المُكَنَّىٰ بأبي الدَّرْدَاءِ من نومِهِ مُبَكِّراً ، ومَضَىٰ إلىٰ صَنَمِهِ الذي نَصَبَهُ في أَشْرَفِ مكانٍ من بيتِهِ ، فحيَّاهُ وضَمَّخَهُ[1] بأنْفَسِ ما حَوَاهُ مَتْجَرُهُ الكبيرُ من الطِّيبِ ، ثم أَلْقَىٰ عليه ثوباً جديداً من فاخِرِ الحريرِ ، أهداهُ إليه بالأمسِ أحدُ التجارِ القادِمين عليه من اليَمَن .

ولما ارْتَفَعَتِ الشمسُ غادَرَ أبو الدرداءِ مَنْزِلَهُ مُتَوَجِّهاً إلىٰ مَتْجَرِهِ .

فإذا شوارِعُ يَثْرِبَ وطرُقاتُها تَضِيقُ بِأَتْباعِ محمدٍ ، وهم عائدون من بَدْرٍ ، وأمامَهُمْ أَفْوَاجُ الأَسْرَىٰ من قريشٍ ، فازْوَرَّ عنهم[2] ؛ لٰكِنَّه ما لَبِثَ أَنْ أَقْبَلَ علىٰ فتىً منهم يَنْتَمِي إلىٰ الخَزْرَجِ وسأله عن عبدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ .

فقال له الفتَىٰ الخَزْرَجِيُّ : لقد أَبْلَىٰ في المعركةِ أَكْرَمَ البلاءِ وعادَ سالِماً غانماً ، وطَمْأَنَهُ عليه .

ولم يستغرب الفتَىٰ سُؤالَ أبي الدرداءِ عن عبدِ اللَّهِ بنِ رواحةَ ؛ لما كان يَعْلَمُ النَّاسُ جميعاً من أواصِرِ[3] الأُخُوَّةِ التي كانت تربط بينهما ؛ ذلك لأنَّ

---

(1) ضمخه : دهنه .
(2) ازورَّ عنهم : أعْرض عنهم .
(3) أواصر الأخوَّة : روابطِ الأخُوَّة .

أبا الدرداءِ وعبدَ اللَّهِ بنَ رواحَةَ كانا مُتآخِيَيْنِ في الجاهلية ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ اعْتَنَقَهُ ابنُ رواحَةَ ، وأعْرَضَ عنه أبو الدَّرْدَاءِ .

لكِنَّ ذلك لم يقْطَعْ ما بين الرجلين مِن وَثيقِ الأواصِرِ[1] ؛ إذْ ظَلَّ عبدُ اللَّهِ ابنُ رواحةَ يَتعَهَّدُ أبا الدَّرْداءِ بالزِّيارَةِ ، ويَدْعوهُ إلىٰ الإسلامِ ، ويُرَغِّبُهُ فيه ، ويأسَفُ على كلِّ يومٍ يَمْضِي من عُمُرِهِ وهو مُشْرِكٌ .

* * *

وَصَلَ أبو الدَّرْداءِ إلىٰ مَتْجَرِهِ ، وتَرَبَّعَ على كُرْسِيِّه العالي ، وَجَعَلَ يَبيعُ ويَشْتَري ، وَيأْمُرُ غِلْمَانَه وَينْهَاهم . . .

وهو لا يعلم شيئاً مِمَّا يَجْرِي في مَنْزِلِهِ . . . ففي ذلك الوقتِ كانَ عبْدُ اللَّهِ ابنُ رواحَةَ يَمْضِي إلىٰ بَيْتِ صاحِبِهِ أبي الدَّرْداءِ وقَدْ عَزَم على أمْرٍ . . .

فلما بلغَ البيتَ رأىٰ بابَه مَفْتوحاً وأبْصَرَ أمَّ الدَّرْداءِ في فِنائه[2] ، فقال : السَّلامُ عليك يا أَمَةَ اللَّهِ .

فقالت : وعليكَ السَّلامُ يا أخا أبي الدرداءِ .

فقال : أينَ أبو الدَّرْداءِ ؟

فقالت : ذَهبَ إلىٰ متجرِه ، ولا يلبثُ أنْ يَعُودَ .

فقال : أتأذنين ؟

فقالت : على الرَّحْبِ والسَّعَةِ ، وأَفْسَحَتْ له الطريقَ ، ومَضَتْ إلىٰ حُجرتها ، وانْشَغَلَتْ عنه بإصلاحِ شأنِ بيتِها ورِعَايَةِ أطفالِها .

* * *

دخلَ عبدُ اللَّهِ بنُ رَواحَةَ إلىٰ الحُجْرَة التي وَضَعَ فيها أبو الدرداءِ صَنَمه ،

---

(١) وثيق الأواصر : متين الصِّلات .

(٢) فِناء المنزل : باحته .

وأخرجَ قَدُّوماً أَحْضَرَهُ معه ، ومالَ على الصَنمِ وجعلَ يُقَطِّعُهُ به وهو يقول :

أَلا كُلُّ ما يُدْعَىٰ مَعَ اللَّهِ باطِلُ . . . أَلا كلُّ ما يُدْعَىٰ مَعَ اللَّهِ باطِلُ . . .

فلمَّا فَرَغَ من تقطيعِه غادرَ البيت .

* * *

دخلتْ أُمُّ الدَّرْداءِ إِلىٰ الحُجْرَةِ التي فيها الصَّنَمُ ، فَصُعِقَتْ حينَ رأته قد غدا أَجْذاذاً[1] . . . وَوَجدتْ أَشْلاءَهُ[2] مُبَعْثَرَةً علىٰ الأرضِ . . . وجَعَلَت تَلْطِمُ خدَّيْهَا وهي تقول :

أَهْلَكْتَني يا بنَ رواحةَ . . .
أَهْلَكْتَني يا بنَ رواحةَ . . .

* * *

لم يَمْضِ غيرُ قليلٍ حتَّىٰ عاد أبو الدَّرْداءِ إِلىٰ منزِله فرأَىٰ امرأَتَه جالسةً عندَ بابِ الحُجْرَةِ التي فيها الصَّنَمُ وهي تبكي وتَنْشِجُ[3] ، وعلاماتُ الخوفِ منه باديةٌ علىٰ وجهها .

فقال : ما شَأْنُكِ[4] ؟

قالت : أخوك عبدُ اللَّهِ بنُ رُوَاحَةَ جاءَنا في غَيْبَتِك ، وصَنَعَ بِصَنَمِكَ ما تَرَىٰ .

فَنَظَرَ إِلىٰ الصَّنَمِ فوجدَهُ حُطاماً ، فاسْتَشاطَ غضباً[5]، وهَمَّ أَنْ يَثْأَرَ له ، لكِنَّه ما لَبِثَ قليلاً حتَّىٰ هدأت ثائِرَتُه ، وسَكَتَ عنه غضَبُه ؛ ففكَّرَ فيما حَدَثَ ، ثم قال : لو كان في هذا الصَّنَمِ خيرٌ لَدَفَعَ الأَذىٰ عن نَفْسِه .

---

(١) أجذاذاً : قطعاً .
(٢) أشْلاءَه : أعضاءَه وأجزاءَه .
(٣) تنشج : النَّشيجُ : البكاء بصوت عال .
(٤) ما شأنك ؟ : ما خبرك ، ما أمرك ؟ .
(٥) استشاط غضباً : اتقد غضباً .

ثم انْطلق من تَوِّه إلىٰ عبدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ ، ومَضَيا معاً إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأعلنَ دخولَهُ في دينِ اللَّهِ ، فكان آخِرَ أَهْلِ حَيِّهِ إِسْلاماً .

* * *

آمن أبو الدَرْدَاءِ ـ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأولىٰ ـ باللَّهِ ورسوله إيماناً خالطَ كلَّ ذَرَّةٍ في كِيَانِه .

ونَدِمَ ندماً كبيراً على ما فاتَه من خَيْرٍ ، وَأَدْرَكَ إِدْراكاً عميقاً ما سَبَقَهُ إليهِ أصحابُه من فِقْهٍ لدينِ اللَّه ، وحِفْظٍ لكتابِ اللَّه ، وعبادَةٍ وتقوىً ادَّخَرُوهما لِأَنْفُسِهِمْ عند اللَّه .

فَعَزَمَ علىٰ أَنْ يَسْتَدْرِكَ ما فاتَه بالجُهْدِ الجاهد ، وأن يواصِلَ كَلالَ الليلِ [1] بِكَلالِ النهارِ حتَّىٰ يَلْحَقَ بِالرَّكْبِ وَيَتَقَدَّمَ عليه .

فانصَرَفَ إلىٰ العِبَادَةِ انْصِرافَ مُتَبَتِّلٍ [2] ، وأقبلَ على ٱلْعِلْمِ إقبالَ ظَمْآنَ ، وأَكَبَّ على كِتَابِ اللَّهِ يَحْفَظُ كَلِماتِه ، وَيَتَعَمَّقُ فَهْمَ آياتِه .

ولما رأىٰ التِّجارَةَ تُنَغِّصُ [3] عليه لَذَّةَ ٱلْعِبادَةِ ، وتُفَوِّتُ عليه مجالِسَ العِلْمِ تَرَكَها غيرَ مُتَرَدِّدٍ ولا آسِفٍ .

وقد سأله في ذلك سائِلٌ فَأَجابَ :

لقد كنتُ تاجِراً قبلَ عَهْدي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ التِّجارَةِ والعِبادَةِ ، فلم يَسْتَقِمْ لي ما أَرَدْتُ ، فتركتُ التِّجارَةَ وأَقْبَلْتُ على ٱلْعِبادَةِ .

والذي نفسُ أبي الدَّرْدَاءِ بِيَدِه ، ما أُحِبُّ أن يكون لي اليومَ حانوتٌ على

---

(١) كلال الليل بكلال النهار : تعب الليل بتعب النهار .
(٢) المتبتل : المنقطع عن الدنيا المنصرف إلى الله .
(٣) تنغص : تكدر .

بابِ المسجدِ فلا تفوتُني صلاةٌ مع الجماعةِ ، ثم أبيعُ وأشتَري فأربحُ كلَّ يومٍ ثلاثمائة دينارٍ .

ثم نظَر إلىٰ سائِلِهِ وقال : إنِّي لا أقول : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ ٱلْبَيْعَ ولكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أكونَ من الذين لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللَّهِ .

* * *

لم يَتْرُكْ أبو الدَّرْداءِ التِّجارَةَ فَحَسْب وإنَّما تَرَكَ الدُّنْيَا ، وَأَعْرَضَ عن زِينَتِها وَزُخْرُفِها ، وٱكْتَفَىٰ منها بِلُقْمَةٍ خَشِنَةٍ تُقيمُ صُلْبَهُ[1] وَثَوْبٍ صَفِيقٍ[2] يَسْتُرُ جَسَدَهُ .

فقد نَزَلَ بِهِ جَماعةٌ في ليلةٍ شديدةِ ٱلْقرِّ[3] قاسِيَةِ ٱلْبَرْدِ ، فأرسلَ إليهم طَعاماً ساخِناً ، ولم يَبْعَثْ إليهم باللُّحُفِ ، فلَمَّا هَمُّوا بِالنَّوْمِ جعَلُوا يَتَشاوَرُون في أَمْرِ اللُّحُفِ ، فقال واحِدٌ منهم :

أنا أذهبُ إليه وأُكَلِّمُهُ .

فقال له آخر : دَعْهُ ، فأَبَىٰ ، ومَضَىٰ حَتَّىٰ وقَفَ على بَابِ حُجْرَتِهِ فرآهُ قدِ ٱضْطَجَعَ ، وٱمْرَأَتُهُ جالسةٌ قريباً منه ليس عليها وعليه إلَّا ثوبٌ خفيفٌ لا يَقِي من حَرٍّ ولا يَصُونُ من بَرْدٍ .

فقال الرجلُ لأبي الدرداءِ : ما أراكَ بِتَّ إلَّا كما نَبِيتُ نحن ! !

أَين مَتاعُكم؟!

فقال : لنا دارٌ هناكَ نُرْسِلُ إلَيها تِباعاً كلَّ ما نَحْصُلُ عليه من مَتَاع ، ولو كنا اسْتَبْقَيْنَا في هذه الدارِ شيئاً منه لَبَعَثْنَا به إليكم .

ثم إنَّ في طريقِنا الذي سَنَسْلُكُهُ إلىٰ تلك الدارِ عقبةً كؤوداً[4] المُخِفُّ فيها

---

(١) تقيم صلبه : تقيم أوده .
(٢) ثوب صفيق : ثوب خشن .
(٣) شديدة القر : شديدة البرد .
(٤) عقبة كؤوداً : عقبة صعبة المرتقى .

خيرٌ من المُثْقَلِ ، فأَرَدْنَا أَنْ نَتَخَفَّفَ من أَثْقَالِنا عَلَّنَا نَجْتَاز .

ثم قال للرجلِ : أَفهمتَ ؟

فقال : نعم فَهِمْتُ ، وجُزِيتَ خيراً .

* * *

وفي خلافةِ الفاروقِ رِضْوانُ اللَّهِ عليه أرادَ مِنْ أبي الدَّرْداءِ أَنْ يَلِيَ[1] له عملاً في الشامِ فأَبَىٰ ، فأَصَرَّ عليه فقال :

إذا رضيتَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِم لِأُعَلِّمَهم كِتابَ رَبِّهم ، وسُنَّةَ نَبِيِّهم وأُصَلِّيَ بِهِم ذهبتُ ، فرضِي منه عُمَرُ بذلك ، ومَضىٰ هو إِلىٰ دِمَشْقَ ، فلمَّا بَلَغَهَا وَجَدَ النَّاسَ قد أُولِعوا بالتَّرَفِ ، وانْغَمَسُوا في النَّعيم ، فَهَالَهُ ذلك ، ودَعا النَّاسَ إِلىٰ المسجدِ فاجْتَمَعُوا عليه فوَقَفَ فيهم وقال :

يا أَهْلَ دِمَشْقَ أَنْتُمُ الإِخْوانُ في الدِّينِ ، والجيرانُ في الدَّارِ ، والأنصارُ على الأعداء .

يا أهلَ دمشقَ ، ما الذي يَمْنَعُكُمْ من مَوَدَّتي والاسْتِجَابَةِ لِنَصيحَتي وأنا لا أَبْتَغِي منكم شيئاً ؛ فَنصيحَتي لكم ، ومُؤْنَتي[2] على غَيْرِكم .

ما لي أَرَىٰ عُلَمَاءَكم يَذْهَبُون[3] وجُهَّالَكم لا يَتعَلَّمُون؟!

وأراكم قد أَقْبَلْتُمْ على ما تَكَفَّلَ لكم به اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وتَرَكْتُمْ ما أُمِرْتُمْ بِهِ ؟!

ما لي أراكم تَجْمَعُونَ ما لا تَأْكُلُون !!

وَتَبْنونَ ما لا تَسْكُنُون !!

---

(١) أن يلي له عملاً : أن يتولى له ولاية .

(٢) مؤنتي على غيركم : نفقتي على غيركم .

(٣) يذهبون : يأخذهم الموتُ .

وتُؤَمِّلُونَ ما لا تَبْلُغُون !!

لقد جَمعَتِ الأَقْوامُ الَّتي قَبْلَكُم وأَمَّلَتْ .

فما هو إلا قليلٌ حتى أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بوراً[1] . . .

وأَمَلُهم غُروراً . . .

وبُيُوتُهم قُبوراً . . .

هذه عادٌ[2] ـ يا أَهْلَ دمشقَ ـ قد ملأتِ الأَرْضَ مالاً وولداً . . .

فَمَنْ يشتري مِنِّي تَرِكَةَ عادٍ ٱلْيَوْمَ بِدِرْهَمَيْن ؟

فَجَعَلَ النَّاسُ يَبْكُونَ حَتَّىٰ سُمِعَ نَشِيجُهم[3] من خارِجِ المسجدِ.

* * *

ومنذ ذلك اليومِ طَفِقَ أبو الدَّرْداءِ يَؤُمُّ[4] مجالسَ الناسِ في دِمَشْقَ وَيطُوفُ بأَسْوَاقِهم ، فيجيبُ السَّائِلَ ، ويُعَلِّمُ الجاهِلَ ، وَيُنَبِّهُ الْغَافِلَ ، مُغْتَنِماً كُلَّ فُرْصَةٍ مُسْتَفِيداً من كُلِّ مُناسَبَة .

* * *

فها هو ذا يَمُرُّ بجماعةٍ قد تَجَمْهَرُوا على رَجُلٍ وجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَشْتُمونَه ، فَأَقْبَل عليهم وقال :

ما الخَبَر ؟!

قالوا : رجلٌ وَقَعَ في ذَنْب كبير .

قال : أَرَأَيْتُمْ لو وَقَعَ في بئْرٍ أَفَلَمْ تكونوا تَسْتَخْرِجونه منه ؟

---

(١) بوراً : هالكاً خرباً .

(٢) عاد : قوم نبي الله هود ، عصوا نبيهم فأهلكهم الله .

(٣) نشيجهم : صوت بكائهم .

(٤) يؤم مجالس الناس : يتردد على مجالس الناس ويغشاها .

قالوا : بَلَىٰ .

قال : لا تَسُبُّوهُ ولا تَضْرِبُوهُ وإنَّما عِظُوهُ وبَصِّـروه ، وَآحْمِدُوا اللَّهَ الـذي عافاكم من الوُقوع في ذَنْبِه .

قالوا : أَفَلا تُبْغِضُه ؟!

قال : إنَّما أُبْغِضُ فِعْلَهُ فإذا تَركَهُ فهو أخي .

فأخذ الرجلُ ينتحِبُ وَيُعْلِنُ تَوْبَته .

* * *

وهـذا شـابٌّ يُقْبِــلُ على أبي الـدَّرْداءِ ويقــول : أَوْصِني يـا صــاحِبَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فيقول له :

يا بُنَيَّ ، اذْكُرِ اللَّهَ في السَّرَّاءِ يَذْكُرْكَ في الضَّرَّاء .

يا بُنَيَّ ، كُنْ عالِماً أو مُتَعَلِّماً أو مُسْتَمِعاً ولا تَكُنِ الرَّابعَ[1] فتَهْلَكَ .

يـا بُنَيَّ ، لِيَكُنِ المسجدُ بيتَـك ، فإنِّي سَمِعْتُ رسـولَ اللَّهِ ﷺ يقـولُ : (المساجِدُ بيتُ كُلِّ تَقِيٍّ) ، وقد ضَمِنَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ لِمَنْ كانَتِ المساجِدُ بيوتَهم الرَّوْحَ[2] والرَّحْمَةَ ، والجَوازَ[3] على الصِّراطِ إلىٰ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

وهؤلاءِ جماعةٌ من الشُّبَّانِ جَلَسُوا على الـطريقِ يَتَحَدَّثُـونَ ويَنْظُرُونَ إلىٰ المارِّين ، فَيُقْبِلُ عليهم ويقول :

يا بَنِيَّ ، صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ المُسْلِمِ بيتُه ، يَكُفُّ فيه نَفْسَهُ وبَصَرَهُ ، وإيَّاكم والجُلُوسَ في الأَسْوَاقِ فإنَّهُ يُلْهِي ويُلْغِي .

* * *

---

(١) أراد بالرابع الجاهل .

(٢) الروح : الراحة والسعة .

(٣) الجواز : المرور .

وفي أَثْناءِ إقامةِ أبي الدرداءِ بدمشقَ بَعثَ إليه واليها مُعاوِيةُ بنُ أبي سُفْيَانَ يخطُبُ ابنتَه الدرداءَ لابنه يزيدَ ، فأَبَىٰ أَنْ يُزَوِّجَها له ، وأعطاها لشابٍّ من عامَّةِ المسلمينَ رَضِيَ دِينَهُ وخُلُقَهُ.

فَسَارَ ذٰلك في الناسِ ، وجَعَلُوا يقولون : خَطَبَ يزيدُ بنُ مُعاوية بنتَ أبي الدَّرْداءِ فرَدَّهُ أبوها ، وزوَّجها لرجلٍ من عامَّةِ المسلمين.

فسأله سائلٌ عن سببِ ذلك فقال : إنَّما تَحَرَّيْتُ فيما صَنَعْتُهُ صَلاحَ أَمْرِ الدَّرْداءِ .

فقال : وكيف ؟

فقال : ما ظَنُّكم بالدَّرْداءِ إذا قامَ بين يَدَيْها العبيدُ يَخْدِمُونَها ، ووَجَدَتْ نفسَها في قصورٍ يَخْطَفُ لألاؤها ٱلْبَصَرَ . . . .

أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُها يَوْمَئِذٍ ؟! .

* * *

وفي خِلالِ وجودِ أبي الدرداءِ في بلادِ الشامِ قَدِمَ عليهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ ابنُ الخَطَّابِ مُتَفَقِّداً أحوالَها ، فزارَ صاحبَهُ أبا الدَّرْداءِ في مَنْزِلِهِ ليلاً ، فدفَعَ البابَ ، فإذا هو بِغَيْرِ غَلَقٍ ، فدَخَلَ في بيتٍ مُظْلِمٍ لا ضَوْءَ فيه ، فلمَّا سَمِعَ أبو الدَّرْداءِ حِسَّهُ قامَ إليه ، ورحَّبَ به وأَجْلَسَهُ.

وأخذ الرجلان يتفاوضان[1] الأحاديثَ ، والظلامُ يَحْجُبُ كُلًّا منهما عن عَيْنَيْ صاحِبِه.

فَجَسَّ عُمَرُ وِسَادَ أبي الدَّرْداءِ فإذا هو بَرْذَعَةٌ[2] . . . وجَسَّ فراشَهُ فإذا هو حَصًى . . . وجَسَّ دِثارَهُ[3] فإذا هو كِساءٌ رقيقٌ لا يَفْعَلُ شيئاً في بَرْدِ دمشقَ.

---

(١) يتفاوضان الأحاديث : يتبادلان الأحاديث ويتجاذبانها .

(٢) البرذعة : كساء يلقى على ظهر الدابة .

(٣) دثارَه : غطاءه .

فقال له : رحمكَ اللَّهُ ، أَلَمْ أُوَسِّعْ عليك ؟! أَلَمْ أَبْعَثْ إليك ؟!

فقال له أبو الدرداءِ : أَتَذْكُرُ - يا عمرُ - حديثاً حَدَّثَنَاهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ ؟.

قال : وما هو ؟

قال : أَلَمْ يَقُلْ : (لِيَكُنْ بلاغُ[1] أَحَدِكم من الدنيا كَزَادِ راكب) ؟.

قال : بَلىٰ .

قال : فماذا فَعَلْنا بَعْدَهُ يا عُمَرُ ؟!!

فبَكَىٰ عُمَرُ وبَكَىٰ أبو الدَّرْداء .

وما زالا يَتَجَاوَبَانِ[2] بالبُكاء حتَّىٰ طَلَعَ عليهما الصُّبْحُ .

* * *

ظَلَّ أبو الدَّرْداءِ في دمشقَ يَعِظُ أَهْلَها ويُذَكِّرُهم ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ حتَّى أتاهُ اليقينُ[3] ، فلما مَرِضَ مَرَضَ المَوْتِ ، دَخَلَ عليه أصحابُه فقالوا :

ما تشتكي ؟

قال : ذنوبي .

قالوا : وما تَشْتَهي ؟

قال : عَفْوَ رَبِّي .

ثم قال لمن حَوْلَهُ : لَقِّنُوني : لا آلَهَ إلَّا اللَّه محمدٌ رسولُ اللَّه ، فما زال يُرَدِّدُها حتى فارقَ الحياة .

* * *

---

(١) بلاغ أحدكم : كِفايَةُ أحدكم ومالُه .

(٢) يتجاوبان بالبكاء : يجيب كل منهما صاحبه بالبكاء .

(٣) اليقين : الموت .

ولما لَحِقَ أبو الدَّرْداءِ بجوارِ ربِّهِ رأى عوفُ بـنُ مالكِ الأَشْجَعِيُّ [1] فيما يراهُ النَّائِمُ مَرْجاً أَخْضَرَ فسيحَ الأَرْجَاءِ وارِفَ الأَفْيَاءِ فيهِ قُبَّةٌ عَظيمةٌ من أَدَمٍ [2] ، حَولَها غَنَمٌ رابِضَةٌ لم تَرَ ٱلْعَيْنُ مثلَها قطُّ ، فقال :

لِمَنْ هذا ؟!

فقِيلَ له : لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ عَوْفٍ .

فطلع عليه عبدُ الرحمن من القُبَّةِ ، وقال له : يا بنَ مالك ، هٰذا ما أعطانا اللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ بالقرآن . ولو أشْرَفْتَ على هذه الثَّنِيَّةِ [3] لرَأَيْتَ ما لم تَرَ عينُك ، وسمعتَ ما لم تَسْمَعْ أذنُك ، ووجَدْتَ ما لم يَخْطُرْ على قلبك .

فقال ابنُ مالِكٍ : ولمن ذٰلك كُلَّهُ يا أبا محمد ؟!

فقال : أَعَدَّهُ اللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ لأبي الدَّرْداءِ لأنَّهُ كان يَدْفَعُ عنه الدنيا بالرَّاحَتَيْنِ والصَّدْرِ [*] .

---

(١) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني : صحابي من الشجعان الرؤساء ، كانت معه راية « أشجع » يوم الفتح . نزل حمص وسكن دمشق .

(٢) من أدم : من جلد .

(٣) الثنية : الطريق .

(*) للاستزادة من أخبار أبي الدرداء انظر :

١ ـ الإصابة الترجمة ٦١١٧ .

٢ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/١٥ و ٤/١٥٩ .

٣ ـ أسد الغابة : ٤/١٥٩ .

٤ ـ حلية الأولياء : ١/٢٠٨ .

٥ ـ حسن الصحابة : ٢١٨ .

٦ ـ صفة الصفوة : ١/٢٥٧ .

٧ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/١٠٧ .

٨ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس) .

٩ ـ الكواكب الدرية : ١/٤٥ .

١٠ ـ الأعلام للزركلي : ٥/٢٨١ .

زيد بن حارثة

(وأيم اللّه لقد كان زيد بن حارثة خليقاً بالإمرة ، ولقد كانَ أحب الناس إليّ) .

[محمد رسول اللّه]

مَضتْ سُعْدَىٰ بنتُ ثَعْلَبَةَ تَبْتَغِي زِيَارَةَ قَوْمِهـا بَني مَعْنٍ ، وكانتْ تَصْحَبُ معَها غُلامَها زَيْدَ بنَ حارِثَةَ الْكَعْبِيَّ .

فما كادَتْ تَحُلُّ في ديارِ قَوْمِها حتَّى أغارتْ عليهم خَيْلٌ لِبَني ٱلْقَينِ فَأَخَذُوا المالَ ، واستَاقُوا الإبِلَ ، وسَبَوْا الذَّرَارِيَ . . .

وكان في جُمْلَةِ مَنِ احْتَمَلُوهُ مَعَهُمْ ولدُها زيدُ بنُ حارِثَةَ .

وكان زيدٌ ـ إذْ ذاكَ ـ غُلاماً صغيراً يَدْرُجُ نَحْوَ الثَّامِنَةِ من عمرِه ، فأَتَوْا به سوقَ عُكاظٍ[1] وَعَرَضُوهُ لِلْبَيْعِ فاشتراهُ ثَرِيٌّ من سادَةِ قريشٍ هو حكيمُ بنُ حَزامِ ابنِ خُوَيْلِدٍ بأربعِمائَةِ دِرْهَمٍ .

واشترَى مَعَهُ طائِفَةً من ٱلْغِلْمَانِ ، وعادَ بِهِمْ إلى مَكَّةَ .

فلما عَرَفَتْ عَمَّتُهُ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ بِمَقْدَمِه ، زارَتْهُ مُسَلِّمَةً عليه ، مُرَحِّبَةً بِهِ ، فقال لها :

يا عَمَّة ، لقدِ ٱبْتَعْتُ من سوقِ عُكاظٍ طائفةً من الغِلمان ، فاخْتَارِي أيّاً منهم

(١) سوق عكاظ : سوق كانت تقيمه العرب في الأشهر الحرم للبيع والشراء وتتناشد فيه الأشعار .

تَشائينَهُ ، فهو هَدِيَّةٌ لكِ .

فَتَفَرَّسَتِ السَّيِّدَةُ خديجةُ وُجوهَ ٱلْغِلْمانِ . . . وَٱخْتَارَتْ زَيْدَ بنَ حارِثَةَ ، لِما بَدَا لها من علاماتِ نَجابَتِهِ[1] ، ومَضَتْ به .

وما هو إلَّا قليلٌ حتَّىٰ تزوَّجت خديجةُ بنتُ خويلدٍ من محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ ، فأرادَتْ أن تُطْرِفَهُ[2] وتُهْدِيَ له ، فلم تَجِدْ خيراً من غُلامِها الأثيرِ[3] زيدِ بنِ حارِثَة فَأَهْدَتْهُ إلَيْه .

***

وفيما كان الغلامُ المحظوظُ يَتَقَلَّبُ في رِعَايَةِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ ، ويَحْظَىٰ بِكَرِيمِ صُحْبَتِهِ ، ويَنْعُمُ بِجَمِيلِ خِلالِه[4] .

كانتْ أُمُّهُ المَفْجوعَةُ بِفَقْدِهِ لا تَرْقَأُ[5] لها عَبْرَةٌ ، ولا تَهْدَأُ لها لَوْعَةٌ ولا يَطْمَئِنُّ لها جَنْبٌ .

وكان يزيدُها أسىً علَى أساها أنها لا تَعرِفُ أَحَيٌّ هو فتَرْجُوهُ أَمْ مَيِّتٌ فتَيأَس منه . .

أَمَّا أبوه فأخذ يَتحرَّاهُ في كلِّ أرضٍ ، ويُسَائِلُ عنه كلَّ رَكْبٍ ، ويَصُوغُ حنينَه إليه شِعْراً حزيناً تَتَفَطَّرُ[6] له الأكْبادُ حيث يقول :

بَكَيْتُ على زيدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَلْ … أَحَيٌّ فَيُرْجَى أَمْ أَتَىٰ دُونَهُ الأَجَلْ ؟
فَوَاللَّهِ ما أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ … أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غالَك الْجَبَلْ[7]
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِها … وتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إذا غَرْبُها أَفَلْ[8]

---

(١) نجابته : ذكاؤه وفطنته .
(٢) أن تطرفه : أن تتحفه .
(٣) الأثير : العزيز .
(٤) بجميل خلاله : بجميل أخلاقه وصفاته .
(٥) لا ترقأ لها عبرة : لا تجف لها دمعة .
(٦) تتفطر : تتمزق .
(٧) غالك : سرقك .
(٨) أفل : غاب .

سَأعْمِلُ نصَّ ٱلْعِيسِ فِي الأَرْضِ جاهِداً ... ولا أَسْأَمُ التَّطْوافَ أو تَسْأَم الإِبِلْ [١]
حيـاتِيَ ، أَوْ تَـأْتِـي عَلَيَّ مَـنِـيَّـتِـي ... فكُـلُّ آمْـرِىءٍ فـانٍ وَإِنْ غَـرَّهُ الأَمَـلْ

* * *

وفي مَوْسِمٍ من مواسِمِ الحجِّ [٢] قَصَدَ البيتَ الحرامَ نَفَرٌ من قَوْمِ زيدٍ ، وفيما كانوا يطوفون بالبيتِ العَتيقِ ، إذا هُمْ بِزَيْدٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ ، فَعَرفُوهُ وعَرَفَهُمْ وسَأَلُوهُ وسَأَلَهم ، ولما قَضَوْا مَنَاسِكَهم وعادوا إِلَىٰ دِيَارِهم أخبروا حارِثَةَ بِما رَأَوْا وحَدَّثُوهُ بما سَمِعُوا .

* * *

فما أَسْرَعَ أَنْ أَعَدَّ حارِثَةُ راحِلَتَهُ ، وحَمَلَ مِنَ المالِ ما يَفْدِي بـه فَلِذَةَ ٱلْكَبِدِ ، وقُرَّةَ ٱلْعَيْنِ ، وصَحِب معه أخاه كعباً ، وانطلقا معاً يُغِذَّانِ [٣] السَّيْرَ نَحْوَ مَكَّةَ فلما بَلَغَاهَا دخَلا على محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ وقالا له :

يا بنَ عبدِ المُطَّلِب ، أنتم جيرانُ اللَّهِ ، تَفُكُّـونَ ٱلْعَانِيَ [٤] ، وتُـطْعِمُونَ الجائعَ ، وتُغِيثُونَ المَلْهُوفَ .

وقد جِئْنَاكَ في ابْنِنا الذي عِنْدَكَ ، وحَمَلْنا إليكَ مِنَ المالِ ما يَفِي بِهِ .

فامْنُنْ علينا ، وفادِهِ لَنَا بِما تَشَاءُ .

فقال محمد : (ومَن ابنُكُما الذي تَعْنِيانِ ؟)

فقالا : غلامُكَ زيدُ بنُ حارثة .

فقال :(وهل لَكُمَا فيما هو خيرٌ من ٱلْفِدَاءِ ؟)

فقالا : وما هو ؟!

---

(١) سأعمل نص العيس : سأستحث النوق على السير في الأرض .
(٢) كان ذلك في الجاهلية .
(٣) يغذان السير : يسرعان في السير .
(٤) العاني : السائل والمستجير .

فقال : (أَدْعُوهُ لكم ، فَخَيِّرُوه بَيْني وبَيْنَكم ؛ فإن آخْتَارَكم فهو لكم بغَيْـرِ مال ، وإن آخْتَارَني فما أنا ـ واللَّهِ ـ بالذي يَرْغَبُ عَمَّنْ يَخْتَارُه) .

فقالا : لقد أَنْصَفْتَ وبَالَغْتَ في الإنْصَافِ .

فدعا محمدٌ زيداً وقال : (مَنْ هٰذان ؟) .

قال : هٰذا أبي حارِثَةُ بنُ شُراحيل ، وهٰذا عَمِّي كَعْبٌ .

فقال :(قد خَيَّرْتُكَ: إنْ شِئْتَ مَضَيْتَ معهما ، وإنْ شِئْتَ أَقَمْتَ معي) .

فقال ـ في غيرِ إبْطَاءٍ ولا تَرَدُّدٍ ـ : بل أُقِيمُ مَعَكَ .

فقال أبوه : وَيْحَكَ يا زيدُ ، أتختارُ آلْعُبُودِيَّةَ علىٰ أبيكَ وأُمِّكَ ؟!

فقال : إنِّي رَأَيْتُ مِنْ هذا الرَّجُلِ شَيْئاً ، وما أنا بالذي يُفَارِقُه أبداً .

* * *

فلما رَأَىٰ محمدٌ من زيدٍ ما رَأَى ، أَخَذَ بِيَدِهِ وأَخْرَجَهُ إلىٰ البيتِ الحَرامِ ، ووَقَفَ به بالْحِجْرِ علىٰ ملأٍ من قريشٍ وقال :

يا مَعْشَرَ قريش ، اِشْهَدُوا أَنَّ هذا ابْني يَرِثُني وأَرِثُه . . .

فَطَابَتْ نَفْسُ أَبِيهِ وعَمِّه ، وخَلَّفَاهُ عنـدَ محمدِ بنِ عبـدِ اللَّهِ ، وعادا إلىٰ قَوْمِهِما مُطْمَئِنِّي النَّفْسِ مُرْتَاحَي آلْبَالِ .

ومنذ ذلك اليومِ أصبحَ زيدُ بنُ حارِثَةَ يُدْعَىٰ بِزَيْدِ بنِ محمدٍ ، وظلَّ يُدْعَى كذلك حتَّىٰ بُعِثَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، وأَبْطَلَ الإسلامُ التَّبَنِّيَ حَيْثُ نَزَلَ قَوْلُهُ جَلَّ وعَزَّ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾[1] فأَصْبَحَ يُدْعَى : زيدَ بنَ حارِثَةَ .

* * *

لم يَكُنْ يَعْلَمُ زيدٌ ـ حينَ اختارَ محمداً على أُمِّه وأبيهِ ـ أَيَّ غُنْمٍ غَنِمَهُ .

---

(١) سورة الأحزاب : ٥ .

ولم يَكُنْ يَدْرِي أَنَّ سَيِّدَهُ الَّذِي آثَرَهُ علىٰ أَهْلِهِ وعَشِيرَتِهِ هوَ سَيِّدُ الأَوَّلِينَ والآخرينَ ، ورسولُ اللَّهِ إلىٰ خَلْقِهِ أجمعين .

وما خَطَرَ له ببالٍ أَنَّ دَوْلَةً لِلسَّمَاءِ سَتَقُومُ علَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ فَتَمْلأَ ما بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وٱلْمَغْرِبِ بِرًّا وعَدْلاً ، وَأَنَّهُ هوَ نفسهُ سيكونُ اللَّبِنَةَ الأُولى في بناءِ هذه الدولةِ العُظْمَىٰ . . .

لم يَكُنْ شَيْءٌ من ذلك يدورُ في خَلَدِ زَيْدٍ . . .
وإنما هو فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ . . .
واللَّهُ ذو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

ذلك أَنَّهُ لم يَمْضِ علىٰ حادِثَةِ التَّخْيِيرِ هذه إلَّا بضْعُ سِنين حتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ نبيَّهُ محمداً بـدينِ الهُدَىٰ والحَقِّ ، فَكَـانَ زيدُ بنُ حـارِثَةَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بـه من الرِّجالِ .

وهَلْ فوقَ هذه الأَوَّلِيَّةِ أَوَّلِيَّةٌ يَتنَافَسُ فيها المُتَنَافِسُون؟!

لقد أصبحَ زيدُ بنُ حارِثَة أميناً لِسِرِّ رسولِ اللَّهِ ، وقائِداً لِبُعُوثِهِ وسَرَايَاه ، وأَحَدَ خُلَفَائِهِ علَىٰ المدينَةِ إذا غادَرَها النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ .

* * *

وكما أَحَبَّ زيدٌ النبيَّ وآثَرَهُ على أُمِّهِ وأبيه ، فقد أَحَبَّـهُ الرسـولُ الكريمُ صلواتُ اللَّهِ عليهِ وخَلَطَهُ بِأَهْلِهِ وبنيه، فكان يَشْتَاقُ إليه إذا غاب عنه ، ويَفْرَحُ بقدومِهِ إذا عادَ إليه ، ويَلْقَاهُ لِقَاءً لا يَحْظَىٰ بِمِثْلِهِ أحدٌ سواه .

فها هي ذي عائِشَةُ رِضوانُ اللَّهِ عليها تُصَوِّرُ لنا مَشْهَداً من مَشَاهِدِ فَرْحَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بِلِقَاءِ زيدٍ فتقول :

« قَدِمَ زيـدُ بنُ حارِثَةَ المدينةَ ، ورسولُ اللَّهِ ﷺ في بَيْتي ، فَقَرَعَ البابَ ،

فقام إليه الرسولُ عُرْياناً ـ ليس عليه إلا ما يَسْتُرُ ما بَيْنَ سُرَّتِهِ ورُكْبَتِهِ ـ ومَضَى إلى الباب يَجُرُّ ثَوْبَهُ ؛ فاعْتَنَقَهُ وقَبَّلَهُ . وواللَّهِ ما رأيتُ رسولَ اللَّهِ عُرْيَاناً قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ[1] .

وقد شاعَ أمرُ حُبِّ النَّبيِّ لِزَيْدٍ بينَ المسلمينَ واستَفَاضَ[2] ، فَدَعَوْهُ « بِزَيْدِ الحُبِّ » ، وأطلقوا عليه لقبَ « حِبِّ »[3] رسولِ اللَّه ؛ ولَقَّبُوا ابنَهُ أُسامَةَ من بَعْدِهِ بِحِبِّ رسولِ اللَّهِ وابنِ حِبِّه .

***

وفي السنةِ الثامنةِ من الهجرة شاءَ اللَّهُ ـ تَبارَكَتْ حِكْمَتُه ـ أن يَمْتَحِنَ الحبيبَ بفراقِ حبيبِه .

ذلك أَنَّ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، بَعَثَ الحارِثَ بنَ عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ بِكِتَابٍ إلىٰ مَلِكِ بُصْرَىٰ يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلما بلغَ الحارثُ « مُؤتَة » بِشَرْقِيِّ الأردُنِّ ، عَرَضَ له أحدُ أمراءِ الغساسِنَةِ شُرَحْبِيلُ بنُ عمرو فأَخَذَه ، وشدَّ عليه وِثَاقَه ، ثم قَدَّمَه فضَرَبَ عُنُقَه .

فاشتدَّ ذلك على النبيِّ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه إذ لم يُقْتَلْ له رسولٌ غيرُه .

فجَهَّزَ جيشاً من ثلاثةِ آلافِ مُقَاتِلٍ لِغَزْوِ مُؤتَةَ ، وَوَلَّى على الجيشِ حبيبَه زيدَ بنَ حارِثَةَ ، وقال : إنْ أُصيبَ زيدٌ فتكونُ القِيَادَةُ لِجَعْفَرِ بنِ أَبي طالِبٍ ، فإنْ أُصِيبَ جعفرُ كانتْ إلىٰ عبدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ ، فإنْ أُصيبَ عبدُ اللَّهِ فَلْيَخْتَرِ المسلمون لأنفُسِهم رجلاً منهم .

***

---

(١) انظر جامع الأصول : ١٠/٢٥ وقد أخرجه الترمذي .

(٢) استفاض : ذاع وانتشر .

(٣) الحب ـ بكسر الحاء ـ : المحبوب .

مضَىٰ الجيشُ حتَّىٰ وصَلَ إلىٰ « معانَ » بشرقي الأُرْدُنِّ .

فهَبَّ هِـرَقْلُ ملكُ الـرومِ على رأسِ مـائـةِ ألفِ مُقـاتـلٍ للدفـاعِ عن الغسَاسِنَة ، وانضمَّ إليه مائةُ ألفٍ من مُشركي العرب ، ونَزَلَ هذا الجيشُ الجـرَّارُ غيرَ بعيدٍ من مواقع المسلمين .

* * *

باتَ المسلمون في « معانَ » ليلتين يتشاورون فيما يصنعون .

فقال قائِلٌ : نَكْتُبُ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ونُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا ونَنْتَظِرُ أَمْرَه .

وقال آخَرُ : واللَّهِ ـ يا قوم ـ إنَّنَا لا نُقَاتِلُ بِعَدَدٍ ولا قُوَّةٍ ولا كَثْرَةٍ وإنَّما نُقَاتِلُ بهذا الدِّين .

فانطَلِقُوا إلىٰ ما خَرَجْتُمْ له .

وقـد ضَمِنَ اللَّهُ لكُمُ ٱلْفَوْزَ بـإِحْدَىٰ الحُسْنَيَيْنِ : إمَّـا الظَّـفَـرُ . . . وإمَّا الشَّهادةُ .

* * *

ثم ٱلْتَقَىٰ الجَمْعَانِ علىٰ أرضِ مُؤتَةَ ، فقاتَلَ المسلمونَ قِتالاً أَذْهَلَ الرُّومَ ومَلأَ قلوبَهُمْ هَيْبَةً لهذه الآلافِ الثلاثةِ التي تَصَدَّتْ لِجَيْشِهِم البالغِ مائتيْ ألفٍ .

وجالَدَ[1] زيدُ بنُ ثابتٍ عن رايَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ جِلاداً لم يَعْرِفْ لـه تاريخُ البُطولاتِ مَثيلاً حتَّى خَرَّقَتْ جَسَدهُ مئاتُ الرِّماحِ فَخَرَّ صريعاً يَسْبَحُ في دمائِه .

فتناول منه الراية جعفرُ بنُ أبي طالبٍ وطَفِق يَذُودُ عنها أكْرَمَ الذَّوْدِ حتَّى لَحِقَ بصاحِبِه .

فتناول منه الرايةَ عبدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فَنَاضَلَ عنها أَبْسَلَ النِّضالِ حتَّىٰ انْتَهَى

---

(١) جالد جلاداً : ضرب بالسيف ضرباً ، قاتل قتالاً .

إلى ما انْتَهى إليه صاحباه .

فـأَمَّرَ النـاسُ عليهم خالـدَ بنَ الوليـدِ ـ وكان حـديثَ إسْـلامٍ ـ فـانْحـازَ بالجيشِ ، وأنقذه من الفَناءِ المُحَتَّمِ .

* * *

بلغت رسولَ اللَّهِ ﷺ أنباءُ مُؤتَةَ ، ومَصْرَعُ قادَتِه الثلاثةِ فَحَزِنَ عليهم حُزناً لم يَحْزَنْ مِثْلَهُ قَطُّ . ومَضَى إلى أهليهم يُعَزِّيهِمْ بِهِمْ .

فلما بَلَغَ بَيْتَ زَيْدِ بنِ حارِثَةَ لاذَتْ بِهِ ابْنَتُهُ الصَّغيرَةُ وهي مُجْهِشَةٌ بالبُكاءِ ، فَبَكَى رسولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَحَبَ(1) .

فقال له سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ : ما هذا يا رسولَ اللَّه ؟!

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (هذا بُكاءُ الحبيبِ على حبيبه)(*) .

---

(1) انتحب : ارتفع صوته بالبكاء .

(*) للاستزادة من أخبار زيد بن ثابت انظر :

١ ـ صحيح مسلم : ١٣١/٧ باب فضائل الصحابة .
٢ ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول : ٢٥/١٠ و ٢٦ .
٣ ـ الإصابة : الترجمة ٢٩٠ .
٤ ـ الاستيعاب : (على هامش الإصابة) : ٥٤٤/١ .
٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام (انظر فهارس الأجزاء الأربعة) .
٦ ـ صفة الصفوة : ١٤٧/١ .
٧ ـ خزانة الأدب للبغدادي : ٣٦٣/١ .
٨ ـ البداية والنهاية (في أخبار السنة الثامنة للهجرة) .
٩ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

أُسَامَة بن زَيْد

«إن أبا أسَامَة كان أحبَّ إلىٰ رَسول اللَّهِ مِنْ أبيك ، وكانَ هوَ أحبّ إلى رَسُولِ اللَّه مِنك » .

[من كلام الفاروق لابنه]

نحنُ الآنَ في السنةِ السابِعَةِ قبلَ الهِجْرَةِ في مكَّةَ .

ورسـولُ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُـه عليه يُكـابِـدُ[1] من أَذى قـريشٍ لـه ولأصحابِهِ ما يُكابِدُ .

ويحملُ من همومِ الدَّعْوَةِ وأعبائِها ما أحالَ حياتَهُ إلى سِلْسِلَةٍ مُتَواصِلَةٍ منَ الأَحْزَانِ والنَّوَائِبِ[2] .

وفيما هو كذلك أَشْرَقَتْ في حياتِه بارِقَةُ سرورٍ .

فلقد جاءَهُ البشيرُ يُبَشِّرهُ أَنَّ « أُمَّ أَيْمَنَ » وضعتْ غلاماً .

فأضاءتْ أَسَارِيرُه[3] عليه الصلاةُ والسلامُ بالْفَرْحَةِ ، وأشرقَ وجهُه الكريمُ بالْبَهْجَةِ .

فمَنْ يكونُ هذا الغلامُ السعيدُ الذي أَدْخَلَ علَىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ هذا السرورِ ؟!

إنه « أُسَامَةُ بنُ زَيْد » .

---

(١) يكابد : يعاني .

(٢) النوائب : المصائب .

(٣) أساريره : محاسن وجهه .

ولم يَسْتَغْرِبْ أحدُ من صحابةِ رسولِ اللّهِ ﷺ بهجتَه بالمولودِ الجديد ، وذلك لِمَوْضِعِ أَبَوَيْهِ منه[1] ، ومَنْزِلَتِهما عنده .

فأُمُّ ٱلْغُلامِ هي « بَركَةُ الحَبَشِيَّةُ » المُكَنَّاةُ بأُمِّ أَيْمَن .

وقد كانَتْ مَمْلُوكَةً لآمِنَةِ بنتِ وهَبٍ أُمِّ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ ، فَرَبَّتْهُ في حَيَاتِها ، وحَضَنَتْهُ بَعْدَ وَفَاتِها ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ على الدُّنيا ، وهو لا يعرِفُ لنفسهِ أمًّا غَيْرَهَا .

فأَحَبَّها أَعْمَقَ الحُبِّ وَأَصْدَقَهُ ، وكثيراً ما كان يقول :

هي أُمِّي بَعْدَ أُمِّي ، وبقيَّةُ أَهْلِ بيتي .

هذه أُمُّ الغلامِ المَحْظُوظِ ، أَمَّا أبوه فهو « حِبُّ » رسولِ اللّه ﷺ زيدُ بنُ حارِثَةَ ، وابنُه بِالتَّبَنِّي قَبْلَ الإسلامِ ، وصاحِبُهُ ومَوْضِعُ سِرِّه ، وأَحَدُ أَهْلِهِ وأَحَبُّ الناس إِليهِ بَعْدَ الإسلامِ .

وقد فَرِحَ المسلمونَ بِمَوْلِدِ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ كما لم يَفْرَحُوا بمولـودٍ سِواه ؛ ذلك لِأَنَّ كُلَّ ما يُفرِحُ النَّبيَّ يُفرِحُهُم ، وكلَّ ما يُدْخِلُ السُّرُورَ على قَلْبِهِ يَسرُّهُمْ .

فأطلقوا على الغلامِ المحظوظِ لقبَ : « الحِبَّ وابنُ الحِبِّ » .

* * *

ولم يكنِ المسلمونَ مُبَالِغينَ حينَ أطلقوا هذا اللقبَ على الصَّبيِّ الصَّغيرِ أُسَامَةَ ؛ فقد أَحَبَّهُ الرَّسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه حُبًّا تَغْبِطُهُ عليه الدُّنيا كُلُّها .

فَقَدْ كان أُسامَةُ مُقارِباً في السِّنِّ لِسِبْطِهِ[2] الحَسَنِ بنِ فاطِمَةَ الزَّهْراء .

وكان الحَسَنُ أَبْيَضَ أَزْهَرَ رائِعَ الحُسْنِ شديدَ الشَّبَهِ بِجَدِّهِ رسولِ اللّهِ .

وكان أسامةُ أَسْوَدَ ٱلْبَشَرَةِ أَفْطَسَ الْأَنْفِ شديدَ الشَّبَهِ بأُمِّهِ الحَبَشِيَّةِ .

---

(١) لموضع أبويه منه : لمكانة أبويه عنده .

(٢) سبط الرجل : ابن ابنته .

لكِنَّ الرسولَ صلواتُ اللّهِ عليهِ ما كانَ يُفَرِّقُ بينَهُما في الحُبِّ ، فكان يأخذُ أسامةَ فيَضَعُه على إِحْدَىٰ فَخِذَيْه ، ويأخُذُ الحَسَنَ فيَضَعُه على فَخِذِه الأُخْرَىٰ ثم يَضُمُّهَما معاً إِلىٰ صَدْرِهِ ويقول :
(اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُما) .

وقد بَلَغَ من حُبِّ الرسولِ لِأُسامَةَ أَنَّهُ عَثَرَ ذاتَ مَرَّةٍ بِعَتَبَةِ ٱلْبَابِ فَشُجَّتْ جَبْهَتُه ، وسالَ الدَّمُ من جُرْحِه ؛ فأشارَ النبيُّ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه لعائشةَ رِضْوَانُ اللّهِ عليها أن تُزِيلَ الدَّمَ عنْ جُرْحِه فلم تَطِبْ نَفْسُهَا لذلك .

فقامَ إليه النبيُّ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه وجعَلَ يَمصُّ شَجَّتَهُ ، ويَمُجُّ الدَّمَ وهو يُطَيِّبُ خاطِرَهُ بكلماتٍ تَفيضُ عُذُوبَةً وحناناً .

* * *

وكما أَحَبَّ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليهِ أُسامةَ في صِغَرِه فقد أَحَبَّهُ في شبابه .

فلقد أَهْدَىٰ حكيمُ بنُ حَزامٍ أَحَدُ سَرَاةِ[1] قريشٍ لرسولِ اللّهِ ﷺ حُلَّةً ثمينةً شَرَاها من ٱلْيَمَنِ بخمسين ديناراً ذهباً كانت « لِذِي يَزَن » أَحَدِ مُلوكِهم .

فأَبَىٰ رسولُ اللّه ﷺ أَنْ يَقْبَلَ هَدِيتَه لأنّهُ كان يومئذٍ مُشْرِكاً ، وأَخَذَها مِنْهُ بِالثَّمَن .

وقد لَبِسَها النبيُّ الكريمُ مَرَّةً واحِدَةً في يومِ جُمُعَةٍ ، ثم خَلَعَها على أسامةَ بنِ زيدٍ ، فكان يروحُ بها ويَغْدُو بَيْنَ أَتْرَابِه من شُبَّانِ المهاجِرينَ والأَنْصارِ .

* * *

ولما بلغَ أسامةُ بنُ زيدٍ أَشُدَّهُ[2] ، بَدا عليه مِنْ كريمِ الشَّمائِلِ وجَليلِ

---

(١) السَّراة بفتح السين : الأشراف .
(٢) بلغ أشده : بلغ سن الرجولة .

الخَصَائِلِ ما يَجْعَلُهُ جَديراً بِحُبِّ رسولِ اللّهِ ﷺ .

فقد كان ذَكِيًّا حادَّ الذَّكاءِ ، شُجاعاً خارِقَ الشجَاعَةِ ، حكيماً يَضَعُ الأُمورَ في مواضِعها ، عفيفاً يَأْنَفُ الدَّنايا ، آلِفاً مألوفاً يُحِبُّه النَّاسُ ، تَقِيًّا وَرِعاً يُحِبُّه اللّهُ .

ففي يومِ أُحُدٍ جاءَ أسامةُ بنُ زيدٍ مع نَفَرٍ من صِبيانِ الصَّحَابَةِ يُريدون الجِهادَ في سبيلِ اللّهِ ، فَأَخَذَ الرسولُ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ ، وَرَدَّ مِنْهم مَنْ رَدَّ لِصِغَرِ أَعْمَارِهِمْ ، فكان في جملةِ المردودين أسامةُ بنُ زيدٍ ، فَتَوَلَّى[1] وعيناه الصغيرتانِ تَفيضانِ من الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يُجاهِدَ تحتَ رَايَةِ رسولِ اللّهِ .

* * *

وفي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ ، جاءَ أسامةُ بنُ زيدٍ أيضاً ومَعَهُ نَفَرٌ من فِتْيَانِ الصَّحَابَةِ ، وجَعَلَ يَشُدُّ قامَتَهُ إلىٰ أَعْلَىٰ لِيُجِيزَهُ[2] رسولُ اللّهِ ، فَرَقَّ له النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ وأجازَه ، فحملَ السيفَ جهاداً في سبيلِ اللّهِ وهو ابنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً .

* * *

وفي يومِ حُنَيْنٍ حينَ انهزَمَ المسلمون ، ثَبَتَ أسامةُ بنُ زيدٍ مع ٱلْعَبَّاسِ عَمِّ الرسولِ ، وأبي سفيانَ بنِ الحارثِ ابنِ عَمِّه وستَّةِ نفرٍ آخَرينَ من كِرامِ الصَّحابةِ ، فاستطاع الرسولُ عليه الصلاة والسَّلامُ بهذه الفئةِ الصغيرةِ المؤمنةِ الباسِلةِ ، أَنْ يُحَوِّلَ هزيمَةَ أصْحابِه إلىٰ نَصْرٍ ، وأَنْ يَحْمِيَ المسلمينَ الفارِّينَ من أن يَفْتِكَ بِهِم المُشْرِكون .

* * *

وفي يومِ مُؤْتَةَ جاهَدَ أسامةُ تحتَ لِوَاءِ أبيهِ زيدِ بنِ حارِثَةَ وسِنُّه دونَ الثامِنَةَ

---

(١) فتولى : فرجع .

(٢) ليجيزه : ليأذن له .

عشرةَ ، فرأىٰ بِعَيْنَيْهِ مَصْرَعَ أبيه ، فلم يَهِنْ[1] ولم يَتَضَعْضَعْ ، وإنما ظَلَّ يُقَاتِلُ تحتَ لِواءِ جَعْفَرِ بنِ أبي طَالِبٍ حتَّىٰ صُرِعَ على مَرْأىً منه ومَشْهدٍ ، ثم تحتَ لِواءِ عبدِ اللّهِ بنِ رَوَاحَةَ حتَّىٰ لَحِقَ بِصَاحِبَيْه ، ثم تحت لِواء خالـدِ بنِ الوليـدِ حتَّىٰ استَنْقَذَ الجيشَ الصغيرَ من بَرَاثِنِ[2] الرُّومِ .

* * *

ثم عادَ أسامةُ إلى المدينةِ مُحْتَسِباً أباهُ عِنْدَ اللّهِ ، تارِكاً جَسَدهُ الطَّاهِرَ على تُخومِ الشَّامِ ، راكباً جوادَه الذي اسْتُشْهِدَ عليه .

* * *

وفي السَّنَةِ الحادية عشْرَةَ للهِجْرَةِ ، أمرَ الرسولُ الكريمُ بتجهيزِ جيشٍ لِغَزْوِ الرُّومِ ، وجَعَلَ فيه أبا بكرٍ ، وعمرَ ، وسَعْـدَ بنَ أبي وقَّاصٍ ، وأبـا عبيدَة بنَ الجرَّاحِ وغيرَهم من جِلَّةِ[3] الصحابة ، وأمَّرَ علَىٰ الجيشِ أسامةَ بنَ زيد ، وهو لم يجاوِزِ العشرين بَعْـدُ . وأمَرَه أن يُـوطِىءَ الخيلَ تخـومَ « البَلْقاءِ » و « قَلْعَـةَ الدَّارومِ » ، القريبةَ من غَزَّةَ من بلادِ الرومِ .

وفيمـا كان الجيشُ يَتَجَهَّـزُ ، مَرِضَ رسـولُ اللّهِ ﷺ ، ولما اشْتَـدَّ عليـه المرضُ ، تَوَقَّفَ الجيشُ عن المسيرِ انتظاراً لِما تُسْفِرُ عنه حالُ رسولِ اللّهِ ﷺ .

قال أسامةُ : « ولما ثَقُلَ علَىٰ نبيِّ اللّهِ المَرَضُ ، أقبلتُ عليه وأقبلَ النَّاسُ معي ، فَدَخَلْتُ عليه فوجدتُه قَدْ صَمَتَ فما يَتَكَلَّمُ من وَطْأةِ[4] الدَّاءِ ، فجعلَ يَرْفَعُ يَدَهُ إلىٰ السَّماءِ ثم يَضَعُها علَيَّ ؛ فَعَرَفْتُ أنَّهُ يَدْعو لي .

* * *

ثم ما لَبِثَ أنْ فارقَ الرسولُ الحياةَ ، وتَمَّتِ البيعةُ لأبي بكرٍ ، فأمَرَ بإنفاذِ

---

(١) فلم يهن : فلم يضعف .
(٢) براثن الروم : مخالب الروم .
(٣) جلة الصحابة : شيوخ الصحابة .
(٤) من وطأة الداء : من ثقل الداء وشدته .

بَعْثِ أُسَامَةَ .

لكِنَّ فِئَةً من الأنْصارِ رَأَتْ أَنْ يُؤخَّرَ ٱلْبَعْثُ ، وَطَلَبَتْ من عمرَ بنِ الخطابِ أن يُكَلِّمَ في ذلك أبا بكرٍ ، وقالت له :

فإنْ أَبَىٰ إلَّا المُضِيَّ ، فأَبْلِغْهُ عَنَّا أَنْ يُولِّيَ أَمْرَنا رَجُلاً أَقْدَمَ سِنّاً من أُسَامَةَ .

وما إنْ سَمِعَ الصِّدِّيقُ مِنْ عمرَ رِسَالَةَ الأَنْصارِ ، حتى وَثَبَ لها - وكان جالساً - وأَخَذَ بِلِحْيَةِ الفاروقِ وقال مُغْضَباً :

ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَعَدِمَتْكَ يا بنَ الخطاب . . . اِسْتَعْمَلَهُ[1] رسولُ اللّهِ ﷺ وتأمُرني أنْ أَنْزَعه ؟! واللّهِ لا يكونُ ذلك .

ولما رَجَعَ عمرُ إلى النَّاسِ ، سألوه عَمَّا صَنَعَ ، فقال :

امْضوا ثَكِلَتْكُمْ[2] أُمَّهاتُكم ، فقد لَقِيتُ ما لَقِيتُ في سبيلِكم من خليفةِ رسولِ اللّهِ .

* * *

ولما انطلقَ الجيشُ بقيادَةِ قائِده الشَّابِّ ، شَيَّعَهُ خليفةُ رسولِ اللّهِ ماشِياً وأسامةُ راكِبٌ ، فقال أسامةُ : يا خليفةَ رسولِ اللّهِ :

واللّهِ لَتَرْكَبَنَّ أَوْ لأَنْزِلَنَّ . فقال أبو بكر :

واللّهِ لا تَنْزِلُ ، وواللّهِ لا أَرْكَبُ . . . وما عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ في سبيلِ اللّهِ ساعَةً ؟!

ثم قال لأُسامَةَ : أَسْتَوْدِعُ اللّهَ دِينَكَ وأمانَتَكَ وخواتيمَ عَمَلِكَ ، وأُوصيكَ بإِنْفَاذِ ما أَمَرَكَ به رسولُ اللّهِ ، ثم مالَ عليه وقال :

---

(١) استعمله : ولاه .

(٢) ثكلتكم أمهاتكم : فقدتكم أمهاتكم .

إِنْ رأيتَ أَنْ تُعِينَني بِعُمَرَ فائْذَنْ لهُ بِالْبَقَاءِ معي ، فَأَذِنَ أسامةُ لِعُمَرَ بالبقاء .

* * *

مَضَىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ بالجيشِ ، وأَنْفَذَ كُلَّ ما أَمَرَهُ بِهِ رسولُ اللّه ، فَأَوْطَأَ خيلَ المسلمينَ « تُخومَ ٱلْبَلْقَاءِ » و « قَلْعَةَ الدَّاروم » من أَرْضِ فِلَسْطِينَ ، ونَزَعَ هَيْبَةَ الرُّومِ من قُلوبِ المسلمينَ ، ومَهَّدَ الطريقَ أَمامَهم لفتحِ ديارِ الشَّامِ ، ومِصْرَ ، والشمال الإفريقي كلّه حَتَّى بحر الظُّلُماتَ . . .

ثمَّ عادَ أسامةُ مُمْتَطِياً صَهْوَةَ[1] الجوادِ الذي اسْتُشْهِدَ عليه أبوه ، حامِلاً من الغنائمِ ما زادَ عن تقديرِ المُقَدِّرِينَ ، حتَّى قيلَ :

« إِنَّهُ ما رُئِيَ جيشٌ أَسْلَمُ وأَغْنَمُ من جيشِ أُسامةَ بنِ زيدٍ .

* * *

ظَلَّ أسامةُ بنُ زيدٍ ـ ما امتدَّتْ به الحياةُ ـ مَوْضِعَ إِجْلالِ المسلمينَ وحُبِّهم ، وفاءً لرسولِ اللّهِ ، وإِجْلالاً لِشَخْصِه .

فقد فَرَضَ له الفاروقُ عَطاءً[2] أكثرَ مِمَّا فَرَضَهُ لِابْنِه عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ ، فقال عبدُ اللّهِ لأبيهِ :

« يا أَبَتِ ، فَرَضْتَ لأُسامةَ أربعةَ آلافٍ وَفَرَضْتَ لي ثلاثةَ آلافٍ ، وما كان لأبيه من ٱلْفَضْلِ أكثرُ مِمَّا كانَ لَكَ ، ولَيْسَ لَهُ من ٱلْفَضْلِ أكثر ممَّا لي .

فقال الفاروقُ : هَيْهَاتَ . . .[3] .

إِنَّ أباهُ كان أَحَبَّ إِلىٰ رسولِ اللّهِ من أبيكَ ، وكانَ هو أَحَبَّ إِلىٰ رسولِ اللّهِ مِنْكَ . . . فَرَضِيَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ بما فُرِضَ له من عَطاءٍ .

---

(١) صهوة الجواد : مكان قعود الفارس على الجواد .
(٢) عطاء : مرتباً .
(٣) هيهات : لقد أبْعَدْت كثيراً .

وكان عمرُ بنُ الخطابِ إذا لَقِيَ أسامةَ بنَ زيدٍ قال :
مَرْحَباً بأميري . . . فإذا رأىٰ أحداً يَعْجَبُ منه قال :
لقد أَمَّرَهُ عَلَيَّ رسولُ اللّٰهِ ﷺ .

* * *

رَحِمَ اللّٰهُ هٰذه النفوسَ الكبيرةَ ، فما عَرَفَ التاريخُ أَعْظَمَ ولا أَكْمَلَ ولا أَنْبَلَ من صَحَابَةِ رسولِ اللّٰهِ(*) .

(*) للاستزادة من أخبار أسامة بن زيد انظر :

١ ـ الإصابة (طبعة مصطفى محمد) : ١/٤٦ .
٢ ـ الاستيعاب (حاشية الإصابة) : ١/٣٤ ـ ٣٦ .
٣ ـ تقريب التهذيب : ١/٥٣ .
٤ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٢٧٠ ـ ٢٧٢ .
٥ ـ الطبقات الكبرى : ٤/٦١ ـ ٧٢ .
٦ ـ العبر ١/٩٥ .
٧ ـ من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ لأبي الفتوح التوانسي : ٣٣ ـ ٣٩ .
٨ ـ قادة فتح الشام ومصر : ٣٣ ـ ٥١ .
٩ ـ الأعلام ومراجعه : ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

سَعِيدُ بنُ زَيْد

« اللهُمَّ إن كُنت حَرَمتَني من هذَا الخَيرِ فَلا تَحرم مِنْهُ ابني سعيداً » .

[زيد والد سعيد]

وقفَ زيدُ بنُ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ بعيداً عن زَحْمَةِ النَّاسِ يَشْهَدُ قُرَيْشاً وهي تَحْتَفِلُ بِعيدٍ من أَعْيَادِهَا ، فرأَى الرِّجالَ يَعْتَجِرُونَ[1] ٱلْعَمَائِمَ السُّنْدُسِيَّةَ ٱلْغَالِيَةَ ، ويختالون بالبُرودِ اليمانيةِ الثمينة ، وأَبْصَرَ النِّساءَ والْوِلْدَانَ وقد لَبِسُوا زاهِيَ الثيابِ وبديعَ الحُلَلِ ، ونَظَرَ إلىٰ الأَنْعَامِ يَقُودُها المُوسِرُونَ ، بعد أن حَلَّوْها بـأَنْواعِ الزِّينَةِ ، لِيَذْبَحُوها بينَ أَيْدِي الأَوْثانِ .

فوقفَ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إلى جدارِ ٱلْكَعْبَةِ وقال : يا مَعْشَرَ قريشٍ : الشَّاةُ خلقَها اللَّهُ ، وهو الذي أنزلَ لها المطرَ من السماءِ فَرَوِيَتْ ، وأَنْبَتَ لها ٱلْعُشْبَ مِنَ الأرضِ فَشَبِعَتْ ، ثم تذبحونَها على غَيْرِ اسْمِه ، إِنِّي أراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ .

فقامَ إليهِ عَمُّهُ الخَطَّابُ والدُ عُمرَ بنِ الخطابِ ، فَلَطَمَهُ ، وقال :

تَبّاً لَكَ[2] ، ما زِلنا نَسْمَعُ منكَ هذا البَذاءَ[3] ونحتَمِلُه ، حتَّىٰ نَفِذَ صَبْرُنا ، ثم أَغْرَى بِهِ سُفَهَاءَ قَوْمِهِ فَآذَوْهُ ، ولَجُّوا في إيذائِه ، حتَّى نَزَحَ عن مَكَّةَ وَٱلْتَجَأَ إلىٰ جَبَلِ حِراء ، فوَكَلَ به الخطَّابُ طائفةً من شَبَابِ قريشٍ ، لِيَحُولوا دونَـه ودونَ دخولِ مَكَّةَ ، فكان لا يَدْخُلُها إلَّا سِرًّا .

---

(١) يعتجرون العمائم : يلفون العمائم .

(٢) تبّاً لك : خسراناً لك .

(٣) البذاء : الكلام السفيه .

ثم إنَّ زيدَ بنَ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ اجْتَمَعَ - في غَفْلَةٍ من قريشٍ - إلىٰ كُلٍّ من وَرَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ ، وعبدِ اللَّهِ بن جَحْشٍ ، وعثمانَ بنِ الحارِثِ وأُمَيْمَةَ بِنْتِ عبدِ المُطَّلِبِ عَمَّةِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه ، وجَعَلُوا يَتَذاكَرُونَ ما غَرِقَتْ فيه ٱلْعَرَبُ من الضَّلَالِ ؛ فقال زيدٌ لِأَصْحَابِه :

إنَّكم - واللَّهِ - لَتَعْلَمُونَ أَنَّ قَوْمَكُمْ لَيْسُوا على شَيْءٍ ، وأَنَّهُمْ أَخْطَأُوا دِينَ إبراهيمَ وخالَفوه ، فابْتَغُوا لِأَنْفُسِكم ديناً تدينونَ به ، إنْ كُنْتُمْ تَـرُومُـونَ النَّجاةَ .

فهبَّ الرجالُ الأربعةُ إلىٰ الأَحْبَارِ من اليهودِ والنَّصارَىٰ وغيرِهم من أصحابِ المِلَلِ ، يَلْتَمِسون عندهم الحَنِيفِيَّةَ دينَ إبراهيمَ .

أَمَّا وَرَقَةُ بنُ نوفلٍ فَتَنَصَّرَ .

وأَمَّا عبدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ وعثمانُ بـنُ الحارث فلم يَصِلا إلىٰ شيءٍ .

وأَمَّا زَيْدُ بنُ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ فكانت له قِصَّةٌ ، فَلْنَدَعْ له الكلامَ ليـروِيَها لنا . . .

قال زيدٌ : وقفتُ على ٱلْيَهُودِيَّةِ والنَّصْرَانِيَّةِ ، فأعرضتُ عنهما إذْ لم أَجِدْ فيهما ما أَطْمَئِنُّ إليه ، وجَعَلْتُ أَضْرِبُ في الآفـاقِ بَحْثاً عن مِلَّةِ إبـراهيمَ حَتَّىٰ صِرْتُ إلى بلادِ الشامِ ، فَذُكِرَ لي راهِبٌ عِنْدَهُ عِلْمٌ منَ الكِتابِ ، فَأَتَيْتُهُ فَقَصَصْتُ عليهِ أَمْري ، فقال :

أراكَ تُريدُ دينَ إبراهيمَ يا أخا مَكَّةَ .

قلت : نعم ، ذلك ما أَبْغِي ، فقال : إنك تَطْلُبُ ديناً لا يوجَدُ ٱلْيَـوْمَ ، ولـكِنْ اِلْحَقْ بِبَلَدِكَ فإنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ من قَوْمِكَ مَنْ يُجَدِّدُ دينَ إبراهيمَ ، فإذا أَدْرَكْتَهُ فَالْتَزِمْهُ .

فَقَفَلَ[1] زيدٌ راجعاً إلى مَكَّةَ يَحُثُّ ٱلْخُطَىٰ ٱلْتِماساً للنبيِّ الموْعودِ .

---

(١) قفل : رجع من السفر .

ولما كان في بَعْضِ طريقِهِ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ محمداً بدينِ ٱلْهُدَى والحَقِّ ؛ لـكِنَّ زيداً لم يُدْرِكْهُ إذْ خَرَجَتْ عليه جماعةٌ من الأعرابِ فقتلَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مكَّةَ ، وتَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

وفيما كان زيدٌ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الأخيرةَ رفعَ بَصَرَهُ إلىٰ السماءِ وقال :

اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ حَرَمْتَني من هـذا الخيرِ فلا تَحْرِمْ منه ابني « سَعِيداً » .

* * *

وشاءَ اللَّهُ سبحانَه أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَةَ زيدٍ ، فما إنْ قامَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ يَدْعو الناسَ إلىٰ الإسلامِ حتَّىٰ كان سعيدُ بنُ زيدٍ في طَلِيعَةِ مَنْ آمنوا باللَّهِ ، وصَدَّقوا رسالةَ نَبِيِّه .

ولا غَرْوَ[1] ؛ فقد نشأ سعيدٌ في بَيْتٍ يَسْتَنْكِرُ ما كـانت عليه قـريشٌ من الضَّلالِ ، ورُبِّيَ في حِجْرِ أبٍ عاش حياتَه وهو يَبْحَثُ عنِ الْحَقِّ . . .

وماتَ وهو يَرْكُضُ لاهِثاً وراءَ الحقِّ . . .

ولم يُسْلِمْ سعيدٌ وَحْدَهُ ، وإنَّما أَسْلَمَتْ معه زوجتُه فاطمةُ بِنْتُ الخَطَّابِ أُخْتُ عمرَ بنِ الخطاب .

وقد لقِيَ الفتىٰ القرشيُّ من أذىٰ قَوْمِهِ ما كان خليقاً[2] أن يَفْتِنَه عن دينه ؛ ولـكِنَّ قريشاً بَدَلاً من أن تَصْرِفَهُ عن الإسلامِ استطاعَ هو وزوْجُهُ أَنْ يَنْتَزِعا منها رَجُلاً من أَثْقَلِ رِجالِها وَزْناً ، وَأَجَلِّهِمْ خَطَراً . . .

حيث كانا سَبَباً في إسلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ .

* * *

وَضَـعَ سعيدُ بنُ عمـرِو بنِ نُفَيْل طـاقاتِـه ٱلْفَتِيَّةَ الشَّـابَّةَ كُلَّهـا في خِدْمَـةِ

---

(١) ولا غرو : ولا عجب .

(٢) خليقاً : جديراً .

الإسلامِ ، إذْ أنَّهُ أَسْلَمَ وسِنُّه لم تُجاوِزِ الْعشرينَ بَعْدُ ، فَشَهِدَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ المَشَاهِدَ كُلَّها إلَّا بَدْراً ، فقد غابَ عن ذلك اليومِ لأنَّهُ كان في مُهِمَّةٍ كَلَّفَهُ إيَّاها النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وأَسْهَم معَ المُسْلِمِينَ في اسْتِلالِ عَرْشِ كِسْرَىٰ وتَقْوِيضِ مُلْكِ قَيْصَرَ ، وكانت له في كُلِّ مَوْقِعَةٍ خاضَ غِمَارَها المسلمونَ مواقفُ غرٌّ مَشْهُودَةٌ وأَيَّادٍ بيضٌ محمودةٌ.

ولعلَّ أَرْوَعَ بُطولاتِه ، تلك التي سَجَّلَها يومَ ٱلْيَرْمُوكِ ، فَلْنَتْرُكْ له الكلامَ لِيَقُصَّ عَلَيْنا طَرَفاً من خَبَرِ ذلك اليومِ.

قال سعيدُ بنُ عمرِو بنِ نُفَيْل : لما كان يومُ اليرموكِ كُنَّا أربعاً وعشرينَ ألفاً أو نحواً من ذلك ، فخرجتْ لنا الرُّومُ بِعِشْرِينَ ومائةِ أَلْفٍ ، وأقبلوا علينا بِخُطًى ثقيلةٍ كَأَنَّهُمُ الْجِبَالُ تُحَرِّكُهَا أَيْدٍ خَفِيَّةٌ ، وسار أمامَهم الأساقِفَةُ وٱلْبَطَارِقَةُ والْقِسِّيسُونَ يحمِلونَ الصُّلْبانَ وهم يَجْهَرُونَ بالصَّلَوَاتِ فيردِّدُها الجيشُ من ورائِهِمْ وله هزيمٌ[1] كهزيمِ الرَّعْد.

فلمَّا رآهُمُ المسلمون على حالِهِمْ هـذه ، هَالَتْهُمْ كثرتُهُمْ ، وخالَطَ قلوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ خَوْفِهِمْ.

عند ذلك قامَ أبو عبيدةَ بنُ الجَرَّاحِ يَحُضُّ المسلمينَ على ٱلْقِتَالِ ، فقال :

عبادَ اللَّه ، انصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم .

عبادَ اللَّه ، اصْبِرُوا فإنّ الصَّبْرَ مَنْجَاةٌ من الْكُفْرِ ، ومَرْضَاةٌ للرَّبِّ ، ومَدْحَضَةٌ[2] لِلْعَارِ ، وأَشْرِعُوا[3] الرِّماحَ ، واسْتَتِرُوا بالتُّرُوسِ ، وَالْزَموا الصَّمْتَ إلَّا من ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في أَنْفُسِكم ، حَتَّى آمُرَكُم إنْ شاءَ اللَّه.

---

(١) الهزيم : صوت الرعد . (٢) مدحضة للعار : دافع للعار . (٣) أشرعوا الرماح : سددوها وصوبوها .

قال سعيد: عند ذلك، خَرَجَ رَجُلٌ من صُفوفِ المسلمينَ وقال لأبي عُبَيْدَةَ: إنّي أَزْمَعْتُ[1] على أَنْ أَقْضِيَ أَمْرِي السَّاعَةَ[2] ، فهل لك من رِسَالَةٍ تَبْعَثُ بها إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ ؟!.

فقال أبو عبيدةَ : نعم ، تُقْرِئُهُ مِنّي ومن المسلمينَ السلامَ ، وتقولُ له :

يا رسولَ اللَّه ، إنَّا وَجدْنَا ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .

قال سعيد : فما إنْ سَمِعْتُ كَلامَهُ ، ورأَيْتُهُ يَمْتَشِقُ حُسَامَهُ[3] ، ويَمْضِي إلىٰ لِقاءِ أعداءِ اللَّه ، حتى اقْتَحَمْتُ[4] إلىٰ الأرْضِ ، وَجَثَوْتُ على رُكْبَتَيَّ ، وأَشْرَعْتُ رُمْحِيَ وطَعَنْتُ أَوَّلَ فارِسٍ أَقْبَلَ علينا ، ثم وَثَبْتُ على ٱلْعَدُوِّ وقد انْتَزَعَ اللَّهُ كلَّ ما في قلبي من الخوفِ ، فثارَ الناسُ في وُجوهِ الرُّومِ ، وما زالوا يُقَاتِلُونَهُمْ حتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ للمؤمنينَ النَّصْرَ.

***

شَهِدَ سعيدُ بنُ زيدٍ بَعْدَ ذلك فَتْحَ دمشقَ ، فلما دانتْ للمسلمينَ بالطاعةِ ، جَعَلَهُ أبو عبيدَةُ بنُ الجرَّاحِ والياً عليها ، فكان أَوَّلَ مَنْ وَلِيَ إِمْرَةَ دمشقَ من المسلمين.

***

وفي زمنِ بني أُمَيَّةَ وقعت لسعيدِ بنِ زيدٍ حادثةٌ ظَلَّ أَهْلُ يَثْرِبَ يَتَحدثون بها زمناً طويلاً.

ذلك أَنَّ أَرْوَىٰ بنتَ أُوَيْسٍ زَعَمَتْ أَنَّ سعيدَ بنَ زَيدٍ قد غَصَبَ شيئاً من أَرْضِها وضَمَّها إلىٰ أَرْضِه ، وجَعَلَتْ تَلُوكُ[5] ذلك بينَ المسلمين وتتحدَّثُ به ،

---

(١) أزمعت : عزمت .

(٢) أن أقضي أمري الساعة : أن أموت في هذه الساعة .

(٣) يمتشق حسامه : يستل حسامه .

(٤) اقتحمت إلى الأرض : رميت نفسي بشدة على الأرض .

(٥) تلوك ذلك : تردِّده .

ثم رَفَعَتْ أَمْرَها إلىٰ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ والي المدينةِ ، فأَرْسَلَ إليه مروانُ أُناساً يُكَلِّمُونَه في ذلك ، فَصَعُبَ الأَمْرُ على صاحبِ رسولِ اللَّهِ وقال :

يَرَوْنَني أَظْلِمُها !! كيفَ أَظْلِمُهـا ؟! وقد سَمِعْتُ رسـولَ اللَّهِ ﷺ يقول : (مَنْ ظَلَمَ شِبراً من الأَرْضِ طُوِّقَه يومَ ٱلْقِيَامَةِ منْ سَبْعِ أرضين) . اللَّهُمَّ إنَّها قد زَعَمَتْ أَنِّي ظلمتُها ، فإنْ كانتْ كاذِبَةً ، فَأَعْمِ بَصَرَها وأَلْقِها في بِئْرِهـا الذي تُنَازِعني فيه ، وأَظْهِرْ من حَقِّي نوراً يُبَيِّن للمسلمين أنِّي لم أَظْلِمْها.

فلم يَمْضِ على ذلك غيرُ قليلٍ ، حَتَّىٰ سالَ العقيقُ[1] بِسَيْلٍ لم يَسِلْ مِثْلُهُ قَطُّ ، فكشَفَ عنِ الحَدِّ الذي كانا يَخْتَلِفَانِ فيه ، وظَهَرَ للمسلمينَ أَنَّ سعيداً كان صادِقاً.

ولم تَلْبَثِ المرأةُ بعد ذلك إلَّا شهراً حتَّى عَمِيَتْ ، وبَيْنَـا هي تَطوفُ في أَرْضِها تلك ، سَقَطَتْ في بِئْرِها .

قال عبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ : فَكُنَّا وَنَحْنُ غلمانٌ نَسْمَعُ الإنْسانَ يقولُ لِلإِنْسَانِ : أعماكَ اللَّهُ كما أعمى الأَرْوَىٰ.

ولا عَجَبَ في ذلك ، فالرسولُ عليه الصلاة والسلامُ يقول :(اتَّقُـوا دَعْوَةَ المظلومِ ، فإنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) .

فكيف إذا كـان المـظلومُ سعيـدَ بنَ زيـدٍ ، أَحَـدَ الْعَشَـرَةِ الْمُبَشَّـرِينَ بِالْجَنَّةِ ؟![*] .

---

(١) العقيق : وادٍ في المدينة يجري فيه السَّيْلُ .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن زيد انظر :

١ ـ طبقات ابن سعد : ٣/٢٧٥ .
٢ ـ تهذيب ابن عساكر: ٦/١٢٧ .
٣ ـ صِفَةُ الصفوة : ١/١٤١ .
٤ ـ حلية الأولياء : ١/٩٥ .
٥ ـ الرياض النضرة : ٢/٣٠٢ .
٦ ـ حياة الصحابة (انظر فهارس الجزء الرابع) .

صور من حياة الصحابة

عُمَيْر بْن سَعْد

عَبْد الرَّحْمٰن بْن عَوف

جَعْفَر بْن أَبِي طَالِبْ

أبو سُفيَان بن الحارث

سَعْد بن أبي وَقَّاص

حُذَيفَة بْن اليَمَان

عقبة بن عَامِر الجهني

عُـمَيرُبن سَعْـد

« عُمَيْرُ بنُ سَعْدٍ نسيجُ وَحْدِه »

[عمر بن الخطاب]

تجرَّعَ الغلامُ عُمَيْرُ بنُ سَعْدٍ الأنْصارِيُّ كَأْسَ اليُتم والفَاقَةِ[١] منذُ نُعومَـةِ أظفارِه .

فقد مَضَى أبوه إلى ربِّه دونَ أن يترُكَ له مالاً أَوْ مُعِيلاً .

لكنَّ أمَّه ما لَبِثَتْ أَنْ تَـزَوَّجَتْ من ثَرِيٍّ من أَثْـرِياء الأوسِ[٢] ، يُـدْعَى الجُلاسَ بنَ سُوَيدٍ ، فَكَفَلَ ابنَها عُمَيْراً ، وَضَمَّه إليه .

وقد لقِيَ عُمَيْرٌ من بِرِّ الجُلاس وحُسْنِ رِعايَتِه وجميل عَطْفِه ما جَعَله يَنْسَى أنَّه يتيمٌ .

فأَحَبَّ عميرٌ الجُلاسَ حُبَّ الابنِ لأبيه ، كما أُولِعَ الجُلاسِ بِعُمَيْرٍ وَلَـعَ الوالد بولده .

وكان كلما نما عُمَيْرٌ وشبَّ ، يَزْدَادُ الجُلاسُ له حباً وبه إعجاباً ؛ لما كان يَرَى فيه من أَمارات[٣] الفِطْنَةِ والنَّجابَةِ التي تبدو في كُـلِّ عملٍ من أعمـاله ،

---

(١) الفاقة : الفقر .

(٢) الأوس : قبيلة عظيمة من الأزد كانت تسكن المدينة وقد عاهدت الرسول صلوات الله عليه على حمايته .

(٣) أمارات الفطنة : علامات الذكاء .

وشمائلِ[1] الأمَانَةِ والصِّدْقِ التي تَظْهَرُ في كلِّ تَصَرُّفٍ من تَصَرُّفاته .

* * *

وقد أسلم الفتى عميرُ بنُ سعدٍ ، وهو صغيرٌ لم يُجَاوِزِ العاشِرَةَ من عُمُرِه إلَّا قليلًا ، فَوَجَدَ الإيمانُ في قَلْبِه الغَضِّ مكاناً خالياً فتَمكَّن منه ، وألْفَى[2] الإسلامُ في نفسِه الصَّافِيَةِ الشَّفَّافَةِ تربة خصبة فتَغَلْغَلَ في ثناياها ؛ فكان على حَدَاثَة سنه لا يتأخَّرُ عن صلاةٍ خلفَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، وكانت أمُّه تَغْمُرُها الفَرْحَةُ كُلَّما رأَتْهُ ذاهِباً إلى المسجدِ أو آيباً منه ، تارَةً مع زوجِها وتارةً وحدَه .

* * *

وسارَتْ حياةُ الغلام عمير بنِ سعدٍ على هذا النحو : هانئةً وادعةً لا يعكِّرُ صَفْوَها مُعَكِّرٌ ، ولا يُكدِّرُ هَناءَتَها مكدِّرٌ ، حتى شاء اللّهُ أنْ يعرِّضَ الغُلام اليافِعَ[3] لتَجْربَةٍ من أشدِّ التجاربِ عُنْفاً وأقساها قَسْوَةً ، وأنْ يَمْتَحِنَه امْتِحاناً قَلَّما مَرَّ بِمثْلِه فتىً في سِنِّه .

ففي السنةِ التاسعةِ للهِجْرَةِ أعلن الرسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه عَزْمَه على غَزْوِ الرّومِ في تَبُوكَ[4] ، وأَمَرَ المسلمين بأنْ يَسْتَعِدُّوا ويَتَجَهَّزوا لذلك .

وكان عليه الصلاةُ والسلامُ إذا أراد أنْ يغزوَ غَزْوَةً لم يصرِّح بها ، وأَوْهَمَ أنَّه يُريدُ جِهَةً غَيْرَ الجِهَةِ التي يَقْصِد إليها ، إلَّا في غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَإِنَّه بَيَّنَها للناس ، لِبُعْدِ الشُّقَّة[5] ، وعِظَمِ المَشَقَّةِ ، وقُوَّةِ العدوِّ ؛ ليكونَ الناسُ على بَيِّنَةٍ من أمرِهم ، فيأخذوا للأمر أُهْبَتَه[6] ويُعِدُّوا له عُدَّته . وعلى الرغم من أنَّ الصيف

---

(١) الشمائل : الخصال والصفات .

(٢) ألفى : وجد .

(٣) اليافع : الغلام الذي قارب البلوغ .

(٤) تبوك : موضِعٌ على حدود الشام وقعت فيه المعركة المعروفة بين المسلمين والروم .

(٥) لبعد الشقة : لبعد المسافة .

(٦) يأخذوا للأمر أهبته : يستعدوا للأمر .

كَان قد دخل ، والحرُّ قـد اشتَدَّ ، والثمـارَ قد أَيْنَعَتْ ، والـظلالَ قد طـابت ، والنفوسَ قد ركَنَتْ إلى التَّراخي والتَّكاسُلِ ؛ على الرغم من ذلك كلِّه فقد لبَّى المسلمون دَعْوَةَ نبيِّهم عليه الصلاة والسلام وأخذوا يَتَجَهَّزون ويَستَعِدُّون .

غيـرَ أنَّ طائفـةً من المنافِقِين[1] أخـذوا يُثَبِّطونَ[2] العَـزَائِمَ ، ويُـوهِنـون الهِمَمَ[3] ، ويُثيرونَ الشُّكوك ، ويَغمِزون[4] الرسولَ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه ، ويُطلقون في مَجالِسِهِم الخاصَّةِ من الكلماتِ ما يَدْمَغُهُم بالكُفْرِ دمْغاً[5] .

وفي يومٍ من هذه الأيَّامِ التي سَبَقَت رَحيلَ الجَيْشِ ، عادَ الغلامُ عُمَيْرُ بنُ سَعدٍ إلى بَيْتِه بَعْدَ أداءِ الصَّلاةِ في المَسْجِدِ وقد امتلأت نَفْسُه بطائفة مُشْرِقَةٍ من صُوَرِ بَذْلِ المسلمين وتَضْحِيَتِهِم رآها بِعَيْنَيه ، وسَمِعَها بأذُنَيه .

فقد رأى نساءَ المُهاجِرين والأنْصـارِ يُقْبِلْنَ على رسولِ اللّهِ ﷺ وَيَنْـزَعْنَ حُلِيَّهنَّ ويُلْقِينَه بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُجهِّزَ بِثَمَنِه الجَيشَ الغازِيَ في سبيل اللّه .

وأبصرَ بعَيْنَيْ رأسِه عثمانَ بنَ عَفَّان يـأتي بِجِرابٍ فيـه ألْفُ دينارٍ ذَهَبـاً ، ويقدِّمُه للنبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ .

وشَهِدَ عبدَ الرحمنِ بنَ عَوْفٍ يَحْمِلُ على عاتِقِه مائتي أُوقِيَّـةٍ من الذَّهَبِ ويُلْقِيْها بين يَدَي النبيِّ الكريمِ .

بل إنَّه رأى رجلاً يَعْرِضُ فِراشَه للْبَيْع لِيَشْتَرِيَ بِثَمَنِه سَيْفاً يُقاتِلُ به في سبيلِ اللّه .

فَـأَخَذَ عُمَيْـرٌ يَسْتَعيدُ هـذه الصُّوَرَ الفَـذَّةَ[6] الرائِعَـة ، ويَعْجَبُ من تَباطُؤ

---

(١) المنافقون : الذي يُبْطِنون الكفر ويظهرون الإسلام .
(٢) يثبطون العزائم : يُضْعِفون العزائم .
(٣) يوهنون الهِمَم : يضعفون الهمم .
(٤) يغمزون الرسول : يذكرونه بسوء .
(٥) يدمغهم بالكفر دمغاً : يسِمُهُمْ بالكُفْرِ وَسْماً .
(٦) الصور الفَذَّة : الصور الرائعة الفريدَة .

الجُلاس عن الاسْتِعْدادِ للرَّحيلِ مع الرسول صلواتُ اللّه وسلامُه عليه ، والتأخُّرِ عن البَذْل على الرغم من قدرته ويَسَاره[1] .

وكأنَّما أرادَ عُميْرٌ أنْ يَسْتَثيرَ هِمَّةَ الجُلاسِ وَيَبْعَثَ الحَمِيَّةَ[2] في نَفْسِه ؛ فَأَخَذَ يَقُصُّ عليه أخبارَ ما سَمِعَ ورأىٰ وخاصَّةً خَبَرَ أولئك النَّفَرِ من المؤمنينَ الذين قَدِمُوا على رسولِ اللّهِ ﷺ ، وسألوه في لَوْعَةٍ أَنْ يَضُمَّهُمْ إلى الجيشِ الغازِي في سبيلِ اللّهِ فَرَدَّهم النبيُّ لأنه لم يَجِدْ عِنْدَه من الرَّكائِبِ ما يَحْمِلُهم عليه ، فَتَوَلَّوْا[3] وأعيُنُهُمْ تفيضُ من الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجدوا ما يُبَلِّغُهُمْ أُمْنِيَّتَهُمْ في الجهاد ، ويُحقِّقُ لهم أشواقَهُمْ إلى الاستِشْهادِ .

لكنَّ الجُلاسَ ما كادَ يَسْمَعُ من عُمَيْرٍ ما سمعَ حَتَّى انطلقت من فَمِه كلمةٌ أطارَتْ صَوَابَ[4] الفَتَى المؤمِن .

إذْ سَمِعَهُ يقول : « إنْ كان محمدٌ صادِقاً فيما يَدَّعيه من النُّبُوَّةِ فَنَحْن شَرٌّ من الحَمِيرِ » .

* * *

لقد شُدِهَ[5] عُمَيرٌ مِمَّا سَمِع ؛ فما كان يَظُنُّ أَنَّ رجلاً له عقلُ الجُلاسِ وسِنُّه تَنِدُّ[6] من فَمِهِ مثلُ هذهِ الكلمةِ التي تُخْرِجُ صاحبَها من الإيمان دفعةً واحدةً وتُدْخِلُه في الكفْرِ مِنْ أوْسَعِ أبوابِه .

وكما تَنْطَلِقُ الآلاتُ الحاسِبَةُ الدقيقةُ في حِسابِ ما يُلْقَى إليها من المسائل ، انطلق عَقْلُ الفَتَى عُمَيْرِ بنِ سعدٍ يُفَكِّر فيما يجب عليه أن يصنَعَه .

لقد رأى أَنَّ في السكوتِ عن الجُلاسِ والتَسَتُّرِ عليه خيانةً لِلَّهِ ورسولِه ،

---

(١) اليسار : الغِنى .
(٢) الحميّة : النَّخوة والمروءة .
(٣) فتولوا : فرجعوا .
(٤) أطارت صواب الفَتى : أذهلته وأطارت عقلَه .
(٥) شده : دُهِش وَتحيَّر .
(٦) تند : تشرُدُ .

وإضراراً بالإسلام الذي يَكيدُ له المنافقون ويأتمرون به[1] .

وأَنَّ في إذاعةِ ما سَمِعَه عقوقاً بالرَّجُلِ الذي يَنْزِلُ من نَفْسِه مَنْزِلَةَ الوالد ، ومجازاةً لإحسانِه إليه بالإساءَةِ ؛ فهو الذي آواه من يُتْمٍ وأَغْنَاهُ من فقر وعوّضه عن فَقْدِ أبيه .

وكان على الفتى أنْ يَخْتارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلاهُما مُرٌّ . وسرعان ما اخْتَارَ . . .

فالتفتَ إلى الجُلاسِ وقال : واللّه يا جُلاسُ ما كانَ على ظَهْرِ الأَرْضِ أحدٌ بَعْدَ محمد بنِ عبدِ اللّه أَحَبَّ إليَّ مِنْكَ .

فأنت آثرُ[2] الناس عندي ، وأجلُّهم يداً[3] عليَّ ، ولقَدْ قُلْتَ مَقالةً إن ذَكَرْتُها فَضَحْتُكَ ، وإنْ أَخْفَيتُها خُنْتُ أمانَتِي وأَهْلَكْتُ نفسي وديني ، وقد عزمتُ على أَنْ أَمْضِيَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ ، وأُخْبِرَه بما قلت ، فكن على بَيِّنَةٍ من أمرك .

* * *

مضى الفتى عميرُ بنُ سعدٍ إلى المَسْجِدِ ، وأخبرَ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ بما سَمِعَ من الجُلاسِ بن سُوَيْدٍ .

فاسْتَبْقاه الرسولُ صلواتُ اللّه عليه عنْدَه ، وأرسلَ أَحدَ أصحابِه لِيَدْعُوَ له الجُلاسَ .

وما هُوَ إلَّا قليلٌ حَتَّى جاءَ الجُلاسُ فَحَيَّا رسولَ اللّه ﷺ ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْه ، فقال له النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(ما مَقالةٌ سَمِعَها مِنْكَ عُمَيْرُ بنُ سَعْدٍ ؟!) وذَكَرَ لَهُ ما قالَهُ .

---

(١) يأتمرون به : يحدِّث بعضهم بعضاً بإيذائه .

(٢) آثرُ الناسِ عندي : أحبُّ الناس وأقربهم إليَّ .

(٣) أجلُّهم يداً : أعظمهم نعمة عليَّ .

فقال : كَذَبَ عليَّ يا رسولَ اللّه وافْتَرَىٰ ، فما تَفَوَّهْتُ بِشيءٍ من ذلك .

وأخَذَ الصَّحَابَةُ يُنَقِّلون أبْصارَهم بين الجُلاسِ وفَتَاه عُمَيْرِ بن سَعْدٍ كأنَّهم يريدون أن يَقْرَؤُوْا على صَفْحَتيْ وَجْهَيْهما[1] ما يُكِنّه[2] صدراهما .

وجعلوا يَتَهامَسون : فقال واحِدٌ من الذين في قلوبِهم مَرَضٌ[3] : فَتىً عاقٌّ أَبى إلَّا أَنْ يُسِيْءَ لِمَنْ أَحْسَنَ إليه .

وقال آخرون : بَل إنَّه غلامٌ نَشَأَ في طاعةِ اللّه ، وإنَّ قَسَماتِ[4] وَجْهِه لَتَنْطِقُ بِصِدْقِه .

والتَفَتَ الرَّسولُ صلوات اللّهِ عليه إلى عُمَيْرٍ فَرَأَى وَجْهَهُ قد احتَقَنَ[5] بالدَّمِ ، والدُّموعُ تَتَحَدَّرُ مِدْراراً مِنْ عَيْنَيه ، فتتَساقَطُ على خَدَّيه وصَدْرِه وهو يقول :

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ على نبيِّكَ بَيانَ ما تَكلَّمْتُ به . . .

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ على نَبيِّك بَيانَ ما تكلَّمْتُ به . . .

فانْبَرىَ[6] الجُلاسُ وقال : إنَّ ما ذكرتُه لك يا رسول اللّهِ هو الحقُّ ، وإن شِئْتَ تحالَفْنا[7] بَيْنَ يديك .

وإني أَحْلِفُ باللّه أني ما قلتُ شَيْئاً مِمَّا نَقَلَه لك عُمَيْر .

فما إنْ انْتَهَى من حَلْفِه وأَخَذَتْ عيونُ الناسِ تَنْتَقِلُ عنه إلى عُمَيْرِ بنِ سعدٍ حتى غَشِيَتْ[8] رسولَ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه السكينةُ ، فعرَفَ الصحابةُ

---

(١) صَفْحَة الوجه : ما يبدو منه للناظر .
(٢) يكنه صدراهما : يخفيه صدراهما .
(٣) في قلوبهم مرض : في قلوبهم شُبْهَةُ نفاق .
(٤) قسمات وجهه : ملامح وجهه .
(٥) احتقن بالدَّم : تجمع الدَّم فيه .
(٦) انبرى : برَزَ واندفع .
(٧) تحالفنا : حَلَفَ كل منا على صحة كلامه .
(٨) غشيته السكينة : نزلت عليه وغطَّته .

أَنَّـهُ الوَحْيُ ، فَلَزِمـوا أماكِنَهم وسَكَنَتْ جـوارحُهم ولاذوا بـالصَّمْتِ[1] وتَعَلَّقَتْ أبصارُهم بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام .

وهنا ظَهَرَ الخَوْفُ والوَجَلُ على الجُلاس ، وبَدَا التَّلَهُّفُ والتَّشَوُّفُ[2] على عُمَيْرٍ . وظَلَّ الجميعُ كذلك حَتَّى سُرِّي[3] عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَلا قولَه جَلَّ وعَزَّ﴿ يَحْلِفُونَ باللهِ ما قَالُوا ، ولَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ ، وكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِم ﴾إلى قَـولِه تعـالَى ﴿ فَإِنْ يَتُـوبوا يَـكُ[4] خيراً لهم ، وإِنْ يَتَـولَّوْا يُعَـذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[5] .

فارتَعَدَ الجُلاسُ من هَوْلِ ما سَمِعَ ، وكادَ يَنْعَقِدُ لِسَانُه من الجزع ، ثُمَّ التَفَتَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وقال : بل أَتوبُ يا رسولَ اللّه . . . بل أتوب . . .

صدق عميرٌ - يا رسولَ اللّه - وكنتُ من الكاذبين .

اسْأَلِ اللّهَ أن يَقْبَلَ تَوْبَتِي ، جُعِلْتُ فِدَاكَ يا رسولَ اللّهِ .

وهنا تَوجَّه الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه إلى الفَتَى عمير بنِ سعدٍ ، فإذا دُمُوعُ الفَرَحِ تُبَلِّلُ وَجْهَهُ المشرِقَ بنورِ الإيمانَ .

فمدَّ الرسولُ يَدَه الشريفةَ إلى أذنه وأَمْسَكَها بِرِفْقٍ وقال: (وَفَّت أُذُنُكَ - يا غلامُ - ما سَمِعَتْ ، وصَدَّقَكَ رَبُّك) .

عاد الجُلاسُ إلى حَظِيرَةِ الإسلامِ وحَسُنَ إسلامُه .

وقد عَرَفَ الصحابَةُ صلاحَ حالِه مِمَّا كان يُغْدِقه[6] على عميرٍ من برٍّ . وقد كان يقولُ كُلَّما ذُكِرَ عميرٌ : جزاه اللّه عَنِّي خيراً ، فقد أنقذني من الكُفْرِ ، وأَعْتَقَ

---

(1) لاذوا بالصمت : التزموا الصمت وانقطعوا عن الكلام .
(2) التَشَوُّف : التَطلُّع .
(3) سري عن الرسول : زال عنه أثر الوحي .
(4) يك : أصلُها يكن حذفت نونها تخفيفاً .
(5) سورة التوبة الآية ٧٤ .
(6) يغدقه : يعطيه بسخاء .

رَقَبَتِي من النار .

وبَعْدُ فليست هذهِ أوضـأَ[1] صورةٍ في حيـاةِ الغلامِ الصَّحـابيِّ عُمَيرِ بنِ سَعْدٍ ، ولا أشدَّها تألُّقاً .

وإنَّما في حَيَاتِه من الصُّوَرِ ما هو أَزْهَى وأَجْمَلُ .

فإلى لقاءٍ آخَرَ مَعَ عُميرِ بنِ سعدٍ في شبابه[*] .

---

(١) أوضأ : أكثر وضاءة وإشراقاً .

(*) للاستزادة من أخبار عمير بن سعد انظر :

١ ـ الإصابة : (الترجمة) ٦٠٣٦ .

٢ ـ الاستيعاب (على هامش الإصابة) : ٤٨٧/٢ .

٣ ـ أسد الغابة : ٢٩٣/١ .

٤ ـ سِيَرُ أعلامِ النبلاء : ٨٦/١ وما بعدها .

٥ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

٦ ـ قادة فتح العِراق والجزيرة : ٥١٣ وما بَعدها .

٧ ـ الأعلام : ٢٦٤/٥ .

عُمَيرْبن سَعْد

«لَكَمْ وَدِدْتُ أنَّ لي رجالاً مِثْلَ عُمَيْرِ بنِ سَعْدٍ لأستعينَ بِهِمْ في أعمالِ المسلمين»

[عمر بن الخطاب]

وَقَفْنَا آنِفاً[١] على صورة فَذَّة[٢] وَضِيئَةٍ من حياةِ الصحابيِّ الجليلِ عُمَيْرِ بنِ سَعْدٍ في صِغَرِه ، فَتَعَالَوْا نَقِف الآن على صورة رائعة مشرقةٍ مِنْ حَياتِه في كِبَرِه ، وسَتَجِدون أن الصورةَ الثانيةَ لن تقل عن الأُولى جلالاً وبهاءً .

***

كـان أهلُ « حِمْصَ »[٣] شـدِيدي التـذَمُّرِ مِنْ وُلاتهم ، كثيـري الشَّكْوَى منهم ، فما جاءَهم من والٍ إلَّا وجدوا فيه عُيُوباً ، وأحْصَوْا له ذُنُوباً ، وَرَفَعوا أمْرَه إلى خليفةِ المسلمين ، وتَمَنَّوْا عليه أن يُبْدِلَهُمْ به من هو خيرٌ منه .

فَعَزَم الفاروقُ رِضْوانُ اللَّهِ عليه أن يَبْعَثَ إليهم بوالٍ لا يجدون فيه مَطْعَناً ولا يَرَوْنَ في سيرَتِه مَغْمَزاً[٤] .

فنثر كِنَانَةَ[٥] رجاله بَيْنَ يَدَيْه ، وعَجَمَ[٦] عِيدانَها عـوداً عوداً ، فلم يجدْ

(١) آنفاً : قريباً .

(٢) فذاً : فريداً .

(٣) حمص مدينة في أواسط سورية بين دمشق وحلب وفيها قبر خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه .

(٤) مَغْمَزاً : عيباً .

(٥) الكنانة : الجعبة التي توضع فيها السهام .

(٦) عجم عيدانها : اختبرَها وفي الكلام تشبيه للرجال بالسِّهام .

خيراً من عُمَيْرِ بن سعد .

وعلى الرَّغم مِنْ أَنَّ عُمَيْراً كان إذْ ذاك يَضْرِبُ[1] في أرضِ الجزيرَة من بـلاد الشَّامِ على رَأسِ جَيْشِه الغازي في سبيـلِ اللَّهِ ، فَيُحرِّرُ المُـدُنَ وَيَدُكُّ المعاقلَ[2] ، ويُخْضِعُ القبائِلَ ، ويُقيمُ المساجِدَ في كل أَرْضٍ وَطِئَتْها قَدَماه .

على الرَّغْمِ من ذلك فقد دعاه أميرُ المؤمنين وعَهِدَ إليه بِولاَيَةِ « حمْصَ » ، وأمَرَه بالتَّوَجُّهِ إِلَيْها ، فَأَذْعَنَ للأمْرِ على كُـرْهٍ مِنْه لأِنه كانَ لا يُؤثِرُ[3] شيئاً على الجهاد في سبيلِ اللَّه .

* * *

بَلَغَ عُمَيْرٌ « حِمْصَ » فدعا النَّاسَ إلى صلاةٍ جامِعةٍ .

ولما قُضِيَتِ الصَّلاةُ خَطَبَ النَّاسَ ، فَحمِدَ اللَّهَ وأثْنَى عليه ، وصلى على نَبِيِّه محمد ثم قال :

« أيُّها الناسُ ، إنَّ الإسْلامَ حِصنٌ مَنِيعٌ وبابٌ وَثِيقٌ[4] ، وحِصْنُ الإسْلام العَدْلُ وبابُه الحَقُّ .

فإذا دُكَّ الحِصْنُ وحُطِّمَ البابُ اسْتُبيحَ حِمَى هذا الدِّينِ .

وإنَّ الإسْلامَ ما يَزالُ مَنيعاً ما اشْتَدَّ السُّلْطانُ .

ولَيْسَتْ شِـدَّةُ السُّلْطانِ ضرباً بالسَّـوْط[5] ولا قَتْلاً بـالسَّيفِ ولكِنْ قَضاءً بالعَدْلِ وأَخْذاً بالحَقِّ » .

ثم انْصَرَف إلى عَمَلِه لِيُنَفِّذَ ما اختطه لهم من دستور في خطبته القصيرَةِ .

* * *

---

(1) يَضرب : يسير غازياً .

(2) المعاقل : الحصون .

(3) لا يؤثِر : لا يُفضِّل .

(4) وثيق : متين .

(5) السَّوْط : جلد مضفورٌ يُضرَب به .

قَضَىٰ عُمَيْرُ بن سَعْدٍ حَوْلاً[١] كامِلاً في « حِمْصَ » لم يَكْتُبْ خِلاله لأمِيرِ المؤْمنين كِتاباً ، ولم يَبْعَثْ إلى بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ من الفَيْءِ[٢] دِرْهماً ولا دِيناراً ، فَأَخذَتِ الشُّكُوكُ تساور[٣] عُمَرَ إذْ كانَ شَديدَ الخشْيَةِ على وُلاتِه من فِتْنَةِ الإمارَة ، فلا مَعْصومَ عِنْدَهُ غَيْر رسولِ اللَّهِ ﷺ .

فقال لِكاتِبِه : اكْتُبْ إلى عُمَيْرِ بنِ سَعْدٍ وقُلْ له : إذا جاءَكَ كِتابُ أَمِيرِ المؤمنين فَدَع حِمْصَ وأقْبِلْ عليه ، واحْمِلْ مَعَكَ ما جَبَيْتَ مِن فَيءِ المسلمين .

* * *

تلقَّى عُمَيْرُ بنُ سَعْدٍ كتاب عُمَرَ رضي اللَّه عنه وعن عمير ؛ فأخَذَ جِرابَ زاده[٤] وَحَمَلَ على عاتِقِه[٥] قَصعَتَه[٦] ووِعاءَ وضوئه ، وأَمْسَكَ بيده حَرْبَتَه ، وَخَلَّفَ حِمْصَ وإمارتها وراءَه ، وانْطَلَق يَحُثُّ الخطا - مَشْياً على قَدَمَيه - إلى المدينة .

فما كادَ يَبْلُغُ عمَيرُ المدينَةَ حتى كان قد شَحَبَ لونُه ، وهَزُل جِسْمُه وطال شَعْرُه ، وظَهَرَتْ عليه وَعْثاءُ[٧] السَّفرِ .

* * *

دَخَلَ عُمَيْرٌ على أميرِ المؤمنين عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فَدُهِشَ الفاروق من حالَتِه وقال :

ما بكَ يا عُمَير ؟!

فقال : ما بي من شيءٍ - يا أمير المؤمنين - فأنا صَحيحٌ مُعافىً - بحمد

(١) حولاً : عاماً .
(٢) الفيء : الخراج .
(٣) تُساوِرُ عمر : تدور في نفس عمر .
(٤) جراب زاده : كيس طعامِه .
(٥) العاتق : الكتف .
(٦) القصعة : وعاءٌ يؤكل فيه .
(٧) وعْثاءُ السَّفر : آثار مشقَّة السفر .

اللّه ـ أحْمِلُ معى الدنيا كُلَّها وأَجُرُّها من قَرْنَيْها .

فقـال : وما معـك من الدنيـا ؟ [وهو يَـظُنُّ أنَّه يحْمِـلُ مالاً لِبَيْتِ مـالِ المسْلِمين] .

فقال : معي جِرابي وقد وضعت فيه زادِي .
ومعى قصْعَتي آكُلُ فيها وأَغْسِلُ عليها رَأْسي وثيابي .
ومعي قِرْبَةٌ لِوُضوئي وشرابي .

ثم إنَّ الدنيا كُلَّها ـ يا أميرَ المؤمنين ـ تَبَعٌ لمتاعي هذا ، وفُضلةٌ لا حاجَةَ لي ولا لأحد غيري فيها .

فقال عمر : وهل جئت ماشياً ؟!

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أما أُعْطِيتَ من الإمارة دابَّةً تركَبُها ؟

فقال : هم لم يعطوني ، وأنا لم أطلب منهم .

فقال : وأَيْنَ ما أتَيْتَ به لِبَيْتِ المالِ ؟

فقال : لم آتِ بِشَيْءٍ .

فقال : ولم ؟!

فقال : لما وَصَلْتُ إلى حِمْصَ ؛ جَمَعْتُ صُلَحاءَ أهلها ، وَوَلَّيْتُهم جَمْعَ فَيْئِهم ، فكانوا كُلَّما جمعوا شيئاً منه ؛ استَشَرْتُهُمْ في أَمْرِه ووضَعْتُه في مَواضِعِه ، وأنفقتُه على المُسْتَحِقِّين منهم .

فقال عمر لكاتِبِه : جَدِّدْ عهداً لِعُمَيْرٍ على ولايَةِ حِمْصَ .

فقال عمير : هيهات[1] . . . فإنَّ ذلك شَيْءٌ لا أريدُه ، ولَنْ أَعْمَلَ لَكَ ولا

---

(١) هيْهات : كلمة تقال عند استبعاد أمْرٍ ما .

لِأَحَدٍ بَعْدَكَ يا أميرَ المؤمنين .

ثم استأذَنَهُ بالذَّهابِ إلى قَرْيَةٍ في ضَوَاحي المدينَةِ يُقيمُ بِها أَهْلُه ، فَأَذِنَ له .

* * *

لم يَمْضِ على ذهاب عُمَيْرٍ إلى قَرْيَتِه وقتٌ طويلٌ حتى أراد عُمَرُ أَنْ يَخْتَبِرَ صاحِبَه ، وأن يَسْتَوْثِقَ من أمْرِه ؛ فقال لواحدٍ من ثِقاتِه يُدْعى الحارثَ :

انطلق يا حارِثُ إلى عُمَيْرِ بنِ سعد ، وانْزِلْ به كأنَّك ضَيْفٌ ، فإن رَأَيْتَ عليه آثارَ نِعْمَةٍ ؛ فَعُدْ كما أَتَيْتَ .

وإن وَجَدْتَ حالاً شديدَةً فأَعْطِه هذه الدنانير . وناوَلَه صُرَّةً فيها مائةُ دينارٍ .

* * *

انطلق الحارثُ حتى بلغَ قريةَ عُمَيْرِ بنِ سَعْدٍ ، فَسَأَلَ عنه فَدُلَّ عليه .

فلمَّا لقيه قال : السلامُ عليك ورحمة اللَّه .

فقال : وعليك السلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه ، من أينَ قدِمْت ؟

فقال : من المدينة .

فقال : كيفَ تَرَكْتَ المسلمين ؟

فقال : بِخَيْر .

فقال : كيفَ أميرُ المُؤْمِنينَ ؟

فقال : صَحِيحٌ صَالِحٌ .

فقال : أليس يُقيمُ الحُدودَ ؟!

قال : بلى ، ولَقَدْ ضَرَب ابناً له لِفاحِشَةٍ أتـاها فَماتَ من الضَّرْب .

فقال : اللَّهُمَّ أعِنْ عُمَرَ ، فإني لا أَعْلَمُه إلَّا شديدَ الحُبِّ لك .

* * *

أقام الحارِثُ في ضِيافَةِ عُمَيْرِ بنِ سعدٍ ثلاثَ لَيالٍ ، فكان يُخْرِجُ له في كلِّ لَيْلَةٍ قُرْصاً من الشعير .

فَلَمَّا كانَ اليومُ الثالِثُ ؛ قال للحارِث رَجُلٌ من القوم : لقد أَجْهَدْتَ[1] عُمَيْراً وأهلَه ؛ فَلَيْسَ لهم إلَّا هذا القُرْصُ الذي يُؤْثِرونك به[2] على أنْفُسِهِمْ ، وقد أَضَرَّ بِهِمُ الجوعُ والجَهْدُ ، فإنْ رأيتَ أن تتحَوَّل عَنْهُم إليَّ فافْعَلْ .

***

عند ذلك أَخْرَجَ الحارِثُ الدَّنانيرَ ، ودَفَعَها إلى عُمَيْر .

فقال عُمَيْرٌ : ما هذه ؟!!

فقال الحارِثُ : بَعَثَ بِها إليكَ أَميرُ المؤمنين .

فقال : رُدَّها إليه ، واقْرَأْ عليه السَّلامَ ، وقُلْ له : لا حاجَةَ لِعُمَيْرٍ بها .

فصاحَتْ امْرأتهُ ـ وكانَتْ تَسْمَعُ ما يدور بينَ زَوْجِها وضيفِه ـ وقالت : خُذْها ـ يا عُمَيْرُ ـ فإنْ احتَجْتَ إليها أنْفقْتَها ، وإلَّا وضَعْتَها في مَواضِعِها[3] ، فالمُحْتَاجُون هنا كثيرٌ .

فلما سَمِع الحارِثُ قوْلَها ؛ أَلْقَى الدَّنانيرَ بَيْنَ يَدَيْ عُمَيْر وانْصَرَف ، فَأَخَذَها عميرٌ وجَعَلَها في صُرَرٍ صغيرَةٍ ولم يَبِتْ لَيْلَتَه تِلْكَ إلَّا بَعْدَ أَن وزَّعها بَيْن ذوِي الحاجاتِ ، وخَصَّ مِنْهُمْ أَبْناءَ الشُّهداءِ .

***

عاد الحارِثُ إلى المدينةِ فقال له عمرُ : ما رأَيْتَ يا حارِثُ ؟

فقال : حالاً شديدَةً يا أميرَ المؤمنين .

---

(١) أجهدتَ عميراً : عنيته وألحقت به الضرر .

(٢) يؤثرونك : يفضلونك .

(٣) وضعتها في مواضعها : أنفقتها في طريقها .

فقال : أَدَفَعْتَ إليه الدنانير ؟

فقال : نعم ، يا أمير المؤمنين .

فقال : وما صَنَعَ بها ؟!

فقال : لا أَدْرِي ، وما أَظُنُّه يُبْقي لنَفْسِه مِنْها دِرْهماً واحداً .

فكَتَبَ الفاروقُ إلى عُمَيْرٍ يقول : إذا جاءَكَ كتابي هذا فلا تَضَعْهُ من يَدِكَ حَتَّى تُقْبِلَ عليَّ .

* * *

توجَّه عميرُ بنُ سَعْدٍ إلى المدينة ، ودَخَلَ على أميرِ المؤمنين ، فَحَيَّاه عُمَرُ وَرحَّبَ به وأدْنَى مَجْلِسَهُ[1] ثم قال له :

ما صَنَعْتَ بالدَّنانيرِ يا عُمَيْر ؟!

فقال : وما عليك مِنْها يا عُمَرُ بعد أَنْ خَرَجْتَ لي عنها ؟!!!

فقال : عَزَمْتُ عليك أن تُخْبِرَني بما صَنَعْتَ بها .

فقال : ادَّخَرْتُها لِنَفْسِي لأنتَفِعَ بها في يَومٍ لا يَنْفَعُ فيـه مالٌ ولا بَنون . .

فَدَمَعَت عينا عُمَرَ ، وقال : أَشْهَدُ أنَّك من الذين يؤثرون على أنْفُسِهِم ولو كانَتْ بِهِم خَصَاصة[2] ثم أَمَرَ له بِوَسقٍ[3] من طعامٍ وثَوْبَيْن .

فقال : أمَّا الطعامُ فلا حَاجَةَ لَنَا بِهِ يا أَميرَ المؤمنين ، فَقَدْ تركْتُ عندَ أهْلِي صَاعَيْنِ من شَعيرٍ ، وإلى أَنْ نأكُلَهُما يكونُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد جاءنا بالرِّزْقِ .

وأَمَّا الثَّوبان فآخُذُهما لِأُمِّ فُلانٍ [يَعْني زوجَتَه] ، فَقَدْ بَلِيَ ثَوْبُها وكادَتْ تَعْرَى .

* * *

---

(١) أدنى مجلسه : قرَّبه إليه دلالة على الإكرام .

(٢) الخصاصة : الحاجة .

(٣) الوسق : ستون صاعاً وهي تقدر بحمل بعير .

لم يمضِ طويلُ وَقْتٍ على ذلك اللِّقاءِ بينَ الفاروقِ وصاحِبه حَتَّى أَذِنَ اللَّه لِعُمَيْرِ بن سَعْدٍ بأَنْ يَلْحَقَ بِنَبِيِّه وقُرَّةِ عَيْنِه محمدِ بنِ عبدِ اللَّه بعد أَن طالت أَشْواقُه إلى لِقائِه .

فَمَضَى عميرٌ في طريق الآخرَةِ وادِعَ النَّفْسِ ، واثِقَ الخَطْوِ ، لا يُثْقِلُ كاهِلَهُ شَيءٌ من أَحْمالِ الدُّنْيا ، ولا يؤودُ[1] ظَهْرَه عِبْءٌ من أَثْقَالِها .

مَضَى لَيْسَ معه إلاَّ نورُه وهداه ، وَوَرَعُه وتقاه . . .

فلما بَلَغَ الفاروقَ نَعْيُه وَشَّحَ الحُزْنُ وَجْهَه ، واعتَصَرَ الأَسَى فؤادَه وقال : « وَدِدْتُ أَنَّ لي رجالاً مِثْلَ عُمَيْرِ بنِ سَعْدٍ أَسْتَعينُ بهم في أعمالِ المسلمين » .

* * *

رضي اللَّه عن عميرِ بن سعدٍ وأَرضاه . . .
فقد كان نمطاً فريداً بَيْنَ الرِّجال . . .
وتلميذاً مُتَفَوِّقاً في مدرسةِ محمدِ بن عبد اللَّه . . .

(١) يؤود ظَهرَه : يثقل ظَهْرَه ويتْعِبُه .

عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْف

(بارَكَ اللّٰهُ لَكَ فيما أعْطَيتَ ،
وبارَك اللّٰهُ لكَ فيما أمْسَكت)

[من دعاء الرسول له]

هو أَحَدُ الثمانيةِ السابقين إلى الإسلام . . .
وأَحَدُ العَشَرَةِ المُبَشَّرين بالجنَّة . . .
وأَحَدُ السِّتَّةِ أَصْحَابِ الشورَى يومَ اختيارِ الخليفةِ بعد الفاروقِ . . .
وأَحَدُ النَّفَرِ الذين كانوا يفْتون في المدينةِ ورسولُ اللّه صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه حيٌّ قائِمٌ بَيْنَ ظهْرانَي المسلمين . . .

كان اسمُه في الجاهِلِيَّةِ عبدَ عَمْرٍو ، فلمَّا أَسْلَمَ دعاهُ الرسولُ الكريمُ عَبْدَ الرَّحمن .

ذلِكُمْ هو عبدُ الرحْمن بنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللّهُ عنه وأرضاه .

* * *

أسلم عبدُ الرحمن بنُ عوْفٍ قبلَ أنْ يَدْخُلَ الرسولُ الكريمُ دارَ الأرقم[1] وذلك بعد إسلام الصديق بيومين اثنين .

ولَقِيَ من العَذاب في سبيلِ اللّهِ ما لَقِيَهُ المسلمون الأوَّلون فَصبَرَ وَصَبَروا ، وثَبَتَ وثَبَتُوا ، وَصدَقَ وَصَدَقوا ، وفَرَّ بدينه إلى الحَبَشَةِ كما فَرَّ كثيرٌ منهم بِدِينه .

(١) دار الأرقم : دار في مكة كان الرسول يدعو فيها إلى الإسلام وهي للأرقم بن عبد مناف المخزومي وكانت تُسَمَّى « دار الإسلام » .

ولما أُذِن للرسولِ وأَصْحَابه بالهِجْرَةِ إلى المدينةِ كان في طليعَةِ المهاجِرينَ الذين هاجَروا لِلّهِ ورسولِه .

ولما أَخَذَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه يُؤاخِي بين المُهاجِرينَ والأَنْصَارِ آخى بينَه وبينَ سعدِ بنِ الرَّبيعِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللّه عنه، فقال سعدٌ لأخيه عبدِ الرحمن بن عوف: أيْ أُخيَّ! أنا أَكْثَرُ أَهْلِ المدينَةِ مالاً، وعِنْدِي بُسْتَانَانِ، ولي امرأتان؛ فانْظُرْ أَيَّ بُسْتَانَيَّ أَحَبُّ إليك حتَّى أَخْرُجَ لك عنه، وأَيُّ امرأَتَيَّ أَرْضَى عِنْدَك حتى أُطَلِّقَها لك .

فقال عبدُ الرحمن لأخيه الأَنْصَارِيِّ : بارك اللّهُ لك في أَهْلِك ومالِك . . . ولٰكِنْ دُلَّنِي على السُّوق . . . فدلَّه عليه فَجَعَلَ يَتَّجِرُ ، وطَفِقَ يَشْتَرِي ويبيعُ ، ويربَحُ ويَدَّخِر .

وما هُوَ إلَّا قليلٌ حتى اجتمع لديه مَهْرُ امرَأَة فَتَزَوَّجَ ، وجاءَ إلى الرسولِ عليه الصلاة والسَّلامُ وعليهِ طِيبٌ . . .

فقال له الرسولُ صَلواتُ اللّه عليه : (مَهْيَمْ) يا عبدَ الرحمن [وهي كلمةٌ يَمَانِيةٌ تفيدُ التَّعَجُّب] .

فقال : تَزَوَّجْتُ . . .

فقال : (وما أَعطيتَ زَوجَتَك مِن المَهْرِ ؟!) .

قال : وزنَ نواةٍ من ذهب . . .

(قال: أَوْلِمْ[١] ، ولو بِشَاةٍ ، بارَكَ اللّهُ لك في مالك . . . .) .

قال عَبْدُ الرحمنِ : فأَقْبَلَتِ الدُّنْيا عَلَيَّ حَتَّى رأَيْتُنِي لو رَفَعْتُ حَجَراً لَتَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ تَحْتَه ذَهَباً أَو فِضَّة .

* * *

---

(١) أولم : اصنع وليمة .

وفي يوم بَدْرٍ جاهَدَ عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ في اللّهِ حَقَّ جِهَادِه فَأَرْدَى[1] عَدُوَّ اللّهِ عُمَيْرَ بنَ عثمانَ بنِ كعْبٍ التَّيْمِيَّ .

وفي يوم أُحُدٍ ثَبَتَ حين زُلْزِلتِ الأَقْدامُ ، وصَمَـدَ حين فَرَّ المنهـزمون ، وخَرَجَ من المعركةِ وفيه بِضْعَةٌ[2] وعشرون جرحاً ، بعضُها عميقٌ تَدْخُلُ فيه يدُ الرَّجل .

ولكنَّ جِهادَ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ بِنَفْسِه أَصْبَحَ يُعَدُّ قليلاً إذا قِيس بِجهادِهِ بمالِه .

فَهَا هُوَ ذَا رسولُ اللّه صلواتُ اللّه وسلامُه عليه يريدُ أَنْ يُجهِّزَ سَرِيَّةً ، فَوَقَفَ في أَصْحَابِه وقال : (تَصَدَّقُوا فإنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثاً) .

فبادَرَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ إِلى مَنْزِلِه وعادَ مُسْرِعاً وقال : يا رسولَ اللّهِ عِندي أَرْبَعَةُ آلافٍ :

ألفان مِنْها أَقْرَضْتُهما رَبِّي وأَلْفَانِ تَرَكْتُهما لِعِيالي .

فقال الرسولُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه :

(بارَكَ اللّهُ لَكَ فيما أَعْطَيْتَ . . .

وبارَكَ اللّهُ لك فيما أَمْسَكْت. . .)

* * *

ولما عَزَمَ الرَّسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ على غَزْوَة تَبُوكَ[3] ـ وهي آخِرُ غَزْوَةٍ غزاها في حياته ـ كانَتِ الحاجَةُ إلى المالِ لا تَقِلُّ عن الحاجَةِ إلى الرجالِ ؛ فَجَيْشُ الرومِ وافِرُ العَدَدِ كثيرُ العُدَدِ ، والعَامُ في المدينةِ عامُ جَدْبٍ ، والسَّفَرُ

---

(١) أردى : قتل .

(٢) بضعة وعشرون جرحاً : البضع ما بين الثلاث إلى التِّسع وهو يؤنَّث مع المذكر ويذكر مع المؤنث .

(٣) تبوك : مدينة على حدود الشام من جهة الجزيرة العربية كانت بأيدي الرومِ وهي الآن في المملكة العربية السعودية .

طويلٌ ، والمَؤُونَةُ قليلةٌ ، والرَّواحِلَ أَقَلُّ حَتَّى إنَّ نَفراً من المُؤْمِنين جاؤوا إلى الرسولِ يَسأَلونَه في حُرْقَةٍ أَنْ يأخُذَهم معه فَرَدّهمْ لأنَّه لم يَجِدْ عِنْدَه ما يحملُهم عليه ، فَتَوَلَّوْا وأعْيُنُهم تفيضُ من الدَّمع حَزناً ألَّا يَجِدوا ما يُنْفِقون ، فَسُمُّوا بالبَكَّائين ، وأُطلِقَ على الجيشِ اسمُ جيشِ العُسرة .

عِند ذلك أَمَرَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ أَصْحَابَه بالنَّفقَةِ في سَبيلِ اللَّهِ واحْتِسابِ ذلك عِنْدَ اللَّهِ ، فَهَبَّ المسلمون يَستَجيبُونَ لِدَعْوَةِ النبي عليه الصلاةُ والسلامُ ، وكان في طليعَةِ المُتَصَدِّقينَ عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ ؛ فقد تَصَدَّقَ بمائتي أوقِيَّةٍ من الذَّهَب ، فقال عمرُ بن الخطاب للنبي عليه السلام : إني لا أرَى عبدَ الرَّحمن إلَّا مُرْتَكِباً إثماً ؛ فما ترَكَ لِأَهْلِهِ شيئاً . . .

فقال الرسولُ عليه الصلاة والسلام : (هل تَركْت لأهْلِكَ شيئاً يا عبدَ الرحمن ؟) .

فقال : نعم . . . تَرَكْتُ لهم أَكْثرَ مِمَّا أَنْفَقْتُ وأَطْيَبَ .

قال : (كم ؟!) .

قال : ما وعدَ اللَّهُ ورسُولُه من الرِّزقِ والخيرِ والأَجْرِ .

* * *

ومضى الجيشُ إلى تَبُوك . . . وهناك أَكْرَمَ اللّهُ عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ بما لم يُكرِمْ به أَحداً من المسلمين ، فقد دَخلَ وقتُ الصلاة ، ورسولُ اللّه صلوات اللّه عليه غائبٌ فأَمَّ المسلمين عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ، وما كادَت تَتمُّ الرَّكعةُ الأولى حتَّى لَحِقَ رسولُ اللّهِ ﷺ بالمصلِّين ، واقتدَى بعبد الرحمنِ بنِ عوفٍ وصلَّى خَلفه . . .

فهل هنالِك أَكرَمُ كرامةً وأَفضلُ فضْلاً من أن يَغْدُوَ أَحدُ إماماً لِسيِّدِ الخَلقِ وإمامِ الأَنْبِيَاءِ محمدِ بنِ عبدِ اللّه ؟!!

* * *

ولما لحق الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالرَّفيق الأعلى[1] جَعلَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ يقوم بمصالِحَ أُمَّهاتِ المؤمنين ، فكان ينهضُ بحاجاتهنَّ فَيخرُج مَعَهنَّ إذا خرجْنَ ، ويَحجُّ مَعَهُنَّ إذا حَجَجْنَ ويَجْعَلُ على هوادِجِهنَّ[2] الطَّيَالِسَةَ[3] ، ويَنزِلُ بهنَّ في الأماكن التي تَسُرُّهُنَّ ، وتلك منْقبةٌ[4] من نقائب عبد الرحمنِ بنِ عوف ، وثِقَةٌ من أُمَّهاتِ المؤمنين به يَحقُّ له أن يَعْتَزَّ بها ويَفْخَرَ .

* * *

ولقَدْ بَلَغ من برِّ عبدِ الرحمن بنِ عَوْفٍ بالمسلمين وأُمَّهاتِ المؤمنين أنَّه باعَ أرضاً له بأَرْبَعِينَ ألفَ دينارٍ فَقَسَمَهَا كُلَّها في بني زُهْرَةَ[5] وفقراءِ المسلمين والمهاجرين ، وأَزْواجِ النبي عليه الصلاة والسلامُ فلما بَعَث إلى أمِّ المؤمنينَ عائِشَةَ رِضْوانُ اللّهِ عليها بما خَصَّها من ذلك المالِ ؛ قالت : من بَعَثَ هذا المالَ ؟ فَقيلَ : عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ، فقالت : قال رسولُ اللّه ﷺ : (لا يَحْنُو عليكُنَّ من بَعْدِي إلَّا الصَّابِرون) .

* * *

بَقِيَتْ دَعْوَةُ الرسولِ عليه الصلاة والسلامُ لِعَبْدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ بأن يباركَ اللّهُ له تُظَلِّلُه ما امْتَدَّتْ به الحياةُ ، حتى غدا أغْنَى الصحابة غِنىً وأكثرَهم ثراءً ، فقد أَخَذَتْ تِجارَتُه تنمو وتَزْدادُ ، وطفِقَتْ عِيرُه[6] تَتَرَدَّدُ ذاهِبَةً من المدينة أو آيِبَةً[7] إليها تحْمِلُ لأَهْلِها البُرَّ[8] ، والدقيقَ ، والدُّهْنَ ، والثِّيابَ والآنِيَةَ ، والطِّيبَ ، وكُلَّ ما يَحْتَاجون إليه .

وتَنْقُلُ ما يَفْضُلُ عَنْ حَاجَتِهِمْ مِمَّا يُنْتِجونَه .

* * *

---

(١) لحق بالرفيق الأعلى : كناية عن الموت ، أي ولما تُوفي .

(٢) الهوادج : جمع هودج وهو محمل له قبة يوضع على ظهر البعير لتركب فيه النساء .

(٣) الطيالسة : أكسية خُضرٌ يستعملها الخواصُّ .

(٤) المنقبة : المفخرة والفعل الكريم .

(٥) بنو زهرة : قوم آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ .

(٦) العِيرُ : القافلة .

(٧) آيبة : عائدة .

(٨) البُرُّ : القمح .

وفي ذات يَوْمٍ قَدِمت عِيرُ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ على المدينة . وكانت مُؤَلَّفَةً من سَبْعِمائَةِ راحِلَةٍ . . .

نعم سَبْعمائَةِ راحلة . . . وهي تَحْمِلُ على ظهورِهَا المِيرَة[1] ، والمَتَاعَ ، وكُلَّ ما يَحْتَاجُ إليه الناس .

فما إن دَخلَتِ المدينَـةَ حَتَّى رُجَّتِ الأَرْضُ بها رَجّـاً ، وسُمِعَ لهـا دَوِيٌّ وَضَجَّة ، فقالت عائِشَةُ رضوانُ اللّه عليها :

ما هذه الرَّجَّة ؟ فقيل لها : عيرٌ لعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ . . . سَبْعُمِائَةِ ناقَةٍ تحمل البُرَّ والدَّقيق والطعام .

فقالت عائِشَةُ رِضْوانُ اللّه عليها :

بَارَكَ اللّهُ لَهُ فيما أعطاه في الدنيا ، ولَثَوَابُ الآخِرةِ أَعْظَمُ ، فلقد سَمِعْتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : (يَدْخُلُ عبدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ الجنَّةَ حَبْواً) .

* * *

وقَبْلَ أن تَبْرُكَ النُّوقُ ، كان البَشيرُ يَنْقُلُ إلى عَبْدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ مَقَالَةَ أُمِّ المؤمنين ويُبَشِّرُه بالجنة .

فما إنْ لامَسَتْ هذِهِ البِشَارَةَ سَمْعَه حَتَّى طارَ مُسْرِعاً إلى عَائِشَةَ وقال : يا أمَّهْ ، أأَنْتِ سَمِعْتِ ذلك من رسولِ اللّهِ ﷺ ؟!

فقالت : نعم .

فاستطار فرحاً وقال : لَئِن استطَعْتُ لأَدْخُلَنَّهَا قائماً . . . أُشهِدُكِ يا أُمَّهْ أَنَّ هذه العِيرَ جميعَها بِأَحْمَالها وأَقتَابِها[2] وأَحْلاسها[3] في سبيلِ اللّه .

* * *

---

(١) الميرَة : الطَّعامُ .

(٢) الأقتاب : الرِّحال التي توضع على ظهور الجمال .

(٣) الأحْلاس : كلُّ ما يوضَعُ على ظهر الدابَّة تحت الرِّحال والسُّروج .

ومُنْذُ ذلك اليَوْمِ الأَبْلَجَ الأغرِّ[1] الذي بُشِّرَ فيه عبدُ الرحمن بن عوفٍ بدخول الجنَّة تَعاظَمَ إقْبَالُه على إغداق المالِ وبَذْلِه .

فَجَعَلَ يُنْفِقُه بِكِلْتَا يَدَيْهِ يميناً وشِمالاً ، وسِرّاً وإعلاناً حيث تَصَدَّقَ بأَربعينَ ألفَ دِرْهَمٍ من الْفِضَّةِ ، ثم أَتْبَعَها بأربعينَ أَلْفَ دينارٍ ذَهَباً .

ثم تَصَدَّقَ بمائتي أوقيَّةٍ من الذَّهَبِ .

ثم حَمَلَ مجاهدينَ في سَبِيلِ اللّهِ على خمسمائة فرسٍ ، ثم حَمَلَ مُجاهدين آخَرين على أَلْفٍ وخمسمائَةِ راحِلَة .

ولما حَضَرَتْ عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ الوَفاةُ أعتَقَ خلقاً كثيراً من مماليكه .

وأَوْصَى لِكُلِّ رَجُل بَقي من أَهْلِ بَدْر بأَرْبعمائة دينار ذهباً ، فأخذوها جميعاً ، وكان عَدَدُهم مائة .

وأَوْصَى لِكُلِّ واحِدَةٍ من أمَّهاتِ المؤمنين بِمَالٍ جزيل ؛ حَتَّى إن أمَّ المؤمنين عائِشَةَ - رضوان اللّه عليها - كثيراً ما كانت تدعو له فتقول :

سقاه اللّهُ من ماءِ السَلْسَبِيل[2] .

ثم إنه بعد ذلك كلّه خَلَّفَ لِوَرَثَتِه مالاً لا يكادُ يُحْصِيه العَدُّ . . . حيث تَرَكَ أَلْفَ بعيرٍ ، ومائَةَ فَرَسٍ ، وثلاثة آلاف شاةٍ ، وكانت نساؤه أربعاً فَبَلَغَ رُبُعُ الثُّمُنِ الذِي خَصَّ كُلَّ واحِدَةٍ منهُنَّ ثمانين أَلْفاً .

وتَرَكَ من الذَّهَبِ والفِضَّة ما قُسِّمَ بين وَرَثَتِه بالفُؤُوسِ حَتَّى تأَثَّرت أيدي الرجال من تَقْطِيعِه .

كُلُّ ذلك بِفَضْلِ دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ بأن يُبَارَكَ له في ماله .

* * *

---

(١) الأَبْلَجِ الأغرِّ : الأبلج : المُشرِق الوضّاءُ والأغرُّ : الحسن الجميل .

(٢) السلسبيل : عينٌ في الجنة .

لكنَّ ذلك المالَ كُلَّه لم يَفْتِنْ عبدَ الرحمنِ بنَ عَوْفٍ ، ولم يُغَيِّرْهُ ؛ فكان النَّاسُ إذا رَأَوْه بين مَمَالِيكِه لم يُفَرِّقوا بينَه وبينَهم .

وقد أُتِيَ ذاتَ يَوْمٍ بطعامٍ ـ وهو صائِمٌ ـ فَنَظَر إليه ثم قال :

لقد قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ ـ وهو خيرٌ مِنِّي ـ فما وَجَدْنا له إلَّا كفناً إنْ غَطَّى رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلاهُ ، وإنْ غَطَّى رِجْلَيْهِ بدا رَأْسُه .

ثمَّ بَسَطَ اللّهُ لنا من الدُّنيا ما بَسَطَ . . .

وإنِّي لأخْشَى أَنْ يكونَ ثوابُنا قَدْ عُجِّل لَنا . . .

ثم جَعَلَ يبْكي ويَنْشِجُ حَتَّى عافَ الطعام .

طوبَى[1] لعبد الرحمن بنِ عوفٍ وأَلْفُ غِبْطَة . . .

فقد بَشَّرَه بالجنَّة الصادِقُ المصدوق محمدُ بنُ عبد اللّه .

وحَمَلَ جنازتَه إلى مثواه الأخيرِ خالُ رسولِ اللّهِ سعدُ بنُ أبي وقَّاص .

وصَلَّى عليه ذو النورَيْن عثمانُ بنُ عَفَّان .

وشيَّعَه أميرُ المؤمنين المكرَّمُ الوَجْهِ عليُّ بنُ أبي طالب ، وهو يقول :

لقد أدْرَكْتَ صَفْوَها ، وسَبَقْتَ زَيْفَها يَرْحمُكَ اللّه(*) .

---

(١) الطوبى : الخير والسعادة ، وطوبى لفلان : لفلان الخير والسعادة .

(*) للاستزادة من أخبار عبد الرحمن بن عوف انظر :

١ ـ صفة الصفوة : ١/١٣٥ .
٢ ـ حلية الأولياء : ١/٩٨ .
٣ ـ تاريخ الخميس : ٢/٢٥٧ .
٤ ـ البدء والتاريخ : ٥/٨٦ .
٥ ـ الرِّياض النضِيرة : ٢/٢٨١ .
٦ ـ الجمع بين رجال الصّحيحين : ٢٨١ .
٧ ـ الإصابة : الترجمة ٥١٧١ .
٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام (انظر الفهارس) .
٩ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس) .
١٠ ـ البداية والنهاية : ٦/١٦٣ .
١١ ـ الطبقات الكبرى : ٢/٣٤٠ .
١٢ ـ تهذيب التهذيب : ٦/٢٤٢ .

جَعفر بن أبي طالِب

(لقد رأيتُ جعفراً في الجنة له
جناحان مُضرَّجان بالدماءِ وهو
مَصْبوغُ القوادم)

[حديث شريف]

كان في بني عبدِ منافٍ[1] خمسةُ رجالٍ يُشبِهون رسول اللّه ﷺ أشَدَّ الشَّبهِ حتى إنَّ ضِعَافَ البَصَرِ كثيراً ما كانوا يخلطون بين النبيِّ وبينَهم .

ولا ريبَ في أنَّك تَوَدُّ أنْ تَعْرِفَ هؤلاء الخمسةَ الذي يُشبِهون نَبيَّك عليه أفْضَلُ الصلاةِ وأزكى السَّلام .

فتعالَ نَتَعَرَّفْ عليهم .

إنَّهم : أبو سُفْيَانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِب وهو ابنُ عَمِّ الرسولِ ، وأخوه من الرَّضاع .

وقُثَمُ بنُ العَبَّاسِ بنِ عبدِ المطلب ، وهو ابنُ عَمِّ النبي أيضاً.

والسَّائِبُ بنُ عُبَيْدِ بنِ عبدِ يَزيدَ بنِ هاشِمٍ جَدُّ الإمام الشافِعيِّ رضي اللّه عنه .

والحَسَنُ بنُ عليّ سِبْطُ[2] رسولِ اللّه ﷺ ، وكان أَشَدَّ الخَمْسَةِ شبهاً بالنَّبيِّ صلواتُ اللّهِ عليه .

---

(١) عبد مناف : من أجداد الرسول ﷺ ، وبنوه هم العشيرة الأقربون للنبي الكريم .
(٢) سبط الرجل : ابن بنته ، وحفيدُه : ابن ابنه .

وجَعْفَرُ بنُ أَبي طالبٍ ، وهو أخو أَميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أَبي طالب .

فتعالَ نقُصَّ عليك صوراً من حياةِ جَعْفَر .

كان أبو طالب ـ على الرَّغم من سُمُوِّ شَرَفِه في قريش ، وعلوِّ مَنْزِلَتِه في قَوْمِه ـ رَقيقَ الحالِ كثيرَ العِيالِ .

وقد ازدادت حالُه سوءاً على سوءٍ بسَبَبِ تلك السَّنَةِ المُجْدِبَةِ[1] التي نَزَلَتْ بِقُرَيْشٍ فَأَهْلَكَتِ الضَّرْعَ[2]، وَحملَتِ النَّاسَ على أَنْ يأكلوا العِظامَ البالِيَةَ .

ولم يَكُنْ في بني هاشِمٍ ـ يَوْمَئِذٍ ـ أَيْسَرُ[3] مِنْ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه ، ومن عَمِّه العَبَّاسِ .

فقال محمدٌ للعبَّاس : يا عَمّ ، إنَّ أَخاكَ أَبا طالِبٍ كثيرُ العِيالِ ، وقد أَصابَ الناسَ ما تَرَى مِنْ شِدةِ القَحْطِ[4] ومَضَضِ[5] الجوع ، فانْطَلق بِنا إليه حَتَّى نَحْمِلَ عَنْهُ بَعْضَ عيالِه ؛ فآخُذَ أَنا فَتىً من بنيه ، وتأخُذَ أَنْتَ فَتىً آخَرَ فَنَكْفِيَهما عنه .

فقال العباسُ : لقد دَعَوْتَ إلى خَيْرٍ وحَضَضْتَ على بِرٍّ .

ثم انطلقا حتَّى أَتَيَا أَبا طالبٍ ، فقالا له : إنا نريدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ بَعْضَ ما تحْمِلُهُ مِنْ عِبْءِ عيالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ هذا الضُّرُّ الذي مَسَّ الناس .

فقال لهما : إذا تَرَكْتُما لي « عَقيلاً »[6] فاصنَعا ما شِئْتُما . . .

فأخَذَ مُحَمَّدٌ عَلِيّاً وضَمَّه إليه ، وأَخَذَ العَباسُ جَعْفَراً وجَعَلَه في عِيالِه .

فلم يزل عليٌّ مع مُحَمَّدٍ حَتَّى بَعَثَهُ اللَّه بدينِ الهُدَى والحَقِّ ، فكان أَوَّلَ من

---

(١) السنة المجدبة : التي انقطع مطرُها .
(٢) الضَّرْع : كناية عن الماشية .
(٣) أَيْسر : أغنى .
(٤) القحط : الجدب واحتباس المطر .
(٥) مضض الجوع : أَلمه .
(٦) عقيل : هو عقيل بن أبي طالب أخو علي وهو أكبرُ منه .

آمنَ من الفِتْيانِ .

وظَلَّ جَعْفرٌ مع عَمِّه العَبَّاسِ حَتَّى شَبَّ وأَسْلَمَ واستَغْنَى عنه .

انْضَمَّ جَعْفَرُ بنُ أَبي طالِبٍ إلى رَكْبِ النُّورِ هو وزوجُه أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُنْذُ أَوَّلِ الطريق .

فقد أَسْلما على يَدَي الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ أن يَدْخُلَ الرسولُ دارَ الأَرْقَمِ[١] .

ولَقِيَ الفَتَى الهاشِمِيُّ وزَوْجُه الشَّابَّة من أَذَى قريشٍ ونَكالِها ما لَقِيَه المسْلِمونَ الأَوَّلونَ ، فَصَبَرا على الأذَى لأَنَّهما كان يَعْلَمانِ أَنَّ طريقَ الجَنَّةِ مَفْروشٌ بالأَشْواكِ مَحْفُوفٌ بالمكارِه[٢] ولٰكِنَّ الذي كان يُنَغِّصهُما[٣] ويُنَغِّصُ إخوتَهما في اللَّه أَنَّ قريشاً كانت تحول دونَهم ودونَ أَداءِ شعائِرِ الإسلام ، وتحرِمُهُم مِنْ أَنْ يتذوقوا لذَّة العِبَادَة ؛ فقد كانت تَقِفُ لهم في كُلِّ مَرْصَدٍ[٤] ، وتُحْصي عليهم الأَنْفاسَ .

عند ذلك استَأْذَنَ جَعْفَرُ بنُ أَبي طالبٍ رسولَ اللَّه صلواتُ اللَّهِ عليه بأَنْ يُهاجِرَ مع زوجِه ونَفَرٍ من الصَّحابَةِ إلى أَرْضِ الحَبَشة ، فأذِنَ لهم وهو أَسْوانُ[٥] حزين .

فقد كان يَعِزُّ عليه أَنْ يُرْغَمَ هؤلاء الأَطْهارُ الأَبْرارُ على مُفارَقَةِ دِيارِهم ،

---

(١) دار الأرقم : دار بمكة تُسمَّى « دار الإسلام » كانت للأرقم بن عبد مناف المخزومي ، وفيها كان الرسول ﷺ يَدْعو الناس إلى الإسلام وقد مرّ ذكرها .

(٢) محفوف بالمكاره : محاطٌ بالمصاعب والآلام .

(٣) ينغصهما : يكدرهما ويعكر صفوهما .

(٤) تقف لهم في كل مَرْصد : تترَصَّدُهم في كل جهة .

(٥) أسوان : محزون .

ومُبَارَحَةِ[١] مراتِعِ[٢] طفولَتِهم ومغاني[٣] شبابِهم دونَ ذَنْبٍ جَنَوْه إلا أنَّهم قالوا : رَبُّنا اللَّه .

ولكنَّه لم يَكُنْ يَمْلِكُ من القوَّة والحَوْل ما يَدْفَعُ به عنهم أَذَىٰ قريش .

***

مَضى رَكْبُ المهاجرين الأوَّلينَ إلى أَرْضِ الحَبَشةَ ، وعلى رأْسِهِمْ جَعْفَرُ ابنُ أَبي طالِبٍ رَضِي اللَّه عنه ، واستقرُّوا في كَنَفِ[٤] النجاشِيِّ مَلِكِها العادِلِ الصَّالِح .

فتذوَّقوا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ـ مُنْذُ أَسْلَموا ـ طَعْمَ الأَمْنِ ، واسْتَمْتَعوا بِحَلاوَةِ العِبادَة دون أَنْ يُعَكِّرَ مُتعَةَ عبادَتِهم مُعَكِّرٌ أو يُكدِّرَ صَفْوَ سعادتهم مُكَدِّر .

لكنَّ قريشاً ما كادَتْ تَعْلَمُ بِرَحيلِ هـذا النَّفَرِ من المسلمين إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ ، وتَقِفُ على ما نالوه من حِمَى مَلِيكِها من الطُّمأْنِينَةِ على دينِهم ، والأَمْنِ على عقيـدتِهم ، حَتَّى هَبَّت تَأْتَمِـرُ[٥] بِهِم لِتَقْتُلَهم أَوْ تَسْتَـرْجِعَهم إلى السجن الكبير .

فَلْنَتْرُكِ الحديثَ لِأُمِّ سَلَمَةَ[٦] لِتَرْوِيَ لنا الخَبَرَ كما رأَتْهُ عينـاها وسَمِعَتْـه أُذناها .

قالت أُمُّ سلَمة : لَمَّا نَزَلْنا أَرضَ الحَبَشَةِ لَقينا فيها خَيْرَ جِوارٍ ، فَأَمِنَّا على

---

(١) مبارَحَة : ترك .

(٢) مراتع طفولتهم : ديارهم التي رَتعُوا فيها ولعبوا وهم صغار .

(٣) مغاني شبابهم : ديارُهم التي قضوا فيها عهد الشباب .

(٤) كنف النجاشي : حِماه ورعايته .

(٥) تأتمر بهم : يأمُرُ بعضها بعضاً بقتلهم .

(٦) أمُّ سلمة : هي هند بنت سهيل المخزومية تزوجت أبا سلمة بن عبد الأسد وأسلمت معه وهاجرا إلى الحبشة ولما توفي في المدينة متأثراً بجراحه تزوجها الرسول ﷺ .

دِينَنا ، وَعَبَدْنا اللَّهَ تَعالَى رَبَّنا من غَيْرِ أَنْ نُؤْذَى أَوْ نَسْمَعَ شيئاً نَكْرَهُهُ ، فلما بَلَغَ ذلك قريشاً ائْتَمَرَتْ بِنَا فأَرْسلَتْ إلى النَّجَاشِيِّ رجلين جَلْدَيْنِ[1] من رجالها ، هُمَا : عمرُو بنُ العاص وعبدُ اللَّه بنُ أَبي ربيعَة ، وبَعَثَتْ معهما بهدايا كثيرةٍ للنَّجاشيِّ ولِبَطارِقَتِه[2] مِمَّا كانوا يَسْتَطْرِفونَه[3] من أَرْضِ الحِجاز . ثم أوصَتْهُما بأن يَدْفَعا إلى كُل بِطْريقٍ هَدِيَّتَه قَبْلَ أَنْ يُكَلِّما ملكَ الحَبَشَة في أَمْرِنا .

* * *

فلمَّا قَدِما الحَبَشَةَ لَقِيا بطارِقَة النَّجاشيِّ ، ودَفَعا إلى كُلِّ بِطْريقٍ هديَّتَه ؛ فلَم يَبْقَ أَحَدٌ منهم إلاَّ أَهْدَيا إليه وقالا له :

إنَّه قد حَلَّ في أَرْضِ الملك غِلْمانٌ من سُفَهائنا ، صَبَؤُوا[4] عَنْ دينِ آبائِهم وأَجْدَادِهم ، وفَرَّقوا كَلِمَةَ قومِهِمْ ؛ فإذا كَلَّمْنا الملكَ في أَمْرِهم فأَشيروا عليهِ بأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إلينا دونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عن دينِهم ؛ فإنَّ أَشْرَافَ قَوْمِهِم أَبْصَرُ بِهِمْ ، وأَعْلَمُ بما يَعْتَقِدون .

فقال البطارِقَةُ : نعم . . .

قالت أُمُّ سَلَمَةَ : ولم يكن هناك شَيْءٌ أَكْرَهُ لعَمْرٍو وصاحِبِه من أَنْ يَسْتَدْعِي النَّجاشِيُّ أَحداً مِنَّا ويَسْمَعَ كلامَه .

* * *

ثُمَّ أَتيا النَّجاشِيَّ وقَدَّما إليه الهدايا ، فاستَطْرَفَها[5] وأُعْجِبَ بِها ، ثم كَلَّماه فقالا :

أَيُّها الملكُ إنَّه قد أَوَىٰ إلى مَمْلَكتِكَ طائفةٌ من أَشرارِ غِلْمانِنا ، قد جاؤوا

---

(١) جلدين : قويين .

(٢) البطارقة : جمع بطريق : وهو رَجُل الدين عند النصارى .

(٣) يستطرفونه : يستحسنونه ويعجبون به .

(٤) صبؤوا عن دينهم : ارتدوا عنه .

(٥) استطرفها : استحسنها .

بدينٍ لا نَعْرِفُه نَحْنُ ولا أَنتم ؛ ففارَقوا دينَنا ولَمْ يَدْخلوا في دينِكم .

وقد بَعَثَنا إليكَ أَشْرافُ قومِهِمْ من آبائِهِمْ وأَعْمَامِهِمْ وعشائِرِهم لتردَّهُمْ إليهم ، وهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بما أَحدثوه من فِتْنَةٍ .

فَنَظَرَ النَّجاشِيُّ إلى بطارِقَتِه ، فقال البطارِقَةُ :

صَدَقا ـ أَيُّها الملك ـ . . . فإنَّ قَوْمَهُمْ أَبْصَرُ بِهِمْ وأَعْلَمُ بما صَنَعوا ، فَرُدَّهُمْ إليهم لِيَرَوْا رَأْيَهُمْ فيهم .

فَغَضِبَ الملك غَضباً شديداً من كلامِ بَطارِقَتِه وقال :

لا واللَّه ، لا أُسْلِمُهُمْ لأَحَدٍ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ ، وأَسْأَلَهُمْ عَمَّا نُسِبَ إليهم ، فإن كانوا كما يقولُ هذان الرَّجُلان أَسْلَمْتُهُمْ لهما ، وإن كانوا على غَيْرِ ذلك حَمَيْتُهُم وأَحْسَنْتُ جِوارَهُمْ ما جاوروني[1] .

* * *

قالت أُمُّ سلمة : ثُمَّ أرْسَلَ النَّجاشِيُّ يَدْعُونا لِلقائِه .

فاجتمعنا قَبْلَ الذَّهاب إليه وقالَ بَعْضُنا لِبَعْضٍ :

إنَّ الملِكَ سَيَسْأَلُكُمْ عن دينِكم فاصْدَعُوا[2] بما تؤمِنونَ به ، وَلْيَتَكَلَّمْ عَنكم جَعْفَرُ بنُ أَبي طالبٍ ، ولا يتكلَّمْ أَحَدٌ غَيْرُه .

قالت أُمُّ سلمة : ثم ذَهَبْنا إلى النَّجاشيِّ فَوجَدناه قَدْ دَعا بَطارِقَتَه ، فَجَلَسُوا عن يمينِه وعن شِمالِه ، وقد لَبِسوا طَيَالِسَتَهُم[3] ، واعْتَمَرُوا قَلانِسَهُم[4] ، ونَشروا كُتُبَهُم بين أَيْدِيهِمْ .

---

(١) ما جاوروني : ما داموا يرغبون في حمايتي .

(٢) فاصدعوا : فاجْهَروا .

(٣) طيالستهم : الطيالسة جمع طيلسان وهو كساءٌ أَخْضرُ يلبسه الأشراف ورجال الدين .

(٤) اعتمروا قلانسهم : وضعوها على رؤوسهم .

ووجدنا عِنْدَه عمرَو بنَ العاصِ وعَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبي ربيعةَ .

فَلَمَّا استَقَرَّ بِنا المَجْلِسُ التفتَ إلينا النَّجاشِيُّ وقال :

ما هذا الدينُ الذي اسْتَحْدَثْتُموه لأنفُسِكم وفارَقْتُمْ بِسَبَبِه دينَ قَوْمِكم ، ولَمْ تَدْخُلوا في ديني ، ولا في دينِ أيٍّ من هذه المِلَلِ ؟

فَتَقَدَّمَ مِنْه جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ وقال : أَيُّها الملكُ ، كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأصنامَ ونَـأْكُلُ المَيْتَةَ ، ونَأْتِي الفَوَاحِشَ ونَقْطَعُ الأرْحَامَ ، ونُسِيءُ الجِوارَ ويَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ وبَقينا على ذلك حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنا رسولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَه وصِدْقَهُ وأَمانَتَهُ وعَفافَه . . .

فدعانا إلى اللَّهِ ؛ لِنُوَحِّدَه ونَعْبُدَه ونخلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وآباؤنا مِنْ دونِه من الحِجارَةِ والأَوْثان . . .

وقد أَمَرَنا بِصِدْقِ الحديثِ ، وأداءِ الأَمَانَةِ ، وصِلَةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجوارِ والكَفِّ عن المحَارِمِ وحَقْنِ الدماء[1] ونهانا عن الفواحِشِ وقَوْلِ الزُّورِ ، وأَكْلِ مالِ اليَتيمِ وقَذْفِ المُحصَناتِ[2] .

وأَمَرَنا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهُ وَحْدَه ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ، وأَنْ نقيمَ الصَّلاةَ ونُؤْتِيَ الزَّكاةَ وَنصومَ رَمَضانَ . . .

فَصَدَّقناه ، وآمَنَّا به ، واتَّبَعْناهُ على ما جاءَ بِهِ من عِنْدِ اللَّه ، فَحلَّلْنا ما أحَلَّ لنا ، وحَرَّمْنَا ما حَرَّم علينا .

فما كان مِنْ قومِنا أَيُّها الملكُ إلَّا أنْ عَدَوْا عَلَيْنا فَعَذَّبُونا أَشدَّ العذاب لِيَفْتِنُونا عَنْ ديننا[3] ويَرُدُّونا إلى عِبَادَةِ الأوثان . . .

(١) حقن الدماء : حفظها وعدم إراقتها .

(٢) قذف المحصنات : اتِّهام النساء الطاهِرات العفيفات .

(٣) ليفتنونا عن ديننا : ليرجعونا عنه .

فلمَّا ظَلَمُونا وقَهَرونا ، وضَيَّقُوا علينا ، وحالوا بَيْنَنا وبَيْنَ ديننا خَرَجْنا إلى بـلادِكَ ، واختَرْنـاكَ على مَنْ سِواكَ ، ورَغِبْنـا في جوارِك ، ورَجَـوْنا ألَّا نُـظْلَمَ عِنْدَك .

قالت أم سَلمة : فالتَفَتَ النَّجاشِيُّ إلى جَعْفَرِ بنِ أبي طالبٍ ، وقال : هل مَعَك شَيْءٌ ممَّا جاء به نَبِيُّكُمْ عنِ اللَّه ؟ قال : نعم ، قال : فاقْرَأْهُ عليَّ .

فقرأ عليه : ﴿ كَهيعص ذِكْـرُ رَحْمَةِ ربِّك عَبْدَه زكريا * إذْ نادَى ربَّه نِداءً خَفِيّاً * قال : ربِّ إني وهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرأسُ شيباً ولم أكُنْ بدعائِكَ رَبِّي شَقِياً ﴾ .

حتى أَتَمَّ صَدْراً من السورَة .

قالت أمُّ سلَمَة: فَبَكَى النَّجاشيُّ حتى اخْضَلَّتْ[1] لحيتُه بالدُّموعِ ، وبَكَى أساقِفَتُه حَتَّى بَلَّلوا كُتُبَهُمْ ؛ لِمَا سَمِعوه من كلامِ اللَّه . . .

وهنا قال لنا النجاشيُّ : إنَّ هذا الذي جاءَ به نبيُّكُم والذي جاءَ بهِ عيسَى لَيَخْرُجُ من مِشكاةٍ[2] واحدة .

ثم التفَتَ إلى عمرٍو وصاحِبه وقال لهما : انْطَلِقا ، فلا واللَّهِ لا أُسلِمُهُمْ إلَيْكُما أبداً .

قالت أم سَلَمَة : فلما خَرَجْنا من عند النجاشِيِّ تَوَعَّدنا[3] عمرُو بنُ العاصِ وقال لِصاحبه :

واللَّهِ لآتِيَنَّ الملِكَ غداً ، ولأَذْكُرَنَّ له من أمْرِهِمْ ما يَمْلأُ صَدْرَهُ غيظاً مِنْهُمْ ويَشْحَن[4] فؤادَه كُرْهاً لهم .

---

(١) اخضلَّت : تبللت .

(٢) المشكاة : ما يوضَع عليه المِصْباحُ والمراد يخرجان من نور واحد .

(٣) توعَّدنا : هدَّدنا .

(٤) يشحن فؤاده : يملؤه .

ولأَحْمِلَنَّه على أَن يَستَأْصِلَهُمْ[١] من جُذُورهم .

فقال له عبدُ اللّهِ بنُ أبي ربيعة : لا تَفْعَلْ يا عمرو ، فإنَّهم من ذوي قُرْبانا ، وإن كانوا قد خالفونا . فقال له عمرو :

دَعْ عَنْكَ هذا . . . واللّهِ لأُخْبِرَنَّه بما يُزَلْزِلُ أقدامَهُمْ . . .

واللّه لأقولَنَّ له : إنَّهُمْ يَزْعُمونَ أَنَّ عِيسى بنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ . . .

***

فلما كان الغَدُ دَخَلَ عمرُو على النَّجاشِيِّ وقال له :

أَيُّها الملكُ ، إنَّ هؤلاء الذينَ آوَيْتَهم وحَمَيْتَهُمْ ، يقولون في عِيسى بنِ مَرْيَمَ قَولاً عَظِيماً .

فأَرْسِلْ إليْهم ، وسَلْهُمْ عَمَّا يقولونَه فيه .

قالت أُمُّ سَلَمَة : فلما عَرَفْنَا ذلك ، نَزَلَ بنا من الهَمِّ والغَمِّ ما لم نَتَعَرَّضْ لِمِثْلِه قَطُّ .

وقال بَعْضُنَا لِبَعْضٍ : ماذا تقولون في عيسَى بنِ مَرْيَمَ إذا سَأَلَكُمْ عَنْهُ الملك ؟

فقلنا : واللّهِ لا نَقولُ فيهِ إلاَّ ما قال اللّهُ ، ولا نَخْرُج في أَمْرِه قِيْدَ أُنملة[٢] عَمَّا جاءَنا به نَبِيُّنا ، وَلْيَكُنْ بِسَبَبِ ذلك ما يكون .

ثم اتَّفَقنا على أن يتوَلَّى الكلامَ عَنَّا جَعْفَرُ بنَ أبي طالب أيضاً .

فَلَمَّا دعانا النَّجاشِيُّ دَخَلْنا عليه فَوَجَدْنا عِنْدَه بَطارِقَتَه على الهَيْئَةِ التي رأيناهم عليها من قبل .

---

(١) يستأصلهم من جذورهم : يقطعهم من أصولهم وهو كناية عن شدّة الفتك .
(٢) قيد أنملة : مقدار أنملة وهي رأس الإصبع .

ووجدنا عنده عمرو بن العاص وصاحِبَه .

فلمَّا صِرْنا بين يَدَيْهِ بادَرنا بقوله : ماذا تقولون في عيسى بنِ مَرْيَم ؟

فقال له جَعْفَرُ بنُ أبي طالب : إنَّما نقول فيه ما جاءَ به نَبِيُّنا ﷺ .

فقال النَّجاشِيُّ : وما الذي يقوله فيه ؟

فأجاب جعفر : يقول عنه : إنَّه عَبْدُ اللّهِ ورسولُه ، وروحُه وكَلِمَتُه التي أَلْقَاها إلى مَرْيَمَ العَذْراءِ البَتُول .

فما إن سَمِعَ النَّجاشيُّ قولَ جَعْفَرٍ حَتَّى ضَرَبَ بيدِه الأرْضَ وقال :

واللّهِ ، ما خَرَجَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ عَمَّا جاءَ به نبيُّكُمْ مقدارَ شَعْرَة . . .

فتناخَرَتِ[1] البطارِقَةُ من حولِ النَّجاشِي اسْتِنْكاراً لما سمعوا منه . . .

فقال : وإن نَخرْتُمْ . . .

ثم التَفَتَ وقال : اذهَبُوا فأَنْتُمْ آمنون . . .

من سَبَّكُمْ غَرِم ، ومَنْ تَعَرَّضَ لكم عُوقِب . . .

وواللّهِ مـا أحِبُّ أَنْ يكونَ لي جَبَـلٌ من ذَهَبٍ ، وأَنْ يُصابَ أحـدٌ منكم بسوء .

ثم نَظَرَ إلى عمرٍو وصاحِبه وقال : رُدُّوا على هذين الرَّجلين هداياهُما ؛ فلا حاجَةَ لي . .

قالت أم سلمة : فَخَرَجَ عمْرٌو وصاحِبُه مكْسورَيْنِ مَقْهُورَيْنِ يَجُرَّان أَذْيَالَ الخَيْبَةِ .

أما نحن فَقَدْ أَقَمْنا عِندَ النَّجاشِيِّ بِخيْرِ دارٍ مع أَكْرَمِ جارٍ .

* * *

---

(١) تناخرت البطارقة : أخرجوا أصواتاً من أنوفهم .

قَضَى جَعْفَرُ بنُ أبي طالب هو وزوجته في رحابِ النَّجاشِيِّ عَشْرَ سنواتٍ آمِنَيْنِ مُطْمَئِنَّيْنِ .

وفي السنةِ السابعَةِ للهجْرَة غادرا بلاد الحَبَشَةِ مع نَفَرٍ من المسلمين مُتَّجِهينَ إلى يَثْرِبَ ، فلما بلغوها كانَ رَسُولُ اللّه ﷺ عائداً لِتَوِّه من خَيْبَرَ[1] ، بعد أن فَتَحهَا اللّهُ له .

فَفَرِحَ بِلِقاءِ جَعْفَر فرحاً شديداً حتَّى قال :
ما أدْرِي بأيِّهما أنا أشَدُّ فَرَحاً ! !
أبفَتح خَيْبَرَ أم بقدومِ جعْفر؟

ولم تكن فَرْحَةُ المسلمين عامَّةً والفقراءِ مِنْهُمْ خاصَّةً بعودَةِ جَعْفَرٍ بأقَلَّ من فَرْحَةِ الرسولِ صلوات اللّهِ وسلامُه عليه .

فقد كان جَعْفَرُ شديدَ الحَدْبِ[2] على الضُّعفاءِ كثيرَ البِرِّ بهم ، حتى إنَّه كان يُلَقَّبُ بأبي المساكين .

أخْبَرَ عَنْهُ أبو هريرة فقال : كان خَيْرَ الناسِ لَنا ـ مَعْشَرَ المساكين ـ جَعْفَرُ بنُ أبي طالِبٍ ، فقد كان يَمْضِي بنا إلى بيتِه فَيُطْعِمُنا ما يكون عِنْدَه ، حتى إذا نَفِدَ طعامُه أخْرَجَ لنا العُكَّةَ[3] التي يُوضَعُ فيها السَّمْنُ ولَيْسَ فيها شَيْءٌ ، فَنَشُقُّها ونَلْعَقُ ما عَلِقَ بداخِلِها . . .

* * *

لم يَطُلْ مُكْثُ[4] جَعْفَرِ بنِ أبي طالبٍ في المدينة .

ففي أوائِلِ السَّنَةِ الثامِنَةِ للهِجْرَةِ جَهَّزَ الرسولُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه

(١) خيبر : حُصونٌ لليهود فتحها الرسول ﷺ سنة سبع للهجرة وغَنِمَ منها مغانم كثيرة .
(٢) شديد الحَدْب : شديد العطف والرعاية .
(٣) العُكَّة : قربة صغيرة يوضع فيها السَّمْن .
(٤) المكث : الإقامة .

جَيْشاً لِمُنازَلَةِ الرُّومِ في بلادِ الشامِ ، وأَمَّرَ على الجَيْشِ زَيْدَ بنَ حارِثَةَ وقال :

إن قُتِلَ زيدٌ أو أُصِيبَ فالأميرُ جَعْفَرُ بنُ أبي طالِبٍ ، فإن قُتِلَ جَعْفَرٌ أو أُصيبَ فالأميرُ عَبْدُ اللّه بنُ رَوَاحَةَ ، فإن قُتِلَ عَبْدُ اللّه بنُ رَوَاحَةَ أَوْ أُصيبَ فَلْيَخْتَرِ المسلمون لأنْفُسِهم أميراً مِنْهُمْ .

فلما وَصَلَ المسلمون إلى « مُؤْتَةَ » وهي قَرْيَةٌ واقِعَةٌ على مشارِفِ الشَّامِ في الأُرْدُن ؛ وَجَدوا أَنَّ الرُّومَ قد أَعَدُّوا لهم مائةَ أَلْفٍ تُظاهِرُهم[1] مائةُ أَلْفٍ أُخْرَىٰ من نصارَىٰ العَرَب من قبائِلِ لَخْمٍ وجُذَامٍ وقُضَاعَةَ وغَيْرِها .

أما جيشُ المسلمينَ فكانَ ثلاثَةَ آلافٍ . . .

وما إن التَقَىٰ الجَمْعانِ ودارَتْ رَحَى المعركةِ حَتَّىٰ خَرَّ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ صريعاً مُقبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ .

فما أَسْرَعَ أَنْ وثَبَ جَعْفَرُ بنُ أَبي طالِبٍ عن ظهرِ فَرَسٍ كانَتْ له شَقْراءَ ، ثمَّ عَقَرها[2] بِسَيْفه حتى لا يَنْتَفِع بها الأعداءُ من بَعْده .

وحَمَل الرَّايَةَ وأَوْغَلَ[3] في صفوف الروم وهو يُنْشِدُ :

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرابُها ... طَيِّبَةٌ وبارِدٌ شرابُها
والرُّومُ رومٌ قد دَنَا عذابُها ... كافِرَةٌ بعيدَةٌ أَنْسابُها
عَلَيَّ إذْ لاقَيْتُها ضِرابُها

وظَلَّ يجول في صفوفِ الأعداءِ بسيفِه ويَصُولُ حتى أَصابَتْهُ ضَرْبَةٌ قَطَعَتْ يَمِينَه ، فَأَخَذَ الرايَةَ بِشِمالِه ، فما لَبِثَ أَنْ أَصابَتْهُ أُخْرَى قَطَعَتْ شِمَالَه ، فأَخَذَ الرَّايَةَ بِصَدْرِه وعَضُدَيْه ، فما لَبِثَ أَنْ أَصابَتْهُ ثالثةٌ شَطَرَتْهُ شَطْرَينِ[4] ، فأَخَذَ الرَّايَةَ

---

(١) تُظاهِرُهم : تساندُهم وتدعمهم .
(٢) عقرها : ضَرَب قوائمها بسيفه .
(٣) أوْغَل : دخل بعيداً .
(٤) شطرته شطرين : قَسَمته نصفين .

مِنْهُ عبدُ اللّهِ بنُ رَوَاحَةَ فما زالَ يقاتِلُ حتى لَحِقَ بِصَاحبيه .

* * *

بَلَغَ الرسولَ صلواتُ اللّه عليه مَصْرَعُ قُـوَّادِه الثلاثـة فَحَزِنَ عليهم أَشَـدَّ الحزن وأَمَضَّه[1] وانْـطَلَقَ إلى بيتِ ابنِ عَمِّه جَعْفَـرِ بنِ أَبي طالبٍ ، فـأَلْفَى[2] زوجَتَه أَسْمَاءَ تَتَأَهَّبُ لاسْتِقبالِ زَوْجِها الغائِب .

فَهِيَ قَدْ عَجَنَتْ عجينَها ، وغَسَلَت بنِيها ودهَنَتْهم وأَلْبَسَتْهُمْ . . .

قالت أسماءُ : فلما أَقْبَلَ علينا رسولُ اللّهِ ﷺ رأيتُ غُلالةً[3] من الحُزْنِ تُوَشِّح[4] وجهَه الكريمَ ، فَسَرَتِ المَخاوِفُ في نَفْسي ، غيْرَ أَنِّي لم أَشَأْ أَنْ أَسْأَلَهُ عن جَعْفرٍ مَخافَةَ أَنْ أَسْمَعَ مِنْه ما أكرَهُ .

فَحَيَّا وقال : (ائْتِنِي بأَوْلادِ جَعْفَرٍ . فدعوتُهم له) .

فَهَبُّوا نَحْوَهُ فَرِحين مُزَغْـرِدين، وأَخذوا يتـزاحمون عليـه، كُـلٌّ يـريـدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ به .

فَأَكَبَّ عليهم ، وجَعَلَ يَتَشَمَّمُهُم ، وعيناه تَذْرِفان من الدمع .

فقلت : يا رسولَ اللّهِ ـ بأبي أَنْتَ وأُمِّي ـ ما يُبْكِيكَ ؟! أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء ؟! قال :

قال :

(نعم . . . لقد استشهدوا هذا اليَوْم . .) .

عند ذلك غاضَتِ البَسْمَةُ من وجوه الصغار لما سمعوا أُمَّهُمْ تَبْكي وتَنْشِج ، وجَمدوا في أماكِنهم كأَنَّ على رؤوسِهم[5] الطَّيْرَ .

---

(١) أمضّه : أوجعه .

(٢) ألفى : وجد .

(٣) الغلالة : ثوب رقيق شفاف .

(٤) توشّح : تغطّي .

(٥) كأن على رؤوسهم الطير : مَثَلٌ يضرب لِشِدَّة السكون .

أما رسولُ اللّه ﷺ فَمَضَىٰ وهو يكَفْكِفُ[1] عَبراتِه ويقول :

(اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَـراً في وَلَـدِه . . .

اللهُمَّ اخلُفْ جعفْراً في أَهْلِه . . .)

ثم قال :(لقد رَأَيْتُ جَعْفراً في الجنَّة ، له جناحان مُضَرَّجان بالدِّماءِ ، وهو مَصْبوغُ القوادم)(*).

---

(١) يكفكف عبراته : يَمسحُ دموعه .

(*) للاستزادَة من أخبار جعفر بن أبي طالب انظر :

١ ـ الإصابة : ١/٢٣٧ .

٢ ـ صفة الصفوة : ١/٢٠٥ .

٣ ـ حلية الأولياء : ١/١١٤ .

٤ ـ طبقات ابن سعد : ٤/٢٢ .

٥ ـ معجم البلدان في مادّة « مؤتة » .

٦ ـ تهذيب التهذيب : ٢/٩٨ .

٧ ـ البداية والنهاية : ٤/٢٤١ .

٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام : ١/٣٥٧ و ٤/٣ ، ٢٠ .

٩ ـ الدُرَر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر : ٥٠ و ٢٢٢ .

١٠ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس) .

١١ ـ الكامل لابن الأثير : ٢/٣٠ و ٩٦ .

أبو سُفيان بن الحارث

(أبو سفيان بن الحارث سيِّد فِتْيان الجَنَّةِ)

[محمد رسول اللّه]

قَلَّ أن اتَّصَلَتِ الأَسْبابُ بين شَخْصَيْن وتوثَّقَتِ العُرَىٰ[1] بين اثنين كما اتَّصَلَتْ وتَوَثَّقَتْ بين محمد بنِ عبدِ اللّهِ صَلَواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليه ، وبَيْنَ أبي سُفْيانَ بنِ الحارث :

فقد كان أَبو سُفْيانَ لِدةً[2] من لِدات رسولِ اللّه ﷺ وتِرْباً من أترابِه ، فقد ولدا في زَمَنٍ مُتقارِبٍ وَنَشَآ في أُسْرَةٍ واحِدَةٍ .

وكان ابنَ عَمِّ النبيِّ اللَّصِيقَ ، فأبوه الحارِثُ وعبدُ اللّه والدُ الرسولِ صلوات اللّه عليه أَخَوانِ يَنْحَدِران من صُلْبِ عبدِ المُطَّلِب .

ثم إِنَّه كان أخاً للنَّبيِّ من الرِّضاع ، فَقَدْ غَذَّتهما السيدَةُ حليمَةُ السَّعْدِيَّةُ من ثَدييها مَعاً .

وكان بعد ذلك كُلِّهِ صَدِيقاً حميماً للرسولِ صلواتُ اللّهِ عليه قَبْلَ النبوَّة ، وأَشَدَّ الناسِ شَبَهاً به .

فهل رأيت أَوْ سَمِعْتَ قرابَةً أَقربَ أو أواصِرَ أَمْتَنَ من هذا الذي كان بَيْن

(١) توثقت العُرى : قويت واشتدَّت .

(٢) لِدَة الرجل : من ولد معه في زمن واحد وكذلك « التِّرْب » .

محمد بنِ عبدِ اللَّه وأبي سفْيانَ بنِ الحارث ؟

لذا فقد كان المَظْنونُ بأبي سُفْيانَ أَنْ يكونَ أَسْبَقَ النَّاسِ إلى تَلْبِيَةِ دَعْوَةِ الرسولِ صلواتُ اللَّه عليه وأَسْرَعَهُمْ مُبادَرَةً إلى اتِّباعه .

لكنَّ الأَمْرَ جاءَ على خلاف كُلِّ ما يَتَوَقَّعُه المُتَوَقِّعون .

إِذْ ما كادَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ يُظْهِرُ دَعْوَتَه ، ويُنْذِرُ عَشيرَتَه حَتَّى شَبَّتْ نارُ الضَّغينَةِ[1] في نَفْسِ أبي سُفْيانَ على الرسـولِ صلواتُ اللَّهِ عليه ؛ فـاسْتَحالَتِ الصَّـداقَةُ إلى عَـداوَةٍ ، والرَّحِمُ إلى قـطيعَـةٍ ، والأُخـوَّةُ إلى صَـدٍّ وإِعْراضٍ .

***

ولقد كان أبو سُفْيانَ بنُ الحارثِ يَوْمَ صَدَعَ الرَّسولُ بأَمْـرِ رَبِّه فـارِساً من أَنْبَهِ[2] فُرْسانِ قُرَيش ذِكْراً ، وشاعِراً من أَعلى شعرائِهم كَعْباً[3] ، فَوَضَعَ سِنانَه ولِسانَه في محارَبَةِ الرَّسولِ ومُعَاداةِ دَعْوَتِه ، وجَنَّدَ طاقاتِه كُلَّها للنِّكايَةِ[4] بالإِسلام والمسلمين .

فما خاضَتْ قـرَيْشُ حَرْبـاً ضِدَّ النَّبِيِّ إلَّا كـان مِسْعرَهـا[5] ، ولا أوقعت بالمسلمين أذىً إلَّا كان له فيه نصيبٌ كبيرٌ .

***

ولقد أَيْقَظَ أبو سُفْيانَ شيطانَ شِعْرِه وأَطْلَقَ لِسانَه في هِجاءِ الرسولِ صلوات اللَّه عليه وسلامه ، فَقال فيه كلاماً مُقْذِعاً[6] فاحِشاً موْجِعاً .

***

---

(١) شبَّت نار الضغينة : اشتعلت نار الحِقد والكراهية .

(٢) من أنبه : من أشْهر .

(٣) أعلى شعرائهم كعباً : أعلى شعرائهم شأناً ومقاماً .

(٤) النكاية : الإيذاء والقتل .

(٥) مِسْعرُها : موقدها .

(٦) مقذعاً : بذيئاً .

وطالَتْ عَدَاوَةُ أَبي سُفْيَانَ للنَّبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى قارَبَتْ عِشْرينَ عاماً ، لم يَتْرُكْ خلالها ضَرْباً من ضروب الكَيْدِ للرسول إلاَّ فَعَلَه ، ولا صِنْفاً من صُنُوف الأذى للمسلمين إلاَّ اجْتَرَحَه(١) وباءَ(٢) بإثمه .

* * *

وقُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقليلٍ كُتِبَ لأبي سفيانَ أَنْ يُسْلِمَ ، وكان لإسْلامِه قِصة مثيرةٌ وَعَتْها كتبُ السِّيَرِ وتَنَاقَلَتْها أَسْفَارُ التَّاريخ .

فَلْنَتْرُكْ للرَّجُلِ نَفْسِه الحديث عن قصَّةِ إسلامِه . . . فَشعورُه بهـا أَعمَق ووَصْفُه لها أدقُّ وأَصْدَق .

قال : لما استقام أَمْرُ الإسْلامِ وقَرَّ قرارُه ، وشاعَتْ أَخبارُ تَوَجُّهِ الرَّسولِ إلى مكَّةَ لِيَفْتَحَها ضاقَتْ عَلَيَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ(٣) وقلت : إلى أَيْن أذهب ؟ ومَنْ أَصْحَب ؟! ومع مَنْ أكون ؟!

ثم جِئْتُ زَوْجَتي وأَولادي وقلتُ : تَهَيَّؤوا لِلْخُروجِ مِنْ مكَّةَ فقـد أَوْشَكَ وُصولُ محمدٍ(٤) ، وإنِّي لَمَقْتُولٌ لا محالَةَ إن أَدْرَكَني المسلمون .

فقالوا لي : أَما آنَ لكَ أنْ تُبْصِرَ أَنَّ العَرَبَ والعجمَ قد دانَتْ(٥) لمحمد بالطَّاعة ، واعْتَنَقَتْ دينَه ، وأَنتَ ما تزالُ مُصِرّاً على عَداوَتِه ، وكُنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بتأييدِه ونَصْرِه ؟!

وما زالوا بي يَعْطِفُونَني على دينِ محمدٍ ويُرَغِّبـونَني فيه حَتَّى شَـرَحَ اللَّهُ صَدْري للإسلام .

* * *

---

(١) اجترح الذنب : ارتكبه .

(٢) باء بإثمه : تحمَّل عاقبة ذنبه .

(٣) رحُبت : اتَّسعت .

(٤) أوشك وصول محمد : قرب وصول محمد .

(٥) دانت لمحمد بالطاعة : أطاعته ونزلت عند أمره .

قمتُ من تَوِّي ، وقلتُ لغلامي « مَذْكور » هَيِّئْ لنا نُوقاً وفرساً ، وأَخَذْتُ مَعي ابني جَعْفَراً ، وجَعَلْنا نُغِذُّ السَّيْرَ[1] نحو « الأبْواءِ » بَينَ مَكَّةَ والمدينَةِ ؛ فقد بَلَغني أَنَّ مُحَمَّداً نَزَلَ فيها .

ولَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنها تَنَكَّرْتُ حَتَّى لا يعرفني أَحَدٌ فَأُقْتَل قبلَ أَنْ أَصِلَ إلى النبيِّ وأُعْلِنَ إسْلامي بينَ يَدَيْه .

ومضيتُ أمشِي على قَدَمَيَّ نحواً من ميلٍ وطلائِعُ المسلمين تَمْضِي مُيَمِّمَةً شَطْرَ مكة[2] جَماعةً إِثْرَ جَماعةٍ ، فَكُنْتُ أَتَنَحَّى عن طريقهم فَرَقاً[3] مِنهم وخوفاً من أَنْ يَعْرِفَني أحدٌ من أَصْحابِ محمد .

* * *

وفيما أنا كذلك إذ طَلَعَ الرسولُ في مَوكِبِهِ ، فَتَصَديتُ[4] له ووَقَفْتُ تِلْقَاءَه[5] وحَسَرْتُ عن وجهي ، فما إنْ مَلأَ عَيْنيهِ مِنِّي ، وعَرَفَني حتى أَعْرَضَ عَنِّي إلى النَّاحِيَةِ الأُخرى ، فَتَحَوَّلتُ إلى ناحِيَةِ وجْهِهِ ، فَأَعْرَضَ عَنِّي وَحَوَّلَ وجْهَهُ ، فَتَحَوَّلْتُ إلى ناحِيَةِ وَجْهِهِ ، حَتَّى فعَل ذلك مِراراً .

* * *

كنتُ لا أشكُّ - وأنا مُقْبِلٌ على النبيِّ - أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ سَيَفْرَحُ بإِسْلامي ، وأَنَّ أَصْحابَه سَيَفْرَحون لِفَرَحِه .

لَكِنَّ المسلمين حينَ رأَوْا إعراضَ رسولِ اللّهِ ﷺ عَنِّي تَجَهَّموا[6] لي ، وأعرضوا عَنِّي جميعاً : لقد لقيني أبو بَكْرٍ ، فأعرضَ عنِّي أَشَدَّ الإعراضِ ،

---

(١) نُغِذُّ السَّيرَ : نمعِنُ فيه ونسرع .
(٢) ميممة شطر مكة : مُتّجهة نحو مكة .
(٣) فرقاً منهم : خوفاً منهم .
(٤) تصديت له : برزت له واتجهت نحوه .
(٥) تلقاء وجهه : أمام وجهه .
(٦) تجهموا لي : عبسُوا في وجهي .

ونَظَرْتُ إلى عمرَ بن الخَطَّاب نَظْرَةً أَسْتَلين بِها قَلْبَه فَوَجَدتـهُ أَشَدَّ إعـراضاً من صاحِبه .

بل إنَّهُ أغْرَى[1] بي أَحدَ الأنْصَارِ ، فقال لي الأنصاريُّ : يا عَدُوَّ اللَّه ، أنتَ الذي كنتَ تُؤْذِي رسول اللَّه ﷺ وتُؤْذِي أصْحَابَه ، وقـد بلغتَ في عداوة النبي مشـارقَ الأرض ومغاربَها . وما زال الأَنْصَـارِيُّ يَسْتَطيـلُ[2] عليَّ ويَرْفَـعُ صَـوْتَـه والمسلمون يَقْتَحِمونَني[3] بعُيُونِهم ، ويُسَرُّون مِمَّا أُلاقي .

عنْدَ ذلك أَبْصَرْتُ عَمِّيَ العَبَّاسَ فَلُذْتُ[4] به ، وقلتُ : يا عَمّ ، قد كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَفْرَحَ رسولُ اللَّه ﷺ بإسْلامِي لِقَرابَتِي منه ، وشَرَفي في قَوْمِي ، وقد كان مِنْهُ ما تَعْلَمُ ، فَكَلِّمْهُ فِيَّ لِيَرْضَى عَنِّي ، فقال : لا واللَّه لا أُكَلِّمُه كلمةً أبداً بَعْدَ الذي رأيتُه من إعراضِه عَنْكَ إلَّا إنْ سَنَحت فُرْصَةٌ ؛ فإنِّي أُجِلُّ رسولَ اللَّه ﷺ وأهابُه .

فقلت : يا عَمّ ، إلى مَنْ تَكِلُني إذن[5] ؟! فقال : ليس لك عندِي غيرُ ما سمعتَ . فتملَّكني الهمُّ وركبَني الحزنُ ، ولم أَلبَثْ أَنْ رأيتُ ابنَ عمي عليَّ بنَ أبي طالب ، فكلَّمتُه في أمري ، فقال لي مثلَ مَقالةِ عمِّنا العبَّاس .

عند ذلك رجعتُ إلى عمي العباسِ وقلت: يا عمّ، إذا كنتَ لا تستطيعُ أن تَعطفَ عليَّ قَلبَ الرسولِ ، فَكُفَّ عني ذلك الرَّجلَ الذي يَشْتِمُني ويُغري الناسَ بشَتمي ، فقال : صِفهُ لي ؛ فوصفته لـه ، فقال : ذلـك نُعَيمانُ بنُ الحـارثِ النَّجَّـاريُّ ، فـأَرْسَـلَ إليـه وقـال لـه : يـا نُعيمـانُ ، إنَّ أبـا سُفيـانَ ابنُ عَمِّ رسـولِ اللَّهِ ﷺ ، وابنُ أخي ، وإنْ يَكنْ رسولُ اللَّه ﷺ سـاخـطاً عليـه اليـومَ

---

(1) أغرى بي أحد الأنصار : حرَّضه عليَّ .
(2) يستطيل عليَّ : يتطاول عليَّ بالسّب والشتم .
(3) يقتحمونني بعيونهم : ينظرون إليَّ نظراً فيه شِدَّة .
(4) لذتُ به : لجأت إليه :
(5) إلى من تكلني : إلى من تتركني .

فسيرضَى عنه يوماً ، فَكُفَّ عنه ، وما زالَ به[1] حتى رَضيَ بأَنْ يكُفَّ عني ، وقال لا أُعرِضُ له بعدَ الساعة .

* * *

ولما نَزَلَ رسولُ اللَّه ﷺ بالجَحفة[2] جلستُ على بابِ مَنزله ، ومعي ابني جَعفرُ قائماً ، فلمَّا رآني ـ وهو خارجٌ من مَنزله ـ أَشاح عَني بوَجهِه ، فلم أَيْأَسْ من استرْضائِه ، وجَعَلتُ كلَّما نَزلَ في مَنْزلٍ أجْلِسُ على بابِه ، وأقِيمُ ابني جَعْفراً واقفاً بإزائي ، فكان إذا أَبْصَرَني أَعْرَضَ عني .

وبقيتُ على ذلك زماناً ، فلما اشْتَدَّ عليَّ الأمْرُ وضَاقَ ؛ قلت لِزَوْجَتي :

واللَّه لَيَرْضَيَنَّ عَنِّي رسولُ اللَّه ﷺ أو لآخُذَنَّ بِيَدَيْ ابني هذا ، ثم لَنَذْهَبَنَّ هائِمَيْن على وَجْهَيْنا في الأرْضِ حَتَّى نموتَ جوعاً وعطَشاً ، فلما بَلَغَ ذلك رسولَ اللَّه ﷺ رقَّ لي . . . ولما خَرَج من قُبَّتِه نَظَرَ إِلَيَّ نَظَراً أَلْيَنَ من النَّظَرِ الأوَّلِ ، وكُنْتُ أَرْجو أن يبتَسِم .

* * *

ثُمَّ دَخَلَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ مَكَّةَ فَدَخَلْتُ في رِكابه ، وخَرَج إِلَى المَسْجِد فَخَرَجْتُ أَسْعى بين يَدَيْه لا أُفارِقُه على حَالٍ .

ولما كانَ يومُ حُنَيْنٍ جَمَعَتِ العَرَبُ لِحَرْبِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ ما لَمْ تَجْمَعْ قَطُّ ، وأَعَدَّتْ لِلِقائِه ما لم تُعِدَّ من قبل ، وعَزَمَت على أن تَجْعَلها القاضِيَة على الإسلام والمسلمين .

وخرَج الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه للقائِهم في جُموعٍ من أَصْحابِه ،

---

(١) ما زال به : ما زال يُلحُّ عليه .

(٢) الجَحفة : مكان على الطريق بين المدينة ومكة يبعُدُ عن مكة أربع مراحل .

فَخَرَجْتُ مَعَهُ ، ولَمَّا رأيتُ جموع المشْرِكين الكبيرَة قلت : واللَّه لأُكَفِّرَنَّ اليوْمَ عن كُلِّ ما سَلَفَ مِنِّي من عداوَةِ رسولِ اللَّه ﷺ ، ولَيَرَيَنَّ النبيُّ من أثَرِي ما يُرْضِي اللَّه ويُرْضيه .

ولما الْتقَى الجَمْعان اشْتَدَّت وَطْأةُ المُشرِكين على المسلمين ؛ فَدَبَّ فيهم الوَهَنُ والفَشَل ، وجَعَلَ الناسُ يَتفَرَّقُون عن النبي ، وكادت تَحُلُّ بنا الهزيمة المُنكَرَة .

فإذا بالرَّسول ـ فداه أَبي وأُمِّي ـ يَثبُتُ في قَلْبِ المعركة على بَغلَتِه الشَّهْباءِ كَأَنَّه الطَّوْدُ[1] الراسِخُ ، ويُجَرِّدُ سَيْفَه ، ويجالِدُ عن نَفْسِه وعَمَّن حَوْلَه كأَنَّهُ اللَّيْثُ عادِياً .

عِند ذلك وَثَبْتُ عن فَرَسي ، وكَسَرْتُ غِمْدَ سَيْفِي ، واللَّهُ يَعْلَمُ أني أريدُ الموت دونَ رسولِ اللَّه .

وأَخَذَ عمِّي العَبَّاسُ بِلِجامِ بَغْلَةِ النبيِّ وَوَقَفَ بجانبه . . .

وأَخَذْتُ أَنا مكاني من الجانب الآخر ، وفي يميني سَيفِي أَذودُ به عن رسولِ اللَّه ، أما شمالي فكانت مُمسِكةً بِركابه .

فلما نظر النبيُّ إلى حُسنِ بلائي[2] قال لعمي العباس :

(من هذا؟) فقال : هذا أَخوك وابنُ عمِّكَ أبو سفيانَ بنُ الحارث ، فارْضَ عنه أَيْ[3] رسولَ اللَّه ، فقال : (قد فَعَلْتُ وغَفَرَ اللَّهُ له كل عَدَاوَةٍ عادانِيها) .

فاستَطارَ فؤادي فَرَحاً بِرضَى رسولِ اللَّهِ عَنِّي ، وقَبَّلْتُ رِجْلَه في الركابِ ، ثم التَفَتَ إِلَيَّ فقال : (أَخي لَعَمْرِي ، تَقَدَّمْ فَضارِبْ) .

---

(١) الطود : الجَبلُ العظيم .

(٢) حُسْن بلائي : شدَّة فتْكي بالأعداء .

(٣) أيْ : حَرْف نداء مثل « يا » .

أَلْهَبَتْ كلماتُ الرسولِ صَلواتُ اللَّهِ عليه حَماسَتي ، فحَمَلْتُ على المشركين حَمْلَةً أزالَتْهُمْ عن مواضِعِهِم ، وحَمَل معي المسلمونَ حَتَّى طَرَدْناهُمْ قَدْرَ فَرْسَخٍ ، وفرَّقْناهُمْ في كُلِّ وَجْهٍ .

* * *

ظَلَّ أبو سفيانَ بنُ الحارث منذ « حُنَيْنٍ » يَنْعُمُ بجميل رضى النبيِّ عَنْهُ ويَسْعَدُ بكريم صُحْبَتِه ، ولٰكِنَّه لم يرفع نَظَرَه إليه أبداً ولم يثبِّتْ بَصَرَه في وجهه حياءً منه ، وخجلاً من ماضيه مَعَه .

* * *

وقد جَعَلَ أبو سُفْيانَ يَعَضُّ بَنانَ النَّدم على الأيام السود التي قَضَاها في الجاهلية محجوباً عن نورِ اللَّه ، مَحْروماً من كتابه ؛ فَأَكَبَّ على القرآن ليلَه ونهارَه يَتْلو آياتِه ، ويتفقَّه في أحكامِه ويَتَمَلَّى من عِظاتِه .

وأعْرَضَ عن الدنيا وزَهْرَتِها وأَقْبَلَ على اللَّه بِكُلِّ جارِحَةٍ من جوارحه حَتَّى إنَّ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه رآه ذات مَرَّةٍ يَدْخُلُ المَسْجِدَ فقال لعائِشَةَ رضيَ اللَّهُ عنها : (أَتدرين من هذا يا عائشة ؟!)

قالت : لا يا رسول اللَّه .

قال : (إنَّهُ ابنُ عَمِّي أبو سفيانَ بنُ الحارث انظري إنَّـه أَوَّلُ من يَدْخُلُ المَسْجِدَ وآخِرُ من يَخْرُج منه ، ولا يفارِقُ بَصَرُه شِرَاكَ نَعْلِه) .

* * *

ولما لَحِقَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه بالرَّفيق[1] الأعلى حَزِنَ عليه أبو سُفْيان بنُ الحارث حُزْنَ الأم على وحيدها ، وبكاه بكاءَ الحبيب على حبيبه ،

---

(١) لحق بالرفيق الأعلى : تُوفيَ ولحق بربِّه .

ورثاه بقصيدة من غُرَرِ المراثي تَفِيضُ لَوْعَةً وشجوناً ، وتَذُوبُ حَسْرَةً وأنيناً .

* * *

وفي خِلافَةِ الفاروق رضي اللَّه عنه أَحَسَّ أبو سفيان بِدُنُوِّ أَجله ؛ فَحَفَرَ لِنَفْسِه قَبْرَه بيديه .

ولم يَمْضِ على ذلك غيرُ ثلاثةِ أيامٍ حَتَّى حَضَرَتْه الوفاةُ كأَنَّه مع الموت على ميعاد ؛ فالتَفَتَ إلى زوجته وأَوْلادِه وأَهْلِهِ وقال :

لا تبكوا علَيَّ فواللَّه ما تَعَلَّقْتُ بخطيئَةٍ منذ أسلمت . . . ثم فاضَت روحُه الطاهرة ، فصَلَّى عليه الفاروقُ رِضوانُ اللَّهِ عليه وحزِن لفقده هو والصحابةُ الكرام .

وعَدُّوا موتَه رُزءاً جَلَلاً حَلَّ بالإسلامِ وأَهْلِه(*) .

(*) للاستزادة من أخبار أبي سفيان بن الحارث انظُر :

١ ـ الاستيعاب : ٨٣/٤ .
٢ ـ الإصابة : ٩٠/٤ .
٣ ـ صِفة الصفوة : ٥١٩/١ (طبعة حلب) .
٤ ـ الكامل لابن الأثير : ١٦٤/٢ .
٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام : ٢٦٨/٢ وانظر الفهارس .
٦ ـ تاريخ الطبري : ٣٢٩/٢ .
٧ ـ البداية والنهاية : ٢٨٧/٤ .
٨ ـ الطبقات الكبرى : ٥١/٤ .
٩ ـ طبقات فحول الشعراء : ٦ ـ ٢ .
١٠ ـ نهاية الأرب : ٢٩٨/١٧ .
١١ ـ سير أعلام النبلاء : ١٣٧/١ .
١٢ ـ دول الإسلام : ٣٦/٢ .
١٣ ـ مع الرَّعيل الأول : ١٠٤ .

سَعْدُ بن أبي وَقّاص

(ارْمِ سَعْدُ ارم . . . فِداكَ أبي وأمي)

[محمد رسول اللّه يحرِّض سعداً يوم أحد]

أعوذُ باللّهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم . بِسْمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ .

﴿ ووصَّيْنَا الإنْسانَ بِوَالِدَيْه حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ وَهْناً[1] على وَهْنٍ ، وفِصَالُه[2] في عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِديْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ * وإنْ جاهَدَاك[3] عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا ، وصاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْروفاً ، واتَّبِعْ سَبِيلَ من أنابَ[4] إليَّ ، ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلونَ[5] ﴾ .

لهذه الآياتِ الكريمَاتِ قِصَّةٌ فَذَّةٌ[6] رائعـة ، اضْطَرَعَتْ فيهـا طائفـةٌ من العواطفِ المتناقِضة ، في نفس فَتىً طريِّ العود ؛ فكان النَّصْرُ للخيرِ على الشر ، وللإيمان على الكُفْر .

أمَّا بَطَلُ القِصَّةِ ففتىً من أكرمِ فتيانِ مَكَّةَ نَسباً وأعزِّهم أماً وأباً .

ذلك الفَتىٰ هو سَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ رَضي اللّهُ عَنْهُ وأرضاه .

كان سعدٌ حينَ أشْـرَقَ نُورُ النُّبُـوَّةِ في مَكَّةَ شـاباً رَيَّـانَ الشَّبابِ[7] غضَّ

(١) وهْناً : ضَعفاً ومشقَّة .
(٢) فصاله : فطامه عن الرِّضاع .
(٣) جاهداك : دفعاك بالقوَّة .
(٤) أناب إلي : رجع إليَّ بالإخلاص والطاعة .
(٥) سورة لقمان الآية ١٤ .
(٦) فذَّة : فريدة نادرة .
(٧) ريّان الشباب : طريُّ الشباب مونقه .

الإِهَاب[1] رقيقَ العاطفةِ كَثيرَ البِرِّ بوالديه شديدَ الحُبِّ لأُمِّه خاصَّةً .

وعلى الرَّغمِ من أنَّ سَعْداً كان يَوْمَئِذٍ يَسْتَقْبِل ربيعَه السَّابعَ عَشَرَ فقد كان يضم بين بُرْديه[2] كثيراً من رجاحَةِ[3] الكهول وحِكْمَةِ الشُّيوخ .

فلم يكُنْ ـ مثلاً ـ يَرْتاحُ إلى ما يتعَلَّقُ به لِدَاتُه[4] من أَلْوانِ اللَّهْوِ ، وإنما كان يَصْرِفُ هَمَّهُ إلى بَرْيِ[5] السِّهامِ وإصلاحِ القِسِيِّ[6] ، والتَّمَرُّسِ بالرِّمايَةِ حَتَّى لَكَأَنَّه كان يُعِدُّ نَفْسَهُ لِأَمْرٍ كبير .

ولم يكن ـ أيضاً ـ يطمئنُّ إلى ما وَجَدَ عليه قومَه من فَسادِ العَقِيدَةِ وسُوءِ الحالِ ، حَتَّى لَكَأَنَّه كان يَنْتَظِرُ أَنْ تَمْتَدَّ إليهم يَدٌ قَوِيَّةٌ حازِمَةٌ حانِيَةٌ ، لِتنتشِلَهُم مِمَّا يَتَخَبَّطون فيه من ظُلُماتٍ .

***

وفيما هو كذلك شاء اللّهُ جَلَّ وعَزَّ أَنْ يُكْرِمَ الإنسانية كُلَّها بهذه اليَدِ الحانِيَةِ البانية .

فإذا هيَ يَدُ سيدِ الخَلْقِ محمدِ بنِ عبد اللّه . . .
وفي قَبْضَتِهَا الكوكَبُ الإِلَهِيُّ الذي لا يخبو : كِتَابُ اللّه . . .

فما أَسْرَعَ أَنِ استَجابَ سعدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ لدعوة الهُدَى والحق ؛ حَتَّى كان ثالثَ ثلاثةٍ أَسلموا من الرِّجالِ أَو رابعَ أَربعة .

ولذا كثيراً ما كان يقول مُفْتَخِراً :
لقد مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وإني لَثُلُثُ الإسلام .

---

(١) غضّ الإهاب : غض الجلد : كناية عن أنه في مقتبل العمر ورونقه .
(٢) برديه : ثوبيه .
(٣) رجاحة الكهول : عقل الكهول ورصانتهم .
(٤) لداته : المماثلون له في السنِّ .
(٥) بري السِّهام : إعدادها وإصلاحُها .
(٦) القِسيُّ : الأقواسُ التي يُرْمى بها .

كانت فَرْحَةُ الرسولِ صلوات اللّهِ عليه بإسلامِ سعدٍ كبيرةً ؛ ففي سَعدٍ من مَخايِلِ[1] النَّجابَة ، وبواكيرِ الرُّجولِةِ[2] ما يُبَشِّرُ بأَنَّ هـذا الهِلالَ سَيكُونُ بَدْراً كامِلاً في يومٍ قريب .

ولِسَعْدٍ من كرَمِ النَّسَبِ ، وعِزَّةِ الحَسَبِ ما قَدْ يُغْرِي[3] فِتْيانَ مَكَّةَ بأن يَسْلُكوا سبيلَه ويَنْسِجوا على مِنْوالِه[4] .

ثم إن سعداً فَوْقَ ذلِك كلِّه من أَخْوالِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ ؛ فهو من بني زُهْرَةَ ، وبنو زُهْرَة أَهْلُ آمِنَة بنتِ وَهْبٍ ، أُمِّ النبي ﷺ .

وقد كان الرسولُ صلواتُ اللّه عليهِ يَعْتَزُّ بهذه الخُؤُولَة .

فقد رُوِيَ أَنَّ النبي الكريمَ كان جالِساً مَعَ نَفَرٍ من أصحابه فَرأَى سَعْدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ مُقْبلاً فقال لمن معه :

(هذا خالي فَلْيُرِني امرؤٌ خالَه) .

* * *

لَكِنَّ إسْلامَ سعدِ بنِ أَبي وقاصٍ لم يَمُرَّ سهلاً هَيِّناً ، وإنما عَرَّض الفَتَى المؤمنَ لِتَجْرِبَةٍ من أَقْسَى التجارِبِ قسْوَةً وأَعْنَفِها عُنْفاً ، حَتَّى إنَّه بَلَغَ مِنْ قَسْوَتِها وعُنْفِها أَنْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحانَه في شَأنِها قرآناً . فَلْنَتْرُكَ لسعدٍ الكلامَ لِيَقُصَّ علينا خَبَرَ هذه التَّجرِبَةِ الفَذَّة .

قال سعدٌ : رأيتُ في المنامِ قَبْلَ أنْ أُسلِمَ بثلاثِ ليالٍ كَأَنِّي غارقٌ في ظُلُماتٍ بَعْضُها فوقَ بَعْضٍ ، وبَيْنما كنتُ أَتخبَّط في لُجَجِها[5] إذ أَضاءَ لي قَمَرٌ

---

(١) مخايل : علامات .

(٢) بواكير الرجولة : تباشيرُها وأوائلها .

(٣) يغري : يرغِّب ويحضّ .

(٤) ينسجوا على منواله : يسلكوا طريقته فيسلموا كما أسلم .

(٥) اللجج : جمع لجة وهي معظم الماء وأعمقه .

فاتَّبَعْتُه فرأيتُ نفراً أمامي قد سبقوني إلى ذلك القَمَرِ : رأيتُ زيدَ بنَ حـارِثَة ، وعليَّ بنَ أبي طالبٍ ، وأبا بكرٍ الصِّديق ، فقلت لهم : منذ متى أَنتُم هاهنا ؟! فقالوا السَّاعَةَ .

ثم إنِّي لَمَّا طَلَعَ عليَّ النَّهارُ بلغني أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ يَدْعو إلى الإسلام مَسْتَخْفِياً ، فعلمتُ أن اللّه أَراد بي خيراً ، وشاءَ أن يُخْرِجَني بِسَبَبِه من الظلمات إلى النور .

فمضيتُ إليه مُسْرِعاً ، حتَّى لقيتُه في شِعْبِ جيادٍ[1] ، وقَدْ صَلَّى العَصْرَ ، فأَسلمتُ ، فما تَقدَّمَني أَحدٌ سِوَىٰ هؤلاء النَّفَرِ الذين رأيتُهُم في الحُلُم .

ثم تابَعَ سَعْدٌ روايَة قِصَّةِ إسْلامِه فقال : وما إِن سَمِعَتْ أُمِّي بخبر إسلامي حَتَّى ثارَت ثائرتُها[2] وكنتُ فتىً بَرّاً بها مُحِبّاً لها ، فأَقْبَلَتْ عليَّ تقولُ : يا سعدُ ما هذا الدين الذي اعتنقتَه فَصَرَفَكَ عن دينِ أُمِّكَ وأَبيك . . . واللّه لَتَدعَنَّ دينَك الجديد أو لا آكُلُ ولا أَشْرَبُ حتى أمـوتَ . . . فيتفَطَّرَ[3] فؤادُك حـزناً عليَّ ، ويأْكُلَكَ النَّدَمُ على فعْلَتِكَ التي فعلت ، وتُعَيِّرَكَ الناسُ بها أَبَدَ الدَّهرِ .

فقلت ، لا تفعلي يا أُمَّاهُ ، فأَنا لا أَدَعُ ديني لأيِّ شَيْءٍ .

لٰكِنَّها مَضَتْ في وعيدِها ، فاجتنَبتِ الطَّعامَ والشَّرابَ ومكَثَتْ أَيامـاً على ذلك لا تأْكل ولا تَشْرَب فَهَزُلَ جِسْمُها وَوَهَنَ عَظْمُها وخارَتْ قواها .

فجعلتُ آتيها ساعةً بعد ساعة أَسأَلُها أَنْ تتبلَّغَ[4] بشيءٍ من طعام أو قليل من شرابٍ فتأبَى ذلك أَشَدَّ الإباءِ وتُقْسِمُ أَلَّا تأْكل أو تَشْرَبَ حتى تموتَ أو أدَعَ ديني .

---

(١) شعب جياد : أحد شعاب مكة المكرَّمَة .
(٢) ثارت ثائرتها : اشتعلت نار غَضَبها .
(٣) يتفطر : يتشقَّق .
(٤) تتبلَّغ : تتناول القليل الذي يحفظ حياتها .

عند ذلك قلت لها : يا أماه إني على شديد حبي لك لأشَدُّ حباً للّه ورسولِه . . . وَوَاللّهِ لو كانَ لَكِ أَلفُ نَفْسٍ فخرجَتْ مِنْكِ نَفْساً بَعْدَ نَفْسٍ ما تَرَكْتُ ديني هذا لِشَيْءٍ .

فلما رأت الجِدَّ مِنِّي أذعَنَتْ للأمر وأَكلت وشرِبت على كُرْهٍ منها ، فأَنْزَلَ اللّهُ فينا قولَه عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وإن جاهداك على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لَكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدُّنيا معروفاً﴾ .

* * *

لقد كان يومُ إسلامِ سعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رضي اللّه عنه من أكثَرِ الأيامِ بِراً بالمسلمين وأجزَلِها خيراً على الإسلام .

ففي يوم بدرٍ كان لسعدٍ وأَخيه عُمَيرٍ مَوْقفٌ مشهودٌ ؛ فقد كان عُمَيْرٌ يومئذ فَتىً حدثاً لم يجاوِزِ الحُلُمَ إلّا قليلاً ، فلمَّا أَخَذَ الرسولُ عليه السَّلامُ يَعْرِضُ جُنْدَ المسلمين قبلَ المعركة توارَى عميرٌ أخو سعدٍ خوْفاً من أَنْ يراه الرَّسولُ فَيَرُدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّه ، لٰكِنَّ الرسولَ عليه السلامُ أَبْصَرَه وردَّه ؛ فَجَعَلَ عميرٌ يبكي حَتى رَقَّ له قلبُ النبيِّ وأَجازه .

عند ذلك أَقبل عليه سعدٌ فَرِحاً ، وعَقَدَ عليه حِمَالةَ[1] سَيْفِه عقداً لِصِغَرِه وانْطَلَقَ الأَخَوانِ يُجاهِدانِ في سبيل اللّهِ حقَّ الجِهادِ .

فلما انْتَهَتِ المعركةُ عاد سعدٌ إلى المدينة وَحْدَه ، أَمَّا عُمَيْرٌ فقد خَلَّفَه شهيداً على أَرض بَدْرٍ واحْتَسَبَه[2] عِنْدَ اللّه .

* * *

---

(١) حِمالة السيف : ما يعلق به على عاتق صاحبه .

(٢) احتسبَه عند اللّه : طلب من اللّه أجره على فقده .

وفي أُحُدٍ حين زُلْزِلَتِ الأقْدامُ[١] ، وتَفَرَّقَ المسلمون عن النبيِّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ حتى لم يَبْقَ إلاَّ في نَفَرٍ قليلٍ لا يُتِمُّونَ العشرة وقَفَ سعدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ يُناضِلُ عن رسولِ اللّهِ صلواتُ اللّه عليه بِقَوْسِه ، فكان لا يَرْمِي رَمْيَةً إلاَّ أَصابَتْ من مُشْرِكٍ مَقْتَلاً .

ولَمَّا رآه الرسول عليه السَّلام يَرْمي هذا الرَّمي ، جَعَلَ يَحُضُّه[٢] ويقولُ له : (اِرْمِ سعدُ . . . اِرْمِ فداكَ أَبي وأُمِّي) ،

فَظَلَّ سعدٌ يَفْتَخِر بها طَوالَ حياته ويقول : ما جَمَعَ الرَّسولُ لأحَدٍ أبويه إلاَّ لي ، وذلك حين فَدَّاه بأَبيه وأُمه معاً .

* * *

ولٰكِنَّ سَعْداً بَلَغَ ذروة مَجْدِه حين عَزَمَ الفاروق على أَنْ يخوضَ مع الفُرْسِ حَرْباً تُدِيل[٣] دولتهم وتَثُلُّ[٤] عَرْشَهُمْ ، وتجتَثُّ[٥] جذورَ الوثنية من على ظَهْر الأرض فأَرسل كُتُبَه إلى عماله في الآفاق أَنْ أَرسلوا إليَّ كُلَّ من كان له سلاحٌ أو فرسٌ أو نَجْدَةٌ أو رأي أو مزية من شعر أو خطابة أو غيرها مِمَّا يُجْدِي على المعركة .

فَجَعَلَتْ وفودُ المجاهدين تَتَدَفَّقُ على المدينةِ من كُلِّ صَوْب[٦] . فلما تَكامَلَتْ ، أَخَذَ الفاروق يَسْتَشِيرُ أَصحابَ الحَلِّ والعقد[٧] في من يُوَلِّيه على الجَيْشِ الكبيرِ ويُسْلِمُ إليه قِيادَه ، فقالوا بلسان واحِدٍ : الأَسَدُ عادِياً سَعْدُ بنُ أَبي

(١) زُلزلت الأقدام : دبَّ الضعف والخوف في النفوس .
(٢) يحضه : يحثه .
(٣) تديل دولتهم : تطيح بدولتهم وتذهب بها .
(٤) تَثُلُّ عرشهم : تهدِم ملكهم .
(٥) تجتثُ جذور الوثنية : تقتلعها من أصولها .
(٦) من كل صوب : من كل جهة .
(٧) أصحاب الحل والعقد : أهْلُ الشورَى وذوو الرأي والمكانة .

وقَّاص ، فاستَدْعاهُ عمرُ رِضوانُ اللّهِ عليهما ، وعقدَ له لواءَ الجيش[١] .

ولما هَمَّ الجيشُ الكبيرُ بأن يَفْصِلَ[٢] عن المدينة وقف عُمَر بنُ الخطاب يُوَدِّعُهُ ويوصي قائِدَه فقال :

يا سَعْدُ ، لا يَغُرَّنَّكَ من اللّه أَنْ قِيلَ : خالُ رسولِ اللّهِ ، وصاحِبُ رسولِ اللّه ، فإِنَّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ لا يَمحُو السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ ، ولٰكِنَّه يمحو السيئةَ بالحَسَنة .

يا سَعْدُ : إنَّ اللّه لَيْسَ بينَه وبينَ أَحَدٍ نَسَبٌ إلا الطاعة ، فالنَّاسُ شريفُهم وَوَضِيعُهم في ذات[٣] اللّهِ سواء ؛ اللّه ربُّهُمْ وهُمْ عِبادُه يتفاضَلون بالتَّقْوى ويدرِكون ما عِنْدَ اللّهِ بالطَّاعةِ ، فانْظُرِ الأمْرَ الذي رأَيْتَ النبيَّ عليه فالتَزِمْهُ فإنه الأَمْرُ[٤] .

ومضى الجيشُ المبارَكُ وفيه تِسْعَةٌ وتِسْعونَ بَدْرياً[٥] وثلاثُمائَةٍ وبِضْعَةَ عَشرَ ممن كانت لهم صُحْبَةٌ فيما بَيْنَ بَيْعَةِ الرِّضوانِ فما فوق ذلك ، وثلاثُمائةٍ ممن شَهِدوا فَتْحَ مَكَّة مع رسول اللّه ، وسبْعُمائةٍ من أَبناءِ الصَّحابَة .

مَضَى سعدٌ وعَسْكَرَ بجيشه في القادسية[٦] . ولما كان يوم الهرير[٧] عَزَم المسلمون على أَن يَجْعلوها القاضية[٨] ، فأَحاطوا بعدوِّهم إِحاطةَ القَيْدِ بالمِعْصَمِ ، ونَفَذُوا إلى صُفوفِه من كُلِّ صَوْبٍ مُهَلِّلِينَ[٩] مكبرين ، فإذا رَأسُ

---

(١) عقد له لواء الجيش : ولاه عليه .

(٢) يَفْصِلَ : يخرُج .

(٣) في ذات اللّه : عند اللّه .

(٤) فإنه الأمْرُ : أي فإنه الأمر الذي يجب إنفاذه .

(٥) بدرياً : البدريّ من شهد معركة بدر .

(٦) القادِسيّة : موضعٌ يبعد عن الكوفة خمسة عشر فرسخاً ، وقعت فيها المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرس سَنة ست عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون نصراً كبيراً لم تقم بعدها للفرس قائمة .

(٧) يوم الهرير : اليوم الأخير من أيام القادسية وسمي كذلك لأنه لم يكن يُسْمعُ للجند أصواتٌ إلا الهرير من شِدَّة القتال .

(٨) القاضية : المهلكة المدمِّرَة .

(٩) مهللين : صائحين لا إلٰه إلا اللّه .

رُسْتُمَ قائِد جيش الفُرِس مَرْفُوعٌ على رِماحِ المسلمين وإذا بالرُّعْبِ والهَلَع يَدُبَّان في قلوبِ أعداءِ اللّه حَتَّى كان المُسلِمُ يُشيرُ إلى الفارِسِيِّ فيأتيه فيقتُله ، ورُبَّما قَتَله بسلاحه .

أما الغنائِمُ فَحَدِّث عنها ولا حَرَج ، وأما القَتْلى فيكْفيكَ أَنْ تَعْلَمَ أنَّ الذين قَضَوا غرَقاً فحسْبُ قد بلغوا ثلاثين ألفاً .

* * *

عُمِّر سعدٌ طويلاً وأفاءَ اللّه عليه من المال الشيءَ الكثيرَ ، لٰكِنَّهُ حين أَدْرَكَتْهُ الوفاةُ دعا بِجُبَّة من صوفٍ بالية وقال :

كفنوني بها فإني لَقِيتُ بها المشركين يَوْم بَدْر . . . وإني أُريدُ أن أَلْقَى بها اللّه عَزَّ وجَلَّ أيضاً(*) .

(*) للاستزادة من أخبار سعد بن أبي وقاص انظر :

١ ـ الاستيعاب : ٢/ .
٢ ـ الإصابة : ٢/٣٠ .
٣ ـ الملل والنحل : ١/٢٠ .
٤ ـ أشهر مشاهير الإسلام : ٣/٥٢٥ .
٥ ـ الطبقات الكبرى : ١/٢١ .
٦ ـ تحفة الأحوذي : ١٠/٢٥٣ .
٧ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٦٢ .
٨ ـ زعماء الإسلام : ١١٤ .
٩ ـ رجال حول الرسول : ١٤١ .
١٠ ـ سعد بن أبي وقاص وأبطال القادسية للسحّار .
١١ ـ الرياض النضِرَة : ٢/٢٩٢ .
١٢ ـ صفة الصفوة : ١/١٣٨ .
١٣ ـ تهذيب ابن عساكر : ٦/٩٣ .
١٤ ـ المعارف : ١٠٦ .
١٥ ـ النجوم الزاهرة (انظر الفهارس) .
١٦ ـ أسد الغابة : ٢/٢٩٠ .
١٧ ـ جمهرة أنساب العرب : ٧١ .
١٨ ـ تاريخ الإسلام : ١/٧٩ .
١٩ ـ فتوح مصر وأخبارُها : ٣١٨ .
٢٠ ـ البداية والنهاية : ٨/٧٢ .

حُذَيفَةُ بْن اليَمَان

(ما حدّثكم حُذَيْفَةُ فَصَدِّقوه
وما أقرأكم عبد اللّه بن مسعود فاقرؤوه)
[حديث شريف]

(إنْ شِئْتَ كنتَ من المُهاجرين ، وإنْ شئتَ كنتَ من الأنْصار ، فاخْتَرْ أَحَبَّ الأَمْرين إلى نَفْسِك) .

بهذه الكلماتِ خاطب الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمانِ حينَ لَقِيَهُ أَوَّلَ مرَّة في مَكَّة .

ولِتَخْييرِ حُذَيْفَـةَ بن اليَمَانِ في الانْتِمـاء إلى أكَـرَمِ فِئَتَيْن وأحَبِّهمـا إلى المسلمين قِصَّة :

فاليَمَانُ أبو حُذَيْفَةَ مَكِّيٌّ من بني عَبْسٍ لكِنَّه أَصَـابَ دَماً[1] في قَـوْمه ، فاضْطُرَّ إلى النُّزُوحِ عن مَكَّةَ إلى يَثْرِبَ ، وهناك حـالَفَ بَني عَبْدِ الأَشْهَـلِ ، وصاهَرَهم ، ووُلِدَ له ابنُه حُذَيْفَة .

ثم زالَتِ الموانِعُ التي تحولُ دونَ اليَمانِ ودونَ دُخولِ مكَّةَ فَجَعَلَ يتردَّد بَيْنَها وبَيْنَ يثْرِب ، ولٰكِنَّ إقامَتَه كانت في المدينة أكثر وألصق .

ولما أَهَلَّ الإِسلامُ بنورِه على جزيرةِ العَرَبِ كان اليمانُ أبو حُذَيْفَةَ أَحَـدَ عَشَرَةٍ من بني عَبْسٍ وَفَدُوا على الرسول صلواتُ اللّهِ عليه وأَعْلَنوا إسلامهم بين

(١) أصاب دماً : قتل قتيلاً .

يديه ، وذلك قَبْلَ أَنْ يُهاجَر إلى المدينة ، ومن هُنا كان حُذَيْفَة مَكِّيَّ الأَصْل مَدَنيَّ النشأة .

* * *

نَشَأَ حُذَيْفَةُ بنُ اليَمان في بَيْتٍ مُسْلِمٍ ورُبِّيَ في كَنَفِ أَبوَيْنِ من السابقين إلى الدخولِ في دينِ اللَّه ، فأَسْلَمَ قَبْلَ أن تَكْتَحِلَ عيناه بِمَرْأَى رسولِ اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

* * *

كان شَوْقُ حُذَيْفَةَ إلى لقاءِ الرسول يَمْلأُ جَوَانحه ، فهو ما زال مُنْذُ أَسْلَمَ يَتَسقَّطُ(١) أخبارَه ، ويُلِحُّ في السؤال عن أَوْصَافِه ، فلا يَزِيدُهُ ذلك إلا وَلَعاً به ، وحنيناً إليه.

فَرَحَلَ إلى مَكَّةَ لِيَلْقاهُ ، فما إن رأى النبيَّ حتى سَأَلَهُ : أَمُهاجِرٌ أنا أم أنْصاريٌّ يا رسول اللَّه ؟ فقال عليه السلام :(إن شئتَ كُنْتَ من المهاجرين ، وإنْ شِئْتَ كُنْتَ من الأنْصارِ ، فاخْتَر لِنَفْسِك ما تُحِبُّ) .

فقال : بل أنا أنصاريٌّ يا رسول اللَّه.

* * *

ولَمَّا هاجَرَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ إلى المدينة لازمَه حذَيْفَةُ مُلازَمَةَ العَيْنِ لأُخْتِهَا ، وشَهِدَ معه المَواقِع كُلَّها إلاَّ بدراً.

ولِتَخَلُّفِ حُذَيْفَة عن بدرٍ قصَّةٌ رواها بنفسه فقال : ما مَنَعَني أنْ أَشْهَدَ بدراً إلا أَنِّي كُنْتُ خارِجَ المدينةِ أنا وأبي ، فَأَخَذَنا كُفَّارُ قُرَيْشٍ وقالوا : أَيْنَ تَقْصِدون ؟ فقلنا : المدينةَ ، فقالوا : إنَّكُمْ تريدون محمداً ، فَقُلْنا : ما نريدُ إلاَّ

(١) يتسقَّطُ أخباره : يتتبَّعُها ويبحثُ عنها .

المدينة ، فَأَبَوْا أَنْ يُطْلِقونا إلا بعدَ أَنْ أخذوا العَهْدَ علينا أَلَّا نَنْصُرَ محمداً عليهم ، وأَلَّا نُقاتِلَ معه ، ثُمَّ أَطْلَقوا سَراحَنا .

ولما قَدِمْنا على رسولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرْناهُ بما قَطَعْناه مِن عَهْدٍ لِقُرَيْشٍ ، وسأَلْناهُ ماذا نَصْنَعُ ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (نَفِي بِعَهْدِهم ونَسْتَعينُ عَلَيْهِمْ باللَّه) .

* * *

ولما كانت أُحُدُ خاضَها حذَيْفَةُ مع أبيه اليمان ؛ أَمَّا حُذَيْفَةُ فأبْلَىٰ فيها أَعْظَمَ البلاء وأكْرَمَهُ ، وخَرَجَ منها سالِماً ، وأما أبوه فقد استُشْهِدَ فيها ، ولٰكِنَّ اسْتِشْهادَه كان بِسُيوفِ المسلمين لا بسيوفِ المشركين ؛ ولذلك قِصَّةٌ نوردُها فيما يلي :

لما كانَ يومُ أُحدٍ وَضَعَ رسولُ اللَّه ﷺ اليمان وثابتَ بنَ وَقْشٍ في الحُصونِ مع النِّساءِ والصِّبْيانِ ، لأَنَّهما كان شَيْخَيْنِ كبيرينِ طاعِنَيْنِ في السِّنِّ[١] ، فلمَّا حَمِيَ وطيسُ المَعْرَكَةِ[٢] قالَ اليَمانُ لصاحبِه : لا أبا لك ، ما نَنْتَظِر ؟! فواللَّهِ ما بَقِيَ لواحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمرِه إلَّا بمقْدارِ ما يَظْمَأُ[٣] الحمارُ ، إنَّما نَحْنُ هامَةُ[٤] اليومِ أو غَدٍ ، أَفَلا نَأْخُذ سَيْفَيْنا ونَلْحَقُ برسولِ اللَّهِ ﷺ ، لعلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنا الشَّهادَةَ مع نَبِيِّه . ثم أَخذَا سَيْفَيْهِما ودَخَلا في النَّاس واقْتَحما المَعْرَكَةَ . . .

أما ثابتُ بنُ وَقْشٍ فَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بالشَّهادَةِ على أَيْدي المُشْرِكين ، وأما اليَمانُ والِدُ حُذَيْفَةَ فَتَعاوَرَتْهُ[٥] سُيُوفُ المُسْلِمينَ وهُمْ لا يَعْرِفُونَه ، وجَعَلَ حُذَيْفَةَ يُنادِي : أبي . . . أبي . . . فلا يَسْمَعُه أحدٌ ، وخرَّ الشيخُ صريعاً بأَسْيافِ أصحابِه ، فما

---

(١) طاعنين في السِّنِّ : متقدمين في السن .
(٢) حمي وطيسُ المعركة : اشتدَّت .
(٣) إلا بمقدار ما يظمأ الحمار : كناية عن قصر المُدَّة لأن الحمار قليل الصَّبر على العطش .
(٤) هامَة اليوم : كناية عن أنهم يموتون قريباً .
(٥) تعاورته : تداولته وتتابعت عليه .

زاد حُذَيْفَةُ على أن قال لهم : يَغْفِرُ اللَّهُ لكم ، وهو أَرْحَمُ الرَّاحمين.

ثم أَرَادَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُعْطِيَ الابنَ دِيَةَ[1] أبِيهِ ، فقال حُذَيْفَةُ : إنَّما هو طالِبُ شهادَةٍ وقد نَالها ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ أنِّي تَصَدَّقْتُ بِدِيَتِهِ على المسلمين ، فازْدَادَ بذلك منزلةً عِنْد رسولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

سَبَرَ[2] الرسولُ صلوات اللَّهِ وسلامُه عليه غَوْرَ حذَيْفَة بنِ اليمانِ ، فَتَجلَّتْ له فيه خِلالٌ ثلاث : ذكاءٌ فَذٌّ يُسْعِفُه في حَلِّ المُعْضِلاتِ ، وبَديهَةٌ[3] مُطَاوِعَةٌ تُلَبِّيهِ كُلَّما دَعَاها ، وكِتْمانٌ لِلسِّرِّ فلا يَنْفُذُ إلى غَوْرِه أَحَدٌ.

وكانت سِيَاسَةُ الرسولِ عليه الصلاة والسلامُ تَقُومُ على اكتِشاف مَزَايا أصحابِه والإِفادَةِ مِنْ طاقَاتِهِمْ الكامِنَةِ في ذَوَاتِهم ، وذلك بِوَضْعِ الرَّجُلِ المُناسِبِ في المَكانِ المُناسِب.

* * *

وكانَتْ أكبَرُ مُشْكِلَةٍ تُواجِهُ المُسْلمين في المدينَةِ هي وُجودُ المنافقين من اليَهودِ وأَشْياعِهِمْ[4] ، وما يَحِيكُونَـهُ للنبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ وأصْحابِه من مكائِدَ ودَسائِسَ.

فَأَفْضَى[5] النبيُّ صلواتُ اللَّهِ عليهِ لِحُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ بِأَسْماءِ المنافقين - وهو سِرٌّ لم يُطْلِع عليه أحداً من أَصْحَابِه - وعَهِدَ إلَيْهِ بِرَصْدِ حركاتِهِمْ ، وتَتَبُّعِ نشاطِهِمْ وَدَرْءِ خَطَرِهِمْ[6] عن الإسلام والمسلمينَ ، وَمُنْذُ ذلك اليومِ دُعِيَ حُذَيْفَةُ ابنُ اليَمانِ «بصاحِبِ سِرِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ » .

* * *

---

(١) الدِّيَةُ : ما يؤدَّى لأهل القتيل .
(٢) سبر غوره : نفذ إلى أعماقه واختبره .
(٣) البديهة : سُرعة الفهم لأول وهلة .
(٤) أشياعهم : أنصارهم .
(٥) أفْضى النبي لحذيفة : أسرَّ إليه وخبَّره .
(٦) دَرْءِ خطرهم : دفع خطرهم .

وقد استعانَ الرَّسولُ عليه الصلاة والسلامُ بِمَواهِبِ حُذَيْفَةَ في مَوْقِفٍ من أَشَدِّ المواقِفِ خَطَراً ، وأَحْوَجِها إلى الذَّكاءِ الفَذِّ والبَديهَةِ المطاوِعَةِ ، وذلك في ذُرْوَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ ، حَيْثُ كان المسلمونَ قد أَحاطَ بهم العَدُوُّ من فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِهِم ، وطالَ عَلَيْهِم الحِصارُ ، واشْتَدَّ عَلَيْهِمُ البَلاءُ ، وبَلَغَ مِنْهُمُ الجَهْدُ والضَّنْكُ[1] كُلَّ مَبْلَغٍ ، حَتَّىٰ زاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ[2] ، وأَخَذَ بعضُ المسلمينَ يَظُنُّونَ باللَّهِ الظنون.

ولم تَكُنْ قريشٌ وأحْلافُها من المُشْرِكينَ في هذه السَّاعاتِ الحَاسماتِ بأحْسَنَ حالاً من المسلمين.

فقد صَبَّ عليها اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ من غَضَبِه ما أَوْهَنَ قُواهَا وزَلْزَلَ عزائِمَها ، فأَرْسَل عليها ريحاً صَرْصَراً[3] تَقْلِبُ خِيامَها وتَكْفَأُ[4] قُدورهَا ، وتُطْفِىءُ نِيرانَها وتَقْذِفُ وُجوهَها بالحَصْباءِ ، وتَسُدُّ عيونَها وَخياشِيمَها بالتُّرابِ.

***

في هذه المواقِفِ الحاسمَة من تاريخِ الحروبِ يكونُ الفَريقُ الخَاسِرُ هو الذي يَئِنُّ أَوَّلاً ، ويكونُ الفريقُ الرابحُ هو الذي يَضْبطُ نَفْسه طَرْفَةَ عَيْنٍ بَعْدَ صاحبه.

وفي هذه اللحظات التي تُكْتَبُ فيها مَصَائِرُ المعارِكِ يكونُ لاسْتِخباراتِ الجيوشِ الفَضْلُ الأَوَّلُ في تَقْديرِ المَوْقِفِ وإسْدَاءِ المشورة.

ومن هُنا احتَاجَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام لِطَاقاتِ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ وخبْراته ، وعَزَمَ على أَنْ يَبْعَثَ بِهِ إلى قَلْبِ جيش العَدُوِّ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ لِيأتِيَه بأخْبارِه قَبْلَ أَنْ يُبْرِمَ[5] أَمْراً.

---

(١) الضنك : الضِّيقُ والشِّدَّة .

(٢) بلغت القلوب الحناجر : كناية عن شدَّة الضيق .

(٣) الريح الصَّرْصَرُ : الريح الشَّديدة التي تَصرُّ صَرّاً .

(٤) تكفأ : تقلب .

(٥) قبل أن يُبرم أمراً : قبل أن يَتخِذَ قراراً .

فَلْنَتْرُكْ لِحُذَيْفَةَ الكَلامَ لِيُحَدِّثَنا عن رِحْلَةِ المَوْتِ هذه.

قال حُذَيْفَةُ : كُنَّا في تلك الليلةِ صافِّينَ قُعُوداً ، وأَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَه مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ فَوْقَنا ، وبَنُو قُرَيْظَةَ من اليَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا نَخافُهُمْ على نِسائِنا وذَرارينا ، وما أَتَتْ علينا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمَةً ولا أَقْوَى ريحاً مِنْها ، فأصواتُ ريحها مِثْلُ الصواعق ، وشِدَّةُ ظلامِها تَجْعَلُ أَحَدَنا ما يَرى إصْبَعَهُ . . .

فأخذ المنافقون يَسْتَأذِنونَ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ ، ويقولون : إنَّ بُيوتَنا مَكْشوفَةٌ للعَدُوِّ - وما هي بِمَكْشُوفَةٍ - فما يَسْتَأذِنُه أَحَدٌ مِنْهُم إلَّا أَذِنَ له وهم يَتَسَلَّلُونَ حتى بقينا في ثلاثمائةٍ أو نَحْوِ ذلك .

***

عندَ ذلكَ قامَ النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ وجَعَلَ يمرُّ بنا واحداً واحداً حتى أتَىٰ إليَّ وما عَلَيَّ شَيءٌ يقيني من البَرْدِ إلَّا مِرْطٌ[1] لامْرَأَتي ما يُجاوِزُ رُكْبَتَيَّ .

فاقتَرَبَ مني وأنا جاثٍ على الأَرْضِ ، وقال : (من هذا ؟) .

فقلت: حُذَيْفَةُ ، قال : (حذيفة ؟) فَتَقاصَرْتُ إلى الأَرْضِ كراهِيَةَ أَنْ أقومَ من شِدَّة الجُوعِ والبَرْدِ ، وقُلْتُ : نعم يا رسولَ اللَّهِ ، فقال: (إنَّه كائنٌ في القومِ خبَرٌ فَتَسَلَّلْ إِلَى عَسْكَرِهم وأْتِني بِخَبَرِهم . . .) .

فَخَرَجْت وأَنا من أَشَدِّ النَّاسِ فَزعاً وأَكْثَرِهِمْ بَرْداً ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : (اللَّهُمَّ احْفَظْهُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ، ومن خَلْفِه ، وعَنْ يَمينِه وعَنْ شِمَالِه ، ومِنْ فَوْقِهِ ومِنْ تَحْتِه) .

فواللَّهِ ، ما تَمَّتْ دَعْوَةُ النَّبيِّ عليه السلامُ حتى انْتَزَعَ اللَّهُ من جَوْفي كُلَّ ما أَوْدَعَهُ فيه من خَوْفٍ وأَزَالَ عن جَسَدِي كُلَّ ما أَصابَه مِنْ بَرْدٍ.

فلمَّا وَلَّيْتُ ناداني عليه الصلاة والسلام وقال :(يا حُذَيْفَةُ لا تُحْدِثَنَّ[2] في

---

(١) المِرْط : كل ثوب غير مَخيط من مئزرٍ ونحوه .

(٢) لا تحدثنَّ : لا تفعلنَّ .

القَوْمِ شيئاً حتى تـأتِيَني)، فقلتُ: نعم، وَمَضَيْتُ أَتَسَلَّلُ في جُنْحِ الظلامِ حَتَّى دَخَلْتُ في جُنْدِ المُشْرِكِين وصِرْتُ كَأَنِّي واحِدٌ مِنْهُمْ.

وما هو إلَّا قليلٌ حتى قام أبو سُفْيانَ فيهم خطيباً وقال: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنِّي قائِلٌ لَكُمْ قَوْلاً أَخْشَى أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّداً فَلْيَنْظُرْ كـلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَنْ جَلِيسُهُ، فما كان مِنِّي إلَّا أَنْ أَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجل الذي كان إلى جَنْبِي وقلت: من أَنْتَ؟ فقال: فلانُ بنُ فلانٍ.

وهنا قال أبو سفيان: يا مَعْشَرَ قُرَيْش، إنَّكُمْ واللَّهِ ما أصبحتم بِدارِ قرارٍ، لقد هَلَكَتْ رَواحِلُنا[1]، وتخَلَّت عَنَّا بنو قُرَيْظَةَ[2]، ولَقِينا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مـا تَرَوْنَ، فارْتَحِلوا فإنِّي مُرْتَحِلٌ، ثم قامَ إلى جَمَلِه فَفَكَّ عِقالَه، وجَلَسَ عليه، ثم ضَرَبَهُ فَوَثَبَ قائِماً. ولولا أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَلَّا أُحْـدِثَ شيئاً حتَّى آتِيَـهُ لَقَتَلْتُه بِسَهْمٍ.

عند ذلك رَجَعْتُ إلىٰ النبيِّ عليه الصلاة والسلام فَوَجَدْتُه قائِماً يُصَلِّي في مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسائِهِ، فلما رآني أدْنـاني إلَى رِجْلَيْهِ وطَـرَحَ عليَّ طَرَفَ المِـرْطِ فَأَخْبَرْتُه الخَبَرَ، فَسُرَّ به سروراً شديداً وحمِدَ اللَّه وأَثْنى عليه.

***

ظَلَّ حُذَيْفَةُ بنُ اليمانِ مُؤْتَمناً على أَسْرارِ المنافقين ما امْتَدَّتْ به الحياةُ، وظَلَّ الخُلَفاءُ يَرْجِعُونَ إليه في أَمْرِهِمْ، حَتَّى إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللَّهُ عنه كان إذا ماتَ أَحَدُ المُسْلِمِين يَسأَلُ: أَحضَرَ حُذَيْفَةَ للصَّلاةِ عليه؟ فإن قالوا: نعم، صَلَّى عليه، وإنْ قالوا: لا، شَكَّ فيه، وأَمْسَكَ عن الصلاة عليه.

وقد سأله ذات مَرَّةٍ: أفي عُمَّالِي أَحَدٌ من المنـافقين؟ فقال: واحِـدٌ، فقال: دُلَّني عليه، فقال: لا أفعل، قال حُذَيْفَةُ: لكِنَّ عُمَرَ ما لَبِثَ أَنْ عَزَلَه كأنَّما هُدِيَ إليه.

---

(١) رواحِلنا: دوابُّنا.

(٢) بنو قريظة: قبيلة من قبائل يهود المدينة.

ولعل قليلاً من الناس مَن يعلم أَنَّ حذيفَةَ بنَ اليمانِ فَتَحَ للمسلمين « نهاوَنْدَ » والدِّيْنَوَرَ ، وهَمَذانَ والرّيَّ[1] وكان سَبَباً في جَمْعِ المسلمينَ على مُصْحَفٍ واحِدٍ بعد أَنْ كادوا يَفْتَرِقونَ في كِتابِ اللّهِ .

وعلى الرَّغْمِ من ذلك كُلِّه كانَ حُذَيْفَةُ بنُ اليمانِ شديدَ الخَوْفِ على نَفْسِه من اللّهِ ، عظيمَ الخَشْيَةِ من عِقابه .

فهو حينَ ثَقُلَ عليهِ مَرَضُ المَوْتِ جاءَه بَعْضُ الصَّحابَةِ في جَوْفِ الليل ، فقال : أيُّ ساعةٍ هذه ؟ فقالوا : نحنُ قريبٌ من الصُّبْحِ ، فقال : أعوذُ باللّهِ من صَبَاحٍ يُفْضِي[2] بي إلى النَّار . . . أعوذ باللّه من صَباحٍ يُفْضِي بي إلى النار . . .

ثم قال : أَجِئْتُمْ بكَفَنٍ ؟ قالوا : نعم .قال : لا تُغالُوا بالأكْفانِ فإنْ يكُنْ لِي عِنْدَ اللّهِ خيرٌ بُدِّلْتُ به خيْراً ، وإنْ كانَتِ الأُخْرَى سُلِب مني . .

ثم جعل يقول : اللهمّ إنَّك تَعْلَمُ أني كُنْتُ أحِبُّ الفَقْرَ على الغِنَى وأحِبُّ الذِّلَّةَ على العِزِّ ، وأحِبُّ المَوْتَ على الحياةِ .

ثم قال وروحُه تفيض : حبيب جاءَ على شَوْقٍ ، لا أَفْلَحَ من نَدِم . . .

رحم اللّه حُذَيْفَة بنَ اليمان فقد كان طرازاً فريداً من الناس(*) .

---

(1) نهاوند والدينور وهمذان والري : مدن عظيمة في بلاد فارس .

(2) يفضي بي : يوصِلُني .

(*) للاستزادة من أخبار حذيفة بن اليمان انظرْ :

١ - الاستيعاب : ١/٢٧٦ .
٢ - الإصابة : ١/٣١٧ .
٣ - الطبقات الكبرى : ١/٢٥ .
٤ - سيرُ أعلام النبلاء : ٢/٢٦٠ .
٥ - تهذيب التهذيب : ٢/٢١٩ .
٦ - صفة الصفوة : ١/٢٤٩ .
٧ - أسد الغابة : ١/٣٩٠ .
٨ - تاريخ الإسلام : ٢/١٥٢ .
٩ - المعارف : ١١٤ .
١٠ - النجوم الزاهرة : ١/٧٦ و ٨٥ و ١٠٢ .

عقبة بن عامر الجهني

هذا رسولُ اللّه ﷺ ، يَبْلُغُ مشارفَ[1] يَثْرِبَ ، بعد طولِ لَهْفَةٍ وتَرَقُّبٍ . . .

وها هم أولاء أَهلُ المدينةِ الطَّيِّبةِ ، يَتزاحَمون في الدُّروبِ وفَوْقَ سُطوحِ البُيوتِ ، مُهَلِّلين[2] مكبِّرين فَرَحاً بلقاءِ نبيِّ الرَّحْمَةِ وصاحِبه الصِّدِّيق . . . وهاهُنَّ صبايا المدينة الصغيرات يخرُجْنَ وفي أَيْدِيهنَّ الدُّفُوفُ ، وفي عيونهنَّ الشَّوْقُ مُزَغْرِداتٍ مُرَدِّداتٍ :

أَقْبَلَ البَدْرُ عَلَيْنا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَداعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا ... ما دعا لِلّه داعْ

وهذا مَوْكِبُ الرسولِ الكريمِ يَتَهادَى[3] بَيْنَ الصُّفُوفِ ، تَحُفُّه المُهَجُ المُشْتاقَةُ ، وتَحُوطُه الأفئدَةُ التَّوَّاقَة ، وتُنْثَرُ حَوالَيْه دُمُوعُ الفَرَحِ ، وبَسَماتُ السُّرُورِ .

***

لكنَّ عُقْبَةَ بنَ عامِرٍ الجُهَنِيَّ لم يَشْهَدْ مَوْكِبَ رَسُولِ اللّهِ صَلَواتُ اللّهِ عليه

---

(١) مشارف يثرب : الأماكن المطلّة على يثرب .
(٢) مهلّلين : قائلين : لا إله إلا اللّه .
(٣) يتهادى : يمشي بتؤدة .

ولم يَسْعَدْ باسْتِقْبالِه مع المُسْتَقْبِلين .

ذلك ، لِأَنَّه كان قد خَرَجَ إلى البَوادِي بِغُنَيْمَاتٍ له ، لِيرْعاها هُناك ، بعد أَنْ اشْتَدَّ عليها السَّغَبُ[1] وخاف عليها الهلاكَ ، وهي كُلُّ ما يَمْلِكُ من حُطَامِ[2] الدُّنْيا .

لكنَّ الفَرْحَةَ التي غَمَرَتِ المدينَةَ المُنَوَّرَة ما لَبِثَتْ أَنْ عَمَّتْ بَوادِيَها القريبَةَ والبَعِيدَةَ وأَشْرَقَتْ في كل بُقْعَةٍ من بِقاعِها الطَّيِّبَةِ ، وبَلَغَتْ تَباشِيرُها عُقْبَةَ بنَ عامِرٍ الجُهَنِيَّ ، وهو مع غُنَيْماتِه بعيداً في الفَلَواتِ .

فَلْنَتْرُكِ الكلامَ لِعُقْبَةَ بنِ عامِرٍ لِيَرْوِيَ لنا قِصَّةَ لِقائِه مع رسولِ اللّهِ ﷺ .

قال عقبة : قدِمَ رسولُ اللّهِ ﷺ المدينةَ وأنا في غُنَيْمَةٍ لي أرعاها ، فما إن تَنَاهَى[3] إليَّ خبرُ قدومه حَتَّىٰ تركتُها ومضيتُ إليه لا أَلْوِي على شَيْءٍ[4] ، فَلَمَّا لقيتُه قُلْتُ: تُبايِعُني يا رسولَ اللّه؟! قال: (فمن أنت؟) قلتُ: عقبةُ بن عامِرٍ الجُهَنِيُّ ، قال: (أَيُّما أَحبُّ إليك: تبايِعُني بيعَةً أعرابية أو بيعَةَ هِجْرَةٍ؟) قلت: بل بيعَةَ هِجْرَةٍ ، فبايَعَني رسولُ اللّهِ ﷺ على ما بايَعَ عليه المهاجرين ، وأَقَمْتُ مَعَه ليلةً ثُمَّ مَضَيْتُ إلى غَنَمِي .

* * *

وكنا اثني عشرَ رجلاً مِمَّنْ أَسْلَموا نُقِيمُ بعيداً عن المدينَةِ لِنَرْعَى أَغْنَامَنا في بَوَادِيها .

فقال بعضُنا لبعضٍ : لا خَيْرَ فينا إذا نَحْنُ لم نَقْدَمْ على رسولِ اللّه ﷺ يَوْماً بَعْدَ يومٍ ، لِيُفَقِّهَنا في دينِنا ، ويُسْمِعَنا ما يَنْـزِلُ عليه من وحي السماء ، فَلْيَمْضِ كلَّ يومٍ واحِدٌ مِنَّا إلى يَثْرِبَ وَلْيَتْرُكْ غَنَمَه لنا فَنَرْعاها له .

---

(١) السَّغب : الجوع .

(٢) حطام الدنيا : مالها الفاني .

(٣) تناهى إليَّ : بلغني .

(٤) لا ألوي على شيء : لا أقف عند شيء ولا أنتظِر .

فقلت : اذْهَبوا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ واحِداً بَعْدَ آخَرَ ولْيَتْرُكْ لي الذاهِبُ غَنَمه ؛ لأني كنتُ شديدَ الإشفاق[1] على غُنَيمتي من أن أتركَها لأحد .

***

ثم طَفِقَ أَصْحابي يَغدو[2] الواحدُ مِنْهُمْ بَعْدَ الآخَرِ على رسولِ اللّهِ ﷺ ، ويَتْرُكُ لي غَنَمَه أَرْعاها له ، فإذا جاء ، أَخَذْتُ مِنْهُ ما سمع ، وتَلَقَّيْتُ عنه ما فَقِه ، لكنَّنِي ما لَبِثْتُ أَنْ رَجَعْتُ إلى نَفْسِي وقلْتُ : وَيْحَكَ ! أَمِنْ أَجْلِ غُنَيْماتٍ لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي تُفَوِّتُ على نفسك صُحْبَةَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، والأَخْذَ عَنْهُ مُشافَهَةً من غَيْرِ واسِطَة ؟! ثم تَخَلَّيْتُ عن غُنَيْماتي ، ومَضَيتُ إلى المدينَةِ لأُقِيمَ في المَسْجِدِ بجوارِ رسولِ اللّهِ ﷺ .

***

لم يَكُنْ عُقْبَةُ بنُ عامرٍ الجُهَنِيُّ يخطرُ له على بالٍ - حينَ اتَّخَذَ هذا القَرارَ الحاسِمَ الحازِمَ - أَنَّه سَيَغْدو بَعْدَ عِقْدٍ من الزَّمانِ عالماً من أكابِرِ علماءِ الصَّحابَةِ ، وقارئاً من شُيوخِ القُرَّاءِ وقائِداً من قواد الفَتْحِ المَرْموقين ، ووالِياً من وُلاةِ الإسلام المَعْدودين ، ولم يَكُن يَتَخَيَّلُ - مُجَرَّد تَخَيُّلٍ - وهو يتخلَّى عن غُنَيْماتِه ، ويَمْضي إلى اللّهِ ورسولِه أنه سيكونُ طليعةَ الجيش الذي يَفْتَحُ أُمَّ الدنيا دمشقَ ، ويتخذُ لنفسه داراً بَيْنَ رياضها النضِرة عند « باب توما »[3] .

ولم يَكُنْ يتصور - مجرَّد تصوُّر - أنه سيكون أَحدَ القادَةِ الذين سَيَفْتَحونَ زُمرُّدَةَ الكونِ الخَضْرَاءَ مِصْرَ ، وأنَّه سيغدو والياً عليها ، وَيَخْتَطُّ لِنَفْسِه داراً في سَفْحِ جبلها « المقطَّم » ؛ فتلك كُلُّها أمورٌ مُسْتَكِنَّةٌ[4] في ضمير الغيب ، لا يعلمها إلا اللّه .

***

---

(١) شديد الإشفاق : شديد الخوف والمحاذرة .

(٢) يغدو : يذهب في الغداة، والغداة الصباح .

(٣) باب توما أحد أبواب دمشق القديمة .

(٤) مستكنة : محتجبة مختبئة .

لَزِمَ عُقْبَةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ رسولَ اللّه ﷺ لُزومَ الظِّلِّ لِصاحِبه ، فكان يَأْخُذُ له بِزِمَام بَغْلَتِه أَيْنما سَارَ ، وَيَمضِي بَيْنَ يَدَيْه أَنَّىٰ اتجَّه ، وكثيراً ما أَرْدَفَه[1] رسولُ اللّه ﷺ وراءه ، حتى دُعِيَ بِرديفِ رسولِ اللّهِ ، ورُبَّما نَزَلَ له النبيُّ الكريمُ عَنْ بَغْلَتِه ليكونَ هو الذي يَرْكَب ، والنبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ هو الذي يمشي .

حَدَّث عقبة قال : كنت آخُذُ بِزمام بَغْلَةِ رسولِ اللّهِ ﷺ في بَعْض غاب[2] المدينة ، فقال لي : (يا عُقْبَةُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟!) فَهَمَمْتُ أَنْ أَقول : لا ؛ لٰكِنِّي أَشْفَقْتُ أَن يكونَ في ذلك مَعْصِيةٌ لِرَسولِ اللّه ، فقلت : نعم يا نبي اللّه ، فَنزلَ الرسولُ عن بَغْلَتِه ورَكِبْتُ أنا امْتِثالاً لأَمْرِه وجعل هو يمشي ، ثم ما لَبِثْتُ أَنْ نَزَلْتُ عنها ، ورَكِبَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، ثم قال لي : (يا عُقْبَةُ أَلا أُعَلِّمُكَ سورَتَيْنِ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟) فقلت: بَلَى يا رسولَ اللّهِ، فَأَقْرَأَني : ﴿قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ و﴿ قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاس ﴾ ، ثم أُقِيمَتِ الصلاةُ فتقدَّم وصَلَّى بِهِما ، وقال : (اقْرَأْهُما كُلَّما نِمْتَ وكُلَّما قُمْتَ) .

قال عقبة : فما زِلْتُ أَقْرَؤُهما ما امْتَدَّتْ بِيَ الحياةُ .

* * *

ولقد جَعَلَ عقبةُ بنُ عامِرٍ الجُهَنِيُّ همَّه[3] في أمرين اثنين : العِلمِ والجهادِ وانْصَرفَ إليهما بِروحه وجَسَدِه ، وبَذَلَ لهما من ذاتِه أَسْخَى البَذْلِ ، وأَكْرَمَه .

أما في مجال العلم فقد جَعَلَ يَعُبُّ مِنْ مَناهِلِ رسولِ اللّهِ الثرَّةِ[4] العَذْبَةِ حتى غَدا مُقْرِئاً ، مُحَدِّثاً ، فقيهاً ، فَرَضِياً[5] ، أديباً ، فَصِيحاً ، شاعراً .

---

(١) أردفه : أركبه خلفه .

(٢) غاب المدينة : أجماتها ذوات الأشجار الكثيفة الملتفّة .

(٣) همه : اهتمامه وعنايته .

(٤) الثرَّة : الغزيرة .

(٥) فرَضِياً : عالماً بالفرائض والمقصود بها هنا علم المواريث والتركات .

وكان من أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتاً بالقرآن ، وكان إذا ما سَجَا[1] الليلُ وهَدَأَ الكَوْنُ انْصَرَفَ إلى كِتَابِ اللَّهِ يَقْرأُ مِنْ آياته البَيِّناتِ ، فَتُصْغِي لِتَرْتِيلِه أَفْئِدَةُ الصَّحابَةِ الكرام ، وتَخشع له قلوبُهم وتفيضُ عيونُهم بالدَّمْعِ من خَشْيَةِ اللّه .

وقد دعاه عمرُ بنُ الخطَّابِ يَوْماً فقال : اعْرِضْ عليَّ شَيْئاً من كِتابِ اللّهِ يا عُقْبَةُ ، فقال سَمْعاً يا أميرَ المؤمنين ، ثم جَعَل يَقْرَأُ له ما تَيَسَّر من آي الذِّكْرِ الحكيمِ ، وعُمَرُ يَبْكي حَتَّى بَلَّلَتْ دموعُه لِحْيَتَه .

وقد تَرَكَ عُقْبَةُ مُصْحَفاً مَكْتوباً بِخَطِّ يَدِه ، وبقي مُصْحَفُه هذا إلى عهدٍ غيرِ بعيدٍ موجوداً في مِصْرَ في الجامعِ المعروفِ بجامِعِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ وقد جاء في آخره : « كتبه عقبةُ بن عامر الجهني » .

ومُصْحَفُ عُقبةَ هذا من أَقْدَمِ المصاحِفِ التي وُجِدَتْ على ظَهْرِ الأَرْضِ لٰكِنَّه فُقِدَ في جُمْلَةِ ما فُقِدَ من تُراثِنا الثمين ، ونَحْنُ عَنْهُ غافِلون .

وأمَّا في مَجالِ الجهادِ فَحَسْبُنا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ عقبةَ بنَ عامِرٍ الجهنيَّ شَهِدَ مع رسولِ اللّه ﷺ أُحُداً وما بَعدَها من المَغَازِي ، وأَنَّه كان أَحَدَ الكُماةِ الأشاوسِ المغاويرِ ، الذين أَبْلَوْا يَوْمَ فَتْحِ دمشقَ أَعَزَّ البلاء وأَعْظَمَه ، فكافَأَهُ أَبو عُبَيْدَةَ بنُ الجراح على حُسْنِ بلائِه بأنْ بَعَثَهُ بشيراً إلى عُمرَ بنِ الخَطَّابِ في المدينة ليبشِّرَه بالفتح ، فظَلَّ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ بِلَيالِيها من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ يُغِذُّ السير دون انْقِطاعٍ ، حتى بَشَّرَ الفاروقَ بالفَتْحِ العظيم .

ثم إنَّه كانَ أَحَدَ قادَةِ جيوشِ المُسْلِمين التي فَتَحَتْ مِصْر ، فكافَأَهُ أميرُ المؤمنين مُعاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيانَ بأن جعلَه والياً عليها ثلاث سنين ، ثم وَجَّهَهُ لِغزْوِ جَزِيرَة رودُسَ في البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوسِّط . وقد بَلَغَ مِنْ وَلَعِ عقبَةَ بنِ عامرٍ الجهنيِّ بالجِهاد ، أنَّه وَعَى أحاديثَ الجهاد في صدره ، واخْتَصَّ بِرِوايَتِها

(١) سجا الليل : هدأ وسكن .

للمسلمين ، وأنَّه دأَبَ على حِذْقِ الـرِّمايَـةِ حتى إنَّـه إذا أرادَ أَنْ يَتَلَهَّىٰ تَلَهَّى بالرَّمِي .

* * *

ولما مَرِضَ عقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ مَرَضَ الموتِ ـ وهو في مِصْرَ ـ جَمَعَ بنيه فأَوْصَاهم فقال : يا بَنِيَّ أَنْهاكُم عن ثلاثٍ فاحْتَفِظوا بِهِنَّ : لا تَقْبَلوا الحديثَ عن رسولِ اللّهِ ﷺ إلَّا من ثِقَةٍ ، ولا تَسْتَدِينُوا ولَوْ لَبِسْتُمُ العَبَاءَ[1] ، ولا تَكْتُبوا شِعْراً فَتَشْغَلُوا به قُلوبَكُمْ عن القرآن .

ولما أدركته الـوفاة ، دَفَنُـوهُ في سَفْحِ المقـطَّم[2] ثم انقلبوا إلى تَـرِكَتِه يُفَتِّشُونَها ، فإذا هُو قد خَلَّفَ بِضْعاً وسَبعين قَوْساً ، مع كُلِّ قَوْسٍ قَرْنٌ ونبالٌ ، وقد أَوْصَى بِهِنَّ أَنْ يُجْعَلْنَ في سبيلِ اللّه .

نَضَّرَ اللّهُ وَجْهَ القارِىءِ العالِمِ الغازِي عقبةَ بن عامرٍ الجُهَنِيِّ ، وجَزاهُ عن الإسلام والمسلمين خَيْرَ الجزاء[*] .

---

(1) العَباء : كساءٌ مفتوح من الأمام .

(2) المقطم : جبل مطل على القاهرة من جهة الجنوب قليل الارتفاع .

(*) للاستزادة من أخبار عقبة بن عامر الجهني انظر .

١ ـ الاستيعاب : ٣/١٠٦ .
٢ ـ أُسْدُ الغابة : ٣/٤١٧ .
٣ ـ الإصابة: ٢/٤٨٢ .
٤ ـ سِيَرُ أعلام النبلاء : ٢/٣٣٤ .
٥ ـ جمهرة الانساب : ٤١٦ .
٦ ـ المعارف : ١٢١ .
٧ ـ قلائد الجمان : ٤١ .
٨ ـ النجوم الزاهرة : ١/١٩، ٢١، ٦٢، ٨١ وغيرها .
٩ ـ طبقات علماء أفريقية وتونس ٥٨/٧٠ .
١٠ ـ فتوح مصر وأخبارُها : ٢٨٧ .
١١ ـ تهذيب التهذيب : ٧/٢٤٢ .
١٢ ـ تذكرة الحفاظ : ١/٤٢ .

صور من حياة الصحابة

حَبيبُ بنُ زيد الأنصاريُّ

أبو طَلحةَ الأنصارِيُّ

رَملَةُ بنتُ أبي سُفيان

وحشيُّ بنُ حربٍ

حكيم بنُ حَزام

عبَّادُ بنُ بِشرٍ

زيدُ بنُ ثابتٍ

ربيعةُ بنُ كعبٍ

(باركَ اللّه عَليكُم من أهل بَيتٍ
رَحمَكم اللَّهُ مِن أهلِ بَيتٍ)

[من ثناء الرسول على حبيبٍ وآل بيته]

في بيتٍ تَتَضَوَّعُ[1] طُيوبُ الإيمانِ في كلِّ رُكْنٍ من أرْكانِه . . .

وتلوحُ صورُ التَّضْحيةِ والفِداءِ على جبينِ كلِّ ساكِنٍ من سكَّانِه . . .

نشأ حبيبُ بنُ زيدٍ الأنصاريُّ ودَرَجَ .

* * *

فأبوه هو زيدُ بنُ عاصمٍ طليعةُ المسلمين في يَثْرِبَ ، وأَحَدُ السبعين الذين شهدوا العقبةَ[2] وشدُّوا على يَدَيْ رسولِ اللّهِ مُبَايعين ، ومعه زوجتُهُ وولداه .

وأمُّه هي أمُّ عَمارَةَ نَسِيبَةُ المازِنِيَّةُ أولُ امرأةٍ حَمَلَتْ السلاحَ دِفَاعاً عن دينِ اللّهِ ، وذِياداً[3] عن محمدٍ رسولِ اللّه .

وأخوه هو عَبْدُ اللّهِ بنُ زيدٍ الذي جَعَلَ نَحْرَه دونَ نَحْرِ[4] النبيِّ وصَدْرَه دونَ صَدْرِه يومَ أُحُدٍ . . .

---

(١) تتضوَّع طيوب الإيمان : تنتشرُ طيوبُ الإيمان .

(٢) العقبة : مَوْضِعٌ في منىً بايع فيه المسلمون الأولون من الأنصار النبي عليه الصلاة والسلام .

(٣) ذياداً : دفاعاً .

(٤) جعل نحره دون نحر النبي : النحر : أعلى الصدر ، وجعل نحره دون نحر النبي : أي جعل نفسه فداءً له .

حتى قال فيهم الرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه : (بارَكَ اللَّهُ عليكم مِنْ أَهْلِ بيتٍ . . . رحمَكُمُ اللَّهُ مِنْ أهلِ بيت . . .) .

***

نفذ النورُ الآلهيُّ[1] إلى قلبِ حبيبِ بنِ زيدٍ وهو غضٌّ طريٌّ ، فاسْتَقَرَّ فيه وتَمَكَّنَ منه .

وكُتِبَ له أن يمضِيَ مع أمِّه وأبيه وخالَتِه وأخيه إلى مَكَّةَ لِيُسْهِمَ مع النَّفرِ السبعين من الغُرِّ[2] الميامين في صُنْعِ تاريخِ الإسلام ؛ حيث مَدَّ يَدَهُ الصغيرة وبايَعَ رسولَ اللّهِ تحتَ جُنْحِ الظلامِ بيعةَ العَقَبَةِ .

ومنذ ذلك اليوم غدا رسولُ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه أحبَّ إليه من أمِّه وأبيه . . .

وأصبحَ الإسلامُ أغلَىٰ عِنْدَه من نَفْسِه التي بَيْن جَنْبَيْه . . .

***

لم يَشْهَدْ حبيبُ بنُ زيدٍ بدراً ، لأَنَّه كان يومئذ صغيراً جدًّا .

ولم يُكْتَبْ له شَرَفُ الإسْهامِ في أُحدٍ ، لأَنَّـه كان مـا يَزالُ دونَ حَمْـلِ السِّلاح . . .

لكِنَّه شَهِدَ بَعْدَ ذلك المشاهِدَ كُلَّها مَعَ رسولِ اللّهِ ، فكان له في كُلٍّ منها رايةُ عِزٍّ . . .

وصحيفَةُ مجد . . .

ومَوْقِفُ فداء . . .

---

(١) النور الآلهي : أي الإيمان .

(٢) الغُرّ : جمع أغر وهو الكريم الأفعال .

غير أنَّ هذه المشاهِدَ على عَظَمَتِها وَرَوْعَتِها لم تكن في حقيقتها سِوَى إعدادٍ ضَخْمٍ لِلْمَوْقِفِ الكبيرِ الذي سَنسوق لكَ حديثَه ، والذي سَيَهُزُّ ضميرَك في عُنْفٍ كما هَزَّ ضمائِرَ ملايينِ المسلمينَ مُنْذُ عَصْرِ النبوَّةِ وإلىٰ يومِنا الذي نحن فيه .

والذي سَتَروعُك قِصَّتُه كما راعَتْهُمْ على مرِّ العصور .

فتعالَ نَسْتَمِعْ إلىٰ هذه القِصَّة العنيفَةِ من بدايتها .

* * *

في السنة التاسعة للهِجْرَةِ كان الإسلامُ قد صَلُبَ عودُه[1] ، وقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ[2] وَرَسَخَتْ دَعائِمه ، فطفِقَتْ وفودُ العربِ تَشُدُّ الرِّحالَ من أَنْحاءِ الجزيرةِ إلىٰ يَثْرِبَ لِلقاءِ رسولِ اللّهِ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه ، وإعلانِ إسْلامِها بينَ يَدَيْه ، ومبايَعَتِهِ على السَّمْعِ والطَّاعة .

وكان في جُمْلَةِ هذه الوفودِ وفدُ بني حنيفَةَ القادِمُ مِنْ أعالي نَجْدٍ .

* * *

أَناخَ الوفدُ جِمالَه في حواشي[3] مدينةِ رسولِ اللّه ﷺ ، وخلَّفَ على رِحالِه[4] رجلاً منه يُدْعى مُسَيْلِمَةَ بنَ حبيبٍ الحَنَفِي ، ومَضَى إلى النبي ﷺ ، وأعلنَ إسلامَه وإسلامَ قومِه بَيْنَ يديه ؛ فأكرم الرسولُ صلوات اللّه وسلامُه عليه وَفادَتَهم[5] ، وأَمَرَ لِكلٍّ منهم بِعَطِيَّةٍ وأَمَرَ لصاحِبِهم الذي خَلَّفُوه في رِحَالِهِم بِمِثْلِ ما أمَرَ لهم به .

* * *

---

(١) صلب عوده : قوي واشتدّ .
(٢) الشوكة : القوّة والبأس .
(٣) حواشي المدينة : أطرافها .
(٤) خَلَّفَ على رحالِه : ترك عِنْدَ مَتاعه .
(٥) أكرم وفادتهم : أكرم قدومهم عليه وأَحْسَنَ ضيافَتَهم .

لم يكد يَبْلُغُ الوَفْدُ مَنازِلَه في نجدٍ حَتَّى ارتَدَّ مُسَيْلِمَةُ بنُ حبيبٍ عن الإسلامِ ، وقام في الناسِ يُعْلِن لهم :

أنَّه نبيٌّ مُرْسَلٌ أرْسَله اللّهُ إلى بني حنيفةَ كما أرْسَلَ محمدَ بنَ عبدِ اللّهِ إلى قريش . . .

فَطَفِقَ قَوْمُه يَلْتَفُّون حولَه مَدْفوعين إلى ذلك بِدَوافِعَ شَتَّى كان أَهَمُّها العَصَبِيَّةَ[1] ؛ حتى إن رَجلاً من رجالاتهم قال :

أَشْهَدُ أَنَّ محمداً لصادقٌ وأَنَّ مُسَيْلَمةَ لكذَّابٌ ؛ ولكنَّ كذَّابَ ربيعةَ[2] أحبُّ إليَّ من صادِقِ مُضَر[3] .

* * *

ولما قَوِيَ ساعِدُ مُسيلمةَ وغَلُظَ أمره[4] كَتَبَ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ كتاباً جاء فيه :

من مُسَيْلِمَةَ رسولِ اللّهِ إلى محمدٍ رسولِ اللّهِ ، سلامٌ عليك .

أما بَعْدُ فإنّي قد أُشْرِكْتُ في الأمْرِ مَعَكَ ، وإنَّ لنا نِصْفَ الأرضِ ولِقُرَيْشٍ نِصفَ الأرضِ ، ولكنَّ قريشاً قومٌ يَعْتَدون .

وبَعَثَ الكِتَابَ مع رَجُلَيْنِ من رِجاله فلما قُرِىءَ الكتابُ للنبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ قال للرجلين : (وما تقولان أنْتُما ؟!) .

فأجابا : نقولُ كما قال .

فقال لهما : (أمَا واللّهِ لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ عُنُقيكُما) ، ثم كتب إلى مُسَيْلمةَ رسالةً جاء فيها :

---

(١) العَصَبيَّة : شِدَّة ارتباط المرء بعُصْبته وانحيازه لها .
(٢) ربيعة : قبيلة كبيرة من قبائل العرب ينتمي إليها مسيلمة .
(٣) مضر : قبيلة رسول اللّه ﷺ .
(٤) غلظ أمره : اشتدَّ أمره وكثر أتباعُه .

بسم اللّهِ الرحمٰنِ الرحيم

(من محمدٍ رسولِ اللّهِ إلى مَسيلمةَ الكذّابِ .

السّلامُ على من اتَّبَع الهُدَىٰ ، أَمَّا بعدُ فإنَّ الأرضَ للّهِ يُورِثُها من يشاء من عبادِهِ والعاقِبَةُ للمُتَّقين) .

وبَعَثَ الرِّسَالةَ مع الرجلين .

* * *

ازْدادَ شَرُّ مسيلمةَ الكذابِ واسْتَشْرى[1] فسادُه ، فَرَأَى الرسولُ صلوات اللّه عليه أن يَبْعَثَ إليه بِرسالةٍ يَزْجُرُه فيها عن غَيِّه[2] ونَدَبَ لِحَمْلِ الرسالةِ بطلَ قصَّتنا حَبيبَ بنَ زيد .

وكان يومئذٍ شاباً ناضِرَ الشَّبابِ مُكْتَمِلَ الفَتَاءِ[3] مُؤْمِناً من قِمَّةِ رَأْسِهِ إلى أَخْمَصِ قدميه .

* * *

مَضَى حبيبُ بن زيدٍ إلى ما أمَرَه رسولُ اللّهِ ﷺ غيْرَ وَانٍ[4] ولا مُتَرَيِّثٍ[5] تَرْفَعُهُ النِّجادُ[6] وتَحُطُّهُ الوِهادُ[7] حتى بلغ ديارَ بني حنيفةَ في أعالي نجدٍ ، ودَفَعَ الرسالَةَ إلى مسيلمةَ .

فما كاد مسيلمةُ يَقِفُ على ما جاء فيها حتى انْتَفَخَ صَدْرُه ضغينَةً وحِقْداً ، وبدا الشرُّ والغَدْرُ على قَسَماتِ[8] وجهه الدميم الأَصْفَرِ ، وأَمَرَ بحبيب بنِ زيدٍ أن يُقَيَّدَ ، وأن يُؤْتى به إليه ضُحَى اليومِ التالي .

---

(١) استشرَى فسادُه : انتشر وازداد .
(٢) يزجره عن غيِّه : ينهاه عن ضلاله .
(٣) الفتاء : الفتوَّة . .
(٤) غير وانٍ : غير فاتر ولا ضعيف .
(٥) متريِّث : مُتمهِّل .
(٦) النجاد : جمع نجد ، وهو المكان المرتفع .
(٧) الوهاد : جمع وهد ، وهو المكان المنخفض .
(٨) قسمات الوجه : ملامحه .

فلما كانَ الغَـدُ تَصدَّر مُسَيْلِمَـةُ مَجْلِسَهُ ، وجَعَـل عن يمينِه وعن شمـالِه الطَّوَاغِيتَ[1] من كبارِ أتْباعِه ، وأذِنَ للعامَّةِ بالدُّخولِ عليه ، ثم أَمَرَ بحبيبِ بنِ زيدٍ فَجِيءَ به إليه وهو يَرْسُفُ في قيودِه[2] .

* * *

وقفَ حبيبُ بنُ زيدٍ وَسْطَ هذه الجموعِ الحاشِدَةِ الحاقِدةِ مَشْدودَ القامَةِ ، مَـرْفوعَ الهـامَةِ ، شـامِخَ الأنفِ ، وانتَصَبَ بَيْنَهـا كَـرُمْـحٍ سَمْهَـرِيٍّ[3] أَحْكَمَ المُثَقِّفونَ[4] تَقْويمَه .

فالتفتَ إليه مسيلمةُ وقال : أَتَشْهَدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ ؟

فقال : نعم أشهدُ أن محمداً رسولُ اللّه .

فَتَمَيَّزَ[5] مسيلمةُ غَيْظاً وقال : وتَشْهَدُ أني رسولُ اللّهِ ؟

فقال حبيب في سُخْرِيَةٍ لاذِعَةٍ : إنَّ في أُذُنَيَّ صمماً عن سماعِ ما تقولُ .

فامْتُقِع[6] وجْهُ مسيلمةَ وارتَجَفَتْ شفتاه حَنَقاً[7] وقالَ لجلادِه : اِقطع قطعةً من جَسَدِه .

فَأَهْوَىٰ الجلاَّدُ على حبيبٍ بسيفِه وبَتَر قطعةً من جَسَدِه فتـدحرجت على الأرض . . .

ثم أعاد مسيلمةُ عليه السؤالَ نَفْسَه : أَتشهَدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللّه ؟

---

(١) الطَّواغيتِ : جمع طاغوت ، وهو رأسُ الضَّلالِ والمعبود من دون اللّه .
(٢) يرسف في قيوده : يمشي بها ببطء لِثِقَلِها .
(٣) الرمح السمهري : الرمح الصُلْبُ .
(٤) مثقفو الرماح : مُقوِّموها ومُعَدِّلوها .
(٥) تميز غيظاً : تقطَّع بسبب الغيظ .
(٦) امتُقِع وجه مسيلمة : تغير لون وجهه .
(٧) حنقاً : غيظاً .

قال : نعم أَشْهَدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ .

قال : وتَشْهَدُ أَني رسولُ اللّهِ ؟

قال : قلت لك : إِنَّ في أذنيَّ صمماً عن سَماعِ ما تقول .

فأمر بأَنْ تُقْطَعَ من جَسَدِه قِطْعَةٌ أُخْرَى فقُطِعَتْ وتَدَحْرَجَتْ على الأرض حتى استَوَتْ[1] إلى جانِبِ أُخْتِها ، والناسُ شاخِصون[2] بأَبْصارهم إليه ، مذهولون من تَصْميمِه وعِنَادِه .

ومَضَى مسيلمةُ يَسْأَلُ ، والجلادُ يقطعُ ، وحبيبٌ يقول :
أشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ .

حتى صار نحوٌ من نِصْفِه بِضَعاً[3] مُقَطَّعَةً منثورَةً على الأرض . . . ونصفُه الآخرُ كُتْلَةً تتكلم . . .

ثم فاضت روحُه ، وعلى شَفَتيه الطاهِرَتَيْنِ اسمُ النبيِّ الذي بايَعَهُ ليلةَ العقبة . . .

اسمُ محمدٍ رسولِ اللّه . . .

* * *

نعى الناعي حبيبَ بنَ زيدٍ إلى أمِّه نسيبةَ المازنيةَ فما زادَتْ على أن قالت :
من أجل مِثْلِ هذا المَوْقفِ أعْدَدْته . . .
وعند اللّهِ احتَسَبْتُه . . .

لقد بايَعَ الرسولَ ﷺ ليلةَ العقبة[4] صغيراً . . . وَوَفَّى له اليومَ كبيراً . . .

ولَئِن أمكنني اللّهُ من مُسَيْلِمَةَ لأجْعَلَنّ بناتِه يلْطِمْنَ الخدودَ عليه . . .

* * *

---

(١) استوت : استقرَّت .
(٢) شاخصون بأبصارهم إليه : رافعون أبصارهم إليه .
(٣) بضعاً : جمع بضعة ، وهي القطعة .
(٤) ليلة العقبة : ليلة بيعة العقبة .

لم يبطء اليومُ الذي تَمَنَّته نسيبةُ كثيراً . . .

حيث أذَّن مؤذِّنُ أبي بكر في المدينةِ أَنْ حَيَّ على قتالِ المتنبىء الكذَّابِ مُسَيْلِمَةَ . . .

فمضى المسلمون يَحُثُّون الخُطَى إلى لقائِه ، وكان في الجيشِ نسيبةُ المازِنيَّةُ وولدُها عبدُ اللّهِ بنُ زيد .

وفي يومِ اليمامَةِ الأغرِّ شوهِدَت نسيبَةُ تَشُقُّ الصفوفَ كاللَّبُؤَةِ[1] الثائرَةِ وهي تنادي :

أين عدوُّ اللّهِ ؟

دُلُّوني على عدوِّ اللّهِ . . .

فلما انتهت إليه وَجَدَتْه مُجَدَّلاً[2] على الأَرْضِ وسيوفُ المسلمينَ تَنْهَلُ من دمائه ؛ فطابت نفساً . . .

وقَرَّت عيناً . . .

ولم لا ؟!

أَلَم ينتقم اللّهُ جَلَّ وعزَّ لفتاها البَرِّ التَّقِيِّ من قاتِلِه الباغِي الشَّقي؟!

بَلَى . . .

لقد مَضَى كلٌّ منهما إلى رَبِّه ولكِنْ . . .

فريقٌ في الجنَّة . . .

وفريقٌ في السَّعير(*) . . .

* * *

---

(١) اللبؤة : أنْثَىٰ الأسَدِ .

(٢) مجدَّلاً على الأرض : مُلْقىً على الأرض .

(*) للاستزادة من أخبار حبيب بن زيد انظر :

١ ـ أسد الغابة : ١/٤٤٣ أو الترجمة ١٠٤٩ .

٢ ـ أنساب الأشراف : ٢٥٠ و ٣٢٥ .

٣ ـ الطبقات الكبرى : ٤/٣١٦ .

٤ ـ السيرة النبوية لابن هشام (انظر الفهارس) .

٥ ـ الإصابة : ١/٣٠٦ أو الترجمة ١٥٨٤ .

٦ ـ شهداء الإسلام في عهد النبوة للنشار .

أبو طلحة الأنصاري

«ما عَرَفْنا مَهراً أكرمَ مِن مهر أبي طلحَة
لأم سليم . . . فلقَد كَان صَدَاقها الإسلام»

[نساء المدينة]

عَرَف زيدُ بنُ سهـلٍ النجَّارِيُّ المُكَنَّىٰ بـأبي طلحةَ ، أنَّ الـرُّمَيْصَاءَ بنتَ مِلْحَانَ النجَّارِيَّةَ المُكَنَّاة بـأمِّ سُلَيْمٍ قد غَـدَتْ أَيِّماً[١] بعـد أن تُوُفِّيَ زوجُهـا ؛ فاستطار فرحاً[٢] لهذا الخبر .

ولا غرْوَ[٣] فقد كانت أمُّ سُلَيْمٍ سيدةً حَصَاناً رزاناً[٤] راجِحَةَ العقلِ مُكْتَمِلَةَ الصفاتِ .

فعزم على أن يُبادِرَ إلى خطبتها قبل أن يَسْبِقَه إليها أحدٌ ممن يَطْمَحونَ إلى أمثالها من النساء .

وكـان أبو طلحـةَ على ثِقَةٍ من أنَّ أمَّ سُلَيْمٍ لن تُؤْثِـرَ[٥] عليه أحـداً من طالبيها . . .

فهو رجلٌ مُكْتَمِلُ الرجولَةِ مرموقُ المَنْزِلَةِ[٦] طائِلُ الثروة[٧] . . .

وهو إلىٰ ذلك فارِسُ بني النجارِ ، وأحدُ رُماةِ يَثْرِبَ المعدودين .

* * *

(١) غدت أيِّما : أصبحت بلا زوج .
(٢) استطار فرحاً : كاد يطير من شِدَّة الفرح .
(٣) لا غرو : لا عجب .
(٤) حصاناً رزاناً : حصينة الخلق رزينة العقل .
(٥) لن تؤثر عليه أحداً : لن تفضِّل عليه أحداً .
(٦) مرموق المنزلة : ذو منزلة عالية ينظر الناس إليها بإعجاب .
(٧) طائل الثروة : واسع الغنَى .

مَضَى أبو طلحةَ إلى بيت أُمِّ سليم . . .

وفيما هو في بعضِ طريقِهِ تذكَّرَ أَنَّ أم سُلَيْمٍ قد سَمِعَتْ من كلامِ هذا الدَّاعيةِ المكيِّ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ، فآمَنَتْ بِمُحَمَّد واتَّبَعَتْ دينَه .

لكِنَّه ما لَبِثَ أن قال في نَفْسه : وما في ذلك ؟ أَلَمْ يَكُنْ زوجُها الذي تُوُفِّيَ عنها مُسْتَمْسِكاً بدين آبائِه ، نائياً بِجانِبِه[1] عن محمدٍ ودعوةِ محمدٍ ؟!

***

بَلَغَ أبو طلحةَ منزلَ أمِّ سُلَيْمٍ ، واستَأْذَنَ عليها ، فأَذِنَتْ له ، وكان ابنُها أنسٌ حاضراً ، فَعَرض نَفْسَه عليها . . .

فقالت : إن مثلَك يا أبا طلحةَ لا يُرَدُّ ، لكنِّي لَنْ أَتَزَوَّجَـكَ فأنْتَ رجـلٌ كافر . . .

فَظَنَّ أبو طَلْحَةَ أَنَّ أمَّ سُلَيْمٍ تَتَعَلَّلُ[2] عليه بذلك ، وأنَّها قد آثرتْ عليه رجلاً آخرَ أكْثَرَ منه مالاً أو أعزَّ[3] نَفَراً .

فقال لها : واللّهِ ما هذا الذي يَمْنَعُكِ مِنِّي يا أمّ سُلَيم .

قالت : وما الذي يَمْنَعُنِي إِذَنْ ؟!

قال : الأصفرُ والأَبْيَضُ . . . الذَّهَبُ والفِضَّة . .

قالت : الذهبُ والفضةُ ؟!

قال : نعم .

قالت : بل إني أُشْهِدُكَ يا أبا طلحة وأُشْهِدُ اللّهَ ورسولَه أنَّك إِنْ أسلمتَ رضيتُ بك زَوْجاً من غيرِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةَ ، وجَعَلْتُ إسلامَك لي مهراً . . .

***

---

(١) نائياً بجانبه : مُعْرِضاً عنه .

(٢) تتعلل عليه : تتصَنَّع له العلل والحُجَج .

(٣) أعزُّ نفراً : أعزّ قبيلة .

فما إن سَمِعَ أبو طلحةَ كلامَ أم سُلَيْمٍ حتى انْصَرَف ذِهْنُه إلى صَنَمِهِ الذي اتَّخَذَه[1] من نَفيسِ الخَشَبِ ، وخصَّ به نَفْسَه كما كان يَفْعَلُ السادةُ من قومِه .

لكنَّ أُمَّ سُلَيْم أرادَت أن تطرُقَ الحديدَ وهو ما زال حامِياً[2] فأتْبَعَتْ تقول :

أَلَسْتَ تعلمُ يا أبا طلحةَ أَنَّ آلِهَكَ الذي تَعْبدُهُ من دونِ اللّهِ قد نَبَتَ من الأرض ؟!

فقال : بلَى .

قالت : أفلا تَشْعُرُ بالخجلِ وأَنْتَ تعبُدُ جِذْعَ شجرةٍ جَعَلْتَ بَعْضَه لَكَ آلِهاً بينما جَعَلَ غيرُكَ بعضَه الآخَرَ وقوداً له يَصْطَلي[3] بنارِه أو يخبِزُ عليه عجِينَه . . .

إنَّكَ إن أسلمتَ ـ يا أبا طلحةَ ـ رضيتُ بِكَ زَوْجاً ولا أُريدُ منك صَداقاً[4] غيرَ الإسلام .

قال : ومن لي بالإسلام ؟

قالت : أنا لَكَ به .

قال : وكيف ؟

قالت : تَنْطِق بكلمةِ الحقِّ فتشهَدُ أن لا آلَهَ إلَّا اللّه وأنَّ محمداً رسولُ اللّه ، ثم تَمْضِي إلى بيتِك فتُحَطِّمُ صَنَمَك ثم تَرْمي به .

فانطلقت أساريرُ[5] أبي طلحةَ وقال : أشهد أن لا آلَهَ إلاّ اللّه وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللّه .

ثم تزوج من أُمِّ سُلَيْمٍ . . .

---

(١) اتخذه : صنعَه .

(٢) أرادتْ أن تطرق الحديد . . . : أرادت ألّا تضيّعَ الفرصة .

(٣) يصطلي بناره : يسْتدفىء بناره .

(٤) صداقاً : مَهْراً .

(٥) انطلقت أسارير أبي طلحة : ظهر البشر والسرور على وجْهه .

فكـان المسلمون يقـولـون : مـا سمعنـا بمَهْـرٍ قطُّ كـان أكـرَمَ من مَهْـرِ أمِّ سُلَيم . . .

فقد جعلت صَدَاقَها الإسلام . . .

* * *

مُنْذُ ذلك اليومِ انْضَوى[1] أبو طَلْحَةَ تَحْتَ لواءِ الإسلام ، ووضَعَ طاقاتِه الفَذَّةَ[2] كلَّها في خدمته ؛

فكانَ أَحَدَ السبعين الذين بايعوا رسولَ اللَّه ﷺ بيعـةَ العقبة[3] ومعَـه زوجُه أمُّ سُليم .

وكان أحدَ النُّقباء[4] الإثني عَشَرَ الذين أمَّرَهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام في تلك الليلةِ على مُسْلِمي يثرب .

ثم إنَّه شَهِدَ مَعَ رسولِ اللّهِ ﷺ مَغازِيَه كُلَّها ، وأَبْلَى فيها أشْـرَفَ البلاءِ وأَعَزَّه .

لكنَّ أعظم أيَّام أبي طلحةَ مع رسولِ اللّهِ ﷺ إنما هو يومُ أُحدٍ .

وإليكَ[5] خَبَرَه في ذلك اليوم .

* * *

أَحَبَّ أبو طلحةَ رسولَ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه حُباً خالَطَ شِغَافَ[6] قلبِه ، وجَرَى مَجْرَى الدَّمِ من عروقِه ، فكان لا يَشْبَعُ من النظَرِ إليه ، ولا يَرْتَوِي من الاسْتِماعِ إلىٰ عَذْبِ حديثِه .

---

(١) انضَوَى : دَخَلَ .

(٢) الفَذَّة : الفريدة .

(٣) بيعة العقبة : هي البيعة التي تمت عند العقبة بمنىً قبل الهجرة .

(٤) النقباء : جمع نقيب وهو الرئيس والمقدَّم على جماعَتِه .

(٥) إليك خَبَرَه : خُذْ خَبَره .

(٦) خالط شغاف قلبه : مازج أعماق قلبه .

وكان إذَا بقيَ مَعَهُ جَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وقال له :

نَفْسِي لنفسِك الفِداءُ ، ووجهي لِوَجْهِك الوِقَاءُ .

فلما كان يومُ أُحدٍ انكشَفَ المسلمونَ عن رسولِ اللّه ﷺ فَنَفَذَ إليه المشركون من كُلِّ جانب ، فكسروا رَبَاعِيَته[1] ، وشَجُّوا جبينَه ، وجرحوا شَفَته ، وأسالوا الدَّم على وجهه . . .

حتَّى إنَّ المُرْجِفينَ أَرْجَفوا[2] بأَنَّ محمداً قد قُتِلَ ، فازدادَ المسلمونَ وَهَناً على وَهَن[3] وأَعْطَوْا ظهورَهم[4] لِأَعْداءِ اللّه .

عند ذلك لم يَثْبُتْ مع رسولِ اللّهِ ﷺ غيرُ نَفَرٍ قليلٍ في طليعَتِهم أبو طلحةَ .

* * *

انْتَصَبَ أبو طلحةَ أمامَ رسولِ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه كالطَّودِ[5] الراسِخِ بينما وَقَفَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام خَلْفَه يَتَتَرَّسُ[6] به ؛

ثم وَتَرَ[7] أبو طلحة قَوْسَه التي لا تُفَلُّ[8] ، وركَّبَ عليها سِهَامَه التي لا تُخْطِىء ، وجَعَل يذود بها[9] عن رسولِ اللّهِ ﷺ . ويَرْمي جنودَ المُشْرِكينَ واحِداً إثْرَ واحِدٍ .

وكان النبي عليه الصلاة والسَّلامُ يتطاوَلُ من خَلْفِ أبي طلحةَ لِيَرَىٰ مواقِعَ سِهامِه فكان يردُّه خوفاً عليه ويقول له :

---

(١) رباعيته : سِنُّه التي بين الثنيَّة والنابِ .

(٢) أرجف المرجفون : زعم الخراصون الكذابون .

(٣) ازداد المسلمون وَهَناً على وهن : ازدادوا ضعفاً على ضعف .

(٤) أعطوا ظهورهم لأعداء اللّه : جعلوا ينهزمون أمامهم .

(٥) الطود الراسخ : الجبل الثابت .

(٦) يتترّس به : يجعله ترساً ووقاية من رماح الأعداء وسهامهم .

(٧) وتر قوسه : شدَّ قوسه .

(٨) لا تفلّ : لا تُهْزم .

(٩) يذود بها : يدافع بها .

بأبي أنت وأُمِّي ، لا تُشْرِفْ[1] عليهم فيصيبوك .
إنَّ نَحْرِي[2] دونَ نَحْرِكَ وصَدْرِي دونَ صَدْرِك .
وجُعِلْتُ فداك . . .

وكان الرجلُ من جندِ المسلمين يَمُرُّ برسولِ اللّهِ ﷺ هارِباً ومَعَه الجَعْبَة[3] من السِّهَام ، فينادِي عليه النبيُّ ويقول له :

(انْثُرْ سِهامَكَ بَيْنَ يَدَيْ أبي طَلْحَةَ ولا تَمْضِ بها هارِباً) .

وما زالَ أبو طلحَة يُنَافِح[4] عن رسولِ اللّهِ ﷺ حتى كَسَرَ ثلاث أقْواسٍ ، وقَتَلَ ما شاءَ اللّهُ أنْ يَقْتُلَ من جنودِ المشركين .

ثم انجلت المعركة ، وسَلَّمَ اللّهُ نَبِيَّهُ وصانَه بِصَوْنه .

* * *

وكما كان أبو طلحةَ جَواداً بِنَفْسِه في سبيلِ اللّهِ في ساعات البأس[5] ، فقد كان أكثرَ جوداً بمالِه في مواقِفِ البذل[6] . . .

من ذلك أنَّه كان له بُسْتانٌ من نخيلٍ وأَعْنابٍ لم تَعْرِفْ يَثْرِبُ[7] بُستاناً أعظمَ منه شجراً ، ولا أَطْيَبَ ثمراً ، ولا أعْذَبَ ماءً .

وفيما كان أبو طلحةَ يُصَلِّي تَحْتَ أَفْيائِه الظليلةِ ؛ أثارَ انتباهَه طائِرٌ غَرِدٌ أخْضَرُ اللَّوْنِ أحمرُ المِنْقارِ ، مُخَضَّبُ الرِّجلين[8] . . .

وقد جَعَلَ يَتَواثَبُ على أفْنانِ الأشجارِ طرباً مُغَرِّداً مُتَرَاقِصاً . . . فأعجبه مَنْظَرُه ، وسَبَحَ بِفِكْرِه معه . . .

---

(1) لا تشرف عليهم : لا تطلّ عليهم .
(2) إن نحري دون نحرك : إن عنقي فداءٌ لعنقك .
(3) الجعبة : كيس السِّهام .
(4) ينافح : يدافع .
(5) في ساعات البأس : في ساعات الشِّدَّة .
(6) مواقف البَذْل : مواقف العطاء .
(7) يثرب : المدينة المنورة .
(8) مخضَّب الرجلين : مصبوغ الرجلين .

ثم ما لَبِثَ أَنْ رجعَ إلى نَفْسِه ؛ فإذا هو لا يَذْكُرُ كم صَلَّىٰ ؟!
رَكعتين . . .
ثلاثاً . . . لا يَدْرِي . . .

فما إنْ فَرَغ من صَلاتِهِ حتَّى غدا[1] على رسولِ اللّه ﷺ ، وشكا له نَفْسَه التي صَرَفَها البُسْتانُ ، وشَجَرُهُ الوارِف ، وَطيْرُه الغَرِد عن الصلاة . . .
ثم قال له: اِشْهَدْ يا رسولَ اللّهِ أنِّي جعلتُ هذا البُسْتانَ صَدَقَةً للّهِ تعالى. . .
فَضَعْهُ[2] حيث يُحِبُّ اللّهُ ورسولُه . . .

* * *

عاش أبو طلحةَ حياتَه صائماً مُجاهِداً . . .
وماتَ كذلك صائماً مُجاهِداً . . .

فقد أُثِرَ عَنْهُ أَنَّه بَقِيَ بعد وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ نحواً من ثلاثين عاماً صائماً لم يُفْطِرْ إلَّا في أيَّامِ الأعْيادِ حيث يَحْرُمُ الصِّيامُ ، وأنَّه امتدَّتْ به الحياةُ حتَّى غدا شيخاً فانياً ، لكنَّ شَيْخُوخَتَه لم تَحُلْ دونَه ودونَ مواصَلَةِ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ ، والضَّرْبِ[3] في فِجَاجِ الأَرْضِ إعلاءً لِكَلِمَتِهِ ، وإعزازاً لدينِه .

من ذلك أَنَّ المُسْلِمينَ عَزَمُوا على غزوةٍ في البَحْرِ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفَّانَ .

فأخذ أبو طلحةَ يُعِدُّ للخروجِ مع جيشِ المسلمين ، فقال له أبناؤه :

يَرْحَمُكَ اللّهُ يا أبانا ، لقد صِرْتَ شيخاً كبيراً ، وقد غَزَوْتَ مع رسولِ اللّهِ وأبي بكرٍ وعمَر ، فهلاَّ رَكَنْتَ إلى الرَّاحة[4] وتركتنا نغزو عنك .

---

(١) غدا على رسول اللّه : مَضى إلى رسول اللّه ﷺ . (٢) ضَعْهُ : تَصَرَّف به واستخدِمْه .
(٣) الضرب في فجاج الأرض : السير في سبيل الأرض جهاداً في سبيل اللّه .
(٤) ركنت إلى الراحة : لزمت الراحة .

فقال : إن اللّه عزَّ وجل يقول :

﴿ اِنْفِروا خِفَافاً وثِقالاً ﴾[1] فهو قد استَنْفَرَنا جميعاً . . . شيوخاً وشُبَّاناً ، ولم يُحَدِّدْ لنا سِناً .

ثم أَبَىٰ إلاَّ الخروجَ . . .

* * *

وبينما كان الشيخ المُعَمَّرُ أبو طلحةَ على ظَهْرِ السَّفِينةِ مع جُنْدِ المسلمين في وَسَطِ البحرِ ، مَرِضَ مرضاً شديداً فارَقَ على إثْرِهِ الحياةَ .

فَطَفِق المسلمون يبحثون له عن جزيرة لِيَدْفِنوه فيها فلم يَعْثُروا على مُبْتَغاهم إلا بعدَ سبعةِ أيام ، وأبو طلحة مُسَجًّى بينَهم لم يَتَغَيَّرْ فيه شيءٌ كأنه نائِمٌ .

وفي عرْضِ البَحْرِ[2] . . .

بعيداً عن الأَهْلِ والوَطَن[3] . . .

نائِياً عن العَشِير[4] والسّكن . . .

دُفِنَ أبو طلحة . . .

وماذا يَضيرُه[5] بُعْدُه عن الناس ما دام قريباً من اللّهِ عَزَّ وجَلَّ[*] . . .

---

(١) انفروا خفافاً وثقالاً : هُبُّوا إلى الجهاد على أي حالٍ كنتُم .

(٢) عرْض البحر : وَسَطَ البحر .

(٣) مسجىً : مُغَطىً .

(٤) العشير : المعاشِرُ من زوج وأهل وغيرهم .

(٥) يضيره : يَضُرُّه .

(*) للاستزادة من أخبار أبي طلحة الأنصاري انظر :

١ ـ الإصابة : ١/٥٠٦ .

٢ ـ أسد الغابة : الترجمة ١٨٤٣ .

٣ ـ الاستيعاب : ١/٥٤٩ بهامش الإصابة .

٤ ـ الطبقات الكبرى : ٣/٥٠٤ .

٥ ـ صفة الصفوة : ١/١٩٠ .

٦ ـ تهذيب التهذيب : ٣/٤١٤ .

٧ ـ تاريخ الطبري : ٢/٦١٩ ـ ٣/١٢٤ ، ١٨١ ـ ٤/١٩٢ (طبعة دار المعارف) وانظر فهارسه أيضاً في الجزء العاشر .

٨ ـ تهذيب ابن عساكر : ٦/٤ .

٩ ـ السيرة لابن هشام : انظر الفهارس .

١٠ ـ حياة الصحابة : انظر الفهارس في الرابع .

رَمْلَةُ بنتُ أبي سُفيان

« أُمُّ حبيبَةَ آثَرتِ اللَّهَ وَرسُولَه عَلى ما سِوَاهما ، وكرِهَتْ أن تَعودَ لِلكُفرِ كَما يكرهُ المرءُ أن يُقذَفَ في النّار »

[المؤرّخون]

ما كان يَخْطُرُ ببالِ أبي سُفْيَانَ بنِ حربٍ أنَّ في وُسْعِ أحدٍ من قريشٍ أنْ يخرُجَ على سُلْطانِه[1] ، أو يخالفَه في أمر ذي بال[2] . فهو سَيِّدُ مكةَ المُطاعُ ، وزعيمُها الذي تَدينُ له بالوَلاءِ[3] .

لكنَّ ابنَتَه رَمْلَةَ المكناةَ بأمِّ حبيبةَ ، قد بَدَّدَتْ[4] هذا الزَّعْمَ ، وذَلك حين كَفَرَتْ بآلهة أبيها ، وآمنتْ هي وزوجُها عبيدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ باللَّهِ وحدَه لا شَريكَ له ، وصدَّقَتْ بِرِسالَةِ نبيِّه محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ .

وقد حاوَلَ أبو سفيانَ بكلِّ ما أوتي مِن سَطْوَةٍ وبَأْسٍ[5] ، أن يَرُدَّ ابنتَه وزَوْجَها إلى دينِهِ ودينِ آبائه ، فلم يُفْلِحْ ؛ لأَنَّ الإيمانَ الذي رَسَخَ في قلبِ رَمْلَةَ كانَ أعمقَ من أَنْ تَقْتَلِعَه أَعاصيرُ[6] أبي سفيانَ ، وأَثْبَتَ من أَنْ يُزَعْزِعَه غضبُه .

* * *

(١) يخرج على سلطانه : يخالف أمره .

(٢) أمر ذو بال : أَمْرٌ ذو أهمية وشأن .

(٣) الولاء : الطاعَةُ والمتابَعةُ .

(٤) بَدَّدَتْ هذا الزعم : أبطلت هذا الزعم ومزّقته .

(٥) البأسُ : القوَّةُ .

(٦) أعاصير : جمع إعصار ، وهو ريح شديدة ترتفع بتراب الأرض ومياه البحر .

ركب أبا سفيانَ الهمُّ بسبب إسلامِ رملةَ ؛ فما كان يعرفُ بأيِّ وجهٍ يقابلُ قريشاً ، بعد أَنْ عَجَزَ عن إخضَاعِ ابنتِهِ لمشيئَتِه ، والحيلولَةِ دونَها ودونَ اتِّباع محمدٍ .

* * *

ولمـا وَجَدَت قـريشُ أَنَّ أبا سفيـانَ ساخِطٌ على رَمْلَةَ وزوجِهـا اجتـرأتْ عليهما ، وطَفِقَتْ تُضَيِّقُ عليهما الخِناقَ ، وجعلت تُرْهِقُهُما[1] أَشَدَّ الإرْهاقِ ، حتى باتا لا يُطيقانِ الحياةَ في مكةَ .

ولمـا أَذِنَ الرسـولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُـه عليه للمسلمين بـالهِجْـرَةِ إلى الحبشةِ ، كانت رَمْلَةُ بنتُ أبي سُفْيانَ وطِفْلَتُها الصغيرةُ حبيبةُ ، وزوجُها عبيدُ اللَّهِ ابنُ جحشٍ ، في طليعَـةِ المهـاجـرين إلى اللَّهِ بـدينِهم ، الفـارِّين إلى حِمَى النَّجاشيِّ[2] بإيمانهم .

* * *

لكنَّ أبا سفيانَ بنَ حربٍ ومن مَعه من زعماءِ قُريشٍ ، عَزَّ[3] عليهم أن يَفْلِتَ من أيديهم أولئك النفرُ من المسلمين ، وأن يذوقوا طَعْمَ الراحَةِ في بلادِ الحَبَشَةِ .

فـأرسلوا رُسُلَهم إلى النجاشيِّ يُحَـرِّضونَـه[4] عليهم ، ويطلُبُـونَ منه أن يُسْلِمَهم إليهم ، ويَذْكرونَ له أَنَّهُمْ يقولون في المسيح وأمِّه مريمَ قولاً يسوؤه[5] .

فبعثَ النجاشيُّ إلىٰ زعماءِ المُهاجِرين ، وسألهم عن حقيقةِ دينِهم وعَمَّا

---

(١) ترهقهما : تُتْعِبُهما وتُعَنِّيهما .

(٢) النجاشي : ملك الحبشة ، وقد سمع القرآن وآمن باللّه ورسوله وآوَى المسلمين .

(٣) عَزَّ عليهم : صَعُبَ عليهم .

(٤) يحرِّضونه عليهم : يثيرونه عليهم .

(٥) يسوؤه : يؤذيه ويحزنه .

يقولونه في عيسَىٰ بنِ مريمَ وأمِّه ، وطلب إليهم أنْ يُسمِعُوه شيئاً من القرآنِ الذي يَنْزِلُ على قلبِ نبيِّهم .

فلما أخبروه بحقيقةِ الإسلامِ ، وتَلَوْا عليه بعضاً من آياتِ القرآن ، بَكَىٰ حتى اخْضَلَّتْ[١] لِحْيَتُه وقال لهم :

إن هذا الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّكُمْ محمدٍ ، والذي جاء به عيسى ابنُ مريمَ يخرجان من مِشْكاةٍ[٢] واحِدَةٍ .

ثم أَعْلَنَ إيمَانَه باللَّهِ وَحْـدَه لا شريكَ له ، وتصْديقَه لِنُبُوَّةِ محمدٍ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه . . .

كما أعلن حِمايَتَه لمن هاجر إلى أرضِه من المسلمين على الرَّغْمِ من أنَّ بطارِقَتَه[٣] أَبَوْا أنْ يُسْلِموا ، وظلُّوا على نَصْرانِيَّتِهم .

* * *

حَسِبَتْ[٤] أُمُّ حبيبةَ بعد ذلك أنَّ الأيامَ صَفَتْ لها بعدَ طولِ عُبُوس ، وأنَّ رِحْلَتَهَا الشَّاقَّةَ في طريق الآلام قد أَفْضَتْ[٥] بها إلى واحَةِ الأمان . . .

إذْ لم تكن تَعْلَمُ ما خَبَّأَتْهُ لها المقادير . . .

* * *

فلقد شاء اللَّهُ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُه ، أن يَمْتَحِنَ أمَّ حبيبةَ امتحاناً قاسِياً تَطيشُ[٦] فيه عقولُ الرجالِ ذَوِي الأَحْلامِ[٧] وتَتَضَعْضَعُ أمامَه أفهام ذَوِي الأَفْهامِ .

وأن يُخرِجُهَا من ذلك الابتلاءِ الكبيرِ ظافِرةً تَتَرَبَّعُ[٨] على قمة النجاح . . .

* * *

---

(١) اخضلَّت لحيتُه : تبللت لحيته .
(٢) المشكاة : ما يوضع عليه المصباح (أي من مصْدر نورٍ واحد) .
(٣) البطارقة : جمع بطريق وهو القائِدُ .
(٤) حَسِبت أم حبيبة : ظنَّت .
(٥) أفضت بها : انتهت بها وأوْصلَتْها .
(٦) تطيش : تتوه وتضلُّ .
(٧) ذوو الأحلام : أصحاب العقول .
(٨) تتربَّع : تجلِسُ .

ففي ذاتِ ليلةٍ أَوَتْ أمُّ حبيبةَ إلى مَضْجَعِها ، فَرَأَتْ فيما يـراه النائِمُ أنَّ زوجَها عُبَيْدَ اللّهِ بنَ جحشٍ يَتَخَبَّطُ في بحرٍ لُجِّيٍّ[1] غَشِيَتْهُ[2] ظُلُمـاتٌ بعضُها فوقَ بَعْضٍ ، وهُوَ بِأَسْوَإِ حال . . .

فهبَّتْ من نومها مَذْعورَةً[3] مضْطَرِبَةً . . .

ولم تشأ أَنْ تَذْكُرَ له أو لأحَدٍ غَيْرِه شيئاً مِمَّا رأت . .

لكنَّ رُؤْيـاهـا مـا لَبِثَتْ أن تَحَقَّقَتْ ، إذ لم يَنْقَضِ يـومُ تلك اللَّيـلةِ المشؤومَةِ[4] حتى كان عبيدُ اللّه بـنُ جحشٍ ، قد ارتدَّ عن دينِه وتَنَصَّرَ . . .

ثم أَكَبَّ على حاناتِ[5] الخمَّارين يعاقِرِ[6] أُمَّ الخبائثِ[7] فلا يَرْتَوِي منها ولا يَشْبَعَ .

وقد خَيَّرَهَا بَيْنَ أمرين أَحْلاهُما مُرٌّ :

فإما أن تُطَلَّقَ . . .

وإمَّا أَنْ تَتَنَصَّر . . . .

* * *

وَجدَتْ أمُّ حبيبةَ نفسَها فجأَةً بين ثلاثٍ :

فإمَّا أنْ تَسْتَجيبَ لِزَوْجِها الذي جَعَلَ يُلِحُّ في دَعْوَتِها إلىٰ التَّنَصُّرِ ؛ وبذلك تَرْتَدُّ عن دينها ـ والعياذُ باللّه ـ وتبوءُ بِخِزْيِ[8] الدنيا وعذابِ الآخرة .

وهو أمرٌ لا تَفْعَلُهُ ولو مُشِطَ لحمُها عن عَظْمِها بأمْشَاطٍ من حديد . . .

---

(١) بحرٌ لُجي : بحرٌ ذو لُجَجٍ متلاطِمَة .
(٢) غَشِيَتْهُ ظُلُماتٌ : غطَّته ظلماتٌ وأطبقت عليه .
(٣) هَبَّتْ مذعورة : نَهَضَتْ خائفة .
(٤) الليلة المشؤومة : الليلة التعِيسَة .
(٥) حانات الخمارين : دكاكين الخمَّارين .
(٦) يعاقِرُ الخمر : يلازمها ويُدْمِنُ عليها .
(٧) أم الخبائِث : كناية عن الخمر ، ودعيت بذلك لأنَّها أصل كل شَرٍّ .
(٨) تبوء بخزي الدنيا : ترجعُ بعار الدنيا .

وإما أَنْ تعودَ إلى بَيْتِ أبيها في مكةَ ، وهو ما زال قَلْعَةً للشِّرْكِ ؛ فتعيش فيه مَقْهورَةً مغلوبَةً على دينِها . . .

وإما أنْ تَبْقَىٰ في بلادِ الحبشةِ وحيدةً ، شريدةً ، لا أهلَ لها ولا وَطَنَ ولا معينَ .

فآثرت[1] ما فيه رضىٰ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ على ما سِواه . .
وأَزْمَعَتْ[2] على البقاءِ في الحبشةِ حتى يأتِيَ اللَّهُ بِفَرَجٍ من عنده .

* * *

لم يَطُلِ انتظارُ أمِّ حبيبةَ كثيراً .

فلما إن انْقَضَتْ عُدَّتُها[3] من زَوْجِها الذي لم يَعِشْ بعد تَنَصُّرِه إلَّا قليلاً حتى أتاها الفَرَجُ . . .

لقد جاءَها السَّعْدُ يُرَفْرِفُ بِأَجْنِحَتِهِ الزُّمُرُّدِيَّةِ[4] الخُضْرِ فوقَ بَيْتِها المحزونِ على غير ميعاد . . .

ففي ذاتِ ضُحىً مُفَضَّضِ[5] السَّنا طَلْقِ المُحَيَّا طُرِقَ عليها البابُ ؛ فلما فَتَحَتْه فوجِئَتْ « بِأَبْرَهَةَ » وصيفةِ[6] النجاشِيِّ ملكِ الحبشةِ .

فحيَّتْها بأَدَبٍ وبِشْرٍ ، واسْتَأْذَنَتْ بالدخولِ عَليها وقالت :
إن الملكَ يُحَيِّيكِ ويقول لك : إنَّ محمداً رسولَ اللَّهِ قد خَطَبَكِ لِنَفْسِه . . .

---

(١) آثرت : فضَّلت واختارت .
(٢) أَزْمَعَتْ : عَزَمَتْ وقرَّرت .
(٣) العُدَّة : المُدَّة المشروعَة التي تقضيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه .
(٤) الزمرديَّة : نسبة إلى الزمرُّد ، وهو حجر كريم أخضر اللون .
(٥) مفضَّض السَّنا : سناه فضي اللون، والسَّنا : الضوء .
(٦) وصيفَة النجاشي : خادِمَته الخاصَّة .

وإنَّه بعثَ إليه كتاباً وكَّلَه فيه بِأَنْ يَعْقِدَ له عليك .. فَوَكِّلِي عَنْكِ من تَشائين .

* * *

استطارَتْ[1] أمُّ حبيبةَ فرحاً ، وهَتَفَتْ : بَشَّرَكِ اللَّهُ بالخير ... بَشَّرَكِ اللَّهُ بالخير ...

وطَفِقَتْ تَخْلَعُ ما عليها من الحلِيِّ ؛ فَنَزَعَتْ سِوارَيْهَا ، وأعْطَتْهُما لأَبْرَهَةَ ...

ثم أَلْحَقَتْهما بِخلْخالِها[2] ... ثم أَتْبَعَتْ ذلك بِقُرْطَيْها[3] وخَواتِيمِها ...

ولو كانت تملِكُ كنوزَ الدنْيا كلَّها لأَعْطَتْها لها في تلك اللَّحْظَة .

ثم قالت لها : لقد وكلتُ عَنِّي خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العَاصِ ؛ فهو أقربُ النَّاسِ إليَّ .

* * *

وفي قَصْرِ النجاشِيِّ الرابِضِ على رابيةٍ شَجْراءَ[4] مُطِلَّةٍ على روضةٍ من رياضِ الحَبَشَةِ النَّضِرة .

وفي أَحَدِ أبْهائِه[5] الفسيحةِ المُزْدانَةِ بالنقوشِ الزاهِيَةِ ، المُضاءَةِ بالسُّرج[6] النُّحاسِيَّةِ الوضَّاءَةِ ، المفروشَةِ بِفاخِرِ الرِّياشِ اجتمع وجوهُ الصَّحابَةِ المقيمون في الحَبَشَةِ ، وعلى رأسِهِمْ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ ، وخالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ ، وعبدُ اللَّهِ بنُ حُذافَةَ السهميُّ ، وغيرُهم لِيَشْهَدوا عَقْدَ أمِّ حبيبةَ بنتِ

---

(١) استطارت فرحاً : كادت تطير من شدّة الفرح .
(٢) الخلخال : ضربٌ من الحلي تضعه المرأة في رجلها .
(٣) القُرط : الحلق .
(٤) رابية شجراء : رابية ذات شجر .
(٥) الأبهاء : جمع بهو ، وهو القاعة الواسعة .
(٦) السُّرج : جمع سِراج ، وهو المِصْباح الذي يضاء بالزَّيت ونحوه .

أبي سُفْيانَ على رسولِ اللَّهِ ﷺ .

فلما اكْتَمَلَ الجمعُ ، تَصَدَّر النجاشِيُّ المَجْلِسَ وخَطَبَهم فقال :

أَحْمَدُ اللَّهَ القُدُّوسَ[1] المُؤْمِنَ الجَبَّارَ ، وأشْهَدُ أنْ لا إلَه إلَّا اللَّه وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وأنَّه هو الذي بَشَّرَ به عيسَىٰ بنُ مريمَ .

أما بعد : فإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أزوِّجَهُ أُمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سُفْيانَ ؛ فَأَجَبْتُه إلىٰ ما طَلَبَ ، وأمْهَرْتُها نيابةً عنه أربعَمِائَةِ دينارٍ ذهباً . . .

على سُنَّةِ اللَّهِ ورسولِه . . .

ثم سَكَبَ الدنانيرَ بين يَدَيْ خالِدِ بنِ سعيدٍ بنِ العاص .

وهنا قام خالِدٌ فقال : الحمدُ للَّه أحْمَدُه وأَسْتَعينُه ، وأَسْتَغْفِرُهُ ، وأتوبُ إليه ، وأشْهَدُ أَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، أرْسَلَه بِدينِ الهُدَىٰ والحقِّ لِيُظْهِرَه[2] على الدينِ كُلِّه ولو كَرِهَ الكافرون .

أما بعدُ : فقد أَجَبْتُ طَلَبَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وَزَوَّجْتُه مُوكِّلَتي أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سفيان .

فبارَكَ اللَّهُ لرسولِهِ بِزَوْجَتِه .

وهنيئاً لأمِّ حبيبةَ بما كتب اللَّهُ لها من الخير . . .

ثم حَمَلَ المالَ وهَمَّ أَنْ يمضيَ به إليها ؛ فقام أصحابُه لِقِيامِه وهَمُّوا بالانْصِرافِ أيضاً .

فقال لهم النجاشي : اجْلِسُوا فإنَّ سُنَّةَ الأنبياءِ إذا تزوَّجوا أن يُطْعِمُوا طعاماً .

---

(١) القدوس ، المؤمن ، الجبار : من أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى .

(٢) ليظهرَه : ليجعله غالباً قوياً ظاهراً .

ودعا لهم بطعام فَأَكَلَ القومُ ثم انْفَضُّوا[1] .

* * *

قالت أمُّ حبيبة : فلما وَصَلَ المالُ إليَّ أرْسَلْتُ إلىٰ « أبْرَهَةَ » التي بشَّرَتْنِي خمسين مِثْقالاً[2] من الذَّهَبِ وقلتُ :

إني كنتُ أعـطيتُك مـا أعطيتُ حينَ بَشَّـرْتني ، ولم يَكنْ عِنْدِي يـوْمَئِـذٍ مالٌ . . .

فما هُوَ إلا قليلٌ حتى جاءَتْ أَبْرَهَةُ إليَّ وردَّتِ الذَّهَبَ ، وأَخْرَجَت حُقًّا[3] فيه الحُليُّ الذي كنتُ أعطيتُها إياه ، فَرَدَّتْهُ إليَّ أيضاً وقالت :

إنَّ الملكَ قد عزمَ عَلَيَّ ألاّ آخذَ منكِ شيئاً .

وقد أمَرَ نساءَه أن يَبْعَثْن لَكِ بِكُلِّ ما عِنْدَهُنَّ من الطِّيبِ .

فلمَّا كان الغَدُ جاءَتْني بِوَرْسٍ[4] ، وعودٍ[5] وعَنْبَر ، ثم قالت لي :

إن لي عندك حاجَةً . . .

فقلت : ومَا هي ؟!

فقالت : لقد أسْلَمْتُ ، واتبعتُ دينَ محمدٍ فاقْرَئِي عَلَى النبيِّ مِنِّي السلامَ وأعلمِيه أَنِّي آمنتُ باللّهِ ورسولهِ ولا تَنْسَي ذلك .

ثم جَهَّزَتْنِي[6] .

* * *

---

(١) انفضوا : تفرَّقوا .

(٢) المثقال : ما يوزن به الذهب ونحوه .

(٣) الحُقُّ : بضم الحاء وعاء الطيب .

(٤) الورس : نباتٌ أصْفَرُ يتَّخذ منه الزعفران .

(٥) العود : ضربٌ من الطيب يُتَبخَّرُ به .

(٦) جَهَّزتني : أعدَّت لي جهازي .

ثم إني حُمِلْتُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ .

فلما لقيتُه ، أخْبَرْتُه بما كان من أمر الخِطْبَةِ ، وما فَعَلْتُه مع « أبْرَهَةَ » وأقْرَأْتُه مِنها السَّلامَ .

فَسُرَّ بخَبَرِها وقال : وعليها السلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبَرَكاتُه(*) .

(*) للاستزادة من أخبار رملة بنت أبي سفيان انظر :

١ ـ الإصابة : ٤/٤٤١ .

٢ ـ الاستيعاب : ٤/٣٠٣ .

٣ ـ أسد الغابة : ٥/٤٥٧ .

٤ ـ صفة الصفوة : ٢/٢٢ .

٥ ـ المعارف لابن قتيبة : ١٣٦ ، ٣٤٤٠ .

٦ ـ سير أعلام النبلاء .

٧ ـ مرآة الجنان لليافعي .

٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام (انظر الفهارس) .

٩ ـ تاريخ الطبري (انظر الفهارس في العاشر) .

١٠ ـ طبقات ابن سعد (انظر الفهارس في الثامن) .

١١ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر .

١٢ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس) .

١٣ ـ أعلام النساء لكحالة : ١/٤٦٤ .

وحشيّ بن حرب

«قَتَلَ خَيْرَ الناسِ بَعْدَ محَمَّدٍ . . .
وَقَتَلَ شرَّ النَاسِ أيضاً»

[المؤرّخون]

من هذا الذي أَدْمَى فؤادَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، حينَ قَتَلَ عَمَّه حمزةَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ يَوْمَ أُحُدٍ ؟! .

ثم شَفَى قلوبَ المسلمين حين قتلَ مُسَيْلِمَةَ الكذَّابَ يومَ اليَمامَةِ ؟ .

إنَّه وَحْشِيٌّ بنُ حربِ الحَبَشِيُّ ، المُكَنَّى بأبي دَسمَةَ . . .
وإنَّ له قِصَّةً عنيفَةً حزينَةً دامِيَةً . . .
فأعِرْهُ سَمْعَكَ لِيَرْوِيَ لَكَ مَأْساتَه بِنَفْسِه :

قال وحشي : كنتُ غلاماً رقيقاً لجُبَيْر بنِ مُطعِمٍ أَحَدِ سادَةِ قُريشٍ .

وكان عمُّه طُعَيْمَةُ ، قد قُتِلَ يومَ بدرٍ على يَدِ حَمْزَةَ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ ؛ فَحَزِنَ عليه أشَدَّ الحُزْنِ ، وأقسَمَ باللَّاتِ والعُزَّى[1] لَيثأَرَنَّ لِعَمِّه ، ولَيَقْتُلَنَّ قاتِلَه . . . .

وَجَعَلَ يَتربَّصُ[2] بِحَمْزَةَ الفُرَصَ .

* * *

(١) اللّات والعُزَّى : صنمان كبيران من أَصْنَامِ العرب في الجاهلية .
(٢) يتربَّصُ : ينتظرُ ويتحين الفُرْصَةَ .

لم يَمْضِ على ذٰلِك طويلُ وَقْتٍ حتَّىٰ عَقَدَتْ قريشُ العَزْمَ على الخروجِ إلىٰ أُحُدٍ لِلْقَضاءِ على محمدِ بنِ عبدِ اللّهِ ، والثَّأْرِ لِقَتْلاها في بَدْرٍ . . . فكَتَّبَتْ كتائبَها[1] ، وجَمَّعتْ أَحْلافَها ، وأعدَّت عُدَّتَهـا ، ثم أَسْلَمَتْ قِيادَهـا إلىٰ أبي سُفْيانَ بنِ حَرْبٍ .

فرأى أبو سفيانَ أن يجعلَ مع الجيشِ طائِفَةً من عَقيلاتِ[2] قريشٍ مِمَّن قُتِلَ آباؤُهُنَّ أو أبناؤهُنَّ أو إخْوَتُهنَّ أو أحَدُ من ذويهِنَّ في بَدْر ، لِيُحَمِّسْنَ الجيشَ على القِتَالِ ، ويَحُلْنَ دونَ الرِّجالِ ودونَ الفِرارِ ؛ فكان في طليعَةِ من خَرَجَ مَعَه من النِّساءِ زوجُهُ هِنْدُ بنتُ عُتبَةَ . . .

وكان أبوها وعمُّها وأخوها قد قُتِلوا جميعاً في بَدر . . .

ولما أَوْشَكَ الجيشُ على الرَّحيلِ ، التَفَتَ إليَّ جُبَيرُ بنُ مُطْعِمٍ وقال : هَلْ لَكَ يا أبا دَسَمَةَ في أن تُنْقِذَ نَفْسَك من الرِّقِّ ؟

قلت : ومَنْ لي بذلِك ؟!

قال : أنا لَك به .

قلت : وكيف ؟!

قال : إن قَتَلْتَ حمزةَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ عمَّ محمدٍ بعمي طُعَيْمَةَ بنِ عَدِيٍّ فأنت عتيقٌ[3] .

قلت : ومَنْ يَضْمَنُ لِي الوَفاءَ بذلِك ؟

قال : من تَشاءُ ، ولأُشهِدَنَّ على ذلك الناسَ جميعاً .

قلت : أفْعَل ، وأنا لها . . .

قال وحشي : وكنتُ رجلاً حَبَشِيّاً أقذِفُ بالحَرْبَةِ قَذْفَ الحَبَشَةِ فلا أخْطِىءُ شيئاً أرميه بها .

---

(١) كتَّبت كتائبَها : نظَّمت كتائبَها وأعدَّتْها والكتيبة : القطعة من الجيش .

(٢) عقيلات قريش : سيدات قريش .

(٣) أنت عتيق : أَنْتَ حُرٌّ .

فأخذتُ حَرْبتي ومَضَيْتُ مع الجيشِ ، وجَعَلْتُ أَمْشِي في مُؤَخِّرَتِهِ قريباً من النِّسَاءِ ؛ فما كان لي أَرَبٌ[1] بقتال . . .

وكنت كلَّما مررتُ بِهِنْد زوجِ أبي سُفْيانَ أو مرَّت بي ورأَتِ الحَرْبَةَ تَلْتَمِعُ في يدي تَحْتَ وَهْجِ الشَّمسِ تقول :

أبا دَسَمَةَ . . .

اِشْفِ واستَشْفِ[2] . . .

فلما بلَغنا أُحداً ، والتقى الجَمْعَانِ ؛ خرجتُ أَلتَمِسُ[3] ، حمزةَ بنَ عبد المطَّلِبِ وقد كنت أعرفه من قبل ، ولم يكن حمزةُ يخْفَى على أحدٍ ، لأنَّهُ كانَ يَضَعُ على رأْسِه ريشةَ نعامةٍ ليَدُلَّ الأَقْرانَ[4] عليه كما كان يفعلُ ذوو البأْسِ من شُجعانِ العرب .

وما هو إلا قليلٌ حتى رأيتُ حمزةَ يهدِرُ بينَ الجموعِ كالجملِ الأَوْرَقِ[5] ، وهو يهدُّ الناسَ بِسَيْفِه هَدًّا[6] فما يَصْمُدُ أمامَه أحدٌ ولا يثْبُتُ له شيءٌ . . .

وفيما كنت أتهَيَّأُ له ، وأَسْتَتِرُ منه بِشَجَرَةٍ أو حجرٍ مُتَرَبِّصاً أَنْ يدنُوَ مني ، إذ تَقَدَّمني إليه فارسٌ من قريشٍ يُدْعَى سِباعَ بنَ عبد العُزَّى وهو يقول :

بارِزْني يا حمزةُ . . . . بارِزْني . . .

فَبَرَزَ له حمزةُ وهو يقول : هَلُمَّ إليَّ[7] يا بْنَ المُشْرِكةِ . . .

---

(١) أرب : غايةٌ ورغبةٌ .

(٢) اشف واستشفِ : أيْ اشف غيظ قلوبنا من محمد وابن أخيه .

(٣) أَلتمس حمزة : أبحث عنه وأطلبُه .

(٤) الأقران : جمع قِرْن بكسر القاف ، وقِرْن الرجل البطل المماثل له .

(٥) الجمل الأورق : الجَمَل الذي لونُه كلون الرَّماد وهو من أقوى الجمال .

(٦) يهدُّ الناس هدّاً : يقطع النَّاس قَطْعاً .

(٧) هَلُمَّ إلى : أقبل عليَّ وتعالَ إليَّ .

هَلُمَّ إليَّ . . .

ثم ما أَسْرَعَ أَنْ بادَرَه بضربةٍ من سَيْفِه ، فخرَّ صريعاً يَتَخَبَّطُ بدمـائه بَيْنَ يَدَيْه . . .

عند ذلك وقفتُ من حمزةَ مَوْقِفاً أَرْضاه ، وجَعَلْتُ أهُـزُّ حَرْبَتِي حَتَّىٰ إذا اطْمَأْنَنْتُ إليها ، دَفَعْتُ بها نَحْوَه ، فَوَقَعَتْ في أَسْفَلِ بَطْنِهِ ، وخَرَجَتْ مِن بينِ رِجليهِ .

فَخطَا مُتَثَاقِلاً نَحْوِي خُطْوتين ، ثم ما لَبِثَ أَنْ سَقَطَ ، والحَرْبَةُ في جَسَدِه . فتركتُها فيه حَتَّىٰ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ ماتَ ، ثم أتيتُه وانْتَزَعْتُها منه ، ورجعتُ إلىٰ الخيام ، وقعدت فيها ؛ إذْ لَمْ تَكُنْ لي حاجَةٌ بِغَيْرِهِ ، وإنَّما قَتَلْتُه لأُعْتَقَ . . .

* * *

ثم حَمِيَ وَطيسُ[1] المَعْرَكَةِ وكَثُرَ فيها الكرُّ والفَرُّ غَيْرَ أَنَّ الدائِرَةَ ما لَبِثَتْ أنْ دارَتْ على أصحابِ محمدٍ ، وكَثُرَ فيهم القَتْلُ .

عِنْدَ ذلك غَدَتْ هندُ بنتُ عتبةَ عَلَى قَتْلىٰ المسلمين ومِنْ ورائِها طائفةٌ من النِّساء ، فَجَعَلَتْ تُمَثِّلُ بهم :

فَتَبْقَرُ[2] بطونَهم، وتَفْقَأُ عيونَهم، وتَجْدَعُ أُنوفَهم[3]، وتَصْلِمُ آذانَهم[4]. . .

ثم صَنَعَتْ من الآنـافِ[5] والآذانِ قِلادةً[6] وأقْـراطاً[7] ، فَتحلَّت بهـا ، ودَفَعَتْ قِلادَتَها وقرطَيها الذهبيين إليَّ وقالت :

---

(١) الوَطيسُ : التنّور ، وحمي وطيسُ المعركة : التهَبَتْ واشتدت .
(٢) تبقر بطونهم : تشقُّ بطونهم .
(٣) تجدع أنوفهم : تقطع أنوفهم .
(٤) تصلِم آذانهم : تقطع آذانهم .
(٥) الآناف : الأنوف .
(٦) قلادة : طوقاً .
(٧) القرط : الحلق .

هما لكَ يا أبا دَسمَة . . . هما لك . . .

احتفظ بهما فإنَّهما ثمينان .

ولما وضعت الحربُ أوْزَارَها[1] ، عُدْتُ مع الجيشِ إلى مكَّة فبرَّ لي جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ بما وَعَدني به وأَعْتَقَ رقبتي ، فَغَدَوْتُ حُراً . . .

***

لكنَّ أمرَ محمدٍ جَعَلَ يَنْمُو يَوْماً بعدَ يَوْمٍ وأخَذَ المسلمون يزدادون ساعَةً بعد ساعَـةٍ ، فكنتُ كُلَّما عـظُمَ أمرُ محمـدٍ عَظُم عليَّ الكـرْبُ وتمكَّنَ الجَزَعُ والخوفُ من نفسي .

وما زِلْتُ على حالي هذه ، حتَّى دَخَلَ محمدٌ مَكَّةَ بِجَيْشِهِ الجرارِ فاتِحاً .

عندَ ذلك وَلَّيتُ هارِباً إلىٰ الطائِفِ أَلْتَمِسُ فيها الأَمْنَ .

لـكنَّ أهلَ الطائِفِ ما لبثوا[2] كثيراً حَتَّى لانوا لِلإِسْلامِ ، وأَعَدُّوا وَفْداً منهم لِلِقَاءِ محمدٍ وإعلانِ دخولِهِمْ في دينِه .

عند ذلك سُقِطَ في يدي[3] ، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ وأَعْيَتْنِي[4] المذاهبُ ، فقلت :

أَلْحَقُ بالشّامِ ، أَوْ باليَمَنِ ، أو بِبَعْضِ البلادِ الأُخْرَىٰ .

فواللَّهِ إني لَفِي غَمْرَةِ هَمِّي[5] هذه إذ رَقَّ لي رجلٌ ناصِحٌ وقال :

وَيْحَكَ[6] يا وَحْشِيُّ ، إن محمداً ـ واللَّه ـ ما يَقْتُلُ أحداً من النَّـاسِ إذا

---

(١) وضعت الحرب أوزارها : توقَّفَتْ وهَدَأَتْ .
(٢) ما لبثوا كثيراً : ما تأخَّروا كثيراً .
(٣) سُقط في يدي : اشتدَّ ندمي وزادت حيرتي .
(٤) أعْيَتْني المَذَاهِب : سُدَّت في وجهي الطرق .
(٥) غمرة همي : شِدَّة كربي .
(٦) ويحك : ويْـلٌ لك ، وكثيراً ما تستَعملُ للترحم والتَّوَجُّع .

دَخَلَ في دينِه ، وتَشَهَّدَ بشَهادَةِ الحَقِّ[1].

فما إنْ سَمِعْتُ مَقالَتَه حتَّى خرجتُ مُيَمِّماً وجهي شطْرَ[2] يَثْرِبَ أبْتَغي محمداً ، فلما بَلَغْتُهَا تحسَّسْتُ أَمْرَه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ في المَسْجِدِ فَدَخَلْتُ عليه في خِفَّةٍ وحَذَرٍ ومَضَيْتُ نَحْوَه حتى صِرْتُ واقِفاً فَوْقَ رَأْسِه وقلت :

أشهد أن لا إلٰهَ إلاَّ اللّه وأن محمداً عبده ورسولُه .

فلما سَمِعَ الشَّهادتين رَفَعَ بصرَه إليَّ ، فلما عَرَفَني رَدَّ بَصَرَه عَنِّي وقال :

(أَوحْشِيٌّ أنت ؟!!)

قلت : نعم يا رسولَ اللّهِ .

فقال : (اقْعُدْ وحدِّثْني كيفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ) .

فَقَعَدْت فَحَدَّثْتُه خَبَره ، فلما فَرَغْتُ مِنْ حديثي ، أَشَاحَ[3] عني بِوَجْهِه وقال :

(ويحَك يا وَحْشِيُّ ، غيِّب وَجْهَكَ عَنِّي فلا أُرَيَنَّك بَعْدَ اليومِ . . .)

فكنْتُ مُنْذُ ذلك اليومِ أَتَجَنَّبُ أَنْ يَقَعَ بصرُ النبيِّ الكريم عَليَّ ؛ فإذا جَلَسَ الصَّحابَة قُبَالَتَه[4] أَخَذْتُ مكاني خَلْفَه .

وبقيت على ذلك حَتَّىٰ قُبِضَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلىٰ جوار ربه .

* * *

ثم أَرْدَفَ[5] وَحْشِيٌّ يقول : وعلىٰ الرَّغْمِ من أنِّي عَرَفْتُ بأنَّ الإِسْلامَ يجبُّ[6] ما قبلَه ، فقد ظللتُ أَستَشْعِرُ فَدَاحَةَ الفَعْلَةِ التي اجْتَرَحْتُها[7] ، وأَسْتَفْظِعُ

---

(١) شهادة الحق : شهادة أن لا إلٰه إلاَّ اللّه وأن محمداً رسولُ اللّه .

(٢) ميمماً وجهي شطر يثرب : مولياً وجْهِي ناحيةَ المدينَةِ .

(٣) أشاح عَنِّي بِوَجْهِه : أَعْرَضَ عني وأمال وَجْهَهُ .

(٤) قُبالَته : أمامَه .

(٥) ثم أَرْدف يقول : تابَعَ قَوْلَه .

(٦) يَجُبُّ ما قبله : يمحو ما قبله من الذنوب .

(٧) اجتَرَحْتُها : ارتكبتُها .

الرُّزْءَ[1] الجليلَ الذي رَزَأتُ به الإسلام والمسلمين ، وطَفِقْتُ أتحيَّنُ الفُرْصَةَ التي أكَفِّرُ بها عَمَّا سَلَفَ مِنِّي .

***

فلما لَحِقَ الرَّسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالرفيقِ الأَعْلَى ، وآلتِ خِلافَةُ المسلمينَ إلىٰ صاحِبه أبي بكرٍ ، وارتدَّتْ بنو حَنيفةَ أصحابُ مُسَيْلِمَةَ الكذابِ مع المرتدين ، جَهَّزَ خليفةُ رسولِ اللّهِ ﷺ جيشاً لحرب مسيلمةَ ، وإعادَةِ قَوْمِه بني حنيفةَ إلىٰ دِينِ اللّهِ.

فقلت في نفسي : إن هذه ـ واللّه ـ فرصتُك يا وحشي فاغْتَنِمْها ، ولا تَدَعْها تَفْلِتُ من يَديك .

ثم خرجت مع جيوشِ المسلمين ، وأَخَذْتُ مَعِي حَرْبَتِي الَّتي قَتَلْتُ بها سَيِّدَ الشهداءِ حمزةَ بنَ عبدِ المطَّلِبِ ، وآليْتُ على نَفْسي أَنْ أَقْتُلَ بها مُسَيْلِمَةَ أَوْ أَظْفَرَ بالشَّهادَةِ.

فلما اقتَحَمَ المسلمون على مسيلمةَ وجيشِه حديقَةَ المَوْتِ[2] ، والتحموا بأعداءِ اللّهِ ، جَعَلْتُ أَتَرَصَّدُ مُسَيْلِمَةَ ، فَرَأَيْتُهُ قائِماً والسيفُ في يدِه ، ورأيتُ رجلاً من الأَنْصارِ يَتَرَبَّصُ به مِثلَمَا أَتَرَبَّصُ أنا به : كِلانا يريدُ قَتْلَه . . .

فلما وقفتُ مِنْه مَوْقِفاً أَرْضاه ، هَزَزْتُ حَرْبَتي حَتَّى إذا استَقَامَتْ في يَدي دَفَعتُ بها نَحْوَه ، فوقعَتْ فيه . . .

وفي نَفْسِ اللحظةِ التي أَطْلَقْتُ بها حربتي على مسيلمةَ كان الأنصاريُّ يثِبُّ عليه ويَكيلُ له ضَرْبَةً بالسيف . . .

---

(١) الرزء الذي رزأت به الإسلام : المصيبَةَ التي أصبتُ بها الإسلام .
(٢) حديقَة الموت : الحديقة الكبيرَة التي لَجَأَ إليها مسيلمة وأتباعُه ، وسميت بذلك لكثرة من مات فيها من المرتدين .

فربُّك يعلم أيُّنا قَتَلَه .

فإن كنتُ أنا الذِي قتلتُه ؛ أكُنْ قد قتلت خيرَ الناس بعد محمد . . . وقتلتُ شرَّ الناسِ أيضاً . . . (*) .

(*) للاستزادة من أخبار وحشي بن حرب انظر :

١ ـ الإصابة (طبعة السعادة) : ٣١٥/٦ .

٢ ـ أسد الغابة : ٨٣/٥ ـ ٨٤ .

٣ ـ الاستيعاب (طبعة حيدر آباد الدكن) : ٦٠٨/٢ ـ ٦٠٩ .

٤ ـ التاريخ الكبير : ج ٤ ق ١٨٠/٢ .

٥ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ٥٤٦/٢ .

٦ ـ تجريد أسماء الصحابة: ١٣٦/٢ .

٧ ـ تهذيب التهذيب : ١١٣/١١ .

٨ ـ السيرة لابن هشام : انظر الفهارس .

٩ ـ مسند أبي داود ١٨٦ .

١٠ ـ الكامل لابن الأثير: ١٠٨/٢ .

١١ ـ تاريخ الطبري : (انظر الفهارس في العاشر) .

١٢ ـ إمتاع الأسماع : ١٥٢/١ ـ ١٥٣ .

١٣ ـ سير أعلام النبلاء : ١٢٩/١ ـ ١٣٠ .

١٤ ـ المعارف لابن قتيبة : ١٤٤ .

١٥ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢٥٢/١ .

حَكيم بن حِزام

(إن بمكَّةَ لأربعةَ نفر أربأُ بهِمُ عن الشِّرك
وأرغبُ لهُم في الإسلامِ . . . أحدهم حكيم بن حزام)
[محمد رسول اللّه]

هل أَتاك نبأ هـذا الصَّحابيِّ ؟!

لقـد سَجَّلَ التـاريـخُ أنَّـه المَـوْلـودُ الـوحيـدُ الـذي وُلِـدَ داخِـلَ الكعبـةِ المُعَظَّمَةِ . . .

أمَّا قِصَّةُ وِلادتِه هذه ، فخلاصتُها أَنَّ أُمَّه دَخلَتْ مع طائِفَةٍ من أَتْرَابها[1] إلى جَوْفِ الكعبةِ لِلتَفَرُّج عليها . . .

وكانت يومَئِذٍ مفتوحَةً لمناسَبَةٍ من المُنَاسَباتِ .

وكانت والدِتُه آنَذاك حامِلاً بِـه ، فَفَجأَهـا المَخَاضُ[2] وهي في داخـلِ الكعبةِ ؛ فلم تَسْتَطِعْ مغادَرَتها . . .

فَجِيءَ لها بِنِطْعٍ [3] فوضَعَتْ مَوْلودَها عليه . . .

وكان ذلك المَوْلودُ حكيمُ بنَ حَزَامِ بنِ خُوَيْلِدٍ . .

وهو ابنُ أخي أمِّ المؤمنينَ السَّيِّدَةِ خـديجةَ بِنْتِ خُـوَيْلِدٍ رضي اللّهُ عنها وأرضاها .

* * *

(١) أترابها : لداتها وصويحباتها . (٢) فجأها المخاض : أتاها الطَّلْقُ فجْأَةً . (٣) النطع : الجلد .

نَشَأ حكيمُ بنُ حَزامٍ في أُسْرَةٍ عريقَةِ النَّسَبِ[١] ، عَرِيضَةِ الجَاهِ واسِعَةِ الثراءِ .

وكان إلىٰ ذٰلك عاقلاً سَرِيًّا[٢] فاضلاً ؛ فَسَوَّدَه قَوْمُه[٣] ، وأناطوا به[٤] مَنْصِبَ الرِّفادَةِ[٥] .

فكان يُخْرِجُ من مالِه الخاصِّ ما يُرْفِدُ به المُنْقَطِعين من حُجَّاجِ بيتِ اللّٰهِ الحرامِ في الجاهِلِيَّةِ . .

وقد كان حكيمٌ صديقاً حميماً[٦] لِرَسولِ اللّٰهِ صَلواتُ اللّٰهِ وسلامُه عليه قبل أن يُبْعَث .

فهو وإنْ كان أكْبَرَ من النبيِّ الكريمِ بِخَمْسِ سَنَواتٍ ؛ إلَّا أنَّه كان يَأْلَفُهُ ، ويأنَسُ به ، ويَرْتاحُ إلَىٰ صُحْبَتِهِ ومجالَسَتِه . وكان الرسولُ ﷺ يُبادِلُه وِدًّا بِوِدٍّ وصداقةً بِصَدَاقَةٍ .

ثم جاءت آصِرَةُ القربَىٰ[٧] فَوَثَّقَتْ[٨] ما بَيْنَهُما من علاقَةٍ ، وذلك حين تَزَوَّجَ النبيُّ ﷺ من عَمَّتِهِ خديجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي اللّٰهُ عنها .

* * *

وقد تَعْجَبُ بَعْدَ كُلِّ الذي بَسَطْناه لَكَ مِنْ عَلاقَةِ حكيمٍ بالرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ إذا علمتَ أنَّ حكيماً لم يُسْلِمْ إلَّا يَوْمَ الفتحِ[٩] حَيْثُ كان قد مَضَىٰ على بَعْثَةِ الرسولِ صلواتُ اللّٰهِ وسلامُه عليه ما يزيد على عشرين عاماً ! !

---

(١) عريقة النسب : كريمة الآباء والأجداد .
(٢) السَّري : الشريف .
(٣) سوَّدَه قومُه : جعلوا له السِّيادة عليهم .
(٤) أناطوا به : أسندوا إليه .
(٥) الرفادَة : أحد مناصب قريشٍ في الجاهلية ، ويقوم صاحبه بمعونة المحتاجين والمنقطعين من الحجاج .
(٦) صديقاً حميماً : صديقاً متين الصداقة .
(٧) آصِرَة القربى : علاقة القُرْبَى .
(٨) وثَّقَتْ : قَوَّت ومَتَّنَتْ .
(٩) يوم الفتح : يوم فتح مكة .

فقد كان المَظْنونُ برجلٍ مثلِ حكيمِ بنِ حزامٍ حَبَاه اللّهُ[1] ذلك العقلَ الراجِحَ ، ويَسَّرَ له تلك القُرْبىٰ القريبةَ من النبيِّ صلواتُ اللّهِ عليه أَنْ يكونَ أوَّلَ المؤمنين به ، المُصَدِّقين لِدَعْوَتِهِ ، المُهْتَدينِ بِهَدْيه .

ولكنَّها مشيئةُ اللّه . . .

وما شاء اللّه كان . . .

* * *

وكما نَعْجَبُ نحن من تَأَخُّرِ إسْلامِ حكيمِ بنِ حَزَامٍ ، فقد كانَ يَعْجَبُ هو نفسُه من ذلك .

فهو ما كاد يدخُلُ الإسلامَ ويَتَذَوَّقُ حلاوَةَ الإيمانِ ، حَتَّىٰ جَعَلَ يَعَضُّ بَنانَ النَّدَمِ [2] على كُلِّ لحظةٍ قضاها من عُمُرِه وهو مُشْرِكٌ باللّهِ مُكَذِّبٌ لِنَبِيِّهِ .

فلقد رآه ابنُه بَعْدَ إسلامه يبكي ، فقال : ما يبكيكَ يا أبتاه ؟!

قال : أمورٌ كثيرةٌ كُلُّها أبكاني يا بُنَيَّ :

أولُها بُطْءُ إسلامي مما جَعلَني أُسْبَقُ إلىٰ مواطِنَ[3] كثيرةٍ صالحةٍ حتى لو أَنَّني أنفقتُ مِلْءَ الأرضِ ذهباً لما بَلَغْتُ شيئاً منها .

ثم إنَّ اللّه أنْجاني يومَ بدرٍ وأُحُدٍ فقلت يَوْمَئِذٍ في نفسي : لا أَنْصُرُ بَعْدَ ذلك قريشاً على رسولِ اللّهِ ﷺ ولا أَخْرُجُ من مكةَ ، فما لَبِثْتُ أَنْ جُرِرْت إلىٰ نُصْرَة قريشٍ جرًّا .

ثم إنني كنت كُلَّما هَمَمْتُ بالإسلامِ ، نظرتُ إلى بقايا من رِجالاتِ قريشٍ لهم أَسْنانٌ[4] وأقدارٌ مُتَمَسِّكين بما هم عليه من أَمْـرِ الجاهِلِيَّـةِ ، فأَقْتَـدِي بهم وأجاريهم . . .

---

(1) حباه اللّه : أعطاه اللّه .

(2) يعضُّ بنان النَّدَم : كناية عن شِدَّة النَّدَم .

(3) مواطن كثيرة : مواقف كثيرة .

(4) لهم أسنان : متقدمون في السِّنِّ .

ويا ليت أنِّي لم أَفْعَلْ . . .
فما أَهْلَكنا إلَّا الاقتِداءُ بآبائِنا وكبرائِنا . . .
فَلِمَ لا أبْكي يا بُنَيَّ ؟!!

* * *

وكما عجبنا نحنُ من تأخُّرِ إسلام حكيمِ بنِ حَزَامٍ ، وكما كان يعجب هو نفسُهُ من ذلك أيضاً ، فإنَّ النبيَّ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه كان يَعْجَبُ من رجلٍ له مِثْلُ حِلْمٍ [١] حكيمِ بنِ حَزَامٍ وَفَهْمِهِ ، كيف يَخْفَىٰ عليه الإسلامُ وكان يَتَمَنَّىٰ له وللنَّفَرِ[٢] الذين هم على شاكِلَته[٣] أَنْ يُبادِروا إلى الدُّخولِ في دينِ اللّهِ .

ففي الليلةِ التي سَبَقَتْ فَتْحَ مَكَّةَ قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه :

(إن بمكّة لأربعةَ نفرٍ أَرْبأُ[٤] بهم عن الشِّرْكِ ، وأَرغَبُ لهم في الإسلام) ، قيل :

ومن هم يا رسولَ اللّهِ ؟

قال :(عتَّابُ بنُ أَسَيْدٍ ، وجُبَيْر بنُ مُطْعِمٍ ، وحكيمُ بنُ حَزَامٍ ، وسُهَيْلُ بنُ عمرٍو) .

ومن فضل اللّه عليهم أنّهم أسلموا جميعاً . . .

* * *

وحينَ دَخلَ الرسولُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه مَكَّةَ فاتِحاً أبَىٰ إلَّا أن يكرِّم حكيمَ بنَ حَزامٍ فَأَمَرَ منادِيَه أَنْ ينادِيَ :

من شهد أَنْ لا إِلٰهَ إلّا اللّه ، وحْدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه فهو آمِنٌ . . .

---

(١) الحِلْمُ : العَقْل .
(٢) النَّفر : الجماعة .
(٣) على شاكلته : على طريقته .
(٤) أربأ بهم عن الشرك : لا أرضاه لهم ولا أجدهم أهلاً له .

ومن جَلَسَ عندَ الكعبةِ فَوَضَعَ سلاحَه فهو آمن . .

ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . . .

ومن دخل دارَ أبي سفيانَ فهو آمن . . .

ومن دخل دارَ حكيمِ بنِ حَزامٍ فهو آمن . . .

وكانت دارُ حكيمِ بنِ حَزَامٍ في أسفلِ مكةَ ودارُ أبي سُفْيانَ في أعلاها .

* * *

أسلم حكيمُ بنُ حَزَامٍ إسلاماً مَلَكَ عليه لُبَّهُ وآمن إيماناً خالَطَ دَمَهُ ومازَجَ قَلْبَهُ . . .

وآلىٰ[1] على نَفْسِه أَنْ يكفِّرَ عن كلِّ موقفٍ وَقَفَه في الجاهليةِ ، أو نَفَقَةٍ أَنْفَقَها في عَداوَةِ الرسولِ بأمثالِ أمثالِها .

وقد بَرَّ بقسمه . . .

من ذلك أنَّه آلت إليه[2] دارُ النَّدْوةِ وهي دارٌ عريقَةٌ ذاتُ تاريخٍ . . .

ففيها كانت تَعْقِدُ قُرَيشٌ مؤتمراتِها في الجاهلية ، وفيها اجتمَعَ سادتُهم وكبراؤهم ليأتمروا برسولِ اللّه[3] ﷺ .

فأراد حكيمُ بنُ حَزَامٍ أن يتخلَّصَ منها ـ وكأنَّه كان يُريدُ أن يُسْدِلَ سِتاراً من النِّسْيانِ على ذلك الماضِي البغيضِ ـ فباعَها بمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فقال له قائِلٌ من فِتْيانِ قريش :

لقد بِعتَ مَكْرُمَةَ[4] قُرَيْشٍ يا عَمّ .

فقال له حكيم : هَيْهاتَ[5] يا بني ، ذَهَبَتِ المكارِمُ كلُّها ولم يَبْقَ إلاَّ

---

(١) آلى على نفسه : قطع عهداً على نَفْسِه .

(٢) آلت إليه : أصْبَحَتْ في مُلْكِه .

(٣) ليأتمروا برسول اللّه : ليتآمروا على قَتْلِه .

(٤) مكرمة قريش : يريد الدار التي بقيت من آثار قريش .

(٥) هيهات : لقد بَعُدْتَ عن الصواب .

التَّقْوىٰ ، وإني ما بِعْتُها إلَّا لأشْتَرِي بثمنها بيتاً في الجنة . . .

وإني أُشْهدُكُم أَنَّني جَعَلْتُ ثمنَها في سبيلِ اللّه عَزَّ وجل .

* * *

وحجَّ حكيمُ بنُ حَزام بَعْدَ إسْلامِه ، فَسَاقَ أمامَه مائةَ ناقةٍ مُجَلَّلةٍ بالأثوابِ الزاهيةِ ثم نَحَرَهَا جميعَها تقرُّباً إلىٰ اللّه . . .

وفي حجَّةٍ أُخْرَىٰ وَقَفَ في عرفات ، ومعَه مِائةٌ من عبيدِه وقد جَعَلَ في عُنُقِ كلِّ واحدٍ منهم طَوْقاً من الفِضَّةِ ، نَقَشَ عليه :

عُتَقَاءُ للّهِ عَزَّ وَجَلَّ عن حكيمِ بنِ حَزَام .

ثم أَعْتَقَهُم جميعاً . . .

وفي حجَّةٍ ثالثَةٍ ساقَ أمَامَه ألفَ شاةٍ ـ نعم أَلْف شاةٍ ـ وأراق دَمَها كلَّها في مِنىً ، وأَطْعَم بلُحومِها فقراءَ المسلمين تَقَرُّباً للّهِ عزَّ وجلَّ .

* * *

وبعد غزوةِ حُنَيْن سأَلَ حكيمُ بنُ حَزَام رسولَ اللّهِ ﷺ من الغنائم فأعطاه ، ثم سأَلَهُ فأعطاه ، حتىٰ بلغَ ما أَخَذَه مائةَ بعير ـ وكان يومَئِذٍ حديثَ إسلام ـ فقال له الرسولُ صلوات اللّه وسلامه عليه :

(يا حكيم : « إن هذا المَالَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ[١] . . .

فمن أَخَذَه بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ[٢] بُورِكَ له فيهِ . . .

ومن أخَذَه بإشْرافِ نَفسٍ[٣] لم يُبَارَكْ له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يَشْبَعُ .

واليَدُ العُلْيَا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَىٰ) .

---

(١) حلوة خضرة : حُلْوٌ محبَّبٌ للنفس .   (٢) بسخاوة نفس : بقناعة .   (٣) بإشراف نَفْسٍ : بطمع .

فلما سَمِعَ حكيمُ بنُ حَزَامٍ ذلك من الرسولِ عليه الصلاة والسلام قال :

يا رسولَ اللّهِ ، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أَسْأَلُ أحداً بَعْدَكَ شيئاً . . .

ولا آخُذُ من أَحَدٍ شيئاً حتى أفارقَ الدنيا . . .

وبَرَّ حكيمٌ بِقَسَمه أَصْدَقَ البِرِّ .

ففي عهدِ أبي بكرٍ دعاه الصديقُ أكْثَرَ من مَرَّةٍ لأخْذِ عَطائه[1] من بيتِ مالِ المسلمين فأبىٰ أَنْ يأخُذَه . . .

ولما آلت الخلافةُ إلىٰ الفاروقِ دعاه إلىٰ أَخْذِ عطائِه فأَبَىٰ أن يَأْخُذَ منه شيئاً أيضاً . . .

فقام عمرُ في الناسِ وقال : أُشْهِدُكُمْ يا مَعْشَرَ المسلمين أني أدْعو حكيماً إلى أَخْذِ عطائِه فيأبىٰ .

وظل حكيمٌ كذلك لم يَأْخُذْ من أحدٍ شيئاً حتىٰ فارق الحياة(*) . . .

---

(١) لأخذ عطائه : لأخذ حقّه من بيت المال .

(*) للاستزادة من أخبار حكيم بن حَزَام انظر :

١ ـ الاستيعاب : ١/٣٦٨ .

٢ ـ الإصابة : ١/٣٢٧ .

٣ ـ الملل والنحل : ١/٢٧ .

٤ ـ الطبقات الكبرى : ١/٢٦ .

٥ ـ سير أعلام النبلاء : ٣/١٦٤ .

٦ ـ زعماء الإسلام : ١٩٠ ـ ١٩٦ .

٧ ـ حماة الإسلام : ١/١٢١ .

٨ ـ تاريخ الخلفاء : ١٢٦ .

٩ ـ صفة الصفوة : ١/٣١٩ .

١٠ ـ المعارف : ٩٢ ـ ٩٣ .

١١ ـ أُسْدُ الغابة : ٢/٩ ـ ١٥ .

١٢ ـ محاضرات الأدباء : ٤/٤٧٨ .

١٣ ـ مروج الذهب : ٢/٣٠٢ .

عبَّاد بن بِشر

« ثلاثةٌ مِنَ الأَنصَار لم يَكن أحَدُ يسْمو عَليهم فضلاً : سَعدُ بنُ معَاذٍ ، وَأسيدُ بنُ الحُضيرِ وعبَّاد بنُ بِشْرٍ »

[عائشة أمّ المؤمنين]

عَبّاد بنُ بِشْرٍ اسمٌ وَضيءُ مُشْرقٌ في تاريخِ الدَّعْوَةِ المحمديَّةِ . . .

إن نَشَدْتَهُ[١] بين العُبَّادِ وَجَدْتَه التَّقِيَّ النقِيَّ قوَّامَ الليلِ بأجْزاءِ القرآن .

وإن طلبتَه بينَ الأَبطالِ أَلْفَيْتَه[٢] الكميَّ الحَمِيَّ[٣] خوَّاضَ المعارِكِ إعلاءً لكلمة اللَّهِ . . .

وإن بحثْتَ عنه بين الوُلاةِ رأيتَه القويَّ المُؤْتَمَن على أموالِ المسلمين . . . .

حتى قالت عائشة فيه وفي اثنين آخَرَيْنِ من بني قومِه : ثلاثةٌ من الأنصار لم يكنْ أحَدُ يَسْمو عليهم فضلاً كُلُّهُمْ من بني عبد الأشهَلِ : سعدُ بنُ معاذٍ ، وأُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ ، وَعَبَّاد بنُ بشر .

* * *

كان عبادُ بن بشرٍ الأشهليُّ حينَ لاحَ[٤] في آفاقِ يَثْرِبَ أَوَّلُ شُعَاعٍ من أَشِعَّةِ الهداية المحمدية فَتىً موفورَ الشبابِ ، غَضَّ الإهَابِ ، تَعْرِفُ في وَجْهه نُضْرَةَ

---

(١) نشدته : طلبته.

(٢) ألفيتَه : وجدته .

(٣) الكمي الحمي : الشجاع المحامي .

(٤) لاح : بدا وظهر.

العَفاف والطُّهْرِ ، وتلمَحُ في تَصَرُّفاتِه رَزَانَةَ[1] الكهولِ ؛ على الرغم من أنَّه لم يكن إذْ ذاك قد جاوز الخامسةَ والعشرين من عمره السعيد .

* * *

وقد اجتمع إلى الداعِيَةِ المكيِّ الشابِّ مُصْعَبِ بـنِ عُميرٍ فَسْرعان ما أَلَّفَتْ بَيْن قلبيهما أواصِرُ[2] الإيمانِ ، ووحَّدَتْ بين نفسَيْهِمـا كريمُ الشَّمـائِلِ ونبيـلُ الخصائِلِ .

وقد استمع إلى مُصْعَبٍ وهو يرتِّلُ القرآن بصوتِه الفضِّيِّ الدافِيء ، وَنَبْرَتِهِ الشَّجِيَّةِ الآسِرَةِ فشُغِفَ بكلامِ اللَّهِ حبًّا[3] ، وأفْسَحَ له في سُوَيداء فؤادِه مكاناً رحْباً ، وجَعَلَهُ شُغْلَهُ الشاغِلَ فكان يُردِّدُه فـي ليلِه ونهارِه ، وحِلِّه وتَرحاله ، حتى عُرف بين الصحابة بالإمامِ ، وصديقِ القرآن .

* * *

وقد كان الرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه يَتَهَجَّدُ[4] ذاتَ ليلةٍ في بيتِ عائِشَةَ الملاصِقِ لِلْمَسْجدِ ، فسمع صوتَ عَبَّاد بنِ بشرٍ وهو يقرأ القرآنَ رَطْباً نَدِياً كما نَزَلَ به جِبْرِيلُ على قلبِهِ فقال : (يا عائشة : هذا صوت عبادِ بن بشرٍ؟!)

قالت : نعم يا رسولَ اللَّه .

قال : (اللَّهُمَّ اغفِرْ له) .

* * *

شَهِدَ عبَّادُ بنُ بشرٍ مَعَ الرسولِ صلواتُ اللَّهِ عليه مشاهِدَه كلَّها ، وكان له في كُلٍّ منها مَوْقِفٌ يَليقُ بحامِلِ القرآن . . .

من ذلك أَنَّ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ عليه لما قَفَلَ عائداً من غَزْوَةِ ذاتِ الرِّقاع

---

(١) رزانة الكهول : رصانتهم وعقلَهم .

(٢) أواصر الإيمان : روابط الإيمان.

(٣) شغف به حباً : أحبه حباً عميقاً مَسَّ شِغَافَ قَلْبِه .

(٤) يتهجّد : يتعبد في الليل .

نَزَل بالمسلمين في شِعْبٍ من الشِّعابِ لِيَقضُوا ليلَتهم فيه .

وكان أَحَدُ المسلمين قد سَبَى ـ في أثْنَاءِ الغَزْوَةِ ـ امرأةً من نساء المشركين في غَيْبَةٍ من زَوْجِها ، فلما حَضَرَ الزوْجُ ـ ولم يجد اِمرأتَه ـ أَقْسَمَ باللاَّتِ والعُزَّى لَيَلْحَقَنَّ بمحمدٍ وأصحابه وألاَّ يعودَ إلا إذا أراقَ منهم دماً .

* * *

ما كاد المسلمون يُنِيخون رَوَاحِلَهُم في الشِّعْبِ حتى قال لهم الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه :

(من يحرُسنا في ليلتنا هذه ؟)

فقام إليه عَبَّادُ بنُ بشْرٍ ، وعمَّارُ بنُ ياسرٍ وقالا : نحن يا رسول اللَّهِ ، وقد كان النبي آخىٰ بينَهما حينَ قَدِمَ المهاجرون على المَدينة .

فلما خَرَجا إلى فَمِ الشِّعْبِ قال عبادُ بنُ بِشْرٍ لأخيه عمارِ بنِ ياسِرٍ :
أيُّ شَطْرَيْ الليلِ تُؤْثِرُ أَنْ تَنَامَ فيه : أوَّله أمْ آخِره ؟
فقال عمارٌ : بل أنامُ في أَوَّله ، واضْطَجَعَ غيرَ بعيدٍ عنه .

* * *

كان الليلُ ساجياً هادِئاً وادِعاً ، وكان النجمُ والشجرُ والحَجَر تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّها وتُقَدِّس لـه ، فتاقَتْ نَفْسُ عَبَّـادِ بن بشرٍ إلى العِبَـادَةِ ، واشتاقَ قلبُـه إلى القرآن .

وكان أَحْلَى ما يحلو له القرآنُ إذا رتَّله مُصَلياً فيجمعُ مِتعَةَ الصَّلاةِ إلى مِتْعةِ التِّلاوةِ .

فتوجَّه إلى القِبْلَةِ ودَخَلَ في الصلاة وطفِقَ يَقْرأُ من سورةِ الكَهْفِ بصوته الشجيِّ النديِّ العذب .

وفيما هو سابحٌ في هذا النورِ الإلٰهي الأَسْنَى غارِقٌ في لألاءِ ضِيَائِه ؛ أَقبلَ الرّجُلُ يَحُثُّ الخُطى[1] فلمَّا رأى عباداً من بعيد منتصِباً على فم الشِّعْبِ عَرَف أَنَّ النبيَّ وصَحبَه بداخِلِه وأَنَّه حارسُ القوم ؛ فَوَتَرَ قَوْسَهُ ، وتناول سَهْماً من كِنَانَتِهِ ورماه بِهِ فَوَضَعَه فيه .

فانتزعَه عبادٌ من جَسَدِه ومضى متدفِّقاً في تِلاوَتِه غارِقاً في صلاتِه . . .

فرماه الرجل بآخَرَ فَوَضَعَهُ فيه ؛ فانتَزَعه كما انتزَعَ سابِقَه ، فرماه بثالث ، فانْتَزَعه كما انتزع سابِقَيْه ، وزَحَفَ حتى غدا قريباً من صاحِبِه وأيْقَظَه قائـلاً : انْهَضْ فقد أَثْخَنَتْني[2] الجِراحُ .

فلما رآهما الرجل وَلَّى هارِباً .

* * *

وحانت التفافةٌ من عمارٍ إلى عبَّادٍ فرأى الدّماءَ تَنْزِفُ غزيـرةً من جِراحِـه الثَّلاثَةِ فقال له :

يا سبحان اللَّهِ هَلاَّ أيْقَظْتَني عندَ أوَّلِ سَهْمٍ رماك به ؟!

فقال عَبَّاد : كنتُ في سُورةٍ أقرأُها فلم أُحِبَّ أن أقْطَعها حتَّىٰ أفْرَغَ منها . وأَيْمُ اللَّه لولا خوفي من أن أُضَيِّعَ ثَغْراً أَمَرَني رسولُ اللَّهِ ﷺ بِحفْظه لكان قَطْعُ نَفْسِي أَحَبَّ إليَّ من قطعِها .

* * *

ولما نشِبت[3] حروبُ الـرِّدَّة على عَهْدِ أبي بكـرٍ رضي اللَّه عنه ، جَهَّـزَ الصديقُ جيشاً كثيفاً للقضاءِ على فِتْنَةِ مسيلمَة الكـذَّابِ ، وإخضاعِ المُـرْتَدِّينَ

---

(١) أقبل الرجل يحث الخطى : أقبل الرجل مُسْرعاً .

(٢) أثخنتني الجراح : أضعفتني وأَوْهَنَتْ قوتي .

(٣) نشبت الحرب : ثارت الحربُ .

الذين ظاهروه ، وإعادَتِهم إلىٰ حظيرَةِ الإسلام ، فكان عَبَّادُ بنُ بشرٍ في طليعةِ ذلك الجيش .

وقد رأى عبادٌ ـ خلال المعارك التي لم يحقق المسلمون فيها نصراً يُذْكَرُ ـ من تَواكُلِ الأنصارِ على المهاجرين، وتواكُلِ المهاجرين على الأنْصَارِ ـ ما شَحَنَ[1] صَدْره أسىً وغيظاً ، وسَمِع من تَنابُزِهِم[2] ما حَشَا سَمْعَه جَمراً وشوكاً، فَأَيْقَنَ أَنَّه لا نجاحَ للمسلمين في هذه المعارِكِ الطاحِنَةِ إلَّا إذا تَمَيَّزَ كُلٌّ من الفريقين عن الآخرِ لِيَتَحَمَّلَ مَسْؤُوليته وَحْدَه . . .

ولِيُعْلَمَ المجاهدونَ الصَّابرون حقّاً .

***

وفي الليلةِ التي سَبَقَتْ المَعْرَكَةَ الحاسِمَةَ رأى عَبَّادُ بنُ بشرٍ فيما يراه النائِمُ أَنَّ السماءَ انفرَجَتْ له ، فلمَّا دَخلَ فيها ضَمَّتْهُ إليها وأَغْلَقَتْ عليه بابَها . . .

فلما أَصْبَحَ حَدَّثَ أبا سعيدٍ الخُدْريَّ برُؤياه ، وقال : واللَّهِ إنها الشهادةُ يا أبا سعيد .

***

فلما طلع النهارُ واستُؤْنِفَ القِتالُ علا عبادُ بنُ بشرٍ نَشَزاً[3] من الأرضِ وجَعَلَ يصيح : يا مَعْشَرَ الأنصار تَمَيَّزوا من الناسِ . . . واحْطِموا جُفونَ[4] السيوفِ . . .

ولا تتركوا الإسلامَ يُؤْتَى من قِبَلِكُمْ[5] . . .

وما زال يردِّد ذلك النِّداءَ حتى اجتمعَ عليه نحو اربعمِائةٍ منهم على رأسِهم

---

(1) شحن صدره: ملأ صدره .
(2) تنابُزهم: تعيير بَعْضهم لبعْض .
(3) نَشزاً من الأرض : مكاناً مرتفعاً من الأرض .
(4) جفون السيوف : أغماد السيوف .
(5) يُؤْتَى من قِبَلِكُم : يصابُ من ناحيتكم .

ثابِتُ بنُ قَيْسٍ ، والبراءُ بنُ مالِكٍ ، وأبو دُجَانَةَ صاحب سيفِ رسولِ اللَّهِ .

ومضى عَبَّادُ بنُ بشرٍ بمن معه يَشُقُّ الصفوفَ بسَيْفِهِ ويَلْقى الحُتُوفَ[1] بصَدْرِه ، حتى كُسِرَت شَوْكَةُ مسيلمَة الكذابِ ومن معه وأُلجِئوا إلى حديقةِ الموتِ .

وهناك عِنْدَ أسوارِ الحديقةِ سَقَط عَبَّادُ بنُ بِشْرٍ شهيداً مضرَّجاً بدمائه . . .

وفيه ما فيه من ضَرَباتِ السيوفِ وطعناتِ الرّماحِ وَوَقْعِ السهام .

حتى إنَّهم لم يعرفوه إلّا بعلامَةٍ كانَت في جَسَدِه(*) .

---

(١) الحتوف : جمع حتف وهو الموت والهلاك .

(*) للاستزادة من أخبار عباد بن بشر انظر :

١ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ١/ ٣٧٠ .

٢ ـ تهذيب التهذيب : ٥/ ٩٠ .

٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣/ ٤٤٠ .

٤ ـ المُحَبَّر في التاريخ : ٢٨٢ .

٥ ـ سير أعلام النبلاء : ١/ ٢٤٣ .

٦ ـ حياة الصحابة : ١/ ٧١٦ وانظر الفهارس .

«فمن للقوافي بَعدَ حسَّانَ وابنِهِ
وَمَن للمعَاني بَعدَ زيْدِ بنِ ثابتِ»
[حسّان بن ثابت]

نحن في السنةِ الثانيةِ للهجرةِ .

ومدينةُ رسـولِ اللّه صلواتُ اللّهِ وسلامُـه عليه يمـوجُ بعضُها يـوْمَئِذٍ في بعضٍ (١) استعداداً لبدر .

والنبيُّ الكريمُ يُلْقي النظراتِ الأخيرةَ على أوَّلِ جيشٍ يَتحَرَّكُ تَحْتَ قيادَتِه للجهادِ في سبيلِ اللّه وتَثْبيتِ كلمتِه في الأرضِ .

وهنا أقبَلَ على الصفوفِ غلامٌ صغيرٌ لم يُتِمَّ الثالثَةَ عشْرةَ من عمره ، يَتوَهَّجُ ذكاءً وفطنةً . . .

ويتألَّق نجابةً(٢) وحَميَّةَ . . .

وفي يَدِه سيفٌ يساويه في الطول أو يزيدُ عنه قليلاً ، ودنا من رسولِ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه وقال :

جُعِلتُ فداكَ يا رسولَ اللّه ، اِئذَنْ لي أَنْ أكونَ مَعَكَ وأجاهِدَ أعداءَ اللّهِ تحتَ رايَتِكَ .

فنظر إليه الرسولُ الكريمُ نظرةَ سرورٍ وإعجاب ، ورَبَّتَ(٣) على كتفه بِرِفْقٍ

---

(١) يموج بعضها في بعض : يزدَحِمُ فيها النَّاسُ .
(٢) نجابة : ذكاءٌ وفِطنَة .
(٣) ربَّتَ على كتفه : ضرب بيدِه على كتفه بلين .

وودٍّ ، وطيَّبَ خاطِرَه ، وصَرَفَه لصِغَرِ سِنِّه .

* * *

عادَ الغلامُ الصَّغيرُ يُجَرْجِرُ سيفَه على الأرض أسوانَ[1] حزيناً ؛ لأنه حُرِمَ من شَرفِ صُحْبَةِ رسولِ اللّهِ في أولِ غزوةٍ يغزوها .

وعادَتْ من ورائِه أمُّه النَّوارُ بنتُ مالكٍ وهي لا تَقِلُّ عنه أسىً وحزناً .

فقد كانت تتمنَّىٰ أن تكْتَحِلَ عيناها برؤيةِ غلامِها ، وهو يَمْضي مَعَ الرِّجالِ مجاهداً تحتَ رايَةِ رسولِ اللّهِ .

وكانت تَأْمُلُ في أن يَحْتَلَّ المكانَةَ التي كان من المُنْتَظَرِ أَنْ يَحظىٰ بها أبوه لدىٰ الرسولِ لو أنَّه ظَلَّ علىٰ قَيْدِ الحياة .

* * *

لكنَّ الغلامَ الأنْصارِيَّ حين وجد أنَّه قد أَخْفَقَ[2] في أنْ يَحْظَى بالتَّقَرُّبِ إلى رسول اللّهِ في هذا المجالِ لصِغَرِ سِنِّه ، تَفَتَّقَتْ فِطْنَتُه عن مجالٍ آخَرَ - لا علاقَةَ له بالسن - يُقَرِّبُه من النبيِّ صلواتُ اللّهِ عليه ويُدْنيه إليه .

ذلك المجالُ هو مجالُ العلم والحِفْظ . . .

فَذَكَرَ الغُلامُ الفِكْرَةَ لأُمِّه فَهَشَّتْ لها وبَشَّتْ[3] ونَشِطَتْ لِتَحقيقِها .

* * *

حَدَّثَتِ النَّوارُ رجالاً من قومِهم برَغْبَةِ الغلام ؛ وذَكَرَتْ لَهُمْ فِكْرَتَهُ . . .

فَمَضَوْا به إلىٰ رسولِ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه وقالوا :

يا نَبِيَّ اللّهِ ، هذا ابْنُنا زيدُ بنُ ثابتٍ يَحفَظُ سبعَ عشرةَ سورةً من كتابِ

---

(١) أسوان : شديد الأسى والحزن .

(٢) أخفق : لم ينجح .

(٣) هشَّت وبَشَّت : سُرَّت وفَرِحَتْ .

اللّهِ ، ويَتْلوها صحيحةً كما أُنْزِلَتْ على قلبك .

وهو فوقَ ذلك حاذِقٌ يجيدُ الكِتابَةَ والقراءةَ . وهو يريدُ أَنْ يَتَقَرَّبَ بذلك إليك وأَنْ يَلْزَمَكَ . فاسْمَعْ منه إذا شِئْتَ . .

* * *

سمِعَ الرسولُ الكريمُ من الغلام زيدِ بنِ ثابتٍ بعضاً مما يَحْفَظُ ، فإذا هو مُشْرِق[1] الأداءِ ، مُبينُ[2] النُّطقِ . . .

تَتَلأْلأُ كلماتُ القرآنِ على شفتيه كما تَتَلأْلأُ الكواكبُ على صَفْحَةِ السماء . . .

ثم إن تلاوَتَه تَنُمُّ على تأَثُّرٍ بما يتلو . . .
وَوَقَفاتُه تَدُلُّ على وَعْيٍ لما يقرأُ وحُسْن فهم . . .

فسُرَّ به الرسولُ الكريمُ إذْ وَجَدَه فوقَ ما وصفوه ، وزادَه سروراً به إتقانُه لِلكتابة .

فالْتَفَتَ إليه النبيُّ الكريمُ وقال: (يا زيدُ ، تَعَلَّمْ لي كتابَةَ اليهودِ[3] ، فإني لا آمَنُهم على ما أقول) .
فقال : لَبَّيْكَ[4] يا رسولَ اللّهِ .

وأَكَبَّ[5] من تَوِّه[6] على العِبْرِيَّة حتى حَذَقَها[7] في وقْتٍ يَسيرٍ ، وجعل يَكْتُبُها لرسولِ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه ، إذا أرادَ أن يكتبَ لليهودِ ، ويقرؤها له إذا هُمْ كتبوا إليه .

---

(١) مُشْرِق الأداء : بديع الإلقاء وَضَّاء التِّلاوة .
(٢) مبين النطق : فصيح النطق .
(٣) كتابة اليهود : العبرية .
(٤) لبيك : سمعاً وطاعة وإجابة لأمرك .
(٥) أكب على العبرية : عكف على تعلم العبرية .
(٦) من تَوِّه : فوراً .
(٧) حذقها : أتقنها .

ثم تَعَلَّمَ السُّرْيانِيَّة[1] بأمرٍ منه ـ عليه الصَّلاةُ والسّلامُ ـ كما تعلم العبرية .

فأصبح الفَتى زيدُ بنُ ثابتٍ تَرْجُمانَ رَسولِ اللّهِ ﷺ .

***

ولما استَوْثَقَ[2] النبيُّ صلواتُ اللّهِ عليه من رَصَانَةِ زيدٍ وأمانتِهِ، ودِقَّتِهِ وفهمِهِ اِئْتَمَنَهُ على رسالةِ السماء إلى الأرض ، فجعله كاتباً لِوَحْيِ اللّهِ . . .

فكان إذا نَزَلَ شيءٌ من القرآنِ على قلبِه ، بَعَثَ إليه يدعوه وقال: (اكتب يا زيدُ) ، فيكتب .

فإذا بِزَيدِ بنِ ثابتٍ يَتَلَقَّىٰ القرآنَ عن رسولِ اللّهِ ﷺ ، آناً[3] فآناً فينمو مع آياته . . .

ويأخذُهُ رَطْباً طرِيًّا من فمِهِ مَوْصولاً بأسبْابَ نُزولِه ، فَتُشْرِقُ نفسُه بـأنوارِ هِدَايتهِ . . .

ويستنيرُ عَقْلُهُ بِأَسْرَارِ شريعَتِهِ . . .

وإذا بالفتَى المحظوظِ يَتَخَصَّصُ بالقرآن ، ويغدو المَرْجِعَ الأوَّلَ فيه لِأُمَّةِ محمدٍ بعد وفاةِ الرسولِ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه .

فكان رَأْسَ من جمعوا كتابَ اللّهِ في عَهْدِ الصِّدِّيقِ .

وطليعةَ من وَحَّدُوا مَصَاحِفَهُ في زَمَن عثمان .

أَفَبَعْدَ هذه المنزِلَةِ منزلةٌ تسمو إليها الهِمَمُ ؟!

وهَلْ فَوقَ هذا المَجْدِ مجدٌ تَطْمَحُ إليه النفوسُ ؟!

***

---

(١) السريانية : إحْدَى اللغات السامية وكانت منتشرة بين طوائف من الناس .

(٢) استوثق : تأكَّد واطمأنَّ .

(٣) آناً فآناً : شيئاً فشيئاً ووقتاً بعد وقت .

وقد كان من فَضْلِ القرآن على زيدِ بن ثابتٍ أن أنارَ له سُبُلَ الصَّوابِ في المواقف التي يَحَارُ فيها أولو الألْبَاب[1]. ففي يوم السَّقيفَةِ[2] اخْتَلَفَ المسلمونَ فيمن يَخْلِفُ رسولَ اللّهِ صلواتُ اللّهِ عليه :

فقال المهاجرون : فينا خِلافَةُ رسولِ اللّهِ ونحنُ بها أَوْلَى .

وقال بعضُ الأنصار : بل تكونُ الخلافةُ فينا ونحنُ بها أجدرُ .

وقال بعضهم الآخَرُ : بل تكونُ الخِلافَةُ فينا وفيكم معاً . . .

فقد كان رسولُ اللّه صلواتُ اللّه عليه وسلامُه إذا اسْتَعْمَلَ واحداً مِنْكُمْ على عَمَلٍ قَرَنَ معه[3] واحداً منّا .

وكادت تَحْدُثُ الفِتْنَةُ الكُبْرَى ، ونبيُّ اللّهِ ما زالَ مُسَجّىً بين ظهرانيهم[4] لم يُدْفَنْ بَعْدُ .

وكان لا بُدَّ من كلمةٍ حاسِمَةٍ حازِمَةٍ رَشيدةٍ مُشرِقةٍ بِهَدْيِ القرآنِ تَئِدُ الفتنةَ في مَهْدِها[5] ، وتنيرُ للحائرين الطريقَ .

فانطلقت هذه الكلمةُ من فَم زيدِ بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ .

إذ التفتَ إلى قَوْمِه وقال : يا معشرَ الأنصار : إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان من المهاجرين ، فيكونُ خليفتُه مهاجِراً مثلَه .

وإنَّا كنا أنصارَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، فنكونُ أنصاراً لخليفتِه من بعدِه وأعواناً له على الحَقِّ .

---

(١) أولو الألباب : أصحاب العقول .

(٢) السقيفة : هي سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع المسلمون بعد وفاة الرسول ليتفاوضوا في شأن الخلافة .

(٣) قرن معه : جَمَعَ معه وضمَّ إليه .

(٤) مسجىً بين ظهرانيهم : مُغطًّى لم يُدْفنْ بَعْدُ .

(٥) تَئِدُ الفتنة في مهدها : تدفنها وهي ما زالت صغيرة .

ثم بَسَطَ[1] يَدَه إلى أبي بكر الصدِّيق وقال : هذا خليفتُكُم فبايعوه .

* * *

وقد غدا زيدُ بنُ ثابتٍ بفضلِ القرآن وتفقُّهِهِ فيه وطولِ ملازَمَتِهِ لرسولِ اللّه ﷺ منارَةً[2] للمسلمين : يستشيره خلفاؤهم في المَعْضِلاتِ[3] ، ويَسْتَفْتِيهِ عامَّتُهم في المشْكِلات ، ويرجعون إليه في المواريثِ خاصَّة ؛ إذْ لم يكن بينَ المسلمين - إذْ ذاك - من هو أعلمُ منه بأحكامِها وأَحْذَقُ منه في قِسْمَتِها ؛ فقد خَطَبَ عمرُ رضوانُ اللّهِ عليه في المسلمينَ يومَ الجابيةِ[4] فقال :

أيُّها الناس ؛ من أراد أن يسْألَ عن القرآنِ فَلْيَأْتِ زيدَ بنَ ثابتٍ . . .

ومن أراد أن يسأل عن الفِقْهِ فليأتِ مُعاذَ بنَ جبل . . .

ومن أراد أن يسأل عن المالِ فليأتِ إليَّ ، فإنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلني عليه والياً ، وله قاسِماً . . .

* * *

ولقد عَرَف طلابُ العِلْم من الصحابَـةِ والتابعين لِـزَيْدِ بنِ ثـابتٍ قَدْرَه ، فَأَجَلُّوه ، وعَظَّمُوه لما وَقَرَ[5] في صَدْرِهِ من العلم .

فها هو ذا بَحْرُ العِلْمِ عبدُ اللّه بنُ عَبَّاسٍ[6] يَرَى زيـدَ بنَ ثابتٍ قـد هَمَّ بركوب دابَّتِهِ ، فَيَقِفُ بينَ يديه ، ويُمْسِكُ له بركابِهِ ، ويأخذ بزِمامِ دابَّتِهِ .

---

(١) بَسَطَ يده : مَدَّ يده .

(٢) منارة : مرشداً للمسلمين وهادياً لهم .

(٣) المعضلات : الأمور التي يصعب حلّها .

(٤) الجابية : قرية غربيَ دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مع الصحابة للتداول في شؤون الفتح وخطب فيها خطبته المشهورة فَسُمي ذلك اليوم بيوم الجابِيَةِ .

(٥) وَقَرَ في صدره : استقر في صدره وثبت .

(٦) أنظر سيرَته في ص ١٧٤ .

فقال له زيدُ بنُ ثَابت : دَعْ عنكَ يا بنَ عَمِّ رسولِ اللّهِ .
فقال ابنُ عَبَّاسٍ : هكذا أُمِرْنا أن نَفْعَل بعلمائِنا . . .
فقال له زيدُ : أَرني يَدَك .

فأخرج ابنُ عباسٍ يَدَه له ، فمال عليها زيدُ وقبَّلَها وقال :
هكذا أُمِرْنا أن نَفْعَلَ بآل بَيْتِ نَبِيِّنا . . .

* * *

وَلَمَّا لحق زيدُ بنُ ثابتٍ بجوارِ ربِّهِ ؛ بكَىٰ المسلمون بمَوْتِه العلمَ الذي وُورِيَ معه[1] ، فقال أبو هريرة :

اليومَ ماتَ حَبْرُ[2] هذه الأمَّةِ ، وعسى أَنْ يجعلَ اللّهُ في ابنَ عباسٍ خَلَفاً منه .

ورثاه شاعِرُ رسولِ اللّهِ حسانُ بنُ ثابتٍ ورَثى نَفْسَهُ معه فقال :

فَمَنْ لِلْقَوافي بَعْدَ حَسَّانَ وابْنِهِ   ومَنْ للمعاني بَعْدَ زيدِ بنِ ثابِتِ؟!(*)

---

(١) ووري معه : دُفِنَ معه .

(٢) الحَبْرُ : العالم المُتَبَحِّرُ في العلم .

(*) للاستزادة من أخبار زيد بن ثابت انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة ٢٨٨٠ .
٢ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/٥٥١ .
٣ ـ غاية النهاية ١/٢٩٦ .
٤ ـ صفة الصفوة : ١/٢٤٩ طبعة الهند .
٥ ـ أسد الغابة : الترجمة ١٨٢٤ .
٦ ـ تهذيب التهذيب : ٣/٣٩٩ .
٧ ـ تقريب التهذيب : ١/٢٧٢ .
٨ ـ الطبقات لابن سعد : انظر الفهارس .
٩ ـ المعارف : ٢٦٠ .
١٠ ـ حياة الصحابة : انظر الفهارس .
١١ ـ السيرة لابن هشام : انظر الفهارس .
١٢ ـ تاريخ الطبري : انظر الفهارس .
١٣ ـ أخبار القضاة لوكيع : ١/١٠٧ ـ ١١٠ .

قال ربيعةُ بنُ كعبٍ : كنتُ فتىً حديثَ السِّنِّ لما أَشْرَقَتْ نَفْسي بنورِ الإيمانِ ، وامتلأ فؤادِي بمعاني الإسلام .

ولمَّا اكْتَحَلَتْ عَيْنَايَ بِمَرْأَى رسولِ اللَّهِ ﷺ أوَّلَ مرَّة أَحْبَبْتُه حباً ملَكَ عليَّ كلَّ جارِحةٍ من جَوارحي[1] .

وأُولِعتُ[2] به ولعاً صَرَفني عن كل ما عداه .

فقلت في نفسي ذاتَ يوم : وَيْحَكَ[3] يا ربيعةُ ، لم لا تجرِّدُ نَفْسَكَ لخِدْمَة رسولِ اللَّهِ ﷺ ؟! .

اِعْرِضْ نَفْسَكَ عليه . . .

فإن رَضِيَ بك سَعِدْت بِقُرْبِه وفُزْت بِحُبِّه ، وحَظِيتَ بِخَيريْ الدنيا والآخرةَ .

ثم ما لبثت أَنْ عَرَضْتُ نفسي على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ورجوتُه أن يقبلَني في خدمته .

فلم يخيِّبْ رجائي ، ورضيَ بي أَنْ أكونَ خادماً له .

فصِرْت منذ ذلك اليوم أَلزَمَ لِلْنبيِّ الكريمِ من ظِلِّه :

---

(١) الجوارح : الأعضاء. (٢) أولعت به : شغفت به حباً وتعلقت به. (٣) ويحك : كلمة تَرَحُّمٍ .

أسيرُ معه أينَمَا سارَ ، وأدورُ في فَلَكِه كَيفَما دار .

فما رمى بِطَرْفِهِ[1] مَرَّةً نحوي إلا مَثُلْتُ[2] واقفاً بينَ يديه .

وما تَشَوَّف[3] لحاجةٍ من حاجاتِه إلا وَجَدني مُسْرِعاً في قضائها .

وكنتُ أخدِمُه نهارَه كلَّه ، فإذا انْقَضَى النهارُ وصَلَّى العِشَاءَ الأخيرةَ وأَوَى إلى بيتِه ؛ أهِمُّ بالانصراف .

لكني ما أَلْبَثُ أن أقولَ في نفسي :

إلى أين تمضي يا ربيعةُ ؟!

فَلَعَلَّها تَعْرِضُ لرسول اللَّه ﷺ حاجةٌ في اللَّيْلِ . فأجلِسُ على بـابِه ولا أتحوَّلُ عن عَتَبَةِ بَيْتِهِ .

وقد كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يَقْطَعُ ليلَه قائماً يُصَلِّي ؛ فربَّما سمعتُه يَقرَأُ بفاتِحةِ الكتابِ[4] ؛ فما يزال يُكَرِّرُها هزيعاً[5] من اللَّيلِ ، حَتَّىٰ أَمَلَّ فأَترُكَه ، أو تَغْلِبَني عَينايَ فأنام .

ورُبَّما سمعتُه يقول : (سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه) فما يزالُ يردِّدُها زَمَناً أَطْوَلَ من تَرْديدِه لفاتِحةِ الكتاب .

* * *

وقد كان من عادةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أنَّه ما صَنَعَ له أحدٌ مَعْروفاً إلا أَحَبَّ أَنْ يُجَازِيَه عليه بما هو أَجَلُّ مِنْه .

وقَدْ أحَبَّ أَنْ يجازِيَني على خِدْمَتِي له ، فأقْبَلَ عليَّ ذات يوم وقال :

(يا ربيعةُ بنُ كعبٍ) .

---

(١) رَمَى بطرفة : نظر بطرف عينه .

(٢) مثلت واقفاً : بادَرْت واقفاً .

(٣) تَشَوَّف لحاجة : تَطَلَّعَ لحاجة .

(٤) فاتحة الكتاب : سورة الحمد .

(٥) الهزيع من الليل : الشطر من الليل . ثلثه أو نصفُه أو جزء مِنه .

فقلت: لبيك[١] يا رسولَ اللَّهِ وسَعْدَيْك[٢] .

فقال : (سَلْنِي شَيْئاً أعْطِه لك) .

فَرَوَّيْتُ[٣] قليلاً ثم قلت : أمْهِلني يا رسولَ اللَّه لأنظرَ فيما أطلبُهُ منك ، ثم أُعْلِمَك .

فقال : (لا بَأْسَ عليك) .

وكنت يومَئِذٍ شاباً فقيراً لا أَهْلَ لي ولا مالَ ولا سكنَ ، وإنما كنت آوِي إلى صُفَّةِ المَسْجِدِ[٤] مع أمْثالي من فقراءِ المسلمين.

وكان الناسُ يَدْعونَنا « بضيوف الإسلام » .

فإذا أَتَىٰ أحدٌ من المسلمين بصَدَقةٍ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ بَعثَ بها كلّها إلينا .

وإذا أهْدَى له أحَدٌ هديّةً أخَذَ منها شيئاً ، وجَعَل باقِيَها لنا .

فَحَدَّثَتْني نفسي أنْ أطلبَ من رسولِ اللَّه شيئاً من خيرِ الدنيا ، أغتَني به من فقرٍ ، وأغدو كالآخَرين ذا مالٍ وزَوْجٍ وَوَلَدٍ.

لكني ما لَبِثْتُ أنْ قُلْت : تبًّا[٥] لك يا ربيعةُ بنُ كعب ، إنَّ الدنيـا زائلةٌ فانِيَةٌ ، وإنَّ لك فيها رِزْقاً كفِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ ، فلا بُدَّ أَنْ يأتِيَكَ .

والرسولُ ﷺ في مَنْزِلَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ لا يُرَدُّ له معها طَلَبٌ ، فاطلُبْ منه أنْ يسألَ اللَّهَ لَكَ من فَضْلِ الآخِرَة.

فطابَتْ نفسي لذلك ، واسْتَراحَتْ له .

ثم جئتُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال : (ما تقولُ يا ربيعَة ؟!)

---

(١) لبيك : سمعاً وإجابة لكَ .

(٢) سعديك : أسْعَدَك اللَّه إسعاداً بعد إسعاداً .

(٣) روَّيت قليلاً : فَكَّرْت قليلاً .

(٤) الصفة : مكان في مسجد رسول اللَّه كان يأوي إليه الفقراء الذين لا بيوت لهم وكانوا يُدْعَوْنَ أَهْلَ الصُّفَّة .

(٥) تباً لك : التبُّ الهلاكُ والبوارُ .

فقلت : يا رسولَ اللَّه أَسْأَلُكَ أن تَدْعُوَ ليَ اللَّهَ تعالَى أنْ يَجْعَلَني رفيقاً لك في الجنة.

فقال : (مَنْ أَوْصاك بذلك؟)

فقلت : لا واللَّهِ ما أوصاني به أَحَدٌ ، ولكِنَّكَ حينَ قُلْتَ لي : سَلْنِي أُعْطِكَ حَدَّثَتْني نفسي أَنْ أَسْأَلَكَ شيئاً من خيرِ الدنيا.

ثم ما لبثتُ أَنْ هُديتُ إلى إيثارِ الباقِيَةِ على الفانِيةِ[١] ، فسألتُك أن تَدعُوَ اللَّهَ لي بأن أكونَ رفيقَكَ في الجنة.

فصمتَ رسولُ اللَّه طويلاً ثم قال : (أَوَغَيْرُ ذلك يا ربيعة؟)

فقلت: كلا يا رسولَ اللَّه فما أعْدِلُ[٢] بما سألْتُكَ شيئاً .

فقال : إذَنْ أعِنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجود) .

فجعلت أدأبُ[٣] في العبادَةِ لِأَحْظَى بمرافَقَةِ رسولِ اللَّه ﷺ في الجنةِ كما حظيتُ بِخِدْمَتِه وصُحْبَتِهِ في الدنيا.

***

ثم إنه لم يَمْضِ على ذلك وقتٌ طويلٌ حتى ناداني رسولُ اللَّه ﷺ وقال : (ألا تَتَزَوَّجُ يا ربيعةُ ؟!)

فقلت : ما أُحِبُّ أن يَشْغَلَني شَيْءٌ عن خِدْمَتِكَ يا رسولَ اللَّه.

ثم إنّه لَيْسَ عِنْدي ما أَمْهُرُ به الزَّوْجَةَ[٤] ، ولا ما أُقيمُ حياتَها به ، فَسَكَتَ .

ثم رآني ثانِيةً وقال : (ألا تَتَزَوَّجُ يا ربيعةُ ؟!)

فأجبتُه بمثلِ ما قُلتُ له في المرَّةِ السابقةِ .

---

(١) إيثار الباقية على الفانية : تفضيلِ الآخرة على الدُّنيا .

(٢) ما أعْدل : ما أساوِي.

(٣) أدأب في العبادَة : أجتَهدُ في العبادة.

(٤) أمهر به الزوجة : أعطيه مهراً لِلزوجة .

لكني ما إنْ خَلَوْت إلىٰ نَفْسِي حتَّىٰ نَدِمْتُ على ما كان مني ، وقلت:
وَيْحَكَ يا ربيعةُ . . .
واللَّهِ إنَّ النبيَّ لَأَعلمُ منكَ بما يَصْلُحُ لك في دينِك ودنياك ، وأَعْرَفُ منكَ بما عِنْدَكَ .
واللَّهِ لَئِنْ دعاني رسولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هذه المرةِ إلى الزواجِ لأُجيبَنَّه .

* * *

لم يَمْضِ على ذلك طويلُ وقتٍ حتى قال لي الرسول :
(ألا تتزوجُ يا ربيعةُ؟!)
فقلت : بَلى يا رسولَ اللَّهِ . . .

ولكنْ من يُزَوِّجُني ، وأنا كما تعلم ؟!
فقال : (انطلق إلى آل فلانٍ[1] وقُلْ لهم : إنَّ رسولَ اللَّه يأمُرُكم أنْ تزوجوني فتاتكُمْ فلانَة) .
فأتيتُهم على استِحْياءٍ وقلتُ لهم : إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ أرسلني إليكم لتزوِّجوني فتاتَكم فُلانَةَ .

فقالوا : فلانة ؟!
فقلت : نعم .
فقالوا : مرحباً برسولِ اللَّهِ ، ومرحباً برسولِ رسولِ اللَّه[2] .
واللَّهِ لا يَرْجعُ رسولُ رسولِ اللَّه إلَّا بحاجتهِ . . .
وعقدوا لي عليها . . .
فأتيتُ النبيَّ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه وقُلت : يا رسولَ اللَّه ، لقد جِئْتُ

---

(١) فلان: كناية عن شخص مُعَيَّنٍ .
(٢) رسولَ رسولِ اللَّه : من أرسله إلينا رسولُ اللَّهِ .

من عِنْدِ خيرِ بَيْتٍ . . . صَدَّقوني ، ورحَّبُوا بي ، وعقدوا لي على ابنَتِهم .

فمن أَيْنَ آتِيهم بالمَهْر ؟!

فاستَدْعى الرسولُ بُريدَةَ بنَ الخَصيبِ ـ وكان سيداً من ساداتِ قومي بني أَسْلَمَ ـ وقال له :

(يا بُرَيْدَة ، اِجْمَعْ لربيعة وَزْنَ نواةٍ ذَهَباً) ، فَجَمعوها لي .

فقال لي الرسولُ ﷺ :(اذْهَبْ بهذا إليهم ، وقُـلْ لهم : هذا صَـداقُ[1] ابْنَتِكم) ،فَأَتَيْتُهُمْ ،ودفعتُه إليهم فقبِلوه ، وَرَضُوه ، وقالوا : كثيرٌ طيِّبٌ . . .

فأتيتُ رسولَ اللَّه ﷺ ، وقلت : ما رأيتُ قوماً قَطُّ أكرمَ منهم ؛ فَلَقَدْ رَضُوا ما أعطيتُهم ـ على قِلَّتِه ـ وقالوا : كثيرٌ طيبٌ.

فمن أَيْنَ لي ما أُولِمُ به[2] يا رسولَ اللَّهِ ؟!

فقال الرسول لبُرَيْدَة : (اجمعوا لربيعةَ ثَمَنَ كبشٍ) ، فابتاعـوا لي كبشاً عظيماً سميناً .

فقال لي الرسولُ ﷺ :(اِذْهَبْ إلى عائشةَ ، وقل لها أَنْ تدفَعَ لَكَ ما عندها من الشَّعير) ، فأتيْتُها فقالت : إليك[3] المِكْتَل[4] ففيه سَبْعُ آصُعٍ[5] شعيرٍ ، لا واللَّهِ ما عِنْدَنا طعامٌ غيرُه .

فانطلقتُ بالكَبْشِ والشعيرِ إلى أهل زَوْجَتي فقالوا :

أمَّا الشعيرُ فَنَحْنُ نُعِدُّه .

وأما الكبشُ فَمُرْ أَصْحَابَك أن يُعِدُّوه لك .

فَأَخَذْتُ الكبشَ ـ أنا وناسٌ من أسْلَمَ ـ فَذَبَحْناه وَسَلَخْناه وطبخناه فأَصْبَحَ

---

(١) صداق ابنتكم : مهر ابنتكم .
(٢) أولـم به : أنفق منه على وليمة العرس.
(٣) إليك : خُذْ .
(٤) المكتل : زنبيل من خُوصٍ .
(٥) آصع : جَمْعُ صَاعٍ .

عِنْدَنا خبزٌ ولحمٌ .

فأَوْلَمْتُ ودعوتُ رسولَ اللَّه ﷺ ، فأجابَ دَعْوَتي .

* * *

ثم إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ منَحني أرضاً إلى جانبِ أرضٍ لأبي بكر ، فدخلتْ عليَّ الدنيا ، حتىٰ إني اخْتَلَفْتُ مع أبي بكرٍ على نَخْلَةٍ فقلت :

هي في أرضي .

فقال : بل هي في أرضي .

فنازَعْتُهُ ، فأسمعني كلمةً كرِهتُها .

فلما بَدَرَتْ[1] منه الكلمةُ نَدِمَ عليها وقال : يا ربيعةُ رُدَّ عليَّ مِثْلَها حتى يكونَ قِصاصاً[2] .

فقلت : لا واللَّهِ لا أَفْعَلُ .

فقال : إذن آتي رسولَ اللَّه وأشكو إليه امتِنَاعَكَ عن الاقْتِصاصِ مني . . .

وانطلق إلى النبيِّ فَمَضَيْتُ في إثْرِه[3] .

فتبعني قومي بنو أسلم وقالوا : هو الذي بَدَأَ بِكَ فشتمك ، ثم يَسْبِقُك إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فيشكوك ؟!! .

فالتَفَتُّ إليهم وقلت : وَيْحَكُمْ أتدرون من هذا ؟!

هذا الصديق . . .

وَذو شَيْبَةِ المسلمين[4] . . .

ارْجِعوا قبلَ أن يلتَفِتَ فيراكم ، فيظنَّ أنكم إنَّما جِئْتُمْ لِتُعِينوني عليه

---

(١) بَدَرَتْ : ظَهَرَتْ .

(٢) قصاصاً : عقوبة لي .

(٣) مضيتُ في إثره : تبعتُه .

(٤) ذو شيبة المسلمين : صاحب شيبة المسلمين وشيخُهم .

فيغضَبَ، فيأتي رسولَ اللّه فيغضب النبيُّ لِغَضَبِه، فَيَغْضَب اللّهُ لِغَضَبِهما فيهلك ربيعةُ ؛ فرَجَعوا.

ثم أَتَىٰ أبو بكرٍ النبيَّ ﷺ ، وحدَّثه الحديثَ كما كان ، فَرَفَع الرسولُ رأسَه إليَّ وقال :

(يا ربيعةُ مالكَ وللصديق؟!) .

فقلت : يا رسولَ اللّهِ أرادَ مِنِّي أَنْ أقولَ له كما قال لي فلم أفعل.

فقال: (نعم لا تَقُلْ لهُ كما قال لك .

ولكنْ قل : غَفَرَ اللّهُ لأبي بكر) .

فقلت له : غَفَرَ اللّه لك يا أبا بكر.

فمضَى وعَيْناه تفيضانِ من الدمع ، وهُو يقول : جَزَاكَ اللّه عني خيراً يا ربيعةُ بنُ كعب . . . جزاك اللّه عني خيراً يا ربيعَةُ بن كعب . . . (*) .

(*) للاستزادة من أخبار ربيعة بن كعب انظر :

١ ـ أسد الغابة: ٢/١٧١ .
٢ ـ الإصابة ١/٥١١ .
٣ ـ الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/٥٠٦ .
٤ ـ البداية والنهاية: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .
٥ ـ كنز العمال: ٧/٣٦ .
٦ ـ الطبقات الكبرى: ٤/٣١٣ .
٧ ـ مسند أبي داود: ١٦١ ـ ١٦٢ .
٨ ـ تاريخ الخلفاء: ٥٦ .
٩ ـ مجمع الزوائد: ٤/٢٥٦ ـ ٢٥٧ .
١٠ ـ حياة الصحابة: انظر الفهارس في الرابع .
١١ ـ تهذيب التهذيب: ٣/٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ١١٦ .
١٣ ـ تجريد أسماء الصحابة: ١/١٩٤ .
١٤ ـ الجمع بين رجال الصحيحين: ١/١٣٦ .
١٥ ـ الجرح والتعديل: ج١ ق ٢/٤٧٢ .
١٦ ـ التاريخ الكبير: ج٢ ق ١/٢٥٦ .
١٧ ـ تاريخ خليفة بن خيَّاط: ١١١ .
١٨ ـ الطبقات الكبرى: ٤/٣١٣ ـ ٣١٤ .
١٩ ـ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣/١٥ .
٢٠ ـ القصص الإسلامية في عهد النبوَّة والراشدين لأحمد حافظ حكمي: ٢/٦٥٦ .

صور من حياة الصحابة

أبو العاص بن الربيع

عاصم بن ثابت

صفية بنت عبد المطلب

عتبة بن غزوان

نعيم بن مسعود

خباب بن الأرت

الربيع بن زياد الحارثي

عبد الله بن سلام

أبو العاص بن الرَّبيع

(حَدَّثني أبو العَاصِ فَصَدَقَني ،
وَوعَدَني فوَفى لي)

[محمد رسول اللَّه]

كان أبو العاصِ بنُ الربيعِ العَبشَمِيُّ[1] القُرَشِيُّ ، شاباً مَوْفُورَ الشَّبابِ ، بَهِيَّ الرَّوْنَقِ ، رائِعَ المُجْتَلىٰ[2] ، بَسَطَتْ عليه النِّعْمَةُ ظِلالِهَا ، وجَلَّلَه الحَسَبُ بِرِدَائِه ، فغدا مثلاً للفروسيَّةِ العَرَبِيَّةِ بِكُلِّ ما فيها من خصائلِ الأنفَةِ والكبرياءِ ، ومخَايِلِ[3] المروءَةِ والوفاءِ ، ومآثِرِ الاعتِزازِ بتُراثِ الآباءِ والأَجْدادِ .

* * *

وقد وَرِثَ أبو العاصِ حبَّ التِّجارَةِ عن قريشٍ صاحِبَةِ الرحلتين : رِحْلَةِ الشِّتَاءِ ورِحْلَةِ الصيف[4] ؛ فكانت رَكائِبُهُ لا تَفْتَأ ذاهبةً آيِبةً بَيْنَ مكةَ والشَّامِ ، وكانت قافِلَتُه تَضُمُّ المِائَةَ من الإبلِ والمِائتَين من الرِّجال ، وكان الناسُ يَدْفَعُون إِلَيْهِ بأَمْوَالِهِم لِيَتَّجِرَ لهم بها فَوْقَ مالِه ؛ لِما بَلَوْا[5] من حِذْقِه ، وصِدْقِه ، وأمانتِه .

* * *

وكانت خالَتُه خديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زوجُ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه تُنْزِلُه من نَفْسِهَا مَنْزِلَةَ الوَلَدِ من أمِّه ، وتَفْسَحُ له في قلبِها وبيتِها مكاناً مَرْموقاً ينزِلُ فيه على الرَّحْبِ والحُبِّ .

---

(١) العبشمي: المنسوب إلى عبد شمس .
(٢) رائع المُجتَلَىٰ : يروع من ينظر إليه .
(٣) مِخايل : علامات .
(٤) رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .
(٥) بلوا : جرَّبوا واختبروا .

ولم يكن حُبُّ محمدِ بنِ عبدِ اللّهِ لأَبِي العاصِ بأقلَّ من حُبِّ خديجةَ له ولا أدْنَىٰ .

* * *

ومَرَّتِ الأعوامُ سِراعاً خِفافاً علىٰ بيتِ محمدِ بنِ عبد اللّهِ ، فَشَبَّتْ زينَبُ كُبْرَىٰ بناتِهِ ، وتفتَّحَتْ كما تَتَفَتَّحُ زهرةٌ فَوَّاحَةُ الشَّذَىٰ بَهِيَّةُ الرُّواء فَطَمَحَتْ إليها نفوسُ أبْنَاءِ السادَةِ البَهاليلِ[1] من أشْرافِ مكةَ . . . .

وكيف لا ؟!! وهي من أعرَقِ بناتِ قريشٍ حسباً ونسباً ، وأكرَمِهِنَّ أمًّا وأباً ، وأزْكاهُنَّ خُلُقاً وأدباً .

وَلٰكِنْ أَنَّىٰ[2] لهم أنْ يَظْفَروا بها ؟!

وقد حالَ دونَهم ودونَها ابنُ خالَتِها أبو العاصِ بنُ الربيعِ فَتَىٰ فِتْيانِ مَكَّةَ !!

* * *

لم يَمْضِ على اقْتِرانِ زينَبَ بنتِ محمدٍ بأبي العاص إلا سنواتٌ مَعْدوداتٌ حتى أشْرَقَتْ بِطَاحُ مَكَّةَ بالنُّورِ الإِلَهِيِّ الأَسْنَىٰ ، وَبَعَثَ اللّهُ نبيَّه محمداً بدينِ الهدَىٰ والحقِّ ، وأَمَرَه بأنْ يُنْذِرَ عشيرتَه الأَقْرَبين ، فكان أَوَّلَ مَنْ آمَنَ به من النِّساءِ زوجتُه خديجةُ بنتُ خويلد ، وبناتُه زينبُ ورُقَيَّةُ وأُمُّ كُلْثومٍ ، وفاطمةُ ، على الرغم من أنَّ فاطمةَ كانت صغيرةً آنذاك .

غيرَ أن صِهْرَه أبا العاصِ ، كَرِهَ أَنْ يُفارِقَ دينَ آبائِه وأَجْدَادِه ، وأَبَىٰ أَنْ يَدْخُلَ فيما دَخَلَتْ فيه زوجتُه زينبُ ، على الرُّغمِ مِنْ أنَّه كان يُصْفيها[3] بِصَافِي الحُبِّ ، وَيَمْحِضُها[4] من مَحْضِ[5] الوِدادِ .

* * *

(١) البهاليل : السَّادة الجامعون لكل فضل .
(٢) أنّى لهم : من أين لهم .
(٣) يُصْفيها : يَخُصُّها .
(٤) يَمْحَضُها : يَسْقيها .
(٥) محض الوداد : خالص الوداد وصافيه .

ولمَّا اشْتَدَّ النِّزاعُ بينَ الرسولِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه وبين قريش ؛ قال بعضُهم لبعض :

وَيْحَكُمْ . . . إنكم قد حملتُمْ عن محمَّدٍ همومَه بتزويج فتيانِكم من بناته ، فلو رددتموهُنَّ إليه لانْشَغَلَ بِهِنَّ عنكم . . .

فقالوا : نِعْمَ الرأيُ ما رأَيْتُمْ ، ومَشَوْا إلى أبي العَاصِ وقالوا له : فارِقْ صاحِبَتَكَ يا أبا العاص ، وردَّها إلىٰ بيتِ أبيها ، ونَحْنُ نُزَوِّجُكَ أيَّ امرأةٍ تشاءُ من كرائِمِ عقيلاتِ[1] قريش .

فقال : لا واللّهِ ، إني لا أفارِقُ صاحِبَتِي ، وما أحِبُّ أنَّ لي[2] بها نساءَ الدُّنيا جميعاً . . . أمَّا ابْنتاهُ رُقَيَّةُ وأُمُّ كلثومٍ فقد طُلِّقَتا وحُمِلَتا إلىٰ بَيْتِه ، فَسُرَّ الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه بَرَدِّهما إليه ، وتَمَنَّىٰ أنْ لو فَعَلَ أبو العاصِ كما فَعَلَ صاحباه ، غيرَ أنَّه ما كان يَمْلِكُ من القُوَّةِ ما يُرْغِمُهُ به على ذلك ، ولم يَكُنْ قَدْ شُرِعَ ـ بَعْدُ ـ تحريمُ زِوَاجِ المُؤْمِنَةِ من المُشرِك .

* * *

ولما هاجَرَ الرسولُ صَلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه إلىٰ المدينَةِ ، واشتَدَّ أمرُه فيها ، وخَرَجَتْ قُرَيشٌ لِقتالِه في بدر اضْطُرَّ أبو العاصِ للخُرُوجِ معهم اضْطِراراً . . .

إذ لم تَكُنْ بِهِ رَغْبَةٌ في قِتَالِ المسلمينَ ، ولا أَرَبٌ في النَّيْلِ منهم ، ولكنَّ منزِلَتَه في قَوْمِه حَمَلَتْه على مُسَايَرَتِهم حمْلاً . . . وقد انْجَلَتْ بدرٌ عن هزيمةٍ مُنْكَرَةٍ لِقُرَيشٍ أَذَلَّتْ مَعَاطِسَ[3] الشِّرْك ، وَقَصَمَتْ ظهورَ طواغيته ؛ ففريقٌ قُتِلَ ، وفريقٌ أُسِرَ ، وفريقٌ نَجَّاهُ الفرارُ .

---

(١) عقيلات قريش : أنْفس نساءِ قريش .
(٢) أنَّ لي بها : أنّ لي بدلاً منها .
(٣) المعاطِس : الأنوف .

وكان في زمرة الأَسْرَىٰ أبو العاصِ زوجُ زينَبَ بنتِ محمدٍ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه .

***

فَرَضَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ على الأَسْرَىٰ فِدْيَةً يَفْتَدون بها أنْفُسَهُمْ من الأَسْرِ ، وجعلها تَتَرَاوَحُ بَيْنَ ألف دِرْهمٍ وأَرْبَعَةِ آلافٍ حَسْبَ مَنْزِلَةِ الأسيرِ في قومِه وغناه .

وَطَفِقَتِ الرُّسلُ تروحُ وتغدو بَيْنَ مَكَّةَ والمدينةِ حامِلَةً من الأَمْوالِ ما تَفْتَدِي به أسراها .

فَبَعَثَت زينبُ رسولَها إلىٰ المدينةِ يحملُ فِدْيَةَ زوجِها أبي العاص، وجَعَلَتْ فيها قِلادَةً كانَتْ أَهْدَتْها لها أمُّها خديجةُ بنتُ خويلدٍ يَوْمَ زَفَّتْها إليه . . . فلمَّا رأَىٰ الرسولُ القِلادَةَ غَشِيَتْ وَجْهَهُ الكريمَ غِلالَةٌ[1] شَفَّافَةٌ من الْحُزْنِ العميق ، ورَقَّ لابْنَتِه أَشَدَّ الرقَّة ، ثم التَفَتَ إلىٰ أَصْحَابِه وقال :

(إنَّ زينبَ بَعَثَتْ بِهذا المالِ لافْتِدَاءِ أبي العاص ، فإن رأيتم أَنْ تُطْلِقُوا لها أسيرَها وتَرُدُّوا عليها مالَها فافْعَلوا) ؛ فقالوا : نعم ، ونَعْمَةَ عَيْنٍ[2] يا رسولَ اللّهِ .

***

غير أَنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام اشْتَرَط على أبي العاصِ قَبْلَ إطلاقِ سراحِهِ أن يُسَيِّرَ إليه ابْنَتَه زينَبَ من غيرِ إبْطاءٍ . . .

فما كادَ أبو العاص يَبْلُغُ مَكَّةَ حتَّىٰ بادَرَ إلىٰ الوَفَاءِ بعَهْدِه . . .

فَأَمَرَ زَوْجَتَه بالاسْتِعْدَادِ للرحيل ، وأخْبَرَها بأَنَّ رُسُلَ أَبيها يَنْتَظِرونَها غيرَ بعيدٍ

---

(١) الغِلالة : ثوب رقيق شفاف يُلْبَسُ على الجَسَدِ مباشرَة .

(٢) نَعْمَة عَيْنٍ : أي سنفعل ما طلبتَه لِتُقرَّ عينك ونسرّك .

عن مَكَّةَ ، وأَعدَّ لها زادَها وراحِلَتهـا ونَدَبَ أخـاه عمرَو بنَ الـربيع لِمُصَاحَبَتِها وتَسْلِيمِها لِمُرَافِقِيهَا يداً بيَدٍ .

* * *

تَنَكَّبَ[1] عمرُو بنُ الربيع قَوْسَـه ، وحَمَلَ كِنـانَتَه[2] ، وجَعَـلَ زَيْنَبَ في هَوْدَجِها[3] ، وخَرَجَ بها من مكةَ جِهاراً نهاراً على مَرْأىً من قُريشٍ ، فهاجَ القومُ وماجُوا ، ولَحِقُوا بِهِمَا حَتَّىٰ أدْركوهما غَيْرَ بعيدٍ ، وروَّعوا زينَبَ وأَفْزَعوها . . .

عند ذلك وَتَرَ عمرٌو قَوْسَه ، ونثَر كِنانَتَه بَيْنَ يَدَيْه ، وقال : واللّهِ لا يَدْنو رَجُلٌ منها إلا وضَعْتُ سهماً في نَحْرِه[4] ، وكان رامياً لا يُخْطِىءُ له سهم . . .

فَأَقْبَلَ عليه أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ ـ وكان قَدْ لَحِقَ بالقَوْمِ ـ وقال له :

يا بنَ أخي ، كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّىٰ نُكَلِّمَكَ ؛ فَكفَّ عنهم ، فقال له : إنَّك لم تُصِبْ فيما صَنَعْتَ . . .

فلقد خَرَجْتَ بزَيْنَبَ علانِيَةً على رُؤُوسِ النَّاسِ ، وعيونُنا ترَىٰ . . . وقد عَرَفَتِ العربُ جميعُها أمْرَ نَكْبَتِنا في بَدْرٍ ، وما أصابَنا على يَدَي أبيها محمد .

فإذا خَرَجْتَ بابْنَتِهِ عـلانِيَةً ـ كمـا فعلت ـ رَمَتْنا القبـائِلُ بـالجُبْنِ وَوَصفتنا بالهَوانِ والذُّلِّ ، فارجِعْ بِها ، واسْتَبْقِها في بيت زوجِها أيـاماً حتى إذا تَحـدَّثَ الناسُ بأنَّنا رَدَدْناها فَسُلَّها[5] من بين أَظْهُرِنا سِرًّا ، وأَلْحِقْها بأبيها ، فما لنا بِحَبْسِها عنه حاجةٌ . . .

فرضِيَ عمرٌو بذلك ، وأعادَ زَيْنَبَ إلىٰ مَكَّةَ . . .

ثم ما لَبِثَ أَنْ أَخْرَجَها منها ليلاً بَعْدَ أيَّامٍ معدوداتٍ ، وأَسْلمها إلىٰ رُسُلِ

---

(١) تنكَّبَ قوسَه : ألقاها على منكبه ، والمنكب : الكتف .

(٢) الكنانة : جَعْبَة السِّهام .

(٣) الهودَج : مَحْمَلٌ له قُبَّةٌ تركب فيه النِّساء .   (٤) في نحره : في رقَبَتِهِ .   (٥) سُلَّها : استَخرجها برفق .

أبيها يداً بِيَدٍ كما أَوْصاه أخوه .

* * *

أقام أبو العاصِ في مكَّةَ بعد فِراقِ زوجتِه زَمَناً ، حتى إذا كان قبيلَ الفَتْحِ بقليل ، خَرَجَ إلى الشَّامِ في تجارَةٍ له ، فلما قَفَلَ راجِعاً إلى مَكَّةَ ومَعَه عِيرُه التي بَلَغَتْ مِائةَ بعيرٍ ، ورجالُه الذين نَيَّفوا على مائةٍ وسبعين رجلاً ، بَرَزَتْ له سَرِيَّةٌ من سَرايا الرسولِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه قريباً من المدينةِ فَأَخَذَتِ العيرَ وأَسَرَتِ الرجالَ ، لكنَّ أبا العاصِ أفلَتَ منها فلم تَظْفَرْ بِهِ .

فلما أَرْخَىٰ الليلُ سدولَه اسْتَتَرَ أبو العاصِ بِجُنْحِ الظلامِ ، ودَخَلَ المدينةَ خائفاً يترقَّبُ ، ومضىٰ حَتَّىٰ وَصَلَ إلىٰ زينبَ ، واستجار بها فأجارته . . .

* * *

ولما خَرَجَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه لِصلاةِ الفجر ، واسْتَوَىٰ قائماً في المحراب ، وكبَّر للإحرامِ وكبَّرَ الناس بتَكْبيرِهِ ، صَرَخَتْ زَيْنَبُ من صُفَّةِ النساء وقالت :

أَيُّها النَّاس ، أنا زينبُ بنتُ محمدٍ ، وقد أجَرْتُ أبا العاص فأجِيروه . فلمَّا سلَّمَ النبيُّ من الصَّلاةِ ؛ التفَتَ إلى النَّاسِ وقال :

(هَلْ سَمِعْتُم ما سَمِعتُ ؟!)

قالوا : نعم يا رسولَ اللّهِ .

قال :(والذي نَفْسِي بيدِه ما علمتُ بشَيْءٍ من ذٰلك حتَّى سمعتُ ما سمعتُموه ، وإنَّه يُجيرُ من المسلمين أَدْناهم)، ثم انْصَرَفَ إلى بيتِه وقال لابنَتِه :

(أَكرِمي مَثْوَىٰ أبي العاص، واعْلمي أنَّك لا تَحِلِّين له). ثم دعا رجالَ السَّرِيَّةِ التي أَخَذَتِ العِيرَ وأَسَرَتِ الرِّجَالَ وقال لهم :(إنَّ هذا الرجلَ مِنَّا حيثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وقد أَخَذْتُمْ مالَه ، فإن تُحسِنوا وتردوا عليه الذي له ؛ كان ما نحبُّ ، وإنْ أَبيْتُم فهو فَيْءُ اللّهِ الذي أفاءَ عليكم ، وأَنْتُمْ به أَحَقُّ).

فقالوا : بل نَرُدُّ عليه مالَه يا رسولَ اللّه .

فلما جاء لأَخْذِهِ قالوا له : « يا أبا العاص ، إنَّكَ في شَرَفٍ من قريشٍ ، وأَنْتَ ابنُ عمٍّ رسولِ اللّه وصِهرُه ، فهل لك أن تُسْلِمَ ، ونحنُ نَنْزِلُ لك عن هذا المالِ كُلِّه فَتَنْعُم بما معك من أموالِ أهلِ مكةَ وتَبْقَىٰ معنا في المدينةِ ؟ فقال : بئس ما دعوتموني أَنْ أَبْدَأَ ديني الجديدِ بِغَدْرَةٍ .

* * *

مضى أبو العاص بالعِيرِ وما عليها إلى مَكّةَ فلما بلغها أَدَّىٰ لكلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه ، ثم قال :

يا معشرَ قريشٍ هل بَقِيَ لِأَحدٍ منكم عندي مالٌ لم يأخُذْه ؟

قالوا : لا ، وجزاكَ اللّهُ عنا خيراً ، فقد وجدْناك وفيًّا كريماً .

قال أما وإني قد وَفَّيْتُ لكم حقوقَكم ، فأنا أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللّه وأن محمداً رسولُ اللّه . . .

واللّه ما مَنَعَني من الإسلام عِنْدَ محمد في المدينةِ إلاَّ خَوْفي أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إنّما أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أموالَكُمْ . . .

فلما أدَّاها اللّهُ إليكم ، وَفَرَغْتُ ذِمَّتي منها أسلمتُ . . .

ثم خَرَجَ حَتَّىٰ قَدِمَ على رسولِ اللّهِ ﷺ فَأَكْرَمَ وفادَتَه[1] ، ورَدَّ إليه زوجتَه ، وكان يقول عنه :

(حَدَّثني فَصَدَقني ، ووعدَني فوفَىٰ لي)(*) .

---

(1) وفادَتَه : قدومه .

(*) للاستزادة من أخبار أبي العاص بن الربيع انظر :

١ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي : ١/٢٣٩ .

٢ ـ أسد الغابة : ٦/١٨٥ أو الترجمة ٦٠٣٥ .

٣ ـ أنساب الأشراف : ٣٩٧ وما بعدها .

٥ ـ الإصابة : ٤/١٢١ أو الترجمة ٦٩٢ .

٦ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤/١٢٥ .

٧ ـ السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٣٠٦ ـ ٣١٤ .

٨ ـ البداية والنهاية : ٦/٣٥٤ .

٩ ـ حياة الصحابة انظر الفهارس في الرابع .

(مَن قَاتلَ فَلْيقَاتِلْ كَما يقاتِلُ عاصِمُ ابنُ ثابت)

[محمَّد بنُ عَبد اللَّه]

خرجت قريشٌ بقضِّها وقضِيضِها[1] ، وسادَتِها وعبيدِها إلى لقاءِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه في أحد . . .

فقد كانت الأَضْغَانُ تَشْحَنُ[2] صدورها شحناً ، والثَّاراتُ لِقتْلاها في بَدْرٍ تَسْتَعِرُ[3] في دِمائها اسْتِعاراً .

ولم يَكْفِها ذلك ، وإنما أخرجت معها العَقَائِلَ من نساءِ قريشٍ ؛ لِيُحَرِّضْنَ الرِّجالَ على القِتالِ ، ويُضْرِمْنَ الحميةَ في نفوسِ الأبطالِ ، ويشدُدْنَ عزائِمَهم كلما وَنَوْا أو ضَعُفوا .

وكان في جملةِ من خرجت مَعَهُنَّ : هنـدُ بنتُ عتبةَ زوجُ أبي سفيـان ، ورَيْطَةُ بنتُ مُنَبِّهٍ زوجُ عمرِو بنِ العاصِ ، وسُلافَةُ بنتُ سَعْدٍ ومعها زوجُها طلحةُ وأولادُها الثلاثة : مُسَافِعٌ ، والجُلاسُ وكِلابٌ ، ونساءٌ كثيراتٌ غيرُهن .

* * *

ولما الْتَقَى الجمعان عِنْدَ أُحُدٍ وأَخَذَتْ نارُ الحربِ تَسْتَعِرُ ، قامَتْ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ ومَنْ مَعَها من النِّسْوَة ، فَوَقَفْنَ خَلْفَ الصُّفوفِ ، وأَخَذْنَ بأَيديهنَّ الدُّفوفَ ،

(١) قضِّها وقضيضها : جميعها . (٢) تشحن : تملأ . (٣) تستعر : تتقد .

وجَعَلْنَ يَضرِبْنَ عليها مُنْشِدات :

إنْ تُـقبِـلوا[١] نُـعَـانِـقْ ونَفْـرُشِ النَّمـارِقْ[٢]
أو تُـدْبِـروا نُـفـارِقْ فِـراقَ غـيـرِ وامِـقْ[٣]

فكان نشيدُهُنَّ هذا يُضرِمُ في صدورِ الفُرسانِ الحَمِيَّة ، ويَفْعَلُ في نفوس أزواجِهن فِعْلَ السِّحْرِ . . .

ثم وَضعَتِ الْمَعركَةُ أَوْزَارَها ، وكُتِبَ فيها النَّصْرُ لِقُرَيْشٍ على المسلمين فقامت النِّسْوَةُ ـ وقد استفزَّتهُنَّ حُمَيّا[٤] الظَّفرِ ـ وَطَفِقْنَ يَجُسْنَ[٥] خِلالَ ساحَةِ المعركةِ مُزَغْرِداتٍ . . .

وأَخَذْن يُمَثِّلْنَ بالقَتْلَىٰ أَفْظَعَ تمثيلٍ : فَبَقَرْنَ البُطونَ ، وسَمَلْنَ العُيُون ، وَصَلَمْـنَ الآذانَ ، وَجدَعْنَ الأُنوفَ .

بل إنَّ إحْدَاهُنَّ لم يَشْفِ غيظَها إلاَّ أَنْ جَعلَتْ من الأنوفِ والآذانِ قلائِدَ وخلاليـلَ وتزيَّنت بها انتِقاماً لأبيها وأخيها وعمِّها الذين قُتلوا في بدر . .

* * *

لكنَّ سلافَةَ بنتَ سَعْدٍ كان لها شأنٌ غيرُ شَأْنِ أتْرابها[٦] من نساء قريش . . .

فقد كانت قَلِقَةً مُضْطَرِبَةً ، تنتظرُ أن يُقْبِـلَ عليها زوجُهـا أَوْ أَحَدُ أبنـائِها الثلاثة ، لِتَقِفَ على أخبارِهم وتشارِكَ النِّسْوَةَ الأخرياتِ فرحَةَ النصر .

بيد[٧] أَنَّ انتظارَها قد طالَ عَبثاً ، فأَوْغَلَتْ[٨] في أَرْضِ المعركةِ ، وجَعَلَتْ تتفحَّصُ وجوهَ القَتْلَى ، فإذا بها تجدُ زوجَها صريعاً مُضرَّجاً بدمائه[٩] .

---

(١) إن تقبلوا : أي على الحرب .
(٢) النمارق : الوسائِد والمُتَّكآت .
(٣) غير وامق : غير مُحِبٍّ .
(٤) استفزتهُنَّ حميا الظفر : أثارتهن خمرة النَّصْر .
(٥) يَجُسْنَ : يَدُرْن عابِثات فساداً .
(٦) أترابها : لداتها وصُوَيحباتها .
(٧) بَيْدَ أن : غَيْرَ أَنَّ .
(٨) أوغلت : دخلت بعيداً .
(٩) مُضَرَّجاً بدمائه : مصبوغاً بدمائِه .

فَهبَّتْ كاللبُؤَةِ[1] المَذْعورَةِ ، وجعلت تُطْلِقُ بَصَرَها في كلِّ صَوْبٍ بَحثاً عن أَوْلادِها : مُسافِع وكِلابٍ والجُلاس .

فما لبثت أَنْ رَأَتْهُمْ مُمَدَّدينَ على سُفُوحِ أحد . . .

أما مُسَافع وكِلابٌ ؛ فكانا قد فارقا الحياة ، وأما الجُلاس فوجَدَته وما تزال به بَقِيَّةٌ من ذَمَاء[2] .

* * *

أَكَبَّتْ سُلافَةُ على ابنِها الذي يعالِجُ سكراتِ الموت ، وَوَضَعَتْ رأسَه في حِجْرِها ، وجَعَلَتْ تَمْسَحُ الدِّماءَ عن جبينِهِ وفَمِه ، وقد يبِسَ الدمعُ في عَيْنيها من هَوْل الكارِثَة .

ثم أقبلت عليه وهي تقول : من صَرَعَك يا بُني؟ فهَمَّ أنْ يجيبَها لكنَّ حَشْرَجَةَ الموتِ مَنَعَتْهُ ، فألحَّتْ عليه بالسؤالِ فقال : صَرَعني عاصم بن ثابت ، و . . . وصرع أخي مُسَافِعاً ، و . . . ثم لفظ آخِرَ أنفاسِه . .

* * *

جُنَّ جنونُ سلافَةَ بنتِ سعدٍ ، وجَعَلت تَعْولُ وتَنْشِج[3] ، وأقْسَمَتْ باللَّاتِ والعُزَّىٰ ألَّا تَهْدَأ لها لَوْعَةٌ أو تَرْقَأَ[4] لِعَيْنيها دَمْعَةٌ إلا إذا ثأَرَتْ لَها قريشٌ من عاصمِ ابن ثابتٍ، وأَعْطَتْهَا قِحْفَ[5] رَأْسِه لتَشْرَبَ فيه الخمر . . .

ثم نذَرَت لمن يأسِرُه أو يقتُلُه ويأتيها برَأْسِه ، أن تُعْطِيَه ما يشاءُ مِن مُنْفَسِ المالِ .

فشاع خبرُ نَذْرِها في قريشٍ ، وجعلَ كُلُّ فتىً من فِتْيانِ مَكَّةَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ لو

---

(١) اللَّبُؤَة : أنثى الأَسَدِ .
(٢) الذَّماءُ : بقية النَّفْسِ .
(٣) تَعْولُ وتنشِج : تَرْفع صَوْتها بالبكاء .
(٤) ترْقأ : تجفّ .
(٥) قحف رأسه : عظْم رأسه المجوَّف .

ظفِرَ بعاصِم بنِ ثابت ، وقدَّم رأسَه لِسُلافَةَ لعلَّه يكونُ الفائزَ بجائِزَتِها .

* * *

عاد المسلمون إلىٰ المدينةِ بَعْدَ أُحُدٍ ، وجعلوا يَتَذَاكرون المعركةَ وما كان فيها ، فَيَترحَّمون على الأبطالِ الذين استُشْهِدوا وينوِّهون بالكُمَاةِ الذي أبلوْا وجالَدوا ، فَذَكروا فيمن ذكروهم عاصِمَ بن ثابتٍ ، وعجِبُوا كيفَ اتَّفَقَ له أنْ يُرْدِيَ ثلاثةَ إخوةٍ من بيتٍ واحدٍ في جُمْلَةِ من أرْدَاهم .

فقال قائلٌ منهم : وهل في ذلك من عجب ؟!!

أفلا تذكرون رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه حين سألَنا قُبَيْلَ بَدْرٍ كيف تقاتِلون ؟ فقام له عاصِمُ بنُ ثابتٍ ، وأَخَذَ قَوْسَه بيدِه وقال :

إذا كان القومُ قريباً مِنِّي مائَةَ ذراعٍ كان الرَّمْيُ بالسِّهام . . .

فإذا دَنَوْا حَتَّى تَنالَهُمْ الرِّماحُ كانت المداعَسَةُ[1] إلى أَنْ تَتَقَصَّفَ الرِّماح . . .

فإذا تقصَّفَتِ الرِّماحُ وَضَعناها وأَخَذْنا السيوفَ وكانت المُجَالَدَةُ[2] . . .
فقال عليه الصلاةُ والسلام : (هكذا الحربُ . . .
من قَاتَلَ فَلْيُقَاتِلْ كما يُقاتِلُ عاصم . . .)

* * *

لم يَمْضِ غيرُ قليلٍ على أُحُدٍ حتَّىٰ انتَدَبَ رسولُ اللَّه ﷺ ستةً من كِرامِ الصَّحابَةِ لِبَعْثٍ[3] من بعوثِه ، وأمَّرَ عليهم عاصِمَ بنَ ثابِت .

فمضَىٰ النَّفَرُ الأَخْيَارُ لإِنْفَاذِ ما أَمَرَهُم به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ ، وفيما هم في بعضِ الطريق ـ غيرَ بعيدٍ عن مَكَّةَ ـ عَلِمَتْ بهم جماعَةٌ من هُذَيلٍ ؛ فَهَبُّوا

---

(١) المداعَسَة : المطاعنة بالرِّماح .   (٢) المجالدة : المضاربة بالسيف .   (٣) البَعْثُ : الأمر .

نَحْوَهم مُسْرِعين ، وأحاطوا بهم إحاطةَ القَيْدِ بالعُنُق .

فامْتَشَقَ عاصِمٌ ومَنْ مَعَهُ سُيُوفَهُمْ وهمّوا بِمُنَازَلَةِ المُطْبِقين عليهم .

فقال لهم الهُذَلِيُّون : إنكم لا قِبَلَ[1] لكم بنا ، وإننا ـ واللَّهِ ـ لا نريدُ بكم شرًّا إذا اسْتَسْلَمْتُم لنا ، ولكم على ذلك عهدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُه . . .

فَجَعَلَ صحابَةُ رسولِ اللَّه ﷺ يَنْظُرُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ كأنَّهم يتشاورون فيما يصنعون . . .

فالتَفَتَ عاصِمٌ إلى أصحابِه وقال : أما أنا فلا أنْزِل في ذِمَّةِ مُشْرِكٍ ، ثم تذكَّرَ نَذْرَ سُلافَةَ الذي نذرَتْه ، وجرَّدَ سَيْفَه وهو يقولُ :

اللَّهُمَّ إني أَحْمَىٰ[2] لدينكِ وأدافع عنه . . .
فاحْمِ لحْمي وعظْمي ولا تُظْفِرْ بهما أحَداً من أعْدَاءِ اللَّهِ . . .

ثم كرَّ على الهُذليين ، وتبِعَهُ اثنان من أصحابِهِ ، وظلّوا يقاتلون حتىٰ صُرِعوا واحداً بعد آخَرَ .

أما بقيةُ أصحابِهِ فاستسلموا لآسِريهم ، فما لَبِثُوا أَنْ غَدَروا بهم شرَّ غَدْرَة .

* * *

لم يكن الهُذَلِيُونَ في باديء الأمْرِ يعلمون أنّ عاصِمَ بنَ ثابِتٍ هو أحدُ قَتْلاهم ، فلما عَرَفُوا ذلك فرِحوا به أشدَّ الفَرَح ، ومَنَّوْا أنفسهم بجزيل العَطَاءِ .

ولا غَرْوَ . . . ألم تكن سلافةُ بنتُ سعدٍ قد نَذَرَتْ إنْ هي ظَفِرت بعاصِمِ ابن ثابتٍ أنْ تَشْرَبَ في قِحفِ رأسه الخمر ؟ .

ألم تكن قد جعلت لِمَنْ يَأْتيها به حَيًّا أَوْ مَيْتاً ما يَشَاءُ من المال ؟!

* * *

---

(١) لا قِبَلَ لكم بنا : لا طاقة لكم بنا ولا قدرة لكم علينا .
(٢) أحَمَىٰ لدينك : أدافع عن دينك .

لم يمضِ على مصرع عاصِمِ بنِ ثابتٍ بِضْعُ ساعاتٍ حتى علمت قريش بِمَقْتَلِه ، فقد كانت هُذَيْلٌ تقيم قريباً من مكةَ .

فأرسـلَ زعماءُ قريشٍ رسولاً من عِندِهم إلى قَتَلَةِ عاصمٍ يطلبـون منهم رأسَه ؛ لِيُطفِئوا بها غُلَّةَ سُلافَةَ بنتِ سَعدٍ ويُبِرُّوا قَسَمها ، ويُخَفِّفُوا بعضَ أحْزانِها على أولادِها الثلاثَةِ الذين صَرَعهم عاصِمٌ بيدِه . . .

وحَمَّلُوا الرسولَ مالاً وفيراً ، وأَمَروه أن يَبْذُلَه للهُذليين بسخاءٍ لِقاءَ رَأْسِ عاصمٍ .

***

قام الهُذلِيُّون إلى جَسَدِ عاصِمِ بنِ ثابتٍ ليفصِلوا عنـه رأسَه ؛ ففـوجئوا بِأَسْرَابِ النَّحْلِ وجماعاتِ الزَّنـابير[1] قـد حَطَّت عليـه ، وأحاطت بـه من كلِّ جانبٍ . . .

فكانوا كلما راموا[2] الاقترابَ من جُثَّتهِ طارَتْ في وجوهِهم ، ولَدَغَتْهُمْ في عيونهم وجِباهِهِمْ وكُلِّ مَوْضعٍ في أجسادهم ، وذادَتْهُمْ[3] عنه . . .

فلما يَئِسوا من الوصولِ إليه بعد أنْ حاولوا ذلك الكرَّة تِلْوَ الكـرَّة ؛ قال بعضُهم لِبَعْضٍ :

دَعوه حَتَّىٰ يَجِنَّ[4] عليه الليلُ ؛ فإنَّ الزنابيرَ إذا حَلَّ الظَّلامُ ؛ جَلَت عنه وخَلَّتْه لكم .

ثم جلسوا ينتظرون غيرَ بعيد . . .

***

---

(١) الزنابير : حشرة كالنحل غير أنَّها لا تنتج العسَل .
(٢) راموا : أرادوا .
(٣) ذادتهم عنه : دفعتهم عنه .
(٤) يجن عليه الليل : يطبق عليه الليل .

لٰكِنَّه ما كاد يَنْصَرِمُ النهار[1] ويقبِلُ الليلُ حتَّىٰ تلبَّدَت السماءُ بالغيوم الكثيفةِ الدُّكْنِ [2] . . .

وأَرْعَد الجوُّ وأَزْبَدَ . . . وانْهَمَر المطرُ انهماراً لم يشهدْ له المُعَمَّرون مثيلاً منذُ وُجِدوا على تلك الأرض . . .

وسَرْعانَ ما سالَتِ الشِّعابُ وامتلأتِ البِطاحُ وغُمِرَتِ الأَوْدِيَة . . .

واكْتَسَحَ المِنْطَقَةَ سيلٌ كَسَيْلِ العَرِم . . .

فلما انْبَلَجَ الصُّبْحُ قامَتْ هُذَيلُ تَبْحَثُ عن جَسَدِ عاصِمٍ في كُلِّ مكان ؛ فلم تَقِفْ له على أثر . . .

ذلك أَنَّ السَّيْلَ أخذه بعيداً بعيداً . . . ومَضَى به إلى حيثُ لا يعلمون . . .

فلقد استجاب اللَّهُ جَلَّ وعزَّ دَعْوَةَ عاصِمِ بنِ ثابتٍ فحمَىٰ جَسَدَه الطاهِرَ من أن يُمَثَّلَ به [3] . . .

وصانَ رَأْسَه الكريمَةَ من أن يُشْرَبَ في قِحفِها الخمرُ . . .

وَلم يَجْعَلْ لِلْمُشْرِكين على المؤمنين سبيلاً[*] . . .

---

(١) ينصرم النهار : يمضي وينقطع .

(٢) الغيوم الدُّكن : الغيوم السود .

(٣) التمثيل بالميت : العَبَث بجسده وتقطيعُه .

(*) للاستزادة من أخبار عاصِم بن ثابت انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة ٤٣٤٠ .

٢ ـ الاستيعاب : (بهامش الإصابة) : ١٣٢/٣ .

٣ ـ أُسْدُ الغابة : الترجمة ٢٦٦٣ .

٤ ـ الطبقات الكبرى : ٤١/٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٩ ، و٩٠/٣ .

٥ ـ حلية الأولياء : ١١٠/١ .

٦ ـ صفة الصفوة : (انظر الفهارس) .

٧ ـ تاريخ الطبري (انظر الفهارس في العاشر) .

٨ ـ البداية والنهاية : ٦٢/٣ ـ ٦٩ .

٩ ـ تاريخ خليفة بن خياط : ٢٧ ، ٣٦.

١٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام (انظر الفهارس) .

١١ ـ المُحَبَّر في التاريخ : ١١٨ .

١٢ ـ ديوان حسان بن ثابت وشروحه (فيه مـراث قيلت في عاصم ابن ثابت) .

١٣ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الرابع) .

صَفِيّةُ بِنتُ عَبدِالمطّلِب

«صَفيّةُ أولُ امرأة مُسلمةٍ
قَتَلَتْ مُشركاً دفاعاً عن دينِ اللَّه»

مَن هـذه السيدةُ الجَـزْلَةُ الـرَّزانُ(1) التي كان يَحْسُبُ لها الرجـالُ ألفَ حساب ؟.

من هـذه الصحـابيـةُ البـاسِلةُ التي كـانت أوَّلَ امـرأةٍ قَتَلَتْ مشـركـاً في الإِسلام ؟.

من هذه المرأةُ الحازِمة التي أَنْشَأَتْ للمسلمين أَوَّلَ فارِسٍ سَلَّ سيفاً في سبيل اللَّه ؟.

إِنَّها صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِ المُطَّلبِ الهاشِمِيَّةُ القُرَشِيَّةُ عَمَّةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

اِكتَنَفَ المجدُ صفيةَ بنتَ عبدِ المطلبِ من كلِّ جانب :

فـأبوهـا ، عبدُ المـطلب بنُ هاشمٍ جَـدُّ النبيِّ وزعيمُ قريشٍ وسَيِّـدُهـا المطاعُ . وأمُّها ، هالَةُ بنتُ وَهْبٍ أُخْتُ آمنةَ بنتِ وَهْبٍ والدةِ الرسول.

وزَوْجُهَا الأوَّلُ ، الحارِثُ بنُ حَرْبٍ أخو أبي سُفْيَانَ بـنِ حربٍ زعيمِ بني أمية ، وقد تُوفِّيَ عنها.

---

(1) الجزلة : الأصيلة الرأي ، والـرَّزان: الرصينة الرزينة .

وزوجُها الثاني ، العَوَّامُ بنُ خُوَيْلِدٍ أخو خديجةَ بنتِ خويلدِ سيِّـدةِ نساءِ العرب في الجاهلية ، وأُولَىٰ أمهاتِ المؤمنينَ في الإسلام .

وابنُهَا ، الزُّبَيرُ بنُ العَوَّام حَوارِيُّ رسولِ اللَّه ﷺ .

أَفَبَعْدَ هذا الشرف شَرَفٌ تَطْمَحُ إليه النفوسُ غير شرف الإيمان ؟! .

* * *

لقد تُوُفِّيَ عنها زوجُهَا العَوَّامُ بنُ خُوَيْلِدٍ وتَرَكَ لها طِفْـلاً صغيراً هـو ابنُها « الزبيرُ » فنشَّأَتْهُ على الخُشـونةِ والبـأسِ ، وربَّتْه على الفـروسِيَّةِ والحَـرْبِ ، وجَعَلَتْ لَعِبَه في بَرْيِ السِّهَامِ وإصْلاحِ القِسِيِّ .

ودَأَبَتْ على أَنْ تَقْذِفَه في كل مَخوفَةٍ[1] ، وتُقْحِمَه[2] في كُلِّ خَطَرٍ ، فإذا رَأَتْه أحْجَم أو تردَّد ضَرَبَتْه ضَرْباً مُبَرِّحاً ، حتىٰ إنَّهَا عوتِبَتْ في ذلك من قِبَلِ أحدِ أَعْمَامِه حيثُ قال لها : ما هكذا يُضْرَبُ الوَلَدُ . . . إنَّكِ تَضْرِبينه ضَرْبَ مُبْغِضَةٍ لا ضربَ أمٍّ فارْتَجَزَتْ[3] قائِلَةً :

من قال قَدْ أبْغَضْتُـه فَقَدْ كـذَبْ
وإنمــا أَضْــرِبُــهُ لِكَـيْ يَلِبْ[4]
ويَهْـزِمَ الجَيْشَ ويَـأْتِي بـالسَّلَبْ

* * *

ولما بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بدين الهُدَىٰ والحقِّ ، وأَرْسَلَهُ نذيراً وبشيـراً للناس ، وأَمَرَهْ بِأَنْ يَبْدَأَ بذوي قُرْباهُ جَمْعَ بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ : نساءَهم ورجالَهم وكِبَارَهم وصِغَارَهم ، وخاطبهم قائلاً :

---

(١) مخوفة : موقف يُخافُ منه .

(٢) تقحِمه : تدفعه وتدخله .

(٣) ارتجزتْ : قالت شعراً على بحر الرَّجَزِ .

(٤) يلب : يصبح لبيباً ، واللبيب الذكي العاقل .

(يا فاطمةُ بنتُ محمد ، يا صَفِيَّةُ بنتُ عبدِ المُطّلبِ ، يا بَنِي عبدِ المُطَّلبِ إنِّي لا أَمْلِكُ لكم من اللَّه شيئاً) .

ثم دعاهم إلى الإيمانِ باللَّهِ ، وحَضَّهُمْ على التَّصديقِ برسالته . . .

فأَقْبَلَ على النُّورِ الإلهي مِنْهُمْ مَنْ أَقْبَلَ ، وأعْرَض عَنْ سَنَاه[1] من أَعْرَضَ ؛ فكانت صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ في الرَّعيلِ[2] الأولِ من المُؤْمِنينَ المُصَدِّقين . . عند ذلك جمعت صَفِيَّةُ المجدَ من أَطْرَافِه : سؤدَدَ الحَسَبِ ، وعِزَّ الإسلام .

* * *

انْضَمَّتْ صفِيَّةُ بنتُ عبدِ المُطَّلِبِ إلى مَوْكِبِ النُّورِ هي وفَتَاها الزُّبَيْـرُ بنُ العَوَّامِ ، وعانَتْ ما عاناه المُسْلِمونَ السابِقونَ من بَأْسِ قُرَيْشٍ وَعَنَتِها وطُغْيَانِها .

فلما أَذِنَ اللَّهُ لِنبيِّه والمؤمنينَ مَعَهُ بِالْهِجْرَةِ إلى المدينةِ خَلَّفَت السَّيِّدَةُ الهاشِمِيَّةُ وراءَهَا مَكَّةَ بكلِّ ما لها فيها من طُيوب الذِّكْرَياتِ ، وضُروبِ المَفَاخِرِ والمآثِرِ ، ويَمَّمَتْ وَجْهَها شَطْرَ المدينَةِ ، مُهَاجِرَةً بدينِها إلى اللَّهِ ورسولِهِ .

* * *

وعلى الرَّغْمِ من أنَّ السيِّدَةَ العَظِيمةَ كانَتْ يَوْمَئِذٍ تَخْطُو نحو الستين من عُمُرِها المديدِ الحافِلِ ، فقد كان لها في ميادينِ الجهادِ مَواقِفُ ما يَزَالُ يذكرُها التَّاريخُ بلسانٍ نَدِيٍّ بالإعجاب رطيبٍ بالثناء ، وحَسبُنا من هذه المواقفِ مَشْهدان اثنان : كان أولُهما يومَ أُحُدٍ وثانيهما يومَ الخَنْدَق .

* * *

أَما ما كان منها في أحد فهو أَنَّها خَرَجت معَ جندِ المسلمين في ثُلَّةٍ[3] من النِّساءِ جهاداً في سَبِيلِ اللَّهِ .

---

(١) سناه : ضياؤه .

(٢) الرَّعيل الأوّل : الفوج الأول .

(٣) ثلة : طائفة .

فجعلت تَنْقُلُ الماء ، وتَرْوِي العِطاشَ ، وتبْرِي السِّهامَ ، وتُصْلِحُ القِسِيَّ(١).

وكان لها مع ذلك غرَضٌ آخرُ هو أن تَرْقُبَ المَعْرَكَةَ بمشاعِرِها كلِّها . . .

ولا غَرْوَ(٢) فقد كان في ساحَتِهَا ابنُ أخيها محمدٌ رسولُ اللَّهِ . . .

وأخوها حمزةُ بنُ عبدِ المطلب أَسَدُ اللَّه . . .

وابنُها الزبيرُ بنُ العَوام حوارِيُّ(٣) نبيِّ اللَّهِ . . .

وفي المعركة ـ قبلَ ذلك كلِّهِ وفَوقَ ذلك كُلِّه ـ مصيرُ الإسلامِ الذي اعتنقَتْهُ راغِبَةً . . . وهاجرت في سبيله مُحْتَسِبةً . . .

وأَبْصَرت من خِلالِه طريقَ الجَنَّة .

* * *

ولما رأَتِ المسلمين يَنْكَشِفُونَ(٤) عن رسولِ اللَّهِ إلَّا قليلاً منهم . . .

ووجدت المشركين يوشكون أَنْ يَصِلوا إلى النبيِّ ويَقْضوا عليه ؛ طَرَحَتْ سِقاءها أرضاً . . .

وهَبَّتْ كاللَّبُؤَةِ(٥) التي هوجِمَ أشبالها وانْتَزَعَتْ من يَدِ أَحَدِ المنهَزِمين رُمْحَه ، وَمَضَتْ تَشُقُّ بِهِ الصُّفُوفَ ، وتَضْرِبُ بِسِنَانِه الوجوه ، وتَزْأَرُ في المسلمين قائلة :

وَيحكُمْ ، أَنْهَزَمتُم عن رَسولِ اللَّهِ ؟!!

فلما رآها النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ مُقْبِلَةً خَشِيَ عليها أَنْ تَرَى أخاها

---

(١) القِسِيّ : جمع قوسٍ وهو آلة من آلات الحرب يُرْمَى بها بالسّهام .

(٢) لا غرو : لا عجب .

(٣) الحواري : الناصِر ، وحواريو الرسل الخاصة من أنصارهم .

(٤) ينكشفون : يتفرقون .

(٥) اللبؤة : أنثى الأسد .

حَمْزَةَ وهو صريعٌ ، وقد مَثَّلَ به المُشْرِكون أبْشَعَ تمثيل[1]فأشار إلى ابنِها الزبير قائلاً :

(المرأةَ يا زبيرُ . . . المرأةَ يا زبيرُ . . .)

فأقبل عليها الزبيرُ وقال :

يا أُمَّه إليك . . . إليك يا أمَّه[2] .

فقالت : تنحَّ لا أمَّ لك .

فقال : إنَّ رسولَ اللّهِ يأْمُرُكِ أَنْ ترْجعي . . .

فقالت : ولم ؟! إنَّهُ قد بَلَغني أنه مُثِّلَ بأخي ، وذلك في اللّهِ . .

فقال له الرسول : (خَلِّ سَبِيلَهَا يا زُبَيْرُ) ؛ فَخَلَّى سبيلَها .

* * *

ولما وَضَعَتِ المَعْرَكَةُ أَوْزَارَها وَقَفَتْ صَفِيَّةُ على أخيها حَمْزَةَ فَوَجَدْته قد بُقِرَ[3] بَطْنُهُ ، وأُخْرِجَتْ كَبدُه ، وجُدِعَ أَنْفُهُ[4] ، وصُلِمَتْ[5] أُذُناه ، وشُوِّهَ وَجْهه ، فاسْتَغْفَرَتْ له ، وجَعَلَتْ تقول :

إنَّ ذلك في اللّهِ . . .

لقد رضيتُ بقضاء اللّهِ .

واللّهِ لأَصْبِرَنَّ ، ولأَحْتَسِبَنَّ[6] إن شاء اللّه.

* * *

كان ذلك مَوْقِفَ صَفِيَّةَ بنتِ عَبْدِ المُطّلِبِ يَوْمَ أُحُدٍ . . .

أَمَّا موقفُها يَوْمَ الخندقِ فله قِصَّةٌ مثيرةٌ سَدَاها الدَّهاءُ والذَّكاءُ ولُحْمَتُها[7]

---

(١) التمثيل : تشويه جَسَدِ الميت .

(٢) إليك يا أمَّة : ابتعدي يا أُمَّاه .

(٣) بُقِرَ بطنُه : شُقَّ بطنُه .

(٤) جدع أنفه : قطع أنفه .

(٥) صُلِمَتْ أذناه : قطعت أذناه .

(٦) لأحتَسِبَنَّ : لأجعلن ذلك المصاب في اللّه ولأطلبنَّ الأجر عليه منه .

(٧) السَّدَى : الخيوط الطوليَّة للنسيج واللحمة الخيوط العرضية .

البَسَالَةُ والحزمُ . . .

فإليك[1] خبرَهَا كما وَعَتْهُ كُتُبُ التاريخ .

***

لقد كان من عادةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا عَزَمَ على غَزْوَةٍ من الغَزَوَاتِ أن يَضَعَ النِّساءَ والذَّرارِيَ في الحُصونِ خَشْيَةَ أنْ يَغْدِرَ بالمدينَةِ غادرٌ في غَيْبَةِ حُماتِها .

فلما كان يومُ الخَنْدَقِ جَعَلَ نساءَهُ وعَمَّته وطائفةً من نساءِ المسلمين في حِصْنٍ لِحَسَّانَ بنِ ثابتٍ وَرِثَهُ عن آبائه ، وكانَ مِنْ أَمْنَعِ حُصونِ المدينَةِ مَناعَةً وأبْعَدِها مَنالاً .

وبينما كان المسلمون يرابطون على حَوافِّ[2] الخَنْدَقِ في مُواجَهَةِ قريشٍ وأحلافِها ، وقد شُغِلوا عن النِّساءِ والذَّرارِي بِمُنَازَلَةِ العَدُوِّ .

أَبْصَرَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ شبحاً يَتَحَرَّكُ في عَتْمَةِ الفَجْرِ ، فَأَرْهَفَتْ له السَّمْعَ ، وأحدَّتْ إليه البَصَرَ ، فإذا هُوَ يَهُودِيٌّ أَقْبَلَ على الحِصْنِ ، وجَعَلَ يُطِيفُ بِه مُتَحَسِّساً أَخْبَارَهُ مُتَجَسِّساً على من فيه .

فأدْرَكَتْ أنَّهُ عَيْنٌ[3] لِبَنِي قَوْمِه جاء لِيَعْلَمَ أفي الحِصْنِ رجالٌ يدافِعونَ عَمَّنْ فيه أم إنَّه لا يَضُمُّ بَيْنَ جُدْرَانِه غيرَ النِّساءِ والأطفال .

فقالت في نفسها : إنَّ يهودَ بني قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضُوا ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللَّهِ من عَهْدٍ وظاهروا[4] قُرَيْشاً وأحلافَهَا على المسلمين .

وليس بَيْننا وبَيْنَهُمْ أحدٌ من المسلمين يدافع عنا ، ورسولُ اللَّه وَمَنْ مَعَهُ مرابطون في نُحورِ[5] العَدُوِّ .

---

(١) إليك خَبرَها : خُذْ خَبَرَها .

(٢) حوافُّ الخندق : أطرافه .

(٣) عين : جاسوس .

(٤) ظاهروا قريشاً : أعانوا قريشاً .

(٥) في نحور العدوِّ : في وجوه العدو وقبالته .

فإن استَطاعَ عَدُوُّ اللَّهِ أنْ يَنْقُلَ إلى قَوْمِهِ حَقِيقَةَ أَمْرِنا سَبَى اليَهُودُ النِّساءَ ، واسْتَرَقُّوا الذَّرارِيَ ، وكانت الطامَّةُ[1] على المسلمين.

* * *

عِنْدَ ذلك بادَرَتْ إلىٰ خِمارِها فَلَفَّتْهُ على رأسِها ، وعَمَدَتْ إلىٰ ثِيابِها فشدَّتها على وَسَطِها ، وأَخَذَتْ عموداً على عاتِقِها[2] ، ونَزَلَتْ إلىٰ باب الحِصْنِ فَشَقَّتْهُ في أَناةٍ وحِذْقٍ ، وجَعَلَتْ ترقب من خلاله عَدُوَّ اللَّهِ في يَقظَةٍ وحَذَرٍ ، حتى إذا أَيْقَنَتْ أَنَّهُ غدا في مَوْقِفٍ يُمَكِّنُها مِنْهُ حَمَلَتْ عليه حَمْلَةً حازِمَةً صارِمَةً ، وَضَرَبَتْهُ بالعَمُودِ على رَأْسِه فَطَرَحَتْه أَرْضاً . . . ثم عزَّزَتِ الضَّرْبَةَ الأولى بثانِيةٍ وثالِثةٍ حتى أَجْهَزَتْ عليه ، وأَخْمَدَتْ أَنْفاسَه بَيْنَ جَنْبَيْهِ.

ثم بادرت إليه فاحْتَزَّتْ رأْسَه بسكين كانَتْ معها ، وقَذَفَتْ بالرَّأْسِ من أَعْلَى الحِصْنِ ، فَطَفِقَ يَتَدَحْرَجُ على سُفوحِهِ حتى استقرَّ بين أيدي اليهودِ الذينَ كانوا يَتَرَبَّصُونَ[3] في أَسْفَلِهِ.

فلما رَأَىٰ اليَهُودُ رأس صَاحِبِهم ؛ قال بَعْضهم لِبَعْضٍ :

قد علمنا إنَّ مُحَمَّداً لم يكنْ لِيَتْرُكَ النِّساءَ والأَطْفالَ من غَيْرِ حُماةٍ. . .

ثم عَادُوا أدراجَهم . . .

* * *

رضي اللَّه عن صَفيَّةَ بنْتِ عَبْدِ المطَّلِبِ .

فقد كانَتْ مَثَلاً فذاً لِلْمرأة المُسْلِمَةِ .

رَبَّت وحيدَها فأحكَمَتْ تربيتَه .

---

(١) الطامَّة : المصيبة الكبرى ، وسميت القيامَة طامَّة لأنها تطم كل شيء .

(٢) على عاتقها : على كتِفها .

(٣) يتربصون : ينتظرون ويترقبون .

وأصيبت بشقيقِها فأَحْسَنَتْ الصَّبْرَ عليه .

واختَبَرَتْها الشَّدائِدُ فوجدتْ فيها المَرْأَةَ الحازِمَةَ العاقِلَةَ الباسلة . . .

ثم إنَّ التاريخ كَتَبَ في أَنْصَعِ صفحاتِه : إنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ كانت أوَّلَ امْرَأةٍ قَتَلَتْ مُشْركاً في الإِسْلامِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار صفية بنت عبد المطلب انظر :

١ ـ أسد الغابة : ١٧٤/٧ .

٢ ـ الطبقات الكبرى : ٤١/٨ .

٣ ـ سير أعلام النبلاء : ١٩٣/٢ .

٤ ـ الإصابة : /٣٤٨ .

٥ ـ الاستيعاب : ٣٤٥/٤ .

٦ ـ سمط اللآلىء ٨ : ١٨/١ .

٧ ـ حياة الصحابة : ١٥٤/١ وانظر الفهارس .

٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام : انظر الفهارس .

٩ ـ ذيل تاريخ الطبري : انظر الفهارس .

١٠ ـ الكامل في التاريخ : انظر الفهارس .

١١ ـ أعلام النساء لكحالة : ٣٤١/٢ ـ ٣٤٦ .

١٢ ـ فتوح البلدان للبلاذري .

١٣ ـ الأغاني لأبي الفرج : انظر الفهارس .

١٤ ـ المستطرف للأبْشيهي : انظر الفهرس .

١٥ ـ المعارف لابن قتيبة : انظر الفهرس .

«إن لِعُتبَةَ بنِ غزوان مِنَ الإِسْلَامِ مَكَاناً»

[عمر بن الخطّاب]

أَوَىٰ أميرُ المؤمنينَ عُمرُ بنُ الخطابِ بَعْدَ صلاةِ العشاءِ إلى مَضْجَعِهِ فقد كان يريدُ أَنْ يصيبَ حَظًّا من الراحَةِ لِيَسْتَعينَ به على العَسِّ[1] في الليل .

لكِنَّ النومَ نَفَرَ عن عيني الخليفةِ ، لأنَّ البريدَ حَمَلَ إليه : أنَّ جُيوشَ الفُرْسِ المنهزمةَ أمامَ المسلمين كانت كلَّما أَوْشَكَ جُنْدُه على أَنْ يُجْهِزوا[2] عليها يأتيها المددُ من هُنَا وهناك ، فلا تَلْبَثُ أن تَسْتَعِيدَ قوَّتَها وتستأنِفَ القتال .

وقيل له : إنَّ مدينةَ الأُبُلَّةِ[3] تُعَدُّ من أَهَمِّ المصادرِ التي تُمِدُّ جيوشَ الفرسِ المُنْهَزِمَةَ بالمالِ والرِّجال .

فَعَزَمَ على أن يُرْسِلَ جيشاً لِفَتْحِ الأُبُلَّةِ ، وقَطْعِ إمْدَاداتِها عن الفُرْسِ ، لٰكِنَّهُ اصْطَدَمَ بقلَّة الرجالِ عنده .

ذلك لأنَّ شبَّانَ المسلمين وكهولَهم وشيوخَهم قد خَرَجُوا يَضْربونَ في فِجاجِ[4] الأرضِ غُزاةً في سبيلِ اللَّهِ ، حتَّىٰ لم يَبْقَ لَدَيْهِ في المدينةِ إلَّا النَّزْرُ[5] القليلُ .

---

(١) العَسُّ : الطواف بالليل للحِرَاسَة .

(٢) يجهزوا عليها : يقضوا عليها .

(٣) الأبلَّة : مدينة في جوار البَصْرَة ألحقت بها وغدت جزءاً منها .

(٤) يضربون في فجاج الأرض : يمشون في سُبُل الأرض غزاةً في سبيل اللَّه .

(٥) النزر : القليلُ الضئيل .

فعمد إلى طريقَتِهِ التي عُرِفَ بها . . .

وهي التَّعْويضُ عن قِلَّة الجُنْدِ بقُوَّة القائد . . .

فَنَثَرَ كِنانَةَ[1] رجالِهِ بَيْنَ يَدَيه وأَخَذَ يَعْجِمُ[2] عِيدَانهم واحِداً بعد آخَرَ فما لَبِثَ أنْ هَتَفَ :

وَجَدْتُه . . .

نعم وجدته . . .

ثم مَضَىٰ إلى فراشِهِ وهو يقول : إنه مجاهدٌ عَرفَتْهُ بـدرٌ وأحـدٌ والخندقُ وأخواتُها . . .

وَشَهِدَتْ له اليَمامَةُ ومواقِفُها . . .

فما نَبا لـه سيفٌ[3] ، ولا أخطأت له رَمْيَةٌ . . .

ثم إنـه هـاجـرَ الهِجْـرَتَيْن[4] ، وكـان سـابِـعَ سَبْعَـةٍ أَسْلَمُـوا على ظَهْـرِ الأرضِ . . .

ولما أَصْبَحَ الصُّبْحُ ، قال : آدْعوا لي عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ .

وعقَدَ له الرايةَ على ثلاثِمائَةٍ وبِضعَةَ[5] عَشَر رجلاً . . .

وَوَعَدَه بِأَنْ يُمِدَّه تِباعاً بما يَتوافَرُ له من الرجال .

***

ولما عَزَمَ الجيشُ الصغيرُ على الرحيلِ ؛ وقَفَ الفاروقُ يودِّعُ قائدَه عُتْبَةَ ويُوصِيهِ فقال له :

---

(١) الكنانة : جَعبة السِّهام .

(٢) يعجم عيدانهم : يختبر عيدانَهم (شبههم بالسِّهام) .

(٣) نبا السيف : لم يصب .

(٤) الهجرتان : الهجرة إلى بلاد الحبشة والهجرة إلى المدينة .

(٥) بضعة عشر : البضع من الثلاثة إلى التسعة .

يا عُتْبَةُ إني قَدْ وَجَّهْتُكَ إلى أَرْضِ الأُبُلَّة ، وهي حِصْنٌ من حُصونِ الأعداءِ فـأرجو اللَّه أن يُعينَك عليها .

فإذا نَزَلْتَ بها فادْعُ قوْمَها إلىٰ اللّهِ ، فمن أجابَكَ فاقْبَل منه ، ومن أبىٰ فَخُذْ منه الجِزْيَة[1] عن صَغارٍ وذِلَّة . . .

وإلَّا فَضع في رِقابِهم السيفَ[2] في غَيْرِ هوادَةٍ .

واتّقِ اللَّهَ يا عُتْبَةُ فيما وُلّيتَ عليه .

وإيَّاك أَنْ تُنَازِعَكَ[3] نفسُكَ إلى كِبْرٍ يُفْسِدُ عليكَ آخرَتـك . واعْلَمْ أَنَّكَ صَحِبْتَ رسولَ اللَّهِ ﷺ، فأعزَّكَ اللَّهُ به بعدَ الذِّلَّة ، وقوَّاكَ به بَعْدَ الضَّعْفِ ، حَتَّى صِرْتَ أميراً مُسَلَّطاً ، وقائداً مُطاعاً ، تقولُ فَيُسْمَعُ مِنْـكَ ، وتأْمُـرُ فَيُطاعُ أَمْـرُكَ فيا لها من نِعْمَةٍ إذا هي لم تُبْطِرْكَ[4] وتَخْدَعْكَ وتَهْوِ بِكَ إلىٰ جَهَنَّمَ أعاذَكَ اللَّهُ وأعاذني منها .

* * *

مَضَىٰ عتبـةُ بنُ غزوانَ بِـرجالِـه ومَعَه زوجَتُـه وخَمْسُ نِسْوَة أخـرياتُ من زوجاتِ الجندِ وأخواتِهم ، حتىٰ نزلوا في أَرْضٍ قَصْباءَ[5] لا تَبْعُدُ كَثيراً عن مدينةِ الأُبُلَّة .

ولم يكن معهم شَيْءٌ يأكُلُونَه . . .

فلما اشتَدَّ عليهم الجوعُ قال عتبـةُ لِنَفَرٍ منهم : الْتَمِسُـوا[6] لنا في هـذه الأرضِ شيئاً نأكُلُه .

---

(١) الجزية : ما يأخذه الحاكم المسلم من الذمي من المال .
(٢) ضع السيف في رقابهم : حاربهم واقتلهم .
(٣) تنازِعك نفسك : تدعوك نَفْسُك .
(٤) تبطرك : البَطَرُ سوء التصرُّف بالنعمة .
(٥) قصباء : ذات قَصَـب ، والقصب نباتٌ مائي مُجَوَّفٌ .
(٦) التمسوا : ابحثوا واطلبوا .

فقاموا يبحثون عَمَّا يَسُدُّ جَوْعَتَهم ، فكانت لهم مع الطعام قِصَّةٌ رواها أحدهُم فقال :

بينما كُنَّا نبحثُ عن شَيْءٍ نأكُلُه ؛ دَخَلْنَا أجَمَةً[1] فإذا فيها زِنْبيلان[2] في أحدهما تمرٌ ، وفي الآخَرِ حَبٌّ أَبْيَض صغيرٌ مُغَطًّى بِقِشْرٍ أَصْفَرَ ، فَجذَبْناهُما حتى أَدْنَيْناهما من العَسْكَرِ ، فنظر أَحَدُنا إلى الزِّنْبيلِ الذي فيه الحَبُّ وقال :

هذا سُمٌّ أَعَدَّه لكم العَدُوُّ ، فَلاَ تَقْرَبُنَّه .

فَمِلْنا إلىٰ التَّمْر ، وجعلنا نَأْكُلُ مِنْهُ . . .

وفيما نحن كذلك إذْ بِفَرَسٍ قد قَطَعَ قِيادَه[3] وأَقْبَلَ على زِنْبيلِ الحَبِّ وجعل يأْكُلُ منه ، فواللَّه لَقَدْ هَمَمْنا بأَنْ نَذْبَحَهُ قبلَ أَنْ يموتَ لِنَنْتَفِعَ بِلَحْمِهِ .

فقام إلينا صاحِبُه وقال : دعوه ، وسأحْرُسُه اللَّيلَةَ فإِنْ أَحْسَسْتُ بموتهِ ذَبَحْتُه .

فلما أَصْبَحْنا وَجَدْنا الفرسَ معافىً لا ضَرَرَ فيه .

فقالت أختي : يا أخي ، إني سَمِعْتُ أبي يقول : إن السُّمَّ لا يَضُرُّ إذا وُضِعَ على النار وأُنْضِج .

ثمَّ أخذَتْ شيئاً من الحَبِّ ووضَعَتْه في القِدْرِ ، وأَوْقَدَتْ تَحْتَه .

ثم ما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ : تعالوا انظُروا كَيْفَ احمَرَّ لونُه ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَشَقَّقُ عنه قِشْرُهُ ، وتَخْرُجُ مِنْهُ حُبوبُه البيضُ .

فألقَيْناه في الجَفْنَةِ[4] لنأكُلَه ، فقال لنا عُتْبَةُ : اذكروا اسمَ اللَّهِ عليه وكلوه . . .

فأكلناه فإذا هو غايَةٌ في الطيب .

---

(١) الأجمة : الشجر الكثيرُ الملتفُّ .
(٢) الزنبيل : القفَّة .
(٣) قطع قيادَه : قطع رَسَنَه .
(٤) الجفنة : القصعة الكبيرَةُ .

ثم عَرَفْنَا بعد ذلك أنَّ اسْمَهُ الأُرُزُّ .

* * *

كانت الأُبُلَّةُ التي اتَّجه إليها عتبةُ بنُ غَزْوانَ بجيشهِ الصغيرِ مدينةً حصينةً قائِمةً على شاطئ دِجْلة[١] ،

وكان الفُرْسُ قد اتَّخذوها مخازنَ لأَسْلِحَتِهِم ،

وجعلوا من أبراج حُصونِها مراصِدَ[٢] لمراقَبَةِ أعدائهم .

لكنَّ ذلك لم يمنع عُتْبَةَ من غزوِها على الرغم من قِلَّةِ رجاله وضآلةِ سلاحِه .

إذْ لم يَجْتَمِعْ له من الرجالِ غيرُ ستِّمائةِ مُقاتِلٍ تَصْحَبُهم طائفةٌ قليلةٌ من النساء .

ولم يكن عِنْدَهُ من السِّلاحِ غيرُ السُّيوفِ والرِّماحِ ، فكان لا بُدَّ له من أنْ يَسْتَعْمِلَ ذكاءه .

* * *

أعَدَّ عُتْبَةُ للنِّسْوَةِ راياتٍ رَفَعَها على أعوادِ الرماح . . .

وأمَرَهُنَّ أنْ يَمْشِينَ بها خَلْفَ الجيش ، وقال لهن :

إذا نَحْنُ اقْتَرَبنا من المدينَةِ فأثِرْنَ التُّرابَ وراءَنا حتَّىٰ تَمْلأْن به الجَوَّ .

فلما دنَوْا من الأُبُلَّةِ خَرَجَ إليهم جندُ الفُرْسِ ، فرأوا إقْدامَهمْ عليهم .

ونظروا إلىٰ الرَّاياتِ التي تَخْفِق وراءَهم .

ووجدوا الغبارَ يَمْلأُ الجَوَّ خَلْفَهُمْ .

فقال بعضُهم لبعض : إنهم طليعةُ[٣] العسكر ، وإنَّ وراءَهم جيشاً

---

(١) دِجلة : نهر ينبع من تركيا ثم يجري في العراق ، ويصبُّ في شط العرب .

(٢) مراصد : جمعُ مَرْصَد ، وهو مكانُ رَصْدِ العدو ومراقبتِه .

(٣) طليعة العسكر : مقدمة العسكر .

جرّاراً[1] يثيرُ الغبارَ ، ونحن قِلة . . .

ثُمَّ دبَّ في قلوبِهِمُ الذُّعْرُ ، وسَيْطَرَ عليهم الجَزَعُ ، فطفِقوا يَحْمِلون ما خَفَّ وزنُهُ وغلا ثَمنُهُ ، ويتسابقون إلىٰ رُكوبِ السُّفُنِ الراسِيَةِ في دِجْلَةَ ويُوَلُّون الأدبار[2] .

فدخل عتبةُ الأُبُلَّةَ دون أَنْ يَفْقِدَ أحداً من رِجالِه . . .

ثم فَتَحَ ما حَوْلَها من المُدُنِ والقُرَىٰ .

وغنم من ذلك غَنَائِمَ عَزَّتْ على الحَصْرِ[3] ، وفاقَتْ كُلَّ تَقْديرٍ ، حَتَّىٰ إنَّ أَحَدَ رجالِه عادَ إلىٰ المدينَةِ ، فسَأَله الناسُ :

كَيْفَ المسلمونَ في الأُبُلَّةِ ؟

فقال : عَمَّ تَتَساءَلون ؟!

واللَّهِ لقد تركتُهُمْ وهم يكْتالون الذَّهَبَ والفضَّةَ اكتِيالاً . . . فأخذ الناس يَشُدُّون إلىٰ الأُبُلَّةِ الرِّحالَ[4] .

* * *

عند ذلك رأىٰ عُتْبَةُ بنُ غزوانَ أَنَّ إقامَةَ جنودِه في المُدُنِ المَفْتُوحَةِ سوف تُعَوِّدُهُم على لِينِ العيش ، وتُخَلِّقُهُم بأخلاق أهلِ تلك البلادِ ، وتَفُلُّ[5] من حِدَّة عزائِمِهم علىٰ مُواصَلَةِ القتالِ ؛ فكتبَ إلى عمرَ بنِ الخطابِ يَسْتَأْذِنُه في بِناءِ البَصْرَةِ[6] ، ووصَفَ له المكانَ الذي اختارَه لها فأَذِن له .

* * *

اخْتَطَّ[7] عُتْبَةُ المدينَةَ الجديدةَ . . .

---

(١) الجيش الجرار : الجيش الكثيف الكثير العَدد والعُدد .

(٢) يولون الأدبار : ينهزمون .

(٣) عَزَّت على الحصر : تعذَّر إحصاؤها .

(٤) يشدون الرحال إلى الأبلة : يسافرون إليها .

(٥) تفلُّ من حدة عزائمهم : تضعف من قوَّة عزائمهم .

(٦) البَصْرَة : مدينة في العراق على شطِّ العرب .

(٧) اختط عتبة المدينة : خططها .

وكان أوَّلَ ما بناه مسجدُها العظيم . . .

ولا عجب . . .

فمن أجْلِ المَسْجِدِ خَرَجَ هُو وأصحابُه غُزاةً في سبيلِ اللّه . . .

وبالمَسْجِدِ انْتَصَرَ هو وأَصْحَابُه على أعداءِ اللّه . . . .

ثم تَسابَقَ الجُنْدُ على اقتِطاعِ [١] الأرضِ وبناءِ البيوت . . . .

لكن عتبةَ لم يَبْنِ لنفسهِ بيتاً ، وإنما ظَلَّ يَسْكُنُ خيمَةً من الأكْسِيَة . . .

ذلك لأنَّه كان قد أسَرَّ في نَفْسِهِ أمراً . . .

* * *

فلقد رأىٰ عُتْبَةُ أنَّ الدنيا أقبَلَتْ على المسلمين في البَصْرَةِ إقبالاً يُـذْهِلُ المرءَ عن نفسِهِ .

وأنَّ رجالَه الذين كانوا مُنْذُ قليلٍ لا يَعْرِفون طعاماً أطْيَبَ من الأُرُزِّ المَسْلوقِ بقِشْـرِه قَدْ تَـذَوَّقُوا مـآكِلَ الفُـرْسِ من الفـالـوذَجِ [٢] واللَّوْزِينَـجِ [٣] وغيـرِهمـا واستطابوها .

فخشي على دِينه من دنياه . . .

وأَشْفَقَ على الآجِلَةِ من العاجِلَةِ [٤] . . .

فَجَمَع النَّاسَ في مَسْجِدِ الكوفَةِ وخَطَبَهُمْ فقال : أيُّها الناس إن الدُّنْيَا قد آذَنَتْ [٥] بالانْقضاءِ ، وأَنْتُمْ مُنْتَقِلُون عَنْهَا إلىٰ دارٍ لا زوال فيها ، فـانتقِلوا إليها بخيرِ أعمالِكم . ولقد رأيتُني سابعَ سبعةٍ [٦] مع رسولِ اللّه ﷺ، وما لنا طعامٌ غيرُ

---

(١) اقتطاع الأرض : أخذها وامتلاكها .

(٢) الفالوذج : صنف من الحلوى يصنع من الدقيق والسَّمْن والعَسَل .

(٣) اللوزينج : صنف من الحلوى يشبه القطايف يحشى باللوز .

(٤) الآجلة : هي الآخرة والعاجلة الدنيا .

(٥) آذَنَتْ بالانقضاء : أعلنت عن أنها توشك أن تنتهي .

(٦) رأيتني سابع سبعة : رأيت نفسي بين المسلمين ولم يكن قد أسلم أحدٌ غيرنا .

ورقِ الشجرِ حتى قَرِحَتْ منه أشداقُنَا[١] .

ولقد التَقَطْتُ[٢] بُرْدَةً ـ ذاتَ يومٍ ـ فَشَقَقْتُها بَيْني وبينَ سَعْدِ ابنِ أبي وقَّاصٍ[٣] فاتَّزَرْتُ[٤] بنصْفِها ، واتَّزرَ سعدٌ بنصْفها الآخر .

فإذا نحن اليومَ لم يَبْقَ مِنَّا واحدٌ إلا وهو أميرٌ على مِصْرٍ من الأمصار . . .

وإني أعوذُ باللَّه أن أكونَ عظيماً عند نفسي صغيراً عندَ اللَّه . .

ثم استَخْلَفَ عليهم رَجُلاً منهم ، وودَّعَهُم ومَضىٰ إلى المدينة .

فلما قَدِمَ على الفاروقِ استَعْفاه[٥] من الولَايَةِ فلم يُعْفِه ، فألحَّ عليه فأصَرَّ عليه الخليفةُ ، وأمَرَه بالعودَةِ إلى البَصْرَةِ . . فَأذْعَنَ[٦] لأمرِ عُمَرَ كارِهاً ، ورَكِبَ ناقَتَهُ وهو يقول :

اللهم لا تَرُدَّني إليها . . .

اللهم لا تَرُدَّني إليها . . .

فاستجاب اللَّهُ دعاءَه إذ لم يبعدْ عن المدينَةِ كثيراً حتَّىٰ عَثرتْ ناقَتُه ، فَخَرَّ عنها صريعاً . . . وفارق الحياة(*) . . .

---

(١) قرحت منه أشداقنا : تقرَّحت منه شفاهُنا .

(٢) التقطت بردة : أخذتها من الأرض .

(٣) سعد بن أبي وقاص : انظر سيرتَه في ص ٢٨٥ .

(٤) اتزرت بنصفها : جعلت نصفها إزاراً لي .

(٥) استعفاه من الولاية : طلب منه أن يعفيه منها ويعزله عنها .

(٦) أذعن لأمر عمر : خضع له واستجاب .

(*) للاستزادة من أخبار عتبة بن غزوان انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة ٥٤١١ .

٢ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ١١٣/٣ .

٣ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٧/٢ .

٤ ـ أسد الغابة : ٣٦٣/٣ .

٥ ـ تاريخ خليفة بن خياط : ٩٥/١ ـ ٩٨ .

٦ ـ البداية والنهاية : ٤٨/٧ .

٧ ـ معجم البلدان : عند الكلام على البصرة : ٤٣٠/١٠ .

٨ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد : ١/٧ .

٩ ـ تاريخ الطبري : انظر الفهارس في العاشر .

١٠ ـ سير أعلام النبلاء : ٢٢١/١ ـ ٢٢٢ .

١١ ـ حياة الصحابة : انظر الفهارس في الرابع .

نُعَيم بن مسعود

«نعَيمُ بنُ مَسْعود رَجُل يَعرفُ أنَّ الحَربَ خِدْعَة »

نُعَيْمُ بنُ مَسْعودٍ فتىً يَقِظُ الفؤادِ أَلْمَعِيُّ الذَّكاءِ خَرَّاجٌ وَلّاجٌ[١] ، لا تَعوقُه مُعْضِلَةٌ ولا تُعْجِزُهُ مُشْكلَة .

يُمَثِّلُ ابنَ الصحراءِ بِكُلِّ ما حَباهُ[٢] اللّهُ من صِحة الحَدْسِ[٣] وسُرْعـةِ البديهةِ وشدَّة الدهاء . . . ولٰكِنَّه كان صاحِبَ صَبْوَةٍ[٤] ، وخدين[٥] متعـةٍ كان يَنْشُدُهما أكثرَ ما يَنْشُدُهما عِنْدَ يهودِ يَثْرِب .

فكان كلَّما تاقت نَفْسُه لِقَينَةٍ[٦] أوْ هفا سمعُه لِوَتَرٍ شدَّ رحالَه من منازل قَوْمِه في نجد ، ويَمَّمَ وجهه شطرَ المدينةِ حيث يَبْذُلُ المالَ ليهودِها بسخاءٍ ليبذُلوا له المِتْعَةَ بسخاءٍ أكثر . . .

ومن هنا فقد كان نُعَيمٌ كثيرَ التردُّدِ على يثربَ ، وثيقَ الصِّلةِ بمن فيها من اليهودِ ، وخاصَّة بني قُرَيْظَةَ .

* * *

(١) خرَّاج ولَّاج : كثيرُ المداخل والمخارج وذلك علامة على ذكائه ودهائه .
(٢) حباه : أعطاه .
(٣) صِحَّة الحَدْسِ : صِحَّةُ التقدير والظنِّ .
(٤) صاحب صَبْوَة : صاحب رغبة في المتع واللّذاتِ .
(٥) خدين : رفيق وصديق .
(٦) القينة : المغنية .

ولما أكرم اللّهُ الإنسانيةَ بإرْسالِ رَسولِه بدينِ الهُدَىٰ والحَقِّ ، وسطَعَتْ شِعابُ مكةَ بنورِ الإسلام ؛ كان نُعيمُ بن مسعودٍ ما يزال مُرْخياً للنَّفسِ عِنَانَها[1] . . .

فأعرضَ عن الدين الجديدِ أشدَّ الإعراضِ خوفاً من أن يحولَ دونَه ودونَ مِتعِه ولذَّاتِه .

ثم ما لَبِثَ أن وجد نفسَه مسوقاً إلىٰ الانضمامِ إلىٰ خصومِ الإسلامِ الألِدَّاءِ ، مدفوعاً دفعاً إلىٰ إشهارِ السيفِ في وجْهِهِ .

* * *

لكنَّ نُعَيمَ بنَ مسعودٍ فَتَحَ لِنَفْسِه يومَ غَزْوَةِ الأحزابِ صفحَةً جديدةً في تاريخ الدعوةِ الإسلاميةِ ، وخَطَّ في هذه الصفحة قِصَّةً من روائعِ قِصَصِ مكايدِ الحروبِ . . .

قِصةً ما يزال يرويها التاريخُ بكثير من الانْبِهارِ[2] بِفُصولها المُحْكَمَةِ ، والإعجابِ ببطلها الأريبِ اللبيب[3] .

* * *

ولِتَقِفَ على قِصَّةِ نُعَيمِ بنِ مسعودٍ لا بُدَّ لَكَ من الرجوع إلى الوراءِ قليلاً .

فَقُبَيْلَ غزوةِ الأحزابِ بقليلٍ هَبَّتْ طائِفَةٌ مِنْ يهودِ بني النُّضَيْرِ في يثربَ ، وطفِقَ زعماؤهم يُحَزِّبون الأَحْزابَ لِحَرْبِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ والقضاءِ على دينهِ . . .

فقدِموا على قريشٍ في مَكَّةَ ، وحَرَّضوهم[4] على قِتالِ المسلمين ،

---

(١) مرخياً للنفس عنانَها : تاركاً النَّفْسَ على هواها .
(٢) الانبِهار : الدهشة .
(٣) الأريب اللبيب : الذكي الحاذق .
(٤) حرَّضوهم : حثوهم وزينوا لهم .

وعاهدوهم على الانْضِمامِ إليهم عندَ وصولهم إلىٰ المدينـةِ ، وضربـوا لذلـك موعداً لا يُخْلِفونَه .

ثم تركوهم وانطلقوا إلىٰ غَطفانَ في « نجد » فأثاروهم ضِدَّ الإسلام ونَبيِّه ، ودَعوْهُم إلىٰ استئصالِ[1] الدينِ الجديدِ من جُذوره ، وأسَرُّوا إليهم بما تمَّ بَيْنَهم وبينَ قريشٍ ، وعاهدوهم علىٰ ما عاهدوها عليه ، وآذنوهُمْ[2] بالمَوْعِدِ المُتَّفَق عليه .

* * *

خـرجت قريشٌ من مكـةَ بقضِّها وقضيضهـا[3] وخَيْلِها ورَجِلِهـا[4] بقيادَة زعيمِها أبي سفيانَ بنِ حـربٍ مُتَّجهةً شطرَ المدينةِ .

كما خرجت غـطفانُ من نجـدٍ بِعُدَّتهـا وعديـدها بقيـادة عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ الغَطَفاني .

وكان في طليعةِ رجالِ غطفانَ بطلُ قِصَّتِنا نُعَيمُ بنُ مَسْعُودٍ . . .

فلما بلغ الرسولَ صَلواتُ اللّهِ عليه نبأُ خروجِهم جَمَع أَصْحَابَه وشاوَرَهم في الأمر ، فقرَّ قرارُهم على أنَّ يَحْفِروا خَنْدَقاً حولَ المدينةِ لِيَصُدُّوا عنها هـذا الزَّحْفَ الكبيرَ الذي لا طاقَةَ لها بِهِ ، ولِيَقِفَ الخندقُ في وجهِ الجيشِ الكثيفِ الغَازِي .

* * *

ما كادَ الجيشان الزَّاحِفَانِ من مكَّةَ ونجدٍ يَقْتَرِبانِ من مشارِفِ[5] المـدينةِ

(١) استئصال الدين الجديد : قطعه من جذوره والقضاء عليه .
(٢) آذنوهم : أعلموهم .
(٣) بقضها وقضيضِها : جميعِها .
(٤) خيلها وَرَجْلِها : ركبانها ومشاتها .
(٥) مشارف المدينة : الأماكن التي تشرف على المدينة .

حتى مَضَىٰ زعماءُ يهود بني النُّضَيْـر إلى زعماء يهـود بني قُرَيْـظَةَ القاطنين في المدينة ، وجعلوا يحرِّضونهم على الدُّخولِ في حربِ النبيِّ ، ويَحُضُّونَهُمْ على مُؤازَرَةِ الجيشين القادِمين من مَكَّةَ ونجدٍ .

فقال لهم زعماءُ بني قُريظةَ!: لقد دَعَوْتُمُونا إلىٰ ما نُحِبُّ ونَبْغي ، ولكنكم تَعْلَمون أَنَّ بينَنا وبينَ محمدٍ ميثاقاً على أَنْ نُسالِمَه ونوادِعَـه لِقاءَ أَنْ نعيشَ في المدينةِ آمِنين مُطْمَئِنِّين وأنتم تدرون أَنَّ مِدَادَ مِيثاقِنا مَعَه لم يَجِفَّ بَعْدُ . . .

ونحن نَخْشَىٰ إذا انتَصَرَ محمدٌ في هذه الحربِ أَنْ يبطشَ بنا بَطْشَةً جَبَّارَةً وأن يَسْتَأْصِلنا من المدينَةِ اسْتِئْصالاً جَزَاءَ غَدْرِنا بِهِ . . .

لكنَّ زعماءَ بني النضير ما زالوا يُغْرونَهُمْ بِنَقْضِ العَهْدِ ويُزيِّنون لهم الغَدْرَ بمحمدٍ ، ويؤكِّدون لهم بأَنَّ الدائِرَةَ(١) ستدور عليه في هذه المَرَّةِ لا مَحَالَةَ(٢) .

ويشدُّون عَزْمَهم بقدوم الجيشين الكبيرين .

فما لَبِثَ يهودُ بني قُرَيظةَ أن لانوا لهم ونقضوا عَهْدَهُمْ مع الرسولِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه . . .

ومزَّقوا الصحيفة التي بينَهم وبينَه . . . وأعلنوا انضِمامَهم إلىٰ الأحزاب في حَرْبِه . . .

فوقع الخَبَرُ على المسلمين وقوعَ الصاعقة . . .

* * *

حاصَرَتْ جيوشِ الأَحْزابِ المدينَةَ وقَطَعَتْ عن أَهْلِها الميرَةَ(٣) والقوت .

وشَعَرَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه أنَّه وقَعَ بين فَكَّي العدوِّ . . .

---

(١) الدائرة : النكبة والمصيبة .　　(٢) لا مَحالَةَ : لا شَكَّ ولا ريب .　　(٣) الميرة : الطَّعام والمؤنة .

فقريشٌ وغطفانُ معسكرون قبالَةَ المسلمين من خارجِ المدينة . . .

وبنو قُرَيْظَةَ مُتَربِّصون مُتَأَهِّبونَ خَلْفَ المسلمين في داخل المدينة . . .

ثم إنَّ المنافقين والذين في قلوبهم مَرَضٌ أَخَذَوا يكشِفون عن مُخَبّآتِ نفوسهم ويقولون :

كانَ محمدٌ يَعِدنا بِأَنْ نملِكَ كنوزَ كِسْرَىٰ وقَيْصَرَ وها نحن اليومَ لا يَأْمَنُ الواحِدُ مِنَّا علىٰ نَفْسِه أَنْ يَذهَبَ إلى بيتِ الخلاءِ لِقَضاءِ الحاجة ! !

ثم طفقوا يَنْفَضُّونَ[1] عن النبيِّ جماعَةً إثْرَ جماعةٍ بحُجَّةِ الخَوْفِ على نِسَائِهِمْ وأولادِهم وبيوتِهم من هَجْمَةٍ يَشُنُّها عليهم بنو قُرَيْظَةَ إذا نَشِبَ القتالُ ، حتى لم يَبْقَ مع الرسولِ سِوَىٰ بضع[2] مِئاتٍ من المؤمنينَ الصادقين .

وفي ذات ليلةٍ من ليالي الحِصارِ الذي دامَ قريباً من عشرينَ يوماً لَجأَ الرسولُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه إلىٰ ربِّه ، وجعل يدعوه دعاءَ المُضْطَرِّ[3] ، ويُكَرِّرُ في دعائه قَوْلَه :

(اللَّهُمَّ إني أنْشُدُك[4] عَهدَك وَوَعْدَك . . . اللَّهُمَّ إني أنْشُدُك عَهدَك ووعدَك . . .) .

* * *

كان نُعَيمُ بنَ مسعود في تلك الليلةِ يَتَقَلَّبُ على مِهادِه[5] أَرِقاً كأنما سُمِّرَ[6] جَفْناه فما يَنْطَبِقان لنومٍ ، فَجَعَل يَسْرَح ببَصَرِه وراءَ النجومِ السابحةِ علىٰ صَفْحَةِ السماءِ الصافيةِ . . . ويطيلُ التفكير . . . وفجأةً وَجَدَ نَفْسَه تُسائِلُه قائلةً :

---

(١) ينفضون : يتفرقون .
(٢) بضع : البضع من الثلاثة إلى التسعة .
(٣) دعاء المضطر : دعاء المحتاج الشديد الحاجة .
(٤) أنشدك عَهْدَك ووعدك : أطلب منك النَّصْرَ الذي وعدتني به .
(٥) مهاده : فراشه .
(٦) سُمِّر جفناه : ثُبِّتا بالمسامير .

وَيْحَكَ يا نُعَيمُ !!

ما الذي جاءَ بك من تلك الأماكن البعيدَةِ في نجد لحربِ هذا الرجل ومن معه ؟!!.

إنَّك لا تُحارِبُهُ انتصاراً لِحَقٍّ مسلوبٍ أو حَمِيَّةً لِعِرْضٍ مَغْصُوبٍ ، وإنما جئتَ تحارِبُهُ لِغَيْرِ سَبَبٍ معروفٍ . . .

أيليقُ برجلٍ له عقلٌ مثلُ عقلك أَنْ يقاتلَ فيقتُل أو يُقْتَل لِغَيْرِ سببٍ ؟!!

وَيْحَكَ يا نعيم . . .

ما الذي يجعلك تُشْهِرُ سيفَك في وجه هذا الرجلِ الصالح الـذي يأمـر أَتْباعَه بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرَبىٰ ؟!!

وما الذي يَحْمِلُكَ على أَنْ تغمِسَ رُمْحَك في دماءِ أَصْحَابِه الذين اتَّبَعُوا ما جاءَهُم بِهِ من الهُدَىٰ والحَقِّ ؟!!

ولم يَحْسِمْ هذا الحوارَ العَنيفَ بَيْنَ نُعَيمٍ ونَفْسِه إلا القرارُ الحازِمُ الذي نَهَضَ من تَوِّه[1] لتنفيذِه .

* * *

تَسَلَّلَ نُعيمُ بنُ مسعودٍ من مُعَسْكَرِ قَوْمِه تَحتَ جُنْحِ الظَلامِ ومضَىٰ يَحُثُّ الخُطا[2] إلى رسولِ اللّهِ ﷺ . . .

فلما رآه النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام ماثِلاً بَيْنَ يَديه قال :

(نُعيمُ بنُ مسعودٍ ؟!) .

قال : نَعم يا رسول اللّه .

قال : (ما الذي جاءَ بك في هذه الساعةِ ؟!!)

---

(١) من تَوِّه : من لحظتِه .

(٢) يحث الخطا : يسرع في خطاه .

قال : جئت لأشهدَ أنْ لا آلهَ إلاَّ اللّهُ ، وأنَّك عبدُ اللّهِ ورسولُه ، وأنَّ ما جئتَ به حقٌّ . . .

ثم أَرْدَفَ يقول : لقد أسلمتُ يا رسولَ اللّهِ وإنَّ قومي لم يَعْلَموا بإسْلامي . . .

فَمُرْني بما شئتَ . . .

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (إنما أنت فينا رجُلٌ واحدٌ . . . فاذْهَبْ إلى قَوْمِكَ وخذِّلْ عنا[1] إن استطعت ؛ فإنَّ الحربَ خُدْعةٌ . . .)

فقال : نعم يا رَسولَ اللّه . . .

وسَتَرَىٰ ما يَسُرُّك إن شاء اللّه .

* * *

مَضَىٰ نُعيمُ بنُ مَسْعودٍ من تَوِّه إلى بني قُرَيْظَة ، وكان لهم - من قَبْلُ - صاحِباً ونديماً[2] . . .

وقال لهم : يا بني قُرَيْظَةَ ، لقد عَرَفتم وُدِّي لكم وصِدْقي في نُصْحِكُمْ .

فقالوا : نعم ، فما أَنْتَ عِنْدَنا بِمُتَّهَمٍ . . .

فقال : إن قريشاً وغطفَانَ لَهُمْ في هذه الحَرْبِ شأنٌ[3] غَيْرُ شَأْنِكُمْ .

فقالوا : وكيف ؟!

فقال : أنتُم هذا البلدُ بلدُكم ، وفيه أَمْوَالُكم وأَبْناؤكم ونساؤُكم وليس بِوُسْعِكُمْ[4] أن تَهْجِروه إلىٰ غَيْرِه . . .

أما قريشٌ وغطفانُ فَبَلَدُهم وأَمْوَالُهم وأبناؤهم ونساؤهم في غيرِ هذا البلدِ . . .

---

(١) خذِّلْ عنا : ضَعْضِعْ هِمَّة عدونا وأوهن قوته .

(٢) نديماً : رفيقاً .

(٣) شأن : حالٌ .

(٤) ليس بوسعكم : ليس بطاقتكم وقدرتكم .

وقـد جاءوا لِحَـرْبِ محمد ، ودَعَـوْكُمْ لِنُقْضِ عَهْدِهِ ومُنَـاصَـرَتِهِمْ عليـهِ فأَجَبْتموهم .

فإن أَصَابُوا نجاحاً في قِتالِه اغتَنَموه ، وإن أخفقوا[1] في قَهْرِه عادوا إلىٰ بلادِهم آمِنين ، وتركوكم له ؛ فَيَنْتَقِم منكم شَرَّ انتِقامٍ . . .

وأَنتم تَعلمون أَنَّكم لا طاقَةَ لكم به إذا خلا بكم . . .

فقالوا : صَدَقت ، فما الرَّأْيُ عِنْدَكَ ؟!

فقال : الرَّأْيُ عِنْدِي أَلَّا تُقَاتِلوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تأخُذوا طـائفَةً مِنْ أشـرافِهِمْ وتجعلوهم رهـائِنَ عِنْدَكم وبـذلك تَحْمِلونَهُمْ على قِتـالِ محمدٍ مَعَكم إلى أَنْ تنتَصِروا عليه أو يَفْنَىٰ آخرُ رجلٍ مِنْكُمْ ومِنْهُمْ . . .

فقالوا : أَشَرْتَ . . . ونَصَحْتَ . . .

ثم خَرَجَ من عِنْدِهم وأَتَىٰ أبا سفيانَ بنَ حَرْبٍ قائدَ قريشٍ وقال له ولمن معه :

يا مَعْشَرَ قريش ، لقد عَرَفْتُمْ وُدِّي لكم ، وعداوتي لمحمد . . .

ولقد بلغني أَمْرٌ فَرَأَيتُ حَقًّا عليَّ أَنْ أُفْضِيَ به[2] إليكم ؛ نُصْحاً لكم على أن تَكْتُموه ، ولا تذيعوه عَنِّي . . .

فقالوا : لَكَ علينا ذلك . . .

فقال : إن بني قُرَيْظَةَ قد نَدِمُوا على مُخاصَمَتِهِمْ لِمحَمَّدٍ ، فأَرْسَلوا إليه يقولون :

إنَّا قد نَدِمْنا على ما فَعَلْنا . . . وعَزَمْنا أَنْ نَعُودَ إلىٰ معاهَدَتِكَ ومُسالَمَتِكَ .

فهلْ يرْضِيكَ أن نأخُذَ لَكَ من قريشٍ وغطفانَ رِجالاً كثيراً من أَشْرَافِهِم ،

---

(١) أخفقوا : لم ينجحوا .

(٢) أفضي به إليكم : أطلعكم عليه .

ونُسْلِمَهُمْ إليكَ لِتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ . . .

ثم نَنْضَمَّ إليك في محاربتِهم حَتَّىٰ تَقْضِيَ عليهم. فأرْسَل إلَيهم يقول : نعم . . .

فـإنْ بَعَثَتِ اليَهُودُ تَـطْلُبُ مِنكُمْ رهائِنَ من رجـالِكُمْ فـلا تَـدْفَعـوا إليهم أحداً . . .

فقال أبو سفيان : نِعْمَ الحِليفُ أنت . . .
وجُزِيتَ خيراً . . .

ثم خَرَجَ نُعيمٌ من عِنْدِ أبي سُفْيانَ ومَضَىٰ حَتَّىٰ أَتَىٰ قَوْمَه غِطفانَ ، فحدَّثهم بِمِثْلِ ما حَدَّثَ به أبا سُفْيَانَ ، وحَذَّرهم مِمَّا حَذَّره منه .

* * *

أراد أبو سُفْيَانَ أَنْ يَخْتَبِرَ بني قُرَيْظَةَ فأَرْسَلَ إليهم ابنَه فقال لهم :

إنَّ أبي يُقْرِئُكم السَّلامَ ويقولُ لكم : إنَّه قد طالَ حِصارُنا لمحمدٍ وأصْحَابِهِ حَتَّىٰ مَلِلْنَا . . .

وإنَّنَا قد عَزَمْنَا على أَنْ نُقَاتِلَ محمداً ونفْرَغَ منه . . . وقد بعثني أبي إليكم لِيَدْعُوكُمْ إلى مُنَازَلَتِه غداً .

فقالوا له : إنَّ اليَوْمَ يومُ سَبْتٍ ، ونحن لا نَعْمَلُ فيه شيئاً ثُمَّ إننا لا نقاتِلُ مَعَكم حتى تُعْطونا سبعينَ من أَشْرَافِكُم وأَشْرافِ غطفانَ ليكونوا رهائِنَ عندنا .

فإنَّنا نخشَىٰ إن اشتَدَّ عليكم القِتَالُ أَنْ تُسْرِعوا إلى بلادِكُمْ وتَتْرُكونا لمحمدٍ وَحْدَنا . . .

وأنتم تعلمون أنَّه لا طاقَةَ لَنا بِهِ . . .

فلما عاد ابنُ أبي سفيان إلى قومِه وأَخْبَرَهم بما سَمِعَه من بني قريظة قالوا

بِلِسانٍ واحدٍ :

خسِىءَ أبناءُ القِرَدَة والخنازير . . .

واللّهِ لو طلبوا منا شاةً رهينَةً ما دَفَعْناها إليهم . . .

نَجَح نُعيمُ بنُ مَسْعُودٍ في تَمْزيقِ صفُوفِ الأحْزَابِ ، وتَفْرِيقِ كَلِمَتِهِم . . .

وأرْسَـلَ اللّهُ على قريشٍ وأحـلافِها رِيحـاً صَرْصَـراً عاتِيـةً جَعَلَتْ تَقْتَلِع خيامَهُمْ ، وتَكْفَأُ[1] قُدورَهم ، وتطفِىءُ نيرانَهم وتصْفَعُ وجوهَهم ، وتمْلأ عيونَهم تراباً . . .

فلم يجدوا مَفَرًّا من الرَّحيل . . .

فَرحلوا تَحْتَ جُنْحِ الظلامِ . . .

ولَمَّا أَصْبَحَ المسلمون ووجدوا أعداءَ اللّهِ قد وَلَّوْا مُدْبِرين جَعَلوا يهتِفون :

الحَمْدُ للّهِ الذي نَصرَ عَبْدَه . . .

وأَعَزَّ جُنْدَه . . .

وهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَه . . .

* * *

ظَلَّ نُعيمُ بنُ مَسْعُودٍ بَعْدَ ذلك اليَوْمِ مَوْضِعَ ثِقَةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ .

فَوَلِيَ له الأعمالَ ، ونَهَضَ له بالأعباء ، وَحَمَلَ بَيْنَ يدَيه الرَّاياتِ .

فلمـا كان يـومُ فتحِ مَكَّـةَ وقف أبو سُفْيـانَ بنُ حربٍ يَسْتَعْـرِض جيوشَ المسلمين ، فرأى رجلاً يَحْمِلُ رايَةَ غطفَانَ ، فقال لمن معه :

من هذا ؟!

فقالوا : نُعيمُ بنُ مَسْعودٍ . . .

---

(١) تكفأ قدورهم : تقلب قدورَهم .

فقال: بئس ما صَنَعَ بنا يوم الخَنْدَق ...

واللّهِ لقَد كان من أشدِّ النَّاسِ عداوةً لمحمد ... وها هو ذا يَحْمِل رايَة قومْهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

وَيَمْضِي لِحَرْبِنا تَحْتَ لوائِه(*) ...

(*) للاستزادة من أخبار نعيمِ بن مسعود انظر:

١ ـ الإصابة: الترجمة ٨٧٧٩ .

٢ ـ الاستيعاب (بهامِش الإصابة): ٥/٥٨٤ .

٣ ـ أسد الغابة: ٥/٣٤٨ أو الترجمة ٥٢٧٤ .

٤ ـ أنْسَابُ الأشرافِ: ٣٤٠، ٣٤٥ .

٥ ـ السيرَة النبوية لابنِ هشامٍ (انظر الفهارس) .

٦ ـ حياة الصحابة انظر الفهارس في الرابع .

خبَّابُ بنُ الأرَتِّ

« رَحِمَ اللَّهُ خبَّاباً فقد أسْلَمَ راغباً ، وَهاجَرَ طائعاً ، وعَاشَ مُجاهِداً »

[علي بن أبي طالب]

مضت أمُّ أنْمارٍ الخُزَاعِيَّةُ إلى سوقِ النخَّاسين[1] في مكَّةَ .

فقد كانت تُريدُ أنْ تَبْتاع لنفسِهَا غلاماً تنتفعُ بِخِدمَتِه ، وتَسْتَثْمِرُ عملَ يده . وطفِقَت تتفرَّسُ في وجوهِ[2] العبيدِ المعروضين للبيعِ ، فوقع اختيارُها على صَبيٍّ لم يَبْلُغِ الحُلُمَ ؛ رأت في صِحَّةِ جَسَدِهِ ، ومَخايِلِ[3] النَّجابةِ البادِيَةِ على وجهه ، ما أغْراها بِشرائِه ، فدَفَعَتْ ثمنَه وانطلقَت به .

وفيما هما في بَعْضِ الطريقِ التَفَتَتْ أُمُّ أنْمارٍ إلىٰ الصَّبيِّ وقالت : ما اسمُك يا غلام ؟

قال : خَبَّاب .

فقالت : وما اسمُ أبيك ؟

قال : الأَرَتُّ .

فقالت : ومن أين أنت ؟

قال : من نجد .

---

(١) النخَّاسون : بائعو العبيد والمفرد نخَّاس .

(٢) تتفرَّس في وجوه العبيد : تَتأَمَّل في وجوه العبيد .

(٣) مخايل النجابة : علامات الذكاء .

فقالت : إذَنْ أنت عربي !!

قال : نعم ومن بني تميم .

قالت : وما الذي أوْصَلَكَ إلى أَيْدِي النخاسين في مكة ؟!!

قال : أغارَتْ على حَيِّنا قبيلةٌ من قبائِلِ العَرَبِ ، فاسْتَاقَتِ الأنعامَ وسَبَتِ النِّسَاءَ ، وأخذتِ الذَّرارِيَ ، وكنتُ فيمن أُخِذَ من الغِلْمَانِ ، ثم ما زالَتْ تَتَداولُنِي[١] الأيدي حَتَّىٰ جيءَ بي إلىٰ مكةَ ، وصِرْتُ في يَدِك .

* * *

دفعت أم أنمارٍ غلامَها إلى قَيْنٍ[٢] من قُيونِ مكَّةَ لِيُعَلِّمَه صناعةَ السُّيوف ، فما أسْرَع أن حَذَقَ[٣] الغُلَامُ الصنعةَ وَتَمَكَّنَ منها أحسنَ تَمَكُّنٍ .

ولَمَّا اشتدَّ ساعِدُ خَبَّابٍ وصَلُبَ عودُه[٤] ؛ استأجرت له أمُّ أنمارٍ دكَّاناً ، واشْتَرَتْ له عُدَّةً ، وجَعَلَتْ تَسْتَثْمِرُ مهارَتَه في صُنْعِ السيوف .

* * *

لم يمض غيرُ قليلٍ على خبابٍ حتى شُهِرَ في مَكَّةَ ، وجَعَلَ الناسُ يُقْبلون على شراءِ سُيوفِه ، لِما كان يَتحلَّىٰ به من الأمَانَةِ والصِّدقِ وإتقانِ الصَّنْعَةِ .

* * *

وقد كان خبَّابٌ على الرَّغْمِ من فَتَائه[٥] يَتَحَلَّىٰ بعقل الكَلَمَلَةِ[٦] ، وحِكْمَةِ الشيوخ . . .

وكان إذا ما فَرَغَ من عَمَلِه وخَلا إلىٰ نَفْسِه كَثِيراً ما يُفَكِّرُ في هذا المُجْتَمَعِ الجاهِلِيِّ الذي غَرِقَ في الفَسَادِ من أَخْمَصِ[٧] قدميه إلى قِمَّةِ رأسه .

---

(١) تتداولني الأيدي : انتقل من يد إلى أخرى .

(٢) القين : الحدَّاد وجمعه قيون .

(٣) حذق الصنعة : أتقن الصنعة .

(٤) اشتد ساعده وصلب عوده : كنايتان عن قوَّته .

(٥) فتائه : شبابه وحداثة سِنِّه .

(٦) الكلملة: الكاملون .

(٧) أخمص قدميه : أسْفلِ قدميه .

ويهولُه ما رانَ[1] على حياةِ العربِ من جَهالةٍ جَهْلاءَ ، وضلالَةٍ عَمْيَاءَ ، كَانَ هو نفسُه أحَدَ ضَحَايَاها . . .

وكان يقول : لا بُدَّ لهذا الليلِ من آخر . . .

وكان يَتَمَنَّى أنْ تمتدَّ به الحياةُ لِيَرَىٰ بعينيه مَصْرَعَ الظلامِ ومَوْلِدَ النورِ .

* * *

لم يَطُلْ انتظارُ خَبَّابٍ كَثيراً ، فقد تَرَامَىٰ[2] إليه أن خيطاً من نورٍ قد تألَّق من فمِ فتىً من فِتْيانِ بني هاشم يدعَىٰ محمدَ بنَ عبدِ اللَّهِ .

فَمَضَى إليه ، وسَمِعَ منه ؛ فَبَهَرَهُ لألاؤه ، وغَمرَه سناه .

فَبَسَطَ يَدَه إليه ، وشهِدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّه وأن مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه .

فكان سادِسَ سِتَّةٍ أسلموا علىٰ ظهْرِ الأرضِ حَتَّىٰ قيل : مَضَى علىٰ خَبَّابٍ وقتٌ وهو سُدُسُ الإسلامِ . . .

* * *

لم يكتُمْ خبَّابٌ إسْلامَه عن أحَدٍ ، فما لَبِثَ أنْ بَلَغَ خَبَرُه أمَّ أَنْمارٍ ، فاسْتَشَاطَتْ[3] غَضَباً وغيظاً ، وَصَحِبَتْ أخاها سِباعَ بنَ عبدِ العُزَّىٰ ، ولَحِقَ بهما جماعَةٌ من فِتْيانِ خُزَاعَةَ ، ومَضَوْا جميعاً إلى خَبَّابٍ فوجدوه مُنْهَمِكاً في عَمَلِهِ . . .

فأَقْبَل عليهِ سِباعٌ وقال : لقد بَلَغَنا عنك نَبأٌ لم نُصَدِّقْه .

فقال خبَّابٌ : وما هو ؟

فقال سِباعٌ : يُشاعُ أَنَّك صَبأْتَ[4] وتَبِعْتَ غُلامَ بني هاشم .

---

(١) ران : غطَّى .

(٢) ترامَى إليه : بلغه ووصَل إليه .

(٣) استشاطت غضباً : التَهَبَتْ غَضَباً .

(٤) صبأتَ : كَفَرْت وخَرَجْت عن دينك .

فقـال خبَّابٌ ـ في هـدوء ـ : ما صَبَـأتُ ، وإنَّمـا آمنتُ بـاللَّهِ وَحْـدَه لا شريك له . . .

وَنَبَذْتُ أصنامكم[١] ، وشَهِدْتُ أن محمداً عبدُ اللَّهِ ورسولُه . . .

فما إنْ لامَسَتْ كلماتُ خَبَّابٍ مَسامِـعَ « سِبَاعٍ » ومَنْ مَعَـه حتَّىٰ انْهالـوا عليه ، وجَعَلوا يضْرِبونَه بأيديهم ، ويَرْكُلونَه بأقدامهم ويَقذِفونَه بما يَصِلون إليه من المطارِق وقِطع الحديد . . .

حتَّىٰ هَوَىٰ إلىٰ الأرضِ فاقِدَ الوَعْيَ والدِّماءُ تَنْزِفُ منه . . .

* * *

سَرَىٰ في مَكَّةَ خَبَرُ ما جَرَىٰ بينَ خَبَّابٍ وسَيِّدتِه سَرَيَانَ النار في الهَشِيمِ[٢]!!!

وَذَهلَ الناسُ من جَراءَة خَبَّابٍ ؛ إذْ لم يكونوا قد سَمِعُوا ـ من قبـلُ ـ أَنَّ أَحَداً اتَّبَعَ محمداً وَوَقَفَ بَيْنَ النَّاس يُعْلِن إسلامَه بمثل هذه الصَّراحَةِ والتَّحدِّي .

واهتَزَّ شيوخُ قريشٍ لِأَمرِ خَبَّابٍ . . . فما كان يخطر على بـالِهم أنَّ قَيْناً كَقَيْنِ أمِّ أنْمارٍ لا عَشيرَةَ له تَحْميه ، ولا عَصَبِيَّة عنده تَمْنَعُه وتُؤْوِيه ، تَصِـل به الجُرأَةَ إلىٰ أَنْ يَخْرُجَ على سُلْطَانِها ، ويَجْهَرَ بِسَبِّ آلِهتِها ، ويُسَفِّه دينَ آبائها وأجدادِها . . .

وأَيْقَنَتْ أن هذا يَوْمٌ له ما بَعْدَه . . .

ولم تَكُنْ قريشٌ على خطأ فيما تَوَقَّعَتْهُ ، فلقد أَغْرَتْ جُرأَةُ خبَّابٍ كثيراً من أَصْحَابِه بأَن يُعْلِنُوا إسـلامَهم ، فطَفِقـوا يَصْدَعـون[٣] بكلمةِ الحَقِّ واحـداً بعد آخَرَ . . .

* * *

اِجتمع سادَةُ قريش عند الكعبـةِ ، وعلى رأْسِهم أبو سفيـانَ بنُ حَرْبٍ ،

---

(١) نبذت أصنامكم : طَرَحتُ أصنامكم . (٢) الهشيم : النبات اليابِس . (٣) يصدعون : يجهرون ويعلنون .

والوليدُ بنُ المُغيرَةَ ، وأبو جهل بنُ هشامٍ وتذاكروا في شأنِ محمدٍ ؛ فرأَوْا أَنَّ أمْرَه أَخَذَ يزداد ويَتَفَاقَمُ[1] يوماً بعد يومٍ ، وساعَةً إثْرَ ساعةٍ . . .

فعزموا على أنْ يَحْسِموا الداء قبل استِفْحالِهِ[2]، وقرروا أن تَثِبَ كُلُّ قبيلةٍ على من فيها من أتْباعِه ، وأن تنكّل[3] بهم حتَّىٰ يَرْتَدُّوا عن دينهم أوْ يموتوا . . .

* * *

وقد وَقَعَ على سِباعِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ وقومِه عِبْءُ تَعْذِيبِ خبَّاب . . .

فكانوا إذا اشتدَّتِ الهاجِرَةُ[4] ، وغَدَت أَشِعَّةُ الشمسِ تُلْهِبُ الأرضَ إلهاباً أخرجوه إلى بَطْحَاءِ مَكَّةَ ، ونَزَعوا عنه ثِيابَه ، وألْبَسُوه دروعَ الحديدِ ، ومَنَعوا عنه الماءَ حتَّىٰ إذا بَلَغَ منه الجُهْدُ كُلَّ مَبْلغٍ أقبلوا عليه وقالوا :

ما تقول في محمدٍ ؟

فيقول : عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، جاءَنا بدين الهُدَىٰ والحقِّ ، لِيُخْرِجَنَا من الظُّلُماتِ إلىٰ النور .

فيوسِعونه ضَرْباً ولَكْماً ، ثم يقولون له : وما تقولُ في اللَّاتِ والعُزَّىٰ ؟!

فيقول : صنمان أصَمَّان أبْكمان لا يَضُرَّان ولا يَنْفَعَان . . .

فيأتون بالحِجارةِ المحْمِيَّةِ ، ويُلْصِقونها بِظَهْرِه ، ويُبْقُونها عليه حتَّىٰ يسيلَ دُهْنُ كتفيه . . .

* * *

ولم تكنْ أمُّ أنْمارٍ أَقَلَّ قَسْوَةً على خبَّابٍ من أخيها سِباعٍ فقد رَأَتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَمُرُّ بِدُكَّانِه ، ويُكَلِّمُه فَجُنَّ جنونُها لِمَا رَأَتْ[5] .

---

(١) يتفاقم : يتعاظمُ ويزداد .

(٢) يحسمون الداءَ قَبْلَ استفحاله : يستأصلونَه قبل اشتداده .

(٣) تُنَكّل بهم : تذيقُهم أشَدَّ العذاب .

(٤) الهاجِرَة : شِدَّة القيظ في منتَصِفِ النهار .

(٥) جُنَّ جنونُها : طار صوابُها وثارت ثائرَتُها .

وأَخَذَتْ تجيء إلى خَبَّابٍ يوماً بَعْدَ يومٍ ، فتأخذ حديدةً مَحْمِيَّةً من كِيرِه[1] ، وتضعُها على رَأْسِه حَتَّى يدخِّنَ رَأْسُه ، ويُغْمَى عليه . . .

وهو يدعو عليها وعَلَىٰ أخيها سِباعٍ .

* * *

ولما أَذِنَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه لأصحابه بالهِجرةِ إلىٰ المدينة تَهَيَّأَ خَبَّابُ للخروجِ .

غيرَ أَنَّه لم يُبارِح[2] مَكَّةَ إلَّا بعد أَنْ استجابَ اللَّهُ دعاءَه على أمِّ أَنْمارٍ . . .

فقد أُصِيبَتْ بِصُداعٍ لم يُسْمَعْ بمثلِ آلامِهِ قَطُّ ؛ فكانت تَعْوِي من شِدَّة الوَجَعِ كما تَعْوِي الكلابُ . . .

وقام أَبْناؤها يَسْتَطِبُّون[3] لها في كلِّ مكان ، فقيل لهم : إنَّه لا شفاءَ لها من أَوْجاعِها إلَّا إذا دَأَبَتْ على كَيِّ رَأْسِها بالنارِ . . .

فجعلت تَكْوي رأسَها بالحديدِ المَحْمِيِّ ؛ فَتَلْقَىٰ مِنْ أَوْجاعِ الكَيِّ ما يُنْسيها آلامَ الصُّداع . . .

* * *

ذاقَ خَبَّابُ في كَنَفِ[4] الأنصارِ في المدينةِ طَعْمَ الراحَةِ التي حُرِم منها دهراً طويلاً ، وقرَّت عينُه بِقُرْب نبيِّه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه دونَ أَنْ يكدِّرَه مكدِّرٌ أو يُعَكِّرَ صَفْوَه مُعكِّرٌ . . .

وشهِدَ مع النبيِّ الكريمِ بدراً ، وقاتَلَ تَحْتَ رايَتِه . . .

وخَرَجَ معه إلى أحد ، فأقَرَّ اللَّه عينَه برؤية سِباعِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ أخِي أُمِّ

---

(١) الكير : منفاخ مَوْقِدِ الحداد ، ويراد به الموقد نفسه .

(٢) يبارح : يغادر .

(٣) يستطبون لها : يبحثون لها عن الأطباء .

(٤) في كَنَفِ الأنصار : في رعايتهم وضيافتهم .

أنمارٍ وهو يَلْقَىٰ مَصْرَعَه على يَدِ أَسَدِ اللَّهِ حَمْزَةَ بنِ عبدِ المُطَّلِب . . .

* * *

وامتدَّت به الحياةُ حتَّىٰ أَدْرَكَ خلفاءَ رسولِ اللَّهِ الراشدين الأربعة .

وعاش في رِعايَتِهم جليلَ القَدْرِ نَبِيه الذِّكْرِ . . .

* * *

دَخَلَ ذات يومٍ على عمرَ بنِ الخطابِ في خِلافَتِه ، فأعْلَى عمرُ مَجْلِسَه ، وبالَغَ في تَقْريبِهِ وقال له :

ما أَحَدٌ أحقَّ منك بهذا المجلسِ غير بلالٍ .

ثم سأله عن أشدِّ ما لَقِي من أذَىٰ المُشْرِكين ، فاستحيا أنْ يجيبَه . .

فلمَّا أَلَحَّ عليه أزاحَ رداءَهُ عن ظَهْرِه ، فَجَفِلَ[1] عمرُ مِمَّا رأَىٰ ، وقال :

كَيْفَ صار ذلك ؟!

فقَالَ خبَّاب : أَوْقَدَ المشركون لي حطباً حَتَّى أَصْبَحَ جمْراً . . .

ثم نَزَعوا عنِّي ثيـابي ، وجعلوا يَجُرونني عليـه ، حَتَّىٰ سَقَطَ لحمي عن عِظامِ ظَهْرِي ، ولم يُـطْفِـء النَّارَ إلَّا الماءُ الذي نَزَّ من[2] جَسَدِي . . .

* * *

اِغتَنَىٰ خَبَّابٌ في الشَّطْرِ الأخيرِ من حياته بَعْدَ فَقْرٍ ، ومَلك ما لم يكن يَحْلُمُ به من الذَّهَبَ والفِضَّةِ . . .

غيرَ أَنَّهُ تصَرَّفَ في مالِه على وَجْهٍ لا يَخْطُرُ ببالِ أَحَدٍ . . .

فقد وَضَعَ دراهِمَه ودنانيرَه في مَوْضِعٍ من بيتِه يعرفُه ذوو الحـاجات من الفقراء والمساكين .

ولم يَشْدُدْ عليه رِبـاطاً[3] ، ولم يُحْكِمْ عليـه قُفْلاً ، فكـانوا يـأتون دارَه

---

(١) جفِل مِمَّا رأىٰ : نفَرَ مِمَّا رأى .
(٢) نَزَّ : تَحَلَّب وتقاطَرَ .
(٣) لم يَشْدُدْ عليهِ رِباطاً : لم يُخَبِّئْه .

ويأخذون منه ما يشاؤون دونَ سؤالٍ أو استئذانٍ . . .

ومع ذلك فقد كان يَخْشَىٰ أن يُحاسَبَ على ذلك المالِ ، وأنْ يُعَذَّبَ بِسَبَبه .

* * *

حَدَّثْ جَمَاعَةٌ من أَصْحَابِه قالوا : دخلنا على خبابٍ في مَرَضِ موتِهِ فقال :

إن في هذا المكان ثمانين ألفَ دِرْهَمٍ ، واللَّه ما شدَدتُ عليها رِباطاً قَطُّ ، ولا مَنَعْتُ منها سائلاً قَطُّ ثم بَكىٰ . . .

فقالوا له : ما يبكيك ؟!

فقال : أبكي لأنَّ أصحابي مَضَوْا ولم ينالوا من أجورِهم في هذه الدنيا شيئاً ، وأنني بقيتُ فنِلت من هذا المالِ ما أخافُ أن يكونَ ثواباً لتلك الأعمال . . .

* * *

ولما لحق خَبَّابٌ بجوار رَبِّه وقف أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللَّه عنه على قبره وقال :

رَحِمَ اللَّهُ خباباً ، فلقد أَسْلَمَ راغِباً ، وهاجَرَ طائِعاً ، وعاش مجاهِداً . . . ولَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَجْرَ من أَحْسَنَ عملاً(*) .

(*) للاستزادة من أخبار خباب بن الأرت انظر :

١ - الإصابة : الترجمة : ٢٢١٠ .
٢ - أُسْدُ الغابة : ٢/٩٨ - ١٠٠ .
٣ - الاستيعاب : ١/٤٢٣ .
٤ - تهذيب التهذيب : ٣/١٣٣ .
٥ - حلية الأولياء : ١/١٤٣ .
٦ - صفة الصفوة : ١/١٦٨ .
٧ - الجمع بين رجال الصحيحين : ١٢٤ .
٨ - المعارف لابن قتيبة : ٣١٦ .
٩ - حياة الصحابة (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .

«ما صَدَقَني أحدٌ منذُ استُخْلِفْتُ
كما صَدَقَني الرَّبيعُ بنُ زِيَاد»

هـذه مـدِينَـةُ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ مـا تَـزَالُ تُكَفْكِفُ أَحْـزَانَهـا[1] على فَقْـدِ الصِّدِّيق . . .

وها هي ذي وُفُودُ الأَمْصارِ تَقْدَمُ كُلَّ يَوْمٍ على يَثْرِبَ مُبَايِعَةً خليفته عُمَرَ بن الخَطَّابِ على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في المَنْشَطِ والمَكْرَه[2] . . .

وفي ذاتِ صَبَاحٍ قَدِمَ على أَميرِ المُؤْمِنِينَ وَفْدُ البَحْرَين مَعَ طائِفَةٍ أُخْرَىٰ مِن الوُفُودِ.

وكانَ الفاروقُ رِضْـوَانُ اللَّهِ عليه شَـدِيدَ الحِـرْصِ على أَنْ يَسْمَعَ كـلامَ الوافدين عليه ؛ لَعَلَّه يَجِدُ فيما يقولونه مَوْعِظَةً بالِغَةً ، أَوْ فِكْرَة نافِعَةً ، أَوْ نصيحَةً للَّهِ ولِكِتابِهِ ولِعامَّةِ المسلمين .

فَنَدبَ عَدَداً من الحاضرين لِلْكَلام فَلَمْ يَقُولوا شَيئاً ذا بالٍ .

فالْتَفَتَ إلى رَجُلٍ تَوَسَّمَ[3] فيه الخَيْرَ، وأَوْمَأَ إلَيْهِ وَقَالَ: هاتِ ما عِنْدَكَ.
فَحَمِدَ الرَّجُلُ اللَّهَ وأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثم قال :

---

(١) تكَفْكِفُ أحزانها : تهدىء أحزانها وتمنعها من الاسترسال .
(٢) في المَنْشَطِ والمَكْره : في العُسْرِ واليُسْر .
(٣) توسَّمَ فيه الخيرَ : تَوَقَّعَ فيه الخيرَ .

إنَّكَ يا أميرَ المُؤْمِنينَ ما وُلِّيْتَ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ إلَّا ابْتِلاءً مِنَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلاكَ به.

فاتَّقِ اللّهَ فيما وُلِّيتَ ، واعْلَمْ أنَّهُ لَوْ ضَلَّتْ شاةٌ بِشَاطِىءِ الفُرَاتِ لَسُئِلْتَ عَنْها يَوْمَ القِيَامَةِ .

فَأَجْهَشَ(1) عُمَرُ بالبُكَاءِ وقال : ما صَدَقني أحَدٌ مُنْذُ اسْتُخْلِفْتُ كَما صَدَقْتني ، فمن أنتَ ؟!.

فقال : الرَّبيعُ بنُ زيادٍ الحارِثيُّ .
فقال : أخُو المُهَاجِرِ بنِ زيادٍ ؟
فقال : نعم .
فلما انْفَضَّ المَجْلِسُ دَعَا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ وقال :
تَحَرَّ(2) أَمْرَ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ ، فإنْ يَكُ صَادِقاً فإنَّ فيه خَيْراً كَثيراً وعَوْناً لَنا على هذا الأمْرِ.

واسْتَعْمِلْهُ واكْتُبْ لي بِخَبَرِه.

* * *

لَمْ يَمْضِ على ذلك اليومِ غَيْرُ قَليلٍ حَتَّى أعدَّ أبو مُوسَىٰ الأشْعَرِيُّ جَيْشاً لِفَتْحِ « مَنَاذِرَ » مِنْ أَرْضِ الأَهْوَازِ بِناءً على أَمْرِ الخَليفَةِ ، وَجَعَلَ في الجَيْشِ الربيعَ بنَ زيادٍ وأخاهُ المهَاجِرَ.

* * *

حاصَرَ أبو موسىٰ الأشعريُّ « مَنَاذِرَ » وخَاضَ مَعَ أَهْلِها مَعَارِكَ طَاحِنَةً قَلَّما شَهِدَتْ لها الحُرُوبُ نَظِيراً.

---

(1) أجهَش بالبكاء : بكى بصوت عالٍ .

(2) تَحَرَّ أمر الربيعَ : تَعَرَّف على أحواله .

فقد أَبْدَىٰ المُشْرِكونَ مِن شِدَّةِ البَأْسِ وَقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ[1] مَا لَمْ يَخْطُرْ على بالٍ ، وكَثُرَ القَتْلُ في المسلمين كَثْرَةً فاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ.

وكانَ المُسْلِمون يَوْمَئِذٍ يُقاتِلُونَ وَهُمْ صائِمون رَمَضانَ.

فلما رأىٰ « المُهاجِرُ » أخو الرَّبيعِ بنِ زياد أَنَّ القَتْلَ قَدْ كَثُرَ في صُفوفِ المُسْلِمينَ عَزَمَ على أَنْ يَشْرِيَ[2] نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ اللَّه ، فَتَحَنَّطَ[3] وتكفَّنَ وَأَوْصَىٰ أخاه . . .

فَمَضَى الرَّبيعُ إلى أبي مُوسى وقال : إنَّ المُهاجِرَ قَدْ أَزْمَعَ أَنْ يَشْرِيَ نَفْسَهُ وَهُوَ صَائِمٌ ، والمُسْلِمُونَ قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَطْأَةِ الحَرْبِ وشِدَّةِ الصَّوْمِ ما أَوْهَنَ[4] عَزَائِمَهُمْ ، وَهُمْ يَأْبَوْنَ الإِفْطَارَ فَافْعَلْ ما تَرَىٰ .

فَوَقَفَ أبو موسىٰ الأَشْعَرِيُّ ، ونَادى في الجَيْشِ :

يـا مَعْشَرَ المسلمين، عَـزَمْتُ[5] على كُلِّ صـائِمٍ أَنْ يُفْطِرَ أَوْ يَكُفَّ عَنِ القِتَالِ ، وشَرِبَ مِن إبْرِيقٍ كان مَعَهُ لِيَشْرَبَ النَّاسُ بِشُرْبِهِ.

فَلَمَّا سَمِعَ المُهاجِرُ مَقَالَتَهُ جَرَعَ جُرْعَةً مِنَ الماءِ وَقَالَ:

واللَّه ما شَرِبْتُها مِنْ عَطَشٍ ولَكِنَّنِي أَبْرَرْتُ عَزْمَةَ أَمِيرِي[6] . . .

ثُمَّ امْتَشَقَ حُسامَهُ وَطَفِقَ يَشُقُّ بِهِ الصُّفُوفَ ، وَيُجَنْدِلُ الرِّجالَ غَيْرَ وَجِلٍ ولا هَيَّابٍ.

فَلَمَّا أَوْغَلَ في جَيْشِ الأَعْدَاءِ أَطْبَقوا عَلَيهِ مِنْ كُـلِّ جانِبٍ ، وَتَعاوَرَتْهُ[7]

---

(١) قوة الشكيمة : شِدَّة الصَّبْرِ وقوَّة الجَلَد .

(٢) يشري نَفْسَه : يبيع نَفْسَه .

(٣) تَحنَّطَ : وضع على نَفْسِه الحَنوط : وهو نوع من الطيب يذر على جسَد الميت .

(٤) أوهن : أضعف .

(٥) عزمت : أقسمت .

(٦) أَبْرَرْتُ عَزْمَةَ أميري : أمضيت قَسَم أميري ونفَّذْته .

(٧) تعاورته سيوفهم : تداولته سيوفهم .

سُيُوفُهُمْ من أمَامِه ومن خَلْفِه حَتَّىٰ خَرَّ صريعاً . . .

ثمَّ إنَّهم احْتَزُّوا رَأْسَهُ ونَصَبُوهُ على شُرْفَةٍ مُطِلَّةٍ على ساحةِ القِتَالِ .

فَنَظَرَ إلَيْهِ الرَّبيعُ ، وقال : طُوبَىٰ [1] لَكَ وَحُسْنُ مآب . . .

واللَّهُ لأَنْتَقِمَنَّ لَكَ ولِقَتْلَىٰ المُسْلِمِينَ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَلَمَّا رَأَىٰ أبو موسى ما نَزَلَ بالرَّبيعِ مِنَ الجَزَعِ عَلى أخيهِ ، وأَدْرَكَ ما ثَارَ مِنَ الحَفِيظَةِ في صَدْرِهِ على أَعْدَاءِ اللَّهِ ، تَخَلَّى لَهُ عَنْ قِيَادَةِ الجَيْشِ ، وَمَضَىٰ إلى « السُّوسِ » لَفَتْحِهَا .

***

هَبَّ الـرَّبيعُ وجُنْـدُه على المُشْرِكينَ هُبُـوبَ الإعْصَـارِ[2] ، وانْصَبُّوا على مَعَاقِلِهِمْ انْصِبابَ الصُّخُورِ إذا حَطَّها السَّيْلُ ؛ فَمَزَّقُوا صُفُوفَهُمْ وَأَوْهَنُوا بَأْسَهُمْ[3] ، فَفَتَحَ اللَّهُ « مَنَاذِرَ » للرَّبيعِ بنِ زيادٍ عَنْوَةٍ . . . فَقَتَلَ المُقاتِلَةَ ، وسَبَى الذُّرِّيَّةَ ، وغَنِمَ ما شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْنَمَ .

***

لَمَعَ نجمُ الربيعِ بنِ زيادٍ بعـد معركةِ « مناذِرَ » وذاع اسمُه على كلِّ لسان .

وأصبح أَحَـدَ القادَةِ المَرموقين[4] الذين يُرَجَّوْن لجلائِلِ الأعمال . . .

فلما عَزَمَ المسلمون على فَتْحِ « سِجِسْتَـانَ » عهدوا إليـه بقيادَةِ الجيش وأَمَّلوا على يديه النَّصْرَ .

***

---

(١) طوبَىٰ لك : السَّعَادَة والغبطة والعيش الطيب لك .

(٢) الإعصار : ريح شديدة تثير التراب وتقتلع الأشجار .

(٣) أوهنوا بأسهم : أضعفوا قوتهم وضعضعوها .

(٤) المرموقين : الذين يرمقهم الناس بعيونهم إعجاباً بهم .

مَضى الرَّبيعُ بنُ زيادٍ بِجَيْشِهِ الغازي في سَبيلِ اللّهِ إلىٰ سِجِسْتانَ عَبْرَ مفازَةٍ طُولُها خَمْسَةٌ وسَبْعُونَ فَرْسَخاً ، تَعْيا[١] عَنْ قَطْعِها الوُحوشُ الكاسِـرَةُ مِن بَناتِ الصَّحْراءِ .

فكان أوَّلَ ما عَرَضَ لَهُ « رُسْتاقُ زالِقَ »[٢] على حُدُودِ سِجِسْتانَ وهو رُسْتاقٌ عامِرٌ بالقُصورِ الفَخْمَةِ مَحُوطٌ بالحُصُونِ الشّامِخَةِ وافِرُ الخَيْراتِ كَثيرُ الثِّمارِ .

* * *

بَثَّ القائِدُ الأرِيبُ[٣] عُيُونَهُ في « رُسْتَاقِ زَالِقَ » قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَيْه . . . فَعَلِمَ أنَّ القَوْمَ سَيَحْتَفِلُونَ قَرِيباً بِمِهْرَجَانٍ لهُـمْ ، فَتَرَبَّصَ[٤] بِهِمْ حَتَّى بَغَتَهُمْ[٥] في لَيْلَةِ المِهْرَجَانِ على حِينِ غِرَّةٍ[٦] وأَعْمَلَ في رِقابِهِمُ السَّيْفَ وأَخَذَهُمْ عَنْوَةً .

فَسَبَى[٧] مِنْهُمْ عشرين أَلْفاً ، وَوَقَعَ دُهْقَانُهُمْ[٨] في يَدِهِ أَسِيراً . . . .

وكان بَيْنَ السَّبْيِ مَمْلُوكٌ للدُّهْقَان ، فَوَجَدُوهُ قَدْ جَمَعَ ثلاثَمِائَةِ أَلْفٍ لِيَحْمِلَها إلى سَيِّدِهِ .

فقال له الرَّبيعُ : مِنْ أَيْنَ هَذِهِ الأَمْوالُ ؟!

فقال : مِنْ إحْدَىٰ قُرَى مَوْلاي .

فقال له : وَهَلْ تُعْطِيهِ قَرْيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلَ هذا المَالِ كُلَّ سَنَةٍ ؟! .

قال : نعم .

فقال : وكيف ؟!!

قال : بفُؤُوسِنَا ، وَمَنَاجِلِنَا ، وعَرَقِنَا .

* * *

---

(١) تعيا : تعجز .
(٢) رُستاق زالق : مدينة كبيرة حصينة في سجستان .
(٣) الأريب : الذكي النبيه .
(٤) تَرَبَّصَ بهم : انتظرهم .
(٥) بغتهم : نزل عليهم بغتة .
(٦) على حين غرَّة : على غفلة وهم لا يشعرون .
(٧) سَبَى عشرين ألفاً : أسَرَهُم واستَرَقَّهُمْ .
(٨) الدهقان : كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم .

ولمَّا وضَعَتِ المَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا[١] تَقَدَّمَ الدُّهْقانُ إلى الرَّبيعِ يَعْرِضُ عَلَيْـهِ افْتِدَاءَ نَفْسِهِ وأَهْلِهِ . .

فقال له : أَفْدِيكَ إذا أَجْزَلْتَ لِلْمُسْلِمِينَ الفِدْية .

فقال : وَكَمْ تَبْغِي .

فقال : أَرْكُزُ[٢] هذا الرُّمْحَ في الأرْضِ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهِ الذهَبَ والفِضَّةَ حَتَّى تَغْمُرَه غَمْراً .

فقال : رَضِيْتُ ، واسْتَخْرَجَ مـا في كُنُوزِهِ مِنَ الأَصْفَـرِ والأَبْيَضِ وَطَفِقَ يَصُبُّها على الرُّمْحِ حَتَّى غَطَّاه . . .

* * *

تَوَغَّلَ الـرَّبيعُ بنُ زيـادٍ بِجَيْشِهِ المُنْتَصِـرِ في أَرْضِ سِجِسْتَانَ ، فَـطَفَقَتْ تَتَسَاقَطُ الحُصُونُ تَحْتَ سَنَابِكِ[٣] خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْراقُ الشَّجَرِ تَحْتَ عَصْفِ رِياحِ الخَرِيفِ.

وَهَبَّ أَهْلُ المُدُنِ والقُرَىٰ يَسْتَقْبِلونَهُ مُسْتَأْمِنِينَ[٤]خاضِعِينَ قَبْلَ أَنْ يُشْهرَ في وُجُوهِهِمُ السَّيْفَ حَتَّىٰ بَلَغَ مدِينَةَ « زَرَنْجَ » عاصِمَةَ سجِسْتَانَ.

فإذا بِالْعَدُوِّ قَدْ أَعَدَّ لِحَرْبِهِ العُدَّةَ ، وَكَتَبَ[٥] لِلِقَـائِهِ الكَتَـائِبَ ، واسْتَقْدَمَ لِمُوَاجَهَتِهِ النَّجَدَاتِ ، وعَقَدَ العَزْمَ على أَنْ يَذُودَهُ[٦] عن المدينةِ الكبيرَةِ ، وأن يوقفَ زَحْفَه على سِجِسْتَانَ مهما كان الثمن غالياً .

---

(١) وضعت المعركة أوزارها : انتهت .
(٢) أركز هذا الرمح في الأرض : أثبته في الأرض .
(٣) سنابك خيله : حوافر خيله .
(٤) مستأمنين : طالبين الأمان .
(٥) كتَّب الكتـائب : أعدَّ قطع الجيش ونظمها ونَسَّقها .
(٦) يذوده : يدفعه .

ثم دارتْ بينَ الربيعِ وأعدائِهِ رحًى حَرْبٍ طحونٍ[1] لم يَضِنَّ عليها أيٌّ من الفريقين بما تَطَلَّبْته من الضَّحايا.

فلما بَدَرَتْ أوَّلُ بادِرةٍ من بوادِرِ النصرِ للمسلمين رأى مَرْزَبانُ[2] القومِ المدعُوُّ « بَرويز » أن يَسْعَى لمصالحةِ الربيع ، وهو ما تزال فيه بَقِيَّةٌ من قُوَّةٍ ، لعلَّه يَحْظَى لنفسِه ولِقَوْمِه بشروطٍ أفضلَ . . .

فبعث إلى الربيع بنِ زيادٍ رسولاً من عندِه يَسْأَلُه أن يَضرِبَ له موعداً للقائه ؛ ليفاوِضَه على الصُّلْحِ فأجابه إلى طلبِه.

* * *

أَمَرَ الربيع رجالَه أن يُعِدُّوا المكانَ لاستقبالِ « بَـرْويزَ » وطلب منهم أن يكدِّسوا حَوْلَ المجلسِ أكْوَاماً من جُثَثِ قَتْلَىٰ الفُرسِ . . .

وأن يطْرَحوا على جانبي الطريق الذي سيمر به « برويزُ » جُثثاً أُخْرَىٰ منثورةً في غيرِ نِظامٍ .

وكان الرَّبيعُ طَوِيلَ القَامَةِ ، عَظِيمَ الهَامَةِ ، شَدِيدَ السُّمْرَةِ ، ضَخْمَ الجُثَّةِ يَبْعَثُ الرَّوْعَ في نَفْسِ مَنْ يَرَاهُ.

فَلَمَّا دَخلَ عَلَيْهِ « بَرْوِيزُ » ارتَعَدَتْ فرائِصُهُ جَزَعاً مِنْهُ وانْخَلعَ فُؤادُهُ هَلَعاً مِنْ مَنْظَرِ القَتْلَى فَلَمْ يَجْرُؤْ على الدُّنُوِّ مِنْهُ وخَافَ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ لِمُصَافَحَتِهِ . . .

وَكَلَّمَهُ بِلِسانٍ مُتَلَجْلِجٍ مُلْتَاثٍ ، وَصَالَحَهُ على أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَلْفَ وَصِيفٍ[3] وعلى رَأْسِ كُلِّ وَصِيفٍ جامٌ[4] مِنَ الذَّهَبِ ، فَقَبِلَ الرَّبيعُ وَصَالَحَ « بَرْوِيزَ » على ذلك .

---

(١) حرب طحون : حرب شديدة تطحن المحاربين طَحْناً .
(٢) مرزبان القوم : رئيس القوم وهي كلمة فارسية .
(٣) الوصيف : الغلام .
(٤) جامٌ : كأسٌ .

وفي اليَوْمِ التالي دخلَ الرَّبيعُ بنُ زيادٍ المَدِينَةَ يَحُفُّ بِهِ هذا الموْكِبُ مِنَ الوُصَفَاءِ بَيْنَ تَهْلِيلِ المُسْلِمين وَتَكْبِيرِهِمْ...

فكان يَوْماً مَشْهُوداً مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ.

* * *

ظَلَّ الرَّبيعُ بنُ زيادٍ سَيْفاً مُصْلتاً في يَدِ المُسْلِمِينَ يَصُولُونَ بِهِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ ؛ فَفَتَحَ لَهُمُ المُدُنَ ، وَوَلِيَ لَهُمُ الوِلَايَاتِ حتَّى آلَ الأَمْرُ إلى بَنِي أُمَيَّةَ فَوَلَّاهُ مُعَاوِيَةُ ابنُ أبي سُفْيَانَ خُراسَانَ . . .

بيد أنَّه لم يكن مُنْشَرِح الصَّدْرِ لهذه الوَلاية. . . .

وقد زادَه انْقِباضاً منها وكُرهاً لها أَنَّ زيادَ ابنَ أبيه أَحَدَ كبارِ وُلاةِ بني أمية بَعَثَ إليه كتاباً يقول فيه :

« إن أميرَ المؤمنين معاوِيَةَ بنَ أبي سفيان يأمرك أنْ تَسْتَبْقِيَ الأَصْفَرَ والأَبْيَضَ[1] من غنائمِ الحربِ لِبَيْتِ مالِ المسلمين ، وتقسِمَ ما سِوَىٰ ذلك بين المجاهدين . . . »

فكتب إليه يقول :

« إني وَجَدْتُ كتابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ بغير ما أمرتني به على لسان أمير المؤمنين ».

ثم نادَىٰ في النَّاسِ : أن اغْدوا على غنائِمِكُم فخذوها. . .

ثم أَرْسَلَ الخُمُسَ[2] إلى دارِ الخِلافَةِ في دمشق . . .

* * *

---

(١) الأصفر والأبيض : كناية عن الذهب والفضَّة .

(٢) القرآن الكريم يجعل خمس غنائم الحرب لبيت مال المسلمين والأخماس الأربعة الباقية تقسم على المقاتلين .

ولما كان يومُ الجمعةِ الذي تلا وصولَ هذا الكتابِ خرجَ الربيعُ بنُ زيادٍ إلىٰ الصلاةِ في ثيابٍ بيضٍ ، وخَطَبَ النَّاسَ خطبةَ الجمعةِ ، ثم قال :

أيُّها الناسُ إني قد مَلِلْتُ الحياةَ ، وإني داعٍ بِدَعْوَةٍ ، فَأَمِّنُوا على دعائي .

ثُمَّ قال : اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تُرِيدُ بي خَيْراً فاقْبِضْنِي إلَيْكَ عاجِلاً غيرَ آجلٍ . . .

فَأَمَّنَ النَّاسُ على دُعائِهِ . . .

فلم تَغِبْ شمسُ ذلك اليومِ حتى لَحق الربيعُ بنُ زيادٍ بجوار رَبِّه(*) .

(*) للاستزادة من أخبار الربيع بن زياد الحارثي انظر :

١ ـ أسد الغابة : ٢/٢٠٦ .

٢ ـ تاريخ الطبري : ٤/١٨٣ ـ ١٨٥ ـ ٥/٢٢٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ .

٣ ـ الإصابة : ١/٤٠٥ .

٤ ـ الكامل في التاريخ : انظر الفهارس .

٥ ـ جمهرة الأنساب : ٣٩١ .

٦ ـ تهذيب التهذيب : ٣/٢٤٤ .

٧ ـ حياة الصحابة : ٢/١٦٨ و ٢٦٨ .

عبد الله بن سلام

« مَنْ سَرَّه أن يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أهلِ الجَنَّةِ فَلْيُنْظُر إلى عبدِ اللّهِ بن سلام»

كان الحُصَيْنُ بنُ سَلامٍ حَبْراً[1] من أَحْبَارِ اليهودِ في يثربَ .

وكان أَهْلُ المدينَةِ على اخْتِلَافِ مِلَلِهم ونِحَلِهم[2] يُجِلُّونَه ويعظِّمونه .

فقد كان معروفاً بَيْنَ النَّاسِ بالتُّقَىٰ والصَّلاحِ مَوْصوفاً بالاسْتِقَامَةِ والصِّدْقِ .

* * *

وكان الحُصَيْنُ يحيا حياةً هادِئَةً وادِعةً ؛ ولكنَّها كانَتْ في الوقت نَفْسِه جادَّة نافِعةً . . .

فقد قسَّم وقتَه أقساماً ثلاثة : فَشَطرٌ في الكَنِيسِ[3] للوَعْظِ والعِبَادَة . . .

وشَطْرٌ في بُسْتَانٍ له يَتَعَهَّدُ نَخْلَه بالتَّشْذيبِ والتأْبير[4] . . .

وشطرٌ مَعَ التَّوْراةِ[5] للتَّفَقُّهِ في الدين . . .

* * *

---

(١) الحَبْرُ : رئيسُ الكَهَنَةَ عند اليهود ، والحبرُ العالم المتَبحِّرُ في العلم أيضاً .

(٢) نحلهم : أديانهم .

(٣) الكنيس : معْبدُ اليهود .

(٤) التأبيرُ : تلقيح النخل وإصلاحُه .

(٥) التوراة : الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلامُ .

وكان كُلَّما قَرَأَ التَّوْراةَ وَقَفَ طويلاً عِنْدَ الأَخْبَارِ التي تُبَشِّرُ بظهورِ نبيٍّ في مَكَّةَ يُتَمِّمُ رِسالاتِ الأَنْبِيَاءِ السابقين ويَخْتِمُها .

وكان يَسْتَقْصِي أَوْصافَ هذا النَّبيِّ المُرْتَقَبِ وعلاماتِه ويَهْتَزُّ فَرَحاً لِأَنَّهُ سَيَهْجُرُ بَلَدَهُ الذي بُعِثَ فيه وَسَيَتَّخِذُ من يَثْرِبَ مُهَاجَراً له(١) ومُقاماً .

وكان كُلَّما قَرَأَ هذه الأَخْبَارَ أو مَرَّت بخاطِرِه يَتَمَنَّىٰ على اللّهِ أَنْ يَفْسَحَ له في عُمُرِه حَتَّىٰ يَشْهَدَ ظهورَ هذا النبي المُرْتَقَبِ ، ويَسْعَدَ بلقائه ، ويكونَ أوَّلَ المؤمنين به .

* * *

وقد استَجَابَ اللّهُ جَلَّ وعَزَّ دُعاءَ الحُصَيْنِ بنِ سَلامٍ فَنَسأَ لَهُ(٢) في أَجَلِه حتَّىٰ بُعِث نبيُّ الهُدَىٰ والرحمةِ . . .

وكُتِبَ له أَنْ يَحْظَىٰ بِلِقَائِه وصُحْبَتِه ، وأَنْ يُؤْمِنَ بالحَقِّ الذي أُنْزِلَ عليه . . .

فلنَتْرُكْ للحُصَيْنِ الكلامَ لِيَسوقَ لنا قِصَّةَ إِسْلامِه فهو لها أَرْوَىٰ(٣) ، وعلى حُسْنِ عَرْضِها أَقْدَر .

قالَ الحُصَيْن بنَ سَلام : لَمَّا سَمِعْتُ بظهورِ رسولِ اللّهِ ﷺ أَخَذْتُ أَتَحَرَّىٰ عن اسمِه ونَسَبِهِ وصِفاتِه وزَمانِه ومكانِه وأُطابِقُ بينَها وبَيْنَ ما هو مَسْطورٌ(٤) عِنْدَنا في الكتب حتَّىٰ استَيْقَنْتُ من نُبُوَّتِهِ ، وتَثَبَّتُّ من صِدقِ دَعْوَتِه ثم كَتَمْتُ ذلك عن اليهودِ ، وعَقَلْتُ(٥) لِساني عن التكلُّم فيه . . .

---

(١) مهاجراً له : بفتح الجيم مكاناً لهجرته .
(٢) نَسَأ : أخَّرَ .
(٣) أرْوَىٰ : أجودُ رواية .
(٤) مسطور : مكتوب .
(٥) عقلت لِساني : ربطته ومنعتُه .

إلىٰ أن كانَ اليَوْمُ الذي خَرَجَ فيه الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ من مكَّةَ قاصِداً المدينةَ .

فلما بَلَغَ يَثْرِبَ ونَزَل بقُباءَ[1] أَقْبَلَ رجُلٌ علينا وجَعَلَ ينادِي في النَّاسِ مُعْلِناً قدومَه وكنتُ ساعتَئذٍ في رَأْسِ نَخْلَةٍ لي أَعْمَلُ فيها وكانت عَمَّتِي خالِـدَةُ بِنْتُ الحارِثِ جالِسَةً تحتَ الشَّجَرَةِ ، فما إن سَمِعْتُ الخَبَرَ حَتَّىٰ هَتَفْتُ :

اللّهُ أَكْبَرُ . . . اللّهُ أَكْبَرُ .

فقالت لي عَمَّتِي حينَ سَمِعَتْ تَكْبِيري : خَيَّبَكَ اللّهُ . . .

واللّهِ لو كُنْتَ سَمِعْتَ بموسَىٰ بنِ عِمْرَانَ قادِماً ما فَعَلْتَ شيئاً فَوْقَ ذلك . . .

فقلت لهـا : أيْ عَمَّة[2] ، إنَّـه ـ واللّهِ ـ أخو مـوسَىٰ بنِ عِمْرَانَ ، وَعَلَىٰ دينه . . .

وقَدْ بُعِثَ بما بُعِثَ به . . .

فَسَكَتَتْ وقالت : أهو النبيُّ الذي كنتم تُخْبروننا أنَّه يُبْعَثُ مُصَدِّقاً لمن قَبْلَه ومُتَمِّماً لرسالات رَبِّه ؟!

فقلت : نعم . . .

قالت : فذلك إذَنْ . . .

ثمَّ مَضَيْتُ من تَوِّي[3] إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فرأيتُ الناسَ يَزْدَحِمُونَ بِبَابِه ، فَزَاحَمْتُهُم حَتَّىٰ صِرْتُ قريباً منه .

فكان أوَّلَ ما سَمِعْتُه منه قولُه : (أيُّها النَّاسُ أفْشُوا السَّلامَ . . .

وأطعموا الطعام . . .

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين من المدينة .

(٢) أي عَمَّة : يا عَمَّة .

(٣) من تَوِّي : فَوْراً من غير إبطاءٍ .

وصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيامٌ . . . تَدْخُلوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ . . .)

فَجَعَلْتُ أَتَفَـرَّسُ فيه ، وأَتَمَلَّىٰ[1] مِنْـه ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ وَجْهَـهُ لَيْسَ بِـوَجْـهِ كذَّابٍ .

ثم دَنَوْتُ منه ، وشَهِدْتُ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللّه وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ .

فالتَفَتَ إليَّ وقَال : (ما اسمُك؟)

فقلت : الحُصَيْنُ بنُ سَلامٍ .

فقال : (بل عبدُ اللَّهِ بنُ سَلام) .

فقلت : نعم ، عبدُ اللّهِ بن سلام . . . والذي بَعَثَك بالحَقِّ ما أحِبُّ أنَّ لي به اسماً آخَرَ بَعْدَ اليومِ .

ثم انصرَفْتُ من عندِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى بيتي وَدَعَوْتُ زَوْجَتي وأَوْلادِي وأَهْلي إلىٰ الإسلامِ فأسلموا جميعاً وأَسْلَمتْ معهم عمتي خالِدَةُ ، وكانت شيخَةً كبيرَةً . . .

ثم إني قُلْتُ لهم : اكتُموا إسْلامي وإسْلامَكُمْ عن اليَهودِ حَتَّىٰ آذَنَ لكم ! !

فقالوا : نعم .

ثم رجَعْتُ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ وقُلْتُ له : يا رسولَ اللّهِ ، إنَّ اليهودَ قَوْمُ بُهْتَانٍ وباطِلٍ . . .

وإني أُحِبُّ أن تَدْعُوَ وجُوهَهم[2] إليكَ .

وأَن تَسْتُرَني عَنْهُمْ في حُجْرَةٍ من حُجُراتِك ثم تَسْأَلهم عن مَنْزِلَتِي عِنْدَهم قَبْلَ أَنْ يَعْلموا بإسْلامي ثم تدعُوَهم إلىٰ الإسْلام .

---

(١) أتملَّىٰ منه : أملأ عيني مِنْهُ .

(٢) وجوههم : رؤساءهم وسادَتهم .

فـإنَّهم إنْ عَلِمـوا أنَّني أسْلَمْتُ عـابـوني ، وَرَمَـوْني بِكُـلِّ نـاقِصَـةٍ وبَهَتُوني[1] . . .

فأدخَلني رسولُ اللّهِ ﷺ في بعض حُجُراتِهِ ، ثم دعاهم إليه وأخَذ يَحُضُّهُمْ على الإسـلام ، ويُحَبِّبُ إليهم الإيمانَ ، ويُـذَكِّرُهُمْ بِمَـا عَرَفـوه في كُتُبِهِمْ مِنْ أمْرِهِ . . .

فجعلوا يجادِلونه بالباطل ، ويُمَارونَه[2] في الحَقِّ ، وأنا أسْمَعُ ، فلما يَئِسَ من إيمانِهِمْ قال لهم : (ما مَنْزِلَةُ الحصينِ بنِ سَلامٍ فيكم ؟) .

فقالوا : سيدُنا وابنُ سيدِنا وحَبْرُنا وعالِمُنا وابنُ حَبْرِنا وعالمِنا .

فقالَ : (أفَرَأيْتُمْ إنْ أسْلَمَ أفَتُسْلِمون) ؟

قالوا : حاشا للّهِ ، ما كان لِيُسْلِمَ . . . أعاذَهُ اللّهُ من أنْ يُسْلِمَ .

فخرجتُ إليهم وقلت :

يا معشرَ اليهودِ ، اتَّقوا اللّه واقْبَلُوا ما جاءَكم بِهِ محمدٌ .

فواللّهِ إنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ إنَّه لَرسولُ اللّهِ ، وتجدونَه مَكْتوباً عِنْدَكُمْ في التوراةِ باسْمِهِ وصِفَتِهِ .

وإني أشْهَدُ أنَّه رسولُ اللّهِ وأومِنُ به ، وأصدِّقُه ، وأعْرِفُه . . .

فقالو : كذبت . واللّهِ إنَّك لَشَرُّنا وابنُ شَرِّنا ، وجاهِلُنَا وابنُ جاهِلنا ، ولم يَتْرُكوا عَيْباً إلاّ عابُوني به .

فقلت لرسولِ اللّه ﷺ : ألم أقُلْ لكَ : إنَّ اليهودَ قَوْمُ بُهْتَانٍ وباطـلٍ ، وإنَّهُمْ أهْلُ غَدْرٍ وفجورٍ ؟

* * *

(١) البُهتان : افتراءُ الكذب .

(٢) يمارونه : ينازعونه .

أَقْبَلَ عَبْدُ اللّهِ بنُ سلامٍ على الإسلامِ إقبالَ الظامئ الذي شاقه المَوْرِدُ[1] . . .

وأُولِعَ بالقُرآنِ ؛ فكان لسانُه لا يَفْتأُ رطْباً بآياتِه البَيِّنات . . .

وتَعلَّقَ بالنبيِّ صَلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه حَتَّىٰ غدا أَلْزَمَ له من ظِلِّه . . .

ونَذَرَ نَفْسَه للعَمَلِ لِلْجَنَّةِ حتَّىٰ بَشَّره بها رسولُ اللّهِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه بِشارَةً ذاعَتْ بين الصَّحَابَةِ الكِرَامِ وشاعت . . .

وكان لهذه البِشَارَةِ قِصَّةٌ رواها قَيْسُ بنُ عُبادَةَ وغيرُه .

قال الراوي : كنت جالساً في حَلْقَةٍ من حَلقاتِ العِلْمِ في مَسْجِدِ رسولِ اللّهِ ﷺ في المدينةِ .

وكان في الْحَلقَةِ شَيْخٌ تَأْنَسُ به النَّفْسُ ويَسْتَرْوِحُ به القلب .

فَجَعَلَ يحدِّثُ النَّاسَ حديثاً حُلْواً مؤثِّراً . . .

فلما قامَ قال القوم : من سَرَّه أَنْ ينْظُرَ إلى رَجُلٍ من أَهْلِ الجنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هذا .

فقلت : من هذا ؟!

فقالوا : عبدُ اللّهِ بنُ سلامٍ .

فقلتُ في نفسِي : واللّهِ لأتْبَعَنَّهُ ؛ فَتَبِعْتُهُ ؛ فانْطَلق حَتَّىٰ كاد أن يَخْرُجَ من المدينةِ ، ثم دَخَلَ منزلَه .

فاسْتَأْذَنْتُ عليه ؛ فَأَذِنَ لي .

فقال : ما حاجتُك يا بن أخي ؟

---

(١) شاقه المورد : لَذَّ له المورد وطاب .

فقلتُ : سمعتُ القومَ يقولون عَنْكَ ـ لما خرجْتَ من المسجد ـ :

من سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ من أَهْلِ الجنَّةِ فَلْينظرْ إلىٰ هذا .

فَمَضَيْتُ في إثْرِكَ ، لِأَقِفَ على خبرِكَ ، ولأَعْلَمَ كيف عَرَفَ النَّاسُ أنَّكَ من أَهْلِ الجَنَّة .

فقال : اللّهُ أعْلَمُ بأهل الجنَّة يا بُنَيَّ .

فقلت : نعم . . . ولكنْ لا بُدَّ لما قالوه من سبب .

فقال : سأحَدِّثُكَ عن سَببِهِ .

فقلت : هاتِ . . . وجَزَاكَ اللّهُ خيراً .

فقال : بينا أنا نائِمٌ ذاتَ ليلةٍ على عَهْدِ رسولِ اللّهِ ﷺ أتاني رَجُلٌ فقال لي : قُمْ ، فَقُمْتُ ، فأَخَذَ بيَدِي ، فإذا أنا بِطَرِيقٍ عن شِمالي فهمَمْتُ أَنْ أَسْلُكَ فيها . . .

فقال لي : دَعْهَا فإنَّها لَيْسَتْ لك . . .

فَنَظَرْتُ فإذا أنا بِطَرِيقٍ واضِحَةٍ عَنْ يميني فقال لي :

اسلُكْها . . .

فَسَلَكْتُها حتَّىٰ أتَيْتُ رَوْضَةً غَنَّاءَ واسِعَةَ الأَرجاءِ[1] كثيرَةَ الخُضْرَةِ رائِعَةَ النُّضْرَةِ .

وفي وَسَطِهَا عَمودٌ من حديدٍ أَصْلُه في الأَرْضِ ونِهايَتُه في السماء .

وفي أعلاهُ حَلْقَةٌ من ذَهَبٍ .

فقال لي : إرْقَ عليه .

فَقلت : لا أستطيعُ .

فجاءني وَصِيفٌ[2] فَرفَعَنِي ، فَرَقَيْتُ[3] حتَّىٰ صِرْتُ في أَعْلَىٰ العَمودِ ،

---

(١) الأرجاء : الأنحاء .

(٢) الوصيف : الخادِمُ .

(٣) فرقيتُ : فَصَعَدْت .

وأخَذْتُ بالحَلْقَةِ بِيَدَيّ كِلْتَيْهِما .
وبقيتُ مُتَعَلِّقاً بهَا حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ .
فلما كانت الغداةُ أَتيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ وقَصَصْتُ عليه رؤيايَ فقال :
(أمَّا الطريقُ الَّتِي رَأَيْتَها عن شِمالِكَ فهي طريقُ أَصْحَابِ الشِّمالِ من أهل النَّارِ . . .
وأَمَّا الطريقُ التي رأَيْتَها عن يَمينِك فهي طريقُ أَصْحَابِ اليمينِ من أَهْلِ الجنَّة . . .
وأمَّا الرَّوْضَةُ التي شاقَتْكَ بخُضْرَتِها ونُضْرَتِها فهي الإسلام . . .
وأمَّا العمودُ الذي في وَسَطِهَا فَهُوَ عمودُ الدين . . .
وأمَّا الحَلْقَةُ فهي العُرْوَةُ الوُثْقَىٰ . . .
ولَنْ تَزَالَ مُسْتَمْسِكاً بها حتى تموتَ . . .)(*) .

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللّه بن سلام انظر :
١ ـ الإصابة (طبعة السعادة) : ٤/٨٠ ـ ٨١ .
٢ ـ أسد الغابة : ٣/١٧٦ ـ ١٧٧ .
٣ ـ الاستيعاب : (طبعة حيدر آباد) ١/٣٨٣ ـ ٣٨٤ .
٤ ـ الجرح والتعديل : ج ٢ ق ٢ : ٢/٦٢ ـ ٦٣ .
٥ ـ تجريد أسماء الصحابة : ١/٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
٦ ـ صفة الصفوة : ١/٣٠١ ـ ٣٠٣ .
٧ ـ تاريخ خليفة بن خيَّاط : ٨ .
٨ ـ العبر : ١/ ١٥ ـ ٣٢ .
٩ ـ شذَرات الذهب : ١/٥٣ .
١٠ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٢٣٠ ـ ٢٣١ .
١١ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٤٤٣ ـ ٤٤٨ .
١٢ ـ تذكرة الحفاظ : ١/٢٢ ـ ٢٣ .
١٣ ـ السيرة النبوية لابن هشام انظر الفهارس .
١٤ ـ البداية والنهاية : ٣/٢١١ ـ ٢١٢ .
١٥ ـ حياة الصحابة انظر الفهارس في الرابع .

صور من حياة الصحابة

سُراقةُ بنُ مالِك

فَيروزُ الدَّيلَميُّ

ثابِتُ بنُ قيسٍ الأنصارِيُّ

أسماءُ بِنْتُ أبي بكر

طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ التيميُّ

أبو هُريرةُ الدَّوسِيُّ

سلمةُ بنُ قيسٍ الأشجعيُّ

مُعاذُ بنُ جبلٍ

(كَيْفَ بك يا سُراقَةُ إذا لَبِسْتَ
سِواري كِسْرَى ؟)

[محمد رسول اللّٰه]

هَبَّتْ قُرَيْشٌ ذاتَ صَباحٍ وَجلَةً مَذْعُورَةً ، فَقَدْ سَرَى في أَنْدِيَتِها أَنَّ محمداً قَدْ بَارَحَ مَكَّةَ مُسْتَتِراً بِجُنْحِ الظَّلامِ ؛ فلم يُصدِّقْ زُعَماءُ قريشٍ النَّبأَ . .

وانْدفَعُوا يَبْحَثونَ عن النَّبيِّ في كُلِّ دارٍ من دورِ بَني هاشم . . .

ويَنْشُدونَه في كُلِّ بيتٍ من بيوتِ أصحابِه ، حتَّىٰ أَتَـوْا مَنْزِلَ أبي بَكْـرٍ ، فخَرَجَتْ إليهم ابنتُهُ أَسْماءُ .

فقال لها أبو جهلٍ : أين أبوكِ يا بِنتُ ؟

فقالت : لا أدْري أَيْنَ هو الآن .

فَرَفَعَ يَدَهُ ولَطَمَ خدَّها لَطْمَةً أَهْوَتْ بِقرطِها[1] على الأَرْضِ .

* * *

جُنَّ جُنونُ زُعَماءِ قُرَيشٍ حينَ أَيْقَنُوا أنَّ محمداً غادَرَ مكَّةَ ، وجَنَّدوا كُلَّ من لَدَيْهِمْ من قُفاةِ[2] الأَثَرِ لتحديدِ الطَّرِيقِ الذي سَلَكَهُ ، ومَضَوْا مَعَهُمْ يَبْحَثُونَ عنه .

فَلَمَّا بَلَغُوا غارَ ثَوْرٍ قال لهم قفاةُ الأَثَرِ :

(١) أهوت بقرطها : أسقطت حلْقَتها وجعلتها تهوي هوياً .
(٢) قفاة الأثر : متتَبِّعو الأَثَر .

واللَّهِ ما جَاوزَ صاحِبُكُمْ هذا الغارَ.

ولم يَكُنْ هؤُلاءِ مُخْطِئِينَ فيما قالوه لِقُرَيْشٍ ، فقد كان مُحَمَّدٌ وصاحِبُه في داخِلِ الغارِ ، وكانت قُرَيْشٌ تَقِفُ فَوْقَ رَأْسَيهِما ، حَتَّىٰ إنَّ الصِّدِّيقَ رَأَىٰ أقدامَ القَوْمِ تَتَحَرَّك فَوْقَ الغارِ ؛ فَدَمَعَتْ عيناه. . .

فَنَظَرَ إليه الرّسولُ نَظْرَةَ حُبٍّ ورِفْقٍ وعِتَابٍ .

فَهَمَسَ الصديقُ قائِلاً : واللَّهِ ما على نَفْسي أبْكي . .

ولٰكِنْ مَخَافَةَ أنْ أَرَىٰ فيك مَكْروهاً[1] يـا رَسولَ اللَّهِ .

فقال له الرسولُ الكريمُ مُطَمْئِناً : (لا تَحْزَنْ يا أبا بكرٍ، فإنَّ اللَّهَ مَعَنا) .

فأنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ على قَلْبِ الصِّدِّيقِ ، وراح يَنْظُرُ إلىٰ أَقْدَامِ القوم . ثم قال :

يـا رسولَ اللَّهِ ، لـو أَنَّ أَحَدَهُمْ نَـظَر إلىٰ مَوْطِىء قَـدَمَيْه لرآنا .

فقال له الرسول :

(ما ظَنُّكَ يا أبا بَكْرٍ باثْنَين ، اللَّهُ ثالِثُهُما ؟!!)

وهُنا سَمِعا فتىً مِنْ قُرَيشٍ يقول لِلْقَوْمِ : هَلُمُّوا[2] إلىٰ الغارِ نَنْظُرْ فيه .

* * *

فقال له أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ ساخِراً : ألم تَرَ إلى هذا العَنْكَبُوتِ الذي عَشَّشَ علىٰ بَابِه ؟!! .

واللَّهِ إنه أقدم من ميلادِ محمدٍ. . .

غَيْر أنَّ أبا جَهْلٍ قال : واللاَّتِ والعُزَّى : إنِّي لأَحْسَبُه قريباً مِنَّا يَسْمَعُ ما نَقول ويَرَى ما نَصْنَع .

---

(١) أن أرَىٰ فيك مكروهاً : أن أرى فيك ما أكْرَه .

(٢) هلمُّوا : تعالَوْا .

ولكنَّ سِحْرَهُ رانَ[1] على أبْصارِنا . . .

* * *

بَيْدَ أَنَّ[2] قُرَيشاً لم تَنْفُضْ يَدَها من أمْرِ العُثورِ على مُحَمَّدٍ، ولم يَنْثَنِ[3] عَزْمُها عن مُلاحَقَتِهِ ؛ فأَعْلَنَتْ في القبائِلِ المُنْتَشِرَةِ على طولِ الطريق بَيْنَ مَكَّةَ والمدينةِ : أنَّ من يَأْتِها بِمُحَمَّدٍ حيّاً أَوْ مَيِّتاً فَلَهُ مائةٌ من كرائِمِ الإِبِلِ .

* * *

كان سُراقَةُ بنُ مالكٍ المدْلَجيُّ في نَدِيٍّ[4] من أنْدِيَةِ قَوْمِه في « قُدَيْدٍ » قريباً مِنْ مَكَّةَ .

فإذا بِرَسولٍ مِنْ رُسُلِ قريشٍ يَدْخُلُ عليهم ، ويُذيعُ فيهم نَبأَ الجائِزةِ الكُبْرَىٰ التي بَذَلَتْها قُرَيشٌ لِمَنْ يأتيها بمحمدٍ حيّاً أو ميتاً .

فما كاد سُراقَة يَسْمَعُ بالنُّوقِ المائةِ حتَّىٰ اشرَأَبَّتْ[5] إليها أطماعُهُ ، واشْتَدَّ عليها حِرْصُه .

ولكنَّه ضَبطَ نَفْسَهُ ، فلم يَفُهْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ؛ حتَّىٰ لا تَتَحرَّك أطماعُ الآخرين .

وقبلَ أن يَنْهَضَ سُراقَةُ من مَجْلِسِه دَخَلَ على النَّدِيِّ رَجُلٌ من قَوْمِه وقال : واللَّهِ لقد مَرَّ بي الآن ثلاثةُ رجالٍ ، وإنِّي لأَظُنُّهمْ محمداً وأبا بكر ودليلَهما .

فقال سُراقَةُ : بل هم بنو فلانٍ مَضَوْا يَبْحَثُونَ عن ناقَةٍ لهم أَضَلُّوها[6] .

---

(١) ران : غطّى .
(٢) بَيْد أن : إلا أنَّ .
(٣) لم ينثن : لم يتراجعْ ولم يرتدّ .
(٤) نَدِيّ : مكان اجتماع القوم .
(٥) اشْرَأَبَّتْ : تطَلَّعَتْ .
(٦) أضلوها : أضاعوها .

فقال الرجل : لَعَلَّهُمْ كذلك وسَكَتَ . . .

ثم مَكَثَ سُرَاقَةُ قليلاً حتى لا يُثير قِيامُه أَحَداً مِمَّن في النَّدِيِّ . . .

فلما دَخَلَ القَوْمُ في حَديثٍ آخَرَ انْسَلَّ[1] من بينهِمْ ، ومَضَىٰ خفيفاً مُسرِعاً إلىٰ بيتهِ ، وأسَرَّ[2] لِجارِيَتِهِ بأن تُخْرِجَ له فَرَسَهُ في غَفْلَةٍ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وأنْ ترتَبِطَه له في بَطْنِ الوادِي .

وأَمَرَ غلامَهُ بأنْ يُعِدَّ له سِلاحَه ، وأنْ يَخْرُجَ به من خَلْفِ البُيُوتِ حَتَّى لا يَراه أحدٌ . . .

وأنْ يَجْعَلَه في مكانٍ قريبٍ من الفَرَسِ . . .

* * *

لَبِسَ سُراقَةُ لأْمَتَهُ[3] ، وتقلَّدَ سِلاحَه ، وامْتَطَىٰ صَهْوَةَ[4] فرسِهِ ، وطَفِقَ يُغِذُّ[5] السَّيْرَ لِيُدْرِكَ محمداً قَبْلَ أَنْ يأخُذَه أَحَدٌ سِواه ويَظْفَرَ بجائِزَةِ قريشٍ .

* * *

كان سراقةُ بنُ مالِكٍ فارِساً من فُرْسانِ قَوْمِه المَعْدودين ، طويلَ القامَةِ ، عظيمَ الهامَةِ ، بَصيراً باقْتِفاءِ الأَثَرِ ، صبوراً على أهوالِ الطرقِ .

وكان إلى ذٰلِك كُلِّه أريباً لبيباً شاعراً . . . وكانَتْ فَرَسُه مِن عِتَاقِ[6] الخَيْلِ .

* * *

مَضَىٰ سُراقَةُ يَطْوِي الأَرْضَ طيّاً ، لكِنَّه ما لَبِثَ أنْ عَثَرتْ به فَرَسُهُ وسَقَطَ عن صَهْوَتِها ؛ فَتَشَاءَمَ من ذلك ، وقال : ما هذا ؟! .

---

(١) انْسَلَّ : انْسَحَبَ برفق وخِفَّةٍ .

(٢) أَسَرَّ لجاريته : أمَرَها سِرّاً .

(٣) لأْمَته : دِرْعَهُ .

(٤) الصَّهْوَةُ : مكان قعود الفارس على الفرس .

(٥) يغذ السير : يُسْرِع في السَّيْر .

(٦) الخيل العِتاق : الخيل الأصيلة الكريمة .

تَباً[1] لك من فَرَسٍ ، وعَلا ظَهْرَها غَيْرَ أنَّه لم يَمْضِ بَعيداً حتى عَثَرَتْ به مَرَّةً أُخْرَى فازْداد تشاؤماً ، وهمَّ بالرُّجوعِ ؛ فما رَدَّهُ عَنْ هَمِّه إلا طَمَعُهُ بالنُّوقِ المائةِ.

* * *

لم يَبْتَعِدْ سُراقَةُ كثيراً عن مكان عثورِ فَرَسِه حَتَّىٰ أبْصَرَ محمداً وصاحبيه فمد يَدَه إلى قَوْسِهِ ، لكنَّ يَدَه جَمدَتْ في مكانها . . .

ذلِكَ لأنَّه رأىٰ قوائِمَ فَرَسِه تَسيخُ في الأرضِ[2] ، والدُّخانُ يَتَصاعَدُ من بَيْنِ يَدَيْها ، ويُغَطِّي عَيْنَيْهِ وعَيْنَيها . . .

فدفع الفَرَسَ فإذا هِيَ قد رَسَخَتْ[3] في الأَرْضِ كأنَّما سمِّرتْ فيها بِمَسامِيرَ من حديد.

فالتفتَ إلىٰ الرسولِ وصاحبِه ، وقال بصوتٍ ضارع : يا هذان ادعوَا لي رَبَّكُما أنْ يُطْلِقَ قَوائِم فَرَسي . . .

ولكما عَلَيَّ أنْ أكُفَّ عنكما.

فدعا له الرسولُ ، فأَطْلَقَ اللَّهُ لَهُ قوائِمَ فَرَسِه . . .

لكِنَّ أَطْماعَه ما لَبِثَتْ أن تحرَّكَتْ من جديد ، فَدَفَعَ فَرَسَهُ نَحوَهُما فساخَتْ قوائمُها هذه المرةِ أكْثَرَ من ذي قَبْل.

فاستغاث بهما ، وقال : إليكُما زادِي ومتَاعي وسلاحِي فخُذاه ، ولَكُما عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ أرُدَّ عنكما مَنْ وَرَائي من الناس . . .

فقالا له : لا حاجَةَ لنا بِزادِكَ وَمِتَاعِكَ ، ولكِنْ رُدَّ عَنَّا النَّاس . . .

---

(١) تباً : هلاكاً.

(٢) تَسيخ في الأرض : تغوصُ في الأرض.

(٣) رَسَخَتْ فيّ الأرض : ثبتَتْ في الأرض.

ثم دعا له الرَّسولُ فانْطَلَقتْ فَرَسُه .

فلما هَمَّ بالعَوْدَةِ ، ناداهُمْ قائلاً : تَرَيَّثوا أُكَلِّمْكُمْ ، فَواللَّهِ لا يَأْتِيكم مِنِّي شَيءٌ تَكْرهونَه .

فقالا له : ما تَبْتغي منا ؟!

فقال : واللَّه يا محمدُ إنِّي لأَعْلمُ أنَّه سَيَظهَرُ دينُكَ ، ويَعْلُو أمرُكَ فعاهِدْني إذا أتَيْتُكَ في مُلْكِكَ أن تُكْرِمَني ، واكْتُبْ لي بِذلِك . . .

فأمَرَ الرسولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عليه الصديقَ فكتَبَ له على لَوْحٍ من عَظْمٍ ، وَدَفَعَه إليه . . .

ولما هَمَّ بالانْصِرافِ قال له النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ :

(وكيف بِكَ يا سُراقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى ؟!)

فقال سراقة في دَهْشَةٍ : كِسْرَى بنُ هُرْمُز ؟!

فقال : (نعم . . . كِسْرَى بنُ هُرْمز) .

* * *

عاد سراقَةُ أَدْراجَه ، فَوجَدَ النَّاسَ قد أَقْبَلُوا يَنْشُدون رسولَ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه فقال لهم :

ارْجعُوا ، فقد نَفَضْتُ الأَرْضَ نَفْضاً بَحْثاً عنه[1] .

وأنتم لا تَجهلون مبْلَغَ بَصري بالأثر ، فَرَجَعُوا[2] .

ثم كتم خَبَرَهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وصاحِبِه حَتَّى أَيْقَنَ أنهما بَلَغا المدينَةَ وأَصْبَحَا في مَأْمَنٍ من عُدْوانِ قريش ، عِنْدَ ذلك أَذاعَه فلما سمع أبو جَهْلٍ بخَبرِ سُرَاقَة مَعَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ومَوْقِفِه منه ؛ لامه على تَخاذُلِه وجُبْنِه وتَفْويتِه الفُرْصَةَ . . .

---

(١) نَفَضْتُ الأرضَ نَفْضاً : نظرت فيها شبراً شبراً .

(٢) بَصَري بالأثر : معرفتي به .

فقال يُجيبُه على مَلامَته :

أبـا حَكَم ، واللّهِ لـو كُنْتَ شـاهـداً ... لِأَمْـرِ جَـوَادي إذْ تَسـوخُ قَـوائمُـهْ
عَلِمْتَ ولَمْ تَشْكُـكْ بِـأَنَّ مُحـمـداً ... رسـولٌ بِبُـرْهـانٍ، فَمَنْ ذا يُقـاوِمُـه؟!

* * *

دارَتِ الأيَّامُ دَوْرَتَها . . .

فإذا بِمُحَمَّدٍ الذي خَرَجَ من مَكَّةَ طرِيداً شَريداً مُسْتَتِراً بجُنْحِ الظَّلامِ يعودُ إليها سيِّداً فاتِحاً تَحُفُّ به الألوفُ المؤلّفَةُ مِن بيض السيوفِ وسُمْرِ الرِّماح. . .

وإذا بِزُعَماءِ قُرَيشٍ الذين مَلأوا الأَرْضَ عُنْجُهِيَّةً وغَطْرَسَةً[١] يُقْبِلُونَ عَلَيْه خائفين واجِفينَ يَسْألونَه الرأْفَةَ ويقولون :

ماذا عَسَاكَ تصنع بنا ؟!

فيقول لهم في سماحَةِ الأنبياء : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاء . . .)

عند ذلك أعَدَّ سُراقَةُ بنُ مالـكٍ راحِلَتَهُ ، ومَضَىٰ إلىٰ رسـولِ اللّهِ لِيُعْلِنَ إسْلامَه بَيْنَ يَدَيْهِ ومَعَهُ العَهْدُ الذي كَتَبَه له قَبْلَ عَشْرِ سَنَواتٍ.

قال سراقة : لقد أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ بالجِعْرانَةِ[٢] ، فَدَخَلْتُ في كتيبتـهِ من الأنصارِ ، فجعلوا يَقْرَعونَني[٣] بِكُعوبِ[٤] الرِّماح ويقولون :

إلَيْكَ ، إلَيْكَ[٥] ، ماذا تريد ؟!

فما زلْتُ أَشُقُّ صفوفَهم حَتَّى غَدَوْتُ قريباً من رسولِ اللّهِ ، وهو علىٰ ناقَتِه فَرَفَعْتُ يَدي بالكِتابِ وقُلْتُ :

يا رسولَ اللّهِ . . .

---

(١) عُنْجهيَّة وغَطْرَسة : تكبُّراً وتجبُّراً وتطاوُلاً .
(٢) الجِعرانة : مكان بين مكة والطائف وهو إلى مكة أقرب .
(٣) يقرعونني : يضربونني .
(٤) كعْب الرمح : مؤخِّرَتُه .
(٥) إليك إليك : ابْتَعِدْ ، ابتَعِدْ .

أنا سُراقَةُ بنُ مالِكٍ ، . . .

وهذا كتابُكَ لي . . . .

فقال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ : (أُدْنُ مِنِّي يا سُرَاقَةُ أُدْنُ . . . هذا يومُ وَفاءٍ وبِرٍّ) .

فأقْبَلْتُ عليه وأَعْلَنْت إسْلامي بَيْنَ يَدَيْه .

ونِلتُ من خَيْرِه وبِرِّه . . .

* * *

لم يَمْضِ علىٰ لِقَاءِ سُرَاقَةَ بنِ مالكٍ لِرَسولِ اللّهِ ﷺ غيرُ بِضْعَةِ أَشهُرٍ حتى اختار اللّهُ نَبِيَّه إلىٰ جِوارِه . . .

فَحَزِنَ عليه سُراقَةُ أَشَدَّ الحزن ، وجَعلَ يَتَراءَىٰ له ذلك اليومُ الذي هَمَّ فيه بقَتْلِه من أجل مائَةِ ناقَةٍ ، وكيفَ أنَّ نوقَ الدُّنْيا كُلَّها قد أصْبَحَتِ اليومَ لا تُسَاوِي عِنْدَه قُلَامَةً[1] من ظُفْر النبيِّ .

وَجعَلَ يُرَدِّدُ قَوْلَتَه له : (كيف بِكَ يا سُراقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَي كِسْرَى؟!) .

دونَ أَن يُخَامِرَه شَكٌّ في أَنَّه سَيَلْبَسُهما .

* * *

ثم دارَتِ الأَيَّامُ دَوْرَتَها كرَّةً أخرىٰ وآل أمْرُ المسلمين إلىٰ الفاروقِ رِضوانُ اللّه عليه .

وهَبَّت جيوشُ المسلمين في عَهْدِه المبارَكِ علىٰ مَمْلَكَة فارس كما يَهُبُّ الإعْصار . . .

فطفقَتْ تَدُكُّ الحُصُونَ ، وتَهْزِمُ الجيوشَ ، وتَهُزُّ العروش وتُحْرِز الغنـائِمَ

---

(١) القُلامَةُ : القطعة الصغيرَة التي تَسْقُط في الظُّفر .

حَتَّىٰ أدَالَ[١] اللّهُ على يديها دَوْلَةَ الأكاسِرَة . . .

وفي ذاتِ يَوْمٍ من أواخِرِ أيَّامِ خلافَةِ عمرَ قَدِمَ على المدينةِ رُسُلُ سَعْدِ بنِ أبي وقَّاصٍ يُبشِّرون خليفَةَ المسلمين بالفَتْح . . .

ويَحْمِلونَ إلى بَيْتِ مالِ المسلمين خُمُسَ الفَيْءِ الذي غنِمَـه الغُزاةُ في سبيلِ اللّهِ .

فلما وُضِعَتِ الغنائمُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ نَظَرَ إليها في دَهْشَةٍ . . .
فقد كان فيها تاجُ كِسْرَىٰ المُرَصَّعُ بالدُّرِّ . . .
وثيابُه المنسوجَةُ بخيوطِ الذَّهَبِ . . .
وَوِشاحُه[٢] المَنْظومُ بالجوهر . . .
وسواراه اللّذان لم تَرَ العَيْنُ مِثْلَهما قطُّ . . .
وما لا حَصْرَ له من النَّفائِسِ الأُخْرَىٰ . . .

فَجَعَلَ عمر يُقَلِّبُ هذا الكَنْزَ الثمين بقضيبٍ كان في يَدِه . . .
ثُمَّ التَفتَ إلىٰ مَنْ حَوْلَه وقال : إن قَوْماً أدَّوْا هذا لأُمناءُ . . .

فقال له عليُّ بنُ أبي طالب وكان حينئذٍ حاضراً : إنَّك عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رعيَّتُك يا أميرَ المؤمنين . . .
ولو رَتَعْتَ لَرَتعوا[٣] . . .

وهنا دَعَا الفاروقُ رِضْوان اللّهِ عليه سُراقَةَ بنَ مالكٍ ، فألْبَسَهُ قَمِيصَ كِسْرَىٰ وسراويلَه وقِباءَه[٤] وخُفَّيْه . . .

---

(١) أدال اللّه دولة الأكاسِرَة : أزالَها وحَوَّلها إلى غَيْرهم .
(٢) الوشاح : قِلادَةٌ من نسيج ثمين يُرَصَّع بالجوهر ويُشَدَّ بين الكَتِفِ وأَسْفَل الظَّهْرِ .
(٣) لو رَتَعْتَ لَرَتَعوا : لو أكلت لأكلوا .
(٤) القباء : الثوبُ .

وقلَّدَه سَيْفَه ومِنطَقَتَه[1] . . .

وَوَضَعَ على رأْسِه تاجَه . . .

وألْبَسَهُ سوارَيْهِ . . . نعم سِوارَيه . . .

عند ذلك هَتفَ المسلمونَ : اللّهُ أكبر . . . اللّهُ أكبر . . . اللّه أكبر . . .

ثم التفت عمرُ إلى سراقَةَ وقال : بَخٍ بَخٍ[2] . . .

أُعَيْـرابِيٌّ[3] من بني مَـدْلَـجٍ على رأسِـه تـاج كِسْـرَى . . . وفي يَـدِيـه سِواراه . . . ! !

ثم رَفَعَ رأْسَه إلى السَّماءِ وقال : اللَّهُمَّ إنَّك مَنَعْتَ هذا المالَ رسولَك وكانَ أحَبَّ إليك مِنِّي وأَكْرَمَ عليك . . .

ومَنَعتَهُ أبا بكرٍ وكانَ أحَبَّ إليك مِنِّي وأكْرَم عليك . . .

وأَعْطَيْتَنِيه ، فأعوذُ بك أن تكونَ قد أعْطيتَنِيه لِتَمْكُرَ بي[4] . . .

ثم لم يَقُمْ من مَجْلِسِه حَتَّى قَسَّمَه بَيْنَ المسلمين(*) .

---

(١) المنطقةُ : حِزام يُشَدُّ على الوسط .

(٢) بَخٍ بَخٍ : كلمة تقال عند التَّعجُّب من شيءٍ أو الفخر به .

(٣) أُعَيْرابي : تصغير أعرابي .

(٤) لِتَمْكُرَ بي : لتُعاقِبني .

(*) للاستزادة من أخبار سراقة بن مالك انظر :

١ ـ أُسْدُ الغابَة : ٢/٢٣٢ .

٢ ـ الإصابة : ٢/١٨ .

٣ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي : ٩٣ .

٤ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد : ١/١٨٨ ، ٢٣٢ و ٤/٣٦٦ و ٥/٩٠ .

٥ ـ السيرَة النبوية لابن هشامٍ : ٢/١٣٣ ـ ١٣٥ وانظر الفهارس .

٦ ـ حياة الصحابَة (انظر الفهارس في الرابع) .

٧ ـ تاج العروس من جواهر القاموس : ٦/٨٣ .

فَيروزُ الدَّيْلَمِيُّ

(فَيْروزُ رَجُلٌ مبارَكٌ مِنْ أهْلِ بَيْتٍ مُبارَكِينَ)

[محمد رسول اللّه]

لمـا اشْتَكَىٰ[1] رسول اللّهِ ﷺ بعـدَ عَوْدَتِـهِ مِنْ حجَّةِ الـوَدَاعِ ، وطارَتْ الأَخْبارُ في أَرْجاءِ[2] الجزيرةِ بمرضِهِ ، ارْتَـدَّ عَنِ الإِسْلام الأَسَـوْدُ العَنْسِيُّ في اليَمَنِ ، ومُسَيْلمةُ الكذَّابُ في اليَمامَةِ ، وطُلَيْحَةُ الأَسَديُّ في بِـلادِ بَني أَسَدَ ، وزَعَمَ الثَّلاثةُ الكذَّابون أنَّهم أَنْبياءُ أُرْسِلَ كُلٌّ مِنْهُمْ إلىٰ قَوْمِهِ كما أُرْسِلَ محمدُ بنُ عبدِ اللّهِ إلى قُرَيْشٍ .

* * *

كان الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ كاهِناً مُشَعْوِذاً[3] أسودَ النَّفْسِ مُسْتَطِيرَ الشَّرِّ ، شَديدَ القُوَّةِ ، ضَخْمَ الْهَيْكَلِ .

وكان إلىٰ ذلك فَصِيحاً يَخْلُبُ الأَلْبَابَ بِبَيَـانِه ، داهِيـةً قادِراً على اللَّعِبِ بِعُقُولِ العَامَّة بأباطيلِهِ ، وإغراءِ الخاصَّةِ بالمالِ والجاهِ والمناصِب .

وكان لا يَظْهَـرُ للنَّاسِ إلا مُقَنَّعـاً[4] لإحاطَـةِ نَفْسِهِ بِهـالَةٍ مِنَ الغُمـوضِ والهَيْبَةِ .

* * *

(١) اشتكى : مَرض وتألَّم .
(٢) أرجاء الجزيرة : أنحاءِ الجزيرة .
(٣) المُشَعْوذ : الذي يَسْتَعْمِلُ الشَّعْوَذَة ، وهي خِفَّةٌ في اليَدِ وأعمالٌ كالسِّحْرِ تُري الشيءَ للعين بغير ما هو عليه .
(٤) المقنع : الذي يضع قناعاً على وجْهه .

وكان النُّفُوذُ في اليَمَنِ إذْ ذاكَ « للأَبْنَاءِ » ، وعَلَىٰ رَأْسِهِم فَيْروزُ الدَّيْلَمِيُّ صاحِبُ رسولِ اللّهِ ﷺ .

و « الأبناءُ » اسمٌ يُطْلَقُ على جماعَةٍ مِنَ النَّاسِ آباؤهم مِنَ الفُرْسِ الذين نَزَحُوا مِنْ بلادِهِم إلىٰ اليمنِ ، وأُمَّهاتُهم من العَرَب .

وقد كان كبيرُهم « باذانُ » عِنْدَ ظهورِ الإسلامِ مَلِكاً على اليمنِ مِنْ قِبَلِ كِسْرَىٰ عَظيمِ الفُرْسِ ، فلما اسْتَبَانَ لَهُ صِدْقُ الرسولِ وسُمُوُّ دَعْوَتِهِ خَلَعَ طاعَةَ كِسْرَىٰ ودَخَلَ هو وقَوْمُه في دينِ اللّهِ ، فأَقَرَّهُ النَّبيُّ على مُلكِهِ ، وظَلَّ فيه إلىٰ أنْ مات قُبَيْلَ ظهورِ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ بِزَمَنٍ يسيرٍ .

***

وكان أَوَّلَ مَنْ اسْتَجابَ لِدَعْوَةِ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ قَوْمُه بنو مَذْحِجٍ ، فَوَثَبَ بِهِم على صَنْعَاءَ ، وقَتَلَ واليَهَا « شَهْـرَ بنَ باذانَ » وتزوَّج من امْرَأَتِهِ « آذادَ » .

ثمَّ وَثَبَ مِنْ صَنْعَاءَ على المَنَاطِقِ الأخْرىٰ ، فَجَعَلَتْ تَتَهاوَىٰ تحتَ ضَرَباتِه بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ حتىٰ دانت له البلادُ الوَاقِعَةُ ما بَيْنَ حَضْرَموتَ إلىٰ الطائفِ ، وما بينَ البحرينِ والأَحْساءِ إلىٰ عَدَن . . .

***

وكان مِمَّا ساعَدَ الأسودَ العَنْسِيَّ على خِداعِ النَّاسِ واسْتِمَالتِهِم إليه دَهَاؤه الذي لا حُدُودَ له ، فَقَدْ زَعَمَ لأَتْباعِهِ أَنَّ لـه مَلَكاً يَنْـزِلُ عليْه بـالْوَحْيِ وينبِّئُـه بالمغيَّباتِ . . .

وكان يُؤَكِّدُ هذا الزَّعْمَ بِعُيُونِهِ[1] الذين بَثَّهُمْ في كُلِّ مَكَانٍ ، لِيَقِفُوا على أَخْبارِ النّاسِ ، ويَنْفُذُوا إلى أَسْرارِهم ، ويَتَعَرَّفُوا إلى مُشْكِلاتِهِم ويَكْشِفُوا عَمَّا

---

(١) العيون : الجواسيسُ .

يتَلَجْلَج[١] في صُدُورِهم مِنَ الأَماني والآمال ، ثمَّ يأتوه بها سِرّاً .

فكان يُواجهُ كُلَّ ذِي حاجَةٍ بِحَاجَتِه ، ويَبْدَأُ كُلَّ صاحِبِ مُشْكِلَةٍ بِمُشْكِلَتِه ، ويأْتِي لأَتْباعِهِ مِنَ العَجَائِبِ والغرَائِبِ ما يُذْهِلُ عُقولَهُم ويُحيِّر أَفْهامَهُم . . . حَتَّى غَلُظَ[٢] أمْرُه ، واستَطَارَتْ[٣] دعْـوَتُه كمـا تَسْتَطِيـرُ النَّارُ المُسْتَعِـرَةُ في الهَشِيمِ اليابِسِ .

* * *

ما كادَتْ تَبْلُغُ النبيَّ صلواتُ اللّهِ عليه أَنْباءُ رِدَّةِ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ وَوُثُوبِهِ على اليَمَنِ حَتَّىٰ سَيَّر نَحْوَ عَشَرةٍ مِنْ أَصْحابِهِ برسائلَ إلى مَنْ يَتَوَسَّمُ[٤] فِيهِمْ الخَيْرَ مِنْ أَصْحابِ السَّابِقَةِ في اليمن . . . يَحُضُّهُمْ فيها على مُواجَهَةِ هذه الفِتْنَةِ العَمْياءِ بالإيمانِ والحَزْمِ ، ويأمُرُهُمْ بالتَّخَلُّصِ من الأسْوَدِ العَنْسيِّ بأيِّ وَسيلة . . .

فما مِنْ أَحَدٍ بَلَغَتْهُ رسالَةُ النَّبِيِّ إلاَّ لَبَّىٰ دَعْوَتَه ، وهَبَّ لإنْفاذِ أَمْرِهِ .

وكان أَسْبَقَ النَّاسِ استجابَةً لِندائه بَطلُ قِصَّتِنا فَيْروزُ الدَيْلَمِيُّ ومَنْ مَعَهُ مِن « الأَبْناء » .

فَلْنَتْرُكْ الكَلامَ لَهُ لِيَرْوِيَ لَنا قِصَّتَهُ الفذَّة الرائِعة .

قال فَيْروز : لم نَرْتَبْ[٥] أنَا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ « الأَبْنَاءِ » لَحْظَةً في دِينِ اللّهِ ، ولا وَقَعَ في قَلْبِ أيٍّ مِنَّا تَصْدِيْقٌ لِعَدُوِّ اللّهِ .

وكُنَّا نَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لِلْوُثُوبِ عَلَيْهِ والتَّخَلُّصِ مِنْهُ بِكُلِّ سَبيل .

فَلَمَّا وَرَدَتْ عَلَيْنَا وعَلَىٰ أَصْحابِ السَّابِقَةِ مِنَ المُؤْمِنِين كُتُبُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ

---

(١) يتلجلج في صدورهم : يختلج في صدورهم .
(٢) غلظ أمره : اشتدّ أمره وقوي .
(٣) استطارت دعوته : ذاعت وعمّت وطارت في الآفاق .
(٤) يتوسم فيهم الخير : يأمُل فيهم الخير ويتوقّعه .
(٥) لم نرتَبْ : لم نَشُكّ .

تَقَوَّىٰ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَهَبَّ كلٌّ مِنَّا يَعْمَلُ في جِهَتِهِ . . .

***

وكانَ الأسْوَدُ العَنْسيُّ قد داخَلَهُ الغُرُورُ والكِبرُ لِما أصابَ مِنْ نَجاحٍ ، فَتاهَ[1] على قائِدِ جَيْشِهِ قَيْسِ بنِ عَبْدِ يَغُوثَ وتَجبَّرَ ، وتَغَيَّر في مُعَامَلَتِهِ له حتىٰ صارَ قَيْسٌ لا يأْمَنُ على نَفْسِهِ مِنْ بَطْشِهِ .

فَمَضَيْتُ إليه أنا وابنُ عَمِّي « دَاذَوَيْه » وأبْلَغْنَاهُ رِسَالَةَ النَّبِيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ ، وَدَعَوْناهُ لأن يَتَغَدَّىٰ بالرَّجُلِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَّىٰ به .

فانْشَرَح لِدَعْوَتِنا صَدْرُهُ ، وكَشَفَ لَنا عَنْ سِرِّه ، وَرآنَا كأَنَّنا هَبَطْنا عَلَيْهِ من السَّماء .

فَتَعَاهَدْنا نَحْنُ الثَّلاثَة على أَنْ نَتَصَدَّىٰ[2] لِلْمُرْتَدِّ الكَذَّابِ مِنَ الدَاخِلِ بَيْنَما يَتَصَدَّىٰ له إخْوانُنَا الآخرون مِنَ الخَارج .

واسْتَقَرَّ رَأْيُنا على أَنْ نُشْرِكَ مَعَنا ابنةَ عَمِّي « آذاد » التي تَزَوَّجَ بها الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ بَعْدَ قَتْلِ زَوْجِها « شَهْرِ بنِ باذان » .

***

مَضَيْتُ إلى قَصْرِ الأَسْوَدِ العَنْسيِّ والتَقَيْتُ بابنةِ عَمي «آذاد» وقلت لها :

يا بْنَةَ العمِّ ، لَقَدْ عَرَفْتِ ما أنْزَلَهُ هذا الرَّجُلُ بِكِ وبنا مِن الشرِّ والضُّرِّ . . .

فلقد قَتَل زَوْجَكِ ، وفَضَحَ نِسَاءَ قَوْمِكِ ، وأَهْلَكَ كَثِيراً من رجالِهِم ، وانتزع الأمْرَ[3] من أيديهم .

وهذا كتابُ رسولِ اللّهِ ﷺ إلينا خاصَّةً وإلىٰ أَهْلِ اليَمنِ عامَّة يَدْعُونا فيه

---

(١) تاه : تكبَّر .

(٢) نتصدَّىٰ للمرتد : نوجِّه أنفسنا لمقاومته .

(٣) انتزع الأمر : انتزع الولاية والسلطانَ .

إلى القَضَاءِ على هَذِه الفِتْنَةِ .

فهل لك أن تُعِينِينا عليه ؟!

فقالت : أُعِيْنُكُمْ على أيِّ شَيْءٍ ؟ .

فقلت : على إخراجِهِ . . .

فقالت : بَلْ على قَتْلِهِ . . .

فَقُلْتُ : واللَّهِ ما قَصَدْتُ غَيْرَ ذلِكَ ؛ ولكنِّي خَشِيتُ أَنْ أُواجِهَكِ به .

فقالت : والذي بَعَثَ محمداً بالحَقِّ بَشِيراً ونَذِيراً ما ارْتَبْتُ في ديني طَرْفَةَ[1] عَيْنٍ ، وما خَلَقَ اللَّهُ رجُلاً أَبْغَضَ إليَّ من هذا الشيطان . . .

وواللَّهِ ما عَلِمْتُهُ مُنْذُ رأَيْتُهُ إلا فاجراً ، أثيماً ، لا يَرْعَىٰ حقاً ولا يَنْتَهِي عن مُنكَرٍ .

فقلت : وكيف لَنا بِقَتْلِهِ ؟!

فقالت : إنه مُتَحَرِّزٌ مُتَحَرِّسٌ[2] لِنَفْسِهِ ، وليس في القَصْرِ مكانٌ إلَّا والحَرَسُ مُحيطون به غيرَ هذه الحجرةِ النائيةِ المهجورَةِ ؛ فإنَّ ظَهْرَها إلىٰ مكانِ كذا وكذا على البَرِّيَّةِ ، فإذا أَمْسَيْتُم فانْقُبُوها في عَتْمَةِ الليلِ ، وستجدون في داخِلِها السِّلاحَ والمِصْبَاح . وَسَتَجِدُونَنِي في انْتِظارِكُم ، ثم ادْخُلوا عليه واقْتُلوه . . .

فقلت : ولكنَّ نَقْبَ[3] حُجْرَةٍ في مثلِ هذا القَصْرِ لَيْسَ بالأَمْرِ الْهَيِّنِ . . .

فقد يَمُرُّ بنا إنسانٌ فَيَهْتِفُ[4] ويَسْتَصْرِخُ الحَرَسَ . . . فيكونُ ما لا تُحْمَدُ عقباه . . .

فقالت : ما عَدَوْتَ الحَقَّ[5] . . . ولَكُم عِنْدِي رَأْيٌ .

---

(١) طرفة عين : لحظة .

(٢) متحرز متحرس : محتاط متيقظ .

(٣) النقب : حفر فتحة في الجدار .

(٤) يهتف ويستصرخ : ينادِي ويصرخ .

(٥) ما عدوت الحق : ما جاوزته ولا ابتعدت عنه .

قلت : ما هو ؟!

قالت : تُرْسِلُ غداً رجلاً تأْتَمِنَهُ على هَيْئَةِ عامِلٍ ، فآمُرُهُ أنا بِنَقْبِ الحُجْرَةِ من الدَّاخِلِ حتَّىٰ لا يَبْقَىٰ مِنَ النَّقْبِ إلَّا شيءٌ يَسيرٌ .

ثم تُتِمُّونه أنتم في اللَّيْلِ من الخارِجِ بأَيْسَرِ الجهْدِ .

فقلت : نِعْمَ الرأي ما رَأيتِ .

ثم انْصَرَفْتُ وأَخْبَرْتُ صاحِبَيَّ بما اتَّفقْنَا عَلَيْهِ فَبارَكُوهُ ، ومَضَيْنَا مِنْ ساعَتِنَا نُعِدُّ للأَمْرِ عُدَّتَه .

ثُمَّ أَفْضَيْنا[1] إلى خاصَّة المؤمنين من أنْصارنا بكلمةِ السرِّ ، وَدَعَوْنَـاهُم لِلتَّأَهُّبِ ، وجَعَلْنَا مَوْعِدَنَا مَعَهُم فَجْرَ اليَوْمِ التالي .

ولما جنَّ[2] عَلَيْنَا اللَّيْلُ ، وأَزِفَ[3] الوَقْتُ المحَدَّدُ مَضَيْتُ مَعَ صَاحِبَيَّ إلىٰ مَكَانِ النَّقْبِ فَكَشَفْنَا عَنْهُ ، وَوَلَجْنَا[4] إلى داخِلِ الحُجْرَةِ وَتَنَاوَلنا السِّلاحَ وأَضَأْنا المِصْباحَ ومَضَيْنَا نَحوَ مَقْصُورَةِ عدوِّ اللّهِ ، فإذا ابْنَةُ عَمِّي واقفة ببابها ، فأَشَارَتْ إليَّ فَدَخَلْتُ عليه ؛ فإذا هو نائمٌ يَغُطُّ[5] في نَوْمِهِ .

فأَهْوَيْتُ بالشَّفْرَةِ على عُنُقِهِ ؛ فَخَارَ خُوارَ الثَّوْرِ[6] ، واضطَرَبَ اضْطِرابَ البعير المَذْبوحِ .

فلما سَمِعَ الحَرَسُ خُوارَه ؛ أَقْبَلوا على المَقْصورَةِ وقالوا : ما هذا ؟!!

فقالت لهم ابنَةُ عمي : اِنْصَرفوا راشِدين ، فإنَّ نَبِيَّ اللّهِ يُوحَىٰ إليه . . . فانْصَرفوا . . .

***

---

(١) أفضينا : أعْلَمْنا وأخْبَرنا .

(٢) جن الليل : أظلم وستر الكون .

(٣) أزف الوقت : حان .

(٤) ولجنا : دخلنا .

(٥) يغط في نومه : ينخر في نومه .

(٦) خار خوار الثور : صاح صياح الثور .

بَقِينا في القَصْرِ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ ، فَوَقَفْتُ على سُورٍ مِنْ أَسْوارِهِ وهَتَفْتُ :

اللّٰهُ أكبرُ ، اللّٰهُ أكبرُ ، وَمَضَيْتُ في الأَذانِ حَتَّى قُلْتُ : أَشْهَدُ أن لا إله إلاَّ اللّٰه وأشهد أنَّ محمداً رسولُ اللّٰه وأشْهَدُ أنّ الأَسْودَ العَنْسِيَّ كَذَّاب . . .

وكانت هذه كلمَةَ السِّرِّ .

فأقْبَلَ المُسْلِمونَ على القصْرِ من كلِّ جانِبٍ ، وهَبَّ الحَرَسُ مَذْعُورِينَ لَمَّا سَمِعُوا الأذان وتلاحَمَ الفريقان بعضُهم ببَعْضٍ .

فأَلْقَيْتُ إليهم برَأْسِ الأَسْوَدِ مِنْ فَوْقِ أَسْوارِ القَصْرِ . . .

فلمَّا رآهُ أنْصارُه وَهَنوا[١] وذَهَبَتْ ريحُهُمْ[٢] ، ولمَّا أبْصَرَهُ المؤمنون كَبَّرُوا وكرُّوا على عَدُوِّهم . . . وقُضِيَ الأَمْرُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

* * *

ولما أَسْفَرَ[٣] النَّهارُ بَعَثْنَا بِكِتَابٍ إلىٰ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ نُبَشِّره بِمَصْرَعِ عَدُوِّ اللّٰهِ ، فلما بَلَغَ المُبَشِّرُونَ المَدِيْنَةَ وَجَدُوا النبيَّ صَلَواتُ اللّٰهِ عليه قَدْ فارَقَ الحَياةَ لِلَيْلَتِه[٤] .

غَيْرَ أنَّهم ما لَبِثوا أَنْ علِموا أنَّ الوَحْيَ بَشَّرَه بِمَقْتَلِ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ في الليلَةِ التي قُتِلَ فيها . . .

فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأَصْحَابِه : (قُتِلَ الأَسْوَدُ العَنْسِي البارحَةَ . . . قَتَلَه رجلٌ مبارَكٌ من أَهْلِ بَيْتٍ مُبارَكين . . .)

---

(١) وهنوا : ضعفوا .
(٢) ذهبت ريحُهم : زالت قوتُهُمْ .
(٣) أسفر النَّهار : طلع النَّهارُ .
(٤) لِلَيْلَتِه : في تلك الليلة .

فَقِيلَ له : من هو يا رسولُ اللّهِ ؟

فقال : (فَيْروز . . . فازَ فيْروزُ)(*) . . .

(*) للاستزادة من أخبار فيروز الديلمي والأسود العنسي انظر :

١ ـ الإصابة : الترجمة ٧٠١٢ .

٢ ـ الاستيعاب (بهامش الإصابة) : ٣/٢٠٤ .

٣ ـ أسد الغابة : ٤/٢٧١ .

٤ ـ تهذيب التهذيب : ٨/٣٠٥ .

٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥/٥٣٣ .

٦ ـ تاريخ الطبري : انظر الجزء الثالث خاصَّة والفهارس في العاشر عامَّة .

٧ ـ الكامل لابن الأثير : في حوادث السنة الحادية عشرة .

٨ ـ فتوح البلدان للبلاذري : ١١١ ـ ١١٣ .

٩ ـ جمهرة الأنساب : ٣٨١ .

١٠ ـ تاريخ الخميس : ٢/١٥٥ .

١١ ـ دائرة المعارف الإسلامية : ٢/١٩٨ .

١٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط : ٨٤ .

١٣ ـ حياة الصحابة : ٢/٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

١٤ ـ الأعلام للزركلي : ٥/٢٩٩ (وفيه ترجمة للأسود واسمه عيهلة) و ٥/٣٧١ (وفيه ترجمة لفيروز الديلمي) .

ثابت بن قيس الأنصاريّ

« مَا أُجيزَتْ وَصِيَّةُ امْرِىءٍ أوصَىٰ بِهَا
بَعْدَ مَوْتِهِ سِوَىٰ وَصِيَّة ثَابِتِ بنِ قيس »

ثابتُ بنُ قيسٍ الأنصاريُّ سَيِّدٌ من ساداتِ الخَزْرَجِ[١] المَرْموقينَ ، وَوَجْهٌ من وجوهِ يَثْرِبَ المَعْدودين .

وكان إلى ذلك ذكيَّ الفؤادِ، حاضِرَ البديهَةِ، رائعَ البَيانِ، جهير الصوت، إذا نَطَقَ بَزَّ[٢] القائلين ، وإذا خَطَبَ أسَرَ السامعين .

وهو أَحَدُ السابقين إلىٰ الإسلام في يثربَ ؛ إذْ ما كادَ يستَمِعُ إلى آيِ الذِّكْرِ الحكيم يُرَتِّلها الدَّاعِيَةُ المَكِّيُّ الشَّابُّ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ بِصَوْته الشَّجيِّ وَجَرْسِهِ[٣] النَّدِيِّ حتى أسَرَ القرآنُ سَمْعَه بِحلاوةَ وقْعِه ، وَمَلَكَ قَلْبَه برائِعِ بَيَانِه ، وخَلَبَ لُبَّه بما حَفَلَ به من هَدْيٍ وتَشْريع .

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه للإيمان ، وأَعْلَىٰ قَدْرَه ورَفَعَ ذِكْرَهُ بالإِنْضِواءِ تَحْتَ لواءِ نَبِيِّ الإسلام .

***

ولما قَدِمَ الرسولُ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه إلىٰ المدينَةِ مُهَاجِراً استَقْبَلَهُ

(١) الخَزْرَج : قبيلة يمنية الأصل ارتحلت إلى المدينة واستقرَّت فيها وكانت هي والأوس تكوِّنان جمهرَة الأنصار .

(٢) بَزَّ القائلين : غلبهم وتفوَّق عليهم .

(٣) الجرْس بسكون الراء : النَّبرَة والنَّغْمَة .

ثابتُ بنُ قَيْسٍ في كَوْكَبَةٍ[1] كبيرةٍ من فرسانِ قَوْمِهِ أكْرَمَ اسْتِقْبالٍ ، وَرحّبَ بِهِ وبِصاحِبِه الصدِّيق أجْمَلَ تَرْحيبٍ ، وخَطَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ خُطبةً بليغةً افتتَحَها بِحَمْدِ اللَّهِ جَلَّ وعزَّ ، والثَّناءِ عليه ، والصلاةِ والسَّلام على نبيِّه . . .

واختتَمَها بقوله : « وإنـا نعاهِدُكَ ـ يـا رسولَ اللَّهِ ـ علَىٰ أن نَمْنَعكَ[2] مِمَّا نَمْنَعُ منه أنْفُسَنا وأولادَنا ونساءَنا ؛ فما لنا لِقاءَ ذلك ؟ » .

فقال عليه الصلاةُ والسَّلام : (الجَنَّة . . .) .

فما كادَتْ كلمـةُ « الجَنَّةِ » تُصـافحُ آذانَ القَـوْمِ حتَّىٰ أشْرَقَتْ وجـوهُهم بالفَرْحَةِ وزَهتْ قسمَاتُهُمْ بالبَهْجة ، وقالوا :

رضينَا يا رسولَ اللَّه . . . رَضينا يا رسولَ اللَّهِ . . .

ومُنْذُ ذلِك اليومِ جَعَلَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه ثابتَ بنَ قَيْسٍ خطيبَهُ ، كما كان حسانُ بنُ ثابتٍ شاعِرَه .

فصار إذا جاءَتْه وُفودُ العَرَبِ لِتُفَاخِرَهُ أَوْ تُناظِرَهُ بأَلْسِنَةِ الفُصَحاء المَقَاوِل[3] من خُطبَائِها وشعرائِها ، نَدَبَ لهم ثابتَ بنَ قيسٍ لِمُصاوَلةِ[4] الخطباءِ ، وحَسَّانَ ابن ثابتٍ لِمُفاخَرَةِ الشُّعَراءِ .

* * *

ولَقدْ كان ثابِتُ بنُ قَيْسٍ مُؤْمِناً عميقَ الإيمانَ ، تَقِيًّا صادِقَ التَّقْوَىٰ ، شديدَ الخَشْيَةِ من رَبِّه ، عظيمَ الحَذَرِ من كُلِّ ما يُغْضِبُ اللَّهَ جَلَّ وعزَّ .

فلقد رآه رسولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يومٍ هَلِعاً جَزِعاً[5] ترتعِدَ فرائِصُه[6] خوفاً

---

(1) كوْكَبَةٍ : جَمَاعة .
(2) نَمْنَعَك : نحميكَ .
(3) المقاول : البُلَغَاء الذي يجيدون القَوْلَ .
(4) المُصَاوَلة : المنازلَة .
(5) هلعاً جزعاً : خائفاً محزوناً .
(6) الفرائص : جمع مفرده فريصة ، وهي لَحمة بين الثَّدْي والكتف تَرتعِد عند الفزع .

وخشيةً فقال :

(ما بكَ يا أبا محمد ؟!)

فقال : أخْشَىٰ أنْ أكونَ قَدْ هَلكتُ يا رسولَ اللَّهِ . . .

قال : (ولِمَ ؟!) .

قال : لقد نهانا اللَّهُ جَلَّ وعَزَّ عن أنْ نحِبَّ أنْ نُحْمَدَ بما لم نَفْعَلْ ، وأَجِدُنِي أحبُّ الحَمْدَ . . .

ونهانا عن الخُيَلاءِ[1] وأَجِدُني أحبُّ الزَّهْوَ[2] .

فما زالَ الرسولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وسلامُه عليه يُهدِّيء من رَوْعِهِ[3] حتى قال :

(يا ثابتُ ، ألَا تَرْضَىٰ أنْ تَعِيشَ حَمِيداً . . .

وَتُقْتَلَ شهيداً . . .

وتَدْخُلَ الجَنَّة . . . ؟)

فأشْرَقَ وَجْهُ ثابِتٍ بهذه البُشْرَىٰ وقال : بَلىٰ يا رسولَ اللَّه . . . بَلَىٰ يا رسولَ اللَّه . . .

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (إنَّ لَكَ ذلِك) .

* * *

ولمَّا نَزَل قولُه جَلَّ شأنُه : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبيِّ ، ولا تَجْهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكم لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكُمْ[4] وأَنْتُمْ لا تَشْعُرونَ ﴾[5] .

تجنَّبَ ثابِتُ بنُ قَيْسٍ مجالِسَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ـ على الرَّغْمِ من شِدَّة حُبِّهِ له ، وَفَرْطِ تَعَلُّقِه به ـ ولَزِمَ بيتَه حتَّىٰ لا يكادُ يَبْرَحه إلاّ لأداءِ المَكْتُوبَةِ[6] .

---

(١) الخيلاء : التكبُّر .

(٢) الزهو : الإعجابَ بالنَّفْس .

(٣) يهدىء من روعه : يهدىء من خوفه .

(٤) أن تحبط أعمالكم : أي مخافة أن تَفْسُدَ أعمالكم وتذهَبَ سُدىً .

(٥) الحجرات : ٢ .

(٦) المكتوبة : الصلاة .

فافْتَقَدَه النبيُّ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه وقال : (من يأتيني بخبرِه؟)

فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول اللَّهِ .

وذَهَبَ إليه فَوَجَدَه في مَنْزِلِه محزوناً مُنَكِّساً رَأْسَهُ فقال : ما شَأْنُكَ يا أبا محمد ؟ .

قال : شرٌّ .

قال : وما ذاك ؟!

قال : إنَّك تَعْرِفُ أَنِّي رَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ ، وأَنَّ صَوْتِي كثيراً ما يَعْلُو على صَوْتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقد نَزَل من القرآنِ ما تَعْلَمُ ، وما أَحْسَبُنِي إلَّا قَدْ حَبِطَ[١] عَملي وأَنَّنِي من أَهْلِ النَّارِ . . .

فَرَجَعَ الرجلُ إلىٰ الرسولِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، وأخبره بما رَأَىٰ وما سَمِعَ فقال :

(اِذْهَبْ إليه وقُلْ له: لَسْتَ من أَهْلِ النَّارِ؛ ولكِنَّكَ من أَهْلِ الجَنَّة).

فكانت هذه بشارَةً عُظْمَىٰ لثابتٍ ظلَّ يرجو خيرَها طَوالَ حَيَاتِه .

* * *

وقد شَهِدَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ المشَاهِدَ كُلَّها سِوَىٰ بَدْرٍ ، وأَقْحَمَ نَفْسَهُ في غِمارِ المعارِكِ طلباً للشهادة التي بشَّرَه بها النَّبِيُّ ، فكان يخطِئُها في كُلِّ مرَّةٍ ، وهي قابَ[٢] قَوْسَيْنِ مِنْهُ أَوْ أَدْنىٰ . . .

إلىٰ أَنْ وَقَعَتْ حروبُ الردَّةِ بَيْنَ المسلمينَ ومُسَيْلمَةَ الكذّابِ على عَهْدِ الصِّدِّيقِ رضي اللَّه عنه .

ولقد كان ثابتُ بنُ قيسٍ إِذْ ذاكَ أميراً لِجُنْدِ الأَنْصَارِ ، وسالِمٌ مَوْلَىٰ أبي

---

(١) حبط عملي : ذهب سُدىً .

(٢) قاب قوسين : مقدارَ قوسين ، وهي عبارة تستعمل للدلالة على شِدَّة القُرْبِ .

حُذَيْفَةَ أميراً لِجُنْدِ المهاجرين ، وخالِدُ بنُ الوليدِ قـائداً للجيش كلِّه : أنصـارِه ومُهَاجِريه ومَنْ فيه مِنْ أَبْنَاءِ البوادِي . . .

ولقد كانَتِ الريحُ[1] والـدُّوْلَةُ في جُـلِّ المعارِكِ لِمُسَيْلَمَـةَ ورجالِـه على جيوشِ المسلمين ، حتى بَلَغَ بِهِم الأمْرُ أن اقْتَحموا فُسْطَاطَ[2] خالِدِ بـنِ الوليدِ ، وهَمُّوا بِقَتْلِ زَوْجَتِهِ أُمِّ تَمِيمٍ ، وقطعوا حِبَالَ الفُسْطَاطِ ومزَّقوه شَرَّ مُمَزَّقٍ .

فرأىٰ ثابتُ بنُ قَيْسٍ يومَذَاكَ من تَضَعْضُعِ المسلمين ما شَحَنَ[3] قَلْبَه أسىً وكمداً ، وسَمِعَ من تَنابُزِهِمْ[4] ما مَلأَ صَدْرَه همّاً وغمّاً . . .

فأبْناءُ المُدُنِ يَرْمونَ أَهْلَ البَوادِي بالجُبْنِ ، وأَهْـلِ البَوادي يَصِفُـونَ أبْنَاءَ المُدُنِ بأَنَّهُمْ لا يُحْسِنُونَ القِتَالَ ولا يَدْرون ما الحَرْبُ . . .

عِندَ ذلك تَحنَّطَ[5] ثابتٌ وتكفَّنَ وَوَقَفَ على رؤوسِ الأشْهادِ وقال :

يا مَعْشَرَ المُسْلمينَ ، ما هكذا كُنَّا نُقاتِلُ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

بئسَ ما عَوَّدتم أَعْداءَكُم مِنَ الجُرْأَةِ عليكم . . .

وبِئْسَ ما عَوَّدْتُم أَنْفُسَكُمْ من الانْخِذَال لهم . . .

ثم رَفَعَ طَرْفَه إلى السَّماءِ وقال : اللَّهُمَّ إني أَبْرَأُ إليك مِمَّا جاءَ به هؤلاءِ من الشِّرْكِ [يَعْنِي مُسَيْلِمَةَ وقومَه] .

وأبرأ إليك مِمَّا يَصْنَعُ هؤلاءِ [يعني المسلمين] .

ثم هَبَّ هَبَّةَ الأَسَدِ الضَّارِي كَتِفاً لِكَتِفٍ مع الغُرِّ الميامين :

البراءِ بنِ مالِكٍ الأَنصاري . . .

وزَيْدِ بنِ الخَطَّابِ أخي أميرِ المؤمنين عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ . . .

---

(١) الريح : القوَّة ، والدولة : النَّصرُ والغَلب .

(٢) فسطاط خالد : خيمة خالد .

(٣) شحن : ملأ .

(٤) التنابُزُ : التعايُرُ ، وتنابَزَ القومُ عَيَّر بعضُهم بعضاً .

(٥) تحنط : وَضَعَ الحَنُوطَ على جَسَدِه ، والحنوط نبات يذر على جَسَدِ المَيِّتِ ، وتحنُّطه إشارة إلى استعداده للموت .

وسالمٍ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة . . .

وغيرِهم وغيرِهم من المؤمنين السَّابِقين . . .

وأبلىٰ بـلاءً عظيمـاً مَلأ قلوبَ المُسْلِمينَ حَمِيَّةً وعَزْمـاً ، وشَحَنَ أفْئِـدَةَ المشركين وَهَناً ورُعْباً .

وما زال يُجَالِـدُ في كُلِّ اتِّجـاهٍ ، ويُضارِبُ بِكُـلِّ سِلاحٍ حَتَّىٰ أثْخَنَتْـه[1] الجراح ؛ فَخَرَّ صَريعاً على أَرْضِ المَعْرَكَةِ قَريرَ العَيْنِ[2] بما كَتَبَ اللَّهُ لَهُ من الشهادَةِ التي بَشَّرَه بها حبيبهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ ، مَثْلوجَ الصَّدْرِ[3] بِمَا حَقَّقَ اللَّهُ على يَدَيْهِ لِلْمُسْلِمين من النَّصْرِ . . . .

* * *

وكانت علىٰ ثابِتٍ دِرْعٌ نفيسَةٌ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ من المُسْلِمِين ، فَنَزَعَها عَنْهُ ، وأَخَذَها لِنَفْسِه .

وفي الليلَةِ التَّـالِيَةِ لاستِشهـادِه رآه رَجُلٌ من المسلمين في منـامِـه فقـال للرجل :

أنا ثابِتُ بنُ قيسٍ ، فَهَلْ عَرَفْتَني ؟

قال : نعم .

فقال : إني أوصيكَ بِوَصِيَّةٍ ، فإيَّاكَ أَنْ تَقُولَ هذا حُلُمٌ فتُضَيِّعها . . .

إني لما قُتِلْتُ بالأمسِ مَرَّ بي رَجُلٌ من المُسْلِمِينَ صِفَتُه كذا وكذا ؛ فَأَخَذَ دِرْعي ومَضَىٰ بها نَحْوَ خِبائِه[4] في أَقْصَىٰ المُعَسْكَرِ من الجِهَةِ الفُلانِيَّةِ ، ووَضَعَها تَحْـتَ قِدْرٍ له ، وَوَضَعَ فَوْقَ القِدْرِ رَحْلاً[5] ، فائْتِ خالِدَ بنَ الوَليد ، وقُلْ له :

---

(١) أثخنتْه الجراح : أوهنَتْه وأضْعفته .

(٢) قريرُ العين : سعيدٌ مُغْتَبطٌ .

(٣) مثلوج الصدر : بمعنى قرير العين .

(٤) خبائه : خَيمتِه .

(٥) الرَّحلُ : ما يوضع فوق ظَهْر البعير ونحوه ويُرْحَلُ عليه .

أَنْ يَبْعَثَ إِلىٰ الرَّجُلِ مَنْ يَأْخُذُ الدِّرْعَ منه فَهِيَ ما تَزَالُ في مكانِها . . .

وأوصيكَ بِأُخْرَىٰ ، فإياكَ أَنْ تَقُولَ هذا حُلُمُ نائِمٍ فتُضَيِّعها . . .

قُلْ لخالدٍ : إذا قَدِمْتَ على خليفَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ في المدينةِ فَقُلْ له : إنَّ علىٰ ثابتِ بنِ قَيْسٍ من الدَّيْنِ كذا وكذا . . . وإنّ فلاناً وفلاناً من رَقِيقِه[1] عتيقان[2] فَلْيَقْضِ دَيْنِي وَلْيُحَرِّرْ غُلامَيَّ . . .

فاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ ، فَأَتَىٰ خالِدَ بنَ الوليدِ فَأَخْبَرَهُ بما سَمِعَ وما رأىٰ . . .

فَبَعَثَ خالدٌ من يُحْضِرُ الدِّرْعَ من عِنْدِ آخِذِها فوجَدَها في مكانها وجاءَ بِها كما هي .

ولما عادَ خالدٌ إلىٰ المدينَةِ حَدَّثَ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عنه بِخَبَرِ ثابِتِ بنِ قَيْسٍ وَوَصِيَّتِهِ فَأَجَازَ الصِّدِّيقُ وَصِيَّتَه .

وما عُرِفَ أحدٌ قَبْلَه ولا بَعْدَه أُجِيزَتْ وَصِيَّتُه بَعْدَ مَوْتِهِ سواه . . .

رضي اللَّهُ عن ثابت بن قيسٍ وأرضاه ، وجَعَلَ في أَعْلَىٰ عِلِيِّينَ مَثْوَاه(*) .

---

(1) رقيقه : عبيده .

(2) عتيقان : معتوقان محرَّران .

(*) للاستزادة من أخبار ثابت بن قيس الأنصاري انظر :

١ ـ الإصابة الترجمة : ٩٠٤ .
٢ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/١٩٢ .
٣ ـ تهذيب التهذيب : ٢/١٢ .
٤ ـ فتح الباري : ٦/٤٠٥ .
٥ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ١/٣٧١ .
٦ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الجزء الرابع) .
٧ ـ البيان والتبيين : ١/٢٠١ و ٣٥٩ .
٨ ـ سيرة ابن هشام : ٢/١٥٢ و ٣/٣١٨ و ٤/٢٠٧ .
٩ ـ الصديق لحسين هيكل : ١٦٠ .
١٠ ـ سير أعلام النبلاء .
١١ ـ أسد الغابة : ١/٢٧٥ أو الترجمة ٥٦٩ .

أسماء بنت أبي بكر

« عُمِّرَتْ أسمَاءُ مائَةَ عامٍ وَلَم يَسْقُط لَهَا سِنٌّ وَلَا ضِرْسٌ ، وَلَم يَغِبْ مِنْ عَقْلِهَا شيءٌ »

[المؤرّخون]

صحابِيَّتُنا هذه جَمَعَتِ المَجْدَ من أَطْرافِهِ كُلِّها . . .

فأبوها صَحَابيٌّ ، وجَدُّها صَحَابيٌّ ، وأختُها صحابيَّةٌ ، وزوجُها صحابيٌّ ، وابْنُها صحابيٌّ . . .

وَحَسْبُها[1] بذلِك شرفاً وفخراً . . .

أمَّا أبوها فالصِّدِّيقُ خليلُ الرسول الكريـم في حياتِـه ، وخليفَتُه من بعـد مَمَاته .

وأمَّا جَدُّها فأبو عتيقٍ والِدُ أبي بكر .

وأمَّا أُخْتُها فأمُّ المؤمنين عائِشةُ الطاهِرَةُ المُبَرَّأةُ .

وأمَّا زوجُها فحوارِيُّ[2] رسولِ اللَّهِ الزبيرُ بنُ العَوَّام .

وأمَّا ابنُها فَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ رضي اللَّهُ عنه وعنهم أجمعين . . .

إنَّها ـ بإيجاز ـ أسْماءُ بنتُ أبي بكر الصديق . . .

وكَفَىٰ . . .

كانت أسماءُ من السَّـابِقاتِ إلىٰ الإسـلام ، إذْ لم يَتَقَدَّم عَلَيْهـا في هذا

---

(١) حَسبُها : يكفيها .

(٢) الحواري : النصيرُ ، وحواريو الرُّسل خاصَّة أنصارهم .

الفَضْل العظيم غيرُ سَبْعَةَ عَشَرَ إنْساناً مِنْ رَجُلٍ وامْرَأةٍ .

وقد لُقِّبتْ بِذَاتِ النِّطاقَيْنِ لأنها صَنَعَتْ للرسولِ صَلَواتُ اللَّهِ عليهِ ولأبيها يَوْمَ هاجرَا إلىٰ المَدينَةِ زاداً ، وأَعَدَّتْ لَهُما سِقَاءً[1] فَلَمَّا لم تجدْ ما تَرْبِطُهُما بِهِ شَقَّتْ نِطاقَها[2] شِقَّيْن ، فَرَبَطَتْ بِأَحَدِهِمَا المِزْوَد[3] وبالثاني السِّقاءَ فَدَعَا لها النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ أَنْ يُبْدِلَها اللَّهُ مِنْهُما نِطَاقَيْن في الجَنَّةِ ، فَلُقِّبَتْ لِذلِكَ بِذَاتِ النِّطاقَيْنِ .

* * *

تزوَّج بِهَا الزُّبَيْرُ بنُ العوَّامِ ، وكان شاباً مُـرْمِلاً[4] ليس لـه خادِمٌ يَنْهَضُ بِخِدْمَتِهِ ، أَوْ مالٌ يوسِّعُ به على عِيَالِه غيرَ فَرَسٍ اقْتَناهَا .

فكانَتْ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ ، تَخْدِمُه وتَسُوسُ فَرَسَه ، وتَرْعاهُ وتَطْحَنُ النَّوىٰ لِعَلَفِه ، حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عليه فَغَدا مِنْ أَغْنَىٰ أَغْنِياءِ الصَّحابَةِ .

ولَمَّا أُتيحَ لها أَنْ تُهاجِرَ إلى المدينَةِ فِراراً بِدِينِها إلىٰ اللَّه ورَسولِه كانَتْ قد أَتَمَّتْ حَمْلَها بابْنِها عبدِ اللَّهِ بنِ الزبيرِ فلم يَمْنَعْها ذلِك من تَحَمُّلِ مَشاقِّ الرِّحْلَةِ الطويلةِ ، فما إنْ بَلَغَتْ قُباءَ[5] حَتَّىٰ وضَعَتْ وليدَها .

فكبَّـر المسلمونَ وهلَّلوا ؛ لأنَّـه كان أوَّلَ مَـوْلودٍ يـولَـدُ للمهـاجـرين في المدينَة .

فحملتْه إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَتْهُ في حِجْرِهِ ، فَـأَخَذَ شَيْئـاً من رِيقِهِ وجَعَلَهُ في فَم الصَّبيِّ ، ثم حَنَّكَه[6] ودعا له . . .

---

(١) السِّقاء : القربة وغيرَها ممّا يوضع فيه الماء .
(٢) النِّطاق : ما تَشُدُّ به المرأةُ وسَطَها .
(٣) المِزْوَدُ : كيس يوضع فيه الزاد للمسافِر .
(٤) مُرْمِلاً : فقيراً .
(٥) قباء : قرية على بعد ميلين من المدينة .
(٦) حَنَّكه : مَضَغَ شيئاً ووضعه في حَنَكِه .

فكان أولَ ما دَخَلَ في جَوْفِهِ ريقُ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

***

وقد اجْتَمَعَ لِأَسْماءَ بِنْتِ أبي بكرٍ من خَصَائِلِ الخَيْرِ وشَمائِلِ النُّبلِ ورَجاحَةِ العَقْلِ ما لم يَجْتَمِعْ إلَّا لِلْقَليلِ النَّادِرِ مِنَ الرِّجالِ .

فَقَدْ كانَتْ مِنَ الجُودِ بِحَيْثُ يُضْرَبُ بجُودِها المَثَلُ .

حَدَّث ابنُها عبدُ اللَّهِ قال :

ما رَأَيْتُ امْرَأَتَيْن قَطُّ أَجْوَدَ مِنْ خالَتِي عائِشَةَ وأُمِّي أَسْمَاءَ ، لكِنَّ جودَهُما مُخْتَلِفٌ .

أمَّا خالَتي فكانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إلى الشَّيْءِ حَتَّى إذا اجْتَمَعَ عِنْدَها ما يَكْفِي قَسَمتْه بَيْنَ ذَوي الحاجاتِ . .

وأمَّا أمِّي فكانَتْ لا تُمْسِك[1] شيئاً إلى الغدِ . . .

***

وكانَتْ أَسْماءُ إلى ذلِكَ عاقِلَةً تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ في المواقِفِ الحَرِجة . . .

من ذلِك أنَّه لَمَّا خَرَجَ الصديقُ مُهاجِراً بصُحْبَةِ رسولِ اللّهِ حَمَلَ مَعَه مالَه كُلَّه ، ومِقْدارهُ سِتَّةُ آلافِ دِرْهَمٍ ، ولم يَتْرُكْ لِعِيالِه شيئاً . . .

فلمَّا علم والدُهُ أبو قُحافَةَ برَحيلِه ـ وكان ما يَزالُ مُشْرِكاً ـ جاءَ إلى بَيْتِهِ وقال لأسماء :

واللّهِ إنِّي لَأراهُ قَدْ فَجَعَكم بمالِه بَعْدَ أنْ فجعكم بنفسِه ، فقالت له :

كلا يا أبتِ إنَّه قد تَرَكَ لنا مالاً كثيراً ، ثم أَخَذَتْ حصىً وَوَضَعَتْهُ في الكُوَّةِ[2] التي كانوا يضعون فيها المال ، وأَلْقَتْ عليه ثوباً ، ثم أَخَذَتْ بيدِ جَدِّها

---

(١) لا تُمْسِك شيئاً : لا تَسْتبقي شيئاً .

(٢) الكُوَّة : تجويف في الحائط ، أو نافذة صغيرة .

ـ وكان مَكْفوفَ البَصَرِ ـ وقالتْ :

يا أبَتِ ، أُنْظُرْ كم تَرَكَ لنا من المال . فَوَضَعَ يَدَه عليه وقال :

لا بَأْسْ . . . إذا كان تَرَكَ لكُم هذا كُلَّه فَقَدْ أَحْسَنَ .

وقَدْ أرادَتْ بذلِك أنْ تُسَكِّنَ نَفْسَ الشَّيْخ ، وألَّا تَجْعَلَه يَبْذُل[1] لها شيئاً من مالِه . . .

ذلك لأنَّها كانت تَكْرهُ أَنْ تَجْعَلَ لِمُشْرِكٍ عليها يَداً[2] حتَّىٰ لو كان جَدَّها . . .

* * *

وإذا نَسِيَ التَّاريخُ لأسماءَ بنتِ أبي بَكْرٍ مواقِفَها كلَّها ، فإنَّه لَنْ يَنْسَىٰ لها رَجَاحةَ عَقْلِها ، وشِدَّةَ حَزْمِها ، وقوَّةَ إيمانِها وهي تَلْقَىٰ ولدَها عبدَ اللّهِ اللِّقاءَ الأخيرَ .

وذلك أَنَّ ابنهَا عبدَ اللّهِ بنَ الزُّبَيْرِ بويعَ له بالخِلافَةِ بَعْدَ مَوْتِ يزيدَ بنِ معاوية ، ودانَتْ له الحِجازُ ومصرُ والعراقُ وخُراسَانُ وأكثرُ بلادِ الشَّام .

لكنَّ بني أُميَّة ما لَبِثوا أَنْ سيَّروا لِحَرْبِه جَيْشاً لَجِباً[3] بِقِيادَةِ الحجَّاجِ بنِ يوسُفَ الثَّقَفِيِّ ، فَدَارَتْ بينَ الفريقين معارِكُ طاحِنَةٌ أَظْهَرَ فيها ابنُ الزبيرِ من ضُروبِ البُطولَةِ ما يَليق بِفارِسٍ كَمِيٍّ[4] مِثلِه .

غَيرَ أنَّ أنصارَه جَعَلوا يَنْفَضُّون[5] عنه شيئاً فشيئاً ؛ فلجأ إلى بَيْتِ اللّهِ الحرام ، واحْتَمَىٰ هو ومَنْ مَعَهُ في حِمَىٰ الكَعْبَةِ المُعَظَّمَةِ . . .

---

(١) يبذل لها : يعطيها .

(٢) اليَدُ : الصَّنيعَة والمِنَّة والمعروف .

(٣) جيشاً لجباً : جيشاً كثيفاً جراراً .

(٤) الكمِيُّ : البَطَلُ الشُّجاع .

(٥) ينفضون عنه : يتفرقون عنه .

وقُبَيْلَ مَصْرَعِهِ بساعات دَخَلَ عَلَىٰ أمِّه أسماءَ ـ وكانَتْ عَجوزاً فانِيَةً قَدْ كُفَّ بَصَرُها ـ فقال :

السلامُ عليكِ يا أُمَّه[1] ورحمةُ اللّهِ وبَرَكاتُه .

فقـالت : وعليك السـلامُ يا عبـدَ اللّهِ . . . ما الـذي أَقْدَمَـكَ في هـذه الساعةِ ، والصُّخورُ التي تَقْذِفُها مَنْجَنيقاتُ[2] الحجّاجِ على جُنودِكَ في الحرم تَهُزُّ دُورَ مكَّةَ هزًّا ؟!

قال : جئْت لأَسْتَشِيرَك .

قالت : تستشيرني !! . . . في ماذا ؟!

قال : لقد خَذَلَنِي الناسُ وانْحازوا عَنِّي رَهْبَةً من الحَجَّاجِ أو رَغْبَةً بمـا عنـده ، حتىٰ أَوْلادي وأَهْلِي انفضُّوا[3] عني ، ولم يَبْقَ معي إلاَّ نَفَـرٌ قليلٌ من رِجـالي ،وهم مَهْما عَظُمَ جَلَدُهم[4] فلن يَصْبِروا إلاَّ ساعَةً أو ساعَتين ، ورُسُلُ بَني أُمَيَّةَ يُفاوِضُونني عَلى أَنْ يعطوني ما شِئْتُ من الدُّنْيا إذا أنا أَلْقَيْتُ السِّـلاحَ وبايَعْتُ عبدَ الملِك بنَ مَرْوَانَ ، فما تَرَين ؟

فعلا صَوْتِها وقالت : الشَّأْنُ شَأْنُكَ يا عبدَ اللّهِ ، وأَنْتَ أَعْلَمُ بنفسِك . . .

فإنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أنَّك علىٰ حَقٍّ ،وتَـدْعو إلىٰ حَقٍّ ، فاصْبِرْ وجالِدْ كما صَبَرَ أَصْحابُك الذين قُتلوا تَحْتَ رايَتِك . . .

وإنْ كنتَ إنَّما أَرَدْتَ الدُّنْيا فَلَبِئْسَ العَبْدُ أنت : أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ ، وأَهْلَكْتَ رجَالَك .

قال : ولكِنِّي مَقْتُولٌ اليَوْمَ لا مَحالَةَ .

---

(١) يا أُمَّه : يا أمّاه .

(٢) مَنْجَنيقات : جمعُ منجنيق ، وهو آلة حربية كانت تقذف بها الصخور ونحوها على المعاقِل والحصون .

(٣) انفضُّوا : تفرقوا .

(٤) جَلَدُهم : صبرُهم واحتمالُهم .

قـالت : ذٰلِك خيرٌ لك من أَنْ تُسْلِمَ نفسَـك للحَجَّاج مُخْتـاراً ، فيلعَبَ بِرَأسِك غِلمانُ بني أُمَيَّةَ .

قال : لست أَخْشَىٰ القَتْلَ ، وإنَّما أخافُ أَنْ يُمَثِّلوا بي .

قالت : ليس بعد القتل ما يَخافُه المَـرْءُ ، فالشَّـاةُ المَذْبـوحَةُ لا يؤلِمُهـا السَّلخ . . .

فأَشْرَقَتْ أساريرُ[1] وجهـه وقال : بُـورِكْتِ من أمٍّ ، وبُورِكَتْ مَنَـاقِبُكِ[2] الجليلةُ ؛ فأنا ما جئت إليكِ في هذه السَّاعَةِ إلَّا لِأَسْمَعَ مِنْكِ ما سَمِعْتُ ، واللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّني ما وَهَنْتُ ولا ضَعُفْتُ ، وهو الشهيدُ عليَّ أنَّني ما قُمْتُ بما قُمْتُ به حُبًّا بالدُّنْيا وزينَتِها ، وإنما غَضَباً للّهِ أَنْ تُسْتَباح مَحـارِمُه . . . وها أنا ذا ماضٍ إلىٰ ما تُحِبِّينَ ، فإذا أنا قُتِلْتُ فلا تَحْزَني عليَّ وسَلِّمي أَمْرَكِ للّهِ . . .

قالت : إنَّما أَحْزَنُ عليكَ لو قُتِلْتَ في باطِلٍ .

قال: كوني على ثِقَةٍ بأَنَّ ابنَكِ لم يَتَعَمَّد إتْيـانَ مُنْكَرٍ قَطُّ ، ولا عَمِلَ بِفاحِشَةٍ قَطُّ ، ولم يَجُرْ في حُكْمِ اللّهِ ، ولم يَغْدرْ في أَمانٍ ولم يَتَعَمَّدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ ولا معاهِدٍ[3] ، ولم يكن شيءٌ عِنْدَه آثَرَ[4] من رضَىٰ اللّهِ عَزَّ وجلَّ . . .

لا أقولُ ذٰلِك تَـزْكِيَةً لِنَفْسِي ؛ فـاللّهُ أعلم منِّي بي ، وإنما قلتُـه لأُدْخِلَ العزَاءَ[5] على قلبك .

فقالت : الحمدُ للّهِ الذي جَعَلَكَ على ما يُحِبُّ وأحِبُّ . . .

اِقْتَرِبْ مني يا بُنَيَّ لِأَتشمَّمَ رائِحَتَكَ وأَلْمسَ جَسَدَكَ فقد يكون هذا آخر العَهْدِ بك .

---

(١) أساريرُ وجهه : محاسِنُ وجهه .
(٢) مناقِبُك : خلالك وخصالك وشمائلك .
(٣) المعاهِد : الذميُّ .
(٤) آثر : أفْضل .
(٥) العزاء : الصَّبْر .

فأكبَّ عبدُ اللّهِ على يديها ورجْلَيها يوسِعُهُما(١) لَثْماً ، وأجالَت هي أنْفَها في رأْسِه وَوَجْهِهِ وعُنُقِه تتشَمَّمُه وتُقَبِّلُه ، وأطْلَقَتْ يديها تَتَلَمَّس جَسَدَه ، ثم ما لبَثَتْ أَنْ ردَّتْهما عَنْهُ وهي تقول :

ما هذا الذي تَلبَسُه يا عَبْدَ اللّهِ ؟!

قال : دِرْعِي .

قالت : ما هذا يا بُنَيَّ لباسُ مَنْ يريدُ الشَّهادَةَ .

قال : إنَّما لَبِسْتُها لأُطَيِّبَ خاطِرَكِ ، وأُسكِّنَ قلْبَك .

قالت : انْزَعْها عَنْكَ ، فَذٰلِك أشدُّ لِحَمِيَّتِك(٢) وأقوَىٰ لِوَثْبتِك وأخَفُّ لِحَرَكَتِك ، ولٰكِنْ اِلْبَسْ بدلاً مِنْها سَراويلَ مُضاعَفَةً(٣) ، حتى إذا صُرِعْتَ لم تَنْكَشِفْ عَوْرَتُك .

***

نَزَعَ عبدُ اللّهِ بنُ الزبير دِرْعه ، وشدَّ عَلَيْه سَرَاوِيله ، ومَضَىٰ إلى الحَرَم لِمُوَاصَلَةِ القتال وهو يقول :

لا تَفْتُرِي عن الدُّعاءِ لي يا أُمَّه .

فرفعت كَفَّيْها إلىٰ السماءِ وهي تقول : اللَّهُمَّ ارْحَمْ طولَ قِيامِهِ وشِدَّةَ نَحيبه في سوادِ اللَّيْلِ والناسُ نيام . . .

اللَّهُمَّ ارْحَمْ جوعَه وظَمَأَه في هواجر المدينَةِ ومَكَّةَ وهو صائِمٌ . . .

اللَّهُمَّ ارْحَمْ بِرَّه بأبيه وأمِّه . . .

اللَّهُمَّ إني قَدْ سَلَّمْتُه لِأَمْرِك ، ورَضيتُ بما قَضَيْتَ له ؛ فأَثِبْني عليه ثوابَ الصَّابرين .

***

---

(١) يوسعُهما لثماً : يملأهُما تقبيلاً .

(٢) أشدُّ لِحَمِيَّتِك : أقْوَىٰ لِنَخْوَتِك وشجاعتك .

(٣) مضاعَفَة : طويلة .

لم تغربْ شَمْسُ ذلك اليومِ إلاَّ كانَ عبدُ اللّه بنُ الزبيرِ قد لَحِقَ بجـوارِ ربه .

ولم يَمْض على مَصْرَعِهِ غيرُ بضْعَةَ عشـرَ يوماً إلاَّ كانت أمُّه أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قد لَحِقَتْ به ، وقد بَلَغَتْ مِن العُمُر مائـةَ عامٍ ، ولـم يَسْقُط لهـا سِنٌّ ولا ضِرْسٌ ، ولم يَغِبْ من عَقْلِها شيءٌ(*) .

(*) للاستزادة من أخبار أسماء بنت أبي بكر انظر :

١ - الإصابة الترجمة : ٤٦ .
٢ - أسد الغابة : ٥/٣٩٢ - ٣٩٣ .
٣ - الاستيعاب (طبعة حيدر آباد) : ٢/٧٠٤ - ٧٠٥ .
٤ - تهذيب التهذيب : ١٢/٣٩٧ .
٥ - صفة الصفوة : ٢/٣١ - ٣٢ .
٦ - شذرات الذهب : ١/٨٠ .
٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٣/١٣٣ - ١٣٧ .
٨ - البداية والنهاية : ٨/٣٤٦ .
٩ - أعلام النساء لكحالة : ١/٣٦ .
١٠ - عبد اللّه بن الزبير من سلسلة أعلام العرب للدكتور الخربوطلي .
١١ - سير أعلام النبلاء : ٢/٢٠٨ .
١٢ - قلائد الجمان : ١٤٩ .
١٣ - النجوم الزاهرة : ١/١٨٩ .
١٤ - المُحَبَّر : ٢٢ - ٥٤ - ١٠٠ .

(مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُل يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَقَدْ قَضَىٰ نَحبَهُ ، فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّه)

[محمد رسول اللَّه]

كان طَلْحَةُ بنُ عُبيدِ اللَّهِ التيمِيُّ يَمْضِي مع قافِلَةٍ من قَوافِلِ قريشٍ في تجارةٍ له إلىٰ بلادِ الشَّامِ ، فلمَّا بَلَغتِ القافِلَةُ مدينَةَ بُصْرَىٰ[1] ، هَبَّ الشُّيوخُ من تُجَّارِ قُرَيْشٍ إلىٰ سُوقِها العامِرَةِ يَبيعونَ وَيَشْتَرون .

وعَلىٰ الرَّغْمِ من أَنَّ طلحةَ كان شاباً حَدَثاً[2] لَيْسَ له مثلُ خبْرَتِهم في التجارة ، إلَّا أنَّه كان يَمْلِكُ من حِدَّة الذَّكاءِ ونَفاذِ البَصيرَةِ ما يُتيحُ له مُنافَسَتَهم ، والفَوْزَ من دونِهِمْ بأَفْضَلِ الصَّفَقاتِ .

وفيما كان طلحةُ يَروحُ ويَغْدو في السُّوق التي تَموجُ بالوَافِدينَ عليها مِنْ كُلِّ مكان ، حَدَثَ له أمرٌ لم يَكُنْ سبباً في تغْيير مَجْرَىٰ حياتِه كُلِّها فَحَسْبُ . . .

وإنَّما كان بَشِيراً بِتَغْييرِ سَيْرِ التَّاريخِ كُلِّه . . .

فَلْنترُكِ الكلامَ لطَلْحَةَ بنِ عُبَيْد اللَّه لِيَرْوِيَ لنا قِصَّته المُثيرَة .

قال طَلْحَةُ : بينَما نحنُ في سوقِ بُصْرَىٰ ، إذا راهِبٌ[3] يُنادِي في النَّاسِ :

(1) بُصْرَى : مدينة في بلاد الشَّامِ ، وهي الآن من محافظة حوران في سورية .
(2) حدثاً : صغيرَ السِن .
(3) الراهِبُ : رَجُل الدين عند النصارَى .

يـا مَعْشَرَ التُّجَار ، سَلُوا أَهْلَ هـذا المـوسِم[1] ، أَفيهم أحَـدٌ من أَهْـلِ الحَرَم[2] ؟

وكنتُ قريباً مِنْهُ فَبَادَرْتُ إليه وقُلْتُ : نعم أنا مِنْ أهل الحَرَم .

فقال : هَلْ ظَهَرَ فيكُمْ أحْمَدُ ؟

فقلتُ : ومَنْ أحْمَدُ ؟!

فقال : ابنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ المطلبِ . . .

هذا شَهْرُه الذي يَظْهَرُ فيه . . .

وهو آخِرُ الأنبياءِ . . .

يَخْرُجُ من أَرْضِكُمْ من الحَرَم ، ويُهاجِرُ إلىٰ أرْضٍ ذاتِ حِجارَةٍ سُودٍ ، ونَخيلٍ وسِبَاخٍ[3] ينِزُّ[4] منها الماءُ . . .

فإيَّاكَ أنْ تُسبَقَ إليه يا فَتَىٰ .

قـال طلحـةُ : فَـوَقَعَتْ مَقَـالَتُـه في قَلْبِي ، فَبـادَرْتُ إلىٰ مـطايـاي[5] فَرَحَلْتُها[6] ، وخَلَّفتُ القَافِلَةَ وَرَائِي ، ومَضَيْتُ أَهْوِي هُوِيّاً[7] إلىٰ مَكَّةَ .

فلمَّا بَلَغْتُهَا ؛ قلت لأهلي : أكان مِنْ حَدَثٍ بَعْدَنا في مَكَّةَ ؟

قالوا : نعم ، قَامَ محمدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ ، يَزْعُمُ أنه نَبِيٌّ ، وقد تَبِعَهُ ابنُ أبي قُحَافة [يريدون أبا بكر] .

قال طلحةُ : وكُنْتُ أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ ، فقد كـان رَجُلاً سَهْـلاً محبَّباً مُـوَطَّأَ الأَكْنَافِ[8] . . .

---

(١) الموسمُ : مُجْتَمَع النَّاس للحج أو للبيع والشِّراءِ .

(٢) أَهْل الحَرَم : أهل مكَّة .

(٣) أرض ذات سِباخٍ : أرضٌ فيها نَزٌّ ومِلْحٌ .

(٤) ينز : يَتَحَلَّبُ .

(٥) مطاياي : جمالي .

(٦) رحلتُها : وضعْتُ عليها رحالَها استعداداً للسَّفَرِ .

(٧) أهوي هُوياً : اندفع مُسْرعاً .

(٨) موطَّأ الأكناف : لَيِّن الجانِبِ .

وكان تاجِراً ذا خُلُقٍ واسْتِقَامَةٍ ، وكُنّا نَأْلَفُه ، ونحِبُّ مَجالِسَه ، لِعِلْمِه بأَخْبَار قُرَيْشٍ ، وحِفْظِهِ لأَنْسَابِها .

فمضَيْتُ إليه وقُلْتُ له : أَحَقًّا ما يُقَالُ مِنْ أنَّ محمَّدَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ أَظْهَرَ النُبُوَّةَ ، وأَنَّكَ اتَّبَعْتَه ؟!

قال : نعم . . . وجَعَل يَقُصُّ عليَّ مِنْ خَبَره ، ويُرَغِّبُني في الدُّخولِ معَه ، فأخْبَرْتُه خبَرَ الرَّاهِبِ ، فَدُهِش له وقال :

هَلُمَّ[1] معِي إلىٰ محمدٍ لتَقُصَّ عَلَيْه خَبَرَكَ ، ولِتَسْمَعَ ما يقول . . . ولِتَدْخُل في دين اللَّهِ . . .

قال طلحة : فَمَضَيْتُ مَعَه إلىٰ محمدٍ فَعَرَضَ عَلَيَّ الإسْلامَ ، وَقَرَأَ عليَّ شيئاً من القرآنِ ، وبَشَّرَني بِخَيْرَي الدُّنْيا والآخِرَةِ .

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي إلى الإسْلامِ ، وقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ راهِبِ بُصْرَىٰ فَسُرَّ بها سُروراً بَدَا على وجهه . . .

ثم أَعْلَنْتُ بيْنَ يَدَيْهِ شهادَةَ أنْ لا إِله إلاَّ اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللَّهِ . . .
فكُنْتُ رابعَ ثَلاثَةٍ أَسْلَموا على يَدَيْ أبي بَكْر .

* * *

وَقَعَ إسلامُ الفتىٰ القُرَشِيِّ عَلَىٰ أَهْلِه وذَويه وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ .

وكان أَشَدَّهُمْ جَزَعاً[2] لإسْلامِه أُمُّهُ ؛ فقد كانَتْ تَرجو أَنْ يَسُودَ قَوْمَه لما يَتَمَتَّعُ به مِن كريم الشَّمائلِ وجليلِ الخَصائِل . . .

* * *

---

(١) هلُمَّ معي : امض معي .
(٢) جزعاً : حُزناً وهَلَعاً .

وقد بادَرَ إليه قَوْمُه لِيَثْنوه عن دينِهِ فوجدوه كالطَّوْدِ[1] الراسِخِ الذي لا يَتَزَعْزَعُ .

فلمَّا يَئِسوا من إقْناعِه بالحُسْنَى لَجَؤوا إلىٰ تعذيبِهِ والتَّنْكِيلِ به . . .

حَدَّثَ مَسْعُودُ بنُ خَرَاشٍ قال : بَينَما كنتَ أَسْعى بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ[2] ، إذا أَنَاسٌ كثيرٌ يَتْبَعُونَ فتىً أُوثِقَتْ يَداه[3] إلىٰ عُنُقِه . . . وهم يُهَرْولون وراءَه ، ويدفعونه في ظَهْرِه ، ويَضْرِبُونَه على رأْسِه . . .

وخَلْفَه اِمرأَةٌ عجوزٌ تَسُبُّه وتصيحُ به . . .

فقلت : ما شأنُ[4] هذا الفتى ؟!

فقالوا : هذا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، صَبَأَ[5] عن دينِه، وتَبع غلامَ بني هاشِم . . .

فقلت : ومن هذه العجوزُ التي وراءَه ؟

فقالوا : هي الصَّعْبَةُ بِنْتُ الحَضْرَمِيِّ أمُّ الفَتَىٰ . . .

* * *

ثم إنَّ نَوْفَلَ بنَ خُوَيلِدٍ المُلَقَّبَ بِأَسَدِ قُرَيشٍ ، قامَ إلىٰ طَلْحَةَ بنِ عبيد اللَّه فَأَوْثَقَه في حَبْلٍ ، وَأَوْثَقَ مَعَهُ أبا بكْرٍ الصِدّيقَ ، وقَرَنهما معاً وأَسْلَمَهُما إلىٰ سُفَهاءِ مَكَّةَ ، لِيُذيقوهما أَشَدَّ العَذَابِ . . .

لذلك دُعِي طَلْحَةُ بنُ عبيدِ اللَّهِ وأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ بالقَرينَيْن.

* * *

ثم جَعَلتِ الأَيَّامُ تدورُ ، والأَحْداثُ تَتَلاحَقُ ، وطلحةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَزْدادُ

---

(١) الطود : الجَبَل العظيم .

(٢) الصفا والمروة : مشعران من مشاعِر الحج يَسْعَى الحجاج والمعتمرون بينهما .

(٣) أوثِقَت يداه : كُتِفَت يداه ورُبطَتا .

(٤) ما شأن هذا الفتى : ما أمرُه وخَبَرُه ؟

(٥) صَبأ عن دينه : رَجَعَ عن دينه .

مَعَ الأيَّام اكْتِمالاً ، وبَلاؤه في سبيلِ اللَّهِ ورسولِه يَكْبرُ ويَتَعاظَمُ ، وبِرُّه بالإسْلامِ والمُسْلمين يَنْمو ويتَّسِعُ ، حتى أطْلَق عليه المُسْلِمون لَقَبَ الشَّهيدِ الحَيِّ ودعاه الرسولُ عَلَيْهِ الصلاة والسلام بِطَلْحَةِ الخَيْرِ ، وطَلْحَةِ الجودِ ، وطلحةِ الفَيَّاض .

ولكلٍّ من هذه الألقاب قِصَّةٌ لا تَقِلُّ رَوْعةً عن أخواتِها .

***

أما قِصَّةُ تَلْقِيبِه بالشَّهيدِ الحَيِّ فكانَتْ يَوْمَ أُحُدٍ حينَ انْهَزَمَ المُسْلِمون عَنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ولم يَبْقَ معه غيرُ أحَدَ عَشَرَ رَجُلاً من الأنصارِ وطلحةَ بنِ عبيدِ اللَّهِ من المهاجِرين .

وكان النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَصْعَدُ هُوَ وَمَنْ مَعَه في الجَبَلِ ، فَلَحِقَتْ به عُصْبَةٌ من المشركين تُريدُ قَتْلَه .

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (مَنْ يَرُدُّ عنا هؤلاءِ وهو رفيقي في الجَنَّةِ؟)

فقال طلحةُ : أنا يا رسولَ اللَّهِ .

فقال عليه الصلاة والسلام : (لا ، مكانَك[1]) .

فقال رجلٌ من الأنْصارِ : أنا يا رسولَ اللَّهِ .

فقال : (نعم ، أنتَ) .

فقاتَلَ الأنْصارِيَّ حتى قُتِلَ ، ثم صَعِدَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بِمَنْ مَعَه فَلحِقَه المشركون ، فقال :

(ألا رَجُلٌ لهؤلاءِ ؟!)

فقال طلحةُ : أنا يا رسولَ اللَّهِ .

فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : (لا ، مكانَكَ) .

---

(١) مكانك : إلزَم مكانك .

فقال رجلٌ من الأنصار : أنا يا رسولَ اللَّهِ .

فقال : (نعم ، أنتَ) ، ثم قاتل الأنْصارِيُّ حَتَّىٰ قُتِل أيضاً .

* * *

وتابع الرسولُ صعودَهُ ، فَلحِقَ به المشركون ، فلم يَزَلْ يقولُ مثل قولِه ، ويقولُ طلحةُ : أنا يا رسولَ اللَّهِ ، فَيمْنَعُه النبيُّ ، ويأذنُ لِرَجُلٍ من الأنْصَارِ حتى استُشْهِدوا جميعاً ، ولم يَبْقَ مَعَه إلا طلحةُ فَلحِق به المشركون ، فقال لطَلحةَ : (الآن ، نعم . . .) .

وكان الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد كُسِرَت ربَاعِيَّتُه[١] وشُجَّ جبينُه ، وجُرحَتْ شفَتُه، وسال الدَّمُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، وأصَابَه الإعْيَاءُ[٢] فَجَعَلَ طلحةُ يكُرُّ[٣] عَلَىٰ المُشْرِكين حَتىٰ يَدْفعَهم عن رسول اللَّهِ ﷺ ثم ينقلبُ إلىٰ النَّبِيِّ فَيرْقَىٰ به قليلاً في الجَبَل ، ثم يُسْنِدُه إلىٰ الأَرْضِ ، ويَكُرُّ على المشركين من جديدٍ . . .

ومازال كذلك حتى صَدَّهم عنه . . .

قال أبو بكر : وكنتُ آنئذٍ أنا وأبو عبيدةَ بنُ الجراحِ بعيدين عن رسولِ اللَّهِ ، فلمَّا أَقْبَلْنا عليه نُريدُ إسعافَه قال :

(أُتْرُكَاني وانصرِفا إلىٰ صاحِبكُما) ، يُريدَ طَلْحَةَ .

فإذا طَلْحَةُ تَنْزِفُ دماؤه ، وَفيه بضْعٌ وسبعون ضَرْبَةً بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةً بِرُمحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسهْم . . .

وإذا هو قد قُطِعت كفُّه ، وسَقَط في حُفْرةٍ مَغْشِيًّا عليه . . .

فكان الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقول بعد ذلك :

(من سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ يَمْشِي على الأرْض ، قَدْ قَضَىٰ نَحْبَه فَلْيَنْظُرْ إلىٰ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ) .

---

(١) رباعيتُه : سِنُّه التي بين الناب والثنية . (٢) الإعياء : التَّعَبُ . (٣) يكر : يهجم .

وكـان الصدِّيقُ رضْـوانُ اللَّهِ عليه إذا ذُكِـر أحُدٌ يقـول : ذلـكَ يـومٌ كُلُّه لطلحةَ . . .

***

هذه هي قِصَّةُ نَعْتِ طلحة بن عُبَيْدِ اللَّهِ بالشَّهيدِ الحَيِّ، أما تَلْقيبُه بِطَلْحَةِ الخير وطَلْحَةِ الجودِ فله مائةُ قِصَّةٍ وقِصَّة . . .

من ذلك أنَّ طلحةَ كان تاجراً واسِعَ التِّجارَةِ عظيمَ الثَّراءِ ، فجاءَه ذاتَ يوم مالٌ من حَضْرَمَوْتَ مقدارُه سَبْعُمائَةِ أَلْفِ دِرْهمٍ ، فَبـاتَ لَيْلَته وَجِـلاً[1] جَزِعـاً مَحْزوناً .

فَدَخَلَتْ عليه زَوْجَتُه أُمُّ كُلْثُوم بنتُ أبي بكرٍ الصديقِ وقالت :

ما بك يا أبا محمد ؟!!

لعَلَّه رابَكَ[2] مِنَّا شَيْءٌ !!

فقال : لا ، وَلَنِعْمَ حَليلَةُ[3] الرجُـل المُسْلِم أنتِ . .

ولكنْ تَفَكَّرتُ منذُ اللَّيْلةِ وقلتُ :

ما ظَنُّ رَجُلٍ بِربِّه إذا كان ينامُ وهذا المال في بيتِهِ ؟!

قالت : وما يُغِمُّك[4] منه ؟!

أَيْنَ أنتَ من المحتَاجين من قَوْمِك وأَخِلاَّئِك ؟!

فـإذا أصْبَحْتَ فقَسِّمْـه بينَهم .

فقال : رَحِمَك اللَّهُ ، إنَّك مُوَفَّقَةٌ بنتُ مُوَفَّقٍ . . .

فلما أصْبحَ جَعَلَ المالَ في صُرَرٍ وجِفَانٍ[5] ، وقَسَّمَه بَيْنَ فقراءِ المُهاجِرينَ والأَنْصَارِ .

***

---

(١) وجلاً : خائفاً .　　(٢) رابك : أصابك وساءك .　　(٣) الحليلة : الزوجة .

(٤) يغمك : يهمك ويدخل عليك الغم .　　(٥) جفان : جمع جفنة وهي القصْعَة الكبيرَة .

ورُوِيَ أيضاً أنَّ رَجُلاً جاءَ إلى طلحةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّه يَطْلُبُ رِفْدَه[1] وذَكَرَ له رَحِماً تَرْبِطُه به ، فقال طلحة :

هذه رَحِمٌ ما ذكرَها لي أحَدٌ من قَبْلُ .

وإنَّ لي أرضاً دَفَعَ لي فيها عثمانُ بنُ عفَّانَ ثَلاثَمائَةِ ألفٍ . . .

فإن شئتَ خُذْها وإن شئْتَ بِعْتُها لك مِنْهُ بِثَلاثِمائَةِ أَلْفٍ ، وأَعْطَيْتُك الثَّمَنَ ، فقال الرجلُ :

بَلْ آخُذُ ثَمَنَهَا . . .

فأعطاه إيَّاه . . .

* * *

هنيئاً لِطلحةَ الخَيْرِ والجودِ هذا اللَّقَبُ الذي خَلَعُه عليه رسول اللَّهِ ﷺ .

ورضي اللَّه عنه ونَوَّرَ له في قبره(*) .

---

(١) رفدَه : معونتَه وعطاءه .

(*) للاستزادة من أخبار طلحة بن عبيد اللَّه التيميِّ انظر :

١ ـ الطبقات الكبرى : ٣/١٥٢ .

٢ ـ تهذيب التهذيب : ٥/٢٠ .

٣ ـ البدء والتاريخ : ٥/١٢ .

٤ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ٢٣٠ .

٥ ـ غاية النهاية : ١/٣٤٢ .

٦ ـ الرياض النضرة : ٢/٢٤٩ .

٧ ـ صفة الصفوة : ١/١٣٠ .

٨ ـ حلية الأولياء : ١/٧ .

٩ ـ ذيل المذيَّل : ١١ .

١٠ ـ تهذيب ابن عساكر : ٧/٧١ .

١١ ـ المُحَبَّر : ٣٥٥ .

١٢ ـ رغبة الآمل : ٣/١٦ ، ٨٩ .

« حفظَ أبو هُرَيْرَة لأُمَّةِ الإسْلامِ ما يَزِيْدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَسِتّمائة حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللّه »

[المؤرّخون]

لا ريبَ في أنَّكِ تَعْرِفُ هذا النَّجْمَ المُتَأَلِّقَ من صَحابَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

وهَلْ في أمَّةِ الإسْلام أَحَدٌ لا يَعْرِفُ أبا هُرَيْرَةَ ؟

لقد كان الناسُ يَدْعُونه في الجاهليَّةِ « عَبْدَ شمْسٍ » ، فلمَّا أكْرَمَه اللَّهُ بالإسْلام وشَرَّفَه بلِقاءِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال له : (ما اسمُك ؟)

فقال : عَبْدُ شَمْس .

فقال عليه الصَّلاة والسَّلامُ : (بَلْ عَبْدُ الرَّحمٰنِ) .

فقال : نعم عَبْدُ الرَّحْمٰنِ ، بأبي أَنْتَ وأُمِّي[1] يا رَسولَ اللَّهِ .

أمَّا تَكْنِيَتُهُ بأبي هُرَيْرَةَ فَسَبَبُها أنه كانتْ له في طُفولَتِه هِرةٌ صغيرةٌ يَلْعَبُ بها ، فَجَعَلَ لِدَاتُه[2] ينادونَه : أبا هُرَيْرَة .

وشاعَ ذٰلك وذاع حَتَّىٰ غَلَبَ علىٰ اسْمِه .

فَلَمَّا اتَّصَلَتِ أسْبَابُه بأَسْبَاب رَسولِ اللَّهِ صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه جَعَلَ يُناديه كثيراً « بأبي هِرٍّ » إيناساً له وتَحَبُّباً ، فَصارَ يُؤْثِرُ « أبا هِرٍّ » على « أبي هريرةَ » ويقول :

(١) بأبي أنت وأمي : أي أفديك بأبي وأمي .
(٢) لداته : المماثلون له في السن ، وسموا كذلك لأنهم ولدوا في زمن واحدٍ .

نـاداني بها حبيبي رسولُ اللَّهِ .
والهِرُّ ذكرٌ ، والهُرَيْرَةُ أُنْثَىٰ ، والذكَرُ خيرٌ من الأُنْثَىٰ . . .

* * *

أسلم أبو هريرة على يدِ الطُّفَيْل بن عَمْرٍو الدُّوْسِيِّ[1] ، وظَلَّ في أَرْضِ قَوْمِه دَوْسٍ إلى ما بَعْدَ الهِجْرَةِ بِستِّ سنين حَيْث وَفَـدَ مَعَ جُموعٍ مِنْ قَوْمه عَلَىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمدينَةِ .

* * *

وقـد انْقَطَع الفَتَى الـدَّوْسِيُّ لِخِدْمَـةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وصُحْبَتِـهِ ، فاتَّخَـذَ المسجدَ مَقَاماً ، والنبيَّ مُعَلِّماً وإماماً ، إذْ لَمْ يَكُنْ لـه في حياةِ النَّبِيِّ زَوْجٌ ولا وَلَدٌ ، وإنَّما كانَتْ لَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ أصَرَّتْ على الشِّرْكِ فكان لا يَفْتَأُ[2] يَدْعوها إلىٰ الإسلامِ إشفاقاً عليها وبِرًّا بها ، فَتَنْفِرُ منه وتَصُدُّه .
فَيَتْرُكها والحُزْنُ عليها يَفْري فؤادَه فَرْياً .

وفي ذاتِ يومٍ دعاها إلى الإيمانِ بـاللَّه ورسولـه فَقَالَتْ في النبي عليـه الصلاةُ والسَّلامُ قَوْلاً أَحْزَنه وأمَضَّه[3] .
فَمَضَىٰ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو يَبْكي .
فقال له النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ : (ما يُبْكيك يا أبا هُرَيْرة ؟!) .
فقال : إني كنتُ لا أَفْتُرُ عَنْ دَعوَةِ أُمِّي إلىٰ الإسلام فتأبىٰ عليَّ .
وقد دَعَوْتُها اليَوْمَ فَأَسْمَعَتْني فيك ما أَكْرَه .
فادْعُ اللَّهَ جَلَّ وعَزَّ أنْ يُمِيلَ قلْبَ أمِّ أبي هريرة للإسْلامِ .
فَدَعا لها النبيُّ صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه .

قـال أبو هـريرة : فَمَضَيْتُ إلى البَيْتِ ؛ فـإذا البـابُ قَـدْ رُدَّ ، وسَمِعْتُ

---

(١) انظر سيرته في ص ١٥ . (٢) لا يفتأ : لا يَزال . (٣) أمَضَّه : أَوْجَعَه .

خَضْخَضَةَ الماءِ فلمّا هَمَمْتُ بالدخولِ قالت أمي :

مكانَكَ[1] يا أبا هريرة . . .

ثم لَبِسَتْ ثَوْبَها وقالت : أُدْخُلْ ؛ فَدَخَلْتُ فقالت : أَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلاَّ اللَّه وأَشْهَدُ أَنَّ محمداً عَبْدُه ورسولُه . . .

فَعُدْتَ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأنا أَبْكي من الفَرَحِ كما بكيتُ قَبْلَ ساعَةٍ من الحُزْنِ وقلت :

أَبْشِرْ يا رسولَ اللَّهِ . . . فقد اسْتَجابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وهَدَىٰ أُمَّ أبي هُرَيْرَةَ إلىٰ الإسلامِ . . .

* * *

وقَدْ أَحَبَّ أبو هريرَةَ الرسولَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه حُبًّا خالَطَ لَحْمَه ودَمَه . . .

فكان لا يَشْبَعُ من النَّظَرِ إليه ويقولُ :

ما رأيتُ شيئاً أَمْلَحَ ولا أَصْبَحَ[2] من رسول اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ لكأَنَّ الشمْسَ تَجْري في وَجْهِه . . .

وكان يَحْمَدُ اللَّهُ ـ تبارَك وتعالَىٰ ـ على أَنْ مَنَّ عليه بِصُحْبَةِ نَبِيِّه واتِّباع دينِهِ فيقول :

الحَمْدُ للَّهِ الذي هَدَىٰ أبا هُريرَةَ للإسْلامِ . . .

الحمدُ للَّهِ الذي عَلَّمَ أبا هريرةَ القرآنَ . . .

الحمدُ للَّهِ الذي مَنَّ علىٰ أبي هريرَة بصُحْبَةِ محمدٍ ﷺ . . .

* * *

---

(١) مكانك : اِلزَمْ مكانك ، أي لا تَدْخُلْ .

(٢) أملح : أجمل ، وأصْبَحَ : أكثر صباحَةً وإشراقاً .

وكما أولِعَ أبو هريرَةَ برسولِ اللَّهِ صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، فقد أولِعَ بالعِلْم وجَعَلَهُ دَيْدَنَهُ[1] وغايَةَ ما يَتَمَنَّاه .

حَدَّثَ زيدُ بنُ ثابتٍ[2] قال : بينما أنا وأبو هريرَة وصاحِبٌ لي في المَسْجِدِ نَدْعو اللَّهَ تعالىٰ ونذْكُره إذ طَلَعَ عَلَيْنا رَسولُ اللَّهِ ﷺ، وأقْبَلَ نَحْوَنا حَتَّىٰ جَلَسَ بَيْننا ، فَسَكتْنا ، فقال :

(عُودُوا إلىٰ ما كنتُم فيه) .

فَدَعَوْتُ اللَّهَ أنا وصاحبي - قَبْلَ أبي هريـرَة - وجَعَلَ الـرسولُ يُؤَمِّنُ على دعائِنا . . .

ثم دعا أبو هريرةَ فقال : اللَّهُمَّ إني أسْأَلُك ما سَأَلَكَ صاحِبايَ . . .
وأسألك عِلْماً لا يُنْسَىٰ . . .

فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (آمين) .

فقلنا : ونحنُ نَسْألُ اللَّهَ عِلْماً لا يُنْسَىٰ .

فقال : (سبَقَكُم بِها الغُلامُ الدَّوسيُّ) .

* * *

وكما أحَبَّ أبو هريرَة العلم لِنَفْسِه فَقَدْ أحَبَّه لِغيْرِه . . .

ومن ذلك أنَّه مَرَّ ذاتَ يَوْمٍ بِسُوقِ المدينَةِ فهالَه انْشِغالُ النّاسِ بالدُّنيا ، واسْتغْراقُهُمْ في البَيْعِ والشِّراءِ والأَخْذِ والعَطاءِ ، فوقَفَ عليهم وقال :

ما أعْجَزَكم يا أَهْلَ المدينَةِ !!

فقالوا : وما رأيتَ من عَجْزنا يا أبا هريرَة ؟!

فقال : مِيراثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَسَّم وأنْتُمْ ها هُنا . . . !
ألا تَذْهبون وتأخُذُونَ نصيبَكُمْ !!

---

(١) دَيْدَنَهُ : دأبه وعادته .

(٢) أنظر سيرتَه في ص ٣٥٤ .

قالوا : وأينَ هو يا أبا هريرَة ؟!

قال : في المَسْجِدِ .

فخَرَجوا سِراعاً ، وَوَقَفَ أبو هريرَة لهم حَتَّىٰ رجَعوا ؛ فلمَّا رأَوْه قالوا : يا أبا هريرَة لقد أَتَيْنَا المَسْجِدَ فَدَخَلْنا فيه فلم نَرَ شيئاً يُقْسَم .

فقال لهم : أوَما رأيتُم في المَسْجِدِ أحداً ؟!

قالوا : بَلَىٰ . . . رأيْنا قَوْماً يصلُّون ، وقَوْماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يَتَذاكرون في الحَلالِ والحَرامِ . . .

فقال : وَيْحَكُمْ . . . ذٰلك ميراثُ محمدٍ ﷺ .

***

وقَدْ عانَىٰ أبو هريرَةَ بِسَبَبِ انْصِرافِه لِلعِلْمِ ، وانْقِطَاعِه لمجالِس رسولِ اللَّهِ ما لم يُعانِه أحَدٌ من الجوعِ وخُشونَةِ العَيْشِ .

روَىٰ عن نفسِه قال : إنَّه كان يَشْتَدُّ بي الجوعُ حتى إنِّي كنتُ أسْأَلُ الرَّجُلَ من أصْحَابِ رسولِ اللَّهِ عن الآيةِ من القرآن ـ وأنا أعْلَمُها ـ كَيْ يَصْحَبَني مَعَه إلى بيته ؛ فيطعِمني . . .

وقد اشتدَّ بي الجوعُ ذاتَ يَوْمٍ حتَّى شدَدْتُ على بَطْني حَجَراً ، فَقَعَدْتُ في طريق الصَّحابةِ ، فَمَرَّ بي أبو بكرٍ فَسَأَلْتُه عن آيةٍ في كتابِ اللَّهِ وما سألْتُه إلَّا ليدعوَني ، فما دَعاني .

ثُمَّ مَرَّ بي عُمَرُ بنُ الخَطَّاب فسألْتَهُ عن آيَةٍ ؛ فلم يَدْعُنِي أيضاً حَتَّى مَرَّ بي رسولُ اللَّهِ ﷺ فعرف ما بي من الجوعِ فقال :

(أبو هريرة ؟!)

قلتُ : لَبَّيْكَ يا رسولَ اللَّهِ ، وتَبِعْتُهُ ؛ فَدَخَلْتُ معَه البيتَ فَوَجَدَ قَدَحاً فيه لَبَنٌ ، فقال لأَهْلِه :

(من أَيْنَ لكم هذا ؟!)

قالوا : أَرْسَلَ به فلانٌ إليك .

فقال : (يا أبا هريرةِ انْطَلِقْ إلى أَهْلِ الصُّفَّةِ[1] ، فادْعُهُمْ) .

فساءَني إرْسالُه إيَّايَ لِدَعْوَتهمْ ، وقلتُ في نَفْسي :

ما يَفْعَلُ هذا اللَّبَنُ مَعَ أهْلِ الصُّفةِ ؟!

وكنتُ أرجو أَنْ أنالَ مِنْه شرْبَةً أَتَقَوَّىٰ بها ، ثم أَذْهَبَ إليهم ؛ فأَتَيْتُ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَدَعَوْتُهُمْ ؛ فأقْبَلوا ، فلما جَلَسُوا عِنْد رسول اللَّهِ قال :

(خُذْ يا أباهريرة فأَعْطِهِم) ، فجعلتُ أُعطِي الرجُلَ فيشرَبُ حتى يَرْوَى إلى أَنْ شَرِبوا جميعاً ؛ فناوَلْتُ القَدَحَ لِرسول اللَّهِ ﷺ ، فَرَفَعَ رأسه إليّ مُبْتَسِماً وقال :

(بقيتُ أنا وأنْت) .

قلت : صَدقْتَ يا رسول اللَّه .

قال : (فاشْرب) ، فشربْتُ .

ثم قال : (اشْربْ) ، فَشَرِبْتُ . . .

وما زال يقـول : اِشْرَبْ ، فَأشْرَبُ حَتَّىٰ قلت :

والذي بَعَثَك بالحَقِّ لا أجدُ له مَساغاً[2] . . .

فأَخَذَ الإناءَ وشَرِبَ من الفَضْلَةِ . . .

* * *

لم يمض زَمَنٌ طويلٌ على ذلـك حتَّى فاضَتِ الخَيْـراتُ على المسلمين وتدفَّقَتْ عليهم غَنائِمُ الفَتْح ؛ فَصَارَ لأبي هريرةَ مـالٌ ، ومَنْزِلٌ ومتـاعٌ ، وَزَوْجٌ وولدٌ . . .

---

(١) أهل الصفة : ضيوف اللّه من فقراء المسلمين ممن لا أهل لهم ولا ولد ولا مال، فكانوا يجلسون على صُفَّةٍ في مسجدِ رسول اللّهِ فَسُمُّوا بأهل الصفة .

(٢) لا أجدُ له مَسَاغاً : لا أستطيع ابتلاعَه .

غير أنَّ ذلك كُلَّه لم يُغيِّرْ من نَفْسِه الكريمَةِ شيئاً ، ولم يُنْسِه أَيَّامَه الخالِيَةَ ؛ فكثيراً ما كان يقول :

نشأتُ يَتيماً ، وهاجَرْتُ مِسْكيناً ، وكنْتُ أجيراً لِبُسْرَةَ بنتِ غزوانَ بطَعَام بَطْني ، فكنْتُ أَخْدِمُ القَومَ إذا نَزَلوا ، وأَحْدو[1] لَهُمْ إذا رَكِبوا ؛ فزوَّجَنِيها اللَّهُ[2] . . .

فالحمدُ للَّه الذي جَعَلَ الدِّينَ قِواماً[3] وصَيَّر أبا هريرَة إماماً[4] .

* * *

وقد وَلِي أبو هريرة المدينةَ من قِبَلِ مُعاوِيَةَ بنِ أبي سفيانَ أَكْثَرَ من مرَّة ، فلم تُبَدِّل الوِلايَةُ من سَماحَةِ طَبْعِه ، وخِفَّةِ ظِلِّه[5] شيئاً . . .

فقد مَرَّ بأَحَدِ طُرُقِ المدينةِ ـ وهو والٍ عليها ـ وكان يَحْمِلُ الحَطَبَ على ظَهْرِه لأهلِ بيتِه ، فَمرَّ بِثَعْلَبَةَ بنِ مالِكٍ ، فقال له :

أَوْسِعِ الطريقَ للأميرِ يا بنَ مالِكٍ ، فقال له :

يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَمَا يَكْفيكَ هذا المجالُ كلُّه ؟! فقال له :

أَوْسِعِ الطَّريقَ للأميرِ ، ولِلْحُزْمَةِ التي على ظَهْرِه .

* * *

وقد جَمَعَ أبو هريرةَ إلى وَفْرَةِ عِلْمِهِ وسماحَةِ نَفْسِه التُّقَى والوَرَعَ ؛ فكان يصومُ النَّهارَ ، ويقومُ ثُلُثَ اللَّيْلِ ، ثم يوقِظُ زَوْجَتَه فتقومُ ثُلُثَه الثّاني ثم تُوقِظُ هذه ابنتَها فتقومُ ثلثَه الأخير . . .

---

(١) أحدو لهم : أسوق إبلهم .

(٢) فَزَوَّجنيها اللَّهُ : إشارةٌ إلى زواجه من بُسْرَة التي كان يخدم عندها .

(٣) قِوام الأمر : نظامه وعماده .

(٤) إشارة إلى ولايتِهِ على المدينة من قبل معاوية بـن أبي سفيان رضي اللَّه عنهما .

(٥) خِفَّةِ ظِلِّه : كنايةٌ عن عذوبة روحِه .

فكانتِ العِبادَة لا تَنْقَطِعُ في بيته طوال اللّيل . . .

* * *

وقد كانت لأَبِي هريرةَ جاريَةٌ زِنْجيةٌ[1] فَأَساءَتْ إليه ، وغَمّت أهْلَهُ ، فَرفَعَ السَّوْطَ عليْها لِيَضْرِبَها به ، ثم تَوَقَّفَ ، وقال : لولا القصَاصُ يَوْمَ القِيامَةِ لأوجَعْتُك كما آذَيْتِنا ، ولكنْ سأبيعُك مِمَّنْ يُوَفِّيني ثَمنَكِ وأنا أحْوَجُ ما أكونُ إليه . . .

اِذهبي فَأَنْتِ حُرَّة للّه عَزَّ وجلَّ . . .

* * *

وكانَتِ ابنَتُه تقول له : يا أَبَتِ إنَّ البناتِ يُعَيِّرْنَني ؛ فيقُلْنَ : لِمَ لا يُحَلِّيكِ أبوكِ بالذَّهَب ؟!

فيقول : يا بُنَيَّةُ ، قولي لَهُنَّ : إنَّ أَبِي يخشَىٰ علَيَّ حَرَّ اللَّهب[2] .

* * *

ولم يكن امْتِناعُ أبي هريرة عن تَحْلِيَةِ ابنَتِه ضنًّاً[3] بالمالِ أو حِرْصاً عليْه ؛ إذْ كان جواداً سَخِيَّ اليَدِ في سبيلِ اللّهِ .

فقد بَعَثَ إلَيْه مَرْوَانُ بنُ الحكم مائةَ دينارٍ ذهَباً ، فلمَّا كان الغَدُ أَرْسَلَ إليه يقول :

إنَّ خادِمِي غَلِطَ فأعْطاك الدَّنانيرَ ، وأنَا لم أُرِدْك بِها ، وإنَّما أردْتُ غيرَك ، فسُقِط[4] في يَدِ أبي هُرَيْرَةَ وقال :

أَخْرَجْتُها في سبيلِ اللّهِ ولم يَبتْ عِنْدِي منها دينارٌ ؛ فإذا خَرجَ عطائي[5] فَخُذْها منه .

---

(١) زنجيَّةٌ : من بلاد الزِّنْج ، وهم قوم من السودان .

(٢) حَرّ اللَّهب : أي حَرُّ لَهبِ جهنم .

(٣) ضناً بالمال : بخلاً بالمال .

(٤) سُقِطَ في يَدِ أبي هريرة : تَحَيَّرَ وندِم .

(٥) عطائي : حقِّي في بيتِ المال .

وإنَّما فَعَلَ ذلك مَرْوَانُ ليختبرَه ، فَلَمَّا تحرَّىٰ الأَمْرَ وَجَدَه صحيحاً .

* * *

وقد ظَلَّ أبو هريرَةَ ـ ما امْتَدَّتْ به الحياةُ ـ بَرًّا بِأُمِّه ، فكان كُلَّما أَرَادَ الخُروجَ من البَيْتِ وَقَفَ على بابِ حُجْرَتِها وقال :

السَّلامُ عليك يا أُمَّتاه ورحمةُ اللّهِ وبركاتُه .

فَتَقُول : وعليك السّلامُ يا بُنَيَّ ورحمةُ اللّهِ وبركاتُه .

فيقول : رَحِمَكِ اللّهُ كما رَبَّيْتِني صغيراً .

فتقول : ورَحِمَك اللّهُ كما بَرَرْتَني كبيراً .

ثم إذا عادَ إلى بيتهِ فَعَل مِثْلَ ذلك .

* * *

وقد كان أبـو هُرَيـرَةَ يَحْرِصُ أشـدَّ الحِرْصِ على دَعْـوَة النَّاسِ إلىٰ بِـرِّ آبائِهِمْ ، وصِلَةِ أَرْحامِهِم .

فقد رأىٰ ذات يَوْمٍ رَجُلَيْنِ أَحَدُهما أَسَنُّ[1] من الآخَرِ يَمْشِيان معاً ، فقال لأَصْغَرِهما :

ما يكون هذا الرَّجُلُ منك ؟

قال : أبي .

فقال له : لا تُسَمِّه باسمِه . . .

ولا تَمْشِ أمَامَه . . .

ولا تَجْلِسْ قَبْلَه . . .

* * *

ولما مَرِضَ أبو هُرَيْرَةَ مَرَضَ الموتِ بَكَىٰ . . .

---

(١) أسَنُّ : أكبَرُ سِنّاً .

فقيل له : ما يبكيك يا أبا هريرة ؟!

فقال : أما إنِّي لا أبكي على دنياكُمْ هذه . . .

ولٰكنَّني أبْكي لِبُعْدِ السَّفَرِ وقِلَّةِ الزَّادِ . . .

لقَدْ وقَفْتُ في نِهايَةِ طريقٍ يُفْضِي[1] بي إلى الجنَّةِ أو النَّارِ . . .

ولا أدْرِي . . . في أيِّهما أكون !!

وقد عادَه مروانُ بنُ الحكم فقال له : شفاكَ اللّٰهُ يا أبا هُرَيرَة .

فقال : اللَّهُمَّ إني أحِبُّ لِقَاءَك فأحِبَّ لِقائي وعَجِّلْ لي فيه . . .

فما كاد يغادِر مَرْوَانُ دارَه حَتَّى فارَقَ الحياة . . .

* * *

رَحِمَ اللّٰهُ أبا هُرَيرَةَ رَحْمَةً واسِعَةً ؛ فقد حَفِظَ للمسلمين ما يَزيدُ على ألْفٍ وستِّمِائَةٍ وتِسْعَةٍ من أحاديثِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ .

وجَزَاه عن الإسلامِ والمُسْلمين خيراً(*) .

---

(١) يُفْضِي بي : ينتهي بي .

(*) للاستزادة من أخبار أبي هريرة انظر :

١ ـ الإصابة (طبعة دار السعادة) : ١٩٩ ـ ٢٠٧ .

٢ ـ الاستيعاب (طبعة حيدر آباد الدكن) : ٦٩٧ ـ ٦٩٨ .

٣ ـ أسد الغابة : ٥/٣١٥ ـ ٣١٧ .

٤ ـ تهذيب التهذيب : ١٢/٢٦٢ ـ ٢٦٧ .

٥ ـ تقريب التهذيب : ٢/٤٨٤ .

٦ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ٢/٦٠٠ ـ ٦٠١ .

٧ ـ تجريد أسماء الصحابة : ٢/٢٢٣ .

٨ ـ حلية الأولياء : ١/٣٧٦ ـ ٣٨٥ .

٩ ـ صفة الصفوة : ١/٢٨٥ ـ ٢٨٩ .

١٠ ـ تذكرة الحفاظ : ١/٢٨ ـ ٣١ .

١١ ـ المعارف لابن قتيبة : ١٢٠ ـ ١٢١ .

١٢ ـ طبقات الشعراني : ٣٢ ـ ٣٣ .

١٣ ـ معرفة القراء الكبار : ٤٠ ـ ٤١ .

١٤ ـ شذرات الذهب : ١/٦٣ ـ ٦٤ .

١٥ ـ الطبقات الكبرى : ٢/٣٦٢ ـ ٣٦٤ .

١٦ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٣٣٣ ـ ٣٣٩ .

١٧ ـ البداية والنهاية : ١٠٣ ـ ١١٥ .

١٨ ـ أبو هريرة من سلسلة أعلام العرب لمحمد عجاج الخطيب .

سَلَمَةُ بنُ قَيسٍ الأَشْجَعِيُّ

قَضَىٰ الفارُوقُ لَيْلَتَهُ تِلْكَ سَهْرَانَ يَعُسُّ[1] في أَحْيَاءِ المَدِينَةِ لِيَنَامَ النَّاسُ مِلْءَ جُفُونِهِمُ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ .

وَكَانَ خِلَالَ تَطْوافِهِ بَيْنَ الدُّورِ والأَسْوَاقِ يَسْتَعْرِضُ في ذِهْنِهِ الأَنْجَادَ[2] الأَمْجَادَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ لِيَعْقِدَ[3] لِواحِدٍ مِنْهُمُ الرَّايَةَ على الجَيْشِ الذَّاهِبِ لِفَتْحِ الأَهْوَازِ[4] . . .

ثُمَّ ما لَبِثَ أَن هَتَفَ قائلاً : ظَفِرْتُ بِهِ . . . نَعَمْ ظفرت به إن شاءَ اللَّه . . .

ولما طَلَعَ عَلَيْهِ الصَّباحُ دَعَىٰ سَلَمَةَ بنَ قَيْسٍ الأَشْجَعِيَّ وقال له :

إنِّي وَلَّيْتُكَ على الجَيْشِ المُتَوَجِّهِ إلىٰ الأَهْوَازِ ، فَسِرْ باسْمِ اللَّهِ ، وقاتِلْ في سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ باللَّهِ ، وإذا لَقِيْتُم عَدُوَّكُم مِنَ المُشْرِكين فادْعُوهم إلىٰ الإسْلام ؛ فإنْ أَسْلَمُوا : فإمَّا أن يختاروا البَقَاءَ في ديارِهِمْ ولا يَشْتركوا معكُم في حَرْبِ غَيْرِهِم فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إلاَّ الزَّكاةُ ، ولَيْسَ لَهُمْ في الفَيْءِ[5] نَصِيبٌ .

---

(١) العس : السهر في الليل للحراسة .

(٢) الأنجاد : أصحاب النجدة والمروءة .

(٣) عقد الراية لفلان على الجيش : جَعَله قائداً له .

(٤) الأهواز : منطقة تقع في غربي إيران .

(٥) الفيء : ما يغنمه المسلمون من غنائم الحرب .

وإمَّا أَنْ يَخْتارُوا أَنْ يُقاتِلوا مَعَكُم فَلَهُم مِثْلُ الَّذِي لَكُم ، وَعَلَيْهِم مِثْلُ الذي عَلَيْكُم .

فإن أَبَوْا الإِسْلامَ فادْعُوهُم إلى إعْطاءِ الجِزْيَةِ[1] ، وَدَعُوهُم وشَأْنهُم ، واحْمُوهُم من عَدُوِّهِم ، ولا تُكَلِّفوهُم فَوْقَ ما يُطِيقون .

فإن أَبَوْا فَقَاتِلُوهُم ؛ فإِنَّ اللّهَ ناصِرُكُم عَلَيْهِم .

وإذا تَحَصَّنُوا بِحِصْنٍ ، ثُمَّ طَلَبُوا مِنْكُم أَنْ يَنْزِلوا على حُكْم اللّهِ ورسولِه فلا تَقْبَلُوا مِنْهُم ذلك ؛ فإِنَّكُم لا تَدْرُون ما حُكْمُ اللّهِ ورسولِه .

وإذا طَلَبُوا مِنْكُم أَنْ ينزِلُوا على ذِمَّةِ اللّهِ ورَسُولِهِ فلا تُعْطُوهُم ذِمَّةَ اللّهِ ورَسُولِه ، وإنَّما أَعْطُوهُم ذِمَمَكُم أَنتُمْ ، . . .

فإذا ظَفِرتُم في القِتَالِ فلا تُسْرِفوا ، ولا تَغْدُرُوا ، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تَقْتُلوا وَلِيداً . . .

فقال سَلَمَةُ : سَمْعاً وطَاعةً يا أميرَ المؤمنين . . .

فودَّعه عمرُ بحَرارةٍ ، وشدَّ على يديه بقوَّةٍ ، ودعا له بضَرَاعةٍ .

فلقد كان يُقدِّر ضَخامَةَ المهمَّةِ التي ألقاها على عاتقهِ وعاتِقِ[2] جنودِه .

ذلك لأن الأهواز مِنْطَقَةٌ جَبَلِيَّةٌ وعرةُ المسالِكِ ، حصينَةُ المعاقل ، واقِعَةٌ بَيْنَ البَصْرةِ وَتُخُوم فارسَ ، يَسْكُنُها قَوْمٌ أَشِداءُ مِنَ الأَكْرَادِ .

وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِين بُدٌّ مِنْ فَتْحِها أو السَّيْطَرَةِ عَلَيْها لِيَحْمُوا ظُهُورَهُم مِنْ هَجَمَاتِ الفُرْس على البَصْرَةِ ، وَيَمْنَعُوهُم مِنِ اتِّخاذِها مَيْداناً لِجُنُودِهِمْ فَتَتَعَرَّض سلامَةُ العِراقِ وأَمْنُهُ لِلْخَطَرِ . . .

* * *

(١) الجزية : ما يفرضه المسلمون على أهل الذِّمّة من المال لِقاءَ حِمايتهم .

(٢) العاتق : الكتف .

مضَىٰ سَلَمَةُ بنُ قَيْسٍ على رأس جيشِه الغازي في سبيلِ اللّهِ ؛ غَيْرَ أنَّهم ما كادوا يَتوَغَّلون[1] قليلاً في أرضِ الأهوازِ حتَّىٰ دخلوا في صراعٍ مريرٍ مع طبيعتِها القاسيةِ .

فقد طَفِقَ الجَيْشُ يُعاني مِنْ جِبالِها النَّخِرَةِ وهو مُصْعِدٌ[2] ويكابِدُ مِنْ مُسْتَنْقَعَاتِها المَوْبُوءَةِ وَهُوَ مُسْهِلٌ[3] .

ويُصَارِعُ أفاعِيَها القَاتِلَةَ وَعَقَارِبَها السَّامَّةَ يَقْظانَ نائِماً .

لكِنَّ رُوحَ سَلَمَةَ بنِ قَيْسٍ المُؤْمِنَةَ الشَّفَّافَةَ كانَتْ تُرَفْرِفُ بِأجْنِحَتِها فَوْقَ جُنْدِهِ ؛ فإذَا العَذَابُ عَذْبٌ وإذا الحَزْنُ[4] سَهْلٌ .

فلقَدْ كانَ يَتَخَوَّلُهُمْ[5] بِالْمَوْعِظَةِ التي تَهُزُّ نُفوسَهُم هَزًّا .

ويُتْرِعُ[6] لياليَهم بأرَجِ القرآنِ[7] . . .

فإذا هم مَغْمورون بضِيائهِ . . .

سابحون في لألائِه . . .

ناسون ما مسَّهُم من عناءٍ ونَصَبٍ . . .

* * *

اِمْتَثَلَ سَلَمَةُ بنُ قيسٍ لِأَمْرِ خليفةِ المسلمين ، فما إن التَقَىٰ بأهْلِ الأَهْوازِ حتى عَرَضَ عليهم الدُّخولَ في دِيْنِ اللّهِ ، فأعرَضوا ونفَروا . . .

فَدَعَاهُم إلىٰ إعْطَاءِ الجِزْيَةِ فَأَبَوْا واسْتَكْبَرُوا . . .

فَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ المُسْلمين غَيْرُ رُكُوبِ الأَسِنَّةِ[8] ، فَرَكَبُوهَا مُجاهِدِينَ في

---

(١) يتوغلون : يدخلون بعيداً .
(٢) مُصْعِد : صاعد .
(٣) مسهل : سائرٌ في السَّهل .
(٤) الحَزْن : بفتح الحاء الوَعْرُ .
(٥) يتخوَّلهم بالموعظة : يتعهَّدُهم بالموعظة حيناً بعد حين .
(٦) يترع : يملأ .
(٧) أرج القرآن : عطر القرآن وشذاه .
(٨) ركوب الأسنة : كناية عن الحرب .

سَبِيلِ اللّه ، رَاغِبين بما عِنْده مِنْ حُسْنِ الثَّوابِ . .

* * *

دَارَتِ المَعَارِكُ حَامِيَةَ اللَّظَىٰ مُسْتَطِيرَةَ الشَّرَرِ ، وَأَبْدَىٰ فيها الفريقَانِ مِنْ ضُرُوبِ البَسَالَةِ ما لَمْ تَشْهَدْ لَهُ الحُرُوبُ نظيراً إلاَّ في القليل النادر .

ثمَّ ما لَبِثَتْ أَنْ انْجَلَتِ المَعَارِكُ عَن نَصْرٍ مُؤزَّرٍ[1] لِلْمُؤْمنين المُجَاهِدين لإعلاء كلمة اللّه ، وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلْمُشْركين أَعْدَاءِ اللّهِ .

* * *

ولما وضَعَتِ الحربُ أوْزارَها[2] ؛ بادَرَ سلمةُ بنُ قيْسٍ إلى قِسْمةِ الغنائم بين جنودِه .

فوجد فيها حِلْيَةً نَفيسَةً ، فأَحَبَّ أن يُتْحِفَ[3] بها أميرَ المؤمنين ؛ فقال لجنودِه :

إنَّ هذه الحِلْيَةَ لو قُسِمَتْ بينكم لما فَعَلَتْ معكم شيئاً . . .

فهل تطيب أنفُسُكُم إذا بَعثْنا بها إلىٰ أميرِ المؤمنين ؟

فقالوا : نعم .

فَجعَلَ الحِلْيةَ في سَفَطٍ[4] ، ونَدَبَ رجلاً من قومه بني أشْجَعَ وقال له :

اِمضِ إلىٰ المدينةِ أنتَ وغلامُك ، وبَشِّرْ أميرَ المؤمنين بالفتح ، وأَطْرِفْهُ[5] بهذه الحِلْيةِ .

فكان للرجل الأشجعيِّ مع عمرَ بنِ الخطابِ خبرٌ فيه عِبَرٌ وعِظاتٌ . . .

---

(١) نصر مؤزَّر : نصر مبين .

(٢) وضعت الحرب أوزارها : انتهت وتوقفت .

(٣) يتحف بها أمير المؤمنين : يقدِّم له ما يجده بديعاً طريفاً .

(٤) السفط : صندوق صغير .

(٥) أطرفه : أتحفه .

فَلْنَتْرُكِ الكلامَ له ليرويَ لنا خَبَرَه بنفسِه .

قال الرجلُ الأشجعيُّ : مضيتُ أنا وغلامي إلى البَصْرَةِ فاشْتَرَيْنا راحِلتين مِمَّا أعطانا سلمةُ بنُ قيس ، وأوْقَرْناهما زاداً[١] .

ثم يَمَّمْنا وجهينا شطرَ[٢] المدينةِ ، فلما بلغناها ؛ نَشَدْتُ[٣] أميرَ المؤمنين فوجدتُه واقِفاً يُغَذِّي المسلمين وهو مُتَّكِيءٌ على عصاه كما يَصْنَعُ الرَّاعي .

وكان يدور عَلَىٰ القِصاع وهو يقول لِغُلامِه يَرْفأ :

يا يَرْفأُ زِدْ هؤلاء لَحماً . . .

يا يرفأُ زِدْ هؤلاء خبزاً . . .

يا يرفأُ زِدْ هؤلاء مَرَقاً . . .

فلما أقبلتُ عليه ؛ قال : اِجلس .

فجلستُ في أَدْنَىٰ الناسِ وقُدِّمَ لي الطَّعامُ فأَكَلْتُ .

فَلَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ طعامِهِمْ قَالَ : « يا يرفأ » اِرْفَعْ قِصَاعَكَ .

ثُمَّ مَضَىٰ فَتَبِعْتُهُ .

فَلَمَّا دَخَلَ دارَهُ استَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لي فإذا هُوَ جالِسٌ على رُقْعَةٍ مِنْ شَعْرٍ ، مُتَّكِيءٌ على وِسَادَتَيْن مِنْ جلدٍ مَحْشُوَّتَيْنِ ليفاً ، فَطَرَحَ لي إحدَاهُما فَجَلَسْتُ عَلَيْها .

وإذا خَلْفَهُ سِتْرٌ فالْتَفَتَ نَحْوَ السِّتْرِ وقال : يا أُمَّ كُلْثُومَ غَدَاءَنَا[٤] . . .

فَقُلْتُ في نَفْسي : ماذا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ طَعَامُ أَميرِ المؤمنين الّذي خَصَّ بهِ نَفْسَه ؟!

---

(١) أوقرناهما زاداً : حملناهما طعاماً وغيرَه مما يتزود به المسافر .

(٢) يممنا وَجْهيناً شَطْرَ المدينة : وجهنا وجهينا جَهَةَ المدينة .

(٣) نشدت أمير المؤمنين : طلبته وبحثت عنه .

(٤) غداءَنا : أي أعْطِنا غداءَنا .

فَنَاوَلَتْهُ خُبْزَةً بِزَيْتٍ عَلَيْها مِلْحٌ لَمْ يُدَقَّ . . .

فالْتَفَتَ إليَّ وقال : كُلْ ، فامْتَثَلْتُ وأَكَلْتُ قَلِيلاً .
وَأَكَلَ هُوَ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحداً أحْسَنَ مِنْهُ أَكْلاً .

ثم قال : اسْقونا فَجَاؤُوهُ بِقَدَحٍ فيه شَرَابٌ مِنْ سَويقِ[1] الشَّعِيرِ فقال :
أَعْطُوا الرَّجُلَ أوَّلاً ؛ فَأَعْطُوني .

فأَخَذْتُ القَدَحَ فَشَرِبْتُ مِنْه قَليلاً ؛ إذْ كانَ سَويقِي أَطْيَبَ مِنْهُ وأَجْوَدَ .

ثُمَّ أَخَذَهُ فَشرِبَ مِنْهُ حَتَّى رَوِيَ ثم قال : الحمدُ للّهِ الذي أطْعَمَنا فأَشْبَعَنَا وسَقَانَا فأرْوَانَا .

عند ذلك التفتُّ إليه وقلتُ : جئتُك بِرِسالَةٍ يا أمير المؤمنين .
فقال : من أَيْنَ ؟
فقلت : من عندِ سَلَمَةَ بنِ قَيْسٍ .
فقال : مرْحباً بِسَلمةَ بنِ قيسٍ ، ومرحباً بِرَسولِه . . .
حدِّثْني عن جيشِ المسلمين . . .

فقلت : كما تحبُّ يا أميرَ المؤمنين . . . السَّلامَةُ ، والظَّفَرُ على عدوِّهم وعدوِّ اللّهِ .

وبشَّرْتهُ بالنَّصْرِ ، وأخبرتُه خبَرَ الجيش جُمْلَةً وتفصيلاً .

فقال : الحمد للّهِ . . . أَعْطَىٰ فتفضَّل ، وأَنْعَمَ فأجْزَلَ[2] .
ثم قال : هل مررتَ بالبَصْرَةِ ؟
فقلت : نعم يا أميرَ المؤمنين .
فقال : كيف المسلمون ؟

---

(١) سويق الشعير : نقيع الشَّعير .

(٢) أجزل : أكثر .

فقلت : بخيرٍ من اللّهِ .

فقال : كيف الأسعارُ ؟

فقلت : أسعارُهم أَرْخَصُ أسعارٍ .

فقال : وكيف اللحمُ ؟ فإنَّ اللحمَ شجرَةُ العربِ ، ولا تَصْلُحُ العربُ إلّا بِشَجَرتها .

فقلت : اللحمُ كثيرٌ وفيرٌ .

فالتفتَ إلىٰ السَّفَطِ الذي معي وقال : ما هذا الذي بيدك ؟!

فقلت : لما نَصَرَنا اللّهُ على عدوِّنا جَمَعْنا الغنائِمَ فرأىٰ سَلَمَةُ فيها حِلْيَةً ، فقال للجُندِ : إنَّ هذه لو قُسِمَتْ عليكم لما بَلَغَتْ منكم شيئاً . . . فهل تَطيبُ نفوسُكم إذا بَعَثْتُ بها لأمير المؤمنين ؟

فقالوا : نعم .

ثم دَفَعْتُ إليه بالسَّفَطِ . . .

فلما فتحَه ونظرَ إلىٰ الفُصُوصِ [1] التي فيه من بَيْنِ أحْمَرَ وأَصْفَرَ وأَخْضَرَ ، وَثَبَ مِنْ مَجْلسِهِ ، وَجَعَلَ يَدَه في خاصِرَتِه وأَلْقَىٰ بالسَّفَطِ على الأَرْضِ فانْتَثَر ما فيه ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمالِ .

فَظَنَّ النِّساءُ أنِّي أُريـدُ اغْتِيَالَـهُ ، فَأَقْبَلْنَ نَحْـوَ السِّتْرِ . . . ثم التفتَ إليَّ وقال : اِجْمَعْه . . .

وقَالَ لِغُلامِهِ يَرْفأ : اِضرِبْهُ وأَوْجِعْه . . .

فَجَعَلْتُ أَجْمَعُ ما انْتَثَرَ مِنَ السَّفَطِ ، وَيَرْفأُ يَضْرِبُني .

ثم قال : قُمْ غَيْرَ مَحْمُودٍ لا أنْت ولا صَاحِبُك .

فَقُلْتُ : إئْذَنْ لي بِمَرْكَبٍ يَحمِلُني أنَا وغُلامي إلى الأَهْـوازِ ، فقد أَخَـذَ

---

(١) الفصوص : الأحجار الكريمة التي توضع في الحلي .

غلامُك راحلتي .

فقال : يا يَرْفَأُ أَعْطِهِ راحِلَتَيْن مِنْ إبل الصَّدَقَة له ولِغلامِه .

ثم قالَ لي : إذا قَضَيْتَ حاجَتَكَ مِنْهما ، وَوَجَدْتَ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ لهما مِنْك فادْفَعْهما إليه .

قلت : أَفْعَلُ يا أميرَ المؤمنين . . . نَعَمْ أَفْعَلُ إنْ شاءَ اللّهَ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إليَّ وقال : أَمَا واللّه لَئِن تَفَرَّقَ الجُنْدُ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَ فيهم هذا الحُلِيُّ لأَفْعَلَنَّ بِكَ وبِصاحِبِك الفاقِرَةَ(١) .

فَمَضَيْتُ مِنْ تَوِّي حَتَّى أَتَيْتُ سَلَمةَ وقلت : ما بارَكَ اللّهُ لي فيما اخْتَصَصْتَنِي به . . .

اِقْسِمْ هذا الحُلِيَّ في الجُنْدِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَ بي وَبِكَ داهِيَةٌ(٢) .
وَأَخبرتِهِ الخبر . . .
فما غادَرَ مَجْلِسَه إلاَّ بَعْدَ أَنْ قَسَمَهُ فِيهِمْ(*) .

(١) الفاقِرة : الداهية الشديدة كأنَّها تكسِر فقار الظَّهْر .
(٢) داهية : مُصيبة .
(*) للاستزادة من أخبار سلمة بن قيس الأشجعي انظر :
١ ـ الإصابة : ٢/٧ .
٢ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/٨٩ .
٣ ـ أسد الغابة : ٢/٤٣٢ .
٤ ـ تهذيب التهذيب : ٤/١٥٤ .
٥ ـ معجم البلدان ١/٢٨٤ عند الكلام على الأهواز .
٦ ـ حياة الصحابة : ١/٣٤١ .
٧ ـ قادة فتح فارس لمحمود شيت خطَّاب .

مُعاذ بن جَبل

(أَعلَمُ أُمَّتي بالحَلَالِ وَالحَرَام
مُعاذُ بنُ جَبَل)
[محمد رسول اللّه]

لما أَشْرَقَتْ جزيرةُ العَرَبِ بنور الهُدَىٰ والحقِّ ، كان الغلامُ اليَثْرِبيُّ[1] مُعَاذُ ابنُ جَبلٍ فتىً يافِعاً .

وكان يَمْتازُ من أَتْرابِه بِحِدَّة الذَّكاءِ ، وقُوَّةِ العارِضَةِ[2] ، ورَوْعَـةِ البَيَانِ ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ .

وكان إلىٰ ذلك ، قسيماً وسيماً[3] أَكْحَلَ العينِ جَعْدَ الشَّعْرِ بَرَّاقَ الثنايا ، يَمْلأُ عين مُجْتَلِيه[4] ويملكُ عليه فؤادَه .

أَسْلَمَ الفَتَىٰ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ على يَدَي الدَّاعيةِ المَكِّيِّ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ . وفي ليلةِ العَقَبَةِ امتدَّت يدُهُ الفَتِيَّةُ فصافَحَتْ يَدَ النبي الكريم وبايَعَتْه . . .

فَقَدْ كانَ مُعاذٌ مَعَ الرَّهْطِ الاثْنَيْنِ والسَّبعين الذين قَصَدُوا مَكَّةَ ، لِيَسْعَدوا بِلِقاءِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ويَشْرُفوا بِبَيْعَتِهِ ، ولِيَخُطُّوا في سِفْر التَّارِيخِ أَرْوَعَ صَفْحةٍ وأَزْهاها . . . .

* * *

(١) اليَثْرَبيُّ : نسبة إلى يثرب ، وهي المدينة المنورة .
(٢) قوَّة العارضَة : قوَّة البديهة وروعة البيان .
(٣) قسيماً وسيماً : بهي الطلعة جميل الملامح .
(٤) مجْتَلِيه : الناظِر إليه .

وما إنْ عادَ الفَتَى من مَكَةَ إلىٰ المدينَةِ حَتَّى كَوَّنَ هو ونَفَرٌ صَغِيرٌ من لِدَاتِه جماعةً لِكَسْرِ الأَوْثانِ ، وانْتِزاعِها من بُيُوتِ المُشركين في يَثْرِبَ في السرِّ أَوْ في العَلَنِ . وكان من أَثَرِ حَرَكَةِ هؤلاء الفِتْيانِ الصِّغار أَنْ أَسْلَمَ رَجُلٌ كبيرٌ من رجالاتِ يَثْرِبَ ، هو عمرُو بنُ الجموح[1] .

****

كان عمرُو بنُ الجَموحِ سَيِّداً من ساداتِ بني سَلَمَةَ ، وشريفاً من أشرافِهِمْ .

وكان قد اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ صَنَماً من نفيسِ الخَشَبِ كما كان يَصْنَعُ الأَشْرافُ .

وكان شَيْخُ بني سَلَمَةَ يُعْنَىٰ بصَنَمِه هذا أَشَدَّ العِنَايَةِ فيُجلِّله بالحَريرِ ، ويُضَمِّخُه[2] كلَّ صَباحٍ بالطِّيب .

فقام الفِتْيانُ الصِّغارُ إلىٰ صَنَمِه تَحْتَ جُنْحِ الظَّلام وحَمَلوه مِنْ مَكَانِه ، وخَرَجوا بِهِ إلىٰ خَلْفِ مَنازِل بنِي سَلَمَةَ ، وأَلْقَوْه في حُفْرَةٍ كانَتْ تُجْمَعُ فيها الأقذار . . .

فلمَّا أصْبَحَ الشَّيخُ افتَقَدَ صَنَمَه فلم يَجِدْه ، وَبَحَثَ عَنْه في كُلِّ مكانٍ حَتَّى أَلْفاهُ مُكِبًّا على وَجْهِهِ في الحُفْرَةِ غارِقاً في الأقذارِ فقال : وَيْلَكُمْ من عَدا على إلٰهِنا في هذه اللَّيْلةِ ؟! .

ثم أَخْرَجَهُ وغَسَله ، وطَهَّرَه ، وطَيَّبَهُ ، وأعادَه إلىٰ مكانِه ، وقال له :

أَيْ « مناةُ »[3] ، واللّهِ لو أني أَعْلَمُ من صَنَعَ بِكَ هذا لأَخْزَيْتُه . . .

---

(١) انظر سيرة عمرو بن الجموح في ص ٧٣ .

(٢) يُضَمِّخه : يَدْهنه ويطيِّبه .

(٣) أيْ مَناة : يا مناة ، وهو اسم صَنَمِه .

فلمَّا أمْسَىٰ الشيخُ ونامَ تسلَّل الفِتْيَةُ إلىٰ صَنمِه وفعلوا به ما فَعلوه في اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ . . .

فما زالَ يَبْحَثُ عَنْهُ حَتَّى وَجَدَه في حُفْرَةٍ أخْرَى من تِلك الحُفَر . . .

فأخْرَجَه وغَسَلَه وطَهَّرَه وعَطَّرَه وَتَوَعَّدَ[1] من عَدَوْا عليه أشَدَّ الوعيد . . .

فلمَّا تكرَّرَ ذلك مِنْهُمْ استَخْرجَه من حَيْثُ أَلْقَوْه ، وغَسَلَه . .

ثُمَّ جاء بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَه عليه وقال يخاطِبُه :

واللَّهِ إني ما أَعْلَمُ من يَفْعَلُ بِكَ هذا الذي تَراه . . .

فإن كان فيك خيرٌ ـ يا مناةُ ـ فادْفَعْ عن نَفْسِك . .

وهذا السَّيْفُ مَعَك . . .

فلمَّا أمْسَىٰ الشَّيْخُ ونام ، عَدَا الفتْيَةُ على الصَّنَمِ ، وأخذوا السَّيْفَ المُعَلَّقَ في رَقَبَتِهِ . . .

وربطوه بِعُنُقِ كَلْبٍ مَيِّتٍ وأَلْقَوْهما في حُفْرَةٍ مِن تِلك الحُفَرِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الشيخُ جَدَّ في طلبِ صَنَمِهِ حتى وَجَدَه مُلْقىً بين الأَقْذارِ مقروناً بكلبٍ مَيِّتٍ مُنَكَّساً على وجهه .

عِنْدَ ذٰلِكَ نَظَرَ إليه وقال :

تــاللَّهِ لــو كُنْـتَ إلهــاً لـم تَكُـنْ   أنْتَ وكَلْبٌ وَسْطَ بِئْـرٍ في قَـرَنْ[2]

ثم أسلم شيخُ بني سَلمةَ وحَسُنَ إسلامُه .

* * *

(١) تَوَعَّدَه : أنذره بالشَّرِّ .

(٢) في قَرَن : أي مربوطاً معه في حبلٍ واحدٍ .

ولما قَدِمَ الرسولُ الكريمُ على المدينةِ مهاجِراً ، لَزِمَه الفَتَىٰ معاذُ بنُ جَبَلٍ مُلازَمَةَ الظِلِّ لِصَاحِبِه ، فأَخَذَ عنه القُرآنَ ، وتَلَقَّى عليه شَرَائِعَ الإِسْلام ، حَتَّى غَدا من أَقْرَأ الصَّحَابَةِ لِكِتاب اللَّهِ ، وأَعْلَمِهم بِشَرْعِه . . .

حَدَّث يَزيدُ بنُ قُطَيْبٍ قال : دَخَلْتُ مَسْجِدَ حِمْصَ فإذا أنا بِفَتىً جَعْدِ الشَّعْرِ[1] ، قد اجتَمَعَ حَوْلَه النَّاس .

فإذا تكلَّم كأنَّما يَخْرُجُ من فيه نورٌ ولُؤلؤٌ .

فقلتُ : من هذا ؟!

فقالوا : معاذُ بنُ جبل .

* * *

ورَوَى أبو مسلم الخَوْلانِيُّ[2] قال : أَتَيْتُ مسجِدَ دِمَشْقَ ؛ فإذا حَلْقَةٌ[3] فيها كهولٌ من أَصْحَابِ محمدٍ ﷺ .

وإذا شابٌّ فيهم أَكْحَلُ العَيْنِ بَرَّاق الثنايا ، كلَّما اخْتَلَفُوا في شيءٍ ردُّوه إلىٰ الفَتَى ؛ فقلت لِجَليسٍ لي :

من هذا ؟!

فقال : معاذ بنُ جبل .

* * *

ولا غَرْوَ[4] فمعاذٌ رُبِّيَ في مَدْرَسَةِ الرسولِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه مُنْذُ نعومَةِ الأظْفارِ[5] وتَخَرَّج على يَدَيْهِ فنهل العلمَ من ينابيعِه الغزيرَةِ .

---

(١) جَعْدُ الشعر : ذو شعر أَجْعَد وضِدُّه : سَبْط الشَّعْر .

(٢) أبو مسلم الخولاني : أحد كبار التابعين وهو من اليمن .

(٣) الْحَلْقة : مجلس العلم ، وكانوا يتحلَّقون في هذه المجالِس حَوْلَ الشيخ .

(٤) لا غرو : لا عَجَب .

(٥) نعومة الأظفار : كناية عن صغر السِّنِّ لأن الصغير تكون أظفاره ناعمة .

وأخَذَ المَعْرِفَةَ مِنْ مَعِينِها الأصيل ، فكان خيرَ تِلْميذٍ لِخَيْرِ مُعَلِّمٍ .

وحَسْبُ[1] معاذٍ شهادَةً أن يقولَ عنه الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه : (أَعْلَمُ أمَّتي بالحَلال والحَرَام مُعاذُ بنُ جَبَلٍ) ، وحَسْبُه فضلاً عَلَىٰ أمَّةِ مُحَمَّدٍ أنَّهُ كان أَحَدَ النَّفَر الستَّةِ الذين جَمَعُوا القرآنَ عَلَى عَهْدِ رسول اللّهِ صَلَوَاتُ اللّهُ وسلامُه عليه .

ولذا كان أصْحَابُ الرَّسُول إذا تَحَدَّثوا وفيهم مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ نَظَروا إلَيْهِ هَيْبَةً له وتَعْظِيماً لِعِلْمِهِ.

***

وقد وَضَعَ الرَّسولُ الكريمُ وصاحِبَاهُ من بَعْدِه هذه الطَّاقَةَ العلميةَ الفريدَةَ في خِدْمةِ الإسلام والمُسْلِمين.

فهذا هُوَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَرَىٰ جُموعَ قُرَيْشٍ تَدْخُل في دينِ اللّهِ أَفْواجاً ، بعد فَتْح مَكَّةَ .

ويَشْعُرُ بِحَاجَةِ المُسْلِمين الجُدُدِ إلَىٰ مُعَلِّمٍ كبيرٍ يُعَلِّمُهُمُ الإسْلامَ ، ويُفَقِّهُهُم بِشَرائِعِهِ ، فَيَعْهَدُ بِخِلَافَتِهِ على مَكَّةَ لِعَتَّابِ بن أُسَيْدٍ ، ويَسْتَبْقي مَعَهُ مَعاذَ ابنَ جَبَلٍ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ القرآنَ ويفقِّهَهُمْ في دِينِ اللّهِ.

***

ولَمَّا جاءَتْ رُسُلُ ملوكِ اليَمَنِ إلىٰ رسولِ اللّهِ صَلَوَاتُ اللّهِ عليه ، تُعْلِنُ إسْلامَها وإسْلامَ مَن ورائها، وتَسْأَلُه أنْ يَبْعَثَ مَعَها من يُعَلِّمُ النَّاسَ دينَهم انتَدَب لهذه المُهِمَّةِ نَفَراً من الدُّعاة الهداةِ من أصْحَابِه وأمَّرَ عليهم مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ.

---

(١) حسْب معاذ شهادة : يكفيه شهادة .

وقَدْ خَرَجَ النبيُّ الكريمُ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه يودِّعُ بَعْثَةَ الهُدَىٰ والنور هذه . . .

وطَفِقَ يَمْشِي تَحْتَ راحِلَةِ مُعاذٍ . . . ومُعاذٌ راكِبٌ. . .
وأطالَ الرَّسُولُ الكريمُ مَشْيَه مَعَه ؛ حَتَّىٰ لكأنَّه كـان يريـدُ أنْ يَتَمَلَّىٰ من معاذٍ . . .

ثم أوصاه وقال له :(يا مُعاذ إنَّك عَسَىٰ ألاَّ تَلْقاني بَعْدَ عامِي هذا . . .
ولعلَّكَ أنْ تَمُرَّ بِمَسْجدي وقَبْرِي. . .)

فَبَكَىٰ معاذٌ جَزَعاً لِفراقِ نَبِيِّه وحَبيبِه محمدٍ صَلَواتُ اللّهِ عليه ، وبَكَىٰ مَعَهُ المُسلمون.

* * *

وصَدَقت نُبُوءَةُ الرسولِ الكريم فما اكتَحَلَتْ عَيْنا مُعَاذٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بِرُؤْيَةِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ بَعْدَ تلكَ السَّاعَةِ. . .

فَقَدْ فَارقَ الرسولُ الكريمُ الحياةَ قَبْلَ أنْ يَعودَ مُعاذٌ مِنَ اليَمَنِ.
ولا رَيْبَ في أَنَّ مُعَاذاً بَكَىٰ لَمَّا عادَ إلى يَثْرِب فألفاها(١) قد أَقْفَرَتْ من أُنْسِ حبيبِه رسولِ اللّهِ.

* * *

ولمَّـا وَلِيَ الخِلافَةَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عنه ؛ أَرْسَلَ مُعاذاً إلى بني كِلابٍ ليقسِمَ فيهم أعْطِياتِهم، ويُوَزِّعَ على فقرائِهم صَدَقاتِ أغنيائِهم، فقام بما عُهِدَ إلَيْه مِنْ أَمْرٍ ، وعاد إلى زَوْجِه بِحِلْسِهِ(٢) الذي خَرَج به يَلُفُّه على رَقَبَتِهِ ،

---

(١) فألفاها : فَوَجَدَها .
(٢) الحِلْسُ : ما يوضع على ظَهْرِ الدابَّة تحت السَّرْج .

فقالت له امرأتُه : أين ما جِئْتَ بِهِ مِمَّا يأتي به الوُلاةُ من هَدِيَّةٍ لأهلِيهم؟!.

فقال : لَقَدْ كان مَعِي رَقيبٌ يَقِظٌ يُحْصِي عَلَيَّ[1] ، فقالت :
قد كُنْتَ أميناً عِنْدَ رَسولِ اللّهِ ، وأبي بكرٍ ، ثم جاء عمرُ فَبَعَثَ مَعَكَ رَقيباً يُحْصِي عليك ؟!!.

وأَشَاعَتْ ذلك في نِسْوَة عُمَرَ ، واشْتَكَتْه لَهُنَّ . . .

فَبَلَغَ ذلك عُمَرَ ؛ فَدَعَا مُعاذاً وقال : أأنا بَعَثْتُ مَعَكَ رقيباً يُحْصي عليك ؟!.

فقال : لا يا أميرَ المؤمنين ، ولكِنَّني لم أَجِدْ شيئاً أعْتَذِرُ بِه إليها إلاَّ ذَلِك . . .

فَضَحِكَ عمرُ رضْوانُ اللّهِ عليه ، وأعْطاه شيئاً وقال له :
أرضِها به . . .

* * *

وفي أيام الفاروق أَرْسَلَ إليه والِيه على الشَّامِ يزيدُ بنُ أبي سُفْيَانَ يقول :

يا أميرَ المؤمنين ، إن أَهْلَ الشَّامِ قد كَثُرُوا وملؤوا المَدَائِنَ ، واحْتَاجُوا إلى من يُعَلِّمُهُم القُرآنَ ويفقِّهُهُم بالدِّينِ فَأَعِنِّي يا أميرَ المُؤْمِنين بِرِجالٍ يُعَلِّمونَهُمْ ؛ فَدَعا عمر النَّفَرَ الخمْسَة الذينَ جَمعوا القرآنَ في زَمَنِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وهم : معاذ بنُ جَبَلٍ وعُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ وأبو أيوبَ الأنصاريُّ[2] وأُبيُّ بنُ كعبٍ وأبو الدَّرداء[3] وقال لهم :

---

(١) يريد بالرقيب اللّهَ جَلَّ وعزَّ على سبيلِ التورية .
(٢) انظر سيرته في ص ٦٤ .
(٣) انظر سيرَته في ص ٢٠٣ .

إنَّ إخْوَانَكُمْ من أهل الشَّامِ قد استَعَانوني بِمَنْ يُعَلِّمُهم القُرْآنَ ويفقِّهُهُمْ في الدِّينِ فأعينوني - رَحِمَكُم اللَّهُ - بثلاثةٍ منكم ؛ فإنْ أَحْبَبْتُم فاقْتَرِعوا وإلاَّ انْتَدَبْتُ ثلاثَةً منكم .

فقالوا : ولِمَ نَقْتَرِعُ ؟

فأبو أيُّوبَ شيخٌ كبيرٌ ، وأُبَيٌّ رَجُلٌ مَرِيضٌ ، وبَقينا نحنُ الثلاثَةُ ، فقال عمر :

اِبْدَؤوا بِحِمْصَ فإذا رضيتُمْ حالَ أَهْلِها ؛ فَخَلِّفُوا أَحَدَكُمْ فيها وَلْيَخرُجْ واحِدٌ مِنْكُمْ إلىٰ دِمَشْقَ ، والآخرُ إلى فِلَسْطينَ .

فقام أصحابُ رسولِ اللَّهِ الثلاثةُ بما أمَرَهم به الفاروقُ في حِمْصَ . . .

ثم تركوا فيها عُبادَةَ بنَ الصَّامِتِ ، وذَهَبَ أبو الدَّرداء إلى دِمشْقَ وَمَضَىٰ مُعاذ بنُ جَبَلٍ إلىٰ فِلَسْطينَ .

* * *

وهناك أصيبَ معاذٌ بالوَبَاءِ .

فلما حَضرَتْه الوفاةُ اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ وجَعَلَ يردِّدُ هذا النشيد :

مَرْحباً بالموت مرحباً . . .

زائِرٌ جاءَ بَعْدَ غِياب . . .

وحبيب وَفَدَ على شَوْق . . .

ثم جعل ينظر إلى السماء ويقول :

اللَّهُمَّ إنَّك كنتَ تَعْلَمُ أنِّي لم أَكُن أُحِبُّ الدُّنْيا وطولَ البَقَاءِ فيها لِغَرْسِ الأَشجارِ ، وجَرْيِ الأنْهارِ . . . .

ولٰكِنْ لظَمَأ الهواجِر ، ومكابَدَةِ السَّاعات ، ومزَاحَمَة العلماءِ بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكر . . .

اللَّهُمَّ فَتَقَبَّل نَفسِي بِخَيْرِ ما تَتَقَبَّلُ به نَفْساً مُؤْمِنَةً .

ثم فاضت روحُه الطَّاهِرَةُ بعيداً عن الأهل والعشيرِ داعِياً إلى اللَّهِ ، مهاجِراً في سبيله(*) .

(*) للاستزادة من أخبار معاذ بن جبل انظر :

١ ـ الإصابة : ٣/٤٠٦ .
٢ ـ الاستيعاب : (تحقيق البجاوي) : ٣/١٤٠٢ .
٣ ـ أسد الغابة : ٤/٣٧٤ .
٤ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٣١٨ .
٥ ـ الطبقات الكبرى : ٣/٥٨٣ .
٦ ـ حلية الأولياء : ١/٢٢٨ .
٧ ـ صفة الصفوة : ١/١٩٥ .
٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات : ٢/٩٨ .
٩ ـ تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٢٤ .
١٠ ـ الجمع بين رجال الصحيحين : ٢/٤٨٧ .
١١ ـ سير أعلام النبلاء : ١/٣١٨ .
١٢ ـ البداية والنهاية : ٧/٩٤ .
١٣ ـ دول الإسلام : ١/٥ .
١٤ ـ تهذيب التهذيب : ١٠/١٨٦ .
١٥ ـ وفيات الأعيان .
١٦ ـ جمهرة الأولياء : ٢/٤٨ .
١٧ ـ طبقات فقهاء اليمن : ٤٤ .
١٨ ـ البدء والتاريخ : ٥/١١٧ .
١٩ ـ الزهد ، لأحمد بن حنبل : ١٨٠ .
٢٠ ـ تذكرة الحفَّاظ : ١/١٩ .
٢١ ـ المعارف لابن قتيبة : ١/١١١ .
٢٢ ـ أصحاب بدر (منظومة للشيخ حسين الغلامي) : ٢٠٤ .
٢٣ ـ حياة الصحابة (انظر الفهارس في الرابع) .

فهرس ألفبائي للصحابة

محتوى الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة